قيد الأوابد
في آداب طالب العلم من الغرر الفوائد

تأليف

أبي حفص الأثري
أحمد بن محمد بن يوسف

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (١)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (٢)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ (٣)

أَمَّا بَعْدُ:

---

(١) [آل عمران: ١٠٢].

(٢) [النساء: ١].

(٣) [الأحزاب: ٧٠-٧١].

فَإِنَّ خَيْرَ الكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ؛ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكَلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.» (٤)

فهذه شذرات يسيرة ولكنها عدة وذخيرة من بين ركام المحابر والدفاتر اسميتها بـ

"قيد الأوابد في آداب طالب العلم من الغرر الفوائد"

وكنت قد تعرضت لشيء من ذلك في دورس المصطلح وكتبت جزءاً لطيفاً بعنوان:

"الباعث الحثيث بآداب طالب الحديث"

وقد نشر في التاسع عشر من شهر جمادى الآخرة لعام ثلاث وثلاثين وأربعمائة وألف، من هجرة سيد ولد آدم ﷺ العاشر من شهر مايو لعام اثني عشر وألفين من التأريخ الميلادي.

ثم درَّستُ عدة كتب منها:

"الباعث الحثيث"

و"نخبة الفكر"

و"الموقظة"

و"غرامي صحيح"

---

(٤) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٣٣٧٠) ومسلم برقم (٤٠٦).

و"البيقونية"

و"المنهل الروى"

وغيرهم، وفي أكثرها كنت أتعرضُ لشيء من آداب الطالب، حتى تجمع لدي قدرٌ لا بأس به من التراجم العملية على جملة من الآداب لطالب العلم فنقحتها ورتبتها وزبرتها وزدت عليها أشياء صالحة تصلح لهذا الغرض وسميتها:

"قيد الأوابد في آداب طالب العلم من الغرر الفوائد"

أرجو الله أن ينفعني وإخواني من طلاب العلم بها، وأن يجعلها ذخراً لي بين يديه ونعم عين يوم العرض عليه إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وبابين وخاتمة:

المقدمة تكلمت فيها عن شيء من عز أمتنا التليد وأنه نيل بالأدب والعلم.

الباب الأول: وفيه فصلان:

الفصل الأول: الترحيب بطلاب العلم.

الفصل الثاني: شرف الطلب.

الباب الثاني وفيه فصلان:

الفصل الأول: شرف الأدب.

الفصل الثاني: آداب طالب العلم وفيه إحدى وعشرون مبحثاً:

المبحث الأول: الإخلاص.

المبحث الثاني: العمل.

المبحث الثالث: الجد والاجتهاد في تحصيل العلم.

المبحث الرابع: الصبر على مشقة طلب العلم، والحرص عليه.

المبحث الخامس: الرحلة في طلب العلم.

المبحث السادس: التحلي بالأدب.

المبحث السابع: اغتنام الصغر والصبا والشباب.

المبحث الثامن: اغتنام الأوقات.

المبحث التاسع: إتقان الحفظ.

المبحث العاشر: تقييد العلم بالكتابة.

المبحث الحادى عشر: عشق الدفاتر والنهم بها.

المبحث الثاني عشر: إعارة الكتب.

المبحث الثالث عشر: التواضع وخفض الجناح.

المبحث الرابع عشر: التلقي عن الأشياخ.

المبحث الخامس عشر: توقيرالشيخ.

المبحث السادس عشر: التدرج في الطلب.

المبحث السابع عشر: نشر العلم بالدعوة والتصنيف والمناظرة.

المبحث الثامن عشر: الورع والفهم في العلم.

المبحث التاسع عشر: المباحثة والمذاكرة.

المبحث العشرون: عزة النفس.

المبحث الحادي والعشرون: اغتنام المحن.

وأريد أن أختم مقدمتي هذه بكلمة للأمة جمعاء أن يا أمتي سبيل عزك ومجدك إنما هو بالعلم والأدب والعمل ولقد فهم أسلافنا هذا فمن الله عليهم بالقيادة والسيادة والريادة.

والحضارة الغربية الحديثة أجددنا وأسلافنا هم من وضعوا أسسها وأقاموا أركانها ولكنَّ نفراً من بني قومنا راحوا يروجون لأكاذيب الغرب من أن الحضارة المادية الموجودة اليوم هي من نتاجهم والعرب والمسلمون عالة عليهم وهذا لعمر الله فرية بلا مرية، فحضارة اليوم هي بنت حضارتنا السالفة -حضارة الأمس- وخذ أمثلة على ذلك:

أول من صنع الطائرة:

العالم المسلم أبو القاسم عباس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ)

«وهو فيلسوف وعلامة رياضي من نوع فذ، وقد ولد في مقاطعة تاكرنا من أصل بربري، وبرع منذ فتوته في الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، ... وصنع آلة فلكية تعرف " بالميقاتة " لتعريف الوقت، وله مخترعات كثيرة أخرى. وحاول أن يخترع أداة للطيران، فصنع لنفسه جناحين بهيئة مخصوصة، وحاول الطيران من ناحية الرُّصافة، فحلق في الهواء، ثم وقع في مكان طيرانه على مسافة بعيدة، واشتهر أمره بذلك حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر:

يطم على العنقاء في طيرانها إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم

وقال عبد الحميد بن بسيل الوزير:

" أبدع عباس بن فرناس طول أمده إبداعات لطيفة واختراعات عجيبه، ... وكان

...مجيداً للشعر، حسن التصرف في طريقته، كثير المحاسن جم الفوائد» (٥)

وقد أشار إلى تجربة الطيران هذه، وعدها أول آلة طيران البروفيسور الدكتور "فيليب حتى" والدكتور "سيجرد هونكه"

وليس كما يدعون أن أول من صنعها إخوان رايت في عام (١٩٠٣م).

وأول من صنع الغواصة:

العالم المسلم "إبراهيم أفندي" فقد قام في عام (١٧١١) م بصنع أول غواصة مصنوعة من الفولاذ تستطيع حمل الإنسان والغوص تحت الماء.

وليس كما يدعون أن أول من صنعها الأمريكي "ديفيد بوشْنَل" عام ١٧٧٦م.

وأول من اختراع النظم البخارية:

العالم المسلم بَدِيعُ الزَمانْ أبو العز بن إسماعيل الرزاز الملقب بـ الجزري ت (ت٦٠٢هـ) يُعزى لهُ اختراع ساعة الفيل وهي ساعة دقيقة ميكانيكية تعمل على الطاقة المائية على شكل فيل. والعناصر المختلفة للساعة موجودة في بيت على ظهر الفيل. وهذه الساعة مصممة لنقل وإصدار الصوت كل نصف ساعة. ويوصف بأنه "أبو علم الروبوتات "والهندسة الحديثة. وقد اعترف بذلك العالم لين وايت.

وليس كما يدعون أن أول من صنعها "جيمس واط" (ت١٨١٩م).

---

(٥) «دولة الإسلام في الأندلس» (١/ ٢٥٢).

والذي أثبت كروية الأرض ودورانها حول الشمس:

العالم المسلم أبوالريحان محمد بن أحمد البيروني (ت بعد ٤٣٠ هـ)

وليس كما يدعون نيكولاس كوبرنيكوس (ت 1543م)

والذي اكتشف الدورة الدموية:

العالم المسلم أبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحرم القَرشي الملقب بابن النفيس (ت٦٧٩هـ) لم يكن فى عصره من يضاهيه فى الطّبّ والعلاج والعلم.

وليس كما يدعون "ميشيل سيرفيتوس" (ت١٥٥٣م)

وأول من قام بعملية التخدير:

العالم المسلم أبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان (ت٢٨٨هـ)

وليس كما يدعون "جونكن"(١٨٥٣م)

وأول من اكتشف الذرة:

العالم المسلم أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي (ت٢٦٠هـ)

وليس كما يدعون "جون دالتون" (١٨٤٤م) أو الألماني "أوتوهان"(١٨٦٨م).

وأول من اكتشف مرض السل وعلاجه:

العالم المسلم عباس وسيم بن عمر شفائي البروسوي (ت١١٧٤هـ)

وليس كما يدعون الألماني "روبرت كوخ" (ت١٩١٠م) الحائز على جائزة نوبل في الطب عام (١٩٠٥م).

وأول من قام بعملية إزالة عتمة عدسة العين (Cataract):
العالم المسلم أبو القاسم عمار بن علي الموصلي (ت٤٠٠هـ)
وليس كما يدعون "بلانكت" (١٨٤٦م)
وهكذا دواليك...

فتمسكوا يا بني قومي بالعلم والأدب والعمل ترتقوا الثريا وتسودوا الثرى وتنالوا خير الدنيا والآخرة.

وهذه حبيبي في الله نماذج من تراجم السادة العلماء والأئمة النبلاء مما نفتقد أكثره اليوم من الأدب والعلم والعمل أرجو الله أن يشفي بها العليل وأن يروي بها الغليل وأن يسلي بها الكريم.
وأسأل أن يرزقني غنمها وأن يقيني غرمها، وأن يجنبني شر مآلها.
فيا أيها الحبيب الكريم إن المرء إذا كتب فقد عرض عقله على الناس كما قال الحافظ أبو بكر الخطيب (٦)
" وخير الناس من عدت هفواته، وهزلت زلاته، ومع ذلك لينتظر قذائف ترمى عليه، وسهام تسدد إليه فليعذر الواقف عليه، فنتائجَ الأفْكَارِ عَلى اختِلافِ القَرَائِحِ لا

(٦) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (٢١/ ٤١).

تَنَاهَى ، وإنَّمَا يُنفقُ كلُّ أَحدٍ على قَدْرِ سَعَتِه ، لا يُكلّفُ اللهُ نفساً إلا مَا آتَاهَا ، ورَحِم اللهُ مَنْ وَقَفَ فِيهِ عَلَى سَهْوٍ أو خَطَإٍ، فأَصْلَحَهُ عَاذراً لا عَاذِلاً، ومُنيلاً لا نَائلاً، فَلَيْسَ المبرَّأُ من الخَطَلِ إلا مَنْ وقَى اللَّهُ وعَصَمْ ، وقَدْ قِيل : الكِتَابُ كالمُكَلّفِ ، لا يَسْلَمَ مِنْ المُؤاخَذَةِ ولا يَرْتفعَ عَنْه القَلَمُ ، واللهُ تَعَالى يُقرنُهُ بالتَّوفِيقِ ، ويُرشدُ فيهِ إلى أَوْضَحِ طَرِيقٍ ، ومَا تَوْفيقي إلا بِالله عَليه تَوكلتُ وإليهِ أُنِيب" (٧)

وقد فرغت من تأليفه وكتابته في يوم السبت الحادي عشر من شهر جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وأربعمائة وألف من هجرة سيد ولد آدم ﷺ حامدًا ومُصَلّيًا ومسلّمًا ومحوقلاً ومحسبلاً.

قاله بلسانه وزبره ببنانه

المعتز بالله العلي

أبي حفص المصري الأثري

أحمد بن محمد بن يوسف بن إبراهيم

(عامله المولى بلطفه الرحيم)

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

(٧) «صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ط العلمية» (١/ ٣٦).

الباب الأول:

الفصل الأول:

الترحيب بطلاب العلم.

الترحيب بطالب العلم.

ابدأ بالترحيب بمن وصانا رسول الله ﷺ بهم خيراً فقد روى الحاكم بسند حسن بطرقه من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: «مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوصِينَا بِكُمْ» (٨)

(٨) حديث حسن بطرقه: له طرق أمثلها ثلاثة، طريق أبي نضرة، وطريق شهر بن حوشب، وطريق أبي هارون العبديّ.

١-طريق أبي نضرة:

أخرجه الحاكم برقم (٢٩٨) وعنه البيهقيّ في "المدخل" برقم (٦٢١) من طريق سَعِيد بْنُ سُلَيْمَانَ، ثَنَا عَبَّاد بْن الْعَوَّامِ، عَنِ الْجُرَيْرِيِّ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ به.

قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ ثَابِتٌ لِاتِّفَاقِ الشَّيْخَيْنِ عَلَى الِاحْتِجَاجِ بِسَعِيدِ بْنِ سُلَيْمَانَ وَعَبَّادِ بْنِ

.....

الْعَوَّامِ وَالْجُرَيْرِيِّ، ثُمَّ احْتِجَاجِ مُسْلِمٍ بِحَدِيثِ أَبِي نَضْرَةَ فَقَدْ عَدَدْتُ لَهُ فِي الْمُسْنَدِ الصَّحِيحِ أَحَدَ عَشَرَ أَصْلًا لِلْجُرَيْرِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَا هَذَا الْحَدِيثَ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ حَدِيثٍ فِي فَضْلِ طُلَّابِ الْحَدِيثِ وَلَا يُعْلَمُ لَهُ عِلَّةٌ، فَلِهَذَا الْحَدِيثِ طُرُقٌ يَجْمَعُهَا أَهْلُ الْحَدِيثِ، عَنْ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَأَبُو هَارُونَ مِمَّنْ سَكَتُوا عَنْهُ»

وقال الذّهبيّ: "على شرط مسلم، ولا علّة له".

قلت: الجريريّ هو سعيد بن إياس، أحد الثّقات الأثبات إِلَّا أنه اختلط قبل موته بثلاث سنين، قال ابنُ حبان: وَهُوَ مختلط وَلم يكن اختلاطاً فَاحِشاً فَلذَلِك أدخلْنَاهُ فِي الثِّقَات.

وقال يزيد بن هارون: -وهو ممن روى عنه بعد الاختلاط- لم ننكر منه شيئًا، يشير إلى أن اختلاطه لم يكن فاحشًا، وكأنه لذلك روى له مسلم عنه.

ولذلك حسّنه ابنُ حجر في "نتائج الأفكار" وصحّحه النووي في "الأذكار"

وقال العلائيّ في "بغية الملتمس" (ص ٢٨): " لا بَأْس بِهِ، لأَنَّ سَعِيدَ بْنَ سُلَيْمَانَ هَذَا هُوَ النُّشَيْطِيُّ فِيهِ لِينٌ يُحْتَمَلُ، حَدَّثَ عَنْهُ أَبُو زُرْعَةَ وَأَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيَّانِ وَغَيْرُهُمَا".

قال شيخنا الألباني: ليس هو النشيطي وذلك لأمور:

الأول: أنه جاء مصرحا في بعض الطرق كما رأيت أنه (الواسطي)، والنشيطي بصري وليس بواسطي.

الثاني: أن شيخه في هذا السند عباد بن العوام لم يذكر في ترجمة النشيطي، وإنما في ترجمة الواسطي.

الثالث: أن بعض الرواة لهذا الحديث عنه لم يذكروا في ترجمته أيضا وإنما في

.....

ترجمة الواسطي مثل صالح بن محمد الحافظ الملقب بـ (جزرة).

فثبت مما ذكرنا أن سعيد بن سليمان إنما هو الواسطي وهو ثقة احتج به الشيخان كما تقدم في كلام الحاكم، وتوثيقه موضع اتفاق بين أهل العلم بالرجال، اللهم إلا قول الإمام أحمد في " كتاب العلل ومعرفة الرجال " (ص ١٤٠):

" كان صاحب تصحيف ما شئت ".

وليس في هذا الحديث ما يمكن أن يصحف من مثل هذا الثقة لقصره! فينبغي أن تكون صحته موضع اتفاق أيضا»

«سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» (١/ ٥٦٥).

٢-طريق شهر بن حوشب:

الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» برقم (٣٥٧) من طريق عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زَحْرٍ، عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ كُنَّا نَأْتِي أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ»

قلت: وهذا سند ضعيف عبيد الله بن زحر مختلف فيه، وليث - وهو ابن أبي سليم - ضعيف وشهر متماسك.

٣- طريق أبي هارون العبديّ:

أخرجه الترمذيّ برقم (٢٦٥٠)، وابن ماجه برقم (٢٤٩) وغيرهما من طرق عَنْ أَبِي هَارُونَ العَبْدِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَأْتِي أَبَا سَعِيدٍ، فَيَقُولُ: مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

.....

«إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ، وَإِنَّ رِجَالًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرَضِينَ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا»: قَالَ عَلِيٌّ: قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيد: «كَانَ شُعْبَةُ يُضَعِّفُ أَبَا هَارُونَ العَبْدِيَّ» قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيد: «مَا زَالَ ابْنُ عَوْنٍ يَرْوِي عَنْ أَبِي هَارُونَ العَبْدِيِّ حَتَّى مَاتَ»

وَأَبُو هَارُونَ اسْمُهُ: عُمَارَةُ بْنُ جُوَيْنٍ متروك.

وذَكَرَ لِيَحْيَى بْنِ مَعِينٍ حَدِيثَ أَبِي هَارُونَ هَذَا، فَقَالَ:

قَدْ رَوَاهُ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ-مِثْلَهُ.

فَقِيلَ لِيَحْيَى: هَذَا -أَيْضًا- ضَعِيفٌ مِثْلَ أَبِي هَارُون؟

قَالَ: لا، هذا أقوى من ذلك وأحسن، حدثناه ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَيُّوبَ، عَنْ لَيْثٍ»

«المنتخب من علل الخلال» (١/ ١٣١)

وقال البيهقيّ:

في "المدخل" «هَكَذَا رَوَاهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَنْ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ، وَأَبُو هَارُونَ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا فَرِوَايَةُ أَبِي نَضْرَةَ لَهُ شَاهِدَةٌ»

«المدخل إلى السنن الكبرى - البيهقي - ت الأعظمي» برقم (٦٣٢).

وما رواه بعض أصحاب السنن بسند جيد من حديث زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: غَدَوْتُ عَلَى صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ الْمُرَادِيِّ أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟

قُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، قَالَ: أَفَلَا أُبَشِّرُكَ؟ وَرَفَعَ الْحَدِيثَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: " إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ» (٩)

(٩) جيد: أخرجه الترمذي برقم (٣٥٣٥) وابن ماجه برقم (٢٢٦) وأحمد في «مسنده» برقم (١٨٠٨٩) من طرق عن عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ به.

ورواه عن عاصم أكثرُ من أربعين نفساً منهم شعبة ومسعر والسفيانيان ومعمر وهمام والحمادان وأبو خيثمة وأبو الأحوص ومالك بن مغول وشيبان بن عبد الرحمن والنعمان بن راشد والمسعودي وأبو بكر بن عياش وروح وشريك والوليد بن معدان وسعيد الجريري وحبيب بن حسان وحجاج وعلي بن صالح وغيرهم.

.....

ورفعه غير واحد عن عاصم، منهم:

معمر بن راشد وحماد بن سلمة خالد بن كثير الهمداني وزياد بن الربيع البصري وأبو جَناب يحيى بن أبي حية الكلبي وأبو جعفر الرازي وحفص بن سليمان الأسدي الكوفى وعبد الرحمن بن محمد المحاربي

وعاصم هو ابن بهدلة، روى له البخاري ومسلم مقرونا بغيره، وهو صدوق حسن الحديث وله أوهام يسيرة لا يخط حديثه عن رتبة الحسن.

ولم يتفرد به عاصم بل تابعه جماعة منهم:

زُبيد بن الحارث اليامي

وعيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى

وطلحة بن مُصَرِّف

وحبيب بن أبي ثابت

وعبد الرحمن بن مرزوق الدمشقي وغيرهم.

وما رواه أبو داود بسند حسن عن كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ - فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي؟ - قَالَ حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ: لَا، مَا جِئْتُ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ؟ - قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ - سَهَّلَ - اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، - رِضًا بِمَا يَصْنَعُ - وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» (١٠)

(١٠) حسن بشواهده: أخرجه أبو داود برقم (٣٦٤١) قلت: وكثير بن قيس ضعيف لكنه متابع.

تابعه:

عثمان بن أبي سودة.

أخرجه أبو داود برقم (٣٦٤٢) وفي سنده شعيب بن رزيق هو أبو شيبة الشّاميّ، وذكره ابنُ حبان في الثّقات (٨/ ٣٠٨)، وقال ابن حجر: "صدوق يخطئ".

الباب الأول:

الفصل الثاني:

شرف الطلب.

شرف الطلب.

فقد شرف الله العلم وحملته شرفاً عظيماً، ولا يوجد شرف أعظم منه.

فقد قرن شهادة الْعلمَاء بشهادة نَفسِهِ وَمَلَائِكَته.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ (١١)

وأَوَّل آيةٍ في القرآن نزلت هي:

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ (١٢) والفعل(اقْرَأْ) بمعنى الإلزام والوجوب هو أمر من (قَرَأَ).

وقصر الله الخشية لَهُ عَلَيْهِم:

فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (١٣)

---

(١١) [آل عمران: ١٨].

(١٢) [العلق: ١].

(١٣) [فاطر: ٢٨].

ورفع الله العلماء دَرَجَات:

قَالَ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (١٤)

وأُمر الله نبيه ﷺ بالزيادة من العلم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (١٥)

قال ابن القيم:

«وَكفى بِهَذَا شرفا للْعلم أن أمْر نبيه أن يسْأَله الْمَزِيد مِنْهُ» (١٦)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

لَوْ كَانَ أَحَدُكُمْ يَكْتَفِي مِنْ الْعِلْمِ لَاكْتَفَى مِنْهُ مُوسَى» (١٧)

---

(١٤) [المجادلة: ١١].

(١٥) [طه: ١١٤].

(١٦) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٥٠ ط العلمية).

(١٧) «أدب الدنيا والدين» (ص٧٤).

وقال قتادة:

" لَوْ كَانَ أَحَدٌ يَكْتَفِي مِنَ الْعِلْمِ بِشَيْءٍ لَاكْتَفَى مُوسَى عليه السلام وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ (١٨) (١٩)

وقد ذكر العلامة ابن القيم أكثر من مائة وخمسين وجهًا في فضل العلم.

ومن درر كلامه:

«ولو صُوِّر العلم صورة، لكانت أجمل من صورة الشمس والقمر، ولكنَّ عشق هذه الصِّفات إنَّما يُناسب الأنفس الشريفة الزكيَّة، كما أن محبَّة الله، ورسوله، وكلامه، ودينه إنَّما تناسبُ الأرواح العُلْويَّة، السَّمائيَّة الزكيّة، لا الأرواح الأرضيَّة الدَّنيَّة» (٢٠)

وقال أيضاً:

وأما عشَّاق العلم فأعظمُ شَغَفًا به وعشقًا له من كل عاشقٍ بمعشوقِه، وكثيرٌ منهم لايشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر» (٢١)

---

(١٨) [الكهف: ٦٦].

(١٩) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤١٩).

(٢٠) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» (ص٢٩٧ ط عطاءات العلم).

(٢١) السابق (ص١٠٨).

وقال أيضاً:

وَلَو لم يكن فِي الْعلم إلا الْقرب من رب الْعَالمين والالتحاق بعالم الْمَلَائِكَة وصحبة الْمَلأ الأعلى لكفى بِهِ فضلا وشرفا فَكيف وَعز الدُّنْيَا وَالْآخِرَة منُوط بِهِ ومشروط بحصوله» (٢٢)

وقد روى البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: «قيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ» (٢٣)

وعَنْ عَلِيّ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ -قال:

كَفَى بِالْعِلْمِ شَرَفًا أَنْ يَدَّعِيَهُ مَنْ لَا يُحْسِنُهُ، وَيَفْرَحَ بِهِ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ، وَكَفَى بِالْجَهْلِ ذَمًّا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ مَنْ هُوَ فِيهِ» (٢٤)

(٢٢) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٠٤ ط العلمية).

(٢٣) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٩٩).

(٢٤) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» لابن جماعة (ص١٠).

ونظم بعض المحدثين ذلك فقال:

كفى شرفا للعلم دعواه جاهل ويفرح أن يدعى إليه وينسب
ويكفي خمولا بالجـــهالة أنني أراع متى أنسب إليها وأغضب

وقال رضي الله عنه:

قيمة كل إنسان ما يحسن، فنظمه أحد الشعراء فقال:

لا يكون الفصيح مثل العيّ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
قيمة المرء قدر ما يحسن المر ء قضاء من الإمام عـــليّ (٢٥)

وقال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول:

كفى بالعلم فضيلة أن يدعيه من ليس فيه، ويفرح إذا نسب إليه، وكفى بالجهل شينا أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه» (٢٦)

وكَتَبَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ

إِلَى سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: «مَنْ عَرَفَ مَا يَطْلُبُ هَانَ عَلَيْهِ مَا يَبْذُلُ"(٢٧)

فيجب علينا ونحن في سيرنا إلى الله أن نطلب العلم الواجب على كل نفس، فالعلم

(٢٥) «معجم الأدباء» (١/ ١٦).
(٢٦) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٩/ ١٤٦).
(٢٧) (ص١٩٤).

نور يهدي به الله من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، والعلماء هم ورثة الأنبياء، وإذا كان الناس أمواتًا فإن العلماء أحياء.

ومما يعزى إلى علي بن أبي طالب قوله:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمْثِيلِ أَكْفاءُ ... أَبُوهُمْ آدَمٌ، وَالْأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَا نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ، فَالطِّينُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ، إِنَّهُمْ ... عَلَى الْهُدَى لِمَنْ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ ... وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ
فَعِشْ بِعِلْمٍ، وَلَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا ... فَالنَّاسُ مَوْتَى، وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ» (٢٨)

وأولى الناس وأحقهم بالأدب وحسن الخلق؛ هم العلماء وطلبة العلم.

قَالَ الْمُتَوَكِّلُ اللَّيْثِيُّ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى ... كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ
ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ تُعْذَرُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيُقْبَلُ التَّعْلِيمُ
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ" (٢٩)

(٢٨) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ١٥٠).
(٢٩) «حماسة البحتري» (ص٢٤٧).

ولقد اهتم به العلماء الربانيون، لأن المقصود الأعظم من العلم هو العمل به، والتقرب إلى الله تعالى بمقتضى هذا العلم.

ولله در من قال:

مَنْ شَاءَ عَيْشًا هَنِيئًا يَسْتَفِيدُ بِهِ فِي دِينِهِ ثُمَّ فِي دُنْيَاهُ إِقْبَالا
فَلْيَنْظُرَنَّ إِلى مَنْ فَوْقَهُ أَدَبًا وَلْيَنْظُرَنَّ إِلى مَنْ دُونَهُ مَالا

ولتحقيق ذلك الهدف لابد من معرفة فضل العلم وشرفه، فطلب العلم شرف لا يدانيه شرف، وفي فضل العلم وآداب حملته أفردت مصنفات وضمنت كتب وأبحاث منها:

«فضل العلم والعلماء» لحميد بن زياد (ت٣١٠هـ)

و«فرض طلب العلم» للآجري (ت٣٦٠هـ)

و«الحث على حفظ العلم» للعسكري (ت٣٩٠هـ)

و«جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ)

و«الجامع لأخلاق الراوى" للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)

و"الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي(ت٤٦٣هـ)

و«الحث على حفظ العلم» لابن عساكر (ت٥٧١هـ)

و"تعليم المتعلم طريق التعليم" للزرنوجي(ت٥٩١هـ)

و«الحث على حفظ العلم» ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)

و"تذكرة السامع والمتكلم" لابن جماعة(ت٧٣٣هـ)

وفصل كبير حافل من «مفتاح دار السعادة».

الباب الثاني:

الفصل الأول:

شرف الأدب.

شرف الأدب.

حاجتنا إلى الأدب

ويجب علينا ونحن نطلب العلم أن نتحلى بجملة من الآداب العامة والخاصة التي يرتقي بها طالب العلم.

قال أَبو زَكَرِيَّا الْعَنْبَرِيّ:

عِلْمٌ بِلا أَدَبٍ كَنَارٍ بِلا حَطَبٍ
وَأَدَبٌ بِلا عِلْمٍ كَرُوحٍ بِلا جِسْمٍ
وَإِنَّمَا شَبَّهْتُ الْعِلْمَ بِالنَّارِ
لِمَا رُوِّينَا عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ:
مَا وَجَدْتُ لِلْعِلْمِ شَبَهًا إِلَّا النَّارَ، نَقْتَبِسُ مِنْهَا وَلَا نَنْتَقِصُ عَنْهَا "» (٣٠)

وقال اللَّيْثُ:

وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فَرَأَى مِنْهُمْ شَيْئًا - فَقَالَ:
«أَنْتُمْ إِلَى يَسِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ» (٣١)

---

(٣٠) «أدب الإملاء والاستملاء» للسمعاني (ص٢).

(٣١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٤٠٥).

وقَالَ أَحْمَدُ بنُ سِنَانٍ:

كَانَ لَا يُتَحَدَّثُ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَلَا يُبْرَى قَلَمٌ، وَلَا يَتَبَسَّمُ أَحَدٌ، وَلَا يقوم أحد قائمًا، كأن على رءوسهم الطير، أَوْ كَأَنَّهُم فِي صَلَاةٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَداً مِنْهُم تَبَسَّمَ، أَوْ تَحَدَّثَ، لَبِسَ نَعْلَهُ، وَخَرَجَ» (٣٢)

وَقَالَ سَابِقٌ الْبَرْبَرِيُّ رحمه الله:

قَدْ يَنْفَعُ الْأَدَبُ الْأَحْدَاثَ فِي مَهَلٍ ... وَلَيْسَ يَنْفَعُ عِنْدَ الْكِبْرَةِ الْأَدَبُ

إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا قَوَّمْتَهَا اعْتَدَلَتْ ... وَلَنْ يَلِينَ إِذَا قَوَّمْتَهُ الْخَشَبُ (٣٣)

وَقَالَ آخَرُ:

يَنْشُو الصَّغِيرُ عَلَى مَا كَانَ وَالِدُهُ ... إِنَّ الْأُصُولَ عَلَيْهَا تَنْبُتُ الشَّجَرُ (٣٤)

وقال عبد الله بن المبارك:

«طلبت الأدب ثلاثين سنة وطلبت العلم عشرين سنة» (٣٥)

---

(٣٢) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (١/ ٢٥٧).

(٣٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٦١).

(٣٤) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٣٣).

(٣٥) «غاية النهاية في طبقات القراء» لابن الجزري (١/ ٤٤٦).

وقَالَ سَلْمُ بنُ جُنَادَةَ:
جَالَسْتُ وَكِيْعاً سَبْعَ سِنِيْنَ، فَمَا رَأَيْتُهُ بَزَقَ، وَلَا مَسَّ حَصَاةً، وَلَا جَلَسَ مِجْلِساً فَتَحَرَّكَ، وَمَا رَأَيْتُهُ إِلَّا مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، وَمَا رَأَيْتُهُ يَحلِفُ بِاللهِ» (٣٦)

وقِيلَ لِلْعَبَّاسِ:
أَنْتَ أَكْبَرُ أَوْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: «هُوَ أَكْبَرُ مِنِّي، وَوُلِدْتُ أَنَا قَبْلَهُ» (٣٧)

ومن الأدب حسن الكلام والرد

وهذه صور من الأدب بين الأمراء والعلماء وهي من المفاخر والمآثر:

قال الكِسائيّ:
صلَّيْتُ بهارون الرشيد، فأعجبتني قراءتي فغلطت في آيةٍ ما أخطأ فيها صبيٌّ قط، أردت أن أقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فقلت: "يرجعين"، فوالله ما اجترأ الرشيد أن يقول: أخطأت، لكنّه لما سلّم قال: أيُّ لغةٍ هذه؟
قلت: يا أمير المؤمنين قد يعثُرُ الجواد. قال: أمّا هذه فنعم» (٣٨)

---

(٣٦) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٧/ ٥٦٧).
(٣٧) أثر صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٢٦٢٥٦) وابن أبي عاصم برقم (٣٥٠).
(٣٨) «تاريخ الإسلام - ط التوفيقية» (١٢/ ١٦٩).

وقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ:

دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَأْمُونِ بِمَرْوَ، وَعَلَيَّ أَطمارٌ مُتَرَعْبِلَةٌ، فَقَالَ: لِي: يَا نَضْرُ أَتَدْخُلُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الثِّيَابِ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ حَرَّ مَرْوَ لَا يُدْفَعُ إِلا بِمِثْلِ هَذِهِ الأَخْلاقِ، قَالَ: لَا، وَلَكِنَّكَ تَتَقَشَّفُ، قَالَ: فَتَجَاذَبْنَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ الْمَأْمُونُ: حَدَّثَنِي هُشَيْمُ بْنُ بَشِيرٍ، عَنْ مُجَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لِدِينِهَا وَجَمَالِهَا كَانَ فِيهَا سدادٌ مِنْ عَوَزٍ ". قُلْتُ: صَدَقَ قَوْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هُشَيْمٍ، حَدَّثَنِي عَوْفٌ الأَعْرَابِيُّ، عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: " إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لِدِينِهَا وَجَمَالِهَا كَانَ فِيهَا سدادٌ مِنْ عَوَزٍ " فَكَانَ الْمَأْمُونُ متكأً فَاسْتَوَى جَالِسًا، وَقَالَ: السَّدَادُ لحنٌ يَا نضر؟ قلت: نعم هَاهُنَا، وَإِنَّمَا لَحَنَ هُشَيْمٌ وَكَانَ لَحَّانًا، فَقَالَ: مالفرق بَيْنَهُمَا، قُلْتُ: السَّدَادُ: الْقَصْدُ فِي السَّبِيلِ، وَالسِّدَادُ: الْبُلْغَةُ وَكُلُّ مَا سَدَدْتَ بِهِ شَيْئًا فَهُوَ سِدَادٌ، قَالَ: أَفَتَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ، قُلْتُ: نَعَمْ، هَذَا الْعَرْجِيُّ مِنْ وَلَدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ يَقُولُ:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتًى أَضَاعُوا ... لِيَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

فَأَطْرَقَ الْمَأْمُونُ مَلِيًّا ثُمَّ، قَالَ: قَبَّحَ اللَّهُ مَنْ لَا أَدَبَ لَهُ،

ثُمَّ قَالَ: أَنْشِدْنِي يَا نَضْرُ أَخْلَبَ بَيْتٍ لِلْعَرَبِ.

قُلْتُ: قَوْلُ ابْنُ بيضٍ فِي الْحَكَمِ بْنِ مَرْوَانَ:

تَقُولُ لِي وَالْعُيُونُ هاجِعَةٌ ... أَقِمْ عَلَيْنَا يَوْمًا فَلَمْ أَقُمْ

أَيُّ الْوُجُوهِ انْتَجَعْتَ قُلْتُ لَهَا ... لأَيِّ وَجْهٍ إِلا إِلَى الْحَكَمِ

مَتَى يَقُلْ حَاجِبَا سُرَادِقِهِ ... هَذَا ابْنُ بيضٍ بِالْبَابِ، يَبْتَسِمِ

قَدْ كُنْتُ أَسْلَمْتُ قَبْلُ مُقْتَبِلا ... هَيْهَاتَ أَدْخُلُ أَعْطِنِي سَلَمِي

فَقَالَ الْمَأْمُون: للَّه دَرُّك! فَكَأَنَّمَا شُقَّ لَك عَنْ قلبِي.

أَنْشدني أنصف بَيت قالته الْعَرَب.

قُلْتُ: قَول ابْن أَبِي عَرُوبَةَ المَدِينيّ يَا أَمِير الْمُؤْمِنِين:

إِنِّي وَإِن كَانَ ابنُ عمـي عاتبًا ... لَمُزَاحِم من خَلْفه ووَرَائِه
ومُفِيده نَصْرِي وَإِن كَانَ امْرَأً ... مترجْرِجًا فِي أرضه وسمائه
وأكون وَالِي سِـره وأصونُهُ ... حَتَّى يحيز إِلَيَّ وَقت أدائه
وَإِذَا الْحَوَادِث أجحفت بسوامه ... قرنت صحيحنا إِلَى جُرَبَائِه
وَإِذَا أَتَى من وَجهه بطريفةٍ ... لَمْ أطَّلِعْ فِيمَا وَرَاء خبائِه
وَإِذَا ارتدى ثوبا جميلاً لم أقل ... ياليت أَنَّ علي حُسْن رُوَائِه

فَقَالَ: أَحْسَنت يَا نَضْر.

أَنْشدني الْآن أقنع بيتٍ للْعَرَب.

فَأَنْشَدته قَول ابْن عبدل:

إِنِّي امرؤٌ لَمْ أَزَلْ وَذَاك من ... اللَّهِ أديبًا أُعَلِّم الأَدَبا
أُقِيمُ بالدَّارِ مَا اطمأنت بِي الد ... ار وَإِن كنتُ نَازِحًا طَربا
لَا أَجْتَوِي خَلَّةَ الصَّديق وَلا ... أُتْبِعُ نفسِي شَيْئا إِذا ذَهَبا
أطلبُ مَا يطْلب الْكَرِيم من الر ... زق بنَفْسِي وأجملُ الطلبا
وأحْلِبُ الثَّرَّةَ الصَّفِيَّ وَلا ... أُجْهِدُ أخْلافَ غريبٍ حَلَبَا
إِنِّي رأيتُ الْفَتى الْكَرِيم إِذا ... رغَّبتَهُ فِي صنيعةٍ رَغِبَا
والعَبْدُ لَا يطْلُبُ الْعلَا وَلا ... يُعطيك شَيْئا إِلا إِذا ضُربا
وَلَم أجد عُرْوَة الْخَلَائق إِلا الد ... ين لَمَّا اختَبرْتُ والحَسَبَا

قَدْ يُرْزَقُ الحافِضُ الْمُقِيم وَمَا شَدَّ بعنسٍ رَحْلا وَلا قَتَبَا
ويُحْرِمُ الرِّزْقَ ذُو المطية والر حل وَمن لَا يَزَالُ مُغْتَرِبَا

قَالَ: أَحْسَنْتَ يَا نضر، أفعندك ضِدُّ هَذَا؟

قُلْتُ: نعم، أحسنُ مِنْهُ، قَالَ: هاته، فَأَنْشَدته:

يدُ الْمَعْرُوف غنمٌ حيثُ كَانَتْ تَحَمَّلَها كـــفورٌ أَوْ شَـكُور

فَقَالَ: أحسنتَ يَا نضر، وَأخذ الْقِرطاسَ فكتب شَيْئا لَا أَدْرِي مَا هُوَ، ثُمّ قَالَ: كَيفَ تَقُولُ: أَفْعِلْ من التُّرَاب؟

قُلْتُ: أَتْرِب، قَالَ: الطّين؟ قُلْتُ: طِنْ.

قَالَ: فالكتابُ مَاذَا؟ قُلْتُ: متربٌ مَطِين.

قَالَ: هَذِهِ أحسن من الأولى.

قَالَ: فَكتب لي بِخَمْسِينَ ألف دِرْهَم، ثُمّ أَمر الْخَادِم أَن يوصّله إِلَى الْفضل بن سهل فمضيتُ مَعَه، فَلَمَّا قَرَأَ الْكتاب قَالَ: يَا نَضْر! لَحَنَتَ أَمِير الْمُؤْمِنِين؟ قُلْتُ: كلا، وَلَكِن هُشَيمًا لحانة، فَأمر لي بِثَلَاثِينَ ألفا، فَخرجت إِلَى منزلي بِثَمَانِينَ ألفا وقَالَ لي الْفَضْل: يَا نَضْرُ! حدّثْنِي عَنِ الْخَلِيل بْن أَحْمَد، قُلْتُ: حدَّثَنِي الخليلُ بْن أَحْمَد، قَالَ: أتيتُ أَبَا رَبِيعَة الْأَعرَابِي وَكَانَ من أَعْلَم مَا رأيتُ، وَكَانَ عَلَى سطح أَوْ سُطَيح، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ أَشَرنَا إِلَيْهِ بالسَّلام، فَقَالَ: اسْتَوُوا، فَلَمَّا نَدْرِ مَا قَالَ، فَقَالَ لنا شيخٌ عِنْده: يَقُولُ لَكُمْ: ارْتَفِعُوا، فَقَالَ الْخَلِيل بْن أَحْمَد: هَذَا من قَول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ (٣٩)

(٣٩) [فصلت: ١١].

ثُمّ ارْتَفع ثُمّ قَالَ: هَلْ لَكُمْ فِي خبزٍ فطيرٍ ولبنٍ هجيرٍ وماءٍ نميرٍ، فَلَمَّا فارقناه، قَالَ: سَلاما، قُلْنَا: فسّرْ قَوْلك هَذَا، فَقَالَ: مُتَارَكَةً لَا خير وَلَا شَرّ، فَقَالَ الْخَلِيل: هَذَا مثل قَول اللَّه جلّ وَعز ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ (٤٠) (٤١)

وقَالَ مُحَمَّد بن زِيَاد الْأَعرَابِي:

بعث إِلَى الْمَأْمُون، فصرت إِلَيْهِ، وَهُوَ فِي بُسْتَان يمشي مَعَ يحيى بن أَكْثَم

«فرأيتهما موليين فجلست فلما أقبلا قمت فسلمت عليه بالخلافة فسمعته يقول ليحيى يا أبا محمد ما أحسن أدبه رآنا موليين فجلس ثم رآنا مقبلين فقام ثم رد على السلام وقال يا محمد أخبرني عن أحسن ما قيل في الشراب فقلت يا أمير المؤمنين قوله:

تريك القذى من دونها وهي دونه إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

فقال أشعر منه الذي يقول يعني أبا نواس

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم
فعلت في البيت إذا مزجت مثل فعل الصبح في الظلم
واهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم

فقلت فائدة يا أمير المؤمنين فقال أخبرني عن قول هند بنت عتبة

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

---

(٤٠) [الفرقان: ٦٣].

(٤١) «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» (ص٣٨٢-٣٨٥).

من طارق هذا قال فنظرت في نسبها فلم أجده فقلت يا أمير المؤمنين ما أعرف في نسب فقال إنما أرادت النجم وانتسبت إليه لحسنها من قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ (٤٢) الآية

فقلت فائدتان يا أمير المؤمنين فقال أنا بؤبؤ هذا الأمر وابن بؤبؤه ثم دحا إلى بعنبرة كان يقلبها في يده بعتها بخمسة آلاف درهم» (٤٣)

وقَالَ عَلِيّ بْنِ الْجَعْدِ:

سَمِعْتُ أَبِي، يَقُولُ: لَمَّا أَحْضَرَ الْمَأْمُونُ أَصْحَابَ الْجَوْهَرِ، فَنَاظَرَهُمْ عَلَى مَتَاعٍ كَانَ مَعَهُمْ، ثُمَّ نَهَضَ الْمَأْمُونُ لِبَعْضِ حاجَتِه، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَامَ لَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ إِلا ابْنَ الْجَعْدِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُمْ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ كَهَيْئَةِ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ اسْتَخْلاهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ مَا مَنَعَكَ أن تَقُومَ لِي كَمَا قَامَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: أَجْلَلْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْحَدِيثِ الَّذِي نَأْثُرُهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ: سَمِعْتُ الْمُبَارَكَ بْنَ فَضَالَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ، يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ".

قَالَ: فَأَطْرَقَ الْمَأْمُونُ مُتَفَكِّرًا فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: لا نَشْتَرِي إِلا مِنْ هَذَا الشَّيْخِ، قَالَ فَاشْتَرَى مِنْهُ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِقِيمَةِ ثَلاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ» (٤٤)

---

(٤٢) [الطارق: ١].

(٤٣) «تاريخ دمشق لابن عساكر» (٣٣/ ٢٩٨).

(٤٤) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٣/ ٢٨١).

واسْتَدْعَى الرشيد

أَبَا مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرَ مُحَمَّدَ بْنَ حازم لِيَسْمَعَ مِنْهُ الْحَدِيثَ قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: مَا ذكرت عنده حديثاً إِلَّا قَالَ ﷺ عَلَى سَيِّدِي، وإذا سمع فيه موعظة بكى حَتَّى يَبُلَّ الثَّرَى، وَأَكَلْتُ عِنْدَهُ يَوْمًا ثُمَّ قُمْتُ لِأَغْسِلَ يَدِي فَصَبَّ الْمَاءَ عليَّ وَأَنَا لَا أَرَاهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ أتدري من يصب عليك الماء؟ قلت: لا. قال: يصب عليك أمير المؤمنين.

قال أبو معاوية: فدعوت له، فقال: إنما أردت تعظيم العلم» (٤٥)

وقال أَبو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيْر:

صَبَّ عَلَى يَدَيَّ بَعْدَ الأَكْلِ شَخْصٌ لَا أَعْرِفُهُ. فَقَالَ الرَّشِيْدُ: تَدْرِي مَنْ يَصُبُّ عَلَيْكَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: أَنَا، إِجْلَالاً لِلْعِلْمِ" (٤٦)

وقال قُتيبة بن سعيد:

قدمت بغداد وما كانت لي هِمَّة إلا أَن أَلقى أَحمد بن حنبل، فإذا هو قد جاءَني مع يحيى بن معين، فتذاكرنا، فقام أَحمد بن حنبل وجلس بين يديّ، وقال: أَمْلِ عليَّ هذا، ثم تذاكرنا، فقام أَيضاً وجلس بين يدي، فقلت: يا أَبا عبد الله، اجلس مكانك، فقال: لا تشتغل بي، إنما أُريد أَن آخذ العلم على وجهه» (٤٧)

---

(٤٥) «البداية والنهاية ت شيري» (١٠/ ٢٣٣).

(٤٦) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٨/ ٥٤).

(٤٧) «مناقب الإمام أحمد» (ص٧١).

وحكى بعضهم:

أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي، ليعلِّمه العلم والأدب، فرآه يومًا يتوضأ، ويغسل رجله، وابن الخليفة يصب الماء على رجله، فعاتب الأصمعيَّ في ذلك، فقال: " إنما بعثتُه إليك لتعلِّمَه وتؤدبه، فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه، ويغسل بالأخرى رجلك؟! "» (٤٨)

وقال أَبو عَمْرٍو الخفَّاف:

كَانَ عَمْرو بن اللَّيْث الصَّفَّار، يَعْنِي السُّلْطَان يَقُوْلُ لِي: يَا عمّ مَتَى مَا عَلِمتَ شَيْئاً لَا يُوَافقك فَاضرب رقبَتِي إِلَى أَنْ أَرجع إِلَى هَوَاك.

قُلْتُ: كَذَا فَلْيَكُن السُّلْطَان مَعَ الشَّيْخ، وَقَدْ كَانَ عَمْرو بن اللَّيْث صَانعاً فِي الصُّفر فَتَنَقَّلَتْ بِهِ الأَحْوَالُ إِلَى أَنْ تملَّك خُرَاسَان، وَتملَّك بَعْدَهُ أَخُوْهُ يَعْقُوْب فَانْظُرْ فِي تَارِيْخ الإسلام تسمع العجب من سريتهما» (٤٩)

وقَالَ الشَّعْبِي:

أَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِرِكَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فَقَالَ: أَتُمْسِكُ لِي وَأَنْتَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟، قَالَ: إِنَّا هَكَذَا نَصْنَعُ بِالْعُلَمَاءِ» (٥٠)

---

(٤٨) «تعليم المتعلم لبرهان الإسلام الزرنوجي» (ص١٩).

(٤٩) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٠/ ٥٣٧).

(٥٠) «المدخل إلى السنن الكبرى - البيهقي - ت الأعظمي» (ص٣٨٥).

وهَاجَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فِي زَمَنِ الْمَهْدِيِّ

فَدَخَلَ الْمَهْدِيُّ بَيْتًا فِي دَارِهِ، فَأَلْزَقَ خَدَّهُ بِالتُّرَابِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ أَنَا الْمَطْلُوبَ بِهَذِهِ الْجِنَايَةِ دُونَ النَّاسِ فَهَا أَنَا ذَا بَيْنَ يَدَيْكَ، اللَّهُمَّ لَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ. فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى انْجَلَتْ (٥١)

وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ يَوْمًا وَمَعَهُ نَعْلٌ فَقَالَ: هَذِهِ نَعْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَهْدَيْتُهَا لَكَ. فَقَالَ: هَاتِهَا. فَنَاوَلَهُ إِيَّاهَا، فَقَبَّلَهَا وَوَضَعَهَا عَلَى عَيْنَيْهِ، وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ الْآفِ دِرْهَمٍ. فَلَمَّا انْصَرَفَ الرَّجُلُ قَالَ الْمَهْدِيُّ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرَ هَذِهِ النَّعْلَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَلْبَسَهَا، وَلَكِنْ لَوْ رَدَدْتُهُ لَذَهَبَ يَقُولُ لِلنَّاسِ: أَعْطَيْتُهُ نَعْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَدَّهَا عَلَيَّ. فَيُصَدِّقُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ; لِأَنَّ الْعَامَّةَ تَمِيلُ إِلَى أَمْثَالِهَا، وَمِنْ شَأْنِهِمْ نَصْرُ الضَّعِيفِ عَلَى الْقَوِيِّ وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا، فَاشْتَرَيْنَا لِسَانَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَرَأَيْنَا هَذَا أَرْبَحَ وَأَنْجَحَ» (٥٢)

وقال محمد بن أحمد بن حمدون: دخل هارون بن زياد مؤدب الواثق، على الواثق فأكرمه وأظهر من بره ما شهر به، فقيل له: من هذا يا أمير المؤمنين الذي فعلت به ما فعلت؟ فقال: هذا أول من فتق لساني بذكر الله، وأدناني من رحمة الله» (٥٣)

---

(٥١) «البداية والنهاية» (١٣/ ٥٤٤ ت التركي).

(٥٢) «تاريخ بغداد ت بشار» (٣/ ٣٨٢).

(٥٣) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٦/ ٢٢).

وقال ابن القيم (ت٧٥١هـ): «وأدبُ المرء: عنوانُ سعادته وفلاحه.... فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نَجّى صاحبَه من حَبْس الغار حين أطبقَتْ عليهم الصّخرة؟ (٥٤)

(٥٤) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٥٩٧٤) ومسلم برقم (٢٧٤٣) من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ، أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً فَادْعُوا اللهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا، فَقَالَ أَحَدُهُمُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الثَّانِي: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ، حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ، فَقُمْتُ عَنْهَا اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا، فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً، وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ، فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ عَنْهُمْ.»

والإخلالُ به مع الأمِّ ـ تأويلًا وإقبالًا على الصّلاة ـ كيف امتحنَ صاحبَه بهدْمِ صَومعتِه، وضَرْبِ النّاس له، ورَمْيِه بالفاحشة؟ (٥٥)

وتأمّل أحوالَ كلِّ شقيٍّ ومُعَثَّرٍ ومُدبرٍ:
كيف تجد قلّة الأدب هو الذي ساقَه إلى الحرمان؟

(٥٥) صحيح: أخرجه البخارى برقم (١٢٠٦) ومسلم برقم (٢٥٥٠) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ -وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي. فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ. قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ. فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي. قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ، كَمَا كَانَتْ. فَفَعَلُوا.

وانظر قلّة أدب عَوفٍ مع خالدٍ:
كيف حَرَمَه السّلَبَ بعد أن بَرَدَ بيديه؟ (٥٦)

وانظر أدب الصِّدّيق رضي الله عنه وأرضاه مع النّبيّ ﷺ في الصّلاة:
أن يتقدّم بين يديه.

---

(٥٦) صحيح: أخرجه مسلم برقم (١٧٥٣) من حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ رَجُلًا مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَرَادَ سَلَبَهُ، فَمَنَعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَكَانَ وَالِيًا عَلَيْهِمْ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لِخَالِدٍ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلَبَهُ؟» قَالَ: اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «ادْفَعْهُ إِلَيْهِ»، فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوْفٍ، فَجَرَّ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَغْضَبَ، فَقَالَ:
«لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ، لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمَرَائِي؟ إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلًا، أَوْ غَنَمًا، فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا، فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا، فَشَرِعَتْ فِيهِ فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ، وَتَرَكَتْ كَدْرَهُ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ، وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ»

وقد روى البخارى برقم (٣١٤٢) ومسلم برقم (١٧٥١)من حديث أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَامَ حُنَيْنٍ، فَلَمَّا الْتَقَيْنَا، كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَدَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَأَرْسَلَنِي، فَلَحِقْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَمْرُ اللهِ، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا، وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ".

وقال: «ما كان ينبغي لابن أبي قُحَافة أن يتقدَّم بين يدي رسول الله ﷺ» (٥٧)
كيف أورثه مقامَه والإمامةَ بالأمّة بعده؟
فكان ذلك التّأخُّر إلى خلفه ـ وقد أومأ إليه أن اثبُتْ مكانَك ـ جَمْزًا وسعيًا إلى قُدَّام، بكلِّ خطوةٍ إلى وراء مراحلَ إلى قُدَّام تنقطعُ فيها أعناقُ المطيِّ» (٥٨)

(٥٧) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٦٤٨) ومسلم برقم (٤٢١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَهَبَ إِلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمْ فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَجَاءَ الْمُؤَذِّنُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: أَتُصَلِّي بِالنَّاسِ فَأُقِيمُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ فِي الصَّلَاةِ، فَتَخَلَّصَ حَتَّى وَقَفَ فِي الصَّفِّ فَصَفَّقَ النَّاسُ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ لَا يَلْتَفِتُ فِي الصَّلَاةِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ التَّصْفِيقَ الْتَفَتَ فَرَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنِ امْكُثْ مَكَانَكَ، فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ يَدَيْهِ فَحَمِدَ اللهَ عز وجل عَلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ. ثُمَّ اسْتَأْخَرَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى اسْتَوَى فِي الصَّفِّ، وَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺفَصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ. فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَثْبُتَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا كَانَ لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا لِي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرْتُمُ التَّصْفِيقَ!! مَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيُسَبِّحْ، فَإِنَّهُ إِذَا سَبَّحَ الْتُفِتَ إِلَيْهِ. وَإِنَّمَا التَّصْفِيحُ لِلنِّسَاءِ»

(٥٨) «مدارج السالكين» (٣/ ١٦٢ ط عطاءات العلم).

وقال سُفْيَان الثَّوْرِيّ (ت١٦١هـ):
كَانَ يُقَالُ حُسْنُ الْأَدَبِ يُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ» (٥٩)

وقال رُوَيْم بن أحمد البغدادي (ت٣٠٣هـ) لابنه:
يَا بُنَيَّ اجْعَلْ عَمَلَك مِلْحًا وَأَدَبَك دَقِيقًا.

فعلق القرافي (ت٦٨٤هـ) قائلاً:
أَيْ اسْتَكْثِرْ مِنْ الْأَدَبِ حَتَّى تَكُونَ نِسْبَتُهُ فِي الْكَثْرَةِ نِسْبَةَ الدَّقِيقِ إلَى الْمِلْحِ وَكَثِيرٌ مِنْ الْأَدَبِ مَعَ قَلِيلٍ مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ الْعَمَلِ مَعَ قِلَّةِ الْأَدَبِ» (٦٠)

وقال أبو حاتم سهل بن مُحَمَّد (ت٢٤٨هـ):

إِنَّ الْجَوَاهِرَ دُرَّهَا وَنَضَارَهَا ... هُنَّ الْفِدَى لِجَوَاهِرِ الآدَابِ
فَإِذَا كَنزتَ أَو ادَّخَرْتَ ذَخِيرَةً ... تَسْمُو بزينتها على الْأَصْحَاب
فَعَلَيْكَ بالأدب الْمُزَيِّنِ أَهْلَهُ ... كَيْمَا تَفُوزَ بِبَهْجَةٍ وَثَوَابِ (٦١)

(٥٩) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٦/ ٣٦٢).
(٦٠) «أنوار البروق في أنواء الفروق» (٣/ ٩٦).
(٦١) «أدب الإملاء والاستملاء» (ص٢).

وقِيلَ لابن المبارك (ت١٨١هـ)

مَا خير مَا أعطى الرجل؟ قَالَ: غريزة عقل.

قِيلَ فإن لم يكن قَالَ أدب حســـــن

قِيلَ فإن لم يكن قَالَ أخ صالح يستشيره

قِيلَ فإن لم يكن قَالَ صمت طـــــويل

قِيلَ فإن لم يكن قَالَ مـوت عـاجــل (٦٢)

وقال مَالك بْن أَنَسٍ (ت١٧٩هـ):

كَانَتْ أُمِّي تُلْبِسُنِي الثِّيَابَ وَتُعَمِّمُنِي وَأَنَا صَبِيٌّ وَتُوَجِّهُنِي إِلَى رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَتَقُولُ يَا بُنَيَّ ائْتِ مَجْلِسَ رَبِيعَةَ فَتَعَلَّمْ مِنْ سَمْتِهِ وَأَدَبِهِ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنْ حَدِيثِهِ وفقهه» (٦٣)

ولله در القائل:

إذا أنتَ صاحَبْتَ الرِّجال فكن فتًى ... كأَنَّكَ مَمـــلوكٌ لكلّ صَديقِ

وكنْ مثلَ طَعْـمِ الماءِ عَذْبًا وبارِدًا ... على الكَبِدِ الحَرَّى لكلّ رَفيقِ

(62) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لابن حبان (ص١٧).

(63) «التمهيد - ابن عبد البر - ط المغربية» (٣/ ٤).

وقَالَ البُوْشَنْجِيّ (ت٢٩١هـ):
مَنْ أَرَادَ العِلْم وَالفِقْه بِغَيْر أَدبٍ، فَقَدْ اقتحمَ أَن يكذب عَلَى اللهِ وَرَسُوْله» (٦٤)

وقَالَ ابْنُ سِيرِينَ (ت١١٠هـ):
«كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْهَدْيَ كَمَا يَتَعَلَّمُونَ الْعِلْمَ» وَبَعَثَ ابْنُ سِيرِينَ رَجُلًا فَنَظَرَ كَيْفَ هَدْيُ الْقَاسِمِ -ابن محمد بن أبي بكر الصديق- وَحَالُهُ " (٦٥)

وقَالَ وَكِيعٌ:
«هَذِهِ صَنَاعَةٌ لَا يَرْتَفِعُ فِيهَا إِلَّا صَادِقٌ» (٦٦)

قلت: والهدف الأسمى من العلم والأدب والعمل هو ابتغاء مرضاة الله فمن أرضى الله، رضي الله عنه وأرضاه وأرضى عنه الناس وهذه شذرات من بين ركام المحابر والدفاتر في آداب طالب العلم دونك فاغتنمها.

(٦٤) «تاريخ دمشق لابن عساكر» (٥١/ ٢٠٨).
(٦٥) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٧٩).
(٦٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٧).

الباب الثاني:

الفصل الثاني:

آداب طالب العلم.

المبحث الأول:

الإخلاص في الطلب:

١-الإخلاص في الطلب:

الإخلاص: هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

وبالإخلاص تحصل للعبد بركة الدنيا والآخرة ومن صور الإخلاص في الطلب:

أن تنوي بطلب العلم رفع الجهلَ عن النفس، وعبادة الله على بصيرة، وزيادة الخشية لله، ورفعة الدرجة والمنزلة، والتقرّب إلى الله بطلب العلم لأن طلبه ومدارسته عبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ (٦٧)

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ (٦٨)

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾ (٦٩)

وروي الشيخان من حديث عَلْقَمَةَ بْن وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ، قال: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ،

---

(٦٧) [البينة: ٥].

(٦٨) [الشورى: ٢٠].

(٦٩) [الإسراء: ١٨].

وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» (٧٠)

وروى النسائي بسند صحيح من حديث مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ» (٧١)

وروي مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ (٧٢) أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ

(٧٠) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٥٤) ومسلم برقم (١٩٠٧).
(٧١) صحيح: أخرجه النسائي في "الصغرى" برقم (٣١٧٨) و"الكبرى" برقم (٤٣٧٢).
(٧٢) ناتل: بمثناة -ابن قيس بن زيد الشامي الفلسطيني، أحد الأمراء لمعاوية رضي الله عنه وولده، (ت٦٦ هـ).

الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ " (٧٣)

وروى أحمد من حديث زَيْد بْن ثَابِت أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: "نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ. ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ "» (٧٤)

وروي الترمذي من حديث كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ» (٧٥)

---

(٧٣) صحيح: أخرجه مسلم برقم (١٩٠٥).

(٧٤) صحيح: أخرجه أحمد برقم (١٣٣٥٠) والدارمي برقم (٢٣٥) وابن حبان برقم (٨٣٤).

(٧٥) صحيح بشواهده: أخرجه الترمذي برقم (٢٦٥٤) وفيه إسحاق بن يحيى ليس بذاك القوي وله شواهد من حديث أبي هريرة أخرجه ابن ماجة برقم (٢٥٢) ومن حديث ابن عمر أخرجه ابن ماجه أيضًا برقم (٢٥٣) ومن حديث أنس أخرجه: البزار برقم (٧٢٩٥)، وغيرهم.

وروى الدارمي من حديث ابْن مَسْعُود: قَالَ " كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِستكُمْ فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً، فَإِذَا غُيِّرَتْ قَالُوا: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ ". قَالُوا: وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: «إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ» (٧٦)

وروى أبو داود من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يَعْنِي رِيحَهَا" (٧٧)

وروى أحمد من حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمِ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ " » (٧٨)

---

(٧٦) صحيح: أخرجه الدارمي في" سننه " برقم (١٩١).

(٧٧) حسن: أخرجه أبو داود برقم (٣٦٦٤) وابن ماجه برقم (٢٥٢) وأحمد برقم (٨٤٥٧) وابن حبان برقم (٧٨) وسنده حسن لأجل فليح بن سليمان صدوق وقد انتقى له البخاري ومسلم أحاديث.

(٧٨) حسن: أخرجه أحمد برقم (٢١٢٢٢) بسند حسن من أجل يحيى بن يمان العِجْلي الكوفي، وقد توبع:

تابعه: زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ

أخرجه الحاكم برقم (٧٨٦٢)، ومُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ أخرجه أحمد برقم (٢١٢٢١)، وعَبْدُ الرَّزَّاقِ أخرجه أحمد برقم (٢١٢٢٠).

وهذه شذرات من بين ركام المحابر والدفاتر في الإخلاص:

قال إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْعَثِ سمعت الفضيل بن عياض يقول في قوله:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧٩)

قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ» (٨٠)

وكَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ:

يَحْمِلُ جِرَابَ الْخُبْزِ عَلَى ظَهْرِهِ بِاللَّيْلِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ وَيَقُولُ: «إِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ» (٨١)

ونقل مهنا عن الإمام أحمد قوله:

"طلب العلم أفضل الأعمال لمن صحت نيته"، قيل فأي شيء تصحيح النية؟ قال: ينوي بتواضع، وينفي عنه الجهل» (٨٢)

---

(٧٩) [الملك: ٢].

(٨٠) «الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا» برقم (٢٢).

(٨١) أخرجه أبونعيم في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٣/ ١٣٥).

(٨٢) «الفروع وتصحيح الفروع» (٢/ ٣٣٩).

وقال الشَّافعِيّ:

وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعَلَّمُوا هَذَا العِلْمَ يَعْنِي: كُتُبَهُ عَلَى أَنْ لَا يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ» (٨٣)

وقَالَ عَوْنُ بنُ عُمَارَةَ:

سَمِعْتُ هشَاماً الدَّسْتُوَائِيَّ يَقُوْلُ: وَاللهِ مَا أَسْتَطِيْعُ أَنْ أَقُوْلَ: إِنِّي ذَهَبتُ يَوْماً قَطُّ أَطْلُبُ الحَدِيْثَ، أُرِيْدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ عز وجل.

قُلْتُ: وَاللهِ وَلَا أَنَا، فَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَطلُبُوْنَ العِلْمَ للهِ، فَنَبُلُوا، وَصَارُوا أَئِمَّةً يُقتَدَى بِهِم، وطَلَبَهُ قَوْمٌ مِنْهُم أَوَّلاً لَا للهِ، وَحَصَّلُوْهُ ثُمَّ اسْتَفَاقُوا، وَحَاسَبُوا أَنْفُسَهُم فَجَرَّهُمُ العِلْمُ إِلَى الإِخْلَاصِ فِي أَثنَاءِ الطَّرِيْقِ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَغَيْرُهُ: طَلَبْنَا هَذَا العِلْمَ، وَمَا لَنَا فِيْهِ كَبِيْرُ نِيَّةٍ ثُمَّ رَزَقَ اللهُ النِّيَّةَ بَعْدُ، وَبَعْضُهُم يَقُوْلُ: طَلَبْنَا هَذَا العِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ فَأَبَى أَنْ يكون إِلَّا للهِ. فَهَذَا أَيْضاً حَسَنٌ، ثُمَّ نَشَرُوْهُ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ» (٨٤)

وقال عمر بن ذرّ لأبيه:

يا أبت، مالك إذا تكلّمت أبكيت الناس، وإذا تكلّم غيرك لم يبكهم؟ فقال: يا بنيّ، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة.

وفي بعض ما أوحى الله إلى نبيّ من أنبيائه:

هب لي من قلبك الخشوع،

(٨٣) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٨/ ٢٤٥).

(٨٤) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٦/ ٥٧٠).

ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع، وادعني، فإني قريب» (٨٥)

وقال بدر الدين ابن جماعة:

«واعلم أن جميع ما ذُكِرَ من فضيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم، والزلفى لديه في جنات النعيم، لا من طلبه بسوء نية أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية من جاه أو مال أو مكاثرة في الأتباع والطلاب» (٨٦)

وقَالَ ابْنُ السَّمَّاكِ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ، يَقُولُ:

«مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي، إِنَّهَا تَقَلَّبُ عَلَيَّ» (٨٧)

وقال ابْن عَائِشَةَ:

قَالَ أَبِي: " سَمِعْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ، يَقُولُونَ: «مَا فَقَدْنَا صَدَقَةَ السِّرِّ حَتَّى مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ» (٨٨)

---

(٨٥) «عيون الأخبار» (٢/ ٣٢١).

(٨٦) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» (ص١٣).

(٨٧) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٣١٧).

(٨٨) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٣/ ١٣٦).

وقَالَ عَمْرو بْن ثَابِتٍ:

"لَمَّا مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ فَغَسَّلُوهُ جَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى آثَارٍ سَوْدَاءَ بِظَهْرِهِ، كَانَ يَحْمِلُ جُرُبَ الدَّقِيقِ لَيْلًا عَلَى ظَهْرِهِ يُعْطِيهِ فُقَرَاءَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» (٨٩)

وقال مُحَمَّد بن عيسى:

كان ابنُ المبارك كثيرَ الاختلاف إلى طَرَسُوس، وكان ينزل الرَّقة في خان، وكان يختلف إليه شابّ يقوم بحوائجه ويسمع عليه الحديث، فقدم الرقَّة مرَّةً فلم يره، فسأل عنه، فقيل: هو محبوسٌ بدَين، قال: وكم دَينُه؟ قالوا: عشرة آلافِ درهم، فدعا بصاحب الدَّين ليلًا ودفع إليه المال، وسأله ألا يُعلم الفتى. وسافر ابنُ المبارك، وأَخرج الرجلُ الفتى مَن الحبس ولم يعلم مَن قضى دينه، وقيل للفتى: كان ابنُ المبارك ها هنا والبارحةَ سافر، فخرج خلفه فلحقه على مراحل، فقال له: يا فتى، ما الذي أَبطأ بك؟ فقال: كنتُ محبوسًا بدين فجاء رجلٌ فقضاه عنّي، قال: مَن الرَّجل؟ قال: لا أعلم، فقال ابنُ المبارك: الحمد الله. ولم يَعلم الفتى أنَّ ابن المبارك قضاه، ولم يُخبر صاحبُ الدَّين أحدًا بشيءٍ حتَّى مات ابنُ المبارك. وكان إذا أقام ببغدادَ يتصدَّق كلَّ يوم بدينار.

وقال القاسم بن محمَّد: قلت في نفسي: بأيِّ شيءٍ فُضّل هذا الرجلُ علينا حتَّى اشتهر بين النَّاس هذه الشُّهرة؟! إنْ كنا لَنصلِّي كما يصلي، ونصوم كما يصوم، ونحجُّ كما يحجّ، ونغزو كما يغزو. قال: فدخلتُ عليه في بعض الليالي وإذا به في الظّلمة، فخرجت

(٨٩) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٣/ ١٣٦).

وأتيتُه بسراج، وإذا وجهُه ولحيتهُ قد امتلآ من البكاء والدُّموع، فلعله ذكر ظُلمةَ القبر، فقلت في نفسي: بهذه الخشيةِ فضِّل علينا» (٩٠)

وقَالَتْ سُرِّيَّةُ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ:
كَانَ عَمَلُ الرَّبِيعِ كُلُّهُ سِرًّا يَجِيءُ الرَّجُلُ وَقَدْ نَشَرَ الْمُصْحَفَ فَيُغَطِّيهِ بِثَوْبِهِ» (٩١)

وقال أبو عثمان الحِيري سعيد بن إسماعيل:
صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق لدوام النظر إلى الخالق، والإخلاص أن تريد بقلبك وعملك وفعلك رضا الله تعالى خوفا من سخط الله، كأنك تراه بحقيقة عملك بأنه يراك، حتى يذهب الرياء عن قلبك، ثم تذكر منة الله عليك إذ وفقك لذلك العمل، حتى يذهب العجب من قلبك، وتستعمل الرفق في عملك، حتى تذهب العجلة من قلبك» (٩٢)

وقال السري:
«وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ» (٩٣)

---

(٩٠) «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (١٣/ ١٩).
(٩١) صحيح: أخرجه أحمد بن حنبل في «الزهد» برقم (١٩٤٣).
(٩٢) صحيح: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٦٨٨٥).
(٩٣) «صفة الصفوة» (١/ ٤٩٧).

وقَالَ الْجُنَيْدُ:
الْإِخْلَاصُ: سِرٌّ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ، وَلَا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدُهُ. وَلَا هَوًى فَيُمِيلُهُ

وَقَالَ رويم الإخلاص من العمل هُوَ الَّذِي لا يريد صاحبه عَلَيْهِ عوضا من الدارين ولاحظا من الملكين

وَقِيلَ لِسَهْلٍ:
أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ؟ فَقَالَ: الْإِخْلَاصُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا فِيهِ نَصِيبٌ

وسئل بَعْضهم عَنِ الإخلاص فَقَالَ:
أَن لا تشهد عَلَى عملك غَيْر الله عز وجل» (٩٤)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

الْإِخْلَاصُ: أَنْ لَا تَطْلُبَ عَلَى عَمَلِكَ شَاهِدًا غَيْرَ اللَّهِ، وَلَا مُجَازِيًا سِوَاهُ.

وَقَالَ مَكْحُولٌ:
مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ قَطُّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا إِلَّا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ.

وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ:
أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا: الْإِخْلَاصُ.
وَكَمْ أَجْتَهِدُ فِي إِسْقَاطِ الرِّيَاءِ عَنْ قَلْبِي. فَكَأَنَّهُ يَنْبُتُ عَلَى لَوْنٍ آخَرَ.

(٩٤) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٦١).

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ:
إِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ كَثْرَةُ الْوَسَاوِسِ وَالرِّيَاءِ» (٩٥)

وكان ابن أبي ليلى
يصلي، فإذا دخل عليه أحد نام على فراشه.
وقال الحسن:
كان الرجل تأتيه عبرته فيسترها، فإذا خشي أن تسبقه قام من المجلس.
باحَ مَجنونُ عامِرٍ بِهواهُ وَكَتَمتُ الهَوى فَمَتَّ بِوجدي (٩٦)

وقال جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ:
سَمِعت أَبَا الدَّرْدَاءِ، وَهُوَ فِي آخِرِ صَلَاتِه وَقَدْ فَرَغَ مِنَ التَّشَهُّدِ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ النِّفَاقِ فَأَكْثَرَ مِنَ التَّعَوُّذِ مِنْهُ قَالَ: فَقَالَ جُبَيْرٌ: وَمَا لَكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَنْتَ وَالنِّفَاقَ؟ فَقَالَ: دَعْنَا عَنْكَ فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَقَلَّبُ عَنْ دِينِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ فَيُخْلَعُ مِنْهُ» (٩٧)

وكَانَ إِبْرَاهِيم النَّخعِيّ
إِذا قَرَأَ فِي الْمُصحف فَدخل دَاخل غطاه

(٩٥) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢ ط الكتاب العربي).
(٩٦) «اللطائف» لابن الجوزى (ص١٠).
(٩٧) «صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي» (ص١١٣).

وَكَانَ ابْن أبي ليلى

إِذا دخل دَاخل وَهُوَ يُصَلِّي إضطجع على فرَاشه

أَفدي ظِباءَ فُلاةٍ ما عَرَفنَ بِها ... مَضغَ الكَلامِ وَلا صَبغ الحواجِبِ

ومرض ابْن أدهم

فَجعل عِنْد رَأسه مَا يَأْكُلهُ الأصحاء لِئَلَّا يتشبه بالشاكين هَذِه وَالله بهرجة أصح من نقدك.

قَد سَحَبَ الناسُ أَذيالَ الظُنونِ بِنا ... وَفَرَّقَ النـاسُ فينـا قَولَهُم فِرقا

فَكاذِبٌ قَد رَمى بِالظَنِ غَيرَكُمُ ... وَصادِقٌ لَيس يَدري أَنَّهُ صَدَقا

واشْتهر ابْن أدهم بِبَلَد

فَقيل هُوَ فِي الْبُسْتَان الْفُلَانِيّ فَدخل النَّاس يطوفون وَيَقُولُونَ أَيْن إِبْرَاهِيم بن أدهم فَجعل يطوف مَعَهم وَيَقُول أَيْن إِبْرَاهِيم بن أدهم» (٩٨)

وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ:

أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا: الْإِخْلَاصُ، وَكَمْ أَجْتَهِدُ فِي إِسْقَاطِ الرِّيَاءِ عَنْ قَلْبِي. فَكَأَنَّهُ يَنْبُتُ عَلَى لَوْنٍ آخَرَ" (٩٩)

(٩٨) «المدهش» (ص٤٠٠).

(٩٩) «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٦٢).

ومن بركة الإخلاص:

قال الحافظ ابن حجر:

وقال ابن وضاح بلغني أن رجلا كان يطوف ويقول اللهم اقض عني الدين فرأى في المنام أن كنت تريد وفاء الدين فائت حيوة بن شريح يدعو لك فأتى إلى الإسكندرية بعد العصر يوم الجمعة قال فأقمت حتى صار ما حوله دنانير فقال لي اتق الله ولا تأخذ إلا قدر دينك فأخذت ثلاثمائة» (١٠٠)

وكَانَ حَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ:

دَعَّاءً مِنَ الْبَكَّائِينَ، وَكَانَ ضَيِّقَ الْحَالِ جِدًّا، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ، وَهُوَ مُخْتَلٍ وَحْدَهُ يَدْعُو، فَقُلْتُ: رَحِمَكَ اللَّهُ، لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَوَسَّعَ عَلَيْكَ فِي مَعِيشَتِكَ قَالَ: فَالْتَفَتَ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَمْ يَرَ أَحَدًا، فَأَخَذَ حَصَاةً مِنَ الْأَرْضِ، فَقَالَ: " اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا ذَهَبًا قَالَ: فَإِذَا هِيَ وَاللَّهِ تِبْرَةٌ فِي كَفِّهِ مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْهَا قَالَ: فَرَمَى بِهَا إِلَيَّ، وَقَالَ: مَا خَيْرٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْآخِرَةَ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ، فَقُلْتُ: مَا أَصْنَعُ بِهَذِهِ؟ قَالَ: اسْتَنْفِقْهَا، فَهِبْتُهُ وَاللَّهِ أَنْ أُرَادَّهُ "» (١٠١)

«وَكَانَ مستجاب الدعْوَة يُقَال إِن الْحَصَاة كَانَت تتحول فِي يَده تَمْرَة بدعائه» (١٠٢)

---

(١٠٠) «تهذيب التهذيب» (٣/ ٧٠).

(١٠١) «مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا» (ص٨٣).

(١٠٢) «الثقات لابن حبان» (٦/ ٢٤٧).

وقال يَحْيَى بن مَعِيْنٍ:

كُنَّا بِقَرِيَةٍ مِنْ قُرَى مِصْرَ وَلَمْ يَكُنْ مَعَنَا شَيْءٌ، وَلَا ثَمَّ شَيْءٌ نَشْتَرِيهِ فَلَمَّا أَصبَحْنَا إِذَا نَحْنُ بِزِنْبِيلٍ مُلِئَ بِسَمَكٍ مَشْوِيٍّ وَلَيْسَ عِنْدَ أَحَدٍ، فَسَأَلُونِي، فَقُلْتُ: اقتَسِمُوهُ، وَكُلُوهُ، فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّهُ رِزْقٌ رَزَقَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى» (١٠٣)

وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه:

بنيت أمري على الصدق وذلك أني خرجت من مكة إلى بغداد أطلب العلم فأعطتني أمي أربعين دينارا وعاهدتني على الصدق فلما وصلنا أرض همدان خرج علينا عرب فأخذوا القافلة فمر واحد منهم وقال ما معك؟

قلت: أربعون ديناراً.

فظن أني أهزأ به فتركني فرآني رجل آخر فقال ما معك فأخبرته فأخذني إلى كبيرهم فسألني فأخبرته.

فقال ما حملك على الصدق؟

قلت عاهدتني أمي على الصدق فأخاف أن أخون عهدها فصاح ومزق ثيابه. وقال أنت تخاف أن تخون عهد أمك وأنا لا خاف أن أخون عهد الله ثم أمر برد ما أخذوه من القافلة وقال أنا تائب لله على يديك فقال من معه أنت كبيرهم في قطع الطريق وأنت اليوم كبيرنا في التوبة فتابوا جميعا ببركة الصدق» (١٠٤)

---

(١٠٣) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٩/ ١٣١).

(١٠٤) «نزهة المجالس ومنتخب النفائس» (١/ ١٤٥).

وقال ابن أبي حاتم:

باب ما ظهر لأبي زرعة من سيد عمله عند وفاته:

حدثنا عبد الرحمن قال سمعت أبي يَقُولُ: مَاتَ أَبُو زُرْعَةَ مَطْعُونًا مَبْطُونًا يَعْرَقُ جَبِينُهُ فِي النَّزْعِ فَقُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ: مَا تَحْفَظُ فِي تَلْقِينِ الْمَوْتَى لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ؟ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ: يُرْوَى عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - فَمَنْ قَبِلَ أَنْ يَسْتَتِمَّ رَفَعَ أَبُو زُرْعَةَ رَأْسَهُ وَهُوَ فِي النَّزْعِ فَقَالَ:

رَوَى عبد الحميد ابن جَعْفَرٍ عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي عَرِيبٍ عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ عَنْ مُعَاذٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَصَارَ الْبَيْتُ ضَجَّةً بِبُكَاءِ مَنْ حَضَرَ» (١٠٥)

وقال عياض في ترجمة مسرة بن مسلم بن ربيعة الحضرمي:

ولما احتضر رحمه الله، ابتدأ القرآن، فانتهى في طه، الى قوله تعالى: " وعجِلتُ إليك ربّي لترضى " ففاضت نفسه» (١٠٦)

وقِيلَ لِحَمْدُونَ بْنِ أَحْمَدَ:

مَا بَالُ كَلَامِ السَّلَفِ أَنْفَعُ مِنْ كَلَامِنَا؟ قَالَ: " لأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا لِعِزِّ الْإِسْلَامِ وَنَجَاةِ النُّفُوسِ وَرِضَاءِ الرَّحْمَنِ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ لِعِزِّ النَّفْسِ وَطَلَبِ الدُّنْيَا وَقَبُولِ الْخَلْقِ» (١٠٧)

---

(١٠٥) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (١/ ٣٤٥).

(١٠٦) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ٢٧١).

(١٠٧) «طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات» (ص١١٠).

وقال علي بن الحسن بن شقيق:

لم أر أحدا من الناس اقرأ من ابن المبارك، ولا أحسن قراءة ولا أكثر صلاة منه، كان يصلي الليل كله في السفر وغيره، وكان يرتل القراءة ويمدها، وإنما ترك النوم في المحمل لأنه كان يصلي وكان الناس لا يدرون» (١٠٨)

وحكَى القَاضِي حُسَيْنٌ عَنِ القَفَّال أُسْتَاذِه:

أَنَّهُ كَانَ فِي كَثِيْرٍ مِنَ الأَوقَاتِ يَقَعُ عَلَيْهِ البُكَاءُ حَالَةَ الدَّرْسِ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَقُوْلُ: مَا أَغْفَلَنَا عَمَّا يُرَادُ بِنَا» (١٠٩)

وكان محمد بن أعين صاحب ابن المبارك في الأسفار وكان كريما عليه، قال: كان ذات ليلة ونحن في غزاة الروم ذهب ليضع رأسه ليريني أنه ينام فقلت أنا برمحي في يدي قبضت عليه ووضعت رأسي على الرمح كأني أنام كذلك قال فظن إني قد نمت فقام فأخذ في صلاته فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا أرمقه فلما طلع الفجر جاء فأيقظني وظن إني نائم وقال يا محمد فقلت إني لم أنم قال فلما سمعها مني ما رأيته بعد ذلك يكلمني ولا ينبسط الي في شئ من غزاته كلها كأنه لم يعجبه ذاك مني لما فطنت له من العمل فلم أزل أعرفها فيه حتى مات ولم أر رجلا قط أسر بالخير منه» (١١٠)

(١٠٨) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (١/ ٢٦٦).
(١٠٩) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٣/ ١٣٠).
(١١٠) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (١/ ٢٦٦).

وقَالَ ابْنُ الْأَثْمَاطِيِّ الْحَافِظُ:

رَغَّبْتُ أَبَا عَلِيٍّ حَنْبَلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِيَّ الرَّصَافِيَّ رَاوِيَ مُسْنَدِ أَحْمَدَ فِي السَّفَرِ إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ فَقِيرًا جِدًّا فَقُلْتُ لَهُ: يَحْصُلُ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا طَرَفٌ صَالِحٌ، وَيُقْبِلُ عَلَيْكَ وُجُوهُ النَّاسِ وَرُؤَسَاؤُهُمْ، فَقَالَ: دَعْنِي، فَوَاللَّهِ مَا أُسَافِرُ لِأَجْلِهِمْ، وَلَا لِمَا يَحْصُلُ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا أُسَافِرُ خِدْمَةً لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْوِي أَحَادِيثَهُ فِي بَلَدٍ لَا تُرْوَى فِيهِ.

قَالَ: وَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ هَذِهِ النِّيَّةَ الصَّالِحَةَ أَقْبَلَ بِوُجُوهِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَحَرَّكَ الْهِمَمَ لِلسَّمَاعِ عَلَيْهِ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ لَا نَعْلَمُهَا، اجْتَمَعَتْ فِي مَجْلِسِ سَمَاعٍ قَبْلَ هَذَا بِدِمَشْقَ، بَلْ لَمْ يَجْتَمِعْ مِثْلُهَا قَطُّ لِأَحَدٍ مِمَّنْ رَوَى الْمُسْنَدَ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْإِخْلَاصَ قَوْلًا وَفِعْلًا» (١١١)

وقال ابراهيم الأمير:

على بابي رجلان أحدهما يخاف الله، ولا يخافني.

والثاني يخافني، ولا يخاف الله.

فأما الذي يخاف الله ولا يخافني، فهو ابن طالب.

والثاني فلان.

فذلك عظيم الحرمة عندي.

وهذا الذي يخافني، صغير عندي.

قال بعضهم: ذكرت ذلك لابن طالب، فقال: صدق.

---

(١١١) «تاريخ الإسلام - ت تدمري» (٤٣/ ١٤٣).

قال القصري: كان ابن طالب، يذكر تنازع أصحابنا في المسائل، فربما ذكر في المسألة خمسة أقوال، أو ستة. ثم تسيل دموعه، ويضع خده على الأرض، ويقول: يا فتى: أردت أن يقال فقيه. فهل معك عمل صالح، تنجو به من عذاب الله، وإلا فما يغني هذا عنك. وما رأيت أكثر دموعاً عند ذكر رسول الله ﷺ منه. وكان مع ذلك يقول أعجبتني نفسي، فأقول: يا ابن طالب هبك أعظم الناس قدراً، وأكثرهم علماً، أليس يشفع وراء ذلك كله الموت؟» (١١٢)

وعَنْ عَبْدِ القُدُّوْسِ بن محمد الحبحابي:

سمعت أبي يقول: لما مات شُعْبَةُ أُرِيتُهُ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ مِسْعَرٍ وَعَلَيْهِمَا قَمِيْصَا نُوْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بِسْطَامَ مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟قَالَ: غَفَرَ لِي. قُلْتُ: بِمَاذَا؟ قَالَ بِصِدْقِي فِي رِوَايَةِ الحَدِيْثِ وَنَشْرِي لَهُ وَأَدَائِي الأَمَانَةَ فِيْهِ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُوْلُ:

حَبَانِي إِلَهِي فِي الجِنَانِ بِقُبَّةٍ ... لَهَا أَلْفُ بَابٍ مِنْ لُجَيْنٍ وَجَوْهَرُ
شَرَابِي رَحِيْقٌ فِي الجِنَانِ وَحِلْيَتِي ... مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيْزِ وَالتَّاجُ أَزْهَرُ
وَنَقْلِي لِثَامُ الحُوْرِ وَاللهُ خَصَّنِي ... بِقَصْرٍ عَقِيْقٍ تُرْبَةُ القَصْرِ عَنْبَرُ
وَقَالَ لِيَ الرَّحْمَنُ يَا شُعْبَةُ الَّذِي ... تَبَحَّرَ فِي جَمْعِ العُلُوْمِ فَأَكْثَرُ
تَنَعَّمْ بِقُرْبِي إِنَّنِي عَنْكَ رَاضِي ... وَعَنْ عَبْدِيَ القَوَّامِ بِاللَّيْلِ مِسْعَرُ
كَفَى مِسْعَراً عِزّاً بِأَنْ سَيَزُوْرُنِي ... فَأَكْشِفُ حُجْبِي ثُمَّ أُدْنِيْهِ يَنْظُرُ (١١٣)

وقال ابن الجوزي:

---

(١١٢) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٤/ ٣٢١).

(١١٣) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٦/ ٦١٤).

«يَا معاشر الْعلمَاء قد كتبتم ودرستم ثمَّ إِن طَلَبكُمْ الْعلم فلستم فِي بَيت الْعَمَل ثمَّ لَو ناقشكم الْإِخْلَاص لأفلستم.

شَجَرَة الْإِخْلَاص أَصْلهَا ثَابت لَا يَضرهَا زعزع ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ وَأما شَجَرَة الرِّيَاء فاجتثت عِنْد نسمَة ﴿ وَقِفُوهُمْۖ﴾ كم متشبه بالمخلصين فِي تخشعه ولباس وأفواه الْقُلُوب تنفر من طعم مذاقه وَا أسفي مَا أَكثر الزُّور أما الْخيام فَإِنَّهَا نكيامهم لَيْسَ كل مستدير يكون هلالا لَا لَا

وَمَا كل من أومى إِلَى الْعِزّ ناله وَدون العلى ضرب يدمي النواصيا (١١٤)

وعَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:

"كَانَ أَيُّوبُ فِي مَجْلِسٍ، فَجَاءَتْهُ عَبْرَةٌ، فَجَعَلَ يَتَخَطَّى، فَيَقُولُ: مَا أَشَدَّ الزُّكَامَ» (١١٥)

وكَانَ إِبْرَاهِيم النَّخعِيّ: إِذا قَرَأَ فِي الْمُصحف فَدخل دَاخل غطاه.

وَكَانَ ابْن أبي ليلى: إِذا دخل دَاخل وَهُوَ يُصَلِّي إضطجع على فرَاشه» (١١٦)

وقَالَ الْحَسَن:

---

(١١٤) «المدهش» (ص٤٠٠).

(١١٥) «مسند ابن الجعد» (ص١٩٠).

(١١٦) «المدهش» (ص٤٠٠).

«إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَجْلِسُ الْمَجْلِسَ فَتَجِيئُهُ عَبْرَتُهُ فَيَرُدُّهَا فَإِذَا خَشِيَ أَنْ تَسْبِقَهُ قَامَ» (١١٧)

فإخلاص العمل لله فيه مشقة وعسر، إلا أنه يسير على مَن يسَّره الله عليه وقد كانوا يتعلَّمون النية للعمل، كما يتعلَّمون العمل.

وسُئل الإمام أحمد بن حنبل عن الصدق والإخلاص؟ فقال: "بهذا ارتفع القوم"

وكتب عمر إلى أبي موسى رضي الله تعالى عنهما:

"من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانه الله عز وجل".

وقال أبو بكر المرُّوذي:

سمعتُ رجلاً يقول لأبي عبد الله - وَذَكَرَ لَهُ الصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ فَقَالَ بِهَذَا ارْتَفَعَ الْقَوْمُ» (١١٨).

وقَالَ الْحَسَنِ:

" إِنَّا لَنُجَالِسُ الرَّجُلَ فَنَرَى أَنَّ بِهِ عِيًّا وَمَا بِهِ عِيّ، وَإِنَّهُ لَفَقِيهٌ مُسْلِمٌ. قَالَ وَكِيعٌ: أَسْكَتَتْهُ الْخَشْيَةُ» (١١٩)

(١١٧) «الزهد لأحمد بن حنبل» (ص٢١٣).

(١١٨) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٢٦٧).

(١١٩) «إبطال الحيل لابن بطة» (ص٣٢).

وقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:
«إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهَجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ، رَغِبُوا فَرَغِبُوا، وَرَهِبُوا فَرَهِبُوا، خَافُوا فَلَا يَأْمَنُونَ، أَبْصَرُوا مِنَ الْيَقِينِ مَا لَمْ يُعَايِنُوا فَخَلَطُوهُ بِمَا لَمْ يُزَايِلُوهُ، أَخْلَصَهُمُ الْخَوْفُ فَكَانُوا يَهْجُرُونَ مَا يَنْقَطِعُ عَنْهُمْ لِمَا يَبْقَى لَهُمْ، الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ وَالْمَوْتُ لَهُمْ كَرَامَةٌ، فَزُوِّجُوا الْحُورَ الْعَيْنَ، وَأُخْدِمُوا الْوِلْدَانَ الْمُخَلَّدِينَ» (١٢٠)

وعَنْ جَابِرٍ، أَنَّهُ تَلَا: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (١٢١)
فَقَالَ: «الْعَالِمُ الَّذِي عَقَلَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ فَعَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَاجْتَنَبَ سَخَطَهُ» (١٢٢)

وقال حَفْص بْن حُمَيْدٍ:
"سَأَلْتُ دَاوُدَ الطَّائِيَّ، عَنْ مَسْأَلَةٍ فَقَالَ دَاوُدُ: أَلَيْسَ الْمُحَارِبُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَلْقَى الْحَرْبَ، أَلَيْسَ يَجْمَعُ لَهُ آلَتَهُ؟
فَإِذَا أَفْنَى عُمْرَهُ فِي جَمْعِ الْآلَةِ فَمَتَى يُحَارِبُ؟
إِنَّ الْعِلْمَ آلَةُ الْعَمَلِ، فَإِذَا أَفْنَى عُمْرَهُ فِيهِ، فَمَتَى يَعْمَلُ؟ "» (١٢٣)

---

(١٢٠) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (١/ ٥٥).
(١٢١) [العنكبوت: ٤٣].
(١٢٢) «إبطال الحيل لابن بطة» (ص٣٤).
(١٢٣) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٧/ ٣٤١).

وقَالَ لَيْث:

" كُنْتُ أَسْأَلُ الشَّعْبِيَّ فَيُعْرِضُ عَنِّي وَيَجْبُنِي بِالْمَسْأَلَةِ. قَالَ: فَقُلْتُ: يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ. تَزْوُونَ عَنَّا أَحَادِيثَكُمْ وَتَجْبُونَنَا بِالْمَسْأَلَةِ؟ فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ، يَا مَعْشَرَ الْفُقَهَاءِ لَسْنَا بِعُلَمَاءَ وَلَا فُقَهَاءَ، وَلَكِنَّا قَوْمٌ سَمِعْنَا حَدِيثًا فَنَحْنُ نُحَدِّثُكُمْ بِمَا سَمِعْنَا، إِنَّمَا الْفَقِيهُ مَنْ وَرِعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَالْعَالِمُ مَنْ خَافَ اللَّهَ عز وجل "» (١٢٤)

وكَانَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ:

يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فَيُخْفِي ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ رَفَعَ صَوْتَهُ كَأَنَّهُ قَامَ تِلْكَ السَّاعَةِ» (١٢٥)

وقال الذهبي في ترجمة حنبلُ بنُ عَبْد الله بْن الفَرَج بْن سعادة (ت ٦٠٤ هـ)

قَالَ ابْنُ الْحَاجِبِ: حَدَّثَنَا ابْنُ نُقْطَةَ، قال: حدثنا أبو الطاهر ابن الأَنْمَاطِيّ بِدِمَشْقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي حَنْبَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا وُلِدْتُ، مَضَى أَبِي إِلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلِيِّ، وَقَالَ لَهُ: قَدْ وُلِدَ لِي وَلَدٌ فَمَا أُسَمِّيهِ؟ قَالَ: سَمِّهِ حنبل، وَإِذَا كَبِرَ سَمِّعْهُ " مُسْنَدَ " أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ. قَالَ: فَسَمَّانِي كَمَا أَمَرَهُ، فَلَمَّا كَبِرْتُ سَمَّعَنِي " الْمُسْنَدَ "، وَكَانَ هَذَا مِنْ بَرَكَةِ مَشُورَةِ الشَّيْخِ" (١٢٦)

---

(١٢٤) «إبطال الحيل لابن بطة» (ص٣٣).

(١٢٥) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٣/ ٨).

(١٢٦) «تاريخ الإسلام - ت بشار» (١٣/ ٩٢).

وقَالَ مَالِك بْن مِغْوَل:
اسْتَفْتَى رَجُلٌ الشَّعْبِيَّ فَقَالَ: أَيُّهَا الْعَالِمُ أَفْتِنِي. فَقَالَ: الْعَالِمُ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ "» (١٢٧)

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ:
«لَيْسَ الْعِلْمُ لِلْمَرْءِ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْخَشْيَةُ» (١٢٨)

وقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ مُحَمَّدٍ:
خَرَجْنَا مَعَ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ إِلَى مِنًى فِي جَمَاعَةٍ فِيهِمْ أَبُو مُسْلِمٍ الْمُسْتَمْلِي، فَقَالَ سُفْيَانُ فِي بَعْضِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ: الْعَالِمُ بِاللَّهِ الْخَائِفُ مِنَ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ يُحْسِنْ: فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ، وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ الْعِلْمَ وَالْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ فَهُوَ جَاهِلٌ وَإِنْ كَانَ يُحْسِنُ: فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ. الْمُسْلِمُونَ شُهُودُ أَنْفُسِهِمْ عَرَضُوا أَعْمَالَهُمْ عَلَى الْقُرْآنِ فَمَا وَافَقَ الْقُرْآنَ تَمَسَّكُوا بِهِ، وَإِلَّا اسْتَعْتَبُوا مِنْ قَرِيبٍ " قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ. قَالَ: إِنَّهُ وَاللَّهِ أَحْسَنُ مِنَ الدُّرِّ. وَهَلِ الدُّرُّ إِلَّا صَدَقَةٌ» (١٢٩)

وسُئِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:
هَلْ لِلْعُلَمَاءِ عَلَامَةٌ يُعْرَفُونَ بِهَا؟ قَالَ: عَلَامَةُ الْعَالِمِ مَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ، وَاسْتَقَلَّ كَثِيرُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مِنْ نَفْسِهِ، وَرَغِبَ فِي عِلْمِ غَيْرِهِ، وَقَبِلَ الْحَقَّ مِنْ كُلِّ مَنْ أَتَاهُ بِهِ،

(١٢٧) «إبطال الحيل لابن بطة» (ص٣٤).
(١٢٨) السابق.
(١٢٩) السابق.

وَأَخَذَ الْعِلْمَ حَيْثُ وَجَدَهُ، فَهَذِهِ عَلَامَةُ الْعَالِمِ وَصِفَتُهُ " قَالَ الْمَرُّوذِيُّ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ: هَكَذَا هُوَ» (١٣٠)

وقَالَ الزُّهْرِيَّ:
«لَا نَثِقُ لِلنَّاسِ بِعَمَلِ عَامِلٍ لَا يَعْلَمُ ، وَلَا نَرْضَى لَهُمْ بِعِلْمِ عَالِمٍ لَا يَعْمَلُ» (١٣١)

وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَجَّاجِ:
كَتَبَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رضي الله عنه عَنِّي كَلَامًا.
قَالَ الْعَبَّاسُ: وَأَمْلَاهُ عَلَيْنَا.
قَالَ: لَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُنَصِّبَ نَفْسَهُ يَعْنِي لِلْفَتْوَى حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ:

أَمَّا أُولَاهَا: فَأَنْ يَكُونَ لَهُ نِيَّةٌ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ نِيَّةٌ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ نُورٌ وَلَا عَلَى كَلَامِهِ نُورٌ.

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَيَكُونُ لَهُ خُلُقٌ وَوَقَارٌ وَسَكِينَةٌ.

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَيَكُونُ قَوِيًّا عَلَى مَا هُوَ فِيهِ وَعَلَى مَعْرِفَتِهِ.

---

(١٣٠) السابق.
(١٣١) «إبطال الحيل لابن بطة» (ص٣٤).

وَأَمَّا الرَّابِعَةُ: فَالْكِفَايَةُ، وَإِلَّا مَضَغَهُ النَّاسُ.

وَأَمَّا الْخَامِسَةُ: فَمَعْرِفَةُ النَّاسِ "» (١٣٢)

وقَالَ الْفُضَيْل بْن عِيَاض:

«إِنَّمَا الْفَقِيهُ الَّذِي أَنْطَقَتْهُ الْخَشْيَةُ وَأَسْكَتَتْهُ الْخَشْيَةُ ، إِنْ قَالَ قَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَإِنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَقَفَ عِنْدَهُ وَرَدَّهُ إِلَى عَالِمِهِ» (١٣٣)

وقد دفن بعض السلف كتبه خوفاً على نفسه

«قَالَ مُطَيَّنٌ: أَوْصَى أَبُو كُرَيْبٍ بِكُتُبِهِ أَنْ تُدفَنَ، فَدُفِنَتْ.

قُلْتُ: فَعَلَ هَذَا بِكُتُبِهِ مِنَ الدَّفْنِ وَالغَسلِ وَالإِحرَاقِ عِدَّةٌ مِنَ الحُفَّاظِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَظْفَرَ بِهَا مُحَدِّثٌ قَلِيْلُ الدِّيْنِ، فَيُغَيِّرَ فِيْهَا، وَيَزِيْدَ فِيْهَا، فَيُنْسَبَ ذَلِكَ إِلَى الحَافِظِ، أَوْ أَنَّ أُصُوْلَه كَانَ فِيْهَا مَقَاطِيعُ وَوَاهِيَاتٌ مَا حَدَّثَ بِهَا أَبَداً، وَإِنَّمَا انْتَخَبَ مِنْ أُصُوْلِه مَا رَوَاهُ وَمَا بَقِيَ، فَرَغِبَ عَنْهُ، وَمَا وَجَدُوا لِذَلِكَ سِوَى الإِعدَامِ.

فَلِهَذَا وَنَحْوِهِ دَفَنَ -رَحِمَهُ اللهُ- كُتُبَهُ» (١٣٤)

---

(١٣٢) «إبطال الحيل لابن بطة» (ص٣٤).

(١٣٣) «إبطال الحيل لابن بطة» (ص٣١).

(١٣٤) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١١/ ٣٩٦).

وقال ابن الجوزى

«ولقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يروى عن جماعة من السادات أنهم دفنوا كتبهم!

فقلت له: ما وجه هذا؟ فقال: أحسن ما نقول أن نسكت! يشير إلى أن هذا جهل من فاعله، وتأولت أنا لهم، فقلت: لعل ما دفنوا من كتبهم فيه شيء من الرأي، فما رأوا أن يعمل الناس به.

ولقد روينا في الحديث عن أحمد بن أبى الحواري: أنه أخذ كتبه، فرمى بها في البحر، وقال: نعم الدليل كنت، ولا حاجة لنا إلى الدليل بعد الوصول إلى المذلول!

وهذا إذا أحسنا به الظن، قلنا: كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه، فأما إذا كانت علومًا صحيحة، كان هذا من أفحش الإضاعة.

وأنا وإن تأولت لهم هذا، فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم: لأنا قد روينا عن سفيان الثوري أنه قد أوصى بدفن كتبه، وكان ندم على أشياء كتبها عن قوم، وقال: حملني شهوة الحديث، وهذا، لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين، فكأنه لما عسر عليه التمييز، أوصى بدفن الكل. وكذلك من كان له رأي من كلامه، ثم رجع عنه، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذلك. فهذا وجه التأويل للعلماء»

وقال أيضاً: قال شعيب بن حرب: قلت ليوسف بن أسباط: كيف صنعت بكتبك؟ قال: جئت إلى الجزيرة، فلما نضب الماء دفنتها، حتى جاء الماء عليها فذهبت. قلت: ما حملك على ذلك؟ قال: أردت أن يكون الهمُّ همًّا واحدًا.

قال العقيلي: وحدثني آدم: قال: سمعت البخاري، قال: قال صدقة: دفن يوسف بن أسباط كتبه، وكان بعد يغلب عليه الوهم، فلا يجيء كما ينبغي.

قلت: الظاهر أن هذه كتب علم ينفع، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط، الذي قصد به الخير، وهو شر، فلو كانت كتبه من جنس كتب الثوري فإن فيها عن ضعفاء، ولم يصح له التمييز- قرب الحال، إنما تعليله بجمع الهم، هو الدليل على أنها ليست كذلك، فانظر إلى قلة العلم ماذا تؤثر مع أهل الخير!" (١٣٥)

وقال أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:
لَا أَعْلَمُ لِدَفْنِ الْكُتُبِ مَعْنَى، قُلْتُ لَا مَعْنَى فِيهِ إِلَّا مَا ذَكَرْتُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ» (١٣٦)

وقال سَعْدُ بْنُ شُعْبَةَ:
قَالَ لِي أَبِي: يَا بُنَيَّ إِذَا أَنَا مُتُّ، فَاغْسِلْ كُتُبِي وَادْفِنْهَا، فَلَمَّا مَاتَ غَسَلْتُ كُتُبَهُ وَدَفَنْتُهَا» (١٣٧)

وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ:
أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِإِحْرَاقِ الْكُتُبِ» (١٣٨)

---

(١٣٥) «صيد الخاطر» (ص٤٦).
(١٣٦) «تقييد العلم» (ص٦٣).
(١٣٧) السابق.
(١٣٨) «تقييد العلم» (ص٦١).

وقَالَ النُّعْمَان بْن قَيْسٍ:
دَعَا عُبَيْدَةُ بِكُتُبِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ فَمَحَاهَا وَقَالَ: «أَخْشَى أَنْ يَلِيَهَا أَحَدٌ بَعْدِي فِيضَعُوهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا» (١٣٩)

وقَالَ ابن العطّار في ترجمة النووي:
"وله مُسَوَّدات كثيرة، ولقد أمرني مرّة ببيع كراريس نحو ألف كرّاس بخطّه، وأمرني بأن أقف على غسْلها فِي الوراقة، فلم أخالف أمره، وَفِي قلبي منها حَسَرات" (١٤٠)

وقال إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَاشِمٍ:
«دَفَنَّا لِبِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ، مَا بَيْنَ قِمَطْرٍ وَقَوصَرَّةٍ» (١٤١)

وقَالَ الْأَصْمَعِيّ:
أَمَّا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فَأَوْصَى أَنْ تُدْفَنَ كُتُبُهُ، وَكَانَ نَدِمَ عَلَى أَشْيَاءَ كَتَبَهَا عَنْ قَوْمٍ «حَمَلَنِي عَلَيْهِ شَهْوَةُ الْحَدِيثِ» (١٤٢)

---

(١٣٩) «الطبقات الكبرى ط دار صادر» (٦/ ٩٤).
(١٤٠) «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين» (ص٩٤).
(١٤١) «تقييد العلم» (ص٦١).
(١٤٢) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٧/ ٦٤).

وقال حَمَّادُ:

أَوْصَى أَبُو قِلَابَةَ، قَالَ: ادْفَعُوا كُتُبِي إِلَى أَيُّوبَ إِنْ كَانَ حَيًّا وَإِلَّا فَأَحْرِقُوهَا، وَقَالَ الْحَسَنُ: وَإِلَّا فَحَرِّقُوهَا» (١٤٣)

وقال محمد بن عوف الحمصي:

كان سلم بن ميمون الخواص دفن كتبه وكان يحدث من حفظه فيغلط» (١٤٤)

وقال العقيلي في ترجمة يُوسُف بْن أَسْبَاط:

كَانَ مِنَ الْعَابِدِينَ دَفَنَ كُتُبَهُ، فَحَدَّثَ بَعْدُ، مِنْ حِفْظِهِ بِأَحَادِيثَ مِنْهَا مَا لَا أَصْلَ لَهُ، وَمِنْهَا مَا يُخْطِئُ فِيهِ» (١٤٥)

وقَالَ وكيع:

قَدْ نهيتُ أبا أُسَامَة أَن يستعير الكتب، وكان قد دفن كتبه"» (١٤٦)

---

(١٤٣) «تقييد العلم» (ص٦١).

(١٤٤) «الجرح والتعديل» (٤/ ٢٦٧).

(١٤٥) «الضعفاء الكبير» (٤/ ٤٥٤).

(١٤٦) «سؤالات أبي عبيد الآجري أبا داود السجستاني» (ص٢٠٨).

ومطلب بن زِيَاد الْكُوفِي

ثِقَة وَهُوَ فَوق وَكِيع فِي السن صَاحب سنة وَخير دفن كتبه وَقَالَ لَا يصلح قلبِي عَلَيْهَا» (١٤٧)

وقال ابن سعد في ترجمة مُحَمَّد بْن عُبَيْدِ اللَّهِ الْعَرْزَمِيّ الْفَزَارِيّ:

كَانَ قَدْ سَمِعَ سَمَاعًا كَثِيرًا وَكَتَبَ وَدَفَنَ كُتُبَهُ فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ حَدَّثَ. وَقَدْ ذَهَبَتْ كُتُبُهُ فَضَعَّفَ النَّاسُ حَدِيثَهُ» (١٤٨)

ورمى أحمد بن أبي الحواري كتبه في البحر

طلب أَحْمَد بْن أبي الحواري العلم ثلاثين سنة فلما بلغ منه الغاية حمل كتبه كلها فغرقها فِي البحر وقال يا علم لم أفعل هذا تهاونا بك ولا استخفافًا بحقك ولكن كنت أكتب لأهتدي بك إلى ربي فلما اهتديت بك إلى ربي استغنيت عنك. وقال: لا دليل عَلَى الله سواه وإنما العلم يطلب لأدب الخدمة. وكان الجنيد: يقول أَحْمَد بْن أبي الحواري ريحانة الشام» (١٤٩)

ودفن عَلِيّ بن مسْهر كتبه وقَالَ عبد الله بن نمير كَانَ يجئني على بن مسْهر فيسألني كَيفَ حَدِيث كَذَا قَالَ يحيى قَالَ بن نمير كَانَ على بن مسْهر قد دفن كتبه» (١٥٠)

---

(١٤٧) «الثقات للعجلي ط الدار» (٢/ ٢٨٢).

(١٤٨) «الطبقات الكبرى ط دار صادر» (٦/ ٣٦٨).

(١٤٩) «طبقات الحنابلة» (١/ ٧٨ ت الفقي).

(١٥٠) "تاريخ ابن معين - رواية الدوري» (٤/ ٤٤).

وقال الصالحي في ترجمة شجاع بن فارس:

«وكان مُفيد وقته ببغداد، ثقة، سديد السِّيرة، أفنى عمره في الطَّلب، وكان قد عَمِلَ مسوَّدة "تاريخ بغداد" ذيَّل به على "تاريخ الخطيب" فغسله في مَرض مَوْته» (١٥١)

ونَظْمٌ العلامة الشنقيطي في أنسابِ العربِ كتاباً، سَمَاهُ: "خَالِصُ الْجُمَانِ فِي ذِكْرِ أَنْسَابِ بَنِي عَدْنَانَ" وقد أَلَّفَهُ قبلِ البلوغِ، ثم دَفَنَهُ بعدَ ذلك، مُعَلِّلاً هذا الصنيع بأنه كَتَبَهُ على نيةِ التفوقِ على الأقرانِ. وقد قال فيه:

سَمَّيْتُهُ بِخَالِصِ الْجُمَانِ فِي ذِكْرِ أَنْسَابِ بَنِي عَدْنَانِ» (١٥٢)

ودفن الْحسن بن رودبار كتبه وَقَالَ:

لَا يصلح قلبِي على الحَدِيث وَكَانَ بسن أبي أُسَامَة» (١٥٣)

وقال أبو نعيم في ترجمة مُحَمَّد بْن يُوسُفَ بْنِ مَعْدَانَ:

دَفَنَ كُتَبَهُ وَكَانَ يَقُولُ: هَبْ أَنَّكَ قَاضٍ فَكَانَ مَاذَا هَبْ أَنَّكَ مُفْتٍ فَكَانَ مَاذَا هَبْ أَنَّكَ مُحَدِّثٌ فَكَانَ مَاذَا وَأَقْبَلَ عَلَى التَّوَحُّدِ وَالتَّعَبُّدِ وَآثَرَ الْخُمُولَ وَاتِّبَاعَ مَنْهَجِ

(١٥١) «طبقات علماء الحديث» (٤/ ١٢).
(١٥٢) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (المقدمة/ ٣٤).
(١٥٣) «الثقات للعجلي ط الدار» (١/ ٢٩٤).

الرَّسُولِ وَابْتَغَى الدُّنُوَّ وَالْوُصُولَ» (١٥٤)

وقال الخطيب البغدادي:

«وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ إِذَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَتْلَفَ كُتُبَهُ أَوْ أَوْصَى بِإِتْلَافِهَا خَوْفًا مِنْ أَنْ تَصِيرَ إِلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فَلَا يَعْرِفُ أَحْكَامَهَا وَيَحْمِلُ جَمِيعَ مَا فِيهَا عَلَى ظَاهِرِهِ، وَرُبَّمَا زَادَ فِيهَا وَنَقَصَ فَيَكُونُ ذَلِكَ مَنْسُوبًا إِلَى كَاتِبِهَا فِي الْأَصْلِ، وَهَذَا كُلُّهُ وَمَا أَشْبَهَهُ قَدْ نُقِلَ عَنِ الْمُتَقَدِّمِينَ الِاحْتِرَاسُ مِنْهُ» (١٥٥)

وقال أيضاً:

قال الْأَوْزَاعِيّ: كَانَ هَذَا الْعِلْمُ شَيْئًا شَرِيفًا إِذْ كَانُوا يَتَلَقَّوْنَهُ وَيَتَذَاكَرُونَهُ بَيْنَهُمْ وَفِي حَدِيثِ صَفْوَانَ، إِذْ كَانَ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ يَتَلَاقَوْنَهُ وَيَتَذَاكَرُونَهُ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى الْكُتُبِ، وَقَالَ صَفْوَانُ، فِي الْكُتُبِ ذَهَبَ نُورُهُ وَصَارَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، قُلْتُ إِنَّمَا اتَّسَعَ النَّاسُ فِي كَتْبِ الْعِلْمِ وَعَوَّلُوا عَلَى تَدْوِينِهِ فِي الصُّحُفِ بَعْدَ الْكَرَاهَةِ لِذَلِكَ، لِأَنَّ الرِّوَايَاتِ انْتَشَرَتْ وَالْأَسَانِيدَ طَالَتْ وَأَسْمَاءُ الرِّجَالِ وَكُنَاهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ كَثُرَتْ، وَالْعِبَارَاتِ بِالْأَلْفَاظِ اخْتَلَفَتْ، فَعَجَزَتِ الْقُلُوبُ عَنْ حِفْظِ مَا ذَكَرْنَا، وَصَارَ عِلْمُ الْحَدِيثِ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَثْبَتُ مِنْ عِلْمِ الْحَافِظِ، مَعَ رُخْصَةِ رَسُولِ اللَّهِ، ﷺ لِمَنْ

(١٥٤) «تاريخ أصبهان» (٢/ ١٤١).
(١٥٥) «تقييد العلم» (ص٦١).

ضَعُفَ حِفْظُهُ فِي الْكِتَابِ، وَعَمِلَ السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْخَالِفِينَ بِذَلِكَ» (١٥٦)

وقال الذهبي في ترجمة القاضي أبي الحسن البصْريّ الماوَرْديّ الفقيه الشّافعيّ:

«لم يُظْهِر شيئًا من تصانيفه في حياته، وجمعها في موضع، فلمَّا دَنَت وفاتُهُ قال لمن يثق به: الكُتُب الّتي في المكان الفُلانيّ كلها تَصْنِيفي، وإنَّما لم أُظْهِرها لأَنّي لَمْ أَجِدْ نِيَّةً خالِصَة، فإذا عايَنْتُ الموت ووقعْتُ في النَّزْع، فاجعل يدك في يدي، فإن قبضتُ عليها وعصرتُها، فاعلم أنَّهُ لم يُقْبَل مِنّي شيءٌ منها، فاعمد إلى الكُتُب والْقها في دِجْلَة. وإن بسطت يدي ولم أقبضْ على يدك، فاعلم أنَّها قُبِلت، وأنّي قد ظفرْتُ بما كنتُ أرجوه من الله قال ذلك الشّخص:

فلمّا قارب الموت، وضعت في يده يدي، فبسطها ولم يقبض على يدي، فعلمتُ أنّها علامة القبول، فأظهرتُ كُتُبُه بعدَه» (١٥٧)

وقد ندم على ذلك جماعة:

فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: كَتَبْتُ الْحَدِيثَ ثُمَّ مَحَوْتُهُ فَوَدِدْتُ أَنِّي فَدَيْتُهُ بِمَالِي وَوَلَدِي وَأَنِّي لَمْ أَمْحُهُ» (١٥٨)

---

(١٥٦) «تقييد العلم» (ص٦١).

(١٥٧) «تاريخ الإسلام - ت تدمري» (٣٠/ ٢٥٤).

(١٥٨) «تقييد العلم» (ص٦٠).

المبحث الثاني:

العمل بالعلم.

٢-العمل بالعلم.

فالعلم لا يصل بصاحبه إلى هذا الفضل، ولا يُنيله هذا الشرف إلا بالعمل به.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ (١٥٩)

وروي الشيخان من حديث أسامة بن زيد -رَضِيَ اللهُ عَنْهما- قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤْتَى بالرَّجُلِ يومَ القِيَامَةِ فيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْطَابُ بَطْنِه، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيهِ أَهلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ :يَا فُلان، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرنَا بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وأَنهَى عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ" (١٦٠)

وَقَالَ حَاتِمٌ الطَّائِيّ:

وَلَمْ يَحْمَدُوا مِنْ عَالِمٍ غَيرِ عَامِلٍ ... خلَافًا وَلَا مِنْ عَامِلٍ غَيْرِ عَالِمِ
رَأَوْا طُرُقَاتِ الْمَجْدِ عوجًا قَطِيعَةً ... وَأَفْظَعُ عَجْزٍ عِنْدَهُمْ عَجْزُ حَازِمِ

لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ عِلْمُهُ حُجَّةً عَلَى مَنْ أَخَذَ عَنْهُ وَاقْتَبَسَهُ مِنْهُ حَتَّى يَلْزَمَهُ الْعَمَلُ بِهِ وَالْمَصِيرُ إِلَيْهِ كَانَ عَلَيْهِ أَحَجَّ وَلَهُ أَلْزَمَ، لِأَنَّ مَرْتَبَةَ الْعِلْمِ قَبْلَ مَرْتَبَةِ الْقَوْلِ، كَمَا أَنَّ مَرْتَبَةَ الْعِلْمِ قَبْلَ مَرْتَبَةِ الْعَمَلِ، وَقَدْ قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ رحمه الله:

---

(١٥٩) [الصف: ٢-٣].

(١٦٠) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٣٢٦٧) ومسلم برقم (٢٩٨٩).

اسْمَعْ إِلَى الْأَحْكَامِ تَحْمِلُهَا الرُّوَاةُ إِلَيْك عَنْكَا
وَاعْلَمْ هُدِيتَ بِأَنَّهَا حُجَجٌ تَكُونُ عَلَيْك مِنْكَا" (١٦١)

وقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ، وَلَكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ، وَأَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وَأَنْ تُبَارِيَ النَّاسَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللَّهَ، وَإِنْ أَسَأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللَّهَ» (١٦٢)

وقال بِشْر بْن الْحَارِث:
يَا أَصْحَابَ الْحَدِيثِ أَدُّوا زَكَاةَ الْحَدِيثِ، قِيلَ: وَكَيْفَ نُؤَدِّي زَكَاةَ الْحَدِيثِ؟ قَالَ: اعْمَلُوا مِنْ كُلِّ مِائَتَيْ حَدِيثٍ سَمِعْتُمُوهَا بِخَمْسَةِ أَحَادِيثَ» (١٦٣)

وقال عَمْرو بْن قَيْسٍ الْمُلَائِيّ:
«إِذَا بَلَغَكَ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ فَاعْمَلْ بِهِ وَلَوْ مَرَّةً تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ» (١٦٤)

---

(١٦١) «أدب الدنيا والدين» (ص٧٧).
(١٦٢) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم (٣٤٥٨٥).
(١٦٣) «الإرشاد في معرفة علماء الحديث» (٣/ ٨٦٧).
(١٦٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ١٤٤).

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمٍ الطُّوسِيُّ: سَمِعْتُ وَكِيعًا يَقُولُ:
«كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ وَكُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى طَلَبِهِ بِالصَّوْمِ» (١٦٥)

وقَالَ وَكِيعٌ: كَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ يَقُولُ:
«كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ»
وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: «كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى طَلَبِهِ بِالصَّوْمِ» (١٦٦)

فمن علم ولم يعمل فقد أشبه اليهود الذين مثلهم الله بأقبح مثلٍ.
قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ (١٦٧)
ومن عمل بلا علم فقد أشبه النصارى الذين وصفهم الله في القرآن بالضالين.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:
هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ" (١٦٨)

---

(١٦٥) «سبعة مجالس من أمالي أبي طاهر المخلص» (ص٧٤).
(١٦٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٥٨).
(١٦٧) [الجمعة: ٥].
(١٦٨) «اقتضاء العلم العمل» (ص٣٥).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ:
أَيُّهَا النَّاسُ تَعَلَّمُوا، فَمَنْ عَلِمَ فَلْيَعْمَلْ» (١٦٩)

وقال ابراهيم الحربي:
كل شئ أقول لكم: هذا قول أصحاب الحديث.
فهو قول أحمد بن حنبل، هو ألقى فى قلوبنا منذ كنا غلمانا اتباع حديث النبي ﷺ وأقاويل الصحابة والاقتداء بالتابعين» (١٧٠)

وقَالَ أَبو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَد بْن عَطَاءٍ الرُّوذَبَارِيّ:
" مَنْ خَرَجَ إِلَى الْعِلْمِ يُرِيدُ الْعِلْمَ، لَمْ يَنفَعْهُ الْعِلْمُ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى الْعِلْمِ يُرِيدُ الْعَمَلَ بِالْعِلْمِ، نَفَعَهُ قَلِيلُ الْعِلْمِ " قَالَ: وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: " الْعِلْمُ مَوْقُوفٌ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ، وَالْعَمَلُ مَوْقُوفٌ عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ يُورِثُ الْفَهْمَ عَنِ اللَّهِ عز وجل "» (١٧١)

وقد قيل:
لا خير في القول إلا مع العمل، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا

(١٦٩) صحيح: أخرجه أبو خيثمة في «كتاب العلم" (ص٧).
(١٧٠) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٩٢ ت الفقي).
(١٧١) «اقتضاء العلم العمل» (ص٣١).

مع النية، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع الوفاء، ولا في الحياة إلا مع الصحة، ولا في الأمن إلا مع السرور» (١٧٢)

وروى الطبرانى من حديث جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَزْدِيِّ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَهُوَ إِلَى الْبَصْرَةِ حَتَّى أَتَيْنَا مَكَانًا يُقَالُ لَهُ بَيْتُ الْمَسْكِينِ، وَهُوَ مِنَ الْبَصْرَةِ مِثْلُ الثَّوِيَّةِ مِنَ الْكُوفَةِ، فَقَالَ: هَلْ كُنْتَ تُدَارِسُ أَحَدًا الْقُرْآنَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا أَتَيْنَا الْبَصْرَةَ فَأْتِنِي بِهِمْ فَأَتَيْتُهُ بِصَالِحِ بْنِ مُسَرِّحٍ وَبِأَبِي بِلَالٍ وَنَجْدَةَ وَنَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ وَهُمْ فِي نَفْسِي يَوْمَئِذٍ مِنْ أَفَاضِلِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُنِي عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ جُنْدُبٌ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ» (١٧٣)

وقال ابن الجوزي:

" لقيت مشايخ، أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه، ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة، ويسرعون بالجواب لئلا ينكسر الجاه وإن وقع خطأ.

---

(١٧٢) «كليلة ودمنة» (ص١٤٤).

(١٧٣) صحيح: أخرجه الطبرانى في "الكبير" برقم (١٦٨١).

ولقيت عبد الوهاب الأنماطي فكان على قانون السلف لم يسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه.

فكان - وأنا صغير السن حينئذ - يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد.

وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل.

ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقي، فكان كثير الصمت، شديد التحري فيما يقول، متقناً محققاً.

وربما سئل الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقن.

وكان كثير الصوم والصمت فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما.

ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول.

ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح، فراحوا عن القلوب وبدد تفريطهم ما جمعوا من العلم. فقل الانتفاع بهم في حياتهم، ونسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحد أن يلتفت إلى مصنفاتهم.

فالله الله في العلم بالعمل فإنه الأصل الأكبر والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة فقدم مفلساً مع قوة الحجة عليه" (١٧٤)

(١٧٤) "صيد الخاطر"(ص-١٥٨).

وقال الخطيب:

وَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا مِنْ أَهْلِ هَذَا الزَّمَانِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْحَدِيثِ، وَيَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ الْمُتَخَصِّصِينَ بِسَمَاعِهِ وَنَقْلِهِ، وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ مِمَّا يَدَّعُونَ، وَأَقَلُّهُمْ مَعْرِفَةً بِمَا إِلَيْهِ يَنْتَسِبُونَ، يَرَى الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِذَا كَتَبَ عَدَدًا قَلِيلًا مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَاشْتَغَلَ بِالسَّمَاعِ بُرْهَةً يَسِيرَةً مِنَ الدَّهْرِ، أَنَّهُ صَاحِبُ حَدِيثٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلَمَّا يُجْهِدْ نَفْسَهُ وَيُتْعِبْهَا فِي طِلَابِهِ، وَلَا لَحِقَتْهُ مَشَقَّةُ الْحِفْظِ لِصُنُوفِهِ وَأَبْوَابِهِ» (١٧٥)

وعن عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ:

كَانَ يُقَالُ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، فُتِحَ لَهُ عِلْمُ مَا لَا يَعْلَمُ» (١٧٦)

وقال إبراهيم الحربي عن الإمام أحمد:

«وَلَقَدْ صَحِبْته عِشْرِينَ سَنَةً صَيْفًا وَشِتَاءً وَحَرًّا وَبَرْدًا وَلَيْلًا وَنَهَارًا فَمَا لَقِيته فِي يَوْمٍ إلَّا وَهُوَ زَائِدٌ عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ» (١٧٧)

---

(١٧٥) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٧٥).

(١٧٦) صحيح: أخرجه ابن المقرىء في "معجمه" برقم (٣١٥).

(١٧٧) "طبقات الحنابلة"(٩٢/١).

وعن عَاصِمَ بنَ عِصَامٍ البَيْهَقِيَّ يَقُوْلُ:

«بِتُّ لَيْلَةً عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فَجَاءَ بِالْمَاءِ فَوَضَعَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ نَظَرَ إِلَى الْمَاءِ، فَإِذَا هُوَ كَمَا كَانَ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ

رَجُلٌ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لَا يَكُونُ لَهُ وِرْدٌ بِاللَّيْلِ» (١٧٨)

وقال الخطيب:

أخبرنا أبو الفرج عَبْد الْوَهَّاب بْن عَبْد الْعَزِيز بْن الْحَارِث بْن أَسَد بْن اللَّيْث بْن سُلَيْم بْن الْأَسود بْن سُفْيَان بْن يَزِيد بْن أُكَيْنَة بْن الْهَيْثَم التَّمِيمِيّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ:

هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ» (١٧٩)

وعنِ الزُّهْرِيّ قَالَ:

إِنَّ لِلْعِلْمِ غَوَائِلَ، فَمِنْ غَوَائِلِهِ أَنْ يُتْرَكَ الْعَالِمُ حَتَّى يَذْهَبَ عِلْمُهُ، وَمِنْ غَوَائِلِهِ النِّسْيَانُ، وَمِنْ غَوَائِلِهِ الْكَذِبُ فِيهِ، وَهو أَشَدُّ غَوَائِلِهِ» (١٨٠)

---

(١٧٨) «المدخل إلى السنن الكبرى - البيهقي - ت الأعظمي» (ص٣٣٠).

(١٧٩) أثر صحيح: أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» برقم (٤٠) وابن عساكر في «ذم من لا يعمل بعلمه» برقم (١٤) بسند مسلسل بتسعة من الآباء.

(١٨٠) «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ١٤١).

وقَالَ الْمَرُّوذِيُّ: قَالَ لِي أَحْمَدُ:

«مَا كَتَبْتُ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا وَقَدْ عَمِلْتُ بِهِ، حَتَّى مَرَّ بِي الْحَدِيثُ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ وَأَعْطَى أَبَا طَيْبَةَ دِينَارًا، فَأَعْطَيْتُ الْحَجَّامَ دِينَارًا حَتَّى احْتَجَمْتُ» (١٨١)

عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ، قَالَ:

«لَا تُحَدِّثِ الْبَاطِلَ الْحُكَمَاءَ فَيَمْقُتُوكَ، وَلَا تُحَدِّثِ الْحِكْمَةَ لِلسُّفَهَاءِ، فَيُكَذِّبُوكَ، وَلَا تَمْنَعِ الْعِلْمَ أَهْلَهُ، فَتَأْثَمَ، وَلَا تَضَعْهُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ فَتُجَهَّلَ. إِنَّ عَلَيْكَ فِي عِلْمِكَ حَقًّا، كَمَا أَنَّ عَلَيْكَ فِي مَالِكَ حَقًّا» (١٨٢)

(١٨١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ١٤٤).

(١٨٢) أثر صحيح: أخرجه الدارمي في «مسنده» برقم (٣٩٠).

المبحث الثالث:

الجد والاجتهاد

٢- الجد والاجتهاد في تحصيل العلم.

فعلى طالب العلم أن يبذل غاية جهده ووسعه في تحصيله، والصبر عليه.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٣)

وروى مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» (١٨٤)

وقال الماوردي:

«وَلَا يَقْنَعْ مِنْ الْعِلْمِ بِمَا أَدْرَكَ، لِأَنَّ الْقَنَاعَةَ فِيهِ زُهْدٌ، وَلِلزُّهْدِ فِيهِ تَرْكٌ، وَالتَّرْكُ لَهُ جَهْلٌ» (١٨٥)

---

(١٨٣) [آل عمران: ٢٠٠].

(١٨٤) صحيح: أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤).

(١٨٥) «أدب الدنيا والدين» (ص٧٥).

وقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ
«لَا يُنَالُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْبَدَنِ» (١٨٦)

وقَالَ الشَّافِعِيُّ:
"لَا يَطْلُبُ هَذَا الْعِلْمَ مَنْ يَطْلُبُهُ بِالتَّمَلِّي وَغِنَى النَّفْسِ فَيُفْلِحُ، وَلَكِنْ مَنْ طَلَبَهُ بِذِلَّةِ النَّفْسِ، وَضِيقِ الْعَيْشِ، وَخِدْمَةِ الْعِلْمِ، أَفْلَحَ" (١٨٧)

فطلب العلم من معالي الأمور، والعُلَى لا ينال إلا على جسر من التعب، ولولا أن العلم صعب المرتقى لناله كل أحد وادعاه كل جاهل، ولكن لأنه شريف لا ينال إلا ببذل وجد وتضحية، فينبغي على طالب العلم أن يكون صبوراً في طلبه لا يمل ولا ينقطع عن الطلب ويغالب الصعاب.

وقال جَعْفَر بْن دُرُسْتَوَيْهِ:
"مَا رَأَيْتُ عَلِيَّ بْنَ الْمَدِينِيِّ يَرْوِي مِنْ كِتَابٍ قَطُّ إِلَّا أَنْ يُسْأَلَ أَنْ يَرْوِيَ أَلْفَاظَ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ عَلَى وَجْهِهِ كَمَا سَمِعَ قَالَ: وَكُنَّا نَأْخُذُ الْمَجْلِسَ فِي مَجْلِسِ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ وَقْتَ الْعَصْرِ الْيَوْمَ لِمَجْلِسِ غَدٍ فَنَقْعُدُ طُولَ اللَّيْلِ مَخَافَةَ أَنْ لَا يَلْحَقَ مِنَ الْغَدِ مَوْضِعًا يَسْمَعُ فِيهِ وَرَأَيْتُ شَيْخًا فِي الْمَجْلِسِ يَبُولُ فِي طَيْلَسَانِهِ وَيُدْرِجُ الطَّيْلَسَانَ حَتَّى

(١٨٦) «جامع بيان العلم وفضله» (٥٥٤)
(١٨٧) "تدريب الراوي"(٢/٥٨٤).

فَرَغَ مَخَافَةَ أَنْ يُؤْخَذَ مَكَانَهُ إِنْ قَامَ لِلْبَوْلِ" (١٨٨)

وقال أسد بن الفرات لمحمد بن الحسن:

«إني غريب قليل النفقة. والسماع منك نزر والطلب عندك كثير، فما حيلتي؟» فقال لي: «اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك، فتأتي فتبيت عندي، «وأسمعك».

قال: فكنت أبيت عنده. وكنت في بيت في سقيفته-وكان يسكن العلو-فكان ينزل إليّ، ويجعل بين يديه قدحا فيه الماء، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال عليه الليل ورآني قد نعست، ملأ يده ونضح به في وجهي، فأنتبه. وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه».

قال أسد رحمه الله تعالى: وكنت يوما جالسا في حلقة محمد بن الحسن حتى صاح صائح: «الماء للسبيل!» فقمت مبادرا فشربت من الماء ثم رجعت إلى الحلقة، فقال لي محمد بن الحسن: «يا مغربي شربت ماء السبيل؟» فقلت:

«أصلحك الله، وأنا ابن سبيل» قال: ثم انصرفت فلما كان عند الليل إذا أنا بإنسان يدق الباب، فخرجت إليه، فإذا خادم محمد بن الحسن فقال: «مولاي يقرأ عليك السلام ويقول لك: «ما علمت أنك ابن سبيل إلا في يومي، فخذ هذه النفقة فاستعن بها على حاجتك». ثم دفع إلي صرة ثقيلة فقلت في نفسي: هذه كلها دراهم، ففرحت بها. فلما دخلت منزلي فتحتها فإذا فيها ثمانون دينارا" (١٨٩)

---

(١٨٨) "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"(١٣٨/٢).

(١٨٩) «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية» (١/ ٢٥٨).

وقِيْلَ لِلشَّعْبِيِّ:
مِنْ أَيْنَ لَكَ كُلُّ هَذَا العِلْمِ؟ قَالَ: بِنَفْيِ الاغْتِمَامِ، وَالسَّيْرِ فِي البِلَادِ، وَصَبْرٍ كَصَبْرِ الحَمَامِ، وَبُكُوْرٍ كَبُكُوْرِ الغُرَابِ» (١٩٠)

وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ التَّمِيمِيُّ حَدَّثْتُ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ الأَنْبَارِيِّ
أَنَّهُ مَضَى يَوْمًا فِي النَّخَّاسِينَ وَجَارِيَةٌ تُعْرَضُ حَسَنَةٌ كَامِلَةُ الْوَصْفِ قَالَ فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِي ثُمَّ مَضَيْتُ إِلَى دَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّاضِي فَقَالَ لِي أَيْنَ كُنْتَ إِلَى السَّاعَةَ فَعَرَّفْتُهُ فَأَمَرَ بَعْضَ أَسْبَابِهِ فَمَضَى فَاشْتَرَاهَا وَحَمَلَهَا إِلَى مَنْزِلِي فَجِئْتُ فَوَجَدْتُهَا فَعَلِمْتُ الأَمْرَ كَيْفَ جَرَى فَقُلْتُ لَهَا كُونِي فَوْقَ إِلَى أَنْ أَسْتَبْرِئَكِ وَكُنْتُ أَطْلُبُ مَسْأَلَةً قَدِ اخْتَلَّتْ عَلَيَّ فَاشْتَغَلَ قَلْبِي فَقُلْتُ لِلْخَادِمِ خُذْهَا وَامْضِ بِهَا إِلَى النَّخَّاسِ فَلَيْسَ قَدْرُهَا أَنْ تَشْغَلَ قَلْبِي عَنْ عِلْمِي فَأَخَذَهَا الْغُلَامُ فَقَالَتْ دَعْنِي أُكَلِّمُهُ بِحَرْفَيْنِ فَقَالَتْ أَنْتَ رَجُلٌ لَكَ مَحَل وعقل وغذا أَخْرَجْتَنِي وَلَمْ تُبَيِّنْ لِي ذَنْبِي لَمْ آمَنْ أَنْ يَظُنَّ النَّاسُ بِي ظَنًّا قَبِيحًا فَعَرِّفْنِيهِ قَبْلَ أَنْ تخرجني فَقلت لَهَا مَالك عِنْدِي عَيْبٌ غَيْرَ أَنَّكِ شَغَلْتِنِي عَنْ عِلْمِي فَقَالَتْ هَذَا أَسْهَلُ عِنْدِي
قَالَ فَبَلَغَ الرَّاضِي أَمْرَهُ فَقَالَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ فِي قَلْبِ أَحَدٍ أَحْلَى مِنْهُ فِي صَدْرِ هَذَا الرَّجُلِ» (١٩١)

---

(١٩٠) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٥/ ١٧٤).
(١٩١) «تاريخ بغداد ت بشار» (٤/ ٢٩٩).

وقال ابن الجوزي:

كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي ونصراني» (١٩٢)

وقال الحافظ الذهبي:

«وما علمت أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل» (١٩٣)

وقال ابن عبد الهادي عن شيخه تقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيمية:

«وعدد أسماء مصنَّفاته تحتاج إلى أوراق كثيرة، ولذكرها موضع آخر، وله من المؤلَّفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل والتَّعالِيق ما لا ينحصر ولا ينضبط، ولا أعلم أحدًا من المتقدِّمين ولا من المتأخِّرين جَمَعَ مثل ما جمع، ولا صنَّف نحو ما صنف، ولا قريبًا من ذلك؛ مع أن تصانيفه كان يكْتُبها من حِفْظه، وكتب كثيرًا منها في الحَبْس وليس عنده ما يحتاج إليه، ويراجعه من الكتب» (١٩٤)

---

(١٩٢) «تاريخ الإسلام» (١٢/ ١١٠٤ ت بشار).

(١٩٣) «تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي» (٤/ ٩٣).

(١٩٤) «طبقات علماء الحديث» (٤/ ٢٩٠).

وقال محمد بن عبد الباقي
«مَنْ خَدَمَ المحابرَ، خَدَمَتْهُ المَنَابِرُ» (١٩٥)

«وَقَالَ عَمْرُو بنُ سَوَّادٍ قَالَ لِي الشَّافِعِيُّ:
كَانَتْ نَهْمَتِي فِي الرَّمْيِ وَطَلَبِ العِلْمِ فَنِلْتُ مِنَ الرَّمْيِ حَتَّى كُنْتُ أُصِيبُ مِنْ عَشْرَةٍ عَشْرَةً وَسَكَتَ عَنِ العِلْمِ فَقُلْتُ: أَنْتَ، وَاللهِ فِي العِلْمِ أَكْبَرُ مِنْكَ فِي الرَّمْيِ» (١٩٦)

وفي ترجمة أبي العلاء الهمذاني العطار شيخ همذان وإمام العراقيين ومؤلف كتاب الغاية في القراءات العشر وأحد حفاظ العصر
وهو ثقة دين خير كبير القدر، اعتنى بهذا الفن أتم عناية وألف فيه أحسن كتب كالوقف والابتداء والماءات والتجويد وأفرد قراءات الأئمة أيضًا كل مفردة في مجلد وألف كتاب الانتصار في معرفة قراء المدن والأمصار ومن وقف على مؤلفاته علم جلالة قدره وعندي أنه في المشارقة كأبي عمرو الداني في المغاربة بل هذا أوسع رواية منه بكثير مع أنه في غالب مؤلفاته اقتفى أثره وسلك طريقه، وألف أيضًا فيما حكى لي عنه كتاب طبقات القراء وهو كتاب الانتصار الذي قدمت ذكره في مؤلفاته وأنا أتلهف للوقوف عليه أو على شيء منه من زمن كثير فما حصل منه ولا ورقة ولا رأيت من ذكر أنه رآه والظاهر أنه عدم مع ما عدم في الوقعات الجنكزخانية والله

(١٩٥) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٤/ ٤٣٩).
(١٩٦) «آداب الشافعي ومناقبه» (ص١٩ ط العلمية).

أعلم، وقد رحل في طلب القراءات والحديث إلى أصبهان وبغداد ووساط وحفظ كتاب الجمهور في اللغة وكان من أبناء التجار فأنفق جميع ما ورثه في طلب العلم حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرات ماشيًا وكان يحمل كتبه على ظهره، وقد أثنى عليه الحافظ عبد القادر الرهاوي ثناء كثيرًا فقال تعذر وجود مثله في إعصار كثيرة وأربي على أهل زمانه في كثرة السماعات مع تحصيل أصول ما سمع وجودة النسخ وإتقان ما كتب وبرع على الحفاظ إلى أن قال ثم عظم شأنه حتى كان يمر بالبلد فلا يبقى أحد رآه إلا قام ودعا له حتى الصبيان واليهود وكان يقرئ نصف نهاره القرآن والعلم ونصفه الآخر الحديث وكان لا يخشى السلاطين ولا يأخذه في الله لومة لائم » (١٩٧)

وقال الذهبي في ترجمة ابن منده:

«ولما رجع من الرحلة الطويلة كانت كتبه عدة أحمال حتى قيل: إنها كانت أربعين حملًا، وما بلغنا أن أحدًا من هذه الأمة سمع ما سمع ولا جمع ما جمع، وكان ختام الرحالين وفرد المكثرين مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف» (١٩٨)

وقال أبو جعفر بْن جرير لأصحابه:

هَلْ تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قَالُوا: كم قدرُه؟ فذكرَ نحو ثلاثين

(١٩٧) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (٥/ ٣١٥).

(١٩٨) «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٥٨).

ألف ورقة.

قَالُوا: هذا مِمّا تَفْنَى الأعمار قبل تمامِهِ. فقال: إنا لله، ماتت الهِمَم.

فأملاه في نحو ثلاثة آلاف ورقة.

ولما أراد أنّ يملي " التفسير " قَالَ لهم كذلك، ثم أملاه بنحوٍ من التاريخ.

وقال أبو تمام مخاطباً نفسه:

ذريني أنالُ ما لا يُنال من العُلى فصَعْبُ العلى في الصعب والسَّهْلُ في السَّهل

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبَر النحل

وقال آخر:

دببت للمجد والساعون قد بلغوا جُهد النفوس وألقوا دونه الأُزرا

وكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرُهُم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلْعَقَ الصَبِرَا (١٩٩)

وقال ابن القيم

«وَسمعت شَيخنَا ابا الْعَبَّاس بن تَيْمِية رحمه الله يَقُول وَقد عرض لَهُ بعض الالم فَقَالَ لَهُ الطَّبِيب أضر مَا عَلَيْك الْكَلَام فِي الْعلم والفكر فِيهِ والتوجه وَالذكر فَقَالَ الستم تَزْعُمُونَ ان النَّفس إِذا قويت وفرحت اوجب فرحها لَهَا قُوَّة تعين بهَا الطبيعة على

(١٩٩) «تاريخ بغداد ت بشار» (٢/ ٥٤٨).

دفع الْعَارِض فَإِنَّهُ عدوها فَإِذا قويت عَلَيْهِ قهرته فَقَالَ لَهُ الطَّبِيب بلَى فَقَالَ إِذا اشتغلت نَفسِي بالتوجه وَالذكر وَالْكَلَام فِي الْعلم وظفرت بِمَا يشكل عَلَيْهَا مِنْهُ فرحت بِهِ وقويت فَأوجب ذَلِك دفع الْعَارِض هَذَا أَوْ نَحوه من الْكَلَام» (٢٠٠)

وقد أصبح ابن حزم بعد ست وعشرين سنة مضت من عمره بصبره وجلده عالماً كبيراً، وناقداً نحريراً على هنات يقع فيها.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنُ طَرْخَان التركي: قَالَ لِي الإِمَامُ أَبُو مُحَمَّد عبد الله ابن مُحَمَّد يَعْنِي وَالِد أَبِي بَكْرِ بنِ العَرَبِي: أَخْبَرَنِي أَبُو مُحَمَّد بنُ حَزْمٍ أَن سَبَبَ تَعَلُّمه الفقْه أَنَّهُ شَهِدَ جِنَازَة فَدَخَلَ المَسْجِدَ فَجَلَسَ وَلَمْ يركع فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: قُمْ فَصَلِّ تحيَّة المَسْجِد.

وَكَانَ قَدْ بلغَ ستّاً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً. قَالَ: فَقُمْتُ وَركعتُ فَلَمَّا رَجَعنَا مِنَ الصَّلاَةِ عَلَى الجِنَازَة دَخَلْتُ المَسْجِد فَبَادرتُ بِالرُّكُوْع فَقِيْلَ لِي: اجْلِسْ اجْلِسْ لَيْسَ ذَا وَقتَ صَلاَة وَكَانَ بَعْد العَصْر قَالَ: فَانْصَرَفت وَقَدْ حَزِنْتُ وَقُلْتُ للأُسْتَاذ الَّذِي رَبَّانِي: دُلنِي عَلَى دَار الفَقِيْه أَبِي عَبْد اللهِ بنِ دحُوْنَ. قَالَ: فقصدتُه وَأَعْلَمته بِمَا جرى فَدلَّنِي عَلَى مُوَطَّأ مَالِك فَبدَأْتُ بِهِ عَلَيْهِ وَتَابعت قِرَاءتِي عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِه نَحْواً مِنْ ثَلاَثَة أَعْوَام وَبدَأْتُ بِالمنَاظرَة. ثُمَّ قَالَ ابْنُ العَرَبِي: صَحِبتُ ابْنَ حَزْمٍ سَبْعَةَ أَعْوَام وَسَمِعْتُ مِنْهُ جَمِيْع مُصَنَّفَاته سِوَى المُجَلَّد الأَخِيْر مِنْ كِتَاب "الْفَصْل" وَهُوَ ستُّ مُجَلَّدَات، وَقرأْنَا عَلَيْهِ مِنْ كِتَاب "الإِيصَال" أَرْبَع مُجَلَّدَات فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِيْنَ وَأَرْبَع مائَة وَهُوَ أَرْبَعَة

(٢٠٠) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٢٥٠ ط العلمية).

وَعِشْرُوْنَ مجلداً ولي منه إجازة غير مرة» (٢٠١)

وقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ البخاري:
«وَقَدْ تَعَلَّمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِبَرِ سِنِّهِمْ»

وجمع الحكم المستنصر بداره الحذّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كلّه، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العبّاسي ابن المستضيء.
ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر» (٢٠٢)

وقال حسان بن محمد:
سمعت مشايخنا يذكرون أن إسحاق بن منصور بلغه أن أحمد بن جنبل رجع عن بعض تلك المسائل التي علقها عنه، قال: فجمع إسحاق بن منصور تلك المسائل في جراب وحملها على ظهره وخرج راجلا إلى بغداد، وهي على ظهره، وعرض خطوط أحمد عليه في كل مسألة استفتاه فيها فأقر له بها ثانيا، وأعجب بذلك أحمد من شأنه» (٢٠٣)

(٢٠١) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٣/ ٣٨٠).
(٢٠٢) «تاريخ ابن خلدون» (٤/ ١٨٨).
(٢٠٣) «تاريخ بغداد ت بشار» (٧/ ٣٨٥).

وقال محمد البشير الإبراهيمي عن نفسه:

«أنا مدمن قراءة من عهد الصغر، فقد بدأت قراءة الكتب وعمري تسع سنوات في السنة التي فرغت فيها من حفظ القرآن، وكان أستاذي- وهو عمّي شقيق والدي الأصغر- يتولّى تربيتي وتوجيهي، ويأخذني- مع حفظ القرآن- بحفظ مختارات من الشعر العربي البليغ في معانيه، الفصيح في ألفاظه، الغريب في فهمه، فما حفظت القرآن حتى كنت أحفظ معه بضعة الألف بيت من الشعر ما بين أبيات مفردة ومقطع مع فهم المفردات، وأعانني على الفهم ما صحب حفظي للقرآن من حفظ الكثير من الألفاظ اللغوية الفصيحة من كتاب "كفاية المتحفّظ" للأجدابي، و"الفصيح" لثعلب و"الألفاظ الكتابية" للهمداني.

من ذلك الحين شغفت بالقراءة» (٢٠٤)

وقَالَ أَبُو مَسْعُوْدٍ عَبْدُ الرَّحِيْمِ الحَاجِي: سَمِعْتُ ابْنَ طَاهِرٍ يَقُوْلُ:

بُلْتُ الدَّم فِي طَلَبِ الحَدِيْثِ مرَّتين، مرَّة بِبَغْدَادَ، وَأُخْرَى بِمَكَّةَ، كُنْتُ أَمْشِي حَافِياً فِي الحرِّ، فَلحقنِي ذَلكَ، وَمَا رَكبتُ دَابَّة قَطُّ فِي طَلَبِ الحَدِيْثِ، وَكُنْت أَحْمِلُ كُتُبِي عَلَى ظهرِي، وَمَا سَأَلتُ فِي حَال الطَّلَب أَحَداً، كُنْت أَعيشُ عَلَى مَا يَأْتِي.

وَقِيْلَ: كَانَ يَمْشِي دَائِماً فِي اليَوْمِ والليلة عشرين فرسخًا، وكان قادرًا عَلَى ذَلِكَ» (٢٠٥)

---

(٢٠٤) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٤/ ٣٧٢).

(٢٠٥) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٤/ ٢٨٩).

وقال الشيخ علي الطنطاوي عن نفسه:

«فأنا اليوم، وأنا بالأمس، كما كنت في الصغر؛ أمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مر عليّ يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة.

ومعدّل قراءتي مئة صفحة، من سنة (١٣٤٠هـ) إلى هذه السنة (١٤٠٢هـ) اثنتان وستون سنة، احسبوا كم يوماً فيها واضربوها بمئة تعرفوا كم صفحة قرأت.

أقرأ في كل موضوع، حتى في الموضوعات العلمية، بل والفنّية ... هذا غير النظر في الجرائد والمجلات» (٢٠٦)

وقال الشيخ أبو فهر العلامة محمود محمد شاكر:

"فإن هذا الإحساس القديم المبهم المتصاعد بفساد الحياة الأدبية، قد أفضى بي، ...إلى إعادة قراءة الشعر العربي كله أولا، ثم قراءة ما يقع تحت لدى من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه، وأصول فقه وأصول دين (هو علم الكلام)، وملل ونحل، إلى بحر زاخر من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة، حتى تراث الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافية القديمة، كتب النجوم وصور الكواكب، والطب القديم ومفردات الأدوية، وحتى قرأت البيزرة والبيطرة والفراسة .... بل كل ما استطعت أن أقف عليه بحمد الله سبحانه، قرأت ما تيسر لي منه، لا للتمكن من هذه العلوم المختلفة، بل لكي ألاحظ وأتبين وأزيح الثرى عن الخبيء والمدفون" (٢٠٧)

---

(٢٠٦) «ذكريات على الطنطاوي» (١/ ٢١١).

(٢٠٧) "الطريق إلى ثقافتنا"(ص-٢٤).

وقال عليُّ بنُ الحَسَن بْنِ شَقِيق:

«كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ فِي الْمَسْجِدِ فِي لَيْلَةٍ شَتْوِيَّةٍ بَارِدَةٍ فَقُمْنَا لِنَخْرُجَ فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ ذَاكَرَنِي بِحَدِيثٍ أَوْ ذَاكَرْتُهُ بِحَدِيثٍ، فَمَا زَالَ يُذَاكِرُنِي وَأُذَاكِرُهُ حَتَّى جَاءَ الْمُؤَذِّنُ فَأَذَّنَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ» (٢٠٨)

وقال ابنُ عَقِيْلٍ، في "فُنُوْنِه":

أَنَا أَقْصُرُ بِغَايَةِ جَهْدِي أَوْقَاتَ أَكْلِي، حَتَّى أَخْتَارُ سَفَّ الكَعْكِ وَتَحَسِّيْهِ بِالمَاءِ عَلَى الخُبْزِ، لِأَجْلِ مَا بَيْنَهِمَا مِنْ تَفَاوُتِ المَضْغِ، تَوَفُّرًا عَلَى مُطَالَعَةٍ، أَو تَسْطِيْرَ فَائِدَةٍ، لَمْ أُدْرِكْهَا» (٢٠٩)

وقال السبكي في ترجمة ابن دَقِيق الْعِيد:

«وَأما دأبه فِي اللَّيْل علما وَعبادَة فَأمر عُجَاب رُبمَا استوعب اللَّيْلَة فطالع فِيهَا المجلد أَو المجلدين وَرُبمَا تَلا آيَة وَاحِدَة فكررها إِلَى مطلع الْفجْر اسْتمع لَهُ بعض أَصْحَابه لَيْلَة وَهُوَ يقْرَأ فوصل إِلَى قَوْله {فَإِذا نفخ فِي الصُّور فَلَا أنْسَاب بَينهم يَوْمئِذٍ وَلَا يتساءلون} قَالَ فَمَا زَالَ يكررها إِلَى طُلُوع الْفجْر وَكَانَ يَقُول مَا تَكَلَّمت كلمة وَلَا فعلت فعلا إِلَّا وأعددت لَهُ جَوَابا بَين يَدي الله عز وجل» (٢١٠)

---

(٢٠٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٦).

(٢٠٩) «ذيل طبقات الحنابلة - لابن رجب» (١/ ٣٢٥ ت العثيمين).

(٢١٠) «طبقات الشافعية الكبرى للسبكي» (٩/ ٢١١).

وقال الحافظ الذهبي في ترجمة عَبْد الرَّحْمَنِ بن أَبِي حَاتِمٍ:

قَالَ ابن أَبِي حَاتِمٍ: كُنَّا بِمِصْرَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، لَمْ نَأْكُلْ فِيهَا مَرَقَةً، كُلُّ نَهَارِنَا مُقَسَّمٌ لِمَجَالِسِ الشُّيُوْخِ، وَبِاللَّيْلِ: النَّسْخُ وَالمُقَابَلَةُ.

قَالَ: فَأَتَيْنَا يَوْماً أَنَا وَرَفِيْقٌ لِي شَيْخاً، فَقَالُوا: هُوَ عَلِيْلٌ، فَرَأَينَا فِي طَرِيْقِنَا سَمَكَةً أَعْجَبَتْنَا، فَاشْتَرَيْنَاهُ، فَلَمَّا صِرنَا إِلَى البَيْتِ، حَضَرَ وَقْتُ مَجْلِسٍ، فَلَمْ يمكنَا إِصْلاَحه، وَمَضَينَا إِلَى المَجْلِسِ، فَلَمْ نَزَلْ حَتَّى أَتَى عَلَيْهِ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ، وَكَادَ أَنْ يَتَغَيَّرَ، فَأَكَلْنَاهُ نِيْئاً، لَمْ يَكُنْ لَنَا فَرَاغٌ أَنْ نُعْطِيَهُ مَنْ يَشْوِيه ثُمَّ قَالَ: لاَ يُسْتَطَاعُ العِلْمُ بِرَاحَةِ الجَسَدِ" (٢١١)

وكَانَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ يَشْرَبُ الْفَتِيتَ وَلَا يَأْكُلُ الْخُبْزَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: بَيْنَ مَضْغِ الْخُبْزِ وَشُرْبِ الْفَتِيتِ قِرَاءَةُ خَمْسِينَ آيَةً» (٢١٢)

وقال سَعِيد بْن جُبَيْر:

«كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، فِي طَرِيقِ مَكَّةَ لَيْلًا، وَكَانَ يُحَدِّثُنِي بِالْحَدِيثِ فَأَكْتُبُهُ فِي وَاسِطَةِ الرَّحْلِ، حَتَّى أُصْبِحَ فَأَكْتُبَهُ» (٢١٣)

(٢١١) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٦٦ ط الرسالة).

(٢١٢) «المجالسة وجواهر العلم» (١/ ٣٤٧).

(٢١٣) أثر صحيح: أخرجه الدارمي في «مسنده» برقم (٥١٦).

وقَالَ الْأَوْزَاعِيّ:

كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ أَرْضَى النَّاسِ عِنْدَ النَّاسِ، وَمَا كَانَ يَشْهَدُ مَجْلِسَهُ، إِلَّا سَبْعَةٌ أَوْ ثَمَانِيَةٌ» (٢١٤)

وقال الثوري: عن سلمة بن كهيل:

ما رأيت أحدا يريد بهذا العلم وجه الله غير هؤلاء الثلاثة: عطاء، وطاووس، ومجاهد.

قال ابن جريج:

كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة.

وقال إسماعيل بن عياش:

قلت لعبد الله بن عثمان بن خثيم: ما كان معاش عطاء؟ قال: صلة الإخوان، ونيل السلطان.

قال الأصمعي:

دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة، في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبد الملك، قام إليه، فسلم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين! اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتق

(٢١٤) «تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (ص٤٤٩).

الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك.

فقال له: أفعل. ثم نهض، وقام، فقبض عليه عبد الملك، وقال: يا أبا محمد! إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ قال: ما لي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا - وأبيك - الشرف، هذا - وأبيك - السؤدد» (٢١٥)

وترجم السخاوى لأَحْمد بن عَليّ بن إِبْرَاهِيم بن مَكْنُون الشهَاب فقال:

«وَكَانَ لَا يمل من المطالعة والاشتغال مَعَ الْخَيْر وَالدّين والتواضع وَالْجد الْمَحْض والتقلل الزَّائِد والاقتدار على مزِيد السهر وَلَوْلَا بطء الْفَهم لَكَانَ نادرة فِي وقته» (٢١٦)

وَقَالَ فُضَيْلُ بنُ غَزْوَانَ:

كُنَّا نَجلِسُ أَنَا، وَابْنُ شُبْرُمَةَ، وَالحَارِثُ بنُ يَزِيْدَ العُكْلِيُّ، وَالمُغِيْرَةُ، وَالقَعْقَاعُ بنُ يَزِيْدَ بِاللَّيْلِ، نَتَذَاكَرُ الفِقْهَ، فَرُبَّمَا لَمْ نَقُمْ حَتَّى نَسْمَعَ النِّدَاءَ بِالفَجْرِ» (٢١٧)

(٢١٥) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨٤ ط الرسالة).
(٢١٦) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٢/ ٦).
(٢١٧) «العلم لزهير بن حرب» (ص٢٧).

وقال اللَّيْث بْن سَعْد:

تذكرَ ابْنُ شِهَابٍ لَيْلَةً بَعْدَ الْعِشَاءِ حَدِيثًا وَهُوَ جَالِسٌ مُتَوَضِّئًا قَالَ: «فَمَا زَالَ ذَلِكَ مَجْلِسَهُ حَتَّى أَصْبَحَ» قَالَ مَرْوَانُ جَعَلَ يَتَذَاكَرُ الْحَدِيثَ" (٢١٨)

وقَالَ: عبد الرحمن بن أبي حاتم:

سمعت أبي، يقول: أول سنة خرجت في طلب الحديث، أقمت سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، لم أزل أحصى حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته» (٢١٩)

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم:

سمعت أبي يقول: بقيت بالبصرة في سنة أربع عشرة ومائتين ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أقيم سنة، فانقطع نفقتي، فجعلت أبيع ثيابي شيئا بعد شيء حتى بقيت بلا نفقه، ومضيت أطوف مع صديق لي، إلى المشيخة، وأسمع منهم إلى المساء، فانصرف رفيقي ورجعت إلى بيت خال، فجعلت أشرب الماء من الجوع، ثم أصبحت من الغد وغدا على رفيقي، فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد، فانصرف عنى وانصرفت جائعا، فلما كان من الغد غدا علي، فقال: مر بنا إلى المشايخ فقلت: أنا ضعيف لا يمكني قَالَ: ما ضعفك؟ قلت: لا أكتمك أمري قد

(٢١٨) صحيح: أخرجه الدارمي في «مسنده» (٦٤٠).

(٢١٩) «تاريخ بغداد ت بشار» (٢/ ٤١٤).

مضى يومان ما طعمت فيهما، فقال لي رفيقي: معي دينار فأنا أواسيك بنصفه، وتجعل النصف الأخر في الكراء، نخرجنا من البصرة، وقبضت منه النصف دينار.

وقَالَ عبد الرحمن: سمعت أبي يقول: قلت على باب أبي الوليد الطيالسي: من أغرب علي حديثاً غريباً مسنداً صحيحاً لم أسمع به، فله علي درهم يتصدق به. وقد حضر على باب أبي الوليد خلق من الحلق، أبو زرعة فمن دونه، وإنما كان مرادي أن يلقى على ما لم أسمع به ليقولوا: هو عند فلان فأذهب فاسمع، وكان مرادي أن أستخرج منهم ما ليس عندي، فما تهيأ لأحد منهم أن يغرب على حديثا» (٢٢٠)

وقال الشوكاني في ترجمة السَّيِّد صَلَاح بن أَحْمد بن مهدي المؤيدي:

كَانَ من عجائب الدَّهْر وغرائبه فإن مَجْمُوع عمره تسع وَعِشْرُونَ سنة وَقد فَازَ من كل فن بِنَصِيب وافر وَصَارَ لَهُ فِي الْأَدَب قصائد طنانة يعجز أهل الْأَعْمَار الطَّوِيلَة عَن اللحاق بِهِ فِيهَا وصنف فِي هَذَا الْعُمر الْقصير التصانيف المفيدة والفوائد الفريدة العديدة فَمن مصنفاته شرح شَوَاهِد النَّحْو وَاخْتصرَ شرح العباسى لشواهد التَّلْخِيص وَشرح الْفُصُول شرحاً حافلاً وَشرح الْهِدَايَة ففرغ من الْخطْبَة وَقد اجْتمع من الشَّرْح مُجَلد وَله مَعَ ذَلِك ديوَان شعر كُله غرر ودرر وَفِيه مغانى مبتكره فَمِنْهُ:

وصغيرة حاولت فضّ ختامها ... من بعد فرط تَحَنن وتلطّف

وقلبتها نحوي فَقَالَت عِنْد ذَا ... قلبي يحدثني بأنّك متــلفي

وَهَذَا تضمين يطرب لَهُ الجماد وترقّ لحسنه الصم الصلاد وَمَعَ هَذِه الْفَضَائِل الَّتِي نالها فِي هَذَا الأمد الْقَرِيب فَهُوَ مُجَاهِد للأتراك محاصر لصنعاء مَعَ الْحسن وَالْحُسَيْن

(٢٢٠) «تاريخ بغداد ت بشار» (٢/ ٤١٤).

ابني الإمام الْقَاسِم كَانَ مطرحه فِي الجراف يَشن الغارات على الأروام فِي جَمِيع الأيام وافتتح مَدِينَة أَبى عَرِيش وغزا إلى جِهَات مُتعَدِّدَة وَكَانَ منصوراً فِي جَمِيع حروبه وَكَانَ مَجْلِسه معموراً بالعلماء والأدباء وَأهل الْفَضَائِل قَالَ القاضي أَحْمد بن صَالح فِي مطلع البدور رَأَيْته فِي بعض الأيام خَارِجا إلى بعض المنتزهات بصعدة فَسمِعت الرهج وحركة الْخَيل فوقفت لأنظر فَخرج فِي نَحْو خَمْسَة وَثَلَاثِينَ فَارِسًا إلى منتزه وهم يتراجعون فِي الطَّرِيق بالأدبيات وَمِنْهُم من ينشد صَاحبه الشّعْر ويستنشده وَكَانَ هَذَا دأبه وإذا سَافر أول مَا تضرب خيمة الْكتب وإذا ضربت دخل إليها وَنشر الْكتب والخدم يصلحون الخيم الأخرى وَلَا يزَال ليله جَمِيعه ينظر فِي الْعلم وَيُحَرر ويقرر مَعَ سَلامَة ذوقه وَكَانَ مَعَ هَذِه الْجَلالَة يلاطف أَصْحَابه وَكتابه بالأدبيات والأشعار السحريات من ذَلِك أَبْيَات كَاتب بهَا السَّيِّد الْعَلامَة الْحسن بن أَحْمد الْجلَال مِنْهَا:

أفدي الحبيب الَّذِي قد زارني وَمضى ولاح مبســمه كالبرق إذ ومضا
نضـا عليّ حسـاما من لواحـــظه فظلت ألثم ذَاك اللحظ حِين نضا

فأجابه السَّيِّد الْحسن بأبيات مِنْهَا:

قد لَاحَ سعدك فاغتنم حسن الرِّضَا من أهل ودّك واستعض عَمَّا مضى
لما بعثت لَهُـــم بطيـــفك زَائِرًا تَحت الدجـــى ولفضلهم متعرّضا
بعثوا إليـــــك كَتَائِباً من كتبهمْ هزموا بهَا جَيش اصطبارك فانقضى

وهي أَبْيَات طَوِيلَة وَكَذَلِكَ الأبيات الأولى وَمن شعر صَاحب التَّرْجَمَة الْفَائِق قَوْله فِي التورية:

ومايش أرشفنى رِيقه لله من غُصْـن وريق وريق
لقى خد فَوْقه حمرَة فصرت مَا بَين النقا والعقيق (٢٢١)

وعن أَبِي الْعَالِيَةِ، قَالَ:
«كُنَّا نَسْمَعُ الرِّوَايَةَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْبَصْرَةِ فَلَمْ نَرْضَ حَتَّى رَكِبْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَسَمِعْنَاهَا مِنْ أَفْوَاهِهِمْ» (٢٢٢)

وَقَدْ كَانَ الْبُخَارِيُّ يَسْتَيْقِظُ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْ نَوْمِهِ فَيُورِي السِّرَاجَ، وَيَكْتُبُ الْفَائِدَةَ ثُمَّ يُطْفِئُ سِرَاجَهُ، ثُمَّ يَقُومُ مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى كَانَ يَتَعَدَّدُ ذَلِكَ مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً» (٢٢٣)

وقَالَ الحَافِظُ يَحْيَى بنُ عَبْدِ الوَهَّابِ:
كُنْتُ مَعَ عَمِّي عُبَيْدِ اللهِ فِي طَرِيقِ نَيْسَابُور، فَلَمَّا بلغْنَا بِئرَ مَجَنَّة، قَالَ عَمِّي: كُنْتُ هَا هُنَا مَرَّةً، فَعَرَضَ لِي شَيْخٌ جَمَّال، فَقَالَ: كُنْتُ قَافلاً مِنْ خُرَاسَانَ مَعَ أَبِي، فَلَمَّا وَصلنَا إِلَى هَا هُنَا إِذَا نَحْنُ بِأَرْبَعِيْنَ وِقْراً مِنَ الأَحمَالِ، فَظنَنَّا أَنَّهَا مَنسوجُ الثِّيَابِ،

(٢٢١) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (١/ ٢٩٥).
(٢٢٢) «الطبقات الكبير» (٩/ ١١٢ ط الخانجي).
(٢٢٣) «البداية والنهاية» (١٤/ ٥٢٨ ت التركي).

وَإِذَا خَيمَةٌ صَغِيْرَةٌ فِيْهَا شَيْخ، فَإِذَا هُوَ وَالِدُكَ، فَسَأَلَهُ بَعْضُنَا عَنْ تِلْكَ الأَحمَالِ، فَقَالَ: هَذَا مَتَاعٌ قلَّ مَنْ يرغب فِيْهِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، هَذَا حَدِيْثُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ » (٢٢٤)

وقال محمد بن قدامة:

دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى، فوقفت ساعة لا يعلم بمكاني لما هو فيه، ثم رفع رأسه فنظر إلي فسلم علي، فقلت له: يا أبا تمام إنك لتنظر إلى الكتب كثيراً وتدمن الدرس فما أصيرك عليها! فقال: والله ما لي إلف غيرها ولا لذة سواها» (٢٢٥)

وقال ابن رجب في "ترجمة العلامة أبي البقاء العُكْبَري (ت ٦١٦هـ) قَالَ ابْنُ النَّجَّار:

قَرَأْتُ عَلَيْهِ كَثِيْرًا مِنْ مُصَنَّفَاتِه، وَصَحِبْتُهُ مُدَّةً طَوِيْلَةً، وَكَانَ ثِقَةً، مُتَدَيِّنًا، حَسَنَ الأَخْلاَقِ مُتَوَاضِعًا، كَثِيْرَ المَحْفُوْظ، وَكَانَ مُحِبًّا للاشْتِغَال وَالإِشْغَال، لَيْلًا وَنَهَارًا، مَا يَمْضِي عَلَيْهِ سَاعَةٌ إِلَّا وَوَاحِدٌ يَقْرَأُ عَلَيْه، أَوْ يُطَالِعُ لَهُ، حَتَّى ذُكِرَ لِي أَنَّهُ بِاللَّيْلِ تَقْرَأُ لَهُ زَوْجَتُهُ فِي كُتُبِ الأَدَبِ وَغَيْرِهَا، قَالَ: وَبَقِيَ مُدَّةً مِنْ عُمُرِهِ فَقِيْدَ النَّظِيْرِ» (٢٢٦)

---

(٢٢٤) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٢/ ٥٠٣).

(٢٢٥) «طبقات الشعراء لابن المعتز» (ص٢٨٤).

(٢٢٦) «ذيل طبقات الحنابلة - لابن رجب» (٣/ ٢٣١ ت العثيمين).

وقال عياض في ترجمة أبي جعفر أحمد بن عبد الله المهدي القيرواني:

"من أهل العناية بالعلم. وكان في الدراسة والمطالعة آية لا يكاد يسقط الكتاب من يده، حتى عند طعامه» (٢٢٧)

وقال ابن عبد الهادى في ترجمة شيخ الإسلام:

«لَا تكَاد نَفسه تشبع من الْعلم فَلَا تروى من المطالعة وَلَا تمل من الأشتغال وَلَا تكل من الْبَحْث وَقل أَن يدْخل فِي علم من الْعُلُوم من بَاب من أبوابه إِلَّا وَيفتح لَهُ من ذَلِك الْبَاب أَبْوَاب ويستدرك مستدركات فِي ذَلِك الْعلم على حذاق اهله مَقْصُوده الْكتاب وَالسّنة» (٢٢٨)

وقال السخاوي في ترجمة أَحْمد بن عَليّ بن إِبْرَاهِيم بن مَكْنُون الشهَاب الهيتي ثمَّ القاهري الْأَزْهَرِي الشَّافِعِي:

وَكَانَ لَا يمل من المطالعة والاشتغال مَعَ الْخَيْر وَالدّين والتواضع وَالْجد الْمَحْض والتقلل الزَّائِد والاقتدار على مزِيد السهر وَلَوْلَا بطء الْفَهم لَكَانَ نادرة فِي وقته" (٢٢٩)

---

(٢٢٧) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ٢٧٣).

(٢٢٨) «العقود الدرية في مناقب ابن تيمية» (ص٢١ ت الفقي).

(٢٢٩) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٢/ ٦).

وقال عبد الحي الحسني في ترجمة مرزا عبد الرحيم بن بيرم خان:

«وكان له من النقاوة التامة والشهامة الكاملة وعلو الهمة والكرم ما لا يمكن وصفه مع المعرفة للأدب، ومطالعة كتبه، والإشراف على كتب التاريخ، ومحبة أهل الفضائل، وكراهة أرباب الرذائل، والنزاهة، والصيانة والميل إلى معالي الأمور، حتى لم أجد ممن كان قبله أو بعده من يساويه في مجموع كمالاته، وكان مع ذلك لا يعفو نفسه عن مطالعة الكتب، فإذا كان على ظهر الفرس وقت طعنة أو نهضة رأيت الأجزاء في يده، وإذا كان يغتسل رأيت الأجزاء في يد خدامه يحاذونه وهو يطالعها ويغتسل» (٢٣٠)

وقال محمد باي بلعالم في ترجمة عبد الرحمن السكوتي:

«كان عالماً قاضياً مؤلفاً ذكرت ترجمته في كتابنا الرحلة العلية إلى منطقة توات، وهو من أجل علماء توات أعطي من الذكاء والفطنة وحسن الخلق والكرم ما لا يكاد يعد ولا يحصى-، وكان لا يمل من المطالعة ليل نهار، وقد أثرى خزانة أجداده بكثير من الكتب، وتولى الفتوى والقضاء» (٢٣١)

وقال السخاوي في ترجمة أَحْمد بن سُلَيْمَان بن نصر الله بن إِبْرَاهِيم الشهَاب البلقاسي ثمَّ القاهري الْأَزْهَرِي الشَّافِعِي:

---

(٢٣٠) «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» (٥/ ٥٦١).

(٢٣١) «إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر» (ص٧٢).

وتصدى للاشتغال فِي حَيَاة جلّ شُيُوخه فَانْتَفع بِهِ الطّلبَة وَرُبمَا كتب على الفتوي، وَكَانَ إِمَامًا عَلامَة قوي الحافظة حسن الفاهمة مشاركا فِي فنون طلق اللِّسَان محبا فِي الْعلم والمذاكرة والمباحثة غير منفك عَن التَّحْصِيل بِحَيْثُ أَنه كَانَ يطالع فِي مَشْيه ويقرئ الْقرَاءَات فِي حَال أكله خوفًا من ضيَاع وقته فِي غَيره

أعجوبة فِي هَذَا الْمَعْنى لَا أعلم فِي وقته من يوازيه فِيهِ طارحا للتكلف كثير التَّوَاضُع مَعَ الْفُقَرَاء سَهْما على غَيرهم سريع الْقِرَاءَة جدا، وَقد حج مَعَ وَالِده وَلم يزل على طَرِيقَته فِي الِاشْتِغَال والأشغال حَتَّى مَاتَ قبل أَن يتكهل» (٢٣٢)

وقال عُبَيْد بْن يَعِيش:

«أَقَمْتُ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا أَكَلْتُ بِيَدِي يَعْنِي بِاللَّيْلِ كَانَتْ أُخْتِي تُلْقِمُنِي وَأَنَا أَكْتُبُ» (٢٣٣)

وقال الذهبي في ترجمة ابْن سِيْنَا أنه قال عن نفسه:

«ثُمَّ ذكر مبَادئَ اشتغَالِهِ، وَقُوَّةَ فَهْمِهِ، وَأَنَّهُ أَحكم المَنْطِقَ وَكِتَاب إِقليدس إِلَى أَنْ قَالَ:

ورغبتُ فِي الطِّبِّ، وَبَرَّزْتُ فِيْهِ، وَقرؤُوا عليَّ، وأَنَا مَعَ ذَلِكَ أَختلِفُ إِلَى الفِقْه، وَأُنَاظِرُ وَلِي سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً.

(٢٣٢) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١/ ٣١٠).

(٢٣٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ١٧٨).

ثُمَّ قَرَأْتُ جَمِيعَ أَجزَاءِ الفَلْسَفَةِ، وَكُنْتُ كلَّمَا أَتَحَيَّرُ فِي مَسْأَلَةٍ، أَوْ لَمْ أَظْفَرَ بِالحدّ الأَوسطِ فِي قِيَاسٍ، ترددتُ إِلَى الجَامع، وَصَلَّيْتُ، وَابتهَلْتُ إِلَى مبدعِ الكُلِّ حَتَّى فُتِحَ لِي المُنغلِقُ مِنْهُ، وَكُنْتُ أَسهرُ، فمهمَا غَلبَنِي النَّومُ، شربْتُ قَدَحاً.

إِلَى أَنْ قَالَ: حَتَّى اسْتحكم مَعِي جَمِيعُ الْعُلُوم، وَقَرَأْتُ كِتَاب (مَا بَعْد الطّبيعَة)، فَأَشكل عليَّ حَتَّى أَعدتُ قراءته أَرْبَعِينَ مرَّةً، فَحَفِظْتُهُ وَلَا أَفهمُه، فَأَيِسْتُ.

ثُمَّ وَقَعَ لِي مُجَلَّدٌ لأَبِي نَصْرٍ الفَارَابِيّ فِي أَغرَاض كِتَاب مَا بَعْد الحِكْمَة الطّبيعيَّة، ففتحَ عليّ أَغرَاض الكُتُب، فَفَرِحتُ، وَتَصَدَّقْتُ بِشَيْءٍ كَثِيْر واتَّفَقَ لسُلْطَان بُخَارَى نوح مرضٌ صعبٌ، فَأُحْضِرتُ مَعَ الأَطباء، وَشَاركتُهم فِي مُدَاوَاته، فسأَلتُ إِذْناً فِي نظرِ خزَانَة كُتُبِه، فَدَخَلتُ فَإِذَا كُتُبٌ لَا تُحصَى فِي كُلِّ فَنّ، فَظفرتُ بفَوائِدَ ... إِلَى أَنْ قَالَ: فَلَمَّا بلغتُ ثَمَانِيَةَ عشرَ عَاماً، فَرَغْتُ مِنْ هَذِه العُلُوم كُلِّهَا، وَكُنْتُ إِذْ ذَاكَ للعلمِ أَحفَظُ، وَلَكِنَّهُ مَعِي اليَوْمَ أَنضَجُ، وَإِلَاّ فَالعِلْمُ وَاحِدٌ لَمْ يتجدَّد لِي شَيْءٌ، وَصنَّفْتُ (الْمَجْمُوع) ، فَأَتيتُ فِيْهِ عَلَى علومٍ، وَسأَلَنِي جَارُنَا أَبُو بَكْرٍ البَرْقِيّ وَكَانَ مَائلاً إِلَى الفِقْهِ وَالتَّفْسِيْرِ وَالزُّهْد، فصنَّفْتُ لَهُ (الحَاصل وَالمَحْصُوْل) فِي عِشْرِيْنَ مُجَلَّدَة» (٢٣٤)

وقال الصفديُّ تلميذ شيخ الإسلام:

«أَخبرنِي الْمولى عَلَاء الدّين بن الْآمِدِيّ وَهُوَ من كبار كتاب الْحساب قَالَ دخلت يَوْمًا إِلَيْهِ وَأَنا وَالشَّمْس النفيس عَامل بَيت المَال وَلم يكن فِي وقته أكتب مِنْهُ فَأخذ الشَّيْخ تَقِيّ الدّين يسْأَله عَن الِارْتِفَاع وَعَما بَين الفذلكة واستقرار الْجُمْلَة من الْأَبْوَاب

(٢٣٤) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٣/ ١٩٩).

وَعَن الفذلكة الثَّانِيَة وخصمها وَعَن أَعمال الاستحقاق وَعَن الْخَتْم والتوالي وَمَا يطْلب من الْعَامِل وَهُوَ يجِيبه عَن الْبَعْض ويسكت عَن الْبَعْض ويسأله عَن تَعْلِيل ذَلِك إِلَى أَن أوضح لَهُ ذَلِك وعلّله قَالَ فَلَمَّا خرجنَا من عِنْده قَالَ لي النفيس وَالله تعلمت الْيَوْم مِنْهُ مَا لَا كنت أعلمهُ» (٢٣٥)

وقال الرافعي في الكلام على الحماسة:

« ولكن الذي رزق حظ الشهرة في اختياره وجاء بما غطى على من سبقه أبو تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣١هـ فيما جمعه من كتاب "الحماسة" الشهير الذي قالوا إنه في اختياره أشعر منه في شعره، وتأويل ذلك ما قدمناه من معنى إصابة الاختيار؛ قالوا: وسبب جمعه أنه قصد عبد الله بن طاهر وهو بخراسان فمدحه فأجازه، وعاد يريد العراق، فلما دخل همذان اغتم أبو الوفاء بن سلم فأنزله وأكرمه، وأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق، فغم ذلك أبا تمام وسر أبا الوفاء، فأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها، وصنف خمسة كتب في الشعر، منها كتاب "الحماسة"، و"الوحشيات"، و"فحول الشعراء"، و"مختار شعراء القبائل" "الخزانة" فبقي "الحماسة" في خزائن آل سلم يضنون به، حتى تغيرت أحوالهم وورد أبو العواذل همذان من دينور فظفر به وحمله إلى أصبهان، فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه مما هو في معناه من الكتب، ثم شاع حتى ملأ الدنيا " (٢٣٦)

(٢٣٥) «الوافي بالوفيات» (٧/ ١٤).
(٢٣٦) «تاريخ آداب العرب» (٣/ ٢٢٨).

وقال المزني:

"كنت في تأليف هذا الكتاب -مختصره-عشرين سنة، وألفته ثلاث مرات، وغيرته، وكنت كلما أردت تأليفه أصوم قبله ثلاثة أيام وأصلي كذا كذا ركعة" (٢٣٧)

وذكر السمعاني في ترجمة الأمير أبو العباس الميكالي قال: تذاكرنا المتنزهات يوما وابن دريد حاضر، فقال بعضهم: أنزه الأماكن غوطة دمشق، وقال آخرون: بل نهر الأبلّة، وقال آخرون: بل سغد سمرقند،

وقال بعضهم: نهروان بغداد،

وقال بعضهم: شعب بوّان بأرض فارس،

وقال بعضهم: نوبهار بلخ.

فقال: هذه متنزهات العيون فأين أنتم عن متنزهات القلوب. قلنا وما هي يا أبا بكر؟ قال «عيون الأخبار» للقتيبي

و«الزهرة» لابن داود

و«قلق المشتاق» لابن أبي طاهر، ثم أنشأ يقول:

ومن تك نزهته قينة وكأس تحثّ وكأس تصب

فنزهتنا واستراحتنا تلاقي العيون ودرس الكتب (٢٣٨)

---

(٢٣٧) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٣٤٩).

(٢٣٨) «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» (ص١٥٤).

وعَنْ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ، قَالَ:
«أَدْرَكْتُ أَلْفَ شَيْخٍ كَتَبْتُ عَنْهُمْ» (٢٣٩)

وقال جعفر بن نفيل:

قدم علينا احمد بن حنبل ويحيى بن معين فسألني يحيى وهو يعانقني فقال يا أبا جعفر قرأت على معقل بن عبيد الله عن عطاء أدني وقت الحائض يوم فقال له أبو عبد الله لو جلست فقال أكره أن يموت أو يفارق الدنيا قبل أن اسمعه» (٢٤٠)

وقال أبو جعفر:

لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتحقق به، فجاءني يوما رجل فسألني عن شيء من العروض، ولم أكن نشطت له قبل ذلك، فقلت له: عليّ قول ألا أتكلم اليوم في شيء من العزوض، فإذا كان في غد قصر إليّ، وطلبت من صديق لي العروض للخليل بن أحمد فجاء به، فنظرت فيه ليلتي، فأمسيت غير عروضي وأصبحت عروضيا» (٢٤١)

(٢٣٩) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٢١).
(٢٤٠) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٢/ ٣٥٣).
(٢٤١) «معجم الأدباء" (٦/ ٢٤٤٩).

وقال عُمَر بن حَفْصٍ الأَشْقَرُ:

كُنَّا مَعَ البُخَارِيّ بِالبَصْرَةِ نكتبُ فَفَقدنَاهُ أَيَّاماً ثُمَّ، وَجدنَاهُ فِي بَيْتٍ، وَهُوَ عُرياَنٌ وَقَدْ نَفدَ مَا عِنْدَهُ فَجَمَعنَا لَهُ الدَّرَاهِمَ، وَكسونَاهُ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْد اللهِ يَقُوْلُ: مَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُوْنَ بِحَالَةٍ إِذَا دَعَا لَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةُ أَخِيْهِ بحضرتِي: فَهَلْ تبيَّنْتَ ذَلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ نَفْسِكَ، أَوْ جرَّبْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ دعوتُ رَبِّي عز وجل مرَّتينِ فَاسْتجَابَ لِي فَلَنْ أُحِبَّ أَنْ أَدْعُوَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَعَلَّهُ يَنْقُصُ مِنْ حسنَاتِي أَو يُعَجِّلَ لِي فِي الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ: مَا حَاجَةُ المُسْلِمُ إِلَى الكذِبِ وَالبُخْلِ!

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَمِعْتُ البُخَارِيَّ يَقُوْلُ: خَرَجتُ إِلَى آدَمَ بنِ أَبِي إِيَاسٍ، فَتخلَّفْتُ عَنِّي نَفَقَتِي، حَتَّى جَعَلتُ أَتَناولُ الحشيشَ، وَلَا أُخْبِرُ بِذَلِكَ أَحَداً فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الثَّالِثُ أَتَانِي آتٍ لَمْ أَعرِفْهُ فَنَاولَنِي صُرَّةَ دَنَانِيْر، وَقَالَ: أَنْفِقْ عَلَى نَفْسِكَ» (٢٤٢)

وقال الْحُسَيْنُ بْنُ الْحَسَنِ الْحَنَّاطُ: سَمِعْتُ فَرْقَدًا، إِمَامَ مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ يَقُولُ:

دَخَلُوا عَلَى سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَحَدَّثَهُ رَجُلٌ بِحَدِيثٍ، فَأَعْجَبَهُ وَضَرَبَ يَدَهُ إِلَى تَحْتِ فِرَاشِهِ، فَأَخْرَجَ أَلْوَاحًا لَهُ فَكَتَبَ ذَلِكَ الْحَدِيثَ، فَقَالُوا لَهُ: عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مِنْكَ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ حَسَنٌ، إِنْ بَقِيتُ فَقَدْ سَمِعْتُ حَسَنًا، وَإِنْ مُتُّ فَقَدْ كَتَبْتُ حَسَنًا» (٢٤٣)

---

(٢٤٢) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٠/ ١٠٨).

(٢٤٣) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٧/ ٦٤).

وعن أَبِي الْعَبَّاسِ الدَّغْوَلِيّ، قال:

لَا يُفَارِقُنِي أَرْبَعُ مُجَلَّدَاتٍ، فِي الْبَلَدِ وَفِي الْخُرُوجِ إِلَى ضِيَاعِي، كِتَابُ الْمُزَنِيِّ، وَكِتَابُ الْعَيْنِ، وَكِتَابُ التَّارِيخِ لِلْبُخَارِيِّ، وَكِتَابُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ» (٢٤٤)

وذكر الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٠/ ٥٧٨):

«قَالَ حَمْدَانُ بنُ هَانِئ المُقْرِئُ: أَشْكَلَ عَلَيَّ بَابٌ مِنَ النَّحْوِ، فَأَنْفَقْتُ ثَمَانِيْنَ أَلْفَ دِرْهَمٍ حَتَّى حَذِقْتُهُ» (٢٤٥)

وقال ابن عبد الهادى عن شيخ الإسلام:

«لَا تكَاد نَفسه تشبع من الْعلم فَلَا تروى من المطالعة وَلَا تمل من الأشتغال وَلَا تكل من الْبَحْث وَقل أَن يدْخل فِي علم من الْعُلُوم من بَاب من أبوابه إِلَّا وَيفتح لَهُ من ذَلِك الْبَاب أَبْوَاب ويستدرك مستدركات فِي ذَلِك الْعلم على حذاق اهله مَقْصُوده الْكتاب وَالسّنة وَلَقَد سمعته فِي مبادىء أمره يَقُول إِنَّه ليقف خاطري فِي الْمَسْأَلَة وَالشَّيْء أَو الْحَالة الَّتِي تشكل على فأستغفر الله تَعَالَى ألف مرّة أوأكثر أَو أقل حَتَّى ينشرح الصَّدْر ويحل إِشْكَال مَا أشكل قَالَ وأكون اذ ذَاك فِي السُّوق أَو الْمَسْجِد أَو الدَّرْب أَو الْمدرسَة لَا يَمْنعنِي ذَلِك من الذّكر وَالِاسْتِغْفَار إِلَى أَن أنال مطلوبي

(٢٤٤) «تقييد العلم للخطيب البغدادي» (ص١٤٠).

(٢٤٥) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٩/ ٧).

قَالَ هَذَا الصاحب وَلَقَد كنت فِي تِلْكَ الْمدَّة وَأول النشأة إِذا اجْتمعت بِهِ فِي ختم أَو مجْلِس ذكر خَاص مَعَ أحد الْمَشَايِخ الْمَذْكُورين وتذاكروا وَتكلم مَعَ حداثة سنه أجد لكَلَامه صولة على الْقُلُوب وتأثيرا فِي النُّفُوس وهيبة مَقْبُولَة ونفعا يظْهر أَثَره وتنفعل لَهُ النُّفُوس الَّتِي سمعته أَيَّامًا كَثِيرَة بعقبه حَتَّى كَانَ مقاله بِلِسَان حَاله وحاله ظَاهر لَهُ فِي مقاله شهِدت ذَلِك مِنْهُ غير مرّة» (٢٤٦)

وقال الحافظ الذهبي

«وَرَوَى رَجُلَانِ عَنِ ابْنِ الْمُقْرِئِ قَالَ: مَشَيْتُ بِسببِ نُسخَةِ مُفَضَّل بنِ فَضَالَةَ سَبْعِيْنَ مَرْحَلَةً، وَلَوْ عُرِضَت عَلَى خبَّازٍ بِرَغيفٍ لَمْ يَقْبَلْهَا» (٢٤٧)

وقال الزُّهْرِي:

«تَبِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ فِي طَلَبِ حَدِيثٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» (٢٤٨)

وقَالَ: مَكَثْتُ خَمْسًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً أَخْتَلِفُ مِنَ الْحِجَازِ إِلَى الشَّامِ وَمِنَ الشَّامِ إِلَى الْحِجَازِ فَمَا كُنْتُ أَسْمَعُ حَدِيثًا أَسْتَطْرِفُهُ» (٢٤٩)

---

(٢٤٦) «العقود الدرية في مناقب ابن تيمية» (ص٢١ ت الفقي).

(٢٤٧) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٢/ ٣٨٢).

(٢٤٨) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٣/ ٣٦٢).

(٢٤٩) «المعرفة والتاريخ - ت العمري - ط العراق» (١/ ٦٣٦).

وقَالَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَدِينِيُّ سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ الْقَطَّانَ: وَذَكَرُوا طَلَبَ الْحَدِيثِ فَقَالَ: «كُنْتُ أَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ قَبْلَ الْغَدَاةِ فَلَا أَرْجِعُ إِلَى الْعَتَمَةِ» (٢٥٠)

وقال السخاوى في ترجمة أحمد بن سليمان بن نَصْر الله البُلْقاسي ثم القاهري الشافعي ولد سنة (٨٢٤)، وتوفي سنة (٨٥٢) وعمره (٢٨) سنة:

«وَكَانَ إِمَامًا عَلامَة قوي الحافظة حسن الفاهمة مشاركا فِي فنون طلق اللِّسَان محبا فِي الْعلم والمذاكرة والمباحثة غير منفك عَن التَّحْصِيل بِحَيْثُ أَنه كَانَ يطالع فِي مَشْيه ويقرئ الْقرَاءَات فِي حَال أكله خوفًا من ضيَاع وقته فِي غَيره أعجوبة فِي هَذَا الْمَعْنى لَا أعلم فِي وقته من يوازيه فِيهِ طارحا للتكلف كثير التَّوَاضُع مَعَ الْفُقَرَاء سَهْما على غَيرهم سريع الْقِرَاءَة جدا، وَقد حج مَعَ وَالِده وَلم يزل على طَرِيقَته فِي الِاشْتِغَال والأشغال حَتَّى مَاتَ قبل أَن يتكهل» (٢٥١)

وقَالَ بهاء الدين الجندى في ترجمة أبي الخير السعدي ت (ت٦٨٠هـ):

«وَلم يكن لَهُ فِي آخر عمره نَظِير بجودة الْعلم وَضبط الْكتب بِحَيْثُ لَا يُوجد لكتبه نَظِير فِي الضَّبْط أَخْبرنِي جمَاعَة مِمَّن أدركه أَنه كَانَ لَا يُوجد إِلَّا وَعِنْده كتاب ينظر فِيهِ ومحبرة وَأَقْلَام يصلح بهما مَا وجد فِي الْكتاب» (٢٥٢)

---

(٢٥٠) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ١٥٠).

(٢٥١) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١/ ٣١١).

(٢٥٢) «السلوك في طبقات العلماء والملوك» (٢/ ٣٠).

وقَالَ السخاوي في ترجمة محمد بن أحمد ابن محمد العُمَري الصَّغَاني ت (٨٥٤):

«وَكَانَ إِمَامًا عَلامَة مُتَقَدما فِي الْفِقْه والأصلين والعربية ومشاركا فِي فنون حسن الْكِتَابَة وَالتَّقْيِيد عَظِيم الرَّغْبَة فِي المطالعة والانتقاء بِحَيْثُ بَلغنِي عَن أبي الْخَيْر بن عبد الْقوي أَنه قَالَ أعرفهُ أَزِيد من خمسين سنة وَمَا دخلت إِلَيْهِ قطّ إِلَّا وَوَجَدته يطالع أَو يكْتب» (٢٥٣)

وقال ابن خلكان في ترجمة العلامة النحوي أحمد بن يحيى المعروف بثعلب:

وكان سبب وفاته أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر، وكان قد لحقه صمم لايسمع إلا بعد تعب، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق فصدمته فرس فألقته في هوة، فأخرج منها وهو كالمختلط، فحمل إلى منزله على تلك الحال وهو يتأوه من رأسه، فمات ثاني يوم» (٢٥٤)

وقَالَ ابنُ عَدِي:

رأيت مجلس الفريابي يحزر فيه خمسة عشر ألف محبرة وكنا نحتاج أن نبيت فِي موضع المجلس لنتخذ من الغد موضع مجلس» (٢٥٥)

---

(٢٥٣) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٧/ ٨٥).

(٢٥٤) «وفيات الأعيان» (١/ ١٠٤).

(٢٥٥) «الكامل في ضعفاء الرجال» (٦/ ٤٠٧).

حرصهم على طلب العلم وهمم على فراش الموت ومن ذلك:

قال عبد القادر بن محمد القرشي (ت ٧٧٥هـ) في ترجمة إِبْرَاهِيم بن الْجراح:

وَهُوَ آخر من روى عَن أبي يُوسُف قَالَ: أَتَيْته أعوده فَوَجَدته مغمى عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاق قَالَ لي يَا إِبْرَاهِيم أَيّمَا أفضل فى رمي الْجمار أَن يرميها الرجل رَاجِلا أَو رَاكِبًا؟ فَقلت رَاجِلا فَقَالَ أَخْطَأت، فَقلت رَاكِبًا فَقَالَ لي أَخْطَأت، ثمَّ قَالَ إِمَامًا كَانَ يُوقف عِنْده للدُّعَاء فَالْأَفْضَل أَن يرميه رَاجِلا وإماما كَانَ لَا يُوقف عِنْده فَالْأَفْضَل أَن يرميه رَاكِبًا ثمَّ قُمْت من عِنْده فَمَا بلغت بَاب دَاره حَتَّى سَمِعت الصُّرَاخ عَلَيْهِ وَإِذا هُوَ قد مَاتَ» (٢٥٦)

وقال السبكي:

وجدت بِخَط ابْن القليوبي فِي كِتَابه الْعلم الظَّاهِر كَانَ الشَّيْخ تَاج الدّين الْحَمَوِيّ مدرسا بِالْمَدْرَسَةِ الصلاحية وخطيبا بِالْقَاهِرَةِ وَكَانَ كثير الِاشْتِغَال بِالْعلمِ دَائِم التَّحْصِيل لَهُ وَسمعت الشَّيْخ الإِمَام الْحَافِظ زكي الدّين عبد الْعَظِيم يَقُول دخلت عَلَيْهِ يَوْمًا (تَاج الدّين الْحَمَوِيّ) وَهُوَ فِي سرب تَحت الأَرْض لأجل شدَّة الْحر وَهُوَ يشْتَغل قَالَ فَقلت لَهُ فِي هَذَا الْمَكَان وعَلى هَذَا الْحَال فَقَالَ إِذا لم أشتغل بِالْعلمِ مَاذَا أصنع» (٢٥٧)

---

(٢٥٦) «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٣٦).

(٢٥٧) «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ٢٤).

وقال الفاسي في ترجمة أحمد بن أبي طالب أبي العباس الحجار مسند الدينا:

«وفي يوم موته قرئ عليه وله مائة سنة وعشر سنين تقريباً ونزل الناس بموته درجة" (٢٥٨)

وقال ابن أبي حاتم:

باب ما ظهر لأبي زرعة من سيد عمله عند وفاته حدثنا عبد الرحمن قال سمعت أبي يَقُولُ: مَاتَ أَبُو زُرْعَةَ مَطْعُونًا مَبْطُونًا يَعْرَقُ جَبِينُهُ فِي النَّزْعِ فَقُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ: مَا تَحْفَظُ فِي تَلْقِينِ الْمَوْتَى لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ؟ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ: يُرْوَى عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - فَمَنْ قَبِلَ أَنْ يَسْتَتِمَّ رَفَعَ أَبُو زُرْعَةَ رَأْسَهُ وَهُوَ فِي النَّزْعِ فَقَالَ: رَوَى عبد الحميد ابن جَعْفَرٍ عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي عَرِيبٍ عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ عَنْ مُعَاذٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ. فَصَارَ الْبَيْتُ ضَجَّةً بِبُكَاءِ مَنْ حَضَرَ" (٢٥٩)

وقال ابن الجوزى في ترجمة أبى طاهر بن أبي السقر الأنباري الخطيب:

«وكان من الجوالين في الآفاق، والمكثرين من شيوخ الأمصار، وكان يقول: هذه كتبي أحب إلى من وزنها ذهبا، وكان ثقة ثبتا فاضلا صواما قواما» (٢٦٠)

---

(٢٥٨) «ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد» (١/ ٣١٧).

(٢٥٩) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٤٥).

(٢٦٠) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٦/ ٢٣٢).

وقال أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني (ت ٣٩٠هـ):

قال نصر بْن كثير قَالَ: دخلت على جَعْفَر بْن مُحَمَّد عَلَيْهِمَا السَّلَام أَنا وسُفْيَان الثَّوْرِيّ مُنْذُ سِتّينَ سنة أَو سبعين سنة فَقلت لَهُ: إِنِّي أُرِيد الْبَيْت الْحَرَام فعلمني شَيْئا أَدْعُو بِهِ، قَالَ: إِذا بلغت الْبَيْت الْحَرَام فضع يدك على حَائِط الْبَيْت ثُمَّ قل: يَا سَابق الْفَوْت، وَيَا سامع الصَّوْت، وَيَا كاسي الْعِظَام لَحْمًا بعد الْمَوْت، ثُمَّ ادْع بعده بِا شِئْت، فَقَالَ لَهُ سُفْيَان شَيْئا لم أفهمهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: يَا سُفْيَان أَو يَا أَبَا عَبد اللَّه، إِذا جَاءَك مَا تحب فَأَكْثر من الْحَمد لله وَإِذا جَاءَك مَا تكره فَأَكْثر مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّهِ وَإِذا اسْتَبْطَأْت الرزق فَأَكْثر من الاسْتِغْفَار.

وقَالَ القَاضِي: كنت مُنْذُ سِنِين كَثِيرَة دَعَوْت الله عز وَجل وَقلت يَا سَابق الْفَوْت، وَقلت فِي وقت آخر: يَا سَابق كل فوت، وَكَانَ عِنْدِي أَنه شَيْء خطر لي وَلم أكن ذَاكِرًا لهَذِهِ الرِّوَايَة وَلَا عَالما بهَا فِي الْوَقْت، فاستحسنت هَذِه الدعْوَة ثُمَّ وَجدتهَا عِنْدِي فِي مَا سمعته وكتبته ورويته.

وَحكى لي بعض بني الْفُرَات عَن رجلٍ مِنْهُم، أَو من غَيرهم، أَنه كَانَ بِحَضْرَة أَبِي جَعْفَر الطَّبَرِيّ رَحمَه الله قبل مَوته وَتُوفِّي بعد سَاعَة أَو أقل مِنْهَا، فَذكر لَهُ هَذَا الدُّعَاء عَن جَعْفَر بْن مُحَمَّد عَلَيْهِمَا السَّلَام فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبها، فَقيل لَهُ أَفِي هَذِه الْحَال؟ فَقَالَ: يَنْبَغِي للْإِنْسَان أَن لَا يدع اقتباس الْعلم حَتَّى يَمُوت» (٢٦١)

(٢٦١) «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» (ص٥٢٧).

وقال ابن أبي حاتم:

باب ما ظهر لأبي من سيد عمله عند وفاته حضرت أبي رحمه الله وكان في النزع وأنا لا أعلم فسألته عن عقبة بن عبد الغافر يروي عن النبي ﷺ: له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم اقنع منه فقلت: فهمت عني: له صحبة؟ قال: هو تابعي.

قلت فكان سيد عمله معرفة الحديث وناقلة الآثار فان في عمره يقتبس منه ذلك فأراد الله أن يظهر عند وفاته ما كان عليه في حياته (٢٦٢)

وقال ياقوت الحموى عن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى الولوالجي:

دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، قد حشرج نفسه وضاق به صدره، فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوما حساب الجذرات الفاسدة؟ فقلت له إشفاقا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا أودّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرا من أن أخلّيها وأنا جاهل بها؟ فأعدت ذلك عليه وحفظ وعلمني ما وعد، وخرجت من عنده وأنا في الطريق، فسمعت الصراخ» (٢٦٣)

وقال ابن الجوزى عن نفسه: وإني أخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثبت الكتب

---

(٢٦٢) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٦٧)

(٢٦٣) «معجم الأدباء» (٥/ ٢٣٣١).

الموقوفه في المدرسة النظمية؛ فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب، وابن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشاب -وكانت أحمالًا- وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر، وأنا بعد في الطلب! فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر هممهم، وحفظهم وعباداتهم، وغرائب علومهم: ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب. ولله الحمد» (٢٦٤)

وقال عياض في ترجمة محمد بن وسيم بن سعدون: دخل عليه وهو في النزع بعض أصحابه، فناداه فلم يجبه. فقال الآخر: " وحِيل بينهُم وبينَ ما يشتهون ". فقال له أبو بكر حين ذلك: نزلت في الكفار وقتها. " إنهم كانوا في شكٍ مريب " (٢٦٥)

وقال الذهبي في ترجمة صفي الدّين الْهِنْدِيّ الأرموي:
أنه ذَكَرَ حَدِيثَيْنِ لَيْسَا هُمَا عِنْدِي، قَرَأْتُهُمَا عَلَيْهِ وَنَفْسُهُ يُحَشْرِجُ فِي الصَّدْرِ، فَتُوُفِّيَ يَوْمَئِذٍ، عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا، آمِينَ (٢٦٦)

(٢٦٤) «صيد الخاطر» (ص٤٥٤).
(٢٦٥) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ١٧٦).
(٢٦٦) «معجم الشيوخ الكبير» (٢/ ٢١٦).

وقال ابن القيم:

«وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأ بي مرضٌ، فقال لي الطبيب: إنَّ مطالعتَك، وكلامَك في العلم يزيدُ المرضَ. فقلت له: لا أصبرُ عن ذلك، وأنا أُحاكمك إلى علمك: أليستِ النفسُ إذا فرحتْ وسُرّت قويت الطبيعةُ، فدفعتِ المرض؟ فقال: بلى! فقلت له: فإنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجدُ راحةً. فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال» (٢٦٧)

وقال عياض في ترجمة مسرة بن مسلم بن ربيعة الحضرمي:

«ولما احتضر رحمه الله، ابتدأ القرآن، فانتهى في طه، الى قوله تعالى: " وعجِلتُ إليك ربّي لترضى ". ففاضت نفسه» (٢٦٨)

وقال الفاسي في ترجمة أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطي شهاب الدين:

سمع على علي بن أبي بكر بن روزبة صحيح البخاري في أربع عشر مجلسا آخرها خامس ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة:

وحكى ابن معطي أنه كان قال لهم في يوم الفراغ اجتهدوا في إكمال هذا الكمال فإنه والله ما بقي غيركم يسمعه علي وتوفي في الليلة المتصلة بذلك اليوم» (٢٦٩)

---

(٢٦٧) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» (ص١٠٩ ط عطاءات العلم).

(٢٦٨) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ٢٧١).

(٢٦٩) «ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد» (١/ ٣٢٢).

وقال أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين الدَّلْجي المصري (ت ٨٣٨هـ) في ترجمة ابن مالك النحوي:

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي الجياني الملقب جمال الدين، صاحب التصانيف المبسوطة والمختصرة والنظم والنثر، شيخ النحاة في عصره والإمام في اللغة، كان كثير الأشغال والاشتغال، حتى إنه حفظ في اليوم الذي مات فيه خمسة شواهد» (٢٧٠)

وقال الذهبي في ترجمة بَقِيّ بن مَخْلَد:

«وَنَقَلَ عَبْدَ الرَّحْمنِ هَذَا عَنْ جَدِّه أَشْيَاءَ، اللهُ أَعْلَمُ بِصحَّتِهَا، ثُمَّ قَالَ: كَانَ جَدِّي قَدْ قَسَّمَ أَيَّامَهُ عَلَى أَعْمَالِ البِرِّ: فَكَانَ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ قَرَأَ حِزْبَهُ مِنَ القُرْآنِ فِي المُصْحَفِ، سُدْسَ القُرْآنِ، وَكَانَ أَيْضاً يَخْتِمُ القُرْآنَ فِي الصَّلاَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَيَخْرُجُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي الثُّلُثِ الأَخِيْرِ إِلَى مَسْجِده، فَيَخْتِمُ قُرْبَ انصِدَاعِ الفَجْرِ، وَكَانَ يُصَلِّي بَعْدَ حِزْبِهِ مِنَ المُصْحَفِ صَلاَةً طَوِيْلَةً جِدّاً، ثُمَّ يَنْقَلِبُ إِلَى دَارِه - وَقَدِ اجتَمَعَ فِي مَسْجِدِه الطَّلَبَةُ - فَيُجَدِّدُ الوُضُوْءَ، وَيَخْرُجُ إِلَيْهِم، فَإِذَا انقَضَتِ الدُّوَلُ، صَارَ إِلَى صَوْمَعَةِ المَسْجِدِ، فَيُصَلِّي إِلَى الظُّهْرِ، ثُمَّ يَكُوْنُ هُوَ المُبْتَدِئَ بِالأَذَانِ، ثُمَّ يَهْبِطُ ثُمَّ يُسمِعُ إِلَى العَصْرِ، وَيُصَلِّي وَيُسمِعُ، وَرُبَّمَا خَرَجَ فِي بَقِيَّةِ النَّهَارِ، فَيَقْعُدُ بَيْنَ القُبُوْرِ يَبْكِي وَيَعْتَبِرُ، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ أَتَى مَسْجِدَهُ، ثُمَّ يُصَلِّي، وَيَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ فَيُفْطِرُ، وَكَانَ يَسْرُدُ الصَّوْمَ إِلاَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَيَخْرُجُ إِلَى المَسْجِدِ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ جِيْرَانُهُ، فَيَتَكَلَّمُ مَعَهُم

(٢٧٠) «الفلاكة والمفلوكون» (ص٦٤).

فِي دِيْنِهِم وَدُنيَاهُم، ثُمَّ يُصَلِّي العِشَاءَ، وَيَدْخُلُ بَيْتَهُ، فيُحَدِّثُ أَهلَهُ، ثُمَّ يَنَامُ نَوْمَةً قَدْ أَخَذَتْهَا نَفْسُهُ، ثُمَّ يَقُومُ، هَذَا دَأْبُهُ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ.

وَكَانَ جَلداً، قَوِيّاً عَلَى المَشْيِ، قَدْ مَشَى مَعَ ضَعِيْفٍ فِي مَظْلَمَةٍ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ، وَمَشَى مَعَ آخَرَ إِلَى إِلْبِيْرَةَ، وَمَعَ امْرَأَةٍ ضَعِيْفَةٍ إِلَى جَيَّانَ» (٢٧١)

(٢٧١) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٣/ ٢٩٥).

(٢٧٢) «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» (ص٥٢٧).

واستمروا على تحصيل العلم حتى الممات

قال المعافى النَّهْرَواني:

وَحكى لي بعض بني الْفُرَات عَن رجلٍ مِنْهُم، أَو من غَيرهم، أَنه كَانَ بِحَضْرَة أَبِي جَعْفَر الطَّبَرِيّ رحمه الله قبل مَوته وَتُوُفِّي بعد سَاعَة أَو أقل مِنْهَا، فَذكر لَهُ هَذَا الدُّعَاء عَن جَعْفَر بْن مُحَمَّد عليهما السلام فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبها، فَقيل لَهُ أَفِي هَذِه الْحَال؟ فَقَالَ: يَنْبَغِي للْإِنْسَان أَن لَا يدع اقتباس الْعلم حَتَّى يَمُوت» (٢٧٢)

وقال أبو الْحسن عَليّ بن عِيسَى الْوَلْوَالجيّ:

دخلت على أبي الريحان وَهُوَ يجود بِنَفسِهِ وَقد حشرج نَفسه وضاق بِهِ صَدره فَقَالَ لي فِي تلْكَ الْحَال كَيفَ قلت لي يَوْمًا فِي حِسَاب الجدّات الْفَاسدَة فَقلت لَهُ إشفاقاً عَلَيْهِ أَفِي هَذِه الْحَالة قَالَ ياهذا أودّع الدُّنْيَا وَأَنا عَالم بِهَذِهِ الْمَسْأَلَة أَلا يكون خيرا من أَن أخلّيها وَأَنا جَاهِل بهَا فَأَعَدْت ذَلِك عَلَيْهِ وَحفظ وعلّمني مَا وعد وَخرجت من عِنْده وَأَنا فِي الطَّرِيق فَسمِعت الصُّرَاخ عَلَيْهِ» (٢٧٣)

---

(٢٧٣) «الوافي بالوفيات» (٨/ ٩٢).

(٢٧٤) «ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد» (١/ ٣٢٢).

وقال الفاسي:

«وحكى ابن معطي أنه كان قال لهم في يوم الفراغ اجتهدوا في اكمال هذا الكمال فإنه والله ما بقي غيركم يسمعه علي وتوفي في الليلة المتصلة بذلك اليوم» (٢٧٤)

ومن شدة جدهم واجتهادهم جمعوا بين كثير من العلوم جمعاً موسوعياً

قال أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر بن أبي الْحُسَيْن بن عبد الله الزوقري (ن٦٦٥هـ):

«أَنا ابْن عشْرين علما لَيْسَ أحد لي مناظرا فِي شَيْء مِنْهَا» (٢٧٥)

وقال ابن الخشَّاب النحوي الحنبلي (ت٥٦٧هـ):

«إِنِّي مُتْقِنٌ فِي ثَمَانِيَةِ عُلُومٍ، مَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ عَنْ عِلْمٍ مِنْهَا وَلَا أَجِدُ لَهَا أَهْلًا. وَذَكَرَ غَيْرُهُ - عَنِ ابنِ الأَخْضَرِ - قَالَ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ مَرِيْضٌ، وَعَلَى صَدْرِهِ كِتَابٌ يَنْظُرُ فِيْهِ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: ذَكَرَ ابنُ جِنِّي مَسْأَلَةً فِي النَّحْوِ، وَاجْتَهَدَ أَنْ يَسْتَشْهِدَ عَلَيْهَا بِبَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ فَلَمْ يَحْضُرْهُ، وَإِنِّي لأَعْرِفُ عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ سَبْعِيْنَ بَيْتًا مِنَ الشِّعْرِ، كُلُّ بَيْتٍ مِن قَصِيْدَةٍ تَصْلُحُ أَنْ يُسْتَشْهَدَ بِهِ عَلَيْهَا» (٢٧٦)

---

(٢٧٥) «السلوك في طبقات العلماء والملوك» (١/ ٤٧٥).

(٢٧٦) «ذيل طبقات الحنابلة - لابن رجب» (٢/ ٢٤٧ ت العثيمين).

وقال بهاء الدّين القفطي (ت٦٩٧هـ)
«أعرف عشْرين علما أنسيت بَعْضهَا لعدم المذاكرة» (٢٧٧)

وقال أبو البقاء السُّبْكي (ت٧٧٧هـ):
«أعرف عشرين علماً لم يسألني عنها بالقاهرة أحد، ومع سعة علمه لم يصنف شيئاً»

وقال ابن حبيب عن أبي البقاء السُّبْكي:
شيخ الإسلام، وبهاؤه، ومصباح أفق الحكم وضياؤه، وشمس الشريعة وبدرها، وحبر العلوم وبحرها" (٢٧٨)

وقال بدر الدَّين الزَّرْكَشِيّ عن أبي البقاء السُّبْكي:
قرأت «الكشّاف» بعدد شعر رأسي. وله بضع وثلاثون سنة" (٢٧٩)

وقال محمد بن أبي بكر بن جَمَاعة (ت٨١٩هـ):
«أَنا أَقْرِئ فِي خَمْسَة عشر علما لَا يعرف عُلَمَاء عصري أسماءها» (٢٨٠)

---

(٢٧٧) «طبقات الشافعية الكبرى للسبكي» (٨/ ٣٩٢).
(٢٧٨) «إنباء الغمر بأبناء العمر» (١/ ١٢٢).
(٢٧٩) «طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة» (٣/ ١٢٩).
(٢٨٠) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (١/ ٨٨).

وقال محمد بن أحمد بن عثمان بن نعيم (ت٨٤٢هـ):

«أعرف نحو عشرين علما ما سئلت عن مسئلة منها ومع ذلك فكان شديد الفاقة ربما مضت الأيام والليالي ولا يجد درهما بحيث يضطر إلى بيع بعض نفائس كتبه» (٢٨١)

وقال أحمد بن محمد البداوي بو نافع (ت١٢٦٠هـ):

«عندي أربعة وعشرون علما لم يسألني عنها أحد» (٢٨٢)

وقال أبو الطيب عبد المنعم بن ابراهيم الكندي (ت٤٣٥هـ):

«وحكى عن بعض شيوخ الإفريقيين أنه كان يقول:

دخلت عليه، فوجدته ينظر في اثني عشر علماً.

وكان له حظ من الحساب والهندسة في العلوم القديمة.

ويحكى أنه كان دبر جلب ماء البحرين من ساحل تونس، إلى القيروان، وسوقه خليجاً من هنالك بنظر هندسي، ظهر له.

فاخترم قبل نفاد رأيه فيه، وظهور ما دبره منه» (٢٨٣)

---

(٢٨١) السابق (٢/ ١١٣).

(٢٨٢) «إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع» (١/ ١٧٧).

(٢٨٣) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٨/ ٦٧).

المبحث الرابع:

الصبر على مشقة الطلب.

٤- الصبر على مشقة طلب العلم، والحرص عليه.

قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ (٢٨٤)

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ (٢٨٥)

وقال أبو الحسين أحمد بن فارس:

إذا كان يُؤذيكَ حرُّ المصيفِ ... ويُبس الخريف وبرد الشتا

وَيُلْهِيْكَ حُسْنُ زَمَانِ الرَّبِيْعِ ... فَوَعْدُكَ بِالوَصْلِ قُلْ لِي مَتَى؟ (٢٨٦)

وقال ابن الجوزي:

«تأملت عجبًا، وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه، ويكثر التعب في تحصيله. فإن العلم لما كان أشرف الأشياء، لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار، وهجر اللذات والراحة، حتى قال بعض الفقهاء: بقيت سنين أشتهي الهريسة لا أقدر؛ لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس» (٢٨٧)

---

(٢٨٤) [هود: ١١٥].

(٢٨٥) [مريم: ٦٥].

(٢٨٦) «حلية الفقهاء» (ص٩).

(٢٨٧) «صيد الخاطر» (ص٢٨١).

وقال وراق البخاري:

«وبلغني أنه شرب البلاذر، فقلت له مرة في خلوة: هل من دواء للحفظ؟

فقال: لا أعلم، ثم أقبل علي فقال: لا أعلم شيئا أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر» (٢٨٨)

وقال أبو بكر الإشبيلي في ترجمة ابن الوزان النحوي:

«يعد إمام الناس في النحو، وكبيرهم في اللغة، وعظيمهم في العربية والعروض، مع قلة ادعاء، وصدق لهجة، وخفض جَناح، وصحة وُدٍّ، ونقاء صدر.

وانتهى من علم النحو في حداثته إلى أن كان أبو محمد عبد الله بن محمد الأموي المكفوف إذا وردت عليه مسائل من النحو سأله الإجابة عنها، وأقر له بالتقدم في ذلك، وانتهى من اللغة والعربية إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله، وأما في زمانه فما يشك فيه، يحفظ كتاب الخليل بن أحمد في العين، وكتاب أبي عبيد في المصنف، وكتاب ابن السكيت، وغيرها من كتب اللغة، وحفظ قبل ذلك كتاب سيبويه، ثم كتب الفراء، وكان يميل إلى قول أهل البصرة، مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضل المازني في النحو، وابن السكيت في اللغة.

قال أبو علي بن أبي سعيد: لو أن قائلًا قال: إنه أعلم من المبرد وثعلب؛ لصدقه من وقف على علمه ونفاذه» (٢٨٩)

---

(٢٨٨) «هدي الساري» (ص٤٨٧ ط السلفية).

(٢٨٩) «طبقات النحويين واللغويين» (ص٢٤٧).

وقال الحموى في ترجمة العلاّمة علي بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري أَبي الْحسن الانصارى السِّجِلْماسِي الجزائرى:

«وَحكى بعض تلامذته انه قَرَأَ السِّتَّة على مشايخه دراية وَقَرَأَ البخارى سبع عشرَة مرّة بالدرس قِرَاءَة بحث وتدقيق وَمر على الْكَشَّاف من أَوله الى آخِره ثَلَاثِينَ مرّة مِنْهَا قِرَاءَة وَمِنْهَا مطالعة» (٢٩٠)

وقال الذهبي في ترجمة ابْن العَجَمِيّ عُمَر بن عَبْدِ الرَّحِيْمِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الشَّافِعِيّ:

«أَلقَى "المُهَذَّبَ" دُروساً خَمْساً وَعِشْرِيْنَ مرَّةً» (٢٩١)

وَقَالَ يُوْسُفُ بنُ أَحْمَدَ الشِّيْرَازِيُّ فِي (أَرْبَعِيْنَ البُلْدَانِ) لَهُ:

لَمَّا رَحَلْتُ إِلَى شَيْخنَا رحلَةَ الدُّنْيَا وَمُسْنِد العصرِ أَبِي الوَقْت، قَدَّرَ اللهُ لِي الوُصُوْلَ إِلَيْهِ فِي آخِرِ بِلَادِ كِرْمَانَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَقبلْتُهُ، وَجلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَقَالَ لِي: مَا أَقدَمَكَ هَذِهِ البِلَادَ.

قُلْتُ: كَانَ قَصدِي إِلَيْكَ، وَمعوَّلِي بَعْدَ اللهِ عَلَيْكَ، وَقَدْ كَتَبتُ مَا وَقَعَ إِلَيَّ مِنْ حَدِيْثِكَ بِقَلَمِي، وَسَعَيْتُ إِلَيْكَ بِقَدَمِي، لأُدْرِكَ بَرَكَةَ أَنْفَاسِكَ، وَأَحظَى بِعُلُوِّ إِسْنَادِكَ.

فَقَالَ: وَفَّقَكَ اللهُ وَإِيَّانَا لِمَرضَاتِهِ، وَجَعَلَ سَعْيَنَا لَهُ، وَقَصْدَنَا إِلَيْهِ، لَوْ كُنْتَ عَرَفْتَنِي حقَّ مَعْرِفَتِي لَمَّا سلَّمْتَ عَلَيَّ، وَلَا جلَسْتَ بَيْنَ يَدَيَّ.

---

(٢٩٠) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٣/ ١٧٣).

(٢٩١) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٦/ ٣٤٥).

ثُمَّ بَكَى بُكَاءً طَوِيْلاً، وَأَبْكَى مَنْ حضرَهُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اسْتُرْنَا بِسَتْرِكَ الجَمِيْلِ، وَاجعَلْ تَحْتَ السَّتْرِ مَا تَرضَى بِهِ عَنَّا، يَا وَلَدِي تَعْلَمُ أَنِّي رَحَلْتُ أَيْضاً لِسَمَاعِ الصَّحِيْحِ مَاشِياً مَعَ وَالِدِي مِنْ هَرَاةَ إِلَى الدَّاوُوْدِيِّ بِبوشَنْجَ، وَلِي دُوْنَ عشرِ سِنِيْنَ، فَكَانَ وَالِدِي يضعُ عَلَى يَدَيَّ حَجَرَيْنِ وَيَقُوْلُ: احْمِلْهُمَا.

فَكُنْتُ مِنْ خوفِهِ أَحْفَظُهُمَا بِيَدَيَّ، وَأَمْشِي وهُوَ يَتَأَمَّلُنِي، فَإِذَا رَآنِي قَدْ عَيِيْتُ، أَمرنِي أَنْ أُلْقِيَ حجراً وَاحِداً، فَأُلْقِي، وَيَخِفُّ عَنِّي، فَأَمْشِي إِلَى أَنْ يَتبيَّنَ لَهُ تَعبِي، فَيَقُوْلُ لِي: هَلْ عَيِيْتَ؟

فَأَخَافُهُ وَأَقُوْلُ: لَا.

فَيَقُوْلُ: لِمَ تُقَصِّرُ فِي المَشْيِ؟

فَأُسْرِعُ بَيْنَ يَدَيْهِ سَاعَةً، ثُمَّ أَعجَزُ، فَيَأْخذُ الآخرَ فَيُلْقِيهِ، فَأَمْشِي حَتَّى أَعْطَبَ، فَحِيْنَئِذ كَانَ يَأْخُذُنِي وَيَحْمِلُنِي.

وَكُنَّا نَلْتَقِي جَمَاعَةَ الفَلَّاحِيْنَ، وَغَيْرَهُم، فَيَقُوْلُوْنَ: يَا شَيْخ عِيْسَى، ادْفَعْ إِلَيْنَا هَذَا الطِّفْلَ نُرْكِبْهُ وَإِيَّاكَ إِلَى بُوشَنْجَ.

فَيَقُوْلُ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَركَبَ فِي طَلَبِ أَحَادِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَلْ نَمْشِي، وَإِذَا عجزَ أَركبتُهُ عَلَى رَأْسِي إِجلَالاً لِحَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ، وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ.

فَكَانَ ثَمَرَةَ ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ نِيَّتِهِ أَنِّي انتفعتُ بِسَمَاعِ هَذَا الكِتَابِ وَغَيْرِهِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَقرَانِي أَحَدٌ سِوَايَ، حَتَّى صَارَتِ الوُفُوْدُ تَرْحَلُ إِلَيَّ مِنَ الأَمصَارِ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى صَاحِبِنَا عَبْدِ البَاقِي بنِ عَبْدِ الجَبَّارِ الهَرَوِيِّ أَنْ يُقَدِّمَ لِي حَلْوَاءَ.

فَقُلْتُ: يَا سيِّدِي، قِرَاءَتِي لِـ (جزءِ أَبِي الجَهْمِ) أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الحلوَاءِ.

فَتبسَّمَ، وَقَالَ: إِذَا دَخَلَ الطَّعَامُ، خَرَجَ الكَلَامُ.

وَقَدَّمَ لَنَا صَحْناً فِيْهِ حَلوَاء الفَانِيْد، فَأَكَلْنَا، وَأَخْرَجتُ الجُزْءَ، وَسَأَلتُهُ إِحضَارَ الأَصْلِ، فَأَحضرَهُ، وَقَالَ: لَا تَخفْ وَلَا تَحرِص، فَإِنِّي قَدْ قَبَرْتُ مِمَّنْ سَمِعَ عَلَيَّ خَلْقاً كَثِيْراً، فَسَلِ اللهَ السَّلَامَةَ.

فَقَرَأْت الجُزْءَ، وَسُرِرْتُ بِهِ، وَيَسَّرَ اللهُ سَمَاعَ (الصَّحِيْح) وَغَيْرِهِ مِرَاراً، وَلَمْ أَزَلْ فِي صُحْبَتِهِ وَخِدْمَتِهِ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ بِبَغْدَادَ، فِي لَيْلَةِ الثُّلَاثَاءِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ - قُلْتُ: وَبَيَّضَ لِليَوْمِ، وهو سادس الشَّهْرِ -.

قَالَ: وَدَفَنَّاهُ بِالشُّونِيزِيَّة.

قَالَ لِي: تَدْفُنُنِي تَحْتَ أَقدَامِ مَشَايِخنَا بِالشُّونِيزِيَّة.

وَلَمَّا احتُضِرَ سَنَدْتُهُ إِلَى صَدْرِي، وَكَانَ مُسْتَهْتَراً بِالذِّكْرِ، (أي: مولع به) فَدَخَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بنُ القَاسِمِ الصُّوْفِيُّ، وَأَكَبَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَاّ اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ)، فَرَفَعَ طَرْفَهُ إِلَيْهِ، وَتَلَا: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ (٢٩٢)

فَدهش إِلَيْهِ هُوَ وَمَنْ حضَرَ مِنَ الأَصْحَابِ، وَلَمْ يَزَلْ يَقرأُ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، وَقَالَ: الله الله الله.

وَتُوُفِّيَ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى السَّجَّادَةِ» (٢٩٣)

---

(٢٩٢) [يس: ٢٦-٢٧].

(٢٩٣) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٣٠٩ ط الرسالة).

وقال ابن فرحون في ترجمة أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم الدينوري الأصل البغدادي المنشأ:

كان مالكي المذهب من أهل العلم والحفظ لكتب أبيه والإتقان. وسمعت منه كتب أبيه من حفظه وكان يحفظها كما يحفظ القرآن ويرد فيها من حفظه النقطة والشكلة وما معه نسخة. كان أبوه أبو محمد حفظه إياها في اللوح وعدتها أحد وعشرون مصنفاً.

كتاب "المشكل" وكتاب "معاني القرآن" وكتاب "غريب الحديث" وكتاب "عيون الأخبار" وكتاب "مختلف الحديث" وكتاب "الفقه" وكتاب "المعارف" وكتاب "أعلام النبوة" وكتاب "العرب والعجم" وكتاب "الأنواء" وكتاب "الميسر" وكتاب "طبقات الشعراء" وكتاب "معاني الشعر" وكتاب "إصلاح الغلط" وكتاب "أدب الكاتب" وكتاب "الأبنية" وكتاب "النحو" وكتاب "المسائل" وكتاب "القراءات"» (٢٩٤)

وَقَالَ عَبْدُ الْوَهَّابِ الْوَرَّاقُ:

مَا رَأَيْت مِثْلَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ. قَالُوا لَهُ: وَأَيُّ شَيْءٍ بَانَ لَك مِنْ فَضْلِهِ وَعِلْمِهِ عَلَى سَائِرِ مَنْ رَأَيْت؟ قَالَ:

رَجُلٌ سُئِلَ عَنْ سِتِّينَ أَلْفَ مَسْأَلَةٍ فَأَجَابَ فِيهَا بِأَنْ قَالَ حَدَّثَنَا وَأَخْبَرَنَا وَرَوَيْنَا.

قُلْت: وَهَذِهِ كَالْأُولَى لَا يُعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الدُّنْيَا فَعَلَهَا.

وَقَدْ سُئِلَ كَثِيرٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ عَنْ مِعْشَارِ عُشْرِ ذَلِكَ فَأَعْجَمَ عَنْ الْجَوَابِ عَنْ أَكْثَرِهَا.

وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الْإِمَامُ الصَّرْصَرِيُّ فِي لَامِيَّتِهِ بِقَوْلِهِ:

---

(٢٩٤) «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» (١/ ١٦١).

حَوَى أَلْفَ أَلْفٍ مِنْ أَحَادِيثَ أُسْنِدَتْ ... وَأَثْبَتَهَا حِفْظًا بِقَلْبٍ مُحَصِّلِ
أَجَابَ عَلَى سِتِّينَ أَلْفَ قَضِيَّةٍ ... بِأَخْبَرَنَا لَا مِنْ صَحَائِفَ نُقَّلِ
وَكَانَ إِمَامًا فِي الْحَدِيثِ وَحُجَّةً ... لِنَقْدِ صَحِيحٍ ثَابِتٍ وَمُعَلَّلِ
وَكَانَ إِمَامًا فِي كِتَابٍ وَسُنَّةٍ ... وَعِلْمٍ وَزُهْدٍ كَامِلٍ وَتَوَكُّلِ
فَمَنْهَجُهُ فِي الْحَقِّ أَقْوَمُ مَنْهَجٍ ... وَمَوْرِدُهُ فِي الشَّرْعِ أَعْذَبُ مَنْهَلِ
وَهُدِّدَ فِي الْقُرْآنِ بِالسَّوْطِ وَالظُّبَا ... فَلَمْ يَخْشَ مِنْ تَهْدِيدِ سَوْطٍ وَمِنْصَلِ

إلى أن قال:

فَقَدْ كَانَ كَالصِّدِّيقِ فِي يَوْمِ رِدَّةٍ ... وَعُثْمَانَ يَوْمَ الدَّارِ فِي الصَّبْرِ إِذْ بُلِي

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ - رَحِمَ اللَّهُ رُوحَهُ -:

إِنَّ سَيِّدِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ أَمَرَنِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا مِنْ كِتَابٍ.

وَقَالَ إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَعَزَّ هَذَا الدِّينَ بِرَجُلَيْنِ لَيْسَ لَهُمَا ثَالِثٌ، أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَوْمَ الرِّدَّةِ، وَأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَوْمَ الْمِحْنَةِ.

وَقَالَ: مَا قَامَ أَحَدٌ بِأَمْرِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا قَامَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ قِيلَ يَا أَبَا الْحَسَنِ وَلَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ؟

قَالَ وَلَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ كَانَ لَهُ أَعْوَانٌ وَأَصْحَابٌ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْوَانٌ وَلَا أَصْحَابٌ» (٢٩٥)

(٢٩٥) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٢١/ ٤٢).

وقال أَبو العَلَاءِ الهَمْدَانِيّ:

«وَكَانَ مُهيناً لِلمَال، بَاعَ جَمِيْع مَا وَرثه، وَكَانَ مِنْ أَبْنَاءِ التُّجَّار، فَأَنفقه فِي طَلَبِ العِلْم، حَتَّى سَافر إِلَى بَغْدَادَ وَإِلَى أَصْبَهَانَ مَرَّات مَاشياً يَحمل كتبه عَلَى ظَهْرِه، سَمِعْتُهُ يَقُوْلُ: كُنْتُ أَبِيْت بِبَغْدَادَ فِي المَسَاجِد، وَآكلُ خُبْز الدُّخْنِ.

قَالَ: وَسَمِعْتُ أَبَا الفَضْل بن بُنَيْمَانَ الأَدِيْب يَقُوْلُ:

رَأَيْتُ أَبَا العَلَاءِ العَطَّار فِي مَسْجِد مِنْ مَسَاجِد بَغْدَاد يكتب وَهُوَ قَائِمٌ؛ لأَنَّ السِّرَاجَ كَانَ عَالِياً» (٢٩٦)

وكان يحيى بن يحيى بن كثير:

يوماً عند مالك فقدم فيل وخرج النّاس ينظرون إليه ولم يخرج، فقال له مالك: لم لا تخرج تنظره فإنه ليس ببلدك فيل؟

فقال: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم هديك وعلمك، فقال له: أنت عاقل الأندلس، رحمه الله تعالى» (٢٩٧)

وذكر إبراهيم بن محمد البيهقي (ت ٣٢٠هـ) قال:

ولأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه:

---

(٢٩٦) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٥/ ٢٨٩).

(٢٩٧) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (٣/ ١٦٠).

اصبر على مضض الإدلاج بالسحر وفي الرواح على الحاجات والبكر
لا تضجرنّ ولا يعجـــزك مطلبها فالنجح يتلف بين العجز والضجر
إني وجدت، وفي الأيـام تـجربةٌ للصبر عاقبةً محمودة الأثـــــر
وقلّ من جدّ في أمرٍ يـــــحاوله فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر (٢٩٨)

وقال ابن عبد ربه:

«ومما جبل عليه الحرّ الكريم ألّا يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له، أملا فيما هو أسنى منه درجة وأرفع منزلة.... ومن الشاهد لهذا المعنى، أنّ موسى صلوات الله عليه لما كلمه الله تكليما، سأله النظر إليه. إذ كان ذلك لو وصل إليه أشرف من المنزلة التي نالها، فانبسط أمله إلى ما لا سبيل إليه. ليستدل بذلك أنّ الحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة إذا رأى ما هو أشرف منها.

ومن قولنا في هذا المعنى:

والحرّ لا يكتفي من نيل مكرمة حتى يروم التي من دونها العطب
يسعى به أمل من دونه أجـــل إن كفّه رهب يستدعه رغـــب
لذاك ما سال مـوسى ربّه أرني أنظر إليك وفي تسآله عجـــــب
يبغي التزيّد فيما نال من كـرم وهو النجيّ لديه الوحي والكتـب

وقال تأبّط شرّا في ابن عم له يصفه بركوب الأهوال وبذل الأموال:

(٢٩٨) «المحاسن والمساوئ» (ص٢٠٤).

وإني لمهد من ثنائي فقاصد ... به لابن عمّ الصّدق شمس بن مالك
أهزّ به في ندوة الحيّ عطفه ... كما هزّ عطفي بالهجان الأوارك
قليل التشكّي للمهمّ يصيبه ... كثير النّوى شتّى الهوى والمسالك
يظل بموماة ويمسى بغيرها ... وحيدا ويعروري ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي ... بمنخرق من شدّه المتدارك
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل ... له كاليء من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه ... إلى سلّة من جفن أخلق بانك
إذا هزّه في عظم قرن تهلّلت ... نواجذ أفواه المنايا الضّواحك

وقال غيره من الشعراء:

إذا المرء لم يحتل وقد جدّ جدّه ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا ... به الأمر إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حوّل ... إذا سدّ منه منخر جاش منخر (٢٩٩)

وقال أحمد بن حنبل:

كتبت في كتاب الحيض تسع سنين حتى فهمته» (٣٠٠)

(٢٩٩) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٣٠٥ ت العثيمين).
(٣٠٠) «العقد الفريد» (٢/ ٣٣٦).

وقَالَ أَحْمَد بْن سلمان القطيعي:

أضقت إضاقة فمضيت إِلَى إِبْرَاهِيم الحربي لأبثه ما أَنَا فِيهِ، فَقَالَ لي: لا يضيق صدرك، فإن اللَّه من وراء المعونة، وإني أضقت مرة حتى انتهى أمري فِي الإضاقة إِلَى أن عدم عيالي قوتهم، فقالت لي الزوجة: هب أني وإياك نصبر، فكيف نصنع بِهَاتين الصبيتين؟ فهات شيئا من كتبك حتى نبيعه أو نرهنه، فضننت بذاك، وقلت: اقترضي لهما شيئا، وأنظريني بقية اليوم وَالليلة، وكَانَ لي بيت فِي دهليز داري فِيهِ كتبي، فكنت أجلس فِيهِ للنسخ وَالنظر، فلما كَانَ فِي تلك الليلة إذا داق يدق الباب، فقلت: من هذا، فَقَالَ: رَجُل من الجيران، فقلت: ادخل، فَقَالَ: اطفئ السراج حتى أدخل فكبت عَلَى السراج شيئا، وقلت: ادخل فدخل وترك إِلَى جانبي شيئا، وانصرف، فكشفت عَنِ السراج ونظرت فإذا منديل له قيمة، وفِيهِ أنواع من الطعام، وكاغد فِيهِ خمس مائة درهم، فدعوت الزوجة، وقلت: أنبهي الصبيان حتى يأكلوا، ولما كَانَ من الغد قضينا دينا كَانَ عَلَيْنَا من تلك الدراهم، وكَانَ وقت مجيء الحاج من خراسان، فجلست عَلى بابي من غد تلك الليلة، وإذا جمال يقود جملين عليهما حملان ورقا وَهُوَ يسأل عَن منزل إِبْرَاهِيم الحربي، فانتهى إلي، فقلت أَنَا إِبْرَاهِيم الحربي، فحط الحملين، وَقَالَ: هذان الحملان أنفذهما لَكَ رَجُل من أهل خراسان، فقلت: من هو؟ فَقَالَ: قد استحلفني ألا أقول من هو» (٣٠١)

(٣٠١) «تاريخ بغداد ت بشار» (٦/ ٥٢٢).

وقال ابْن أَبِي الْخَنَاجِرِ:

وَقِيلَ لَهُ: أَعِدْ عَلَيْنَا مِنْ أَوَّلِ الْمَجْلِسِ أَحَادِيثَ فَقَالَ: سَمِعْتُ يَزِيدَ بْنَ هَارُونَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: «مَنْ غَابَ خَابَ وَأَكَلَ نَصِيبَهُ الْأَصْحَابُ» وَقَدْ كَانَ خَلْقٌ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ بِالْبَصْرَةِ فِي زَمَنِ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ يَأْخُذُونَ مَوَاضِعَهُمْ فِي مَجْلِسِهِ فِي لَيْلَةِ الْإِمْلَاءِ وَيَبِيتُونَ هُنَاكَ حِرْصًا عَلَى السَّمَاعِ وَتَخَوُّفًا مِنَ الْفَوَاتِ" (٣٠٢)

وقال دكين الراجز:

أتيت عمر بن عبد العزيز بعد ما استخلف أستنجز منه وعدا كان وعدنيه وهو والي المدينة، فقال لي: يا دكين، إن لي نفسا توّاقة، لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلما نلتها تاقت إلى الخلافة، فلما نلتها تاقت إلى الجنة. وما رزأت من أموال المسلمين شيئا، وما عندي إلا ألفا درهم، فاختر أيّهما شئت، وهو يضحك. فقلت: يا أمير المؤمنين، قليلك خير من كثير غيرك، ويقال قليلك خير من كبير غيرك، فاختر لي أنت، فدفع إليّ ألفا وقال: خذها بارك الله لك فيها، فابتعت بها إبلا وسقتها إلى البادية، فرمى الله في أذنابها بالبركة بدعوته حتى رزقني الله ما ترون"

والعرب تقول:

إنما النصر صبر ساعة، وليس بين الإخفاق والنجاح إلا لحظة، والعبرة بكمال النهايات، وليس بنقص البدايات، والأعمال بالخواتيم. (٣٠٣)

---

(٣٠٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ١٣٧).

(٣٠٣) «عيون الأخبار» (١/ ٣٣٤).

وَقَالَ ابْن سينا:

سَافَرت فِي طلب الشَّيْخ أبي نصر وَمَا وجدته وليتني وجدته فَكَانَت حصلت إِفَادَة وَقَالَ قَرَأت كتاب مَا بعد الطبيعة فَمَا كنت أفهم مَا فِيهِ والتبس عَليّ غَرَض وَاضعه حَتَّى قرأته أَرْبَعِينَ مرّة وَصَارَ مَحْفُوظًا وأيست من فهمه وَقلت لَا سَبِيل إِلَى فهمه فَبينا أَنا يَوْمًا بعد صَلَاة الْعَصْر فِي الوراقين وَإِذا بدلال يُنَادي على مُجَلد فعرضه عَليّ فرددته رد متبرم بِهِ مُعْتَقد أَن هَذَا الْعلم لَا فَائِدَة فِيهِ فَقَالَ اشتره فَإِنِّي أبيعك أَيَّاهُ بِثَلَاثَة دَرَاهِم فاشتريته فَإِذا هُوَ من تصانيف أبي نصر فِي أغراض ذَلِك الْكتاب فَرَجَعت إِلَى بَيْتِي وأسرعت قِرَاءَته فانفتح عَليّ فِي الْوَقْت أغراض ذَلِك الْكتاب وفهمته وفرحت فَرحا شَدِيدا وتصدقت ثَانِي يَوْم على الْفُقَرَاء بِشَيْء كثير» (٣٠٤)

وَقَالَ بعض قدماء أَصْحَاب شَيخنَا -ابن تيمية-

وَقد ذكر نبذة من سيرته أما مبدأ أمره ونشأته فقد نَشأ من حِين نَشأ فِي حجور الْعلمَاء راشفا كؤوس الْفَهم راتعا فِي رياض التفقه ودوحات الْكتب الجامعة لكل فن من الْفُنُون لَا يلوي إِلَى غير المطالعة والاشتغال وَالْأَخْذ بمعالي الْأُمُور خُصُوصا علم الْكتاب الْعَزِيز وَالسّنة النَّبَوِيَّة ولوازمها وَلم يزل على ذَلِك خلفا صَالحا سلفيا متألها عَن الدُّنْيَا صينا تقيا برا بِأُمِّهِ ورعا عفيفا عابدا ناسكا صواما قواما ذَاكِرًا لله تَعَالَى فِي كل أَمر وعَلى كل حَال رجاعا إِلَى الله تَعَالَى فِي سَائِر الْأَحْوَال والقضايا وقافا عِنْد حُدُود الله تَعَالَى وأوامره ونواهيه آمرا بِالْمَعْرُوفِ ناهيا عَن الْمُنكر بِالْمَعْرُوفِ لَا تكَاد

(٣٠٤) «الوافي بالوفيات» (١/ ١٠٣).

نَفسه تشبع من الْعلم فَلَا تروى من المطالعة وَلَا تمل من الأشتغال وَلَا تكل من الْبَحْث وَقل أَن يدْخل فِي علم من الْعُلُوم من بَاب من أبوابه إِلَّا وَيفتح لَهُ من ذَلِك الْبَاب أَبْوَاب ويستدرك مستدركات فِي ذَلِك الْعلم على حذاق اهله مَقْصُوده الْكتاب وَالسّنة وَلَقَد سمعته فِي مبادىء أمره يَقُول إِنَّه ليقف خاطري فِي الْمَسْأَلَة وَالشَّيْء أَو الْحَالة الَّتِي تشكل على فأستغفر الله تَعَالَى ألف مرّة أوأكثر أَو أقل حَتَّى ينشرح الصَّدْر ويحل إِشْكَال مَا أشكل.

قَالَ وأكون اذ ذَاك فِي السُّوق أَو الْمَسْجِد أَو الدَّرْب أَو الْمدرسَة لَا يَمْنعنِي ذَلِك من الذّكر وَالِاسْتِغْفَار إِلَى أَن أنال مطلوبي» (٣٠٥)

وقال ابن المقرى التلمساني في ترجمة أبي المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب:

"كان أعجوبة دهره في الرواية للأشعار والأخبار، قال ابن سعيد: أخبرني من أثق به أنه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء إشبيلية فجرى ذكر حفظه، وكان ذلك في أول الليل، فقال لهم: إن شئتم تختبروني أجبتكم، فقالوا: بسم الله، إنّا نريد أن نتحدث عن تحقيق، فقال: اختاروا أي قافية شئتم لا أخرج عنها، حتى تعجبوا، فاختاروا القاف، فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر، وهو ينشد وزن:

أرق على أرقٍ ومثلي يأرق ...

وسماره قد نام بعض وضل بعض، وهو ما فارق قافية القاف.

(٣٠٥) «العقود الدرية في مناقب ابن تيمية» (ص٢١ ت الفقي).

وقال أبو عمران ابن سعيد: دخلت عليه يوماً بدار الأشراف بإشبيلية، وحوله أدباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرمة، فمد الهيثم يده إلى الديوان المذكور، فمنعه منه أحد الأدباء، فقال: يا أبا عمران، أواجب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتاً، وأنا أحفظه فأكذبته الجماعة، فقال: اسمعوني وأمسكوه، فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه، فأقسمنا عليه أن يكف، وشهدنا له بالحفظ.

وكان آية في سرعة البديهة، مشهوراً بذلك، قال أبو الحسن ابن سعيد: عهدي به في إشبيلية يملي على أحد الطلبة شعراً، وعلى ثانٍ موشحه، وعلى ثالثٍ زجلاً، كل ذلك ارتجالاً .... ومن شعره وقد نزل بداره عبيد السلطان، وكتب به إلى صاحب الأنزال:

كم من يدٍ لك لا أقـــــوم بشكرها وبها أشير إليك إن خرست فمي
وقد استشرتك في الحديث فهل ترى أن يدخل الغربان وكر الهيــثم

وله:

يجفى الفقير ويغشى الناس قاطبةً باب الغنيّ، كذا حكم المقادير
وإنّما الناس أمثال الفــراش فهم بحيث تبدو مصـابيح الدنـانير

وله:

عندي لفقدك أوجالٌ أبيـــــت بها كأنّني واضعٌ كــفّي على قبس
ولا مـــــلامة إن لم أهـــد نيّره حتى تمدّ إليها كــفّ مقتــبس
قد كنت أودع سرّ الشوق في طرس لكنّني خفت أن يعدو على الطّرس (٣٠٦)

(٣٠٦) «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب» (٣/ ٣٧٧).

وذكر ياقوت:

أن أبا حامد أحمد بن محمد بن سعيد النيسابوري الرجل الصالح بسمرقند يقول: كنّا مع أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في بعض الطريق من نيسابور وكان معنا أبو حاتم البستي، وكان يسأله ويؤذيه، فقال له محمد بن إسحاق بن خزيمة: يا بارد تنحّ عنّي لا تؤذني، أو كلمة نحوها، فكتب أبو حاتم مقالته، فقيل له: تكتب هذا؟ فقال: نعم أكتب كلّ شيء يقوله» (٣٠٧)

وقال ابن كثير:

«لَمَّا كَانَ يَوْمُ الثُّلَاثَاءِ الْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ دُعِيتُ إِلَى بُسْتَانِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ الشَّرِيشِيِّ شَيْخِ الشَّافِعِيَّةِ، وَحَضَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَعْيَانِ مِنْهُمُ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ بْنُ الْمَوْصِلِيِّ الشَّافِعِيُّ، وَالشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ صَلَاحُ الدِّينِ الصَّفَدِيُّ وَكِيلُ بَيْتِ الْمَالِ، وَالشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ الْمَوْصِلِيُّ الشَّافِعِيُّ، وَالشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ مَجْدُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الشِّيرَازِيُّ مِنْ ذُرِّيَّةِ الشَّيْخِ أَبِي إِسْحَاقَ الْفَيْرُوزَابَادِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَوِيِّينَ، وَالْخَطِيبُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ صَدْرُ الدِّينِ بْنُ الْعِزِّ الْحَنَفِيُّ أَحَدُ الْبُلَغَاءِ الْفُضَلَاءِ، وَالشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ نُورُ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ الصَّارِمِ أَحَدُ الْقُرَّاءِ الْمُحَدِّثِينَ الْبُلَغَاءِ، وَأَحْضَرُوا نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ مُجَلَّدًا مِنْ كِتَابِ " الْمُنْتَهَى " فِي اللُّغَةِ لِلتَّمِيمِيِّ الْبَرْمَكِيِّ، وَقْفَ النَّاصِرِيَّةِ، وَحَضَرَ وَلَدُ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ الشَّرِيشِيِّ، وَهُوَ الْعَلَّامَةُ بَدْرُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ، وَاجْتَمَعْنَا كُلُّنَا عَلَيْهِ، وَأَخَذَ كُلٌّ مِنَّا مُجَلَّدًا بِيَدِهِ مِنْ تِلْكَ الْمُجَلَّدَاتِ، ثُمَّ أَخَذْنَا نَسْأَلُهُ عَنْ بُيُوتِ الشِّعْرِ الْمُسْتَشْهَدِ عَلَيْهَا بِهَا، فَيَنْشُرُ كُلًّا مِنْهَا،

(٣٠٧) «معجم البلدان» (١/ ٤١٩).

وَيَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ بِكَلَامٍ مُبِينٍ مُفِيدٍ، فَجَزَمَ الْحَاضِرُونَ وَالسَّامِعُونَ أَنَّهُ يَحْفَظُ جَمِيعَ شَوَاهِدِ اللُّغَةِ، وَلَا يَشِذُّ عَنْهُ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ الشَّاذُّ، وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَائِبِ، وَأَبْلَغِ الْإِغْرَابِ» (٣٠٨)

وقال ابن كثير:

فِي ترجمة أَبِي بَكْرٍ الْأَثْرَم أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْنِ هَانِئٍ أَبِي بَكْرٍ الطَّائِيّ الْأَثْرَم، تِلْمِيذُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، سَمِعَ عَفَّانَ وَأَبَا الْوَلِيدِ وَالْقَعْنَبِيَّ وَأَبَا نُعَيْمٍ وَخَلْقًا كَثِيرًا وَكَانَ حَاذِقًا صَادِقًا قَوِيَّ الذَّاكِرَةِ، كَانَ ابْنُ مَعِينٍ يَقُولُ عَنْهُ: كَانَ أَحَدُ أَبَوَيْهِ جِنِّيًّا. لِسُرْعَةِ فَهْمِهِ وَحِفْظِهِ وَحِذْقِهِ، وَلَهُ كُتُبٌ مُصَنَّفَةٌ فِي الْعِلَلِ وَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَكَانَ مِنْ بُحُورِ الْعِلْمِ» (٣٠٩)

وقال عِكْرِمَة:

«طَلَبْتُ الْعِلْمَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكُنْت أُفْتِي بِالبَابِ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ فِي الدَّارِ» (٣١٠)

---

(٣٠٨) «البداية والنهاية ت التركي» (١٨/ ٦٦١).

(٣٠٩) السابق (١٤/ ٧٥١).

(٣١٠) «تاريخ دمشق» (٤١/ ٨٢).

وقَالَ عَلِيُّ بنُ الحَسَنِ بنِ شَقِيْقٍ:
قُمْتُ لأَخْرُجَ مَعَ ابْنِ المُبَارَكِ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَذَاكَرَنِي عِنْدَ البَابِ بِحَدِيْثٍ - أَوْ ذَاكَرْتُهُ - فَمَا زِلْنَا نَتَذَاكَرُ حَتَّى جَاءَ المُؤَذِّنُ لِلصُّبْحِ» (٣١١)

وقال النجدي في ترجمة عبد الوهّاب بن محمّد بن عبد الله بن فيروز التّميميّ الأحسائيّ:

وأكبّ على تحصيل العلم وإدمان المطالعة والمراجعة والمذاكرة والمباحثة ليلاً ونهاراً، لم تنصرف همّته إلى غيره أصلا،

حتّى إنّه لمّا تزوّج بأمر والده وإلزامه أخذ ليلة الدّخول معه المحفظة فلمّا انصرف عنه النّاس نزّل السّراج وقعد يطالع الدّروس الّتي يريد أن يقرأها في غد، ويقدّر في نفسه أنّه بعد إتمام المطالعة يباشر أهله فاستغرق في المطالعة إلى أن أذّن الصّبح، فتوضّأ وخرج للصّلاة، وحضر دروس والده من أوّلها، ولم يعلم والده بذلك لكونه لا يبصر، ولمّا فرغ من الدّروس أتى إليه ولده وسلّم عليه فبارك له وبارك له الحاضرون،

وفي الليلة الثّانية فعل كفعله بالأمس ولم يقرب أهله من غير قصد للتّرك، لكن لاشتغاله بالمطالعة فيقول في نفسه:

أطالع الدّرس ثمّ ألتفت إلى الأهل، فيستغرق إلى أن يصبح، فأخبرت المرأة وليّها بذلك، فذهب وأخبر والده بالقصّة، فدعاه والده وعاتبه وأخذ منه المحفظة، وأكّد عليه بالإقبال عليها،

(٣١١) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٨/ ٤٠٤).

وكان رحمه الله كثير التّحرير، بديع التّقرير، سديد الكتابة، قلّ أن يقرأ كتابا أو يطالعه إلّا ويكتب عليه أبحاثا عجيبة واستدراكات غريبة، وفوائد لطيفة، فمنها القليل ومنها الكثير» (٣١٢)

وقال ابن حجر في ترجمة أحمد بن محمد بن علي، نجم الدين بن الرفعة، المصري:

«واشتهر بالفقه إِلَى أَن صَار يضْرب بِهِ الْمثل وَإِذا أطلق الْفَقِيه انْصَرف إِلَيْهِ من غير مشارك مَعَ مشاركته فِي الْعَرَبِيَّة وَالْأُصُول.... وَكَانَ قد ندب لمناظرة ابْن تَيْمِية فَسئلَ ابْن تَيْمِية عَنهُ بعد ذَلِك فَقَالَ رَأَيْت شَيخنَا تتقاطر فروع الشَّافِعِيَّة من لحيته.... وَكَانَ كثير الصَّدَقَة مكبا على الِاشْتِغَال حَتَّى عرض لَهُ وجع المفاصل بِحَيْثُ كَانَ الثَّوْب إِذا لمس جِسْمه آلمه وَمَعَ ذَلِك مَعَه كتاب ينظر إِلَيْهِ وَرُبمَا انكب على وَجهه وَهُوَ يطالع» (٣١٣)

وَقَالَ الامام ابو المظفر السرمري فِي الْمجْلس السَّابِع وَالسِّتِّينَ من أَمَالِيهِ فِي الذّكر وَالْحِفْظ:

وَمن عجائب مَا وَقع فِي الْحِفْظ فِي أهل زَمَاننَا شيخ الاسلام أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن عبد الْحَلِيم ابْن تَيْمِية فَإِنَّهُ كَانَ يمر بِالْكتاب فيطالعه مرّة فينتقش فِي ذهنه فيذاكر بِهِ وينقله فِي مصنفاته بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَمن أعجب مَا سمعته عَنهُ مَا حَدثنِي بِهِ بعض أَصْحَابه أَنه لما كَانَ صَبيا فِي بداية أمره أَرَادَ وَالِده أَن يخرج بأولاده يَوْمًا الى الْبُسْتَان

(٣١٢) «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» (٢/ ٦٨١).

(٣١٣) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (١/ ٣٣٧).

على سَبِيل التَّنَزُّه فَقَالَ لَهُ يَا أَحْمد تخرج مَعَ إِخْوَتك تستريح فاعتل عَلَيْهِ فألح عَلَيْهِ وَالِده فَامْتنع أَشد الِامْتِنَاع

فَقَالَ اشتهي أَن تعفيني من الْخُرُوج.

فَتَركه وَخرج بإخوته فظلوا يومهم فِي الْبُسْتَان وَرَجَعُوا آخر النَّهَار فَقَالَ يَا أَحْمد أوحشت إِخْوَتك الْيَوْم وتكدر عَلَيْهِم بِسَبَب غَيْبَتك عَنْهُم فَمَا هَذَا فَقَالَ يَا سَيِّدي إِنَّنِي الْيَوْم حفظت هَذَا الْكتاب لكتاب مَعَه فَقَالَ حفظته كالمنكر المتعجب من قَوْله.

فَقَالَ لَهُ استعرضه عَليّ.

فاستعرضه فاذا بِهِ قد حفظه جَمِيعه.

فَأَخذه وَقبله بَين عَيْنَيْهِ وَقَالَ يَا بني لَا تخبر أحدا بِمَا قد فعلت خوفًا عَلَيْهِ من الْعين أَو كَمَا قَالَ» (٣١٤)

يَقُول الإمام الغزالى:

قطعت علينا الطَّرِيق وَأخذ العيارون جَمِيع مَا معي ومضوا فتبعتهم فَالْتَفت إِلَى مقدمهم وَقَالَ ارْجع وَيحك وَإِلَّا هَلَكت

فَقلت لَهُ أَسأَلك بِالَّذِي ترجو السَّلامَة مِنْهُ أَن ترد على تعليقتي فَقَط فَمَا هِيَ بِشَيْء تنتفعون بِهِ

فَقَالَ لي وَمَا هِيَ تعليقتك

فَقلت كتبت فِي تِلْكَ المخلاة هَاجَرت لسماعها وكتابتها وَمَعْرِفَة علمهَا

(٣١٤) «الرد الوافر» (ص١٣٣).

فَضَحِك وَقَالَ كَيفَ تَدعِي أَنَّك عرفت علمهَا وَقد أخذناها مِنْك فتجردت من مَعْرفَتهَا وَبقيت بِلَا علم ثمَّ أَمر بعض أَصْحَابه فَسلم إِلَى المخلاة

قَالَ الْغَزالِيّ فَقلت هَذَا مستنطق أنطقه الله ليرشدني بِهِ فِي أَمْرِي فَلَمَّا وافيت طوس أَقبلت على الِاشْتِغَال ثَلَاث سِنِين حَتَّى حفظت جَمِيع مَا علقته وصرت بِحَيْثُ لَو قطع على الطَّرِيق لم أتجرد من علمي» (٣١٥)

وقال الإبراهيمي عن والده الشيخ محمد البشير طالب الإبراهيمي:

فلما بلغت سبع سنين استلمني عمي من معلّمي القرآن وتولّى تربيتي وتعليمي بنفسه، فكنت لا أفارقه لحظة حتى في ساعات النوم، فكان هو الذي يأمرني بالنوم، وهو الذي يوقظني منه، على نظام مضطرد في النوم والأكل والدراسة، وكان لا يخليني من تلقين حتى حين أخرج معه وأماشيه للفسحة، فحفظت فنون العلم المهمة في ذلك السن مع استمراري في حفظ القرآن،

فما بلغت تسع سنين من عمري حتى كنت أحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه،

وكنت أحفظ معه ألفية ابن مالك

ومعظم الكافية له،

وألفية ابن معطي الجزائري

وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر،

وأحفظ جمع الجوامع في الأصول،

(٣١٥) «طبقات الشافعية الكبرى للسبكي» (٦/ ١٩٥).

وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني،

ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب،

وأحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني، شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة،

وأحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس مثل ابن شهيد، وابن برد، وابن أبي الخصال، وأبي المطرف ابن أبي عميرة، وابن الخطيب،

ثم لفتني عمي إلى دواوين فحول المشارقة، ورسائل بلغائهم، فحفظت صدرًا من شعر المتنبي، ثم استوعبته بعد رحلتي إلى الشرق، وصدرًا من شعر الطائيين وحفظت ديوان الحماسة،

وحفظت كثيرًا من رسائل سهل بن هارون وبديع الزمان،

وفي عنفوان هذه الفترة كنت حفظت بإرشاد عمي كتاب

كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي،

وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني،

وكتاب الفصيح لثعلب،

وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السكيت،

وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكتي اللغوية.

ولم يزل عمي- رحمه الله- يتدرّج بي من كتاب إلى كتاب تلقينًا وحفظًا ومدارسة للمتون والكتب التي حفظتها حتى بلغت الحادية عشرة،

فبدأ لي في درس:

ألفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق،

وكان قبلها أقرأني كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهّم وبحث،

وكان يقرئني مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في وطننا إذ ذاك، ويقرئني وحدي، ويقرئني وأنا أماشيه في المزارع، ويقرئني على ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت وفي الظلمة، حتى يغلبني النوم، ولم يكن شيء من ذلك يرهقني، لأن الله تعالى وهبني حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيّرة، وذهنًا صيودًا للمعاني ولو كانت بعيدة،

ولما بلغت أربع عشرة سنة، مرض عمي مرض الموت، فكان لا يخليني من تلقين وإفادة وهو على فراش الموت، بحيث أني ختمت الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك عليه وهو على تلك الحالة» (٣١٦)

وقال عَلِيَ بن أَحْمَد بن مُحَمَّد بن إِسْحَاقَ:

كَانَ أَبِي -رَحِمَهُ اللهُ- يكتُبُ الأَحَادِيثَ، فوضعَ القلمَ في أنبوبة المحبرة، ورفع يديه يدعُو اللهَ -عزَّ وجلَّ، فَمَاتَ" (٣١٧)

(٣١٦) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٥/ ٢٧٣).

(٣١٧) "تاريخ دمشق لابن عساكر» (٥/ ٢١٥).

وقال ياقوت في ترجمة عبد الله بن إِبْرَاهِيم بن عبد الله بن حَكِيم الخبري:

قال القاضي الأكرم أبقى الله مهجته في «أخبار النحاة»: كَانَ مُتَمَكنًا من علم الْعَرَبيَّة، وَيكْتب الْخط الْحسن. تفقه على الشَّيْخ أبي إِسْحَاق الشِّيرَازِيّ، وبرع فِي الْفَرَائِض والحساب، وصنف فيهمَا، وَشرح الحماسة، وديوان البحتري، وعدة دواوين، وَسمع الحَدِيث من أبي مُحَمَّد الْجَوْهَرِي، وَجَمَاعَة، وَحدث باليسير. وَكَانَ مرضِي الطَّرِيقَة دينًا صَدُوقًا. روى عَنهُ سبطه أَبُو الْفضل بن نَاصِر، وَذكر أَنه كَانَ يكْتب يَوْمًا وَهُوَ مُسْتَند، فَوضع الْقَلَم من يَده، وَقَالَ: إِن هَذَا موت مهنأ طيب، ثمَّ مَاتَ" (٣١٨)

وقال القاضي عياض في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إسحاق، المعروف بابن التبّان

ذكر أنه قال: كنت أول ابتدائي أدرس الليل كله، فكانت أمي تنهاني عن القراءة بالليل. فكنت آخذ المصباح فأجعله تحت الجفنة، وأتعمد النوم، فإذا رقدت أخرجت المصباح وأقبلت على الدرس. وكان كثير الدرس. ذكر أنه درس كتاباً ألف مرة -يعني: المدوَّنة-» (٣١٩)

(٣١٨) «معجم الأدباء» (٤/ ١٤٨٦).

(٣١٩) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ٢٤٨).

وقَالَ أبو العَرَب التميمي في في ترجمة عَبَّاسِ بْنِ الْوَلِيدِ الْفَارِسِيِّ:
حَدَّثَنِي أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ رَأَى عَلَى بَعْضِ كُتُبِهِ دَرَسْتُهُ أَلْفَ مَرَّةٍ» (٣٢٠)

وقال الزبيدى في مادة (نزل):
«وبَنو نُزَيْلٍ، كزُبَيْرٍ: قبيلةٌ من الْيمن، مِنْهُم: الحُسين بنُ أبي بكرِ بنِ إبراهيمَ بنِ داودَ النُّزَيْلِيُّ الشافعيُّ، لَهُ أَولادٌ خَمْسَةٌ عُلَماء صُلَحاء، مِنْهُم: الفقيهُ المُحَدِّثُ أَبُو عَبْد الله عبدُ الرحمنِ بنِ الحُسين شيخُ الْيمن، وَإِخْوَته عبدُ الملِكِ صاحِبُ الكَرامات، وعبدُ الْبَاقِي كَانَ مُجابَ الدعْوَة، وعبدُ القديمِ درسَ العُباب فِي الفِقهِ ثمانمائةِ مرّةً» (٣٢١)

وقال ابن بشكوال في ترجمة غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام المحاربي:
«وكان حافظا للحديث، وطرقه، وعلله. عارفا بأسماء رجاله ونقلته، منسوبا إلى فهمه، ذاكرا لمتونه ومعانيه. وقرأت بخط بعض أصحابنا أنه سمع أبا بكر بن عطية يذكر أنه كرر صحيح البخاري سبع مائة مرة» (٣٢٢)

---

(٣٢٠) «المحن» (ص٢٩٢).
(٣٢١) «تاج العروس» (٣٠/ ٤٨٧).
(٣٢٢) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال» (ص٤٣٣).

وقال الإمام أبو بكر الأبهري ت (٣٧٥) عن نفسه:
" قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة " (٣٢٣)

وقال ابن حجر في ترجمة سُلَيْمَان بن إِبْرَاهِيم بن عمر بن عَليّ بن عمر نَفِيس الدّين مُحدث الْيمن:
«فَذكر لي أَنه مر على البُخَارِيّ مائَة وَخمسين مرّة مَا بَين قِرَاءَة وَسَمَاع واسماع ومقابلة» (٣٢٤)

وقال السخاوى في ترجمة زين الدين أبو بكر بن محمد بن عبد الله بن مُقْبِلٍ القاهريُّ الحنفي المعروف بالتاجر:
«وَقَالَ الْبُرْهَان الْحلَبِي أَنه أخبرهُ أَنه قَرَأَ صَحِيح البُخَارِيّ إِلَى سنة ثَمَانِينَ خمْسا وَتِسْعين مرّة وقرأه بعد ذَلِك مرَارًا كَثِيرَة» (٣٢٥)

(٣٢٣) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ١٨٦).
(٣٢٤) «إنباء الغمر بأبناء العمر» (٣/ ٢٨٦).
(٣٢٥) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١١/ ٧٩).

وقال ابن رجب في ترجمة مجد الدين الحراني أبي الفداء إسماعيل بن مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل بْن الفراء الحراني:

لَهُ خبرة تامة بالمذهب، يقرئ

" المقنع "

و " الكافي " ويعرفهما، وكتب بخطه ":

المغني "

و " الكافي "، وغيرهما. ويقال إنه أقرأ "المقنع" مائة مرة" (٣٢٦)

وقال الشوكاني في ترجمة إبراهيم بن مُحَمَّد بن خَلِيل الْبُرْهَان الطرابلسي الأَصْل الشامي المولد وَالدَّار:

«وَقَرَأَ البخاري أَكثر من سِتِّينَ مرة وَمُسلمًا نَحْو الْعشْرين» (٣٢٧)

وقال الكتّاني:

«ووجدت في ثبت الشهاب أحمد بن قاسم البوني: " رأيت خط الفيروزبادي في آخر جزء من صحيح الإمام البخاري قال: إنه قرأ صحيح البخاري أزيد من خمسين مرة "» (٣٢٨)

---

(٣٢٦) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٥٣٢ ت العثيمين).

(٣٢٧) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (١/ ٢٨).

(٣٢٨) "فهرس الفهارس» (٢/ ١٠٤٦).

وقال الزركلي في ترجمة:

ذهبي عصرنا المُعَلِّمي اليماني (ت ١٣٨٦ هـ)

فقال: عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن محمد المعلمي العتمي: فقيه من العلماء. نسبته إلى (بني المعلم) من بلاد عتمة، باليمن. ولد ونشأ في عتمة، وتردد إلى بلاد الحجرية (وراء تعز) وتعلم بها.

وسافر إلى جيزان (سنة ١٣٢٩) في إمارة محمد بن علي الإدريسي، بعسير، وتولى رئاسة القضاة ولقب بشيخ الإسلام. وبعد موت الإدريسي (١٣٤١ هـ سافر إلى الهند وعمل في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، مصححاً كتب الحديث والتاريخ (حوالي سنة ١٣٤٥) زهاء ربع قرن، وعاد إلى مكة (١٣٧١) فعين أمينا لمكتبة الحرم المكيّ (١٣٧٢) إلى أن شوهد فيها منكبا على بعض الكتب وقد فارق الحياة. وقيل: بل توفي على سريره. ودفن بمكة. له تصانيف منها (طليعة التنكيل - ط) وهو مقدمة كتابه (التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل - ط) في مجلدين و (الأنوار الكاشفة - ط) في الرد على كتاب (أضواء على السنة) لمحمود أبي رية، و (محاضرة - ط) في كتب الرجال، وكتاب (العبادة- خ) مجلد كبير، ورسائل في تحقيق بعض المسائل، ما زالت مخطوطة، بينها (ديوان شعره) وحقق كثيرا من كتب الأمهات، منها أربع مجلدات من كتاب (الإكمال) لابن ماكولا، وأربع مجلدات من (الأنساب) للسمعاني» (٣٢٩)

(٣٢٩) «الأعلام للزركلي» (٣/ ٣٤٢).

وقال الإمام محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله عن نفسه:

"ولم يكن ليخطر في بالي، وضع مثل هذا الفهرس، لأنه ليس من اختصاصي، وليس عندي متسع من الوقت ليساعدني عليه، ولكن الله تبارك وتعالى إذا أراد شيئا هيأ أسبابه فقد ابتليت بمرض خفيف أصاب بصري، منذ أكثر من اثني عشر عاماً، فنصحني الطبيب المختص بالراحة، وترك القراءة، والكتابة، والعمل في المهنة تصليح الساعات مقدار ستة أشهر.

فعملت بنصيحته أول الأمر، فتركت ذلك كله نحو أسبوعين، ثم أخذت نفسي تراودني، وتزين لي أن أعمل شيئاً في هذه العطلة المملة، عملاً لا ينافي بزعمي نصيحته، فتذكرت رسالة مخطوطة في المكتبة، اسمها "ذم الملاهي" للحافظ ابن أبي الدنيا، لم تطبع فيما أعلم يومئذ، فقلت: ما المانع من أن أكلف من ينسخها لي؟ وحتى يتم نسخها، ويأتي وقت مقابلتها بالأصل، يكون قد مضى زمن لا بأس به من الراحة، فبإمكاني يومئذ مقابلتها، وهي لا تستدعي جهداً ينافي الوضع الصحي الذي أنا فيه، ثم أحققها بعد ذلك على مهل، وأخرج أحاديثها، ثم نطبعها، وكل ذلك على فترات لكيلا أشق على نفسي! فلما وصل الناسخ إلى منتصف الرسالة، أبلغني أن فيها نقصاً، فأمرته بأن يتابع نسخها حتى ينتهي منها، ثم قابلتها معه على الأصل، فتأكدت من النقص الذي أشار اليه، وأقدره بأربع صفحات في ورقة واحدة في منتصف الكراس، فأخذت أفكر فيها وكيف يمكنني العثور عليها؟ والرسالة محفوظة في مجلد من المجلدات الموضوعة في المكتبة تحت عنوان (مجاميع)، وفي كل مجلد منها على الغالب عديد من الرسائل والكتب، مختلفة الخطوط والمواضيع، والورق لوناً وقياساً، فقلت في نفسي: لعل الورقة الضائعة قد خاطها المجلد سهواً في مجلد آخر من

هذه المجلدات! فرأيتني مندفعاً بكل رغبة ونشاط باحثاً عنها فيها على التسلسل. ونسيت أو تناسيت نفسي، والوضع الصحي الذي أنا فيه! فإذا ما تذكرته، لم أعدم ما أتعلل به، من مثل القول بأن هذا البحث لا ينافيه لأنه لا يصحبه كتابة ولا قراءة مضنية.!

وما كدت أتجاوز بعض المجلدات، حتى أخذ يسترعي انتباهي عناوين بعض الرسائل والمؤلفات، لمحدثين مشهورين، وحفاظ معروفين، فأقف عندها، باحثاً لها، دارساً إياها، فأتمنى لو أنها تنسخ وتحقق، ثم تطبع، ولكني كنت أجدها في غالب الأحيان ناقصة الأطراف والأجزاء، فأجد الثاني دون الأول مثلاً، فلم أندفع لتسجيلها عندي، وتابعت البحث عن الورقة الضائعة، ولكن عبثا حتى انتهت مجلدات "المجاميع" البالغ عددها (١٥٢) مجلداً، بيد أني وجدتني في أثناء المتابعة أخذت أسجل في مسودتي عناوين بعض الكتب التي راقتني، وشجعني على ذلك، أنني عثرت في أثناء البحث فيها على بعض النواقص التي كانت قبل من الصوارف عن التسجيل.

ولما لم أعثر على الورقة في المجلدات المذكورة، قلت في نفسي: لعلها خيطت خطأ في مجلد من مجلدات كتب الحديث، والمسجلة في المكتبة تحت عنوان (حديث)، فأخذت أقلبها مجلداً مجلداً، حتى انتهيت منها دون أن أقف عليها! ولكني سجلت أيضا عندي ما شاء الله تعالى من المؤلفات والرسائل.

وهكذا لم أزل أعلل النفس وأمنيها بالحصول على الورقة، فأنتقل في البحث عنها بين مجلدات المكتبة ورسائلها من علم إلى آخر، حتى أتيت على جميع المخطوطات المحفوظة بالمكتبة، والبالغ عددها نحو عشرة آلاف مخطوط، دون أن أحظى بها!.

ولكني لم أيأس بعد، فهناك ما يعرف بـ (الدست)، وهو عبارة عن مكدسات من الأوراق والكراريس المتنوعة التي لا يعرف أصلها، فأخذت في البحث فيها بدقة وعناية، ولكن دون جدوى.

وحينئذ يئست من الورقة، ولكني نظرت فوجدت أن الله تبارك وتعالى، قد فتح لي من ورائها باباً عظيماً من العلم، طالما كنت غافلاً عنه كغيرى، وهو أن في المكتبة الظاهرية كنوزاً من الكتب والرسائل في مختلف العلوم النافعة، التي خلفها لنا أجدادنا رحمهم الله تعالى، وفيها من نوادر المخطوطات التي قد لا توجد في غيرها من المكتبات العالمية، مما لم يطبع بعد.

فلما تبين لي ذلك، واستحكم في قلبي، استأنفت دراسة مخطوطات المكتبة كلها من أولها إلى آخرها، للمرة الثانية، على ضوء تجربتي السابقة التي سجلت فيها ما انتقيت فقط من الكتب، فأخذت أسجل الآن كل ما يتعلق بعلم الحديث منها مما يفيدني في تخصصي؛ لا أترك شاردة ولا واردة، إلا سجلته، حتى ولو كانت ورقة واحدة، من كتاب أو جزء مجهول الهوية! وكأن الله تبارك وتعالى كان يُعدُّني بذلك كله للمرحلة الثالثة والأخيرة، وهي دراسة هذه الكتب، دراسة دقيقة، واستخراج ما فيها من الحديث النبوي مع أسانيده وطرقه، وغير ذلك من الفوائد.
فإني كنت في أثناء المرحلة الثانية، التقط نتفاً من هذه الفوائد التي أعثر عليها عفواً، فما كدت أنتهي منها حتى تشبعت بضرورة دراستها كتاباً كتاباً، وجزءاً جزءاً. ولذلك فقد شمرت عن ساعد الجد، واستأنفت الدراسة للمرة الثالثة، لا أدع صحيفة إلا تصفحتها، ولا ورقة شاردة إلا قرأتها، واستخرجت منها ما أعثر عليه من فائدة علمية، وحديث نبوي شريف، فتجمع عندي بها نحو أربعين مجلداً، في كل مجلد

نحو أربعمائة ورقة، في كل ورقة حديث واحد، معزوًّا إلى جميع المصادر التي وجدتها فيها، مع أسانيده وطرقه، ورتبت الأحاديث فيها على حروف المعجم، ومن المجلدات أغذي كل مؤلفاتي ومشاريعي العلمية، الأمر الذى يساعدني على التحقيق العلمي، الذي لا يتيسر لأكثر أهل العلم، لا سيما في هذا الزمان الذي قنعوا فيه بالرجوع إلى بعض المختصرات في علم الحديث وغيره من المطبوعات! فهذه الثروة الحديثية الضخمة التي توفرت عندي؛ ما كنت لأحصل عليها، لو لم ييسر الله لي هذه الدراسة بحثاً عن الورقة الضائعة! فالحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وإن من ثمراتها المباركة أنني اكتشفت في أثنائها بعض المؤلفات والأجزاء والكراريس القيمة التي لم يكن من المعلوم سابقًا وجودها في المكتبة أصلاً، أو كاملة، لذهاب الورقة الأولى وغيرها منها التي بها يمكن عادة الكشف عن هوية المؤلِّف والمؤلَّف، أو لإهمال الناسخ كتب ذلك على نسخته من الكتاب، أو غير ذلك من الأسباب التي يعرفها أهل الاختصاص في دراسة المخطوطات، ولذلك خفيت على (بروكلمن) وغيره من المفهرسين، فلم يرد لها ذكر في فهارسهم إطلاقاً، ولا بأس من أن أذكر هنا بعض المهمات منها مما يحضرني الآن... :

هذا، وقد كان هذا الفهرس نتيجة جهد فردي، واندفاع ذاتي، من شخص غير موظف في المكتبة، ولا مكلف منها، ولذلك لم يكن ليتيسر له ما يلزمه من التسهيلات لمراجعة المخطوطات ودراستها والبحث عن المجهولات من الأجزاء فيها، مثلما يتيسر عادة لمن كان موظفاً في المكتبة أو مكلفاً من إدارتها، فكان من الطبيعي أن ينالني بعض المشقة في سبيل هذه الدراسة، فقد أتى عليّ أيام كنت أضطر فيها إلى ان أنصب السلّم، فأرقى عليه، لأستطيع تناول الكتب المرصوفة على الرفوف

العالية، فأقوم عليه ساعات في دراستها في موضعها دراسة سريعة، فإذا اخترت شيئاً منها لدراستها دراسة فحص وتدقيق طلبت من الموظف المختص أن ينزلها ويأتي بها إلى المنضدة، بعد تقديمي قائمة بأسمائها وأرقامها وتوقيعها ! ولذلك فإني أظن أنه فاتني الاطلاع على عدد غير قليل من الكتب والرسائل والأجزاء مما يتعلق بمثل هذا الفهرس، فعسى الله تبارك وتعالى أن يسخر من يتابع البحث والتفتيش بدقة ويسر، فيسجل ما قد فاتني، وما كنت تعمدت تركه مما ليس من منهجي كما سبقت الإشارة إليه، لا سيما وقد ورد إلى المكتبة بعد عملي لهذا الفهرس مجموعات أخرى من المخطوطات، فيفهرس ذلك كله، ويكون كالذيل لهذا، وبذلك يتوفر للمكتبة العامرة فهرس مفصل يحوى كل ما فيها من كتب الحديث الشريف. وقد يرى القارىء في فهرسي هذا كثيراً من الكتب التي ليس لها علاقة عادة بعلم الحديث، مثل كتب التاريخ والسيرة، والقراءات والتفسير وغيرها، فحقها أن تسجل في فهارس خاصة بها، فعذري في تسجيلها فيه أنني كنت أحتاج الرجوع إليها كثيراً، لا سيما وأكثرها شديد الصلة بعلم الحديث الذى هو اختصاصي، فسجلتها فيه تيسيراً لعملي، وتوفيراً لوقتي" (٣٣٠)

وقال عبد الحي الحسنى في ترجمة الشيخ عبد الحق بن سيف الدين بن سعد الله البخاري الدهلوي المحدث المشهور:

أول من نشر علم الحديث بأرض الهند تصنيفاً وتدريساً فقال:

---

(٣٣٠) مقدمة كتابه: ((فهرسُ مَخطوطَات دَار الكتُب الظّاهِريّة)) (ص٨).

وكان دائم الاشتغال مكباً على المطالعة في دياجير الليالي حتى أنه قد احترقت عمامته غير مرة بالسراج الذي كان يجلس أمامه للمطالعة فما كان يتنبه له حتى تتصل النار ببعض شعره» (٣٣١)

وقال الأديب إبراهيم عبد القادر المازني المتوفى سنة (١٩٤٩م) عن نفسه: «عرفنا القراءة والاطلاع ونحن تلاميذ في المدارس الثانوية، وأدع غيري وأتحدث عن نفسي فأقول إن مواردي كانت محدودة جداً، وكان حسبي أن أؤدي نفقات التعليم. وكنت أحمد الله إذا وجدت بعد ذلك قرشاً في اليوم.

وكان فريق منا يعني بأن يحضر دروس الأمام الشيخ محمد عبدة، والشيخ سيد المرصفي، وانتقلنا إلى التعليم العالي، وكتب الله لي - على خلاف ما كنت أريد - أن أدخل مدرسة المعلمين العليا، فكان مرشدي فيها وأستاذي، زميلي وصديقي الأستاذ عبد الرحمن شكري، فقد كان شاعراً ناضجا ذا مذهب في الأدب يدعو أليه، وكنت أنا مبتدئا، فصرفني عن البهاء زهير وابن الفارض وابن نباتة ومن إلى هؤلاء، ووجهني إلى الأدب الجاهلي والأموي والعباسي، ودلني على ما ينبغي أن أقرأ من الأدب الغربي. وكانوا ينقدوننا في هذه المدرسة بضع جنيهات في الشهر: ثلاثة في السنة الأولى، وأربعة في الثانية والثالثة، فكنت أقسم هذه الجنيهات قسمة عادلة، فأدفع للبيت نصفها وأستأثر بالنصف، وأذهب إلى مكتبة فأنتقي منها (مؤونة الشهر). وكنت أعود إلى البيت بهذا الحمل فتسألني أمي، (أنفقت فلوسك كلها! وتظل طول الشهر تقول لي: هاتي! هاتي! أي تدبير هذا؟)

(٣٣١) «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» (٥/ ٥٥٤).

فأقول: (يا أمي.. لك مئونتك من السمن والعسل والأرز والبصل والفلفل والثوم، ولي مئونتي من المتنبي والشريف الرضي والأغاني وهازليت وتاكري وديكنز وماكولي؛ ولا غنى بك عن سمنك وبصلك، ولا بي عن هؤلاء؟)

فتبتسم وتقول: (طيب..) وتدعو لي بالتوفيق

وكنت أشتري ديوان الشعر ورقا، أعني بغير غلاف أو تجليد، ليتسنى لي حين أخرج من البيت أن أحمل معي ملزمة أو ملزمتين، أقرأ فيهما وأنا جالس في مقهى، أو إذ أتمشى على شاطئ النيل. وكان حديثنا إذ نجتمع في الأدب والكتب؛ وكانت رسائلنا التي نتبادلها في الصيف حين نفترق لا تدور إلا على ما نقرأ؛ وكان أحدنا يلقى صاحبه في الطريق اتفاقاً فيقول له: (لقد عثرت على كتاب نفيس بغلاف فتعال نقرأه) لا يدعوه إلى طعام، أو شراب، أو سينما، أو لهو، بل إلى قراءة كتاب. وكان كل من يقع على كتاب قيم يخف به إلى صاحبه فينبئه به ويخلصه له ويحضه على اقتنائه. وكان أساتذتنا في مدرسة المعلمين يحثوننا على التحصيل وييسرون لنا أسبابه، ما وسعهم ذلك، فلما تركنا المدرسة وفرغنا من الطلب (الرسمي) كنا قد عرفنا أمهات الكتب في الأدبين العربي والإنجليزي، وغيرهما أيضاً من الآداب، ودرسنا أكثر شعراء العرب والغرب، وكان لكل منا مكتبته الخاصة المتخيرة

وتزوجت. وفي صباح ليلة الجلوة، دخلت مكتبتي ورددت الباب. وأدرت عيني في رفوف المكتب، فراقني منها ديوان (شيللي) فتناولته وانحططت على كرسي وشرعت أقرأ، ونسيت الزوجة التي ما مضى عليها في بيتي إلا سواد ليلة واحدة؛ وكانوا يبحثون عني في حيث يظنون أن يجدوني - في الحمام، وفي غرفة الاستقبال، وفي (المنظرة) - حتى تحت السرير بحثوا، ولم يخطر لهم قط أني في المكتبة، لأني

(عريس) جديد لا يعقل في رأيهم أن يهجر عروسه هذا الهجر القبيح الفاضح! وكانت أمي في (الكرار) أو المخزن تعد مالا أدري لهذا الصباح السعيد، فأنبئوها أني اختفيت كأنما انشقت الأرض فابتلعتني، وأنهم بحثوا ونقبوا في كل مكان فلم يعثروا لي على أثر، فما العمل؟

فضحكت أمي وقالت: (ليس في كل مكان. . . أذهبوا إلى المكتبة فإنه لا شك فيها).

فقالت حماتي وضربت صدرها بكفها: (في المكتبة؟ يا نهار أسود! وهل هذا وقت كتب وكلام فارغ؟).

فقالت أمي بجزع: (أسمعي. . . كل ساعة من ساعات الليل والنهار وقت كتب. . . أفهمي هذا وأريحي نفسك، فأن كل محاولة لصرفه عن الكتب، عبث).

فقالت حماتي: (لو كنت أعرف هذا. . . مسكينة يا بنتي. . . وقعت وكان ما كان).

فقالت أمي: (هل تكون مسكينة إذا وطدت نفسها على هذه المعرفة؟ ويحسن أن تكبحي لسانك، وأن تدعي الأمر لبنتك فانه من شأنها).

فلم تكبح لسانها بل قالت: (لو كانت ضرة. . . لكان أهون!).

فقالت أمي: إنك حمقاء. . . وليس في الأمر ما يحوج إلى هذا الهراء. . . أذهبي إليه وناديه. . .).

فارتدت إليّ، وفتحت الباب علي، وكنت ذاهلا، فلما شعرت بالباب يفتح أزعجني ذلك، فأشرت إلى الداخل أن يرجع من غير أن أنظر إليه، وكنت مقطباً، وكان لساني يخرج أصواتاً كهذه: (شش! شش!).

فخرجت المسكينة وأغلقت الباب، وذهبت تقول لأمي والدموع تنحدر من عينيها إني طردتها وصحت بها: (هشش!) كما يصاح بالدجاج؟

وقد عرفت هذا كله فيما بعد، فطردتها، لأن خفت أن تخرب لي البيت؛ ثم إني تزوجت بنتها، ولم أتزوجها هي، فما مقامها عندي ولها بيت طويل عريض وزوج كريم؟ وكان رأي بنتها فيها مثل رأيي، فلم يسؤها مني ما فعلت. وأراحنا الله من دوشتها، ولكن زوجتي كانت تقول إلى آخر أيام حياتها رحمها الله: (ليس لي ضرة سوى هذه الكتب) - كانت تقول لها مازحة، فقد راضت نفسها على احتمال هذا الجنون مني، واستطاعت أن تدرك أنه ليس لها ولا لسواها حيلة، وأن في الوسع صرفي عن أي شيء إلا الكتب والدرس.

ويا ما أذكى المرأة!! تكون لها حاجة تريد مني قضاءها، وتخشى رفضي وعنادي، فتكتمها ولا تكاشفني بها، وتنتظر حتى تراني غارقاً في كتاب، وذاهلا به عن الدنيا، وآية الذهول أن تدخل مرات فلا أشعر بها، فتقبل علي وتلاطفني وهي عارفة بما سيكون مني، فأعبس، كما كانت تتوقع، فتقول (كلمة واحدة. . . لن أعطلك. . .).

فأقول متململاً متأففاً: (لا حول ولا قوة إلا بالله! قوليها يا ستي ولا تعطليني) فتطيل عامدة لتضجرني:

(كلمة واحدة بس. . . لماذا تغضب هكذا؟ . . .

ألا يتسع صدرك لكلمة ليس إلا؟)

فأكاد أجن وأقول: (يا ستي قوليها، وأريحيني!)

فتقول: (المسألة الفلانية. . .)

وأنهض، وأمضي بها إلى الباب وأنا أقول: اصنعي ما تشائين.

كل ما بدا لك اصنعيه، ولكن لا تعطليني. . .

أنا محتاج لعقلي كله الآن. . .

ألا تفهمين؟ هذه نسخة مخطوطة، منسوخة. . .

من ديوان ابن الرومي. . .

نسخها حمار كلها غلط وتحريف وتصحيف، . . .

ليس فيها بيت واحد له معنى. . .

فكيف يمكن أن أصلح غلطة واحدة إذا كنت تطيرين لي عقلي بالفساتين والخياطة والركامة. . .؟؟. . .

فتبتسم، فقد بلغت سؤلها، وتعدني أن تحرس هذا الباب فلا تترك أحداً يدخل منه أو يقربه" (٣٣٢)

وقال يحيى بن محمد بن يَحْيَى الذُّهْلِيّ:

دَخَلْتُ عَلَى أَبِي فِي الصَّيْفِ الصَّائِفِ وَقْتَ القَائِلَةِ، وَهُوَ فِي بَيْتِ كُتُبِه، وَبَيْنَ يَدَيْهِ السِّرَاجُ، وَهُوَ يُصَنِّفُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَةِ، هَذَا وَقْتُ الصَّلَاةِ، وَدُخَانُ هَذَا السِّرَاجِ بِالنَّهَارِ فَلَو نَفَّسْتَ عَنْ نَفْسِكَ.

قَالَ: يَا بُنَيَّ، تَقُوْلُ لِي هَذَا، وَأَنَا مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِيْنَ!! (٣٣٣)

---

(٣٣٢) "سبيل الحياة" (ص٦٢-٦٣).

(٣٣٣) «تاريخ بغداد ت بشار» (٤/ ٦٥٦).

وقال المقدسي:

«قال أبو الشيخ: وبلغني أن رجلًا قال لأبي مسعود: إنا ننسى الحديث، فقال: أيُّكم يرجع في حفظ حديث واحد خمس مئة مرة؟ قالوا: ومن يقوى على هذا؟ قال: لذاك لا تحفظون» (٣٣٤)

وقال ابن الجوزى في ترجمة إبراهيم بن الحسين بن دِيزيل الهَمَذَاني:

"وكان كثير الطلب للحديث، منهمكا في كتابته.

قَالَ عَبْد اللَّهِ بن وهب الدينَوَريّ: كُنَّا نُذَاكِرُ إِبْرَاهِيمَ بنَ الحُسَيْنِ بالحديث فَيُذَاكِرُنَا بِالقِمَطْرِ، وكان يذاكر بالحديث الواحد فَيَقُوْلُ: عِنْدِي مِنْهُ قِمَطْرٌ - يُرِيْدُ طُرُقَهُ وَعِلَلَهُ وَاخْتِلَافَ أَلْفَاظِهِ -

أَخْبَرَنَا إسماعيل بن أَحْمَد السمرقندي قَالَ: سمعت أبا القاسم يوسف بن الحسن اليفكري يقول: سمعت أبا علي الحسن بن علي بن بندار الزنجاني يقول: قَالَ إبراهيم بن الحسين بن ديزيل الهمذاني: كَتَبْتُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي الحديث، فَجَلَسْتُ كَثِيْراً، وَكَتَبْتُ مَا لَا أُحْصِيْهِ حَتَّى عَيِيْتُ، ثُمَّ خَرَجْتُ أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ، فَكَانَ أَوَّلُ اللَّيْلِ ، فَأَتْمَمْتُ جُزْئِي ، وأصبحت وصلينا الصُّبْحَ، ثُمَّ حَضَرْتُ باب حانوت تَاجِرٍ ، وكان هو ذا يَكْتُبُ حِسَاباً، ويؤرخه بيوم السَّبْتِ، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! أَلَيْسَ اليَوْمَ يوم الجُمُعَةُ؟

فَضَحِكَ، وَقَالَ: لَعَلَّكَ لَمْ تَحْضُرْ أَمْسِ الجَامِعَ؟

قَالَ: فرَاجَعْتُ نَفسِي، فَإِذَا أَنَا قَدْ كَتَبْتُ، لِلَيْلَتَيْنِ وَيَوْماً» (٣٣٥)

---

(٣٣٤) «الكمال في أسماء الرجال» (٣/ ٨٠).

(٣٣٥) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٢/ ٨٩).

وقال محيي الدين المراكشي في ترجمة الوزير الكاتب الأبرع ذي الوزارتين أبي محمد عبد المجيد بن عبدون:

قال الوزير الأجل أبو بكر محمد ابن الوزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زُهْر بن عبد الملك بن زهر: بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها، فقلت له: أين الأصل الذي كتبت منه لأقابل معك به قال: ما أتيت به معي، فبينا أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بَذُّ الهيئة، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لاثها٤ من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية، فسلم وقعد وقال لي: يا بني، استأذن لي على الوزير أبي مروان، فقلت له: هو نائم، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف، حملني على ذلك نزوة الصِّبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل. ثم سكت عني ساعة، وقال: ما هذا الكتاب الذي بأيديكما؟ فقلت له: ما سؤالك عنه؟ فقال: أحب أن أعرف اسمه، فإني كنت أعرف أسماء الكتب! فقلت: هو كتاب الأغاني، فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه؟ قلت: بلغ موضع كذا، وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه، فقال: وما لكاتبك لا يكتب؟ قلت: طلبت منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق، فقال: لم أجئ به معي، فقال: يا بني، خذ كراريسك وعارض، قلت: بماذا؟ وأين الأصل؟ قال: كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي، قال: فتبسمت من قوله، فلما رأى تبسمي قال: يا بني، أمسك علي، قال: فأمسكت عليه وجعل يقرأ، فوالله إن أخطأ واوًا ولا فاء، قرأ هكذا نحوًا من كراستين، ثم أخذت له في وسط السِّفْر وآخره، فرأيت حفظه في ذلك كله سواء. فاشتد عجبي، وقمت مسرعًا

حتى دخلت على أبي، فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل؛ فقام كما هو من فوره، وكان ملتفًّا برداء ليس عليه قميص، وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفُق على نفسه، وأنا بين يديه، وهو يوسعني لومًا، حتى ترامى على الرجل وعانقه، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول: يا مولاي اعذرني، فوالله ما أعملني هذا الجِلْفُ إلا الساعة؛ وجعل يسبني، والرجل يُخَفِّض عليه ويقول: ما عرفني؛ وأبي يقول: هَبْهُ ما عرفك، فما عذره في حسن الأدب. ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلًا؛ ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافيًا حتى بلغ الباب، وأمر بدابته التي يركبها فأسرجت، وحلف عليه ليركبنَّها ثم لا ترجع إليه أبدًا. فلما انفصل قلت لأبي: من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم؟ قال لي: اسكت ويحك! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الآداب، هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسر محفوظاته كتاب الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته» (٣٣٦)

(٣٣٦) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (ص٦٢).

البحث الخامس:

الرحلة في طلب العلم.

٥-الرحلة في طلب العلم.

قد كانت الرحلة في طلب العلم فيما مضى جزءاً من مؤهلات العالم سيما في علم الحديث فهي من مؤهلات المحدثين ولوازم طريقتهم ومنهجهم في تحصيل العلم

قال يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ:
" أَرْبَعَةٌ لَا تُؤْنِسُ مِنْهُمْ رُشْدًا: حَارِسَ الدَّرْبِ، وَمُنَادِي الْقَاضِي، وَابْنُ الْمُحَدِّثِ، وَرَجُلٌ يَكْتُبُ فِي بَلَدِهِ، وَلَا يَرْحَلُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ "» (٣٣٧)

وَسَأَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ أَبَاهُ:
هَلْ تَرَى لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَلْزَمَ رَجُلًا عِنْدَهُ عِلْمٌ فَيَكْتُبَ عَنْهُ، أَوْ يَرْحَلَ إِلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي فِيهَا الْعِلْمُ فَيَسْمَعَ فِيهَا؟ قَالَ: يَرْحَلُ فَيَكْتُبُ عَنِ الْكُوفِيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، يُشَامُّ النَّاسَ يَسْمَعُ مِنْهُمْ.
وَقِيلَ لِأَحْمَدَ أَيْضًا: أَيَرْحَلُ الرَّجُلُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ؟ فَقَالَ: بَلَى وَاللَّهِ شَدِيدًا، لَقَدْ كَانَ عَلْقَمَةُ وَالْأَسْوَدُ يَبْلُغُهُمَا الْحَدِيثُ عَنْ عُمَرَ فَلَا يُقْنِعُهُمَا حَتَّى يَخْرُجَا إِلَيْهِ فَيَسْمَعَانِهِ مِنْهُ» (٣٣٨)

---

(٣٣٧) «معرفة علوم الحديث للحاكم» (ص٩).
(٣٣٨) «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» (٣/ ٢٧٦).

وقال أبو عبد الله الفقيه المراغي للشافعي رحمه الله:

إِذَا رَأَيْتَ شَبَابَ الْحَيِّ قد نشؤوا ... لَا يَنْقُلُونَ قِلالَ الْحِبْرِ وَالْوَرَقَا
وَلا تَرَاهُمْ لَدَى الأَشْيَاخِ فِي حِلَقٍ ... لعونَ مِنْ صَالِحِ الأَخْبَارِ مَا اتَّسَقَا
فَدَعْهُمْ عَنْكَ وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ هَمَجٌ ... قَدْ بَدَّلُوا بِعُلُوِ الْهِمَّةِ الْحُمُقَا (٣٣٩)

وقال ابن الصلاح:

«وَإِذَا فَرَغَ مِنْ سَمَاعِ الْعَوَالِي وَالْمُهِمَّاتِ الَّتِي بِبَلَدِهِ فَلْيَرْحَلْ إِلَى غَيْرِهِ» (٣٤٠)

والأصل في الرحلة قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (٣٤١)

وقال يَزِيد بْن هَارُون لِحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ:

يَا أَبَا إِسْمَاعِيلَ، هَلْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَصْحَابَ الْحَدِيثِ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: نَعَمْ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ

(٣٣٩) «الأنساب» (٨/ ٣٣٥).
(٣٤٠) «مقدمة» (ص٢٤٦).
(٣٤١) [التوبة: ١٢٢].

وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ فَهَذَا فِي كُلِّ مَنْ رَحَلَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ، وَرَجَعَ بِهِ إِلَى مَنْ وَرَاءَهُ فَعَلَّمَهُ إِيَّاهُ (٣٤٢)

قلت: وهذا كليم الله موسي يرحل ليتعلم، وقد قص الله علينا قصته وما تحمله من المشاق لكي يتعلم بعض المسائل من الخضر عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ (٣٤٣)

وقد رواها الشيخان من طريق سَعِيد بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ، حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ (٣٤٤)

---

(٣٤٢) "الرحلة في طلب الحديث" يرقم (١٠).

(٣٤٣) [الكهف: ٦٦].

(٣٤٤) [الكهف: ٦١].

وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ (٣٤٥)

قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَا الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ (٣٤٦)

قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ (٣٤٧)

قَالَ: رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى ثَوْبًا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ، قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا، قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ (٣٤٨)

---

(٣٤٥) [الكهف: ٦٢].
(٣٤٦) [الكهف: ٦٣].
(٣٤٧) [الكهف: ٦٤].
(٣٤٨) [الكهف: ٦٧].

يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾ (٣٤٩)

فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ (٣٥٠)

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ، لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالْقَدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣﴾ (٣٥١)

قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، قَالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ:

مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ، إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ،

فَقَالَ لَهُ مُوسَى:

---

(٣٤٩) [الكهف: ٦٩].

(٣٥٠) [الكهف: ٧٠].

(٣٥١) [الكهف: ٧١-٧٣].

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ (٣٥٢)

قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ (٣٥٣)

قَالَ: مَائِلٌ، فَقَامَ الْخَضِرُ فَأَقَامَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ (٣٥٤)

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا) وَكَانَ يَقْرَأُ: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ).» (٣٥٥)

---

(٣٥٢) [الكهف: ٧٤-٧٥].

(٣٥٣) [الكهف: ٧٦-٧٧]

(٣٥٤) [الكهف: ٧٧-٧٨]

(٣٥٥) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٤٧٢٦) ومسلم برقم (٢٣٨٠).

وقد بوب البخاري في صحيحه بَابُ الْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَرَحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، يَقُولُ: بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاشْتَرَيْتُ بَعِيرًا، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي، فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا، حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الشَّامَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ، فَقُلْتُ لِلْبَوَّابِ: قُلْ لَهُ: جَابِرٌ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ اللهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَخَرَجَ يَطَأُ ثَوْبَهُ فَاعْتَنَقَنِي، وَاعْتَنَقْتُهُ، فَقُلْتُ: حَدِيثًا بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْقِصَاصِ، فَخَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ، أَوْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ - عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا " قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: " لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ [بُعْدٍ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ، حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ " قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: " بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ "» (٣٥٦)

---

(٣٥٦) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (١٦٠٤٢) والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٩٧٠) بسند حسن لأجل القاسم بن عبد الواحد المكي روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات". وقال الذهبي: وثق.

وهذا عقبة بن الحارث

يرحل من مكة إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ يسأله عن مسألة رضاع وقعت له.

وقد بواب البخارى في "صحيحه" بَابُ الرِّحْلَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ النَّازِلَةِ وَتَعْلِيمِ أَهْلِهِ من حديث عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ «أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي تَزَوَّجَ، فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي، وَلَا أَخْبَرْتِنِي. فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ. فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ، وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ» (٣٥٧)

وخَرَجَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ وَهُوَ بِمِصْرَ يَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرُهُ وَغَيْرَ عُقْبَةَ

فَلَمَّا قَدِمَ أَتَى مَنْزِلَ مَسْلَمَةَ بْنِ مَخْلَدٍ الْأَنْصَارِيِّ وَهُوَ أَمِيرُ مِصْرَ فَأُخْبِرَ بِهِ فَعَجَّلَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَعَانَقَهُ، ثُمَّ قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ؟ فَقَالَ: حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرِي وَغَيْرَ عُقْبَةَ

فَابْعَثْ مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى مَنْزِلِهِ قَالَ فَبَعَثَ مَعَهُ مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى مَنْزِلِ عُقْبَةَ فَأُخْبِرَ عُقْبَةُ بِهِ فَعَجَّلَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَعَانَقَهُ

وَقَالَ مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ؟ فَقَالَ: حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ سَمِعَهُ غَيْرِي وَغَيْرَكَ فِي سَتْرِ الْمُؤْمِنِ قَالَ عُقْبَةُ نَعَمْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَتَرَ مُؤْمِنًا فِي الدُّنْيَا عَلَى خِزْيِهِ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

(٣٥٧) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٨٨).

فَقَالَ لَهُ أَبُو أَيُّوبَ: صَدَقْتَ، ثُمَّ انْصَرَفَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى رَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ فَمَا أَدْرَكَتْهُ جَائِزَةُ مَسْلَمَةَ بْنِ مَخْلَدٍ إِلَّا بِعَرِيشِ مِصْرَ (٣٥٨)

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ» ثُمَّ قَالَ عَامِرٌ: أَعْطَيْنَاكَهَا بِغَيْرِ شَيْءٍ، قَدْ كَانَ يُرْكَبُ فِيمَا دُونَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ (٣٥٩)

وهذا حبر الأمة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس " لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ "، فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَفْتَقِرُونَ إِلَيْكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْ فِيهِمْ،

قَالَ: «فَتَرَكْتُ ذَاكَ وَأَقْبَلْتُ أَسْأَلُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنْ كَانَ يَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِي بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ يَسْفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِن

---

(٣٥٨) حسن بشواهده: أخرجه الحميدي في «مسنده» برقم (٣٨٨) وفيه أبو سعد العمي لكن له شواهد.

(٣٥٩) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٩٧) من حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ومسلم برقم (١٦٦٦) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ.

التُّرَابِ فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي» فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا جَاءَ بِكَ؟ هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟، فَأَقُولُ: «لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ»، قَالَ: فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ،
فَعَاشَ هَذَا الرَّجُلُ الْأَنْصَارِيُّ حَتَّى رَآنِي وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلِي يَسْأَلُونِي، فَيَقُولُ: «هَذَا الْفَتَى كَانَ أَعْقَلَ مِنِّي».
قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَهُوَ أَصْلٌ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ وَتَوْقِيرِ الْمُحَدِّثِ» (٣٦٠)

وروى أحمد من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، " أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، رَحَلَ إِلَى فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه وَهُوَ بِمِصْرَ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَمُدُّ لِنَاقَةً لَهُ، فَقَالَ: مَرْحَبًا، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ آتِكَ زَائِرًا، وَلَكِنْ سَمِعْتُ أَنَا وَأَنْتَ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ. قَالَ: كَذَا وَكَذَا " (٣٦١)

(٣٦٠) صحيح: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٠٥٩٣) والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» برقم (٣٦٣) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ.
(٣٦١) صحيح: أخرجه أحمد برقم (٢٣٩٦٩) والدارمي برقم (٥٩١) ويزيد بن هارون سمع من الجريرى بعد الاختلاط لكنه متابع تابعه إسماعيل ابن عُلَيّة، أخرجه النسائي في "الكبرى" برقم (٩٢٦٨).

وقال عروة بن الزبير:

«لَقَدْ رَأَيْتَنِي قَبْلَ مَوْتِ عَائِشَةَ بِأَرْبَعِ حِجَجٍ وَأَنَا أَقُولُ: لَوْ مَاتَتِ الْيَوْمَ مَا نَدِمْتُ عَلَى حديثٍ عِنْدَهَا إِلا وَقَدْ وَعَيْتُهُ. وَلَقَدْ كَانَ يبلغني عَنِ الرَّجُلِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْحَدِيثُ فَآتِيهِ فَأَجِدُهُ قَدْ قَالَ، فَأَجْلِسُ عَلَى بَابِهِ فَأَسْأَلُهُ عَنْهُ يَعْنِي إِذَا خَرَجَ» (٣٦٢)

وعن سَعِيد بْن جُبَيْرٍ قَالَ:

«اخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ الْكُوفَةِ، فَرَحَلْتُ فِيهَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ (٣٦٣) هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ، وَمَا نَسَخَهَا شَيْءٌ» (٣٦٤)

وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي (ت٩٠هـ)

قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كُنَّا نَسْمَعُ الرِّوَايَةَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالْبَصْرَةِ، فَمَا نَرْضَى حَتَّى نَرْكَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَنَسْمَعَهَا مِنْ أَفْوَاهِهِمْ» (٣٦٥)

---

(٣٦٢) «تاريخ الإسلام ت بشار» (٢/ ١١٤٠).

(٣٦٣) [النساء: ٩٣].

(٣٦٤) صحيح: أخرجه البخارى برقم (٤٥٩٠).

(٣٦٥) «الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي» (ص٤٠٢).

وسعيد بن المسيب (ت قبل ٩٤هـ)
قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: إِنْ كُنْتُ لَأَسِيرُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ مَسِيرَةَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ (٣٦٦)

وقَالَ بسر بن عبيد الله الحضرمي (ت بعد ١٠٠هـ)
إِنْ كُنْتُ لأركب إِلَى الْمِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ فِي الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ لِأَسْمَعَهُ» (٣٦٧)

وقَالَ عامر بن شراحيل الشعبي أبو عمرو (ت بعد ١٠٠هـ)
فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ: إِنْ كَانَ الرَّاكِبُ لَيَرْكَبُ إِلَى الْمَدِينَةِ فِيمَا دُونَهُ (٣٦٨)

وقَالَ أبو قلابة الجَرْمي عبد الله بن زيد بن عمرو (١٠٤ هـ)
«أَقَمْتُ بِالْمَدِينَةِ مَا لِي بِهَا حَاجَةٌ إِلَّا رَجُلٌ عِنْدَهُ حَدِيثٌ وَاحِدٌ لِأَسْمَعَهُ مِنْهُ» (٣٦٩)

---

(٣٦٦) السابق.
(٣٦٧) «المعرفة والتاريخ - ت العمري - ط العراق» (٢/ ٣٨٦).
(٣٦٨) «الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي» (ص٤٠٢).
(٣٦٩) «المحدث الفاصل ت عجاج» (ص٢٢٣).

ومجاهد ابن جبر (ت١٠٤هـ)

«وَقَالَ الْأَعْمَشُ: كَانَ مُجَاهِدٌ لَا يَسْمَعُ بِأُعْجُوبَةٍ إِلَّا ذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ذَهَبَ إِلَى بِئْرِ بَرَهُوتَ بِحَضْرَمَوْتَ، وَذَهَبَ إِلَى بَابِلَ وَعَلَيْهَا وَالٍ صَدِيقٌ لِمُجَاهِدٍ،

فَقَالَ لَهُ مُجَاهِدٌ: تَعْرِضُ عَلَيَّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: يُشْتَرَطُ أَنْ لَا يُدْعُوَ اللَّهَ عِنْدَهُمَا،

قَالَ مُجَاهِدٌ: فَذَهَبَ بِي إِلَى قَلْعَةٍ فَقَطَعَ مِنْهَا حَجَرًا ثُمَّ قَالَ: خُذْ بِرِجْلِي فَهَوَى بِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى جَوْبَةٍ، فَإِذَا هُمَا مُعَلَّقَيْنِ مُنَكَّسَيْنِ كَالْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمَا قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ خَالِقُكُمَا، فَاضْطَرَبَا فَكَأَنَّ جِبَالَ الدُّنْيَا تَدَكْدَكَتْ، فَغُشِيَ عَلَيَّ وَعَلَى الْيَهُودِيِّ، ثُمَّ أَفَاقَ الْيَهُودِيُّ قَبْلِي فَقَالَ: قُمْ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ وَأَهْلَكْتَنِي» (٣٧٠)

والحسن بن أبي الحسن البصري (ت١١٠هـ)

وَرَحَلَ الْحَسَنُ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى الْكُوفَةِ فِي مَسْأَلَةٍ. (٣٧١)

وأبو معشر الكوفي زياد بن كليب الحنظلي (ت١٢٠هـ)

وعَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ، قَالَ قَالَ لِي أَبُو مَعْشَرٍ الْكُوفِيُّ " خَرَجْتُ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَيْكَ إِلَى الْبَصْرَةِ فِي حَدِيثٍ بَلَغَنِي عَنْكَ قَالَ: فَحَدَّثْتُهُ بِهِ "» (٣٧٢)

---

(٣٧٠) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٣/ ٢٨٨).

(٣٧١) «الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي» (ص٤٠٢).

(٣٧٢) «الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي» (ص١٤٨).

وأبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي (ت١٧٦هـ)

وعن عبد الله بن فروخ أنه قال: أتيت الكوفة وأكبر أملي السماع من سليمان بن مهران الأعمش، فسألت عنه، فقيل لي إنه غضب على أصحاب الحديث، فحلف أنه لا يسمعهم إلى وقت ذكروه.

قال: فكنت أختلف إلى داره طمعا أن أصل إليه، فلم أقدر على ذلك، فجلست يوما على بابه وأنا مفكّر في غربتي وما حرمته من السماع منه، إلى أن فتح الباب، فخرجت جارية، فقالت: «ما بالك على بابنا؟» فقلت: «أنا رجل غريب»، وأعلمتها بخبري، فقالت: «وأين بلدك؟»، فقلت: «إفريقية» فانشرحت لي وقالت: «أتعرف القيروان؟» قلت لها: «ومن أهلها أنا!» قالت: «لعلك تعرف دار ابن فروخ؟»، ثم تأملتني وقالت: «عبد الله؟» قلت: «نعم!» فإذا هي جارية كانت ببلادنا-أو قال من بلادنا، وأظنه قال: كنت رضيعا لها فأبعناها وهي صغيرة-فصارت إلى الأعمش، [وكانت لها دالة عليه، فدخلت عليه، فقالت له: «ابن مولاي، الذي كنت أخبرك بخبره، بالباب» فأمرها بإدخالي، وأسكنني في بيت قبالته، فكنت أسمع منه وحدي وقد حرم سائر الناس، إلى أن قضيت أربي منه» (٣٧٣)

والإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ)

قال الربيع بن سليمان:

سمعت الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة لا نبات بعارضي من الأبطح إلى ذي طوى وعلّي بردتان يمانيتان فرأيت

(٣٧٣) «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية» (١/ ١٨٠).

ركبا فسلمت عليهم فردوا علي السلام ووثب إلّي شيخ كان فيهم قال سألتك بالله إلا ما حضرت طعامنا قال الشافعي رضي الله عنه ما كنت أعلم أنهم أحضروا طعاما فأجبت مسرعا غير محتشم فرأيت القوم يأخذون الطعام بالخمس ويدفعون بالراحة فأخذت كأخذهم كي لا يستبشع عليهم مأكلي والشيخ ينظر إلي ثم أخذت السقاء فشربت وحمدت الله وأثنيت عليه فأقبل عليَّ الشيخ وقال أمكي أنت قلت مكي قال أقرشي أنت قلت قرشي ثم أقبلت عليه وقلت يا عم بم استدللت عليَّ قال أما في الحضر فبالزي وأما في النسب فبأكل الطعام لأنه من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه وذلك في قريش خصوصا قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت للشيخ من أين أنت قال من يثرب مدينة النبي ﷺ فقلت له من العالم بها والمتكلم في نص كتاب الله تعالى والمفتي بأخبار رسول الله ﷺ قال سيد بني أصبح مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال الشافعي رضي الله عنه فقلت واشوقاه إلى مالك فقال لي قد بل الله شوقك أنظر إلى هذا البعير الاورق فإنه أحسن جمالنا ونحن على رحيل ولك منا حسن الصحبة حتى تصل إلى مالك فما كان غير بعيد حتى قطروا بعضها وأركبوني البعير الاورق وأخذ القوم في السير وأخذت أنا في الدرس فختمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة بالليل ختمة وبالنهار ختمة ودخلت المدينة في اليوم الثامن بعد صلاة العصر فصليت العصر في مسجد رسول الله ﷺ ودنوت من القبر فسلمت على النبي ﷺ ولذت بقبره فرأيت مالك بن أنس متزرا ببردة متوشحا بأخرى قال حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر وضرب بيده إلى قبر رسول الله ﷺ قال شافعي رضي الله عنه فلما رأيت ذلك هبته مهابة عظيمة وجلست حيث انتهى بي المجلس فأخذت عودا من الأرض فجعلت

كلما أملى مالك حديثا كتبته بريقي على يدي والإمام مالك رضي الله عنه ينظر إلي من حيث لا أعلم حتى انقضى المجلس وانتظرني مالك أن أنصرف فلم يرني انصرفت فأشار إلي فدنوت منه فنظر إلي ساعة ثم قال أحرمي أنت قلت حرمي قال أمكي أنت قلت مكي قال أقرشي أنت قلت قرشي قال كملت أوصافك لكن فيك إساءة أدب قلت وما الذي رأيت من سوء أدبي قال رأيتك وأنا أملي ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام تلعب بريقك على يدك فقلت له عدمت البياض فكنت أكتب ما تقول فجذب مالك يدي إليه فقال ما أرى عليها شيئا فقلت إن الريق لا يثبت على اليد ولكن فهمت جميع ما حدثت به منذ جلست وحفظته إلى حين قطعت فتعجب الإمام مالك من ذلك فقال أعد عليَّ ولو حديثا واحدا.

قال الشافعي رضي الله عنه فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدي إلى القبر كإشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس» (٣٧٤)

والإمام أحمد (ت٢٤١هـ)

وقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَجَجْتُ خَمْسَ حِجَجٍ; مِنْهَا ثَلَاثٌ رَاجِلًا، أَنْفَقْتُ فِي إِحْدَى هَذِهِ الْحِجَجِ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا.

قَالَ: وَقَدْ ضَلَلْتُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْحِجَجِ، عَنِ الطَّرِيقِ وَأَنَا مَاشٍ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: يَا عِبَادَ اللَّهِ دُلُّونِي عَلَى الطَّرِيقِ، فَلَمْ أَزَلْ أَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى الطَّرِيقِ. قَالَ: وَخَرَجْتُ إِلَى الْكُوفَةِ فَكُنْتُ فِي بَيْتٍ تَحْتَ رَأْسِي لَبِنَةٌ، وَلَوْ كَانَ عِنْدِي خَمْسُونَ

(٣٧٤) «ثمرات الأوراق في المحاضرات» (١/ ٢٣٥).

دِرْهَمًا: كُنْتُ رَحَلْتُ إِلَى جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ إِلَى الرَّيِّ وَخَرَجَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا وَلَمْ يُمْكِنِّي الْخُرُوجُ: لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْءٌ» (٣٧٥)

وبقي بن مخلد بن يزيد الأندلسي (ت ٢٧٦ هـ)

«وَنَقَلَ بَعْضُ العُلَمَاءِ مِنْ كِتَابٍ لِحَفِيْدِ بَقِيٍّ؛ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَحْمَدَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ:

رَحَلَ أَبِي مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَغْدَادَ، وَكَانَ رَجُلاً بُغْيَتُهُ مُلَاقَاةُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ.

قَالَ: فَلَمَّا قَرُبْتُ بَلَغَتْنِي المِحْنَةُ، وَأَنَّهُ مَمْنُوْعٌ، فَاغْتَمَمْتُ غَمّاً شَدِيْداً، فَاحتَلْتُ بَغْدَادَ، وَاكتَرَيْتُ بَيْتاً فِي فُنْدُقٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ الجَامِعَ وَأَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَجْلِسَ إِلَى النَّاسِ، فَدُفِعْتُ إِلَى حَلْقَةٍ نَبِيْلَةٍ، فَإِذَا بِرَجُلٍ يَتَكَلَّمُ فِي الرِّجَالِ، فَقِيْلَ لِي: هَذَا يَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ.

فَفُرِجَتْ لِي فُرْجَةً، فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا زَكَرِيَّا: - رَحِمَكَ اللهُ - رَجُلٌ غَرِيْبٌ نَاءٍ عَنْ وَطَنِهِ، يُحِبُّ السُّؤَالَ، فَلَا تَسْتَجْفِنِي.

فَقَالَ: قُلْ.

فَسَأَلْتُ عَنْ بَعْضِ مَنْ لَقِيْتُهُ، فَبَعْضاً زَكَّى، وَبَعْضاً جَرَحَ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ هِشَامِ بنِ عَمَّارٍ.

فَقَالَ لِي: أَبُو الوَلِيْدِ، صَاحِبُ صَلَاةِ دِمَشْقَ، ثِقَةٌ، وَفَوْقَ الثِّقَةِ، لَوْ كَانَ تَحْتَ رِدَائِهِ كِبْرٌ، أَوْ مُتَقَلِّداً كِبْراً، مَا ضَرَّهُ شَيْئاً لِخَيْرِهِ وَفَضْلِهِ، فَصَاحَ أَصْحَابُ الحَلْقَةِ: يَكْفِيْكَ - رَحِمَكَ اللهُ - غَيْرُكَ لَهُ سُؤَالٌ.

---

(٣٧٥) «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٨٢ ت التركي).

فَقُلْتُ: وَأَنَا وَاقِفٌ عَلَى قَدَمٍ: اكشِفْ عَنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ: أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، فَنَظَرَ إِلَيَّ كَالمُتَعَجِّبِ، فَقَالَ لِي: وَمِثْلُنَا، نَحْنُ نَكْشِفُ عَنْ أَحْمَدَ؟! ذَاكَ إِمَامُ المُسْلِمِيْنَ، وَخَيْرُهُم وَفَاضِلُهُم.

فَخَرَجْتُ أَستَدِلُّ عَلَى مَنْزِلِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، فَدُلِلْتُ عَلَيْهِ، فَقَرَعْتُ بَابَهُ، فَخَرَجَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ:

يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ رَجُلٌ غَرِيْبٌ، نَائِي الدَّارِ، هَذَا أَوَّلُ دُخُوْلِي هَذَا البَلَدَ، وَأَنَا طَالِبُ حَدِيْثٍ، وَمُقَيِّدُ سُنَّةٍ، وَلَمْ تَكُنْ رِحْلَتِي إِلَاّ إِلَيْكَ.

فَقَالَ: ادْخُلِ الأَصطوَانَ وَلَا يَقَعُ عَلَيْكَ عَيْنٌ.

فَدَخَلْتُ، فَقَالَ لِي: وَأَيْنَ مَوْضِعُكَ؟

قُلْتُ: المَغْرِبُ الأَقْصَى.

فَقَالَ: إِفْرِيْقِيَّةَ؟

قُلْتُ: أَبْعَدُ مِنْ إِفْرِيْقِيَّةَ، أَجُوْزُ مِنْ بَلَدِي البَحرَ إِلَى إِفْرِيْقِيَّةَ، بَلَدِي الأَنْدَلُسَ.

قَالَ: إِنَّ مَوْضِعَكَ لَبَعِيْدٌ، وَمَا كَانَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُحْسِنَ عَوْنَ مِثْلِكَ، غَيْرَ أَنِّي مُمْتَحَنٌ بِمَا لَعَلَّهُ قَدْ بَلَغَكَ.

فَقُلْتُ: بَلَى، قَدْ بَلَغَنِي، وَهَذَا أَوَّلُ دُخُولِي، وَأَنَا مَجْهُوْلُ العَيْنِ عِنْدَكُم، فَإِنْ أَذِنْتَ لِي أَنْ آتِيَ كُلَّ يَوْمٍ فِي زِيِّ السُّؤَّالِ، فَأَقُولُ عِنْدَ البَابِ مَا يَقُوْلُهُ السُّؤَّالُ، فَتَخْرُجُ إِلَى هَذَا المَوْضِعِ، فَلَو لَمْ تُحَدِّثْنِي كُلَّ يَوْمٍ إِلَاّ بِحَدِيْثٍ وَاحِدٍ، لَكَانَ لِي فِيْهِ كِفَايَةً.

فَقَالَ لِي: نَعَمْ، عَلَى شَرْطِ أَنْ لَا تَظْهَرَ فِي الخَلْقِ، وَلَا عِنْدَ المُحَدِّثِيْنَ.

فَقُلْتُ: لَكَ شَرْطُكَ، فَكُنْتُ آخُذُ عَصاً بِيَدِي، وَأَلُفُّ رَأْسِي بِخِرْقَةٍ مُدَنَّسَةٍ، وَآتِي بَابَهُ فَأَصِيْحُ: الأَجْرَ - رَحِمَكَ اللهُ - وَالسُّؤَّالُ هُنَاكَ كَذَلِكَ، فَيَخْرُجُ إِلَيَّ، وَيُغْلِقُ

وَيُحَدِّثُنِي بِالحَدِيْثَيْنِ وَالثَّلاثَةِ وَالأَكْثَرِ، فَالْتَزَمْتُ ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ الْمُمْتَحِنُ لَهُ، وَوُلِّيَ بَعْدَهُ مَنْ كَانَ عَلَى مَذْهَبِ السُّنَّةِ، فَظَهَرَ أَحْمَدُ، وَعَلَتْ إِمَامَتُهُ، وَكَانَتْ تُضْرَبُ إِلَيْهِ آبَاطُ الإِبِلِ، فَكَانَ يَعْرِفُ لِي حَقَّ صَبْرِي، فَكُنْتُ إِذَا أَتَيْتُ حَلْقَتَهُ فَسَحَ لِي، وَيَقُصُّ عَلَى أَصْحَابِ الحَدِيْثِ قِصَّتِي مَعَهُ، فَكَانَ يُنَاوِلُنِي الحَدِيْثَ مُنَاوَلَةً وَيَقْرَؤُهُ عَلَيَّ، وَأَقْرَؤُهُ عَلَيْهِ» (٣٧٦)

وأَبو حاتم الرازي محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي (ت٢٧٧هـ)

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ حَرْمَلَةَ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ وَعَدَنِي أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيَّ مِصْرَ فَلَمْ يَقْدَمْ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ خِفَّةُ ذَاتِ الْيَدِ حَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَفَاءِ بِالْعِدَةِ.

وَقَدْ طَافَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي الْبِلَادِ وَالْآفَاقِ، وَسَمِعَ مِنْ مَشَايِخِ الْعَصْرِ، وَكَانُوا يُجِلُّونَهُ وَيَحْتَرِمُونَهُ فِي حَالِ سَمَاعِهِ مِنْهُمْ» (٣٧٧)

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم:

«سمعت أبي يقول: أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ: لم أزل أحصى حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته، ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر

(٣٧٦) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٣/ ٢٩٢) وأنكرها.
(٣٧٧) «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٨٢ ت التركي).

ماشيا ومن مصر إلى الرملة ماشيا ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان ومن الرملة إلى طبرية ومن طبرية إلى دمشق ومن دمشق إلى حمص ومن حمص إلى أنطاكية ومن أنطاكية إلى طرسوس ثم رجعت من طرسوس إلى حمص وكان بقي على شئ من حديث أبي اليمان فسمعت ثم خرجت من حمص إلى بيسان ومن بيسان إلى الرقة ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيا كل هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين، خرجت من الري سنة ثلاث عشرة ومائتين قدمنا الكوفة في شهر رمضان سنة ثلاث عشرة والمقرئ حي بمكة وجاءنا نعيه ونحن بالكوفة ورجعت سنة إحدى وعشرين ومائتين، وخرجت المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين ورجعت سنة خمس وأربعين أقمت ثلاث سنين وقدمت طرسوس سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة وكان واليها الحسن بن مصعب وكنت انظر إلى الحسن كأنه محدث أحمر الرأس واللحية عليه قلنسوة حبرة وكنت أشبهه بسنيد بن داود وربما رأيت الوالي فأظن أنه سنيد وربما اجتمعا فلا أميز بينهما وفي هذه السنة فتحت لؤلؤة وأنا بطرسوس» (٣٧٨)

وقال محمد بن يزيد العطار سمعت يعقوب بن سفيان يقول:

كنت في رحلتي فقلّت نفقتي، فكنت أدمن الكتابة ليلا وأقرأ نهارا، فلما كان ذات ليلة كنت جالسا أنسخ في السراج، وكان شتاء، فنزل الماء في عيني فلم أبصر شيئا، فبكيت على نفسي لانقطاعي عن بلدي وعلى ما فاتني من العلم، فغلبتني

(٣٧٨) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (١/ ٣٥٩).

عيناي فنمت، فرأيت النبي ﷺ في النوم فناداني: يا يعقوب لم أنت بكيت؟ فقلت: يا رسول الله ذهب بصري فتحسرت على ما فاتني. فقال لي: أدن مني، فدنوت منه فأمرّ يده على عيني كأنه يقرأ عليهما، ثم استيقظت فأبصرت فأخذت نسخي وقعدت أكتب» (٣٧٩)

وقال مُوسَى بْن دَاوُد:

أَفْلَسَ الْهَيْثَمُ بْنُ جَمِيلٍ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ مَرَّتَيْنِ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ، تَحَوَّلَ فَنَزَلَ أَنْطَاكِيَّةَ حَتَّى مَاتَ بِهَا، وَكَانَ ثِقَةً» (٣٨٠)

وقال عُبَيد اللَّه بْن شريح:

وكان مُحَمَّد بْن سلام من كبار المحدثين، وله حديث كثير، ورحلة، وذكر في الحديث، وله مصنفات في كل باب من العلم» (٣٨١)

---

(٣٧٩) «المعرفة والتاريخ - ت العمري - ط العراق» (١/ ١٢).

(٣٨٠) «الطبقات الكبرى ط دار صادر» (٧/ ٤٩٠).

(٣٨١) «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» (٢٥/ ٣٤٣).

وخيثمة الأطرابلسي (ت٣٤٣هـ)

يقول خيثمة: ركبت البحر وقصدت جبله لأسمع من يوسف بن بحر، ثم خرجت إلى أنطاكية فلقينا مركب فقاتلناهم ثم تسلّم مركبنا قوم من مقدمه فأخذونى ثم ضربونى وكتبوا أسمأنا.

فقالوا: ما اسمك؟ قلت: خيثمة،

فقال: اكتب حمار بن حمار، ولما ضربت سكرت ونمت فرأيت كأني أنظر إلى الجنة وعلى بابها جماعة من الحور العين. فقالت إحداهن: يا شمتى ايش فاتك؟

قالت: أخرى: ايش فاته؟ قالت: لو قتل كان فى الجنة مع الحور.

فقالت لها: لأن يرزقه الله الشهادة فى عز الإسلام وذل من الشرك خير له. ثم انتبهت. قال: ورأيت كأن من يقول لى اقرأ براءة.

فقرأت إلى قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ (٣٨٢) قال: فعددت من ليلة الرؤيا أربعة أشهر ففك الله أسرى» (٣٨٣)

وأبو المظفَّر السَّمْعَاني (ت٤٨٩هـ)

«كَانَ يَقُوْلُ: أَسَرونَا، فَكُنْتُ أَرْعَى جِمَالَهُم، فَاتَّفَقَ أَنَّ أَمِيْرَهُم أَرَادَ أَنْ يُزَوِّج بِنْته، فَقَالُوا: نَحتَاجُ أَن نَرحلَ إِلَى الحَضَر لأَجْل مَنْ يَعْقِدُ لَنَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَّا: هَذَا الَّذِي

(٣٨٢) [التوبة: ٢].

(٢٨٣) «تذكرة الحفاظ للذهبي» (٣/ ٥٢).

يَرْعَى جِمَالَكُم فَقِيْهُ خُرَاسَان، فَسَأَلوني عَنْ أَشيَاءَ، فَأَجبتُهم، وَكلمتُهم بِالعَرَبِيَّة، فَخَجِلُوا وَاعتَذَرُوا، فَعقدتُ لَهُم العَقْدَ، وَقُلْتُ الخُطبَةَ، فَفَرِحُوا، وَسَأَلوني أَنْ أَقْبَلَ مِنْهُم شَيْئاً، فَامتنعتُ، فَحملوني إِلَى مَكَّةَ وَسَط العَام.

قَالَ عَبْدُ الغَافِرِ فِي "تَارِيْخِه": هُوَ وَحِيدُ عصره فِي وَقته فَضْلاً وَطَرِيقَةً، وَزُهْداً وَوَرِعاً، مِنْ بَيْتِ العِلْمِ وَالزُّهْدِ، تَفَقَّهَ بِأَبِيْهِ، وَصَارَ مِنْ فُحُوْلِ أَهْلِ النَّظَرِ، وَأَخَذَ يُطَالِعُ كتبَ الحَدِيْثِ، وَحَجَّ وَرَجَعَ، وَترك طَرِيقَتَه الَّتِي نَاظَرَ عَلَيْهَا ثَلاَثِيْنَ سَنَةً، وَتَحَوَّلَ شَافعِيّاً، وَأَظْهَرَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثمَانٍ وَسِتِّيْنَ، فَاضْطَرَبَ أَهْلُ مَرْو، وَتَشَوَّشَ العَوَامُّ، حَتَّى وَردت الكُتُب مِنَ الأَمِيْرِ بِبَلْخَ، فِي شَأْنه وَالتَّشدِيْدِ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ مِنْ مَرْو، وَرَافقه ذُو المَجْدَيْنِ أَبُو القَاسِمِ المُوسَوِي، وَطَائِفَةٌ مِنَ الأَصْحَاب وَفِي خدمته عِدَّةٌ مِنَ الفُقَهَاء، فَصَارَ إِلَى طُوْس، وَقَصَدَ نَيْسَابُوْرَ، فَاستقبله الأَصْحَابُ اسْتِقبالاً عَظِيْماً أَيَّامَ نِظَامِ المُلْك، وَعَمِيد الحضرَة أبي سعد، فأكرموه، وأنزل في عزٍّ وَحِشْمَة، وَعُقِدَ لَهُ مَجْلِسُ التَّذكير فِي مَدرسَةِ الشَّافعيَّة، وَكَانَ بَحْراً فِي الوعظ، حَافِظاً، فَظَهَرَ لَهُ القَبُولُ، وَاسْتَحكَمَ أَمرُه فِي مَذْهَب الشَّافعِيّ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَرْو، وَدَرَّس بِهَا فِي مَدرسَةِ الشَّافعيَة، وَقَدَّمه النِّظَام عَلَى أَقرَانِه، وَظَهر لَهُ الأَصْحَابُ، وَخَرَجَ إِلَى أَصْبَهَانَ، وَهُوَ فِي ارْتِقَاء» (٣٨٤)

(٣٨٤) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٩/ ١٥٥).

وقال أَبو المُظَفَّر السَّمْعَانِيّ:

كُنْتُ فِي الطَّوَاف، فوصلتُ إِلَى المُلْتَزَم، وَإِذَا بِرَجُل قَدْ أَخَذَ بردَائِي، فَإِذَا الإِمَامُ سَعْدٌ، فَتبسَّمتُ، فَقَالَ: أَمَّا تَرَى أَيْنَ أَنْتَ؟! هَذَا مقَامُ الأَنْبِيَاء وَالأَوليَاء، ثُمَّ رفع طَرْفَه إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ كَمَا سُقْتَهُ إِلَى أَعزّ مَكَان، فَأَعْطِهِ أَشْرَف عِزّ فِي كُلّ مَكَان وَزَمَان، ثُمَّ ضَحِكَ إِلَيَّ، وَقَالَ: لَا تُخَالِفْنِي فِي سِرّك، وَارفَعْ يَديك مَعِي إِلَى رَبّك، وَلَا تَقُولَنَّ البَتَّةَ شَيْئاً، وَاجمعْ لِي هِمَّتَك حَتَّى أَدعُوَ لَكَ، وَأَمِّنْ أَنْتَ، وَلَا يُخَالِفْنِي عَهدُكَ القَدِيمُ، فَبَكَيْتُ، وَرفعتُ مَعَهُ يَدَيَّ، وَحرَّك شَفَتَيْه، وَأَمَّنتُ، ثُمَّ قَالَ: مُرَّ فِي حِفْظِ الله، فَقَدْ أُجيبَ فِيك صَالِحُ دُعَاءِ الأُمَّة» (٣٨٥)

وَقَالَ يُوسُفُ بنُ أَحْمَدَ الشِّيْرَازِيُّ (ت٥٨٥هـ) فِي "أَرْبَعِيْنَ البُلْدَانِ" لَهُ:

لَمَّا رَحَلْتُ إِلَى شَيْخنَا رحلَةَ الدُّنْيَا وَمُسْنِدِ العصرِ أَبِي الوَقْت، قَدَّرَ اللهُ لِي الوُصُولَ إِلَيْهِ فِي آخِرِ بِلَادِ كِرْمَانَ، فَسَلَّمتُ عَلَيْهِ، وَقَبَّلتُهُ، وَجلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَقَالَ لِي: مَا أَقدَمَكَ هَذِهِ البِلَادَ.

قُلْتُ: كَانَ قَصدِي إِلَيْكَ، وَمُعَوَّلِي بَعْدَ اللهِ عَلَيْكَ، وَقَدْ كَتَبتُ مَا وَقَعَ إِلَيَّ مِنْ حَدِيْثِكَ بِقَلَمِي، وَسَعَيْتُ إِلَيْكَ بِقَدَمِي، لأُدْرِكَ بَرَكَةَ أَنْفَاسِكَ، وَأَحظَى بِعُلُوِّ إِسْنَادِكَ.

فَقَالَ: وَفَّقَكَ اللهُ وَإِيَّانَا لِمَرضَاتِه، وَجَعَلَ سَعْيَنَا لَهُ، وَقَصْدَنَا إِلَيْهِ، لَوْ كُنْتَ عَرَفْتَنِي حقَّ مَعْرِفَتِي لَمَّا سلَّمْتَ عَلَيَّ، وَلَا جلَسْتَ بَيْنَ يَدَيَّ.

ثُمَّ بَكَى بُكَاءً طَوِيلاً، وَأَبْكَى مَنْ حضَرَهُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اسْتُرْنَا بِسَتْرِكَ الجَمِيْلِ، وَاجعَلْ تَحْتَ السَّتْرِ مَا تَرضَى بِهِ عَنَّا، يَا وَلَدِي تَعْلَمُ أَنِّي رَحَلْتُ أَيْضاً لِسَمَاعِ الصَّحِيْحِ

(٣٨٥) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٩/ ١١٨).

مَاشِياً مَعَ وَالِدِي مِنْ هَرَاةَ إِلَى الدَّاوُوْدِيِّ بِبوشَنْجَ، وَلِي دُوْنَ عشرِ سِنِيْنَ، فَكَانَ وَالِدِي يَضعُ عَلَى يَدَيَّ حَجَرَيْنِ وَيَقُوْلُ: احْمِلْهُمَا.

فَكُنْتُ مِنْ خوفِهِ أَحْفَظهُمَا بِيَدَيَّ، وَأَمْشِي وهُوَ يَتَأَمَّلُنِي، فَإِذَا رَآنِي قَدْ عَيِيْتُ، أَمرنِي

أَنْ أُلْقِيَ حجراً وَاحِداً، فَأُلْقِي، وَيَخِفُّ عَنِّي، فَأَمْشِي إِلَى أَنْ يَتبيَّنَ لَهُ تَعَبِي، فَيَقُوْلُ لِي:

هَلْ عَيِيْتَ؟ فَأَخَافُهُ وَأَقُوْلُ: لَا.

فَيَقُوْلُ: لِمَ تُقَصِّرُ فِي المَشْيِ؟

فَأُسْرِعُ بَيْنَ يَدَيْهِ سَاعَةً، ثُمَّ أَعجَزُ، فَيَأْخذُ الآخرَ فَيُلْقِيهِ، فَأَمْشِي حَتَّى أَعْطَبَ، فَحِيْنَئِذٍ كَانَ يَأْخُذُنِي وَيَحْمِلُنِي.

وَكُنَّا نَلْتَقِي جَمَاعَةَ الفَلَاّحِينَ، وَغَيْرَهُم، فَيَقُوْلُوْنَ: يَا شَيْخ عِيْسَى، ادْفَعْ إِلَيْنَا هَذَا الطِّفْلَ نُرْكِبْه وَإِيَّاكَ إِلَى بُوشَنْج.

فَيَقُوْلُ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَركَبَ فِي طَلَبِ أَحَادِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَلْ نَمْشِي، وَإِذَا عجزَ أَركبتُهُ عَلَى رَأْسِي إِجلَالاً لِحَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ، وَرَجَاءَ ثوَابِه.

فَكَانَ ثَمَرَةَ ذَلكَ مِنْ حُسْنِ نِيَّتِه أَنِّي انتفعتُ بِسَمَاعِ هَذَا الكِتَابِ وَغَيْرِه، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَقرَانِي أَحَدٌ سِوَايَ، حَتَّى صَارَتِ الوُفُوْدُ تَرْحَلُ إِلَيَّ مِنَ الأَمصَارِ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى صَاحِبِنَا عَبْدِ البَاقِي بنِ عَبْدِ الجَبَّارِ الهَرَوِيِّ أَنْ يُقَدِّمَ لِي حَلْوَاء.

فَقُلْتُ: يَا سيِّدِي، قِرَاءتِي لِـ (جزءِ أَبِي الجَهْمِ) أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الحلوَاء.

فَتبسَّمَ، وَقَالَ: إِذَا دَخَلَ الطَّعَامُ، خَرَجَ الكَلَامُ.

وَقَدَّمَ لَنَا صَحْناً فِيهِ حَلواء الفَانِيْد، فَأَكَلْنَا، وَأَخْرَجتُ الجُزْءَ، وَسَأَلتُهُ إِحضَارَ الأَصْلِ، فَأَحضرَهُ، وَقَالَ: لَا تَخفْ وَلَا تَحرِص، فَإِنِّي قَدْ قَبِرْتُ مِمَّنْ سَمِعَ عَلَيَّ خَلْقاً كَثِيْراً، فَسَلِ اللهَ السَّلَامَةَ.

فَقَرَأْت الجُزْءَ، وَسُرِرْتُ بِهِ، وَيَسَّرَ اللهُ سَمَاعَ (الصَّحِيْح) وَغَيْرِهِ مِرَاراً، وَلَمْ أَزَلْ فِي صُحْبَتِهِ وَخِدْمَتِهِ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ بِبَغْدَادَ» (٣٨٦)

وشعبة بن الحجاج

قال نَصْر بْن حَمَّاد الْوَرَّاق: كُنَّا قُعُودًا عَلَى بَاب شُعْبَةَ نَتَذَاكَرُ، فَقُلْتُ: ثنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَطَاءٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: كُنَّا نَتَنَاوَبُ رَعِيَّةَ الْإِبِلِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّبِيُّ حَوْلَهُ أَصْحَابُهُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ» فَقُلْتُ: بَخٍ بَخٍ، فَجَذَبَنِي رَجُلٌ مِنْ خَلْفِي، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: الَّذِي قَبْلُ أَحْسَنُ، فَقُلْتُ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: قَالَ: مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قِيلَ لَهُ ادْخُلْ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ " قَالَ: فَخَرَجَ شُعْبَةُ، فَلَطَمَنِي ثُمَّ رَجَعَ، فَدَخَلَ فَتَنَحَّيْتُ مِنْ نَاحِيَةٍ، قَالَ ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: مَالَهُ يَبْكِي بَعْدُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ: إِنَّكَ أَسَأْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ شُعْبَةُ: انْظُرْ مَا تُحَدِّثُ إِنَّ أَبَا إِسْحَاقَ حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَطَاءٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: فَقُلْتُ لِأَبِي إِسْحَاقَ مِنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَطَاءٍ؟ قَالَ: فَغَضِبَ، وَمِسْعَرُ بْنُ كِدَامٍ حَاضِرٌ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: لَتُصَحِّحَنَّ لِي هَذَا أَوْ لَأُخَرِّقَنَّ مَا كَتَبْتُ عَنْكَ، فَقَالَ لِي مِسْعَرٌ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَطَاءٍ بِمَكَّةَ، قَالَ

(٣٨٦) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٢٠/ ٣٠٧).

شُعْبَةُ، فَرَحَلْتُ إِلَى مَكَّةَ، لَمْ أُرِدِ الْحَجَّ أَرَدْتُ الْحَدِيثَ، فَلَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَطَاءٍ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: سَعْدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ حَدَّثَنِي ، فَقَالَ لِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: سَعْدٌ بِالْمَدِينَةِ لَمْ يَحُجَّ الْعَامَ، قَالَ شُعْبَةُ: فَرَحَلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَقِيتُ سَعْدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ، فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: الْحَدِيثُ مِنْ عِنْدِكُمْ، زِيَادُ بْنُ مِخْرَاقٍ حَدَّثَنِي، قَالَ شُعْبَةُ: فَلَمَّا ذَكَرَ زِيَادًا، قُلْتُ: أَيُّ شَيْءٍ هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَمَا هُوَ كُوفِيٌّ إِذْ صَارَ مَدَنِيًّا إِذْ صَارَ بَصْرِيًّا، قَالَ: فَرَحَلْتُ إِلَى الْبَصْرَةِ، فَلَقِيتُ زِيَادَ بْنَ مِخْرَاقٍ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: لَيْسَ هُوَ مِنْ بَابَتِكَ، قُلْتُ: حَدِّثْنِي بِهِ، قَالَ: لَا تُرَدُّهُ، قُلْتُ: حَدِّثْنِي بِهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، عَنْ أَبِي رَيْحَانَةَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ شُعْبَةُ: فَلَمَّا ذَكَرَ شَهْرَ بْنَ حَوْشَبٍ، قُلْتُ: دَمَّرَ عَلَيَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَوْ صَحَّ لِي مِثْلُ هَذَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (٣٨٧)

وحكَى الحَافِظُ أَحْمَدُ بنُ مَنْصُورٍ الشِّيرَازِيُّ:

أَنَّهُ سَمِعَ مُحَمَّدَ بنَ أَحْمَدَ الصَّحَّافَ، قَالَ:

سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَكْرِيَّ يَقُوْلُ: جَمَعَت الرِّحلَةُ بِمِصْرَ بَيْنَ مُحَمَّدِ بنِ جَرِيْرٍ، وَابْنِ خُزَيْمَةَ، وَمُحَمَّدِ بنِ نَصْرٍ، وَمُحَمَّدِ بنِ هَارُوْنَ الرُّوْيَانِيِّ، فَأَرْمَلُوا، وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُم قُوْتٌ، وَجَاعُوا، فَاجْتَمَعُوا فِي بَيْتٍ، وَاقْتَرَعُوا عَلَى أَنَّ مَنْ خَرَجَتْ عَلَيْهِ القُرعَةُ يَسْأَلُ لَهُم، قَالَ: فَخَرَجَتْ عَلَى ابْنِ خُزَيْمَةَ. فَقَالَ: أَمْهِلُوْنِي حَتَّى أُصَلِّيَ.

وَقَامَ، فَإِذَا هُمْ بِشَمْعَةٍ وَخَصِيٍّ مِنْ قِبَلِ أَمِيْرِ مِصْرَ، فَفَتَحُوا لَهُ، فَقَالَ: أَيُّكُم مُحَمَّدُ بنُ نَصْرٍ؟ فَقِيْلَ: هَذَا.

---

(٣٨٧) «الرحلة في طلب الحديث» (ص١٤٨).

فَأَخْرَجَ صُرَّةً فِيهَا خَمْسُونَ دِينَاراً، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُم مُحَمَّدُ بنُ جَرِيرٍ؟
قَالُوا: هَذَا.
فَأَعطَاهُ مِثلَهَا، ثُمَّ أَعطَى كَذَلكَ لابْنِ خُزَيْمَةَ وَالرُّوياَنِيّ، ثُمَّ حَدَّثهُم أَنَّ الأَمِيْرَ كَانَ قَائلاً بِالأَمسِ، فَرَأَى فِي نَومِهِ أَنَّ المَحَامِدَ جِيَاعٌ قَدْ طَوَوْا، فَأَنفَذَ إِلَيْكُم هَذِهِ الصُّرَرَ، وَأَقسَمَ عَلَيْكُم: إِذَا نَفَدَتْ أَنْ تُعَرِّفُونِي» (٣٨٨)

وقال ابن عدي:
سَمِعْتُ عَبد اللَّهِ بْنَ مُحَمد بْنَ عَبد الْعَزِيزِ يَقُولُ:
سَمِعتُ أبا بكر بن زنجويه يقول:
قدمت مصر فاتيت أحمد بن صالح فسألني: من أين أنت؟ قلت: من بغداد، قال: أين منزلك من منزل أحمد بن حنبل؟ قلت: أنا من أصحابه قال: تكتب لي موضع منزلك فإني أريد أن أوافي العراق حتى تجمع بيني وبين أحمد بن حنبل، فكتب له، فوافى أحمد بن صالح سنة اثني عشرة إلى عفان، فسأل عني فلقيني قال: الموعد الذي بيني وبينك، فذهبت به إلى أحمد بن حنبل واستأذنت له فقلت: أحمد بن صالح بالباب فقال: ابن الطبري؟ قلتُ: نَعَم، فأذن له، فقام إليه ورحب به وقربه وقال له: بلغني عنك أنك جمعت حديث الزُّهْريّ، فتعال حتى نذكر ما روى الزُّهْريّ عن أصحاب رَسُول اللَّه ﷺ فجعلا يتذاكران، ولَا يغرب أحدهما على الآخر حتى فرغا، وما رأيت أحسن من مذاكرتهما، ثم قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح: تعال حتى نذكر ما روى الزُّهْريّ عن أولاد أصحاب رَسُول اللَّه ﷺ فجعلا يتذكران، ولَا يغرب

(٣٨٨) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٤/ ٥٠٨).

أحدهما على الآخر إلى أن قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح: عِنْدَكَ عن الزُّهْرِيّ، عَنْ مُحَمد بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبد الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ، وَأَنَّ لِي حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ؟

فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ لأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: أَنْتَ الأُسْتَاذُ، وَتَذْكُرُ مِثْلَ هَذَا؟ فَجَعَلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَبْتَسِمُ وَيَقُولُ: رَوَاهُ عنِ الزُّهْرِيّ رَجُلٌ مَقْبُولٌ، أَوْ صَالِحٌ: عَبد الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: مَنْ رَوَاهُ عَنْ عَبد الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ؟ فَقَالَ: حدثناه رجلان ثقتان: إسماعيل بن عُلَيَّةَ وَبِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ، فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ لأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ إِلا أَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ، فَقَالَ أَحْمَدُ: مِنَ الْكِتَابِ، فَقَامَ فَدَخَلَ وَأَخْرَجَ الْكِتَابَ وَأَمْلاهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ: لَوْ لَمْ أَسْتَفِدْ بِالْعِرَاقِ إِلا هَذَا الْحَدِيثَ كَانَ كَثِيرًا، ثُمَّ وَدَّعَهُ وَخَرَجَ» (٣٨٩)

وقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ:

" ذَاكَرَنِي زَيْدُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالَ: قَدْ أَقَمْتَ بِمِصْرَ أَخَفَّ أَبَوَاكَ؟ فَقُلْتُ: أَمَّا الأُمُّ فَنَعَمْ وَقَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَحُجَّ الْعَامَ وَأَخْرُجَ إِلَيْهَا فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَتُقِيمُ إِلَى إِبَّانِ الْحَجِّ ثُمَّ تَحُجُّ وَتَخْرُجُ إِلَيْهَا وَمَا يُؤْمِنُكَ أَنْ تَمُوتَ فَتَبْقَى غُصَّةً فِي نَفْسِكَ؟ ثُمَّ قَالَ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ تَرْضَى لِنَفْسِكَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ تَغِيبُ عَنْ أُمِّكَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَقُلْتُ: إِنَّهَا رَاضِيَةٌ بِغَيْبَتِي عَنْهَا فَقَالَ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ فَإِنَّ أَصْحَابَنَا كَانُوا إِذَا طَعَنُوا فِي السِّنِّ لَحِقُوا بِالرِّبَاطِ بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَفَضُوا الْفُسْطَاطَ قَالَ: فَأَخْبَرَنِي أَبُو عُمَرَ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى

(٣٨٩) «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ٢٩٧).

الْحَوْلَانِيُّ وَكُنَّا نَقُولُ: إِنَّهُ مِنَ الْأَبْدَالِ بَلْ كَانَ كَذَلِكَ قَالَ: لَمَّا طَعَنَ أَبِي فِي السِّنِّ لَحِقَ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ لِلرِّبَاطِ فَأَقَامَ بِهَا وَرَفَضَ الْفُسْطَاطَ قَالَ: وَكَانَتْ أُمِّي حَيَّةً فَإِذَا كَانَ أَيَّامُ الرِّبَاطِ اسْتَأْذَنَتْهَا فَتَأْذَنُ لِي فَأَخْرَجَ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَأُرَابِطُ بِهَا الشَّهْرَ أَوِ الْأَكْثَرَ ثُمَّ أَقْدُمُ عَلَيْهَا فَمَاتَ أَبِي فَلَمَّا كَانَ أَيَّامُ الرِّبَاطِ اسْتَأْذَنْتُهَا فِي الرِّبَاطِ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ أُخْبِرُكَ بِحَالِي وَأَنْتَ أَمِيرُ نَفْسِكَ وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ مَا خَرَجْتُ قَطُّ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ إِلَّا وَقَلْبِي مُعَلَّقٌ بِيَدِي حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيَّ فَقُلْتُ: يَا أُمَّهْ فَمَا لَكِ لَمْ تُخْبِرِينِي بِهَذَا؟ حَتَّى كُنْتُ لَا أَخْرُجُ قَالَتْ: يَا بُنَيَّ كَانَ أَبُوكَ حَيًّا وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ لَهُ عَلَيْكَ حَقًّا وَبِرًّا فَكُنْتُ أَرَى وَأَوْجِبُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَصْبِرَ لِمَا يَجِبُ لِأَبِيكَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ وَالْبِرِّ فَلَمَّا أَنْ مَاتَ أَبُوكَ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى الرِّبَاطِ عَلَى مَا أَعْلَمْتُكَ فَاخْرُجْ قَالَ: فَقُلْتُ: «مُعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَخْرُجَ عَلَى مَا تَصِفِينَ وَلَوْ عَلِمْتُ مِنْ قَبْلُ الْحَالَ مَا كُنْتُ لِأَخْرُجَ فَتَرَكْتُ الرِّبَاطَ حَتَّى مَاتَتْ أُمِّي» (٣٩٠)

وقَالَ ابْنُ أَبِي كَامِلٍ: سَمِعْتُ خَيْثَمَةَ بنَ سُلَيْمَانَ يَقُوْلُ:

رَكِبْتُ البَحْرَ، وَقَصَدْتُ جَبَلَةَ لأَسمع مَنْ يُوْسُف بنِ بَحْر، ثُمَّ خَرَجت إِلَى أَنْطَاكِيَة، فَلقِينَا مَرْكَبٌ - يَعْنِي: لِلْعَدو -.

قَالَ: فَقَاتلنَاهُم، ثُمَّ سَلَّم مَرْكَبَنَا قَوْمٌ مِنْ مقدَّمه قَالَ: فَأَخذونِي، ثُمَّ ضربونِي، وَكَتَبُوا أَسمَاءنَا، فَقَالُوا: مَا اسْمُكَ؟

قُلْتُ: خَيْثَمَة.

فَقَالُوا: اكتبْ حمَار بن حمَار.

(٣٩٠) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٢٩).

وَلَمَّا ضُربت سَكِرْتُ وَنِمْتُ، فرأَيْتُ كَأَنِّيْ أَنظرُ إِلَى الجَنَّة، وَعَلَى بَابِهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الحُور الْعين.

فَقَالَتْ إِحدَاهنَّ: يَا شقِي، أَيشٍ فَاتَك؟

فَقَالَتْ أُخْرَى: أَيشٍ فَاته؟

قَالَتْ: لَوْ قُتِلَ لكَانَ فِي الجَنَّة مَعَ الْحور.

قَالَتْ لَهَا: لأَنْ يَرزُقه اللهُ الشَّهَادَة فِي عزٍّ مِنَ الإِسْلَام وَذلٍّ مِنَ الشِّرْك خَيْرٌ لَهُ.

ثُمَّ انتبهتُ قَالَ: وَرَأَيْتُ كَأَنَّ مَنْ يَقُوْلُ لِي: اقرأْ برَاءة فَقَرَأْت إِلَى ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ (٣٩١)

قَالَ: فَعَددت مِنْ لَيْلَة الرُّؤيَا أَرْبَعَة أَشهر فَفَكَّ اللهُ أَسرِي» (٣٩٢)

وقال الزّهري:

نشأتُ وأنا غلام، لا مال لي مُقطعًا من الديوان، وكنت أتعلم نَسَب قومى من عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر العدوىّ، وكان عالمًا بنسب قومى وهو ابن أختهم وحليفهم، فأتاه رجل فسأله عن مسألة من الطلاق فَعَيِي بها وأشار له إلى سعيد بن المُسَيّب، فقلت في نفسي: ألا أرانى مج هذا الرجل المُسِنّ يعقل أن رسول الله، ﷺ مسح على رأسه وهو لا يدري ما هذا! فانطلقت مع السائل إلى سعيد بن المسيّب

(٣٩١) [التوبة: ٢].

(٣٩٢) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٥/ ٤١٣).

فسأله فأخبره، فجلست إلى سعيد وتركت عبد الله بن ثعلبة، وجالست عُروة بن الزُّبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام حتى فَقِهت.

فرحلت إلى الشام فدخلت مسجد دمشق في السحر فأَمَّمت حلقة وِجاه المقصورة عظيمةً، فجلست فيها، فنسبني القوم، فقلت: رجل من قريش، من ساكني المدينة، قالوا: هل لك علم بالحكم في أمهات الأولاد؟ فأخبرتهم بقول عمر بن الخطّاب في أمهات الأولاد. فقال لي القوم: هذا مجلس قَبِيصَة بن ذُؤيب. وهو جائيك، وقد سأله عبد الملك عن هذا، وسألنا فلم يجد عندنا في ذلك علمًا فجاء قبيصة فأخبروه الخبر، فنسبني فانتسبت، وسألني عن سعيد بن المسيّب ونظرائه فأخبرته. قال: فقال: أنا أُدْخِلُك على أمير المؤمنين، فصلى الصبح، ثم انصرف فتبعته، فدخل على عبد الملك بن مروان، وجلستُ على الباب ساعة حتى ارتفعت الشمس، ثم خرج فقال: أين هذا المديني القرشي؟ قال: قلت: هأنذا، قال: فقمت فدخلت معه على أمير المؤمنين، قال: فأجد بين يديه المصحف قد أطبقه وأمر به يُرفع وليس عنده غير قَبيصة جالس فسلمت عليه بالخلافة. فقال: من أنت؟ قلت: محمد بن مسلم بن عُبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زُهرة. فقال: أوَّه، قوم نَعَّارُون في الفتن.

قال: وكان مسلم بن عُبيد الله مع ابن الزُّبَيْر، ثم قال: ما عندك في أمهات الأولاد؟ فأخبرته. فقلت حدّثني سعيد بن المسيّب، فقال: كيف سعيد وكيف حاله؟ فأخبرته. ثم قلت: وحدّثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فسأل عنه،

قلت: وحدّثني عُروة بن الزُّبَيْر، فسأل عنه. قلت: وحدّثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، فسأل عنه. ثم حدّثته الحديث في أمهات الأولاد عن عمر بن الخطّاب.

قال: فالتفتَ إلى قَبِيصَةَ بن ذُؤَيب، فقال: هذا يُكتب به إلى الآفاق.

قال: فقلت لا أجده أخلى منه الساعة ولعلّي لا أدخل بعد هذه المرة، فقلتُ: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يَصِلَ رحمي، وأن يفرض لي فرائض أهل بيتي - فإني رجل مُقطع لا ديوان لي فعل. فقال: إِيهًا الآن! امض لشأنك.

قال: فخرجتُ والله مؤيسًا من كل شيء خرجتُ له، وأَنا والله حينئذٍ مُقلٌّ مُرْمِلٌ، فجلست حتى خرَج قَبيصة فأقبل عليَّ لائمًا لي فقال: ما حملكَ على ما صنعتَ من غير أمري ألا استشرتني؟ قلتُ: ظننتُ والله ألا أعود إليه بعد ذلك المقام، قال: ولِمَ ظننتَ ذاك؟ تعود إليه، فالحق بي، أو قال ائتني في المنزل. قال: فمشيتُ خَلف دابته والناس يكلّمونه حتى دخَل منزله، فقلّما لبث حتى خرج إليَّ خادم برقعةٍ فيها: هذه مائة دينار قد أمرتُ لك بها وبَغلة تركبها، وغلام يكون معك يخدمك وعشرة أثواب كسوة.

قال: فقلت للرسول ممن أطلب هذا؟ فقال: ألا ترى في الرقعة اسم الذي أمرك أن تأتيه؟ قال: فنظرت في طرف الرقعة فإذا فيها تأتي فلانًا فتأخذ ذلك منه قال: فسألت عنه، فقيل: ها هو ذا، هو قَهْرَمَانِه، فأتيته بالرقعة فقال: نعم فأمر لي بذلك من ساعته فانصرفت وقد رَيَّشني وجبرني.

قال: فغدوت إليه من الغد وأنا على بغلته، وسرجها فسرت إلى جانبه فقال: احضر بابَ أمير المؤمنين حتى أوصلك إليه قال: فحضرتُ للوقت الذي وعدني له فأوصلني إليه وقال: إياك أن تكلمه بشيء حتى يبتدئك وأنا أكفيك أَمْرَه. قال:

فسلمت عليه بالخلافة فأومأ إليَّ أن اجْلِسْ، فلما جلستُ ابتدأ عبد الملك الكلام، فجعل يسائلني عن أنساب قريش وهو كان أعلم بها مني، قال: وجعلت أتمنى أن يقطع ذلك لتقدمه عليَّ في العلم بالنسب، قال: ثم قال لي: فرضت لك فرائض أهل بيتك، ثم التفت إلى قبيصة فأمره أن يثبت ذلك في الديوان، ثم قال: أين تحب أن يكون ديوانك مع أمير المؤمنين ها هنا؟ أم تأخذه ببلدك؟ قال قلت: يا أمير المؤمنين إنا معك، فإذا أخذتَ الديوان أنت وأهلُ بيتك أخذته قال: فأمر بإثباتي وبنسخة كتابي أن يوقع بالمدينة، فإذا خرج الديوان لأهل المدينة قَبَضَ عبدُ الملك بن مروان وأهلُ بيته ديوانَهم بالشأم.

قال الزهريّ: ففعلت أنا مثل ذلك، وربما أخذته بالمدينة لا أصد عنه.

قال: ثم خرج قَبيصة بعد ذلك، فقال إن أمير المؤمنين قد أمر أن نُثبت في صحابته، وأن يُجرى عليك رزق الصحابة، وأن ترفع فريضتك إلى أرفع منها، فالزم باب أمير المؤمنين قال: وكان على عرض الصحابة رجل فظّ غليظ يعرض عرضًا شديدًا، قال: فتخلفت يومًا أو يومين، فَجَبَهَنِي جبهًا شديدًا فلم أعد لذلك التخلف، وكرهت أن أقول لقبيصة شيئًا في أول ذلك، ولزمت عسكر عبد الملك، وكنت أدخل عليه كثيرًا.

قال: وجعل عبد الملك فيما يسائلني يقول: مَن لقيتَ؟ فجعلت أسمي له وأخبره بمن لقيت من قريش لا أعدوهم، فقال عبد الملك: فأين أنت عن الأنصار؟ فإنك واجد عندهم علمًا. أين أنت عن ابن سَيِّدِهم خارجة بن زيد بن ثابت، أين أنت عن عبد الرحمن بن يزيد بن جارية.

قال: فسمَّى رجالًا منهم، قال: فقدمت المدينة فسألتهم وسمعتُ منهم - يعني الأنصار - وجدتُ عندهم علمًا كثيرًا.

قال: وتوفى عبد الملك بن مروان، فلزمت الوليد بن عبد الملك حتى توفى، ثم سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، فاستقضى يزيد بن عبد الملك على قضائه الزُّهْرى، وسليمان بن حبيب المحاربى جميعًا.

قال: ثم لَزمتُ هشام بن عبد الملك، قال: وحج هشام سنة ست ومائة وحج معه الزُّهْرى، فصيَّره هشام مع ولده يعلِّمهم ويفقِّههم ويحدّثهم ويحجّ معهم فلم يفارقهم حتى مات بالمدينة» (٣٩٣)

وَدَخَلَ سُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ

فَقَالَ: يَا سُلَيْمَانُ، مَنِ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم؟

قَالَ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ ابْنِ سَلُوْلٍ.

قَالَ: كَذَبتَ، هُوَ عَلِيٌّ.

فَدَخَلَ ابْنُ شِهَابٍ، فَسَأَلَهُ هِشَامٌ، فَقَالَ: هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ.

قَالَ: كَذَبتَ، هُوَ عَلِيٌّ.

فَقَالَ: أَنَا أَكْذِبُ لَا أَبَا لَكَ! فَوَاللهِ لَوْ نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ أَحَلَّ الكَذِبَ، مَا كَذَبتُ، حَدَّثَنِي سَعِيْدٌ، وَعُرْوَةُ، وَعُبَيْدٌ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ، عَنْ عَائِشَةَ:

أَنَّ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، قَالَ: فَلَمْ يَزَلِ القَوْمُ يُغْرُوْنَ بِهِ.

---

(٣٩٣) «الطبقات الكبير» (٧/ ٤٢٩ ط الخانجي).

فَقَالَ لَهُ هِشَامٌ: ارْحَلْ، فَوَاللهِ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَحمِلَ عَلَى مِثْلِكَ.

قَالَ: وَلِمَ؟ أَنَا اغْتَصَبتُكَ عَلَى نَفْسِي، أَوْ أَنْتَ اغْتَصَبْتَنِي عَلَى نَفْسِي؟ فَخَلِّ عَنِّي.

فَقَالَ لَهُ: لَا، وَلَكِنَّكَ اسْتَدَنْتَ أَلْفَيْ أَلْفٍ.

فَقَالَ: قَدْ عَلِمتَ وَأَبُوكَ قَبْلَكَ أَنِّي مَا اسْتَدَنْتُ هَذَا المَالَ عَلَيْكَ وَلَا عَلَى أَبِيْكَ.

فَقَالَ هِشَامٌ: إِنَّا أَنْ نُهيِّجَ الشَّيْخَ. فَأَمَرَ فَقَضَى عَنْهُ أَلْفَ أَلْفٍ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَذَا هو مِنْ عِنْدِه.

قَالَ عَمِّي: وَنَزَلَ ابْنُ شِهَابٍ بِمَاءٍ مِنَ المِيَاهِ، فَالتَمَسَ سلفاً، فَلَمْ يَجِدْ، فَأَمَرَ بِرَاحِلَتِه فَنُحِرَتْ، وَدَعَا إِلَيْهَا أَهْلَ المَاءِ، فَمَرَّ بِهِ عَمُّه، فَدَعَاهُ إِلَى الغَدَاءِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ مُرُوْءَةَ سَنَةٍ تَذهبُ بِذُلِّ الوَجْهِ سَاعَةً.

قَالَ: يَا عَمِّ، انْزِلْ فَاطْعَمْ، وَإِلَاّ فَامضِ رَاشِداً.

وَنَزَلَ مَرَّةً بِمَاءٍ، فَشَكَا إِلَيْهِ أَهْلُ المَاءِ: أَنَّ لَنَا ثَمَانِيَ عَشْرَةَ امْرَأَةً عُمَرِيَّةً، أَيْ: لَهُنَّ أَعمَارٌ لَيْسَ لَهُنَّ خَادِمٌ.

فَاسْتَسْلَفَ ابْنُ شِهَابٍ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلفاً، وَأَخْدَمَ كُلَّ وَاحِدَةٍ خَادِماً بِأَلْفٍ.

قَالَ سَعِيْدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ: قَضَى هِشَامٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ سَبْعَةَ آلَافِ دِيْنَارٍ، وَقَالَ: لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا، تُدَّانُ.

فَقَالَ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ، حَدَّثَنِي سَعِيْدُ بْنُ المُسَيِّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ (لَا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ

وقال يُوْنُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُوْلُ:

مرَّ رَجُلٌ تَاجِرٌ بِالزُّهْرِيِّ وَهُوَ بِقَرْيَتِه، وَالرَّجُلُ يُرِيْدُ الحَجَّ، فَأَخَذَ منْهُ بِأَرْبَعِ مائَةِ دِيْنَارٍ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ مِنْ حَجِّه، فَلَمْ يَبرَحِ الزُّهْرِيُّ حَتَّى فَرَّقَه، فَعَرَفَ الزُّهْرِيُّ فِي وَجْهِ التَّاجِرِ الكَرَاهِيَةَ.

فَلَمَّا رَجَعَ، قَضَاهُ، وَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِيْنَ دِيْنَاراً يُنْفِقُهَا.

عَلِيُّ بنُ حُجْرٍ: حَدَّثَنَا الوَلِيْدُ المُوَقَّرِيُّ، قَالَ:

قِيْلَ لِلزُّهْرِيِّ: إِنَّهُم يَعِيبُوْنَ عَلَيْكَ كَثْرَةَ الدَّيْنِ.

قَالَ: وَكَمْ دَيْنِي؟

قِيْلَ: عِشْرُوْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ.

قَالَ: لَيْسَ كَثِيْراً وَأَنَا مَلِيءٌ، لِي خَمْسَةُ أَعْيُنٍ، كُلُّ عَيْنٍ مِنْهَا ثَمَنُ أَرْبَعِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ» (٣٩٤)

وقال ابن السَّاعي:

كانت رِحْلَةُ ابن النَّجَّار سبعًا وعشرين سنة، واشتملت مشيخَتُه على ثلاثةِ آلاف شيخ، وألَّف كتاب "القمر المنير في المُسْند الكبير" ذكر كلَّ صحابيٍّ وما له من الحديث، وكتاب "كَنْز الإمام في السُّنَن والأَحْكام"، وكتاب "المختلف والمُؤْتلف" ذيَّل به على ابن ماكُولا، وكتاب "المتفق والمفترق"، وكتاب "أنساب المحدِّثين إلى الآباء والبُلْدان"، وكتاب "العوالي" له، وكتاب "المُعْجم"، وكتاب "جَنَّة الناظرين في مَعْرفة التَّابعين"، وكتاب "العِقْد الفائق"، وكتاب "الكَمَال في الرِّجال"، وقرأتُ عليه ذيل التَّاريخ، عَمِلَه في ستة عشر مجلَّدًا، وله كتاب "الدُّرر الثمينة في أخبار المدينة"، وكتاب

(٣٩٤) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٥/ ٣٣٩).

"رَوْضة الأولياء في مسجد إيلياء"، وكتاب "نزهة الورى في ذكر أُم القُرَى"، وكتاب "الأزهار في أنواع الأشعار"، وكتاب "عيون الفوائد" ستة أسفار، وكتاب "مناقب الشَّافعي" إلى أن قال: أوصى إلي، ووقف كتبه بالنِّظَامية، فنفَّذ إلي الشرابيُّ مئة دينار لتجهيز جِنَازته، ورثاه جماعة، وكان رحمه الله من محاسن الدُّنيا » (٣٩٥)

وَقَال صالح بْن مُحَمَّدُ:

ذُكِرَ لي أَنَّ يَحْيَى بْن معين خَلَّف من الكتب لَمَّا مات ثلاثين قِمطراً، وعشرين حبا، وطلب يَحْيَى بْن أكثم كتبه بمائتي دينار، فلم يدع أَبُو خيثمة أن تُبَاع» (٣٩٦)

وقال الخطيب:

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله البخاري الإمام في علم الحديث صاحب الجامع الصحيح والتاريخ، رحل في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان، والجبال، ومدن العراق كلها، وبالحجاز، والشام، ومصر» (٣٩٧)

(٣٩٥) «طبقات علماء الحديث» (٤/ ٢١٣).

(٣٩٦) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٦/ ٢٦٣):

(٣٩٧) «تاريخ بغداد ت بشار» (٢/ ٣٢٢).

وقال ابنُ الحاجب:

قال الفُرَاوي: قَدِمَ ابنُ عساكر، فقرأ عليَّ ثلاثة أيام، فأكثر وأَضْجرني، وآليت على نفسي أن أُغلِقَ بابي، فلما أصْبحنا قَدِمَ على شخصٌ فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك. قلت: مَرْحبًا بك، فقال: قال لي في النَّوْم: امضِ إلى الفُرَاوي وقُلْ له: قَدِمَ بلدكم رجلٌ شَامِيٌّ، أسمَرُ اللَّوْن، يطلبُ حديثي فلا تَمَلّ منه. قال القَزْويني: فوالله ما كان الفرَاوي يقوم حتَّى يقومَ الحافظ» (٣٩٨)

وقَالَ: القاضي أبو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي بن محمد البزاز الأنصاري:

كنتُ مجاورا بمكة - حرسها الله تعالى - فأصابني يوماً من الأيام جوع شديد لم أجد شيئا أدفع به عني الجوع، فوجدتُ كيسا من إبريسم مشدودا بشرابة من إبريسم أيضا فأخذته وجئت به إلى بيتي، فحللته فوجدتُ فيه عقدًا من لؤلؤ لم أرَ مثله، فخرجتُ فإذا الشيخ ينادي عليه، ومعَه خرقة فيها خمسمائة دينار وهو يقول: هذا لمن يَرد علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ، فقلت: أنا محتاج، وأنا جائع، فآخذ هذا الذهب فأنتفع به، وأرد عليه الكيس، فقُلت له: تعالى إلي، فأخذته وجئت به إلى بيتي، فأعطاني علامة الكيس، وعلامة الشرابة، وعلامة اللؤلؤ وعَدَدَه، والخيط الذي هو مَشدُود به، فأخرجته ودَفعته إليه. فسلم إليّ خمسمائة دينار، فما أخذتها، وقلت: يجب علي أن أعيده إليك ولا آخذ له جزاء، فقال لي: لا بد أن تأخذ.

ألح عليَّ كثيرا، فلم أقبل ذلك منه، فتركني ومضى.

---

(٣٩٨) «طبقات علماء الحديث» (٤/ ١٠٨).

وأما ما كان مني: فإني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر، فانكسر المركب وغرق الناس، وهلكت أموالهم، وسلمتُ أنا على قطعة من المركب، فبقيت مُدّةً في البحر لا أدري أين أذهب، فوصَلت إلى جزيرة فيها قوم، فقعَدتُ في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إلي.

وقال: علمني القرآن. فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال.

قال: ثم إني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقا من مصحف، فأخذتها أقرأ فيها فقالوا لي:

تحسن تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علمنا الخط، فجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب، فكنتُ أعلمهم، فحصل لي أيضا من ذلك شيء كثير

فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صبيَّةً يتيمة، ولها شيء من الدُنيا نريد أن تتزوج بها، فامتنعتُ، فقالوا: لا بل، وألزموني، فأجبتهم إلى ذلك.

فلما زفوها إليَّ مددتُ عيني أنظر إليها، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقا في عنقها، فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه.

فقالوا: يا شيخ، كسرتَ قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد، ولم تنظر إليها، فقصصتُ عليهم قصة العقد فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة،

فقلتُ: ما بكم. فقالوا: ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد. أَبُو هذه الصبية،

وكان يقول: ما وجدتُ في الدنيا مسلما إلا هذا الذي رد عليَّ هذا العقد، وكان يدعو ويقول:

اللهم أجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي، والآن قد حصلت، فبقيتُ معها مدة ورزقتُ منها بولدين.

ثم إنها ماتت فورثت العقد أنا وولداي،

ثم مات الولدان فحصل العقد لي فبعته بمائة ألف دينار.

وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال» (٣٩٩)

وقال ابن الجزرى في ترجمة محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده:

إمام كبير، جال الأقطار وانتهى إليه علم الحديث بالأمصار، لا نعلم أحدا رحل كرحلته ولا كتب ككتابته،

فإنه بقي في الرحلة أربعين سنة وكتب بخطه فيها عدة أحمال ثم عاد إلى وطنه شيخا.

وقد كتب عن ألف وسبعمائة شيخ ومعه أربعون حملا من الكتب» (٤٠٠)

وقال عنه الذهبي:

«وَلَمْ أَعلم أَحداً كَانَ أَوسعَ رِحلةً مِنْهُ، وَلَا أَكْثَر حَدِيْثاً مِنْهُ مَعَ الحِفْظ وَالثِّقَة» (٤٠١)

---

(٣٩٩) ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٤٤٣ ت العثيمين)

(٤٠٠) «غاية النهاية في طبقات القراء» (٢/ ٩٨).

(٤٠١) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٧/ ٣٠).

وقَالَ الْحَسَن:

" رَحَلْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى الْكُوفَةِ فَقُلْتُ: مَا كَانَ فِدَاؤُكَ حِينَ أَصَابَكَ الْأَذَى؟ قَالَ: شَاةً» (٤٠٢)

وقال ابن عبد الهادي في ترجمة أبي طاهرٍ السِّلَفِيّ:

«وبقي في الرِّحْلة بضعِ عشرة سنة، وسمع ما لا يُوصف كَثْرَةً، ونسَخَه بخَطِّه، وكان متقنًا، ضابطًا، ناقِدًا» (٤٠٣)

وقال السبكي في ترجمة ابن النجَّار محمد بن محمود بن الحسين بن هبة الله:

«قَالَ ابْن السَّاعِي كَانَت رحلته سبعا وَعشْرين سنة واشتملت مشيخته على ثَلَاثَة آلَاف شيخ» (٤٠٤)

وقال عياض في ترجمة عبد الملك بن العاصي بن محمد بن بكر السعدي

«وكانت إقامته في رحلته بضعة عشر عاماً. وأدخل الأندلس علماً كثيراً» (٤٠٥)

---

(٤٠٢) «الرحلة في طلب الحديث» (ص١٤٣).

(٤٠٣) «طبقات علماء الحديث» (٤/ ٧٣).

(٤٠٤) «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ٩٩).

(٤٠٥) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ١٤٥).

وقال ابن كثير في ترجمة عبد القادر بن عبد الله بن عبد الرحمن الرُّهَاوِيُّ:

هو الْحَافِظُ الْكَبِيرُ الْمُحَدِّثُ الْمُخَرِّجُ الْمُفِيدُ الْمُحَرِّرُ الْمُتْقِنُ الْبَارِعُ الْمُصَنِّفُ الْمُفِيدُ، كَانَ مَوْلًى لِبَعْضِ الْمَوَاصِلَةِ، وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحَرَّانِيِّينَ اشْتَغَلَ بِدَارِ الْحَدِيثِ بِالْمَوْصِلِ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى حَرَّانَ وَقَدْ رَحَلَ إِلَى بُلْدَانٍ شَتَّى، وَسَمِعَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَشَايِخِ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَأَقَامَ بِحَرَّانَ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ بِهَا» (٤٠٦)

(٤٠٦) «البداية والنهاية ت التركي» (١٧/ ٤٧).

ومن فوائد الرحلة في الطلب:

١- تحصيل العلم.

٢- والعمل به.

٣- ونشره.

٤- واتساع المدارك بالاختلاط بالغير، ومعرفة ما لديهم من حكم ونوادر.

المبحث السادس:

التحلي بالأدب.

٦-التحلي بالأدب.

وقد عرف الحافظ ابن حجر الأدب فقال:

«الْأَخْذُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ» (٤٠٧)

وقال ابن القيم:

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ (٤٠٨)

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ:

أَدِّبُوهُمْ وَعَلِّمُوهُمْ» وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مُؤْذِنَةٌ بِالِاجْتِمَاعِ. فَالْأَدَبُ: اجْتِمَاعُ خِصَالِ الْخَيْرِ فِي الْعَبْدِ، وَمِنْهُ الْمَأْدُبَةُ. وَهِيَ الطَّعَامُ الَّذِي يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ النَّاسُ .... وَالْأَدَبُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: أَدَبٌ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَأَدَبٌ مَعَ رَسُولِهِ ﷺ وَشَرْعِهِ. وَأَدَبٌ مَعَ خُلُقِهِ.

فَالْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: صِيَانَةُ مُعَامَلَتِهِ أَنْ يَشُوبَهَا بِنَقِيصَةٍ.

الثَّانِي: صِيَانَةُ قَلْبِهِ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ.

الثَّالِثُ: صِيَانَةُ إِرَادَتِهِ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَا يَمْقُتُكَ عَلَيْهِ.

---

(٤٠٧) «فتح الباري» (١٠/ ٤٠٠).

(٤٠٨) [التحريم: ٦].

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاقُ: الْعَبْدُ يَصِلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَصِلُ بِأَدَبِهِ فِي طَاعَتِهِ إِلَى اللَّهِ.

وَقَالَ: رَأَيْتُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ فِي الصَّلَاةِ إِلَى أَنْفِهِ فَقَبَضَ عَلَى يَدِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: الْأَدَبُ الْوُقُوفُ مَعَ الْمُسْتَحْسَنَاتِ. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا مَعْنَاهُ؟ فَقَالَ: أَنْ تُعَامِلَهُ سُبْحَانَهُ بِالْأَدَبِ سِرًّا وَعَلَنًا. ثُمَّ أَنْشَدَ:

إِذَا نَطَقَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلَاحَةٍ ... وَإِنْ سَكَتَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلِيحِ

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: مَنْ صَاحَبَ الْمُلُوكَ بِغَيْرِ أَدَبٍ أَسْلَمَهُ الْجَهْلُ إِلَى الْقَتْلِ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: إِذَا تَرَكَ الْعَارِفُ أَدَبَهُ مَعَ مَعْرُوفِهِ، فَقَدْ هَلَكَ مَعَ الْهَالِكِينَ.

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: تَرْكُ الْأَدَبِ يُوجِبُ الطَّرْدَ. فَمَنْ أَسَاءَ الْأَدَبَ عَلَى الْبِسَاطِ رُدَّ إِلَى الْبَابِ. وَمَنْ أَسَاءَ الْأَدَبَ عَلَى الْبَابِ رُدَّ إِلَى سِيَاسَةِ الدَّوَابِّ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: مَنْ تَأَدَّبَ بِأَدَبِ اللَّهِ صَارَ مِنْ أَهْلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ.

وَقَالَ ابْنُ مُبَارَكٍ: نَحْنُ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ.

وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَنْفَعِ الْأَدَبِ؟ فَقَالَ: التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ. وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا لِلَّهِ عَلَيْكَ.

وَقَالَ سَهْلٌ: الْقَوْمُ اسْتَعَانُوا بِاللَّهِ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ. وَصَبَرُوا لِلَّهِ عَلَى آدَابِ اللَّهِ وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: طَلَبْنَا الْأَدَبَ حِينَ فَاتَنَا الْمُؤَدَّبُونَ.

وَقَالَ: الْأَدَبُ لِلْعَارِفِ كَالتَّوْبَةِ لِلْمُسْتَأْنِفِ.

وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ - لَمَّا قَالَ لَهُ الْجُنَيْدُ: لَقَدْ أَدَّبْتَ أَصْحَابَكَ أَدَبَ السَّلَاطِينِ - فَقَالَ: حُسْنُ الْأَدَبِ فِي الظَّاهِرِ عُنْوَانُ حُسْنِ الْأَدَبِ فِي الْبَاطِنِ. فَالْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ حُسْنُ

الصُّحْبَةِ مَعَهُ، وَبِإِيقَاعِ الْحَرَكَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ عَلَى مُقْتَضَى التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالْحَيَاءِ. كَحَالِ مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمُصَاحِبِهِمْ.

وَقَالَ أَبُو نَصْرٍ السَّرَّاجُ: النَّاسُ فِي الْأَدَبِ عَلَى ثَلَاثِ طَبَقَاتٍ.

أَمَّا أَهْلُ الدُّنْيَا: فَأَكْبَرُ آدَابِهِمْ: فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ. وَحِفْظِ الْعُلُومِ، وَأَسْمَارِ الْمُلُوكِ، وَأَشْعَارِ الْعَرَبِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الدِّينِ: فَأَكْبَرُ آدَابِهِمْ: فِي طَهَارَةِ الْقُلُوبِ، وَمُرَاعَاةِ الْأَسْرَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَحِفْظِ الْوَقْتِ، وَقِلَّةِ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْخَوَاطِرِ، وَحُسْنِ الْأَدَبِ، فِي مَوَاقِفِ الطَّلَبِ، وَأَوْقَاتِ الْحُضُورِ، وَمَقَامَاتِ الْقُرْبِ.

وَقَالَ سَهْلٌ: مَنْ قَهَرَ نَفْسَهُ بِالْأَدَبِ فَهُوَ يَعْبُدُ اللَّهَ بِالْإِخْلَاصِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: قَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ الْقَوْلَ فِي الْأَدَبِ وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهُ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ وَرُعُونَاتِهَا، وَتَجَنُّبُ تِلْكَ الرُّعُونَاتِ.

وَقَالَ الشِّبْلِيُّ: الِانْبِسَاطُ بِالْقَوْلِ مَعَ الْحَقِّ تَرْكُ الْأَدَبِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: مَنْ أَلْزَمْتُهُ الْقِيَامَ مَعَ أَسْمَائِي وَصِفَاتِي أَلْزَمْتُهُ الْأَدَبَ وَمَنْ كَشَفْتُ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ ذَاتِي أَلْزَمْتُهُ الْعَطَبَ فَاخْتَرِ الْأَدَبَ أَوِ الْعَطَبَ.

وَيَشْهَدُ لِهَذَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا كَشَفَ لِلْجَبَلِ عَنْ ذَاتِهِ سَاخَ الْجَبَلُ وَتَدَكْدَكَ وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَى عَظَمَةِ الذَّاتِ وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ: إِذَا صَحَّتِ الْمَحَبَّةُ تَأَكَّدَتْ عَلَى الْمُحِبِّ مُلَازَمَةُ الْأَدَبِ.

وَقَالَ النُّورِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ لَمْ يَتَأَدَّبْ لِلْوَقْتِ فَوَقْتُهُ مَقْتٌ.

وَقَالَ ذُو النُّونِ: إِذَا خَرَجَ الْمُرِيدُ عَنِ اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ: فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ.

وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ مَعَ اللَّهِ، وَخِطَابَهُمْ وَسُؤَالَهُمْ. كَيْفَ تَجِدُهَا كُلَّهَا مَشْحُونَةً بِالْأَدَبِ قَائِمَةً بِهِ؟

وقَالَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ (٤٠٩)

وَلَمْ يَقُلْ: لَمْ أَقُلْهُ. وَفَرْقٌ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ فِي حَقِيقَةِ الْأَدَبِ. ثُمَّ أَحَالَ الْأَمْرَ عَلَى عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِالْحَالِ وَسِرِّهِ. فَقَالَ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ (٤١٠)

ثُمَّ بَرَّأَ نَفْسَهُ عَنْ عِلْمِهِ بِغَيْبِ رَبِّهِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ ر ثُمَّ أَثْنَى عَلَى رَبِّهِ. وَوَصَفَهُ بِتَفَرُّدِهِ بِعِلْمِ الْغُيُوبِ كُلِّهَا. فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ (٤١١)

ثُمَّ نَفَى أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُمْ غَيْرَ مَا أَمَرَهُ رَبُّهُ بِهِ - وَهُوَ مَحْضُ التَّوْحِيدِ - فَقَالَ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ (٤١٢)

---

(٤٠٩) [المائدة: ١١٦].
(٤١٠) [المائدة: ١١٦].
(٤١١) [المائدة: ١١٦].
(٤١٢) [المائدة: ١١٧].

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ شَهَادَتِهِ عَلَيْهِمْ مُدَّةَ مُقَامِهِ فِيهِمْ. وَأَنَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَا اطِّلَاعَ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بَعْدَ الْوَفَاةِ بِالِاطِّلَاعِ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (٤١٣)

ثُمَّ وَصَفَهُ بِأَنَّ شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ شَهَادَةٍ وَأَعَمُّ. فَقَالَ: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ (٤١٤)

وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ. أَيْ شَأْنُ السَّيِّدِ رَحْمَةُ عَبِيدِهِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ. وَهَؤُلَاءِ عَبِيدُكَ لَيْسُوا عَبِيدًا لِغَيْرِكَ. فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ - مَعَ كَوْنِهِمْ عَبِيدَكَ - فَلَوْلَا أَنَّهُمْ عَبِيدُ سُوءٍ مِنْ أَبْخَسِ الْعَبِيدِ، وَأَعْتَاهُمْ عَلَى سَيِّدِهِمْ، وَأَعْصَاهُمْ لَهُ - لَمْ تُعَذِّبْهُمْ. لِأَنَّ قُرْبَةَ الْعُبُودِيَّةَ تَسْتَدْعِي إِحْسَانَ السَّيِّدِ إِلَى عَبْدِهِ وَرَحْمَتَهُ. فَلِمَاذَا يُعَذِّبُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَأَعْظَمُ الْمُحْسِنِينَ إِحْسَانًا عَبِيدَهُ؟ لَوْلَا فَرْطُ عُتُوِّهِمْ، وَإِبَائِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِ، وَكَمَالُ اسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ أَيْ هُمْ عِبَادُكَ. وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهِمْ وَعَلَانِيَتِهِمْ. فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ: عَذَّبْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْكَ بِمَا تُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ. فَهُمْ عِبَادُكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا جَنَوْهُ وَاكْتَسَبُوهُ. فَلَيْسَ فِي هَذَا اسْتِعْطَافٌ لَهُمْ، كَمَا يَظُنُّهُ الْجُهَّالُ. وَلَا تَفْوِيضٌ إِلَى مَحْضِ الْمَشِيئَةِ وَالْمُلْكِ الْمُجَرَّدِ عَنِ الْحِكْمَةِ، كَمَا تَظُنُّهُ الْقَدَرِيَّةُ.

وَإِنَّمَا هُوَ إِقْرَارٌ وَاعْتِرَافٌ وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ بِحَالِهِمْ، وَاسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ.

---

(٤١٣) [المائدة: ١١٧].

(٤١٤) [المائدة: ١١٨].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ (٤١٥)
وَلَمْ يَقُلِ: الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى.
فَإِنَّهُ قَالَهُ فِي وَقْتِ غَضَبِ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ، وَالْأَمْرِ بِهِمْ إِلَى النَّارِ.
فَلَيْسَ هُوَ مَقَامَ اسْتِعْطَافٍ وَلَا شَفَاعَةٍ. بَلْ مَقَامُ بَرَاءَةٍ مِنْهُمْ.
فَلَوْ قَالَ: فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لَأَشْعَرَ بِاسْتِعْطَافِهِ رَبَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ الَّذِينَ قَدِ اشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَيْهِمْ.
فَالْمَقَامُ مَقَامُ مُوَافَقَةٍ لِلرَّبِّ فِي غَضَبِهِ عَلَى مَنْ غَضِبَ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ. فَعَدَلَ عَنْ ذِكْرِ الصِّفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُسْأَلُ بِهِمَا عَطْفُهُ وَرَحْمَتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ إِلَى ذِكْرِ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ، الْمُتَضَمِّنَتَيْنِ لِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَكَمَالِ الْعِلْمِ.
وَالْمَعْنَى: إِنْ غَفَرْتَ لَهُمْ فَمَغْفِرَتُكَ تَكُونُ عَنْ كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ. لَيْسَتْ عَنْ عَجْزٍ عَنِ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ، وَلَا عَنْ خَفَاءٍ عَلَيْكَ بِمِقْدَارِ جَرَائِمِهِمْ، وَهَذَا لِأَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَغْفِرُ لِغَيْرِهِ لِعَجْزِهِ عَنِ الِانْتِقَامِ مِنْهُ. وَلِجَهْلِهِ بِمِقْدَارِ إِسَاءَتِهِ إِلَيْهِ. وَالْكَمَالُ: هُوَ مَغْفِرَةُ الْقَادِرِ الْعَالِمِ.
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَكَانَ ذِكْرُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَيْنَ الْأَدَبِ فِي الْخِطَابِ.
وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ حَمَلَةُ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ: اثْنَانِ يَقُولَانِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ. لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ. وَاثْنَانِ يَقُولَانِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ. لَكَ

(٤١٥) [المائدة: ١١٨].

الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ. وَلِهَذَا يَقْتَرِنُ كُلٌّ مِنْ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بِالْأُخْرَى. كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (٤١٦) وَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ (٤١٧)

وَكَذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ (٤١٨)

وَلَمْ يَقُلْ: وَإِذَا أَمْرَضَنِي. حِفْظًا لِلْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّفِينَةِ ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ (٤١٩)

وَلَمْ يَقُلْ: فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ أَعِيبَهَا. وَقَالَ فِي الْغُلَامَيْنِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ (٤٢٠)

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مُؤْمِنِي الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (٤٢١)

وَلَمْ يَقُولُوا: أَرَادَهُ بِهِمْ. ثُمَّ قَالُوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ (٤٢٢)

---

(٤١٦) [النساء: ١٢].

(٤١٧) [النساء: ١٤٩].

(٤١٨) [الشعراء: ٧٨-٨٠].

(٤١٩) [الكهف: ٧٩].

(٤٢٠) [الكهف: ٨٢].

(٤٢١) [الجن: ١٠].

(٤٢٢) [الجن: ١٠].

وَأَلْطَفُ مِنْ هَذَا قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (٤٢٣)

وَلَمْ يَقُلْ: أَطْعِمْنِي.

وَقَوْلُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (٤٢٤)

وَلَمْ يَقُلْ: رَبِّ قَدَرْتَ عَلَيَّ وَقَضَيْتَ عَلَيَّ.

وَقَوْلُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (٤٢٥)

وَلَمْ يَقُلْ: فَعَافِنِي وَاشْفِنِي.

وَقَوْلُ يُوسُفَ لِأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ (٤٢٦)

---

(٤٢٣) [القصص: ٢٤].

(٤٢٤) [الأعراف: ٢٣].

(٤٢٥) [الأنبياء: ٨٣].

(٤٢٦) [يوسف: ١٠٠].

وَلَمْ يَقُلْ: أَخْرَجَنِي مِنَ الْجُبِّ، حِفْظًا لِلْأَدَبِ مَعَ إِخْوَتِهِ. وَتَفَتِّيًا عَلَيْهِمْ: أَنْ لَا يُخْجِلَهُمْ بِمَا جَرَى فِي الْجُبِّ. وَقَالَ ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ (٤٢٧) وَلَمْ يَقُلْ: رَفَعَ عَنْكُمْ جُهْدَ الْجُوعِ وَالْحَاجَةَ. أَدَبًا مَعَهُمْ.

وَأَضَافَ مَا جَرَى إِلَى السَّبَبِ. وَلَمْ يُضِفْهُ إِلَى الْمُبَاشِرِ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْهُ. فَقَالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ (٤٢٨)

فَأَعْطَى الْفُتُوَّةَ وَالْكَرَمَ وَالْأَدَبَ حَقَّهُ. وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ كَمَالُ هَذَا الْخُلُقِ إِلَّا لِلرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.

وَمِنْ هَذَا أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ الرَّجُلَ: أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَتَهُ، وَإِنْ كَانَ خَالِيًا لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، أَدَبًا مَعَ اللَّهِ، عَلَى حَسَبِ الْقُرْبِ مِنْهُ، وَتَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ، وَشِدَّةِ الْحَيَاءِ مِنْهُ، وَمَعْرِفَةِ وَقَارِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْزَمِ الْأَدَبَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. فَمَا أَسَاءَ أَحَدٌ الْأَدَبَ فِي الظَّاهِرِ إِلَّا عُوقِبَ ظَاهِرًا. وَمَا أَسَاءَ أَحَدٌ الْأَدَبَ بَاطِنًا إِلَّا عُوقِبَ بَاطِنًا.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ تَهَاوَنَ بِالْأَدَبِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ السُّنَنِ. وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالسُّنَنِ. عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْفَرَائِضِ. وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْفَرَائِضِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْمَعْرِفَةِ.

وَقِيلَ: الْأَدَبُ فِي الْعَمَلِ عَلَامَةُ قَبُولِ الْعَمَلِ وَحَقِيقَةُ الْأَدَبِ اسْتِعْمَالُ الْخُلُقِ الْجَمِيلِ. وَلِهَذَا كَانَ الْأَدَبُ: اسْتِخْرَاجَ مَا فِي الطَّبِيعَةِ مِنَ الْكَمَالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ.

---

(٤٢٧) [يوسف: ١٠٠].

(٤٢٨) [يوسف: ١٠٠].

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هَيَّأَ الْإِنْسَانَ لِقَبُولِ الْكَمَالِ بِمَا أَعْطَاهُ مِنَ الْأَهْلِيَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ، الَّتِي جَعَلَهَا فِيهِ كَامِنَةً كَالنَّارِ فِي الزِّنَادِ. فَأَلْهَمَهُ وَمَكَّنَهُ، وَعَرَّفَهُ وَأَرْشَدَهُ. وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رُسُلَهُ. وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ كُتُبَهُ لِاسْتِخْرَاجِ تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي أَهَّلَهُ بِهَا لِكَمَالِهِ إِلَى الْفِعْلِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (٤٢٩)

فَعَبَّرَ عَنْ خُلُقِ النَّفْسِ بِالتَّسْوِيَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الِاعْتِدَالِ وَالتَّمَامِ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ قَبُولِهَا لِلْفُجُورِ وَالتَّقْوَى. وَأَنَّ ذَلِكَ نَالَهَا مِنْهُ امْتِحَانًا وَاخْتِبَارًا. ثُمَّ خَصَّ بِالْفَلَاحِ مَنْ زَكَّاهَا فَنَمَّاهَا وَعَلَّاهَا. وَرَفَعَهَا بِآدَابِهِ الَّتِي أَدَّبَ بِهَا رُسُلَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ. وَهِيَ التَّقْوَى. ثُمَّ حَكَمَ بِالشَّقَاءِ عَلَى مَنْ دَسَّاهَا فَأَخْفَاهَا وَحَقَّرَهَا. وَصَغَّرَهَا وَقَمَعَهَا بِالْفُجُورِ

فَصْلٌ وَصْفٌ لِأَدَبِهِ ﷺ

وَجَرَتْ عَادَةُ الْقَوْمِ: أَنْ يَذْكُرُوا فِي هَذَا الْمَقَامِ قَوْلَهُ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ أَرَاهُ مَا أَرَاهُ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ (٤٣٠)

وَأَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ صَدَّرَ بَابَ الْأَدَبِ بِهَذِهِ الْآيَةِ. وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ.

وَكَأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: إِنَّ هَذَا وَصْفٌ لِأَدَبِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ. إِذْ لَمْ يَلْتَفِتْ جَانِبًا. وَلَا تَجَاوَزَ مَا رَآهُ. وَهَذَا كَمَالُ الْأَدَبِ. وَالْإِخْلَالُ بِهِ: أَنْ يَلْتَفِتَ النَّاظِرُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، أَوْ يَتَطَلَّعَ أَمَامَ الْمَنْظُورِ. فَالِالْتِفَاتُ زَيْغٌ.

---

(٤٢٩) [الشمس: ٧-١٠].

(٤٣٠) [النجم: ١٧].

وَالتَّطَلُّعُ إِلَى مَا أَمَامَ الْمَنْظُورِ: طُغْيَانٌ وَمُجَاوَزَةٌ. فَكَمَالُ إِقْبَالِ النَّاظِرِ عَلَى الْمَنْظُورِ: أَنْ لَا يَصْرِفَ بَصَرَهُ عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً. وَلَا يَتَجَاوَزَهُ.

هَذَا مَعْنَى مَا حَصَّلْتُهُ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَسْرَارٌ عَجِيبَةٌ. وَهِيَ مِنْ غَوَامِضِ الْآدَابِ اللَّائِقَةِ بِأَكْمَلِ الْبَشَرِ ﷺ تَوَاطَأَ هُنَاكَ بَصَرُهُ وَبَصِيرَتُهُ. وَتَوَافَقَا وَتَصَادَقَا فِيمَا شَاهَدَهُ بَصَرُهُ. فَالْبَصِيرَةُ مُوَاطِئَةٌ لَهُ. وَمَا شَاهَدَتْهُ بَصِيرَتُهُ فَهُوَ أَيْضًا حَقٌّ مَشْهُودٌ بِالْبَصَرِ. فَتَوَاطَأَ فِي حَقِّهِ مَشْهَدُ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ (٤٣١)

أَيْ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَآهُ بِبَصَرِهِ.

وَلِهَذَا قَرَأَهَا أَبُو جَعْفَرٍ: مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى - بِتَشْدِيدِ الذَّالِ - أَيْ لَمْ يُكَذِّبِ الْفُؤَادُ الْبَصَرَ. بَلْ صَدَّقَهُ وَوَاطَأَهُ. لِصِحَّةِ الْفُؤَادِ وَالْبَصَرِ. أَوِ اسْتِقَامَةِ الْبَصِيرَةِ وَالْبَصَرِ. وَكَوْنُ الْمَرْئِيِّ الْمُشَاهَدِ بِالْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ حَقًّا. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ. وَهُوَ مُتَعَدٍّ. وَ: مَا رَأَى مَفْعُولُهُ: أَيْ مَا كَذَبَ قَلْبُهُ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ. بَلْ وَاطَأَهُ وَوَافَقَهُ. فَلِمُوَاطَأَةِ قَلْبِهِ لِقَالَبِهِ، وَظَاهِرِهِ لِبَاطِنِهِ. وَبَصَرِهِ لِبَصِيرَتِهِ: لَمْ يَكْذِبِ الْفُؤَادُ الْبَصَرَ. وَلَمْ يَتَجَاوَزِ الْبَصَرُ حَدَّهُ فَيَطْغَى. وَلَمْ يَمِلْ عَنِ الْمَرْئِيِّ فَيَزِيغَ، بَلِ اعْتَدَلَ الْبَصَرُ نَحْوَ الْمَرْئِيِّ. مَا جَاوَزَهُ وَلَا مَالَ عَنْهُ، كَمَا اعْتَدَلَ الْقَلْبُ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ، وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ. فَإِنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ بِكُلِّيَّتِهِ. وَلِلْقَلْبِ زَيْغٌ وَطُغْيَانٌ. وَكِلَاهُمَا

---

(٤٣١) [النجم: ١١-١٢].

مُنْتَفٍ عَنْ قَلْبِهِ وَبَصَرِهِ. فَلَمْ يَزِغْ قَلْبُهُ الْتِفَاتًا عَنِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ. وَلَمْ يَطْغَ بِمُجَاوَزَتِهِ مَقَامَهُ الَّذِي أُقِيمَ فِيهِ.

وَهَذَا غَايَةُ الْكَمَالِ وَالْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ فِيهِ سِوَاهُ.

فَإِنَّ عَادَةَ النُّفُوسِ، إِذَا أُقِيمَتْ فِي مَقَامٍ عَالٍ رَفِيعٍ: أَنْ تَتَطَلَّعَ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ وَفَوْقَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ مُوسَى ﷺ لَمَّا أُقِيمَ فِي مَقَامِ التَّكْلِيمِ وَالْمُنَاجَاةِ: طَلَبَتْ نَفْسُهُ الرُّؤْيَةَ؟ وَنَبِيُّنَا ﷺ لَمَّا أُقِيمَ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ، وَفَّاهُ حَقَّهُ: فَلَمْ يَلْتَفِتْ بَصَرُهُ وَلَا قَلْبُهُ إِلَى غَيْرِ مَا أُقِيمَ فِيهِ أَلْبَتَّةَ؟

وَلِأَجْلِ هَذَا مَا عَاقَهُ عَائِقٌ. وَلَا وَقَفَ بِهِ مُرَادٌ، حَتَّى جَاوَزَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ حَتَّى عَاتَبَ مُوسَى رَبَّهُ فِيهِ. وَقَالَ: يَقُولُ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنِّي كَرِيمُ الْخُلُقِ عَلَى اللَّهِ. وَهَذَا قَدْ جَاوَزَنِي وَخَلَّفَنِي عُلُوًّا. فَلَوْ أَنَّهُ وَحْدَهُ؟ وَلَكِنْ مَعَهُ كُلُّ أُمَّتِهِ. وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ «فَلَمَّا جَاوَزَتْهُ بَكَى. قِيلَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي أَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي». ثُمَّ جَاوَزَهُ عُلُوًّا فَلَمْ تَعْقُهُ إِرَادَةٌ. وَلَمْ تَقِفْ بِهِ دُونَ كَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ هِمَّةٌ وَلِهَذَا كَانَ مَرْكُوبُهُ فِي مَسْرَاهُ يَسْبِقُ خَطْوُهُ الطَّرْفَ. فَيَضَعُ قَدَمَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، مُشَاكِلًا لِحَالِ رَاكِبِهِ، وَبُعْدِ شَأْوِهِ، الَّذِي سَبَقَ الْعَالَمَ أَجْمَعَ فِي سَيْرِهِ، فَكَانَ قَدَمُ الْبُرَاقِ لَا يَخْتَلِفُ عَنْ مَوْضِعِ نَظَرِهِ. كَمَا كَانَ قَدَمُهُ ﷺ لَا يَتَأَخَّرُ عَنْ مَحَلِّ مَعْرِفَتِهِ.

فَلَمْ يَزَلْ ﷺ فِي حَفَارَةِ كَمَالِ أَدَبِهِ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَكْمِيلِ مَرَاتِبِ عُبُودِيَّتِهِ لَهُ، حَتَّى خَرَقَ حُجُبَ السَّمَاوَاتِ، وَجَاوَزَ السَّبْعَ الطِّبَاقَ. وَجَاوَزَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى. وَوَصَلَ إِلَى مَحَلٍّ مِنَ الْقُرْبِ سَبَقَ بِهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. فَانْصَبَّتْ إِلَيْهِ هُنَاكَ أَقْسَامُ الْقُرْبِ انْصِبَابًا. وَانْقَشَعَتْ عَنْهُ سَحَائِبُ الْحُجُبِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا حِجَابًا حِجَابًا. وَأُقِيمَ مَقَامًا غَبَطَهُ بِهِ

الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ. فَإِذَا كَانَ فِي الْمَعَادِ أُقِيمَ مَقَامًا مِنَ الْقُرْبِ ثَانِيًا، يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ. وَاسْتَقَامَ هُنَاكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ مِنْ كَمَالِ أَدَبِهِ مَعَ اللَّهِ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ عَنْهُ وَمَا طَغَى. فَأَقَامَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ عَلَى أَقْوَمِ صِرَاطٍ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى. وَأَقْسَمَ بِكَلَامِهِ عَلَى ذَلِكَ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ (٤٣٢)

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ أَقَامَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَسْأَلُهُ السَّلَامَةَ لِأَتْبَاعِهِ وَأَهْلِ سُنَّتِهِ، حَتَّى يَجُوزُوهُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

فَصْلٌ الْأَدَبُ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ

وَالْأَدَبُ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ. فَإِنَّ سَتْرَ الْعَوْرَةِ مِنَ الْأَدَبِ. وَالْوُضُوءَ وَغُسْلَ الْجَنَابَةِ مِنَ الْأَدَبِ. وَالتَّطَهُّرَ مِنَ الْخُبْثِ مِنَ الْأَدَبِ. حَتَّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ طَاهِرًا. وَلِهَذَا كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَتَجَمَّلَ الرَّجُلُ فِي صَلَاتِهِ. لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ: أَمَرَ اللَّهُ بِقَدْرٍ زَائِدٍ عَلَى سَتْرِ الْعَوْرَةِ فِي الصَّلَاةِ. وَهُوَ أَخْذُ الزِّينَةِ. فَقَالَ تَعَالَى ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (٤٣٣)

فَعَلَّقَ الْأَمْرَ بِأَخْذِ الزِّينَةِ، لَا بِسَتْرِ الْعَوْرَةِ، إِيذَانًا بِأَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ: أَنْ يَلْبَسَ أَزْيَنَ ثِيَابِهِ، وَأَجْمَلَهَا فِي الصَّلَاةِ.

---

(٤٣٢) [يس: ١-٤].

(٤٣٣) [الأعراف: ٣١].

وَكَانَ لِبَعْضِ السَّلَفِ حُلَّةٌ بِمَبْلَغٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمَالِ. وَكَانَ يَلْبَسُهَا وَقْتَ الصَّلَاةِ. وَيَقُولُ: رَبِّي أَحَقُّ مَنْ تَجَمَّلْتُ لَهُ فِي صَلَاتِي.

وَمَعْلُومٌ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ. لَاسِيَّمَا إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَأَحْسَنُ مَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَلَابِسِهِ وَنِعْمَتِهِ الَّتِي أَلْبَسَهُ إِيَّاهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَمِنَ الْأَدَبِ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ الْمُصَلِّيَ: «أَنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ».

فَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: هَذَا مِنْ كَمَالِ أَدَبِ الصَّلَاةِ: أَنْ يَقِفَ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ مُطْرِقًا، خَافِضًا طَرْفَهُ إِلَى الْأَرْضِ. وَلَا يَرْفَعَ بَصَرَهُ إِلَى فَوْقٍ.

قَالَ: وَالْجَهْمِيَّةُ - لَمَّا لَمْ يَفْقَهُوا هَذَا الْأَدَبَ، وَلَا عَرَفُوهُ - ظَنُّوا أَنَّ هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ. كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ. وَاتَّفَقَتْ عَلَيْهِ رُسُلُهُ وَجَمِيعُ أَهْلِ السُّنَّةِ.

قَالَ: وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِمْ. بَلْ هَذَا دَلِيلٌ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى نَقِيضِ قَوْلِهِمْ; إِذْ مِنَ الْأَدَبِ مَعَ الْمُلُوكِ: أَنَّ الْوَاقِفَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَطْرُقُ إِلَى الْأَرْضِ. وَلَا يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَيْهِمْ. فَمَا الظَّنُّ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ سُبْحَانَهُ؟

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ - فِي نَهْيِهِ ﷺ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ - إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ أَشْرَفُ الْكَلَامِ. وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ. وَحَالَتَا الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ حَالَتَا ذُلٍّ وَانْخِفَاضٍ مِنَ الْعَبْدِ. فَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ كَلَامِ اللَّهِ: أَنْ لَا يُقْرَأَ فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ. وَيَكُونَ حَالُ الْقِيَامِ وَالِانْتِصَابِ أَوْلَى بِهِ.

وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ: أَنْ لَا يَسْتَقْبِلَ بَيْتَهُ وَلَا يَسْتَدْبِرَهُ عِنْدَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ. كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ وَسَلْمَانَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَالصَّحِيحُ: أَنَّ هَذَا الْأَدَبَ: يَعُمُّ الْفَضَاءَ وَالْبُنْيَانَ. كَمَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ، فِي الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الصَّلَاةِ: وَضْعُ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى حَالَ قِيَامِ الْقِرَاءَةِ، فَفِي الْمُوَطَّأِ لِمَالِكٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّهُ مِنَ السُّنَّةِ، وَكَانَ النَّاسُ يُؤْمَرُونَ بِهِ وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَدَبِ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ. فَعَظِيمُ الْعُظَمَاءِ أَحَقُّ بِهِ.

وَمِنْهَا: السُّكُونُ فِي الصَّلَاةِ. وَهُوَ الدَّوَامُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ (٤٣٤)

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنِ ابْنِ لَهِيعَةَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ: أَنَّ أَبَا الْخَيْرِ أَخْبَرَهُ قَالَ: سَأَلْنَا عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ أَهُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ دَائِمًا؟ قَالَ: لَا. وَلَكِنَّهُ إِذَا صَلَّى لَمْ يَلْتَفِتْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ شِمَالِهِ وَلَا خَلْفَهُ.

قُلْتُ: هُمَا أَمْرَانِ. الدَّوَامُ عَلَيْهَا. وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَيْهَا. فَهَذَا الدَّوَامُ. وَالْمُدَاوَمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤﴾ (٤٣٥)

وَفُسِّرَ الدَّوَامُ بِسُكُونِ الْأَطْرَافِ وَالطُّمَأْنِينَةِ.

وَأَدَبِهِ فِي اسْتِمَاعِ الْقِرَاءَةِ: أَنْ يُلْقِيَ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

---

(٤٣٤) [المعارج: ٢٣].

(٤٣٥) [المعارج: ٣٤].

وَأَدَبُهُ فِي الرُّكُوعِ: أَنْ يَسْتَوِيَ. وَيُعَظِّمَ اللَّهَ تَعَالَى، حَتَّى لَا يَكُونَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَيَتَضَاءَلَ وَيَتَصَاغَرَ فِي نَفْسِهِ. حَتَّى يَكُونَ أَقَلَّ مِنَ الْهَبَاءِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْأَدَبَ مَعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هُوَ الْقِيَامُ بِدِينِهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَلَا يَسْتَقِيمُ لِأَحَدٍ قَطُّ الْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: مَعْرِفَتُهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَعْرِفَتُهُ بِدِينِهِ وَشَرْعِهِ، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ. وَنَفْسٌ مُسْتَعِدَّةٌ قَابِلَةٌ لَيِّنَةٌ، مُتَهَيِّئَةٌ لِقَبُولِ الْحَقِّ عِلْمًا وَعَمَلًا وَحَالًا. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصْلٌ الْأَدَبُ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ

وَأَمَّا الْأَدَبُ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ: فَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِهِ.

فَرَأْسُ الْأَدَبِ مَعَهُ: كَمَالُ التَّسْلِيمِ لَهُ، وَالِانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ. وَتَلَقِّي خَبَرِهِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ، دُونَ أَنْ يُحَمِّلَهُ مُعَارَضَةَ خَيَالٍ بَاطِلٍ، يُسَمِّيهِ مَعْقُولًا. أَوْ يُحَمِّلَهُ شُبْهَةً أَوْ شَكًّا، أَوْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرِّجَالِ، وَزُبَالَاتِ أَذْهَانِهِمْ، فَيُوَحِّدُهُ بِالتَّحْكِيمِ وَالتَّسْلِيمِ، وَالِانْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ. كَمَا وَحَّدَ الْمُرْسِلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ فَهُمَا تَوْحِيدَانِ. لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا بِهِمَا: تَوْحِيدُ الْمُرْسِلِ. وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ. فَلَا يُحَاكِمُ إِلَى غَيْرِهِ. وَلَا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ. وَلَا يَقِفُ تَنْفِيذُ أَمْرِهِ. وَتَصْدِيقُ خَبَرِهِ. عَلَى عَرْضِهِ عَلَى قَوْلِ شَيْخِهِ وَإِمَامِهِ، وَذَوِي مَذْهَبِهِ وَطَائِفَتِهِ، وَمَنْ يُعَظِّمُهُ. فَإِنْ أَذِنُوا لَهُ نَفَّذَهُ وَقَبِلَ خَبَرَهُ، وَإِلَّا فَإِنْ طَلَبَ السَّلَامَةَ: أَعْرَضَ عَنْ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ وَفَوَّضَهُ إِلَيْهِمْ، وَإِلَّا حَرَّفَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ. وَسَمَّى تَحْرِيفَهُ: تَأْوِيلًا، وَحَمْلًا. فَقَالَ: نُؤَوِّلُهُ وَنَحْمِلُهُ.

فَلَأَنْ يَلْقَى الْعَبْدُ رَبَّهُ بِكُلِّ ذَنْبٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ - مَا خَلَا الشِّرْكَ بِاللَّهِ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِهَذِهِ الْحَالِ.

وَلَقَدْ خَاطَبْتُ يَوْمًا بَعْضَ أَكَابِرِ هَؤُلَاءِ. فَقُلْتُ لَهُ: سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ. لَوْ قُدِّرَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا. وَقَدْ وَاجَهَنَا بِكَلَامِهِ وَبِخِطَابِهِ. أَكَانَ فَرْضًا عَلَيْنَا أَنْ نَتْبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَى رَأْيِ غَيْرِهِ وَكَلَامِهِ وَمَذْهَبِهِ، أَمْ لَا نَتْبَعَهُ حَتَّى نَعْرِضَ مَا سَمِعْنَاهُ مِنْهُ عَلَى آرَاءِ النَّاسِ وَعُقُولِهِمْ؟

فَقَالَ: بَلْ كَانَ الْفَرْضُ الْمُبَادَرَةَ إِلَى الِامْتِثَالِ مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ إِلَى سِوَاهُ.

فَقُلْتُ: فَمَا الَّذِي نَسَخَ هَذَا الْفَرْضَ عَنَّا؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ نُسِخَ؟

فَوَضَعَ إِصْبَعَهُ عَلَى فِيهِ. وَبَقِيَ بَاهِتًا مُتَحَيِّرًا. وَمَا نَطَقَ بِكَلِمَةٍ.

هَذَا أَدَبُ الْخَوَاصِّ مَعَهُ. لَا مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ وَالشِّرْكِ بِهِ. وَرَفْعِ الْأَصْوَاتِ، وَإِزْعَاجِ الْأَعْضَاءِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ. وَعَزْلِ كَلَامِهِ عَنِ الْيَقِينِ. وَأَنْ يُسْتَفَادَ مِنْهُ مَعْرِفَةُ اللَّهِ، أَوْ يُتَلَقَّى مِنْهُ أَحْكَامُهُ. بَلِ الْمُعَوَّلُ فِي بَابِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ عَلَى الْعُقُولِ الْمُتَهَوِّكَةِ الْمُتَحَيِّرَةِ الْمُتَنَاقِضَةِ. وَفِي الْأَحْكَامِ: عَلَى تَقْلِيدِ الرِّجَالِ وَآرَائِهَا. وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ إِنَّمَا نَقْرَؤُهُمَا تَبَرُّكًا، لَا أَنَّا نَتَلَقَّى مِنْهُمَا أُصُولَ الدِّينِ وَلَا فُرُوعَهُ. وَمَنْ طَلَبَ ذَلِكَ وَرَامَهُ عَادَيْنَاهُ وَسَعَيْنَا فِي قَطْعِ دَابِرِهِ. وَاسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِ {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ - حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ - لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ - قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ - مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ - أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ - أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ - أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ - وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ

لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ - أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ (٤٣٦)

وَالنَّاصِحُ لِنَفْسِهِ. الْعَامِلُ عَلَى نَجَاتِهَا: يَتَدَبَّرُ هَذِهِ الْآيَاتِ حَقَّ تَدَبُّرِهَا. وَيَتَأَمَّلُهَا حَقَّ تَأَمُّلِهَا. وَيُنْزِلُهَا عَلَى الْوَاقِعِ: فَيَرَى الْعَجَبَ. وَلَا يَظُنُّهَا اخْتَصَّتْ بِقَوْمٍ كَانُوا فَبَانُوا. فَالْحَدِيثُ لَكَ. وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ: أَنْ لَا يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ، وَلَا إِذْنٍ وَلَا تَصَرُّفٍ. حَتَّى يَأْمُرَ هُوَ، وَيَنْهَى وَيَأْذَنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (٤٣٧)

وَهَذَا بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَمْ يُنْسَخْ. فَالتَّقَدُّمُ بَيْنَ يَدَيْ سُنَّتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، كَالتَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا عِنْدَ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا تَفْتَاتُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: تَقُولُ الْعَرَبُ: لَا تُقَدِّمْ بَيْنَ يَدَيِ الْإِمَامِ وَبَيْنَ يَدَيِ الْأَبِ. أَيْ لَا تُعَجِّلُوا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ دُونَهُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: لَا تَأْمُرُوا حَتَّى يَأْمُرَ. وَلَا تَنْهَوْا حَتَّى يَنْهَى.

---

(٤٣٦) [المؤمنون: ٧٣-٧٤].

(٤٣٧) [الحجرات: ١].

وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَهُ: أَنْ لَا تُرْفَعَ الْأَصْوَاتُ فَوْقَ صَوْتِهِ. فَإِنَّهُ سَبَبٌ لِحُبُوطِ الْأَعْمَالِ فَمَا الظَّنُّ بِرَفْعِ الْآرَاءِ، وَنَتَائِجِ الْأَفْكَارِ عَلَى سُنَّتِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ؟ أَتُرَى ذَلِكَ مُوجِبًا لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ، وَرَفْعُ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِهِ مُوجِبٌ لِحُبُوطِهَا؟

وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَهُ: أَنْ لَا يَجْعَلَ دُعَاءَهُ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (٤٣٨)

وَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّكُمْ لَا تَدْعُونَهُ بِاسْمِهِ، كَمَا يَدْعُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا، بَلْ قُولُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَعَلَى هَذَا: الْمَصْدَرُ مُضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَيْ دُعَاءَكُمُ الرَّسُولَ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَهُ لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ دُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا. إِنْ شَاءَ أَجَابَ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ، بَلْ إِذَا دَعَاكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بُدٌّ مِنْ إِجَابَتِهِ، وَلَمْ يَسَعْكُمُ التَّخَلُّفُ عَنْهَا أَلْبَتَّةَ. فَعَلَى هَذَا: الْمَصْدَرُ مُضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ. أَيْ دُعَاؤُهُ إِيَّاكُمْ.

وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَهُ: أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ - مِنْ خُطْبَةٍ، أَوْ جِهَادٍ، أَوْ رِبَاطٍ - لَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَذْهَبًا فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ (٤٣٩)

---

(٤٣٨) [النور: ٦٣].

(٤٣٩) [النور: ٦٢].

(٤٤٠) [النحل: ٤٣].

فَإِذَا كَانَ هَذَا مَذْهَبًا مُقَيَّدًا بِحَاجَةٍ عَارِضَةٍ، وَلَمْ يُوَسِّعْ لَهُمْ فِيهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَكَيْفَ بِمَذْهَبٍ مُطْلَقٍ فِي تَفَاصِيلِ الدِّينِ: أُصُولِهِ، وَفُرُوعِهِ، دَقِيقِهِ، وَجَلِيلِهِ؟ هَلْ يُشْرَعُ الذَّهَابُ إِلَيْهِ بِدُونِ اسْتِئْذَانِهِ؟ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (٤٤٠)

وَمِنَ الْأَدَبِ مَعَهُ: أَنْ لَا يُسْتَشْكَلَ قَوْلُهُ: بَلْ تُسْتَشْكَلُ الْآرَاءُ لِقَوْلِهِ: وَلَا يُعَارَضُ نَصُّهُ بِقِيَاسٍ بَلْ تُهْدَرُ الْأَقْيِسَةُ وَتُلْقَى لِنُصُوصِهِ. وَلَا يُحَرَّفُ كَلَامُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ لِخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولًا، نَعَمْ هُوَ مَجْهُولٌ، وَعَنِ الصَّوَابِ مَعْزُولٌ، وَلَا يُوقَفُ قَبُولُ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ عَلَى مُوَافَقَةِ أَحَدٍ، فَكُلُّ هَذَا مِنْ قِلَّةِ الْأَدَبِ مَعَهُ ﷺ. وَهُوَ عَيْنُ الْجُرْأَةِ.

فَصْلُ الْأَدَبِ مَعَ الْخَلْقِ

وَأَمَّا الْأَدَبُ مَعَ الْخَلْقِ: فَهُوَ مُعَامَلَتُهُمْ - عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ - بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ. فَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَدَبٌ. وَالْمَرَاتِبُ فِيهَا أَدَبٌ خَاصٌّ. فَمَعَ الْوَالِدَيْنِ: أَدَبٌ خَاصٌّ وَلِلْأَبِ مِنْهُمَا: أَدَبٌ هُوَ أَخَصُّ بِهِ، وَمَعَ الْعَالِمِ: أَدَبٌ آخَرُ، وَمَعَ السُّلْطَانِ: أَدَبٌ يَلِيقُ بِهِ، وَلَهُ مَعَ الْأَقْرَانِ أَدَبٌ يَلِيقُ بِهِمْ. وَمَعَ الْأَجَانِبِ: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ وَذَوِي أُنْسِهِ. وَمَعَ الضَّيْفِ: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ.

وَلِكُلِّ حَالٍ أَدَبٌ: فَلِلْأَكْلِ آدَابٌ. وَلِلشُّرْبِ آدَابٌ. وَلِلرُّكُوبِ وَالدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ وَالسَّفَرِ وَالْإِقَامَةِ وَالنَّوْمِ آدَابٌ. وَلِلْبَوْلِ آدَابٌ. وَلِلْكَلَامِ آدَابٌ. وَلِلسُّكُوتِ وَالِاسْتِمَاعِ آدَابٌ.

وَأَدَبُ الْمَرْءِ: عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ. وَقِلَّةُ أَدَبِهِ: عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ.

فَمَا اسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمِثْلِ الْأَدَبِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الْأَدَبِ.

فَانْظُرْ إِلَى الْأَدَبِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ: كَيْفَ نَجَّى صَاحِبَهُ مِنْ حَبْسِ الْغَارِ حِينَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ؟ وَالْإِخْلَالُ بِهِ مَعَ الْأُمِّ - تَأْوِيلًا وَإِقْبَالًا عَلَى الصَّلَاةِ - كَيْفَ امْتُحِنَ صَاحِبُهُ بِهَدْمِ صَوْمَعَتِهِ وَضَرْبِ النَّاسِ لَهُ، وَرَمْيِهِ بِالْفَاحِشَةِ؟

وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ كُلِّ شَقِيٍّ وَمُغْتَرٍّ وَمُدْبِرٍ: كَيْفَ تَجِدُ قِلَّةَ الْأَدَبِ هِيَ الَّتِي سَاقَتْهُ إِلَى الْحِرْمَانِ؟

وَانْظُرْ قِلَّةَ أَدَبِ عَوْفٍ مَعَ خَالِدٍ: كَيْفَ حَرَمَهُ السَّلَبَ بَعْدَ أَنْ بَرَدَ بِيَدَيْهِ؟

وَانْظُرْ أَدَبَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ: أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ أَوْرَثَهُ مَقَامَهُ وَالْإِمَامَةَ بِالْأُمَّةِ بَعْدَهُ؟ فَكَانَ ذَلِكَ التَّأَخُّرُ إِلَى خَلْفِهِ - وَقَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنِ اثْبُتْ مَكَانَكَ جَمْزًا، وَسَعْيًا إِلَى قُدَّامَ؟ بِكُلِّ خُطْوَةٍ إِلَى وَرَاءَ مَرَاحِلُ إِلَى قُدَّامَ. تَنْقَطِعُ فِيهَا أَعْنَاقُ الْمَطِيِّ" (٤٤١)

وقال ابن مفلح:

«وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيُّ أَدَبُ الْعِلْمِ أَكْثَرُ مِنْ الْعِلْمِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ إذَا وُصِفَ لِي رَجُلٌ لَهُ عِلْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَا أَتَأَسَّفُ عَلَى فَوْتِ لِقَائِهِ، وَإِذَا سَمِعْت رَجُلًا لَهُ أَدَبُ الْقَسِّ أَتَمَنَّى لِقَاءَهُ وَأَتَأَسَّفُ عَلَى فَوْتِهِ. وَيُقَالُ مَثَلُ الْإِيمَانِ كَمَثَلِ بَلْدَةٍ لَهَا خَمْسَةُ حُصُونٍ، الْأَوَّلُ مِنْ ذَهَبٍ، وَالثَّانِي مِنْ فِضَّةٍ وَالثَّالِثُ مِنْ حَدِيدٍ، وَالرَّابِعُ مِنْ آجُرٍّ، وَالْخَامِسُ مِنْ لَبِنٍ فَمَا زَالَ أَهْلُ الْحِصْنِ مُتَعَاهِدِينَ الْحِصْنَ مِنْ اللَّبِنِ لَا يَطْمَعُ الْعَدُوُّ فِي الثَّانِي فَإِذَا أَهْمَلُوا ذَلِكَ طَمِعُوا

(٤٤١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٥ ط الكتاب العربي).

فِي الْحِصْنِ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِث حَتَّى تَخْرَبَ الْحُصُونُ كُلُّهَا، فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ فِي خَمْسَةِ حُصُونٍ: الْيَقِينِ. ثُمَّ الْإِخْلَاصِ، ثُمَّ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، ثُمَّ أَدَاءِ السُّنَنِ، ثُمَّ حِفْظِ الْآدَابِ، فَمَا دَامَ الْعَبْدُ يَحْفَظُ الْآدَابَ وَيَتَعَاهَدُهَا فَالشَّيْطَانُ لَا يَطْمَعُ فِيهِ. فَإِذَا تَرَكَ الْآدَابَ طَمِعَ الشَّيْطَانُ فِي السُّنَنِ، ثُمَّ فِي الْفَرَائِضِ، ثُمَّ فِي الْإِخْلَاصِ، ثُمَّ فِي الْيَقِينِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ لَا يَنْبُلُ الرَّجُلُ بِنَوْعٍ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُزَيِّنْ عَمَلَهُ بِالْأَدَبِ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي تَارِيخِهِ وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا طَلَبْت الْعِلْمَ فَأَصَبْت فِيهِ شَيْئًا، وَطَلَبْت الْأَدَبَ فَإِذَا أَهْلُهُ قَدْ مَاتُوا.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ لَا أَدَبَ إلَّا بِعَقْلٍ، وَلَا عَقْلَ إلَّا بِأَدَبٍ، كَانَ يُقَالُ الْعَوْنُ لِمَنْ لَا عَوْنَ لَهُ الْأَدَبُ.

وَقَالَ الْأَحْنَفُ الْأَدَبُ نُورُ الْعَقْلِ، كَمَا أَنَّ النَّارَ فِي الظُّلْمَةِ نُورُ الْبَصَرِ. كَانَ يُقَالُ الْأَدَبُ مِنْ الْآبَاءِ، وَالصَّلَاحُ مِنْ اللَّهِ. كَانَ يُقَال مَنْ أَدَّبَ ابْنَهُ صَغِيرًا، قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ كَبِيرًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ وَالِدَاهُ أَدَّبَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ» (٤٤٢)

وقال ابن قتيبة:

وقال عبد الملك لمؤدّب ولده: علّمهم الصدق كما تعلّمهم القرآن، وجنّبهم السّفلة فإنّهم أسوأ الناس رعةً «ورعاً» وأقلّهم أدباً، وجنّبهم الحشم فإنّهم لهم مفسدة، وأحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا، علّمهم الشّعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضا ويمصّوا الماء مصّا ولا يعبّوه عبّا، وإذا احتجت إلى أن

(٤٤٢) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٣/ ٥٥٢).

نتناولهم بأدب فليكن ذلك في ستر لا يعلم به أحد من الغاشية فيهونوا عليه" (٤٤٣)

وقال سُفْيَان بْن عُيَيْنَةَ:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمِيزَانُ الْأَكْبَرُ، فَعَلَيْهِ تُعْرَضُ الْأَشْيَاءُ، عَلَى خُلُقِهِ وَسِيرَتِهِ وَهَدْيِهِ، فَمَا وَافَقَهَا فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ الْبَاطِلُ» (٤٤٤)

وقال ابن القيم:

«وَالْوَاجِب اتِّبَاع الدَّلِيل أَيْن كَانَ وَمَعَ من كَانَ وَهُوَ الَّذِي أوجب الله اتِّبَاعه وَحرم مُخَالفَته وَجعله الْمِيزَان الرَّاجِح بَين الْعلمَاء فَمن كَانَ من جَانبه كَانَ أسعد بِالصَّوَابِ قل موافقوه أَو كَثُرُوا» (٤٤٥)

وقال ابن القيم:

«فهو الميزان الراجح الذي على أخلاقه وأقواله وأعماله تُوزَن الأخلاق والأقوال والأعمال، والفُرْقَانُ المُبين الذي باتّباعه تميز أهل الهدى من أهل الضلال» (٤٤٦)

---

(٤٤٣) «عيون الأخبار» (٢/ ١٨٢).

(٤٤٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٧٩).

(٤٤٥) «الفروسية المحمدية - ت مشهور» (ص٢٩٨).

(٤٤٦) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٢/ ٧ ت مشهور).

وقَالَ ابْن شِهَاب:

«إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ أَدَبُ اللَّهِ الَّذِي أَدَّبَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ، وَأَدَّبَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ بِهِ، وَهُوَ أَمَانَةُ اللَّهِ إِلَى رَسُولِهِ لِيُؤَدِّيَهُ عَلَى مَا أُدِّيَ إِلَيْهِ، فَمَنْ سَمِعَ عِلْمًا فَلْيَجْعَلْهُ أَمَامَهُ حُجَّةً، فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَبِيِّهِ» (٤٤٧)

وروي الشيخان من حديث ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي. قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ. ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ» (٤٤٨)

وقَالَ مُعَاذ بْن سَعْد الْأَعْوَر:

" كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، فَحَدَّثَ بِحَدِيثٍ، فَعَرَضَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي حَدِيثِهِ، فَغَضِبَ وَقَالَ: مَا هَذِهِ الْأَخْلَاقُ وَمَا هَذِهِ الطَّبَائِعُ؟ إِنِّي لَأَسْمَعُ الْحَدِيثَ مِنَ الرَّجُلِ وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْهُ بِهِ فَأُرِيهِ أَنِّي لَا أُحْسِنُ شَيْئًا مِنْهُ " » (٤٤٩)

---

(٤٤٧) «معرفة علوم الحديث» (ص٦٣).

(٤٤٨) صحيح: أخرجه البخارى برقم (٦١) ومسلم برقم (٢٨١١).

(٤٤٩) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٣/ ٣١١).

وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ:
لَا يَنْبُلُ الرَّجُلُ بِنَوْعٍ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُزَيِّنْ عَمَلَهُ بِالْأَدَبِ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي تَارِيخِهِ وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا طَلَبْت الْعِلْمَ فَأَصَبْت فِيهِ شَيْئًا، وَطَلَبْت الْأَدَبَ فَإِذَا أَهْلُهُ قَدْ مَاتُوا.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:
لَا أَدَبَ إلَّا بِعَقْلٍ، وَلَا عَقْلَ إلَّا بِأَدَبٍ، كَانَ يُقَالُ الْعَوْنُ لِمَنْ لَا عَوْنَ لَهُ الْأَدَبُ.

وَقَالَ الْأَحْنَفُ:
الْأَدَبُ نُورُ الْعَقْلِ، كَمَا أَنَّ النَّارَ فِي الظُّلْمَةِ نُورُ الْبَصَرِ.
كَانَ يُقَالُ الْأَدَبُ مِنْ الْآبَاءِ، وَالصَّلَاحُ مِنْ اللَّهِ.
كَانَ يُقَال مَنْ أَدَّبَ ابْنَهُ صَغِيرًا، قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ كَبِيرًا،
وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ وَالِدَاهُ أَدَّبَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ» (٤٥٠)

وقال أيضاً:
طلبت الأدب ثلاثين سنة وطلبت العلم عشرين سنة كانوا يطلبون الأدب ثم العلم» (٤٥١)

---

(٤٥٠) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٣/ ٥٥٢).
(٤٥١) «غاية النهاية في طبقات القراء» (١/ ٤٤٦).

وقال عبد الله بن المبارك:

"كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين» (٤٥٢)

وقَالَ ابْنُ سِيرِينَ:

«كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْهَدْيَ كَمَا يَتَعَلَّمُونَ الْعِلْمَ» قَالَ: وَبَعَثَ ابْنُ سِيرِينَ رَجُلًا فَنَظَرَ كَيْفَ هَدْيُ الْقَاسِمِ وَحَالُهُ " (٤٥٣)

وقال سُفْيَان الثَّوْرِيَّ:

كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ الْحَدِيثَ تَأَدَّبَ وَتَعَبَّدَ قَبْلَ ذَلِكَ بِعِشْرِينَ سَنَةً» (٤٥٤)

وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ:

قَالَ لِي مَخْلَدَةُ بْنُ الْحُسَيْنِ نَحْنُ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنْ الْحَدِيثِ» (٤٥٥)

---

(٤٥٢) «صفة الصفوة» (٢/ ٣٣٠).

(٤٥٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٧٩).

(٤٥٤) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٦/ ٣٦١).

(٤٥٥) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٣/ ٥٥٣).

وقال إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَبِيبِ بْنِ الشَّهِيدِ:
قَالَ لِي أَبِي: «يَا بُنَيَّ، إِيتِ الْفُقَهَاءَ وَالْعُلَمَاءَ، وَتَعَلَّمْ مِنْهُمْ، وَخُذْ مِنْ أَدَبِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَهَدْيِهِمْ، فَإِنَّ ذَاكَ أَحَبُّ إِلَيَّ لَكَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْحَدِيثِ» (٤٥٦)

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:
إِذَا وُصِفَ لِي رَجُلٌ لَهُ عِلْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَا أَتَأَسَّفُ عَلَى فَوْتِ لِقَائِهِ، وَإِذَا سَمِعْت رَجُلًا لَهُ أَدَبُ الْقَسِّ أَتَمَنَّى لِقَاءَهُ وَأَتَأَسَّفُ عَلَى فَوْتِهِ» (٤٥٧)

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:
قَالَ لِي مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: «نَحْنُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحَدِيثِ» (٤٥٨)

وقال مَالِك بْن أَنَسٍ:
لِفَتًى مِنْ قُرَيْشٍ: يَا ابْنَ أَخِي تَعَلَّمَ الْأَدَبَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ» (٤٥٩)

---

(٤٥٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٨٠).
(٤٥٧) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٣/ ٥٥٢).
(٤٥٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٨٠).
(٤٥٩) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٦/ ٣٣٠).

وقال أيضاً:

" لَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْ أَرْبَعَةٍ، وَيُؤْخَذُ مِمَّنْ سِوَى ذَلِكَ: لَا يُؤْخَذُ مِنْ صَاحِبِ هَوًى يَدْعُو النَّاسَ إِلَى هَوَاهُ، وَلَا مِنْ سَفِيهٍ مُعْلِنٍ بِالسَّفَهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَرْوَى النَّاسِ، وَلَا مِنْ رَجُلٍ يَكْذِبُ فِي أَحَادِيثِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَتَّهِمُهُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا مِنْ رَجُلٍ لَهُ فَضْلٌ وَصَلَاحٌ وَعِبَادَةٌ إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ مَا يُحَدِّثُ " قَالَ الْحِزَامِيُّ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِمُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنِّي أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: أَدْرَكْتُ بِبَلَدِنَا هَذَا، يَعْنِي الْمَدِينَةَ، مَشْيَخَةً لَهُمْ فَضْلٌ وَصَلَاحٌ وَعِبَادَةٌ، يُحَدِّثُونَ، فَمَا كَتَبْتُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ حَدِيثًا قَطُّ قُلْتُ: لِمَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ مَا يُحَدِّثُونَ» (٤٦٠)

وقال إِبْرَاهِيم بْن حَبِيبِ بْنِ الشَّهِيدِ:

قَالَ لِي أَبِي: «يَا بُنَيَّ، إِيتِ الْفُقَهَاءَ وَالْعُلَمَاءَ، وَتَعَلَّمْ مِنْهُمْ، وَخُذْ مِنْ أَدَبِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَهَدْيِهِمْ، فَإِنَّ ذَاكَ أَحَبُّ إِلَيَّ لَكَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْحَدِيثِ» (٤٦١)

وصية الرشيد لمؤدب الامين الأحمر النحوي:

"ومن أحسن مذاهب التّعليم ما تقدّم به الرّشيد لمعلّم ولده. قال خلف الأحمر: بعث إليّ الرشيد في تأديب ولده محمّد الأمين فقال: «يا أحمر إنّ أمير المؤمنين قد دفع

(٤٦٠) «المحدث الفاصل ت عجاج» (ص٤٠٣).

(٤٦١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٨٠).

إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصيّر يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروّه الأشعار وعلّمه السّنن وبصّره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضّحك إلّا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القوّاد إذا حضروا مجلسه. ولا تمرّنّ بك ساعة إلّا وأنت مغتنم فائدة تفيده إيّاها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه.

ولا تمعن في مسامحته فيستجلي الفراغ ويألفه. وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشّدّة والغلظة» (٤٦٢)

وقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ:

لزمتُ هُشَيْماً أَرْبَعَ سِنِيْنَ، أَوْ خَمْساً، مَا سَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ، إِلَاّ مَرَّتَيْنِ، هَيْبَةً لَهُ، وَكَانَ كَثِيْرَ التَّسبِيْحِ بَيْنَ الحَدِيْثِ، يَقُوْلُ بَيْنَ ذَلِكَ:

لَا إِلَهَ إِلَاّ اللهُ، يَمُدُّ بِهَا صَوْتَهُ» (٤٦٣)

وقَالَ أَبُو حَازِمٍ الأَعْرَجُ:

لَقَدْ رَأَيْتُنَا فِي مَجْلِسِ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ أَرْبَعِيْنَ فَقِيْهاً، أَدْنَى خَصلَةٍ فِيْنَا التَّوَاسِي بِمَا فِي أَيْدِيْنَا، وَمَا رَأَيْتُ فِي مَجْلِسِهِ مُتَمَارِيَيْنِ، وَلَا مُتَنَازِعَيْنِ فِي حَدِيْثٍ لَا يَنْفَعُنَا" (٤٦٤)

---

(٤٦٢) «تاريخ ابن خلدون» (١/ ٧٤٤).

(٤٦٣) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٨/ ٢٩٠).

(٤٦٤) «المعرفة والتاريخ - ت العمري - ط العراق» (١/ ٦٧٦).

وَقَالَ عبدُ الغَافِرِ بنُ إِسْمَاعِيْلَ:

كَانَ أَبُو إِسْمَاعِيْلَ الأَنْصَارِيُّ عَلَى حَظٍّ تَامٍّ مِنْ مَعْرِفَةِ العَرَبِيَّةِ وَالحَدِيْثِ وَالتَّوَارِيخِ وَالأَنْسَابِ، إِمَاماً كَامِلاً فِي التَّفْسِيْرِ، حَسَنَ السِّيْرَةِ فِي التَّصَوُّف،

غَيْرَ مُشْتَغِلٍ بِكَسْبٍ،

مُكْتَفِياً بِمَا يُبَاسِطُ بِهِ المرِيْدِينَ وَالأَتْبَاع مِنْ أَهْلِ مَجْلِسه فِي العَامِ مَرَّةً أَوْ مرَّتين عَلَى رَأْس الملأ،

فيحصل عَلَى أُلوفٍ مِنَ الدَّنَانِيْر وَأَعدَادٍ مِنَ الثِّيَاب وَالحُلِيّ،

فَيَأْخُذُهَا، وَيُفَرِّقُهَا عَلَى اللَّحَّام وَالخبَّاز، وَينفق مِنْهَا، وَلَا يَأْخذُ مِنَ السُّلْطَان وَلَا مِنْ أَرْكَانِ الدَّوْلَة شَيْئاً،

وَقلَّ مَا يُرَاعِيْهُم، وَلَا يَدخُل عَلَيْهِم، وَلَا يُبَالِي بِهِم، فَبَقِيَ عَزِيزاً" (٤٦٥)

(٤٦٥) «طبقات علماء الحديث» (٣/ ٣٧٩).

المبحث السابع:

اغتنام الصغر والصبا

٧-اغتنام زمان الصغر والصبا والشباب.

قال تعالى﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ (٤٦٦)

فوصفهم بالفتية وهم في كل عصر الفئة الأقوى وهم السواعد الأقنى وهم قلب الأمة النابض وأجيال المستقبل.

قال الشاعر:

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ ذُلَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً تَجَرَّعَ كَأْسَ الْجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ
وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيمُ وَقْتَ شَبَابِهِ فَكَبِّرْ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لِوَفَاتِهِ

وروى البخاري معلقاً:

بَابُ الِاغْتِبَاطِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ. وَقَالَ عُمَرُ: تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا» (٤٦٧)

قال أبو بكر الخطيب:

«التَّفَقُّهُ فِي زَمَنِ الشَّبِيبَةِ وَاقْبَالِ الْعُمُرِ، وَالتَّمَكُّنُ مِنْهُ بِقِلَّةِ الْأَشْغَالِ، وَكَمَالِ الذِّهْنِ وَرَاحَةِ الْقَرِيحَةِ يَرْسُخُ فِي الْقَلْبِ، وَيَثْبُتُ، وَيَتَمَكَّنُ، وَيَسْتَحْكِمُ، فَيَحْصُلُ الِانْتِفَاعُ بِهِ

(٤٦٦) [الكهف: ١٣].
(٤٦٧) "صحيح البخاري" (١/ ٢٥ ط السلطانية).

وَالْبَرَكَةُ، إِذَا صَحِبَهُ مِنَ اللَّهِ حُسْنُ التَّوْفِيقِ وَإِذَا أُهْمِلَ إِلَى حَالَةِ الْكِبَرِ الْمُغِيرَةِ لِلْأَخْلَاقِ، النَّاقِصَةِ لِلْآلَاتِ، كَانَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا أَنْتَ أَعْيَاكَ التَّعَلُّمُ نَاشِئًا فَمَطْلَبُهُ شَيْخًا عَلَيْكَ شَدِيدُ» (٤٦٨)

وقال يعقوب بْن إِبْرَاهِيم أَبُو يوسف القاضي:

تُوُفِّيَ أبي إِبْرَاهِيم بْن حبيب وخلَّفني صغيرًا فِي حجر أمي، فأسلمتني إلى قصَّار أخدمه، فكنتُ أدع القصار وأمرُّ إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة، فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار، وكان أَبُو حنيفة يعنى بي لما يرى من حضوري وحرصي عَلَى التعلم، فلما كثر ذَلِكَ عَلَى أمي وطال عليها هربي، قَالَتْ لأبي حنيفة:

ما لِهذا الصبي فسادٌ غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء لَهُ، وإنما أطعمه من مغزلي وآمل أن يكسب دانقًا يعود بِهِ عَلَى نفسه. فقال لَهَا أَبُو حنيفة: مُري يا رعناء هذا هُوَ ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق، فانصرفت عَنْهُ وقالت لَهُ: أنت شيخٌ قد خرفت وذهب عقلك، ثُمَّ لزمته فنفعني الله بالعلم ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس الرشيد وآكل معه عَلَى مائدته، فلما كَانَ فِي بعض الأيام قدم إلي هارون فالوذجة فقال لي هارون يا يعقوب كل منه فليس كل يوم يعمل لنا مثله. فقلتُ: وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال:

هذه فالوذجة بدهن الفستق، فضحكتُ. فقال لي: مم ضحكت؟ فقلتُ: خيرًا، أبقى الله أمير المؤمنين، قَالَ: لتخبرني- وألحّ علي- فخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها

(٤٦٨) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ١٧٩).

فعجب من ذَلِكَ. وقال: لعمري إن العلم ليرفعُ وينفع دينًا ودنيا، وترحم عَلَى أبي حنيفة، وقال: كَانَ ينظر بعين عقله مالا يراهُ بعين رأسه» (٤٦٩)

وقال الْحَسَن:

«الْحِفْظُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ» (٤٧٠)

وقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَزَّةَ:

«الْعِلْمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ» قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

مَا الْحِلْمُ إِلَّا بِالتَّحَلُّمِ فِي الْـكِبَرِ وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا بِالتَّعَلُّمِ فِي الصِّـغَرِ

وَلَوْ ثُقِبَ الْقَلْبُ الْمُعَلَّمُ فِي الصَّبَا لَأَلْفَيْتَ فِيهِ الْعِلْمَ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ (٤٧١)

وقال مَعْمَر:

طلبت العلمَ سنةَ مات الحسن، وسمعتُ من قَتادة ولي أربع عشرة سنة، فما سمعتُه إذ ذاك كأنه مكتوبٌ في صدري» (٤٧٢)

---

(٤٦٩) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (١٤/ ٢٤٧).

(٤٧٠) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ١٨١).

(٤٧١) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ١٨١).

(٤٧٢) «طبقات علماء الحديث» (١/ ٢٨٩).

قَالَ عَلْقَمَةُ: «مَا حَفِظْتُ وَأَنَا شَابٌّ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي قِرْطَاسٍ أَوْ وَرَقَةٍ» (٤٧٣)

ومن طلب العلم صغيراً

سفيان بن عيينة

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: قَرَأْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ سِنِينَ، وَكَتَبْتُ الْحَدِيثَ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ» (٤٧٤)

وقَالَ مَعْمَر:

«جَالَسْتُ قَتَادَةَ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ، شَيْئًا، وَأَنَا فِي، ذَلِكَ السِّنِّ إِلَّا وَكَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي صَدْرِي» (٤٧٥)

ومن فاته التعليم في الصغر فلا يفوته في الكبر

قَالَ البخارى في كتاب العلم:

وقد تعلَّم أصحابُ النبي ﷺ في كِبر سنهم

(٤٧٣) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ١٨٢).

(٤٧٤) «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» (٢/ ١٥١).

(٤٧٥) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ١٨٢).

وَقَالَ مَنْصُورُ بْنُ الْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ:
أَيَحْسُنُ بِالشَّيْخِ أَنْ يَتَعَلَّمَ؟ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ الْجَهْلُ يَعِيبُهُ فَالتَّعَلُّمُ يَحْسُنُ بِهِ» (٤٧٦)

وقِيلَ لِأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ:
أَيَحْسُنُ بِالشَّيْخِ أَنْ يَتَعَلَّمَ، قَالَ: «إِنْ حَسُنَ بِالشَّيْخِ أَنْ يَعِيشَ، فَإِنَّهُ يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ» (٤٧٧)

وروى البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كُنْتُ أُقْرِئُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ حَجَّةٍ حَجَّهَا عُمَرُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِمِنًى:
لَوْ شَهِدْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَاهُ رَجُلٌ قَالَ: إِنَّ فُلَانًا يَقُولُ: لَوْ مَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَبَايَعْنَا فُلَانًا،
فَقَالَ عُمَرُ: لَأَقُومَنَّ الْعَشِيَّةَ، فَأُحَذِّرَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ،
قُلْتُ: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رَعَاعَ النَّاسِ يَغْلِبُونَ عَلَى مَجْلِسِكَ، فَأَخَافُ أَنْ لَا يُنْزِلُوهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَيُطِيرُ بِهَا كُلُّ مُطَيَّرٍ،
فَأَمْهِلْ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ دَارَ الْهِجْرَةِ" (٤٧٨)

---

(٤٧٦) «جامع بيان العلم وفضله» (٥٩٠).
(٤٧٧) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ١٦٧).
(٤٧٨) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٧٣٢٣).

ومن طلب العلم كبيراً:

ابن حزم

قَالَ أَبُو مُحَمَّد بنُ حَزْم: أَن سَبَبَ تَعَلُّمه الفقْه أَنَّهُ شَهِدَ جِنَازَة، فَدَخَلَ المَسْجَدَ، فَجَلَسَ، وَلَمْ يَركع، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: قُمْ فَصَلِّ تَحيَّة المَسْجَد.

وَكَانَ قَدْ بلغَ ستّاً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً. قَالَ: فَقُمْتُ وَركعتُ، فَلَمَّا رَجَعنَا مِنَ الصَّلَاة عَلَى الجِنَازَة، دَخَلْتُ المَسْجَد، فَبَادرتُ بِالرُّكُوْع، فَقِيْلَ لِي: اجْلِسْ اجْلِسْ، لَيْسَ ذَا وَقتَ صَلَاة - وَكَانَ بَعْد العَصْر - قَالَ: فَانْصَرَفت وَقَدْ حَزِنْتُ، وَقُلْتُ لِلأُسْتَاذ الَّذِي رَبَّانِي: دُلنِي عَلَى دَار الفَقِيْه أَبِي عَبْد اللهِ بنِ دحُّوْنَ.

قَالَ: فَقصدتُه، وَأَعْلَمْتُه بِمَا جرَى، فَدلَّنِي عَلَى (مُوَطَّأ مَالِك)، فَبَدَأْتُ بِهِ عَلَيْه، وَتَابعت قِرَاءَتِي عَلَيْه وَعَلَى غَيْرِه نَحْواً مِنْ ثَلَاثَة أَعْوَام، وَبدَأْتُ بِالمنَاظرَة» (٤٧٩)

وابن عبد السلام:

وكَانَ الشَّيْخ عز الدّين فِي أول أمره فَقِيرا جدا وَلم يشْتَغل إِلَّا على كبر وَسبب ذَلِك أَنه كَانَ يبيت فِي الكلاسة من جَامع دمشق فَبَاتَ بهَا لَيْلَة ذَات برد شَدِيد فَاحْتَلَمَ فَقَامَ مسرعا وَنزل فِي بركَة الكلاسة فَحصل لَهُ ألم شَدِيد من الْبرد وَعَاد فَنَامَ فَاحْتَلَمَ ثَانِيًا فَعَاد إِلَى الْبركَة لِأَن أَبْوَاب الْجَامع مغلقة وَهُوَ لَا يُمكنهُ الْخُرُوج فطلع فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ من شدَّة الْبرد أَنا أَشك هَل كَانَ الشَّيْخ الإِمَام يَحْكِي أَن هَذَا اتّفق لَهُ ثَلَاث مَرَّات تِلْكَ اللَّيْلَة أَو مرَّتَيْنِ فَقَط ثمَّ سمع النداء فِي الْمرة الْأَخِيرَة يَا ابْن عبد

(٤٧٩) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٨/ ١٩٩).

السَّلَام أتُرِيدُ الْعلم أم الْعَمَل فَقَالَ الشَّيْخ عز الدّين الْعلم لِأَنَّهُ يهدي إِلَى الْعَمَل فَأَصْبح وَأخذ التَّنْبِيه فحفظه فِي مُدَّة يسيرَة وَأَقْبل على الْعلم فَكَانَ أعلم أهل زَمَانه وَمن أعبد خلق الله تَعَالَى ... وحكى قَاضِي الْقُضَاة بدر الدّين بن جمَاعَة رَحمَه الله أَن الشَّيْخ لما كَانَ بِدِمَشْق وَقع مرّة غلاء كَبِير حَتَّى صَارَت الْبَسَاتِين تبَاع بِالثّمن الْقَلِيل فَأَعْطَتْهُ زَوجته مصاغا لَهَا وَقَالَت اشْتَرِ لنا بِهِ بستانا نصيف بِهِ فَأخذ ذَلِك المصاغ وَبَاعه وَتصدق بِثمنِهِ فَقَالَت يَا سَيِّدي اشْتريت لنا قَالَ نعم بستانا فِي الْجنَّة إِنِّي وجدت النَّاس فِي شدَّة فتصدقت بِثمنِهِ فَقَالَت لَهُ جَزَاك الله خيرا» (٤٨٠)

والقفال:

قَالَ الذهبي في ترجمة القَفَّال أَبي بَكْرٍ عَبْد اللهِ بنُ أَحْمَدَ بنِ عَبْدِ اللهِ:

حَذَقَ فِي صنعَة الأَقْفَال حَتَّى عَمل قُفْلاً بآلَاته وَمفتَاحه، زنَة أَرْبَع حبَّات، فَلَمَّا صَارَ ابْنَ ثَلَاثِيْنَ سَنَةً، آنَس مِنْ نَفْسه ذكَاءً مُفرطاً، وَأَحَبَّ الفِقْهَ، فَأَقبل عَلَى قرَاءته حَتَّى برَع فِيْهِ، وَصَارَ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ» (٤٨١)

وَكَانَ الْقفال رَحمَه الله قد ابْتَدَأَ التَّعَلُّم على كبر السن بَعْدَمَا أفنى شبيبته فِي صناعَة الأقفال وَكَانَ ماهرا فِيهَا» (٤٨٢)

---

(٤٨٠) «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ٢١٢).

(٤٨١) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٧/ ٤٠٦).

(٤٨٢) «طبقات الشافعية الكبرى» (٥/ ٥٤).

والكسائي:

قَالَ الفراء: إنما تعلم الكسائي النحو على الكبر، وكان سبب تعلمه أنه جاء يوما، وقد مشى حتى أعيي، فجلس إِلَى الهباريِّين، وكان يجالسهم كثيرا، فقال قد عييت، فقالوا له: أتجالسنا؟!، وأنت تلحن، فقال: كيف لحنت؟ قالوا له: إن كنت أردت من التعب، فقل: أعييت، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير فِي الأمر، فقل: عييت مخففة، فأنف من هذه الكلمة، ثم قام من فوره ذلك، فسأل عمن يعلم النحو، فأرشدوه إِلَى معاذ الهراء، فلزمه حتى أنفد ما عنده، ثم خرج إِلَى البصرة، فلقي الخليل، وجلس فِي حلقته، فقال له رجل من الأعراب: تركت أسد الكوفة وتميمها، وعندها الفصاحة، وجئت إِلَى البصرة؟ فقال للخليل: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، نخرج، ورجع، وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبرا فِي الكتابة عَن العرب سوى ما حفظ، فلم يكن له هم غير البصرة والخليل، فوجد الخليل قد مات، وقد جلس فِي موضعه يونس النحوي، فمرت بينهم مسائل أقر له يونس فيها، وصدره موضعه» (٤٨٣)

وغنجار: لقبوه غنجارا لحُمرة وجهه.

قال الحاكم عن عيسى بن موسى: إمام عصره، طلب العلم على كبر السن ورحل، وهو في نفسه صدُوق، نتبَّعْتُ رواياته عن الثقات فوجدتُها مستقيمة» (٤٨٤)

---

(٤٨٣) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٣/ ٣٤٥).

(٤٨٤) «تاريخ الإسلام - ت بشار» (٤/ ٩٣٨).

والحارث بن مسكين:

قال الذهبي في ترجمة الحارث بن مسكين قاضي القضاة بمصر:

وَإِنَّمَا طَلَبَ العِلْمَ عَلَى كِبَرٍ» (٤٨٥)

وأحمد بن الفضل:

قال الذهبي في ترجمة أحمد بن الفضل: «وإنّما طلب العلم عَلِيّ كبر السن» (٤٨٦)

وأصبغ بن الفرج:

قال الذهبي في ترجمة أَصْبَغ بنُ الفَرَجِ بنِ سَعِيْدِ بنِ نَافِعٍ الأُمَوِيُّ

"وَطَلَبَ العِلْمَ وَهُوَ شَابٌّ كَبِيْرٌ، فَفَاتَهُ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ» (٤٨٧)

وَصَالِحُ بنُ كَيْسَانَ

قال الذهبي: "كَانَ قَدْ لَقِيَ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ تَلْمَذَ بَعْدُ لِلزُّهْرِيِّ، وَتَلَقَّنَ عَنْهُ العِلْمَ وَهُوَ ابْنُ تِسْعِيْنَ سَنَةً، ابْتَدَأَ بِالعِلْمِ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِيْنَ سَنَةً» (٤٨٨)

---

(٤٨٥) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٩/ ٤٥٦).

(٤٨٦) «تاريخ الإسلام - ت بشار» (٧/ ٨٧٢).

(٤٨٧) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٠/ ٦٥٦).

(٤٨٨) السابق (٥/ ٤٥٦).

والقطيعي:

قَالَ أبو بكر الخلال أَخْبَرَنِي الحسن بن الهيثم قَالَ سمعت أبا جعفر شامط القطيعي يقول دخلت عَلَى أبي عبد الله فقلت: أتوضأ بماء النورة فقال ما أحب ذلك قلت: أتوضأ بماء الباقلاء قَالَ ما أحب ذلك قلت: أتوضأ بماء الورد قَالَ ما أحب ذلك قَالَ فقمت فتعلق بثوبي ثم قَالَ إيش تقول إذا دخلت المسجد فسكت فقال وإيش تقول إذا خرجت من المسجد فسكت فقال اذهب فتعلم هذا» (٤٨٩)

وخالد بن عبد الله الأزهري

ذكر ابن العماد في ترجمة خالد بن عبد الله بن أبي بكر المصري الأزهري الوقّاد به النحوي.

فقال: "اشتغل بالعلم على كبر، قيل كان عمره ستّا وثلاثين سنة فسقطت منه يوما فتيلة على كراس أحد الطلبة فشتمه وعيّره بالجهل، فترك الوقادة وأكبّ على الطلب، وبرع وأشغل الناس، وصنّف شرحا حافلا على «التوضيح» ما صنّف مثله، و «إعراب ألفية بان مالك»، وشرحا على «الأجرومية» نافعا، وآخر على «قواعد الإعراب» لابن هشام، وآخر على «الجزرية» في التجويد، وآخر على «البردة» و «المقدمة الأزهرية» وشرحها، وكثر النّفع بتصانيفه لإخلاصه ووضوحها. توفي ببركة الحاج خارج القاهرة راجعا من الحجّ» (٤٩٠)

---

(٤٨٩) «طبقات الحنابلة» (١/ ٤١ ت الفقي).

(٤٩٠) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (١٠/ ٣٨).

وخارجة بن مصعب:

قال الذهبي في ترجمة خَارِجَة بن مُصعب بن خَارِجَة الضُّبعيّ السّرخسي قال:

«عَالِمُ أَهْلِ خُرَاسَانَ عَلَى لِينٍ فِيهِ، رَحَلَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَهُوَ كَبِيرٌ فَسَمِعَ الْكَثِيرَ» (٤٩١)

وقال أبو الحسن علي ابن محمد التهامي:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خلقي ... ولا وفائي ولا ديني ولا كرمـــي

وإنما اعتـاض رأســـي غير صبغته ... والشيب في الرأس غير الشيب في الشيم (٤٩٢)

وقال الذهبي في ترجمة أَبي الفَرَجِ ابْن الجَوْزِيّ:

«قرَأَ هُوَ وَابْنه بِتَلْقِينِهِ بِالعشر عَلَى ابْنُ البَاقِلاَّنِيّ، وَسنّ الشَّيْخ نَحْو الثَّمَانِيْنَ، فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الهِمَّة العَالِيَة» (٤٩٣)

(٤٩١) «تاريخ الإسلام - ت بشار» (٤/ ٣٤٨).

(٤٩٢) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (١٩/ ٣٨).

(٤٩٣) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٢١/ ٣٧٧).

ويستمر الطالب في الطلب إلى نهاية العمر

قال صالح بن أحمد:

رأى رجل مع أبي محبرة فقال: يا أبا عبد الله: أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين، فقال: "مع المحبرة إلى المقبرة".

وقال أحمد: أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت أصوغ مع أبي ببغداد فمرّ بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يده، فأخذ أبي هكذا بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله أما تستحي! إلى متى تعدو مع الصبيان؟ قال: إلى الموت» (٤٩٤)

لكن بعض الناس لا يستفيدون في الكبر سيما إذا تقدم بهم العمر

فعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: كَانَ يَخْتَلِفُ شَيْخٌ مَعَنَا إِلَى مَسْرُوقٍ، وَكَانَ يَسْأَلُهُ عَنِ الشَّيْءِ فَيُخْبِرُهُ، فَلَا يَفْهَمُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي مَا مَثَلُكَ؟ «مَثَلُكَ مَثَلُ بَغْلٍ هَرِمٍ حَطْمٍ جَرِبٍ، دُفِعَ إِلَى رَائِضٍ، فَقِيلَ لَهُ عَلِّمْهُ الْهَمْلَجَةَ» (٤٩٥)

(٤٩٤) «تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة» (١/ ١٦).

(٤٩٥) الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٨٣).

المبحث الثامن:

اغتنام الأوقات.

٨-اغتنام الأوقات.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ (٤٩٦)

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ (٤٩٧)

قال الطبرى:

«وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال:

إن الله تعالى ذكره، أمر نبيه أن يجعل فراغه من كلّ ما كان به مشتغلا من أمر دنياه وآخرته، مما أدّى له الشغل به، وأمره بالشغل به إلى النصب في عبادته، والاشتغال فيما قرّبه إليه، ومسألته حاجاته، ولم يخصص بذلك حالا من أحوال فراغه دون حال، فسواء كلّ أحوال فراغه، من صلاة كان فراغه، أو جهاد، أو أمر دنيا كان به مشتغلا لعموم الشرط في ذلك، من غير خصوص حال فراغ، دون حال أخرى» (٤٩٨)

---

(٤٩٦) [العصر: ١-٣].

(٤٩٧) [الشرح: ٧-٨].

(٤٩٨) «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٧).

وروى البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ.» (٤٩٩)

وقال ابن الجوزى:

«اعْلَم أَنه قد يكون الْإِنْسَان صَحِيحا وَلَا يكون متفرغا لِلْعِبَادَةِ لاشتغاله بِأَسْبَاب المعاش، وَقد يكون متفرغاً من الأشغال وَلَا يكون صَحِيحاً

فَإِذا اجْتمعَا للْعَبد ثمَّ غلب عَلَيْهِ الكسل عَن نيل الْفَضَائِل فَذَاك الْغبن كَيفَ وَالدُّنْيَا سوق الرباح، والعمر أقصر، والعوائق أَكثر" (٥٠٠)

وقال الْحَسَنِ:

«إِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ،

فَإِنَّكَ بِيَوْمِكَ وَلَسْتَ بِغَدِكَ،

فَإِنْ يَكُنْ غَدٌ لَكَ فَكِسْ فِي غَدٍ كَمَا كِسْتَ فِي الْيَوْمِ،

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَدٌ لَمْ تَنْدَمْ عَلَى مَا فَرَّطْتَ فِي الْيَوْمِ» (٥٠١)

---

(٤٩٩) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٦٠٤٩).

(٥٠٠) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٢/ ٤٣٧).

(٥٠١) «اقتضاء العلم العمل» (ص١١٣).

فالوقت سريع انقضائه:

قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ (٥٠٢)

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (٥٠٣)

وما مضى فلم ولن يعود:

ذكر ابن الجوزي:

قول رابعة العدوية لسفيان: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم، فاعمل» (٥٠٤)

وقال مُحَمَّدُ بنُ يُوسُفَ السَّمَرْقَنْدِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ مُبَشِّرٍ الكَرْمِيْنِيِّ، قَالَ:

انكَسَرَ قَلَمُ مُحَمَّدِ بنِ سَلاَمٍ البِيْكَنْدِيِّ فِي مَجْلِسِ شَيْخٍ، فَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى: قَلَمٌ بِدِيْنَارٍ، فَطَارَتْ إِلَيْهِ الأَقْلاَمُ.

قُلْتُ: كَانَ مُحْتَشِماً، ذَا أَمْوَالٍ.

---

(٥٠٢) [النازعات: ٤٦].

(٥٠٣) [يونس: ٤٥].

(٥٠٤) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٤٥).

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ يَعْقُوْبَ البِيْكَنْدِيُّ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بنَ الحُسَيْنِ يَقُوْلُ: كَانَ مُحَمَّدُ بنُ سَلاَمٍ فِي مَنْزِلِهِ، فَدُقَّ بَابُهُ، فَخَرَجَ، فَقَالَ الشَّخْصُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَنَا جِنِّيٌّ، رَسُوْلُ مَلِكِ الجِنِّ إِلَيْكَ، يُسَلِّمُ عَلَيْكَ، وَيَقُوْلُ: لَا يَكُوْنُ لَكَ مَجْلِسٌ إِلَاّ يَكُوْنُ مِنَّا فِي مَجْلِسِكَ أَكْثَرُ مِنَ الإِنسِ» (٥٠٥)

فالوقت أنفَسُ ما يملِكه الإنسان:

قال الوزير يحيى بن هبيرة شيخ الإمام ابن الجوزي:

الوقتُ أنفَسُ ما عُنِيت بحفظِه وأراه أسهَل ما عليكَ يضيعُ

قال ابن الجوزي:

«رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا: إن طال الليل، فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر! وإن طال النهار، فبالنوم! وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق! فشبههم بالمتحدثين في سفينة، وهي تجري بهم، وما عندهم خبر!

ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزاد، والتأهب للرحيل، إلا أنهم يتفاوتون، وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته، بما ينفق في بلد الإقامة، فالمتيقظون منهم يتطلعون إلى الأخبار بالنافق هناك، فيستكثرون منه، فيزيد ربحهم، والغافلون منهم يحملون ما اتفق، وربما خرجوا لا مع خفير، فكم ممن قد قطعت عليه الطريق فبقي مفلسًا!

(٥٠٥) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٩/ ٣٨).

فالله الله في مواسم العمر! والبدار البدار قبل الفوات! واستشهدوا العلم، واستبدلوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد، فكان قد حَدَا الحادي، فلم يفهم صوته من وقع دمع الندم» (٥٠٦)

وقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ محمَّد بْنُ عليّ وَرَّاقُ أبي زُرْعة:

حَضَرْنَا أبا زرعةَ بـ «ماشَهْرَانَ» وهو في السَّوْقِ، وعنده أبو حاتمٍ وابن وَارَةَ والمنذرُ ابنُ شاذان وغيرهم، فَذَكَروا حديثَ التلقين: «لَقِّنُوا موتاكم: لا إله إلا الله» واستَحْيَوْا من أبي زُرْعة أن يلقِّنوه، فقالوا: تَعَالَوْا نذكُرُ الحديثَ، فقال ابن وَارَةَ: حدَّثنا أبو عاصم، حدَّثنا عبد الحميد بن جعفر، عن صالح. وجعل يقولُ: ابن أبي. ولم يجاوزْهُ. وقال أبو حاتم: حدَّثنا بُنْدَارٌ، حدَّثنا أبو عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح. ولم يجاوز. والباقون سكتوا. فقال أبو زُرْعة، وهو في السَّوْقِ: حدَّثنا أبو عاصم، حدَّثنا عبد الحميد، عن صالح بنِ أبي عَرِيب، عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّة، عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَل، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ «مَنْ كان آخِرَ كلامِهِ: لا إِلَهَ إلا اللهُ، دخَلَ الجَنَّةَ». وخرَجَ رُوحُهُ معه، رحمه الله تعالى (٥٠٧)

(٥٠٦) «صيد الخاطر» (ص١٥٧).

(٥٠٧) «العلل» لابن أبي حاتم (١/ ٢٨٢ ت الحميد).

قال ابن أبي حاتم:

«حضرت أبي رحمه الله وكان في النزع وأنا لا أعلم فسألته عن عقبة بن عبد الغافر يروي عن النبي ﷺ له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم اقنع منه فقلت: فهمت عني: له صحبة؟ قال: هو تابعي.

قلت فكان سيد عمله معرفة الحديث وناقلة الآثار فان في عمره يقتبس منه ذلك فأراد الله أن يظهر عند وفاته ما كان عليه في حياته» (٥٠٨)

وقال أبو الفرج النهراوني:

«وَحكى لي بعض بني الْفُرَات عَن رجلٍ مِنْهُم، أَو من غَيرهم، أَنه كَانَ بِحَضْرَة أَبِي جَعْفَر الطَّبَرِيّ رَحمَه الله قبل مَوته وَتُوفِّي بعد سَاعَة أَو أقل مِنْهَا، فَذكر لَهُ هَذَا الدُّعَاء عَن جَعْفَر بْن مُحَمَّد عَلَيْهِمَا السَّلَام فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبها، فَقيل لَهُ أَفِي هَذِه الْحَال؟ فَقَالَ: يَنْبَغِي للْإِنْسَان أَن لَا يدع اقتباس الْعلم حَتَّى يَمُوت» (٥٠٩)

وقال القاضي عِياض في ترجمة أبي بكر محمد بن وسيم بن سعدون الطُّليطلي:

«وكانوا يرون ما فيه من الذكاء ببركة دعاء أبيه. وكان صالحاً. وقد تقدم ذكره. وقيل لما عمي بعد مولده، بيسير، جمع أبوه أهل الصلاح والزهد وصلوا الليل كله. فلما أصبح أحضر هذا المولود فدعوا له أن يجعل الله نور بصره في قلبه. فأجيبت

(٥٠٨) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (١/ ٣٦٧).

(٥٠٩) «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» (ص٥٢٧).

دعوتهم. وكان رأساً في كل فن متقدماً فيه، من أهل الظرف والأدب، وعلا ذكره، وتقدم في الفتيا. وكان رأساً فيها. وله كتاب في الناسخ والمنسوخ. ودخل عليه وهو في النزع بعض أصحابه، فناداه فلم يجبه. فقال الآخر: " وحِيل بينهُم وبينَ ما يشتهون ". فقال له أبو بكر حين ذلك: نزلت في الكفار وقتها. " إنهم كانوا في شكٍ مريب "» (٥١٠)

وقال الفاسيّ في ترجمة أحمد بن أبي طالب شهاب الدين أبو العباس الحجار:

"مسند الدينا وفي يوم موته قرئ عليه وله مائة سنة وعشر سنين تقريبا ونزل الناس بموته درجة» (٥١١)

وقال الذهبي في ترجمة صَفِيّ الدِّينِ الْهِنْدِيّ:

قال عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ، أنا عُمَرُ بْنُ طَبَرْزَدَ، فَذَكَرَ حَدِيثَيْنِ لَيْسَا هُمَا عِنْدِي، قَرَأْتُهُمَا عَلَيْهِ وَنَفَسُهُ يُحْشْرِجُ فِي الصَّدْرِ، فَتُوُفِّيَ يَوْمَئِذٍ، عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا، آمِينَ.

وَقَدْ حَضَرْتُ دَرْسَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ» (٥١٢)

---

(٥١٠) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ١٧٦).

(٥١١) «ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد» (١/ ٣١٧).

(٥١٢) «معجم الشيوخ الكبير للذهبي» (٢/ ٢١٦).

وقال الفاسي في ترجمة أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطي شهاب الجزائري:

سمع على علي بن أبي بكر بن روزبة صحيح البخاري في أربع عشر مجلسا آخرها خامس ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.

وحكى ابن معطي أنه كان قال لهم في يوم الفراغ اجتهدوا في إكمال هذا الكتاب فإنه والله ما بقي غيركم يسمعه علي وتوفي في الليلة المتصلة بذلك اليوم» (٥١٣)

وقال الدَّلَجي في ترجمة ابن مالك صاحب الألفية:

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي الجياني الملقب جمال الدين، صاحب التصانيف المبسوطة والمختصرة والنظم والنثر، شيخ النحاة في عصره والإمام في اللغة، كان كثير الأشغال والاشتغال، حتى إنه حفظ في اليوم الذي مات فيه خمسة شواهد» (٥١٤)

وقال ياقوت في ترجمة أَبي الريحان البيروني:

ولّما صنف كتاب القانون المَسْعُودِيّ أجَازه السُّلْطَان بِحمْل فيلٍ من نَقده الفضّي فردّه إِلَى الخزانة بِعُذْر الِاسْتِغْنَاء عَنهُ وَكَانَ مكبّاً على تَحْصِيل الْعُلُوم وَلَا يكَاد يُفَارق الْقَلَم يَده وَلَا عينه النّظر فِي الْكتب وَقلبه الْفِكر إِلَّا فِي يومي النوروز والمهرجان...وقال أبو الحسن عَليّ بن عِيسَى الْوَلْوَالجيّ قَالَ دخلت على أبي الريحان

(٥١٣) «ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد» (١/ ٣٢٢).

(٥١٤) «الفلاكة والمفلوكون» (ص٦٤).

وَهُوَ يجود بِنَفسِهِ وَقد حشرج نَفسه وضاق بِهِ صَدره فَقَالَ لي فِي تِلْكَ الْحَال كَيفَ قلت لي يَوْمًا فِي حِسَاب الجدّات الْفَاسِدَة فَقلت لَهُ إشفاقاً عَلَيْهِ أَفِي هَذِه الْحَالة قَالَ ياهذا أودّع الدُّنْيَا وَأَنا عَالم بِهَذِهِ الْمَسْأَلَة أَلا يكون خيرا من أَن أخلّيها وَأَنا جَاهِل بهَا فَأَعَدْت ذَلِك عَلَيْهِ وَحفظ وعلّمني مَا وعد وَخرجت من عِنْده وَأَنا فِي الطَّرِيق فَسمِعت الصُّرَاخ عَلَيْهِ » (٥١٥)

وقال عياض في ترجمة مسرة بن مسلم بن ربيعة الحضرمي:

«ولما احتضر رحمه الله، ابتدأ القرآن، فانتهى في طه، الى قوله تعالى: " وعجِلتُ إليك ربّي لترضى ".

ففاضت نفسه قال اللبيدي: رأيت أبا إسحاق الجبنياني، ومسرة جالسين في جنازة، وعلى مسرة جبة صوف.

فقال له الجبنياني: من أين لك هذه، يا أبا بكر؟ قال: من سوق المسلمين. فقال له أبو إسحاق: سبحان الله تشتري من السوق، وفيه تخليط وأنت يقتدى بك؟ فقال مسرة فمن أين هذه الدراعة التي عليك - وعليه مرقعة بخرق المزابل - فقال له: أصلها منذ ثلاثين سنة، عملتها لي أختي، بموضع كذا، كشف عن أصله، فقال مسرة: موضع السراق أنت يا أبا إسحاق. أنت رجل مجنون - لتضييقه على نفسه، وتتبعه غاية الأمور، التي ليست لها غاية - فقال له أبو إسحاق: صدقت. كان معلمي يقول لي: إنك مجنون. ثم أقيمت الصلاة. فقدم مسرة، أبا إسحاق، ثم أتي بالجنازة، فقدمه

(٥١٥) «معجم الأدباء» (٥/ ٢٣٣١).

أيضاً. وكان الميت ابن أخي مسرة. فلما فرغا جرى بينهما حديث، ودعاء وتوادعا، وتصافحا. وكان كل واحد منهما، يجلّ قدر صاحبه، ويعرف له فضله» (٥١٦)

وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ:
«ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، كُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ» (٥١٧)

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابن مسعود:
«إِنِّي لَأَمْقُتُ الرَّجُلَ أَرَاهُ فَارِغًا، لَا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ» (٥١٨)

قَالَ ابْنُ الآبَنُوْسِيّ:
كَانَ الحَافِظُ الخَطِيْب يَمْشِي وَفِي يَدِهِ جُزءٌ يُطَالعه» (٥١٩)

وقال الرَّبِيع بْن سُلَيْمَان:
«كَانَ الشَّافِعِيُّ قَدْ جَزَّأَ اللَّيْلَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ؛

(٥١٦) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ٢٧١).
(٥١٧) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٢/ ١٤٨).
(٥١٨) «الزهد» لوكيع برقم (٣٦٩).
(٥١٩) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٨/ ٢٨١).
(٥٢٠) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٩/ ١٣٥).

الثُّلُثُ الْأَوَّلُ يَكْتُبُ،
وَالثُّلُثُ الثَّانِي يُصَلِّي،
وَالثُّلُثُ الثَّالِثُ يَنَامُ» (٥٢٠)

وَقَالَ رَجُلٌ لِعَامِرِ بْنِ قَيْسٍ:
قِفْ فَكَلِّمْنِي. فَقَالَ: أُمْسِكُ الشَّمْسَ!» (٥٢١)

وكَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الخَوْلَانِيُّ يَقُولُ:
«لَوْ رَأَيْتُ الْجَنَّةَ عِيَانًا مَا كَانَ عِنْدِي مُسْتَزَادٌ وَلَوْ رَأَيْتُ النَّارَ عِيَانًا مَا كَانَ عِنْدِي مُسْتَزَادٌ» (٥٢٢)

وقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ:
لَوْ قِيْلَ لِحَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ: إِنَّكَ تَمُوْتُ غَداً، مَا قَدِرَ أَنَّ يَزِيْدَ فِي العَمَلِ شَيْئاً» (٥٢٣)

---

(٥٢١) «التبصرة لابن الجوزي» (٢/ ٢٩١).
(٥٢٢) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٢/ ١٢٧).
(٥٢٣) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٧/ ٤٤٧).

وكَانَ الْبُخَارِيُّ

يَسْتَيْقِظُ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْ نَوْمِهِ فَيُورِي السِّرَاجَ، وَيَكْتُبُ الْفَائِدَةَ تَمُرُّ بِخَاطِرِهِ ثُمَّ يُطْفِئُ سِرَاجَهُ، ثُمَّ يَقُومُ مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى كَانَ يَتَعَدَّدُ ذَلِكَ مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً.

وَقَدْ كَانَ أُصِيبَ بَصَرُهُ وَهُوَ صَغِيرٌ، فَرَأَتْ أُمُّهُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ: يَا هَذِهِ، قَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَى وَلَدِكِ بَصَرَهُ بِكَثْرَةِ دُعَائِكِ، أَوْ قَالَ: بُكَائِكِ. فَأَصْبَحَ وَهُوَ بَصِيرٌ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: فَكَّرْتُ الْبَارِحَةَ فَإِذَا أَنَا قَدْ كَتَبْتُ فِي مُصَنَّفَاتِي نَحْوًا مِنْ مِائَتَيْ أَلْفِ حَدِيثٍ مُسْنَدَةً. وَكَانَ يَحْفَظُهَا كُلَّهَا.

وَدَخَلَ مَرَّةً إِلَى سَمَرْقَنْدَ فَاجْتَمَعَ بِهِ أَرْبَعُمِائَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ بِهَا، فَرَكَّبُوا لَهُ أَسَانِيدَ وَأَدْخَلُوا إِسْنَادَ الشَّامِ فِي إِسْنَادِ الْعِرَاقِ، وَخَلَطُوا الرِّجَالَ فِي الْأَسَانِيدِ، وَجَعَلُوا مُتُونَ الْأَحَادِيثِ عَلَى غَيْرِ أَسَانِيدِهَا،

ثُمَّ قَرَءُوهَا عَلَى الْبُخَارِيِّ، فَرَدَّ كُلَّ حَدِيثٍ إِلَى إِسْنَادِهِ، وَقَوَّمَ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ وَالْأَسَانِيدَ كُلَّهَا، وَمَا تَعَلَّقُوا عَلَيْهِ بِسَقْطَةٍ فِي إِسْنَادٍ وَلَا فِي مَتْنٍ.

وَكَذَلِكَ صَنَعَ بِمِائَةِ مُحَدِّثٍ فِي أَهْلِ بَغْدَادَ" (٥٢٤)

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ:

كُنَّا نَسِيرُ مَعَ أَبِينَا فِي مَوْكِبِهِ فَيَقُولُ لَنَا: سَبِّحُوا حَتَّى تَأْتُوا تِلْكَ الشَّجَرَةَ فَنُسَبِّحُ حَتَّى نَأْتِيَ تِلْكَ الشَّجَرَةَ، فَإِذَا رُفِعَتْ لَنَا شَجَرَةٌ أُخْرَى قَالَ: كَبِّرُوا حَتَّى تَأْتُوا تِلْكَ الشَّجَرَةَ

(٥٢٤) «البداية والنهاية ط هجر» (١٤/ ٥٢٨).

فَنُكَبِّرُ فَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِنَا " (٥٢٥)

وقال ابن الجوزى:

«واعلم -يا بني- أن الأيام تبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاسًا، وكل نفس خزانة؛ فاحذر أن يذهب نفس بغير شيء، فترى في القيامة خزانة فارغة فتندم.

وقد قال رجل لعامر بن عبد قيسٍ: قف أكلمك، فقال: أمسك الشمس.

وقعد قوم عند معروف رحمه الله فقال: أما تريدون أن تقوموا؛ فإن ملك الشمس يجرها لا يفتر!

وفي الحديث: "من قال: سبحان الله العظيم وبحمده؛ غرست له نخلة في الجنة"، فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل!

وقد كان السلف يغتنمون اللحظات، فكان كهمس رحمه الله يختم القرآن كل يوم وليلة ثلاث مرات، وكان أربعون رجلًا من السلف يصلون الصبح بوضوء العشاء، وكانت رابعة العدوية تحيي الليل كله؛ فإذا طلع الفجر هجعت هجعة حقيقة، ثم قامت فزعة، وقالت لنفسها: النوم في القبور طويل» (٥٢٦)

وقال القاضي أبو الطيب الطبري:

الدارقطني أمير المؤمنين في الحديث.

وقال الخطيب: قال لي أبو القاسم الأزهري:

---

(٥٢٥) «الزهد» لأحمد (ص١٨٦).

(٥٢٦) «صيد الخاطر» (ص٥٠٥).

كان الدارقطني ذكيًّا إذا ذكر شيئًا من العلم أي نوع كان، وجد عنده منه نصيب وافر، لقد حدثني محمد بن طلحة النعالي أنه حضر مع الدارقطني دعوة فجرى ذكر الأكلة فاندفع الدارقطني يورد نوادر الأكلة حتى قطع أكثر ليلته بذلك. قال الأزهري: رأيت الدارقطني أجاب ابن أبي الفوارس عن علة حديث أو اسم، فقال: يا أبا الفتح ليس بين الشرق والغرب من يعرف هذا غيرى.

وقال الخطيب في ترجمة الدارقطني: سألت البرقاني: هل كان أبو الحسن يملي عليك العلل من حفظه؟ قال: نعم، وأنا الذي جمعتها وقرأها الناس من نسختي؛ وحدثنا العتيقي قال: حضرت مجلس الدارقطني وجاءه أبو الحسن البيضاوي برجل غريب وسأله أن يملي عليه أحاديث فأملى عليه من حفظه مجلسًا يزيد أحاديثه على العشرين، متون جميعها: نعم الشيء الهدية أمام الحاجة. فانصرف الرجل ثم جاءه بعد وقد أهدى له شيئًا فقربه إليه فأملى عليه من حفظه سبعة عشر حديثًا متونها: إذا جاء كم كريم قوم فأكرموه.

قلت (الذهبي): هنا يخضع للدارقطني ولسعة حفظه الجامع لقوة الحافظة ولقوة الفهم والمعرفة، وإذا شئت أن تبين براعة هذا الإمام الفرد فطالع العلل له فإنك تندهش ويطول تعجبك. قال السلمي: سمعت الدارقطني يقول: ما شيء أبغض إليَّ من الكلام. قال ابن طاهر: اختلفوا ببغداد فقال قوم: علي أفضل من عثمان رضي الله عنهما فتحاكموا إلى الدارقطني قال: فأمسكت وقلت: الإمساك خير، ثم لم أر لديني السكوت وقلت: عثمان أفضل لاتفاق جماعة أصحاب رسول الله ﷺ على هذا، وهو قول أهل السنة وهو أول عقد يحل من الرفض» (٥٢٧)

(٥٢٧) «تذكرة الحفاظ للذهبي» (٣/ ١٣٣).

وقال حَفْصَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بِأَرْدَبِيل:

اشْتَهَيْتُ أَنْ أَرْحَلَ إِلَى أَبِي زُرْعَةَ الرَّازِيِّ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي، فَدَخَلْتُ الرَّيَّ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَرَأَيْتُهُ فِي النَّوْمِ يُصَلِّي فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا بِالْمَلَائِكَةِ، فَقُلْتُ: عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قُلْتُ: بِمَ نِلْتَ هَذَا؟ قَالَ: كَتَبْتُ بِيَدِي أَلْفَ أَلْفِ حَدِيثٍ، أَقُولُ فِيهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: " مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا " (٥٢٨)

وعن مُحَمَّدِ بنِ نَصْرٍ الطَّبَرِيِّ، قَالَ:

دَخَلْتُ عَلَى يَحْيَى بنِ مَعِينٍ، فَوَجَدْتُ عِنْدَهُ كَذَا وَكَذَا سِفْطاً دَفَاتِرَ، وَسَمِعْتُهُ يَقُوْلُ: كَتَبْتُ بِيَدِي أَلْفَ أَلْفِ حَدِيْثٍ» (٥٢٩)

وقال أبو جعفر الطبري لأصحابه:

أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة.

فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة.

ثم قَالَ: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحوا مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله ماتت الهمم» (٥٣٠)

---

(٥٢٨) الخطيب في «تاريخ بغداد ت بشار» (١٢/ ٣٣).

(٥٢٩) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١١/ ٨٥).

(٥٣٠) «تاريخ بغداد ت بشار» (٢/ ٥٤٨).

وقال البيهقي في ترجمة علي بن الحسن بن هبة الله أبي القاسم ابن عساكر:

عدد شيوخه الذين رتبهم في "معجمه" ألف وثلاثمائة شيخ بالسماع، وستة وأربعون شيخا أنشدوه، ومائتان وتسعون شيخا بالإجازة، وبضع وثمانون امرأة» (٥٣١)

وقال الْخَطِيب فِي تَرْجَمَة الْحِيرِي إِسْمَاعِيل بن أَحْمد النَّيْسَابُورِي الضَّرِير:

ولما ورد بغداد كان قد اصطحب معه كتبه عازما على المجاورة بمكة وكانت وقر بعير وفي جملتها " صحيح البخاري "، وكان سمعه من أبي الهيثم الكشميهني عن الفربري فلم يقض لقافلة الحجيج النفوذ في تلك السنة لفساد الطريق ورجع الناس فعاد إسماعيل معهم إلى نيسابور ولما كان قبل خروجه بأيام خاطبته في قراءة كتاب " الصحيح " فأجابني إلى ذلك فقرأت جميعه عليه في ثلاثة مجالس، اثنان منها في ليلتين كنت أبتدأ بالقراءة وقت صلاة المغرب وأقطعها عند صلاة الفجر، وقبل أن أقرأ المجلس الثالث عبر الشيخ إلى الجانب الشرقي مع القافلة ونزل الجزيرة بسوق يحيى، فمضيت إليه مع طائفة من أصحابنا كانوا حضروا قراءتي عليه في الليلتين الماضيتين، وقرأت عليه في الجزيرة من ضحوة النهار إلى المغرب ثم من المغرب إلى وقت طلوع الفجر ففرغت من الكتاب، ورحل الشيخ في صبيحة تلك الليلة مع القافلة» (٥٣٢)

---

(٥٣١) «شعب الإيمان» (١/ ٧١ ط الرشد).

(٥٣٢) «تاريخ بغداد ت بشار» (٧/ ٣١٧).

قال الذهبي معلقاً على ذلك:

«وهذا شيء لا أعلم أحدًا فِي زماننا يستطيعه» (٥٣٣)

وقال السخاويُّ:

«ولقد سألته-أي ابن حجر- فقلت له: يا سيدي، كما في شريف علمكم، أنَّ الحافظَ الخطيب أبا بكر البغدادي لقي كريمة المروزية بمكة، فقرأ عليها "الصحيح" في أيام منى، فهل وقع لكم استيفاءُ يومٍ في القراءة؟ فقال: لا، ولكن قراءتي "الصحيح" في عشرة مجالس لو كانت متواليةً، لنقصت عن هذه الأيام، ولكن أين الثُّريا مِنَ الثَّرى، فإن الخطيب -رحمه اللَّه- قراءته في غايةٍ من الصِّحَّة، والجودة والإفادة وإبلاغ السَّامعين» (٥٣٤)

وقال عن شيخه ابن حجر:

قرأ "السنن" لابن ماجه، في أربعة مجالس. وقرأ "صحيح مسلم" بالمدرسة المنكوتمرية على مسنِد مصر الشرف أبي الطاهر محمد بن العز محمد بن الكُويك الرَّبعي، في أربعة مجالس، سوى مجلس الختم، وذلك في نحو يومين وشيء، فإنه كان الجلوس مِنْ بُكرة النَّهار إلى الظهر .....

---

(٥٣٣) «تاريخ الإسلام - ت بشار» (١٠/ ١٨٢).

(٥٣٤) «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» (١/ ١٦٣).

وما وقع لصاحب الترجمة في قراءة "صحيح مسلم" أجلُّ ممَّا وقع لشيخه المجد اللغوي صاحب "القاموس"، فإنه قرأه بدمشق بين بابي الفرج والنصر تُجاه نعل النبي ﷺ على ناصر الدين أبي عبد اللَّه محمد بن جَهْبَل في ثلاثة أيام، وتَبَجَّح بذلك، فقال: قرأتُ -بحمد اللَّه "جامع مسلم" بجوف دمشق الشام، كرسي الإسلام، على ناصر الدين شيخنا ابن جَهْبَل، بحضرة حُفاظ مخاريج أعلام، وتمَّ بتوفيق الإله بفضله قراءة ضبط في ثلاثة أيام.

وكذا قرأ "كتاب النسائي الكبير" على الشرف المذكور في عشرة مجالس، كل مجلس منها نحو أربع ساعات. وسمعه بقراءته الفضلاءُ والأئمةُ.....

وأسرعُ شيء وقع له أنه قرأ في رحلته الشامية "معجم الطبراني الصغير" في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر، وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحوٍ مِنْ ألف حديثٍ وخمسمائة حديث؛ لأنَّه خرَّج فيه عن ألف شيخ، عن كلِّ شيخٍ حديثًا أو حديثين» (٥٣٥)

وقال السخاويُّ في ترجمة عُثْمَان بن مُحَمَّد بن عُثْمَان بن نَاصِر أَبو عَمْرو الديمي:

«وَقَرَأَ وَهُوَ هُنَاكَ الصَّحِيح - للبخاري -بِتَمَامِهِ فِي الرَّوْضَة الشَّرِيفَة فِي أَرْبَعَة أَيَّام» (٥٣٦)

(٥٣٥) «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» (١/ ١٦٢).

(٥٣٦) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٥/ ١٤١).

وقال السخاويُّ في ترجمة أَحْمد بن مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد الْملك بن الزين أَحْمد بن الْجمال مُحَمَّد بن الصفي مُحَمَّد بن الْمجد حُسَيْن بن التَّاج عَليّ الْقُسْطَلَانِيّ الأَصْل الْمصْرِيّ الشَّافِعِي:

«وَقَرَأَ الصَّحِيح بِتَمَامِهِ فِي خَمْسَة مجَالِس على النشاوي وَكَذَا قَرَأَ عَلَيْهِ ثلاثيات مُسْند أَحْمد وَسمع عَلَيْهِ مشيخة ابْن شَاذان الصُّغْرَى وَغَيرهَا» (٥٣٧)

وقال نجم الدين الغَزِّي في ترجمة إبراهيم البقاعي الحنبلي:

«قرأ على شيخ الإسلام الوالد في الأصول والعربية، وحضر دروسه كثيراً، وقرأ عليه بداية الهداية للغزالي والبخاري، كاملاً في ستة أيام، أولها يوم السبت حادي عشري رمضان سنة ثلاثين وتسعمائة، وصحيح مسلم كاملاً في رمضان سنة إحدى وثلاثين في خمسة أيام متفرقة في عشرين يوماً» (٥٣٨)

وقال الفاسي في ترجمة زين الدين أبو الفضل المعروف بابن العراقي:

«وسمع "صحيح مسلم" بقراءته في ستة مجالس على محمد بن إسماعيل ابن الخباز بدمشق وقرأ عليه بها المسند لأحمد بن حنبل في نحو ثلاثين ميعادا» (٥٣٩)

---

(٥٣٧) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٢/ ١٠٣)

(٥٣٨) «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» (٢/ ٧٦).

(٥٣٩) «ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد» (٢/ ١٠٦).

وقال عُبَيْد بْن يَعِيش:

«أَقَمْتُ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا أَكَلْتُ بِيَدِي يَعْنِي بِاللَّيْلِ كَانَتْ أُخْتِي تُلْقِمُنِي وَأَنَا أَكْتُبُ» (٥٤٠)

وقال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي:

«أنا أقصرُ بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على الخبزة لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفرا على مطالعة، أو تسطير فائدة، لم أدركها فيه»

ألف كتابه الفنون في ثمانمائة مجلد طُبع منه مجلدان" (٥٤١)

وقال: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عُمري، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملتُ فكري في حال راحتي، وأنا مستطرح، فلا أنهض إلاّ وقد خطر لي ما أسطره. وإني لأجدُ من حرصي على العلم. وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجدُه وأنا ابن عشرين سنة» (٥٤٢)

وعن عِمَارَة بنِ خُزَيْمَةَ بن ثَابِتٍ قال: سمعتُ عُمَرَ بن الخطَّابِ يقولُ لأَبِي:

(٥٤٠) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ١٧٨).
(٥٤١) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٣٢٥).
(٥٤٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٣٢٤).

ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال لَه أَبي:
أَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ أموتُ غَدًا فقال له عُمَرُ: أعْزِمُ عَلَيْكَ لَتَغْرِسَنَّهَا، فلقد رأَيتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب يَغْرِسُهَا بِيَدِهِ مع أَبِي"» (٥٤٣)

وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ:
حَدَّثَنِي شَيْخٌ كَاتِبٌ ذَكَرَ أَنَّهُ قَرَابَةُ يَحْيَى بنِ مَعِيْنٍ، قَالَ: كَانَ مَعِيْنٌ عَلَى خَرَاجِ الرَّيِّ، فَمَاتَ فَخَلَّفَ لِيَحْيَى ابْنِهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَأَنفَقَهُ كُلَّهُ عَلَى الحَدِيْثِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ نَعلٌ يَلبَسُهُ» (٥٤٤)

وقال الترمذي:
حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ الشَّهِيدِ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ وَهُوَ يَتَّكِئُ عَلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَلَيْهِ ثَوْبٌ قِطْرِيٌّ (٥٤٥)
قَدْ تَوَشَّحَ بِهِ، فَصَلَّى بِهِمْ. وَقَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ: سَأَلَنِي يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَوَّلَ مَا جَلَسَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، فَقَالَ: لَوْ كَانَ مِنْ كِتَابِكَ، فَقُمْتُ لِأُخْرِجَ كِتَابِي

---

(٥٤٣) «الجامع الكبير» للسيوطي (١٦/ ٥٣٠).
(٥٤٤) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٩/ ١٢٦).
(٥٤٥) قطري ضرب من البرود اليمانية يُصنع من قطن له أعلامٌ.

فَقَبَضَ عَلَى ثَوْبِي ثُمَّ قَالَ: أَمْلِهِ عَلَيَّ؛ (٥٤٦) فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَلْقَاكَ، قَالَ: «فَأَمْلَيْتُهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ كِتَابِي فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ» وقال عفان بن مسلم، والحسن بن موسى الأشيب " ثوب قطن " (٥٤٧)

وعَنْ مَكْحُولٍ:

قَالَ: عُتِقْتُ بِمِصْرَ، فَلَمْ أَدَعْ بِهَا عِلْماً إِلَاّ احْتَوَيْتُ عَلَيْهِ فِيمَا أَرَى، ثُمَّ أَتَيْتُ العِرَاقَ، فَلَمْ أَدَعْ بِهَا عِلْماً إِلَاّ احْتَوَيْتُ عَلَيْهِ فِيمَا أَرَى، ثُمَّ أَتَيْتُ المَدِينَةَ، فَلَمْ أَدَعْ بِهَا عِلْماً إِلَاّ احْتَوَيْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَتَيْتُ الشَّامَ، فَغَرْبَلْتُهَا، كُلُّ ذَلِكَ أَسْأَلُ عَنِ النَّفَلِ، فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً يُخْبِرُنِي عَنْهُ، حَتَّى مَرَرْتُ بِشَيْخٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ يُقَالُ لَهُ: زِيَادُ بْنُ جَارِيَةَ جَالِساً عَلَى كُرْسِيٍّ، فَسَأَلْتُهُ.

فَقَالَ: حَدَّثَنِي حَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ، قَالَ: شَهِدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَفَلَ فِي البُدَاءَةِ الرُّبُعَ، وَفِي الرَّجْعَةِ الثُّلُثَ» (٥٤٨)

---

(٥٤٦) أمله بكسر الميم وتشديد اللام المفتوحة وهو من الإملال بمعنى الاملاء، والمعنى اقرأه عليّ من حفظك. وفي نسخة (إمله).

(٥٤٧) صحيح: أخرجه الترمذي في «الشمائل المحمدية» برقم (٦٠) وفيه عنعنة الحسن البصري، ولكنه توبع، تابعه حميد أخرجه الترمذي في «الشمائل المحمدية» برقم (١٣٦) وأحمد برقم (١٣٧٦٢) بسند صحيح.

(٥٤٨) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٥/ ١٥٨).

وأمير المؤمنين في الحديث شعبة وما أدراك ما شعبة يقول:
«إِنِّي لَأُذَاكِرُ بِالْحَدِيثِ قَدْ فَاتَنِي فَأَمْرَضُ» (٥٤٩)

وقال أبو حاتم: قال لي أبو زُرْعة:
ما رأيتُ أحرَصَ على طَلَبِ الحديثِ منك! فقلتُ له: إنَّ عبد الرحمن ابني لَحَرِيصٌ. فقال: مَنْ أشبَهَ أباه فما ظَلَمَ. قال الرَّقَّام: فسألتُ عبد الرحمن عن اتفاق كَثْرةِ السماعِ له وسؤالاته لأبيه؟ فقال: ربَّما كان يأكُلُ وأقرأُ عليه، ويَمْشِي وأقرأُ عليه، ويدخُلُ الخلَاءَ وأقرأُ عليه، ويدخُلُ البيتَ في طَلَبِ شيء وأقرأُ عليه!» (٥٥٠)

ومن ثمرة اغتنام الوقت التراث الهائل الذي خلفه هؤلاء ومنهم:

النووي رضى الله عنه توفي وعمره خَمس وأربعون سنة، وله "رياض الصالحين"، و"الأذكار"، و"شرح صحيح مسلم"، و"الأربعون النووية"، و"المجموع شرح المهذب"وغيرها.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه ألف كتابه "العقيدة الواسطية" في جَلسة بين الظهر والعصر، وكان بناء على طلبٍ من قاضي واسط رضيّ الدينِ الواسطيّ. وكذا "الفتوى الحموية" وهي تقع في مجلد ضخم، ألفه في جلسة بعد العصر.

---

(٥٤٩) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٧/ ١٥٥).
(٥٥٠) العلل» لابن أبي حاتم (١/ ٢٧٧ ت الحميد).

المبحث التاسع:

إتقان الحفظ.

٩-إتقان الحفظ.

الحفظ ركيزة أساسية في طلب العلم

والحفظ: أن يستظهر الكلام عن ظهر قلب، فيضبطه في صدره ويثبته، بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء.

قال عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيٍ: "الْحِفْظُ الإِتْقَانُ» (٥٥١)

وقد قيل: مَنْ حفظَ المتونَ حازَ الفنونَ.

وقيل: مَنْ حفظَ المنظوماتِ بلغَ المقاماتِ.

وقيل: من حفظ الأصول ضمن الوصول.

وقالَ الرَّحبيُّ في الفرضيَّةِ:

.... فَاحْفَظ فَكُلُّ حَافِظٍ إِمامُ.

(٥٥١) «أمالي المحاملي رواية ابن مهدي الفارسي» (ص١٨٠).

وَلأبي بكر الْخَوَارِزْمِيّ رِسَالَة فِي آفَات الْكتب، جمع نكتها بعض تلامذته، فِي قَوْله:

عَلَيْك بِالْحِفْظِ دون الْجمع فِي كتب فَإِن للكتـــب آفَات تفرقها

المَاء يغرقها، وَالنَّار تحـــــــرقها والفأر يخرقها، واللص يسرقها (٥٥٢)

وقال أبو هلال العسكري:

«وَإِذَا كَانَ مَا جَمَعْتَهُ مِنَ الْعِلْمِ قَلِيلا وَكَانَ حِفظًا، كَثُرَتِ الْمَنْفَعَةُ بِهِ، وَإِذَا كَانَ كثيرا غير مَحْفُوظ، قلت منفعته.

وَحَدَّثَنِي الضَّرَّابُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ النَّفَّاطُ يَقُولُ: كَانَ عِلْمُ الأَصْمَعِيِّ فِي قِمَطْرٍ إِلا أَنَّهُ كَانَ حِفْظًا.

وَكَانَتْ كُتُبُ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلاءِ مِلْءَ بَيْتٍ، فَاحْتَرَقَ، فَكَانَ جَمِيعُ مَا يُؤْخَذ مِنْهُ إِلَى آخِرِ عُمْرِهِ مِنْ حِفْظِه.

وَالَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ أَخْبَارُ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ الْخُطْبَةَ وَالْقَصِيدَةَ الطويلتين فيحفظونهما» (٥٥٣)

---

(٥٥٢) «تحسين القبيح وتقبيح الحسن» (ص٥١).

(٥٥٣) «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» (ص٧٤).

«أَمَرَ الرَّشِيدُ أَبَا يُوسُفَ الْقَاضِيَ، بِأَنْ يَجْمَعَ لَهُ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ فَيُحَدِّثُوهُ وَوَلَدَهُ، فَجَمَعَ لَهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ فَحَضَرُوا، إِلا عبد الله بن إِدْرِيس، وَعِيسَى ابْنَ يُونُسَ، فَإِنَّهُمَا أَبَيَا أَنْ يَحْضُرَا.

فَرَكِبَ إِلَيْهِمَا الأَمِينُ وَالْمَأْمُونُ، فَحَدَّثَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ بِمِائَةِ حَدِيثٍ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَقْرَأَهَا عَلَيْكَ مِنْ حِفْظِي فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ.

فَوَضَعَ الْكِتَابَ مِنْ يَدِهِ، وَقَرَأَهَا بِأَسَانِيدِهَا مِنْ حِفْظِهِ.

وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْمَأْمُونُ مَالا، فَلم يَقْبَلْهُ، وَسَأَلَهُ الْمَأْمُونُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِطَبِيبٍ يُدَاوِيهِ مِنْ جِرَاحَةٍ بِهِ، فَأَبَى وَقَالَ: يشفيني الَّذِي أمرضني.

وَأَمَرَ لَهُ الْمَأْمُونُ بِعَشَرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ: لَا أَقْبَلُ عَلَى حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَرْبَةَ مَاءٍ.

فَزَادَهُ الْمَأْمُونُ عَشَرَةَ آلافٍ أُخْرَى، فَلَمْ يَقْبَلْهَا، وَقَالَ: لَوْ مَلأْتَ هَذَا الْمَسْجِدَ لي ذَهَبا لم أقبله.

وَقَالَ الْمَنْصُورُ بْنُ الْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ: أَيَحْسُنُ بِمِثْلِي أَنْ يَتَعَلَّمَ فَقَالَ: وَاللَّهِ لأَنْ تَمُوتَ طَالِبًا لِلْعِلْمِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَمُوتَ قَانِعًا بِالْجَهْلِ» (٥٥٤)

ومن شعر ابن حزم يصف ما أحرق ابن عباد من كتبه:

فَإِنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاسَ لَا تَحْرِقُوا الَّذِي تَضَمَّنَهُ القِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيْرُ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّـــتْ رَكَائِبِي وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزِلْ وَيُدْفَـــنُ فِي قَبْرِي

(٥٥٤) «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» (ص٧٤).

دَعُونِي مِنْ إِحْـــــرَاقِ رقٍّ وكاغدٍ وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَي يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي
وَإِلَاّ فَعُودُوا فِي المَكَاتِـــــبِ بَدْأَةً فَكَمْ دُونَ مَا تَبْغُونَ للهِ مِنْ سِـــــتْرِ
كَذَاكَ النَّـــصَارَى يَحْرِقُوْنَ إِذَا عَلَتْ أَكفُّهم القُرْآنَ فِي مُدُنِ الثَّـــغْرِ (٥٥٥)

وقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ:
«كُلُّ عِلْمٍ لَا يَدْخُلُ مَعَ صَاحِبِهِ الْحَمَّامَ فَلَا تَعُدَّهُ عِلْمًا» (٥٥٦)

وأَنْشَدَ أَبُو الْفَتْحِ هِبَةُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْبَغْدَادِيُّ لِبَشَّارٍ:
عِلْمِي مَعِي أَيْنَمَا يَمَّـــــمْتُ يَتْبَعُـــنِي بَطْنِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْـــــــدوقِ
إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ (٥٥٧)

وقال هُشَيْمٌ:
مَن لَمْ يَحْفَظِ الْحَدِيثَ فَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ بِكِتَابٍ يَحْمِلُهُ كَأَنَّهُ سِجِلُ مُكَاتِبٍ» (٥٥٨)

---

(٥٥٥) «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» (١/ ١٧١).
(٥٥٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٥٠).
(٥٥٧) السابق.
(٥٥٨) «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ١٨١).

وقال محمد بن يسير الأزدي:

أَمَا لَوْ أَعِي كُلَّ مَا أَسْمَعُ ... وَأَحْفَظَ مِنْ ذَاكَ مَا أَجْمَعُ
وَلَمْ أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قَدْ جَمَعْتُ ... لَقِيلَ هُوَ الْعَالِمُ الْمَقْنَعُ
وَلَكِنَّ نَفْسِي إِلَى كُلِّ فَنٍّ ... مِنَ الْعِلْمِ تَسْمَعُهُ تَنْزَعُ
فَلَا أَنَا أَحْفَظُ مَا قَدْ جَمَعْتُ ... وَلَا أَنَا مِنْ جَمْعِهِ أَشْبَعُ
وَمَنْ يَكُ فِي عِلْمِهِ هَكَذَا ... يَكُنْ دَهْرَهُ الْقَهْقَرِيَّ يَرْجِعُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا ... فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لَا يَنْفَعُ
أَأَحْضُرُ بِالْجَهْلِ فِي مَجْلِسٍ ... وَعِلْمِي فِي الْكُتُبِ مُسْتَوْدَعُ (٥٥٩)

وقال صديق بن حسن القنوجي:

«وينبغي أن يحفظ ما كتبه من العلم إذ العلم ما ثبت في الخواطر لا ما أودع في الدفاتر بل الغرض منه المراجعة إليها عند النسيان للاعتماد عليها» (٥٦٠)

وقال أبو سعد ابن دوست:

عَلَيْكَ بِالْحِفْظِ دُونَ الْكُتْبِ تَجْمَعُهَا ... فَإِنَّ لِلْكُتْبِ آفَاتٍ تُفَرِّقُهَا
الْمَاءُ يُغْرِقُهَا وَالنَّارُ تَحْرِقُهَا ... وَاللِّصُّ يَسْرِقُهَا وَالْفَارُ يَخْرِقُهَا

(٥٥٩) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٩٣).
(٥٦٠) «أبجد العلوم» (ص١٣٦).

«وَكَانَتْ كُتُبُ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلاءِ مِلْءَ بَيْتٍ، فَاحْتَرَقَ، فَكَانَ جَمِيعُ مَا يُؤْخَذ مِنْهُ إِلَى آخِرِ عُمْرِهِ مِنْ حِفْظِهِ» (٥٦١)

وقال أبو أحمد محمد بن عبد الله الزبيري:

لا أبالي أن يسرق منى كتاب سفيان، إني أحفظه كله» (٥٦٢)

وذهبتْ كتب أحمد بن عَمرو ابن أبي عاصم النَّبيل

قاضي أصبهان بالبصرة في فتنة الزَّنج، فأعاد من حِفظه خمسينَ ألف حديث» (٥٦٣)

وَكَانَ أَبُو المحاسن عبد الواحد إِسْمَاعِيْلَ بنِ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدٍ الرُّوياَنِيُّ يَقُوْلُ:

لَوِ احْتَرَقت كُتُبُ الشَّافِعِيّ، لأَمليتُهَا مِنْ حِفْظِي» (٥٦٤)

---

(٥٦١) «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» (ص٧٤)

(٥٦٢) «الأنساب للسمعاني» (٦/ ٢٦٩).

(٥٦٣) «طبقات علماء الحديث» (٢/ ٣٤٧).

(٥٦٤) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٤/ ٢٣٣).

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ سَلَمَةَ:

" مَا رَأَيْتُ بَعْدَ إِسْحَاقَ وَمُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى أَحْفَظَ لِلْحَدِيثِ، وَلَا أَعْلَمَ بِمَعَانِيهِ مِنْ أَبِي حَاتِمٍ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ» (٥٦٥)

وأبو الطيب المتنبي:

كان من الكثيرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها، ولا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر،

حتى قيل: إن الشيخ أبا علي الفارسي، صاحب الإيضاح والتكملة، قال له يوماً: كم لنا من الجموع على وزن فعلي: فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال علي أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً، فلم أجد» (٥٦٦)

وحكي عن الشافعي:

أنه كان يحفظ ثلاثمائة كراس. فقال: حفظ الشافعي زكوة ما أحفظ. فحسب حفظه فكان أثنى عشر ألف كراس.

قلت: وقد شاع عنه ـالسرخسيـ أنه أملى المبسوط من حفظه من غير مراجعة إلى شيء من الكتب ويدل على ذلك ما قرأته فيه:

---

(٥٦٥) «معرفة علوم الحديث للحاكم» (ص٧٦).

(٥٦٦) «وفيات الأعيان» (١/ ١٢٠).

" انتهى ربع البيوع، من المبتهل إلى الله تعالى بالخضوع وإسبال الدموع، المنقطع عن الأهل والكتاب المجموع"» (٥٦٧)

وملك الْكَلَام أَبُو تَمام:

كَانَ وَاحِدَ عَصْرِهِ فِي ديباجة لفظه، وفصاحة شعره وَحُسْنِ أُسْلُوبِهِ. أَلَّفَ "الحَمَاسَةَ" فَدَلَّتْ عَلَى غَزَارَةِ مَعْرِفَتِه بِحُسْنِ اخْتِيَارِهِ وَلَهُ كِتَابُ فُحُوْلِ الشُّعَرَاءِ، وَقِيْلَ: كَانَ يَحْفَظُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ أُرْجُوْزَةٍ لِلْعَرَبِ» (٥٦٨)

وقال أبو بكر البرقاني:

سألت الدارقطني لما قَدِم من مصر: هل رأيت في طريقك مَنْ يَفهم شيئًا من العلم؟

قال: ما رأيت في طول طَرِيقِي إلا شَابًّا بمصر يقال له: عبدُ الغَنِي (بن سعيد الأزْدِي) كأنه شُعلة نار، وجعل يُفَخِّم أمره، ويرفع ذكره.

قال أبو بكر البرقاني: ما رأيت بعد الدارقطني أحفظ من عبد الغني» (٥٦٩)

---

(٥٦٧) «تاج التراجم» لابن قطلوبغا (ص٢٣٤).

(٥٦٨) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٩/ ١٢٠).

(٥٦٩) «تهذيب مستمر الأوهام» (ص٥٧).

وقصد أبو بكر الخوارزمي الشاعر حضرة ابن عباد وهو بأرجان

فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه: قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول، فدخل الحاجب وأعلمه، فقال الصاحب، قل له: قد ألزمت نفسي ألا يدخل علي من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر: ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال، فقال الصاحب: هذا يريد أن يكون أبا الخوارزمي، فأذن له في الدخول، فدخل عليه فعرفه وانبسط له» (٥٧٠)

وذكر ابن حجر في ترجمة سراج الدين البلقيني:

لما دخل الشيخ شرف الدين ابن قاضي الجبل القاهرة اجتمع به في مدعاه وأنه قال له: أيما أحفظ أنا أم أنت؟ فقال له شيخنا: تذكر أأذكر؟ قال: بل أذكر قال شيخنا: فشرعت من أول أبواب الفقه أذكر الحديث وما يناسبه من تصحيح وتضعيف إلى ان طلع الفجر وقد وصلت إلى كتاب النكاح فقام وقبل بين عيني وقال: ما رأيت بعد شيخنا أحفظ منك -يعني ابن تيمية-» (٥٧١)

---

(٥٧٠) «وفيات الأعيان» (٤/ ٤٠١).

(٥٧١) «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس» (٢/ ٢٩٩).

وطلع عمر بن عبد الله بن أبي ربيعَة وَهُوَ يَوْمئِذٍ غلامٌ فَسلم وَجلسَ. فَقَالَ ابْن عَبَّاس: أَلا تنشدنا شَيْئا؟ فأنشده:

أَمن آل نعمٍ أَنْت غاد فمبكر غَدَاة غد أم رائحٌ فمهجر

حَتَّى أتمهَا وَهِي ثَمَانُونَ بَيْتا، فَقَالَ لَهُ ابْن الْأَزْرَق: لله أَنْت يَا بن عَبَّاس، أنضرب إِلَيْك أكباد الْإِبِل نَسْأَلك عَن الدّين فتعرض، ويأتيك غلامٌ من قُرَيْش فينشدك سفهاً فتسمعه؟ فَقَالَ: لَا وَالله مَا سَمِعت سفها. فَقَالَ ابْن الْأَزْرَق: أما أنْشدك. رَأَت رجلا إِذا الشَّمْس عارضت ... فيخزى، وَأما بالعشى فيخسر فَقَالَ: مَا هَكَذَا قَالَ إِنَّمَا قَالَ: فيضحى، وَأما بالعشى فيخصر. قَالَ: أَو تحفظ الَّذِي قَالَ؟ قَالَ: وَالله مَا سَمعتهَا إِلَّا سَاعَتِي هَذِه، وَلَو شِئْت أَن أردهَا لرددتها. قَالَ: فارددها، فأنشده إِيَّاهَا. فَقَالَ نَافع: مَا رَأَيْت أروى مِنْك» (٥٧٢)

وحفظ أبو الفضائل القاضي فخر الدين المِصْريّ

الْمُخْتَصر الْأَصْلِيّ لِابْنِ الْحَاجِب فِي تِسْعَة عشر يَوْمًا وَكَانَ يحفظ من الْمُنْتَقى كل يَوْم خَمْسمِائَة سطر» (٥٧٣)

وَكَانَ الأصمعي ذَا حِفْظٍ، وَذكَاءٍ وَلُطْفِ عِبارَةٍ فَسَادَ.

(٥٧٢) «الكامل في اللغة والأدب» (٣/ ١٦٩).

(٥٧٣) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٥/ ٣٠٣).

وَرَوَى ثَعْلَبٌ عَنْ أَحْمَدَ بنِ عُمَرَ النَّحْوِيِّ قَالَ: قَدِمَ الحَسَنُ بنُ سَهْلٍ فَجَمَعَ أَهْلَ الأَدَبِ، وَحَضَرْتُ وَوَقَّعَ الحَسَنُ عَلَى خَمْسِيْنَ رُقْعَةً، وَجَرَى ذِكْرُ الحُفَّاظِ فَذَكَرْنَا الزُّهْرِيَّ، وَقَتَادَةَ فَقَالَ الأَصْمَعِيُّ: فَأَنَا أُعِيدُ مَا وَقَّعَ بِهِ الأَمِيْرُ عَلَى التَّوَالِي فَأُحْضِرَتِ الرِّقَاعُ فَقَالَ: صَاحِبُ الرُّقْعَةِ الأُوْلَى كَذَا، وَكَذَا وَاسْمُهُ كَذَا وَكَذَا، وَوَقَّعَ لَهُ بِكَذَا وَكَذَا، وَالرُّقْعَةُ الثَّانِيَةُ كَذَا وَالثَّالِثَةُ حَتَّى مَرَّ عَلَى نَيِّفٍ، وَأَرْبَعِيْنَ رُقْعَةً فَقَالَ نَصْرُ بنُ عَلِيٍّ الجَهْضَمِيُّ: أَيُّهَا المَرْءُ أَبْقِ عَلَى نَفْسِكَ مِنَ العَيْنِ» (٥٧٤)

وقال أبو حاتم:

قلتُ للأصمعيّ: إن الناس يحملون عنك أنك تَرْوي أربعة عشر ألف أرجوزة. قال: أنا أروي ستة عشر ألف أرجوزة، إلا أن منها قصارًا وطوالًا» (٥٧٥)

وقَالَ الْقُرْقُسَانِيّ:

كُنْتُ آتِي الْأَوْزَاعِيَّ، فَيُحَدِّثُ بِثَلَاثِينَ حَدِيثًا، فَإِذَا تَفَرَّقَ النَّاسُ عَرَضْتُهَا عَلَيْهِ، فَلَا أُخْطِئُ فِيهَا، فَيَقُولُ الْأَوْزَاعِيُّ: «مَا أَتَانِي أَحْفَظُ مِنْكَ» (٥٧٦)

---

(٥٧٤) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٨/ ٣٢٥).

(٥٧٥) «طبقات النحويين واللغويين» (ص١٧١).

(٥٧٦) «المحدث الفاصل ت عجاج» (ص٣٩٩).

وقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ، أَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ:
دَخَلَ إِلَيْنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْخَتَلِيُّ، إِلَى الْبَصْرَةِ، وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ كُتُبِهِ، فَحَدَّثَ شُهُورًا إِلَى أَنْ لَحِقَتْهُ كُتُبُهُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَدَّثْتُ بِخَمْسِينَ أَلْفِ حَدِيثٍ مِنْ حِفْظِي إِلَى أَنْ لَحِقَتْنِي كُتُبِي» (٥٧٧)

وقال أَبو بَكْرٍ الْجِعَابِيّ:
دَخَلْتُ الرَّقَّةَ وَكَانَ لِي ثَمَّ قِمَطْرَانِ كُتُبًا فَأَنْفَذْتُ غُلامِي إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي كُتُبِي عِنْدَهُ فَرَجَعَ الْغُلامُ مَغْمُومًا فَقَالَ: ضَاعَتِ الْكُتُبُ، فَقُلْتُ: يَا بُنَيَّ لا تَغْتَمَّ فَإِنَّ فِيهَا مِائَتَيْ أَلْفَ حَدِيثٍ لا يُشْكَلُ عَلَيَّ مِنْهَا حَدِيثٌ لا إِسْنَادًا وَلا مَتْنًا» (٥٧٨)

(٥٧٧) «تاريخ بغداد ت بشار» (١١/ ٥٨٧).
(٥٧٨) «تاريخ بغداد ت بشار» (٤/ ٤٢).

وأسباب الحفظ كثيرة منها:

١- ترك المعاصي:

قَالَ عَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ:
قُلْتُ لِوَكِيعِ بْنِ الْجَرَّاحِ: إِنِّي رَجُلٌ بَلِيدٌ وَلَيْسَ لِي حِفْظٌ، فَعَلِّمْنِي دَوَاءً لِلْحِفْظِ، فَقَالَ وَكِيعٌ: «يَا بُنَيَّ وَاللَّهِ مَا جَرَّبْتُ دَوَاءً لِلْحِفْظِ مِثْلَ تَرْكِ الْمَعَاصِي، فَإِنْ أَحْبَبْتَ حِفْظَ الْحَدِيثِ فَعَلَيْكَ بِهِ» (٥٧٩)

وقيل لسفيان بن عيينة:
بم وجدت الحفظ؟ قال: بترك المعاصي» (٥٨٠)

ولله در من قال:
شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي أَوْمَأَ لِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَقَالَ بِأَنَّ حِفظَ الشَّيْءِ فَضْلٌ وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُدْرِكُهُ عَاصِي (٥٨١)

---

(٥٧٩) ذكره أبو عثمان البحيري في «التاسع من فوائده» (ص٨٤).
(٥٨٠) «شعب الإيمان» (٣/ ٢٤٤ ط الرشد).
(٥٨١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٥٨).

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْفَتْحِ: سَمِعْتُ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ، يَقُولُ:
«إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُلَقَّنَ، الْعِلْمَ فَلَا تَعْصِ» (٥٨٢)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:
«إِنِّي لَأَحْسَبُ الرَّجُلَ يَنْسَى الْعِلْمَ يَعْلَمُهُ بِالْخَطِيئَةِ يَعْمَلُهَا» (٥٨٣)

٢-تقليل الأكل:

روي الإمامُ أحمد من حديث الْمِقْدَام بْن مَعْدِي كَرِب قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ طَعَامٍ، وَثُلُثٌ شَرَابٍ، وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ» (٥٨٤)

---

(٥٨٢) السابق.

(٥٨٣) «الزهد والرقائق - ابن المبارك - ت الأعظمي» برقم (٨٣).

(٥٨٤) صحيحٌ: أخرجه أحمد برقم (١٧١٨٦) من طريق يَحْيَى بْن جَابِرٍ الطَّائِيّ، قَالَ: سَمِعْتُ الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيّ قلت: يحيى بن جابر الطائي اختلفوا في سماعه من المقدام، فصحح الترمذي وابن حبان، والذهبي حديثه وصحح الحاكم ما صرح فيه بالسماع، وسكت عما رواه عنه بالعنعنة وحكم أبو حاتم: وتبعه المزي وابن حجر بإرساله. والمقدام قد نزل حمص ويحيى بن جابر حمصي وقد صرح بالتحديث. وله طرق أخرى منها:

.....

ما أخرجه ابن أبي الدنيا في "إصلاح المال"برقم (٣٥٠) بسند صحيح من طريق ثَوْرِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، وَحَبِيبِ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ..»

وما أخرجه ابن حبان في "صحيحه" برقم (٦٧٤) من طريق مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ جَابِرٍ، عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَا مِنْ وِعَاءٍ مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ» قلت: وسنده حسنٌ لأجل معاوية بن صالح.

وما أخرجه ابن حبان في "صحيحه" برقم (٥٢٣٦) من طريق صَالِحِ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ الْمِقْدَامِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُكَ يَا ابْنَ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَكَ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ ..» قلت: وصالح ضعيف.

وما أخرجه الطبراني في "الكبير" برقم (٦٦٢) من طريق حَرِيزِ بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مَلَأَ أَحَدٌ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، فَإِنْ غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ فَلْيَدَعْ ثُلُثًا لِنَفَسِهِ»

وقال عامر بن الظرِب العدواني

«رُبَّ أَكْلَةٍ تَمْنَع أَكَلات» (٥٨٥)

فهذا مثل للخصلة من الخَيْر تنَال على غير وَجه الصَّوَاب فَتكون سَببا لمنع أَمْثَالهَا.

وكان فرقد يقول لأصحابه:

إذا أكلتم فشدّوا الأزر على أوساطكم، وصغّروا اللقم، وشدّدوا المضغ، ومصوا الماء مصّا، ولا يحل أحدكم إزاره فيتسع معاه، وليأكل كلّ واحد من بين يديه.

وقالوا: كان ابن هبيرة يباكر الغداء، فسئل عن ذلك، فقال: إن فيه ثلاث خصال: أما الواحدة فإنه ينشف المرّة، والثانية أنه يطيّب النكهة والثالثة: أنه يعين على المروءة: قيل: وكيف يعين على المروءة؟ قال: إذا خرجت من بيتي وقد تغديت لم أتطلع إلى طعام أحد من الناس» (٥٨٦)

وقال مسلمة بن عبد الملك لملك الروم:

ما تعدّون الأحمق فيكم؟ قال الذي يملأ بطنه من كل ما وجد» (٥٨٧)

---

(٥٨٥) «الفاخر» (ص١٧٤).

(٥٨٦) «العقد الفريد» (٨/ ١١).

(٥٨٧) «العقد الفريد» (٨/ ١١).

وقال الحارث بن كلدة:

أربعة أشياء يهرمن البدن: الغشيان على البطنة، ودخول الحمّام على الامتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز.

وقال الأصمعي:

كنت عند هارون الرشيد فقدّمت إليه فالوذجة فقال: يا أصمعي، حدثني بحديث مزرد أخي الشماخ، قلت: إنّ مزرّدا كان رجلا جسيما، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد، وكان يحفظه ذلك منها، فذهبت يوما في بعض حقوق أهلها، وخلّفته في بيتها فدخل خيمتها فأخذ صاعين من دقيق، وصاعا من عجوة، وصاعا من سمن، فضرب بعضه ببعض وأكله ثم أنشأ يقول:

ولمّا مضت أمي تزور عيالها ... أغرت على العكّ الذي كان يمنع
خلطت بصاعي حنطة صاع عجوة ... إلى صاع سمن فوقها يتربّع
ودلّيت أمثال الأثافي كأنّها ... رءوس لعاد قطّعت لا تجمّع
وقلت لبطني أبشري اليوم إنّه ... حمى آمن مما يغير ويفزع
فإن مصفورا فهذا داؤه ... وإن كنت غرثانا فذا اليوم تشبع

فاستضحك منه حتى أمسك بطنه، واستلقى على ظهره، ثم قدّم يده بمال، وقال: خذ، فهذا يوم تشبع يا أصمعي» (٥٨٨)

وقال عمرو بن العاص:

---

(٥٨٨) «شرح مقامات الحريري» (٣/ ٣٢٩).

البطنة تذهب الفطنة» (٥٨٩)

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْحَكَمِ، قَالَ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ، يَقُولُ:
" لَقِيَ رَجُلٌ رَجُلًا فَوْقَهُ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ: كَمْ آكُلُ فَقَالَ: مَا فَوْقَ الْجُوعِ، وَدُونَ الشِّبَعِ قَالَ: فَكَمْ أَضْحَكُ؟ قَالَ: حَتَّى يُسْفِرَ وَجْهُكَ، عَلَى أَنْ لَا يُسْمَعَ صَوْتُكَ قَالَ: فَكَمْ أَبْكِي؟ قَالَ: لَا تَمَلَّ أَنْ تَبْكِيَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ. قَالَ: فَكَمْ أُخْفِي مِنْ عَمَلِي؟ قَالَ: حَتَّى لَا يَرَاكَ النَّاسُ أَنَّكَ تَعْمَلُ بِحَسَنَةٍ قَالَ: فَكَمْ أُظْهِرُ مِنْ عَمَلِي؟ قَالَ: حَتَّى يَأْتَمَّ بِكَ الْحَرِيصُ، وَيُؤْمَنَ عَلَيْكَ قَوْلُ النَّاسِ "» (٥٩٠)

وقال جالينوس:

«العاقل يترك ما يحب ليستغني عن العلاج بما يكره» (٥٩١)

وقال عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني في نونيّته:

لا تَحْشُو بطنَك بالطّعام تَسَمُّـنًا ... فَجُسُومُ أهل العلم غير ثِمَانِ
أَقْلِل طعامَك ما استطعتَ فإنّه ... نَفْعُ الجُسُوم وصحّة الأبدان
واملك هَوَاكَ بضبطِ بَطْنِك إنّه ... شَـرُّ الرِّجال العاجز البَطْنَا

(٥٨٩) «البيان والتبيين» (٢/ ٥٤).
(٥٩٠) «الفوائد والزهد والرقائق والمراثي» (ص٢٢).
(٥٩١) «التمثيل والمحاضرة» (ص١٨٠).

وروى ابن أبي حاتم عن الرَّبيع بْن سُلَيْمَان، قَالَ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ:
«مَا رَأَيْتُ سَمِينًا عَاقِلا قَطُّ، إِلا رَجُلا وَاحِدًا، مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ" (٥٩٢)

ومن وصية أبي عبد الرحمن الثوري التابعي المشهور لابنه

يا بنيّ عوّد نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش السّباع، ولا تخضم خضم البراذين، ولا تدمن الأَكْل إِدْمَان النِّعَاج، ولا تلقم لَقْمَ الْجِمَال، فإن الله تعالى جعلك إنسانا وفضّلك، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا. واحذر سرعة الكظّة وسرف البطنة.

قال بعض الحكماء: إذا كنت بطينا فعدّ نفسك من الزّمني ...

يا بنيّ، والله ما أدّى حقّ الركوع والسجود ذو كظّة، ولا خشع لله ذو بطنة، والصوم مصحّة، والوجبات عيش الصالحين.

أي بنيّ، لأمر مّا طالت أعمار الهند، وصحّت أبدان الأعراب. فلله درّ الحارث ابن كلدة حيث يزعم أنّ الدواء هو الأزم، وأنّ الداء إدخال الطعام إثر الطعام.

أي بنيّ، لم صفت أذهان الأعراب، وصحّت أبدان الرّهبان، مع طول الإقامة في الصوامع حتى لم تعرف النّقرس ولا وجع المفاصل ولا الأورام، إلّا لقلّة الرّزء وخفّة الزاد. وكيف لا ترغب في تدبير يجمع لك صحّة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح المعي» (٥٩٣)

---

(٥٩٢) أثر صحيح: أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي ومناقبه» (ص٩٨).
(٥٩٣) «عيون الأخبار» (٣/ ٢٣٩).

٣-شرب زمزم بنية العلم والعمل.

قال أبو عبد الله الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد بن حَمدَوَيْه، النيسابوري، الملقب بابن البيّع (ت ٤٠٥ هـ):

"شربت مَاء زَمْزَم وَسَأَلت اللَّه أَن يَرْزُقنِي حسن التصنيف فَوَقع من تصانيفه المسموعة فِي أَيدي النَّاس مَا يبلغ ألفا وخمسائة جُزْء مِنْهَا "الصحيحان" و"العلل" و"الأمال" و"فوائد الشيخ" و"فوائد الخراسانيين" و"أمالي العشيات" و"التلخيص" و"الأبواب" و"تراجم الشيوخ".

فأما الكتب التي تفرد بإخراجها: ف "معرفة علوم الحديث" و"تاريخ علماء أهل نيسابور" وكتاب "مزكي الأخبار" و"المدخل إلى علم الصحيح" وكتاب "الإكليل" وفي "دلائل النبوة" و"المستدرك على الصحيحين" و"وما انفرد بإخراجه كل واحد من الإمامين" و"فضائل الشافعي" و"تراجم المسند على شرط الصحيحين" وغير ذلك» (٥٩٤)

وقال أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ، سَمِعْتُ ابْنَ خُزَيْمَةَ وَسُئِلَ:

مِنْ أَيْنَ أُوتِيتَ العِلْمَ؟ فَقَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: "مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ"، وَإِنِّيْ لَمَّا شَرِبتُ، سَأَلْتُ اللهَ عِلْماً نَافِعاً» (٥٩٥)

(٥٩٤) «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري» (ص٢٢٨).

(٥٩٥) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١١/ ٢٢٨).

وقال القاضي أبو بكر العربي:

«وَلَقَدْ كُنْت بِمَكَّةَ مُقِيمًا فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعمائَةٍ، وَكُنْت أَشْرَبُ مَاءَ زَمْزَمَ كَثِيرًا، وَكُلَّمَا شَرِبْته نَوَيْت بِهِ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ لِي بَرَكَتَهُ فِي الْمِقْدَارِ الَّذِي يَسَّرَهُ لِي مِنْ الْعِلْمِ، وَنَسِيت أَنْ أَشْرَبَهُ لِلْعَمَلِ؛ وَيَا لَيْتَنِي شَرِبْته لَهُمَا، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهِمَا، وَلَمْ يُقَدَّرْ؛ فَكَانَ صَغْوِي إلَى الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنْهُ إلَى الْعَمَلِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْحِفْظَ وَالتَّوْفِيقَ بِرَحْمَتِهِ» (٥٩٦)

وشرب يحيى بن أَحْمد بْن مَسْعُود الْأَنْصَارِيّ

مَاء زَمْزَم لحفظ الْقُرْآن فتيسر عَلَيْهِ حفظه فِي أقرب مُدَّة» (٥٩٧)

وكان ابن رسلان البلقيني

مع ذلك مكباً على الاشتغال محباً في العلم حق المحبة. وكان يذكر أنه لم يكن له تقدم اشتغال في العربية، وأنه حج في حياة والده فشرب من ماء زمزم لفهم هذا العلم. فلما رجع، أدمن النظر فيه، فمهر في مدة يسيرة فيه» (٥٩٨)

---

(٥٩٦) «أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية» (٣/ ٩٨).

(٥٩٧) «التكملة لكتاب الصلة» (٤/ ١٨٨).

(٥٩٨) «رفع الإصر عن قضاة مصر» (ص٢٢٧).

وكان والد ابن الجرزي

تاجراً فمكث أربعين سنة لا يولد له ولد ثم حج فشرب ماء زمزم بنية أن يرزقه الله ولدا عالما فولد له صاحب الترجمة» (٥٩٩)

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني:

شربت ماء زمزم لثلاث: أحدها أن أنال مرتبة الحافظ الذهبي، فوجدت -بحمد اللَّه- أثر ذلك، وأن تيسر لي الكتابة على الفتاوى كشيخنا السِّراج البلقيني، حيث كان يكتب عليها مِنْ رأس القلم بغير مراجعة غالبًا، فيسَّر اللَّه تعالى لي ذلك، بحيث ضبطتُ المهِمّ من "فتاوى شهر"، فكان في مجلدة، سميتها "عجب الدهر"، كما سيأتي ذكرُ حكايتها في الباب الرابع. قال: ولم يذكر الثالث، وأحجم الجماعةُ عَنْ سؤاله عنه» (٦٠٠)

وقال الخطيب البغدادي:

شربتُ ماء زمزم ثلاث شربات، وسألت اللَّه تعالى ثلاث حاجات أخذًا بقول رسول اللَّه ﷺ "ماءُ زمزم لما شُرِبَ له"؛ فالحاجة الأُولى: التحديث "بتاريخ بغداد" بها، والثانية: الإملاء بجامع المنصور، والثالثة: الدفن عند بشرٍ الحافي. قال راويها: فقضيت» (٦٠١)

---

(٥٩٩) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (٢/ ٢٥٧).

(٦٠٠) «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» (١/ ١٦٦).

(٦٠١) السابق (١/ ١٦٦).

وقال الشافعي:

شربت ماء زمزم لثلاث: للرمي، فكنت أصيب العشرة من العشرة،] والتسعة من العشرة، وللعلم، فها أنا كما تروني، ولدخول الجنة، وأرجو حصول ذلك"» (٦٠٢)

٤-النَّهْمَة وَمُدَاومَةِ النَّظَرِ:

وهي بُلُوغُ الْهِمَّةِ فِي الشَّيْءِ و(نُهِمَ) بِكَذَا (نَهْمَةً) فَهُوَ (مَنْهُومٌ) أَيْ مُولَعٌ بِهِ.

وقيل للإمام البخاري: هَلْ مِنْ دواءٍ يشربُهُ الرَّجُلُ، فينتفعُ بِهِ لِلْحفظِ؟ فَقَالَ: لَا أَعْلَمُ، ثُمَّ أَقبلَ عليَّ، وَقَالَ: لَا أَعْلَمُ شَيْئاً أَنْفَعَ لِلْحفظِ مِنْ نَهْمَةِ الرَّجُلِ، وَمُدَاومَةِ النَّظَرِ» (٦٠٣)

وسُئِلَ أَبُو عَلِيٍّ صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَغْدَادِيُّ عَنْ عِلَاجِ الْحِفْظِ، فَقَالَ:

لَا شَيْءَ إِلَّا الطَّبْعُ وَالْحِرْصُ وَمُدَاوَمَةُ النَّظَرِ وَكَثْرَةُ الدَّرْسِ وَمَرْجِعُ هَذَا كُلِّهِ إِلَى الطَّبْعِ قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ سَرِيعَ الْحِفْظِ سَرِيعَ النِّسْيَانِ وَذَلِكَ مِنَ الصَّفْرَاءِ وَقَدْ يَكُونُ بَطِيءَ الْحِفْظِ بَطِيءَ النِّسْيَانِ وَذَلِكَ مِنَ السَّوْدَاءِ وَإِنَّ مِنَ الْأَطْعِمَةِ مَا إِذَا أَكَلْتَ زَادَتْ فِي الْبَلْغَمِ وَالْبَلْغَمُ يُورِثُ النِّسْيَانَ وَمِنْهَا مَا يَقْطَعُ الْبَلْغَمَ وَيُصَفِّي الذِّهْنَ مِنْ ذَلِكَ الْخَرْدَلِ فَهُوَ جَيِّدٌ لِلْبَلْغَمِ

---

(٦٠٢) «كفاية النبيه في شرح التنبيه» (٧/ ٥٢٤).

(٦٠٣) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٠/ ٨٦).

قَالَ أَبُو عَلِيّ: وَلَوْ كَانَ الْحِفْظُ بِالْعِلَاجِ وَالْأَدْوِيَةِ لَغَلَبَنَا عَلَيْهِ الْمُلُوكُ وَلَكِنَّهُ خِلْقَةٌ وَطَبْعٌ فَأَمَّا مَنْ طُبِعَ عَلَى الْحِفْظِ فَلَا يَضُرُّ حِفْظَهُ مَا أَكَلَ وَمَنْ طُبِعَ عَلَى غَيْرِهِ فَلَا تَنْفَعُهُ الْمُعَالَجَةُ وَلَا الدَّوَاءُ وَقَدْ يَأْكُلُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْبُلَاذُرَ لِلْحِفْظِ وَهُوَ لَا شَيْءَ عِنْدِي وَمُخَاطَرَةٌ لِأَنَّهُ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ. هُوَ سُمٌّ "» (٦٠٤)

٥- تكرار المحفوظ:

قال الخطيب:

«تَكْرِيرُ الْمَحْفُوظِ عَلَى الْقَلْبِ» (٦٠٥)

وعَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ:

«أَطِيلُوا كَرَّ الْحَدِيثِ لَا يَدْرُسُ» (٦٠٦)

وَكَانَ أَبُو إِسْحَاقَ الشِّيرَازِيُّ:

يُعِيدُ الدَّرْسَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَإِنْ كَانَ إِلْكِيا يُعِيدُ سَبْعِينَ مَرَّةً.

وَقَالَ لَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ النَّيْسَابُورِيُّ الْفَقِيهُ: لَا يَحْصُلُ الْحِفْظُ إِلَيَّ حَتَّى يُعَادَ خَمْسِينَ مَرَّةً.

---

(٦٠٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٩).

(٦٠٥) السابق (٢/ ٢٦٦).

(٦٠٦) السابق.

وَحَكَى لَنَا الْحَسَنُ: أَنَّ فَقِيهًا أَعَادَ الدَّرْسَ فِي بَيْتِهِ مِرَارًا كَثِيرَةً، فَقَالَتْ لَهُ عَجُوزٌ فِي بَيْتِه قَدْ وَاللَّهِ حَفِظْتُهُ أَنَا.

فَقَالَ: أَعِيدِيهِ فَأَعَادَتْهُ فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ.

قَالَ: يَا عَجُوزُ، أَعِيدِي ذَلِكَ الدَّرْسَ، فَقَالَتْ: مَا أَحْفَظُهُ.

قَالَ: إِنِّي أُكَرِّرُ عَدَّ الْحِفْظِ لِئَلا يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكِ» (٦٠٧)

وقِيلَ: الاحْتِفَاظُ بِمَا فِي صَدْرِ الرَّجُلِ أَوْلَى مِنْ دَرْسِ دَفْتَرِهِ، وَحَرْفٌ تَحْفَظُهُ بِقَلْبِكَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْ أَلْفِ حَدِيثٍ فِي دَفَاتِرِكَ "» (٦٠٨)

وَرُوِيَ عَنْ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَرْجِعُ إِلَى مَنْزِلِهِ وَقَدْ سَمِعَ حَدِيثًا كَثِيرًا، فَيُعِيدُهُ عَلَى جَارِيَةٍ لَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ كَمَا سَمِعَهُ وَيَقُولُ لَهَا: إِنَّمَا أَرَدْت أَنْ أَحْفَظَهُ وَكَانَ غَيْرُهُ يُعِيدُهُ عَلَى صِبْيَانِ الْمَكْتَبِ لِيَحْفَظَهُ» (٦٠٩)

وقِيلَ لِلْأَصْمَعِيِّ:

" كَيْفَ حَفِظْتَ وَنَسِيَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: دُرِسْتُ وَتَرَكُوا "» (٦١٠)

---

(٦٠٧) «الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ» (ص٤٣).

(٦٠٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٦٦).

(٦٠٩) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢/ ١٢٠).

(٦١٠) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٦٧).

وَقَالَ أَبُو الوَلِيْدِ: قَالَ لِي حَمَّادُ بنُ زَيْدٍ:
إِذَا خَالَفَنِي شُعْبَةُ فِي حَدِيْثٍ صِرتُ إِلَى قَوْلِه.
قُلْتُ: كَيْفَ يَا أَبَا إِسْمَاعِيْلَ؟ قَالَ: إِنَّ شُعْبَةَ كَانَ لَا يَرضَى أَنْ يَسْمَعَ الحَدِيْثَ عِشْرِيْنَ مَرَّةً وَأَنَا أَرْضَى أَنْ أَسْمَعَهُ مَرَّةً» (٦١١)

وقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ:
«لَوْ لَمْ نَكْتُبِ الْحَدِيثَ خَمْسِينَ مَرَّةً مَا عَرَفْنَاهُ» (٦١٢)

وقال أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري:
قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة
والأسدية خمسة وسبعين مرة
والموطأ خمس وأربعين مرة
والمختصر للبرقي سبعين مرة
والمبسوط ثلاثين مرة " (٦١٣)

(٦١١) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٦/ ٦١٤).
(٦١٢) «معجم شيوخ ابن الأعرابي» (٣/ ١٠٧٦ ط ابن الجوزي).
(٦١٣) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ١٨٦).

وقَالَ أَبُو الْعَرَبِ حَدَّثَنِي أَبِي رحمه الله:
أَنَّهُ رَأَى عَلَى بَعْضِ كُتُبِهِ دَرَسْتُهُ أَلْفَ مَرَّةٍ» (٦١٤)

وكان أبو محمد عبد الله بن إسحاق بن التبان مفتي القيروان: إمام الفقهاء الراسخين والعلماء المبرزين المتفنن في العلوم الحافظ المجاب الدعوة، ضربت له أكباد الإبل من الأقطار. أخذ عن ابن اللباد وغيره، درس المدونة نحو الألف مرة» (٦١٥)

وقَالَ الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ:
كُنْتُ أُعِيدُ كُلَّ قِيَاسٍ أَلْفَ مرَّة، فَإِذَا فَرغتُ، أَخذتُ قِيَاساً آخر عَلَى هَذَا، وَكُنْتُ أُعِيْدُ كُلّ دَرْسٍ أَلْفَ مرَّة، فَإِذَا كَانَ فِي المَسْأَلَة بَيْتٌ يُسْتَشهدُ بِهِ حَفِظتُ القصيدَة الَّتِي فِيْهَا البَيْت» (٦١٦)

وقَالَ إِبْرَاهِيم الْأَصْبَهَانِيّ:
«كُلُّ مَنْ حَفِظَ حَدِيثًا فَلَمْ يُذَاكِرْ بِهِ تَفَلَّتَ مِنْهُ» (٦١٧)

---

(٦١٤) «المحن» (ص٢٩٢).
(٦١٥) «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» (١/ ١٤٣).
(٦١٦) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٤/ ١١).
(٦١٧) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣٨).

وَسُئِلَ بَكْرُ بْنُ مُحَمَّد الْحَنَفِيُّ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَقَالَ:
هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ أَعَدْتُهَا فِي بُرْجٍ مِنْ حِصْنِ بُخَارَى أَرْبَعَ مِائَةِ مَرَّةٍ» (٦١٨)

وقال جَعْفَر الْمَرَاغِيّ:
" دَخَلْتُ مَقْبَرَةً بِتُسْتَرَ فَسَمِعْتُ صَائِحًا يَصِيحُ: وَالْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَالْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، سَاعَةً طَوِيلَةً
فَكُنْتُ أَطْلُبُ الصَّوْتَ إِلَى أَنْ رَأَيْتُ ابْنَ زُهَيْرٍ وَهُوَ يَدْرُسُ مَعَ نَفْسِهِ مِنْ حِفْظِهِ حَدِيثَ الْأَعْمَشِ» (٦١٩)

وقَالَ سُفْيَانُ:
«اجْعَلُوا الْحَدِيثَ حَدِيثَ أَنْفُسِكُمْ وَفِكْرَ قُلُوبِكُمْ تَحْفَظُوهُ» (٦٢٠)

وقال أبو هلال:
وَيَنْبَغِي لِلدَّارِسِ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ فِي دَرْسِهِ حَتَّى يُسْمِعَ نَفْسَهُ، فَإِنَّ مَا سَمِعَتْهُ الأُذُنُ رَسَخَ فِي الْقَلْبِ، وَلِهَذَا كَانَ الإِنْسَانُ أَوْعَى لِمَا يَسْمَعُهُ مِنْهُ لِمَا يَقْرَأُهُ.

(٦١٨) «الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ» (ص٦١).
(٦١٩) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٦٧).
(٦٢٠) السابق.

وَإِذَا كَانَ المدروس مِمَّا يفسح طَرِيق الْفَصَاحَةِ، وَرَفَعَ بِهِ الدَّارِسُ صَوْتَهُ، زَادَتْ فَصَاحَتُهُ.

وَحُكِيَ لِي عَنْ بَعْضِ الْمَشَايِخِ أَنَّه قَالَ:

رَأَيْتُ فِي بَعْضِ قُرَى النَّبَطِ فَتًى فَصِيحَ اللَّهْجَةِ، حَسَنَ الْبَيَانِ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ سَبَبِ فَصَاحَتِهِ مَعَ لُكْنَةِ أَهْلِ جِلْدَتِهِ، فَقَالَ: كُنْتُ أَعْمَدُ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَى خَمْسِينَ وَرَقَةً مِنْ كتب الجاحظ، فأرفع بِهَا صوتي فِي قِرَاءَتِهَا، فَمَا مَرَّ لِي إِلا زَمَانٌ قَصِيرٌ حَتَّى صِرْتُ إِلَى مَا تَرَى.

وَحُكِيَ لِي عَنْ أَبِي حَامِدٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لأَصْحَابه: إِذا درستم فارفعوا أَصْوَاتكُم، فَإِنَّهُ أثبت للْحِفْظ وَأَذْهَبُ للنَّوْمِ.

وَكَانَ يَقُولُ: الْقِرَاءَةُ الْخَفِيَّةُ لِلْفَهْمِ، وَالرَّفِيعَةُ لِلْحِفْظِ وَالْفَهْمِ.

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقْرَأُ الْكِتَابَ ثُمَّ يُذَاكِرُ بِهِ حَرْفًا حَرْفًا، كَانَ قَارِئًا يقرأه عَلَيْهِ» (٦٢١)

وقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ:

«ذَاكِرْ بِعِلْمِكَ تَذْكُرُ مَا عِنْدَكَ وَتَسْتَفِدْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ» (٦٢٢)

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ:

«مَنْ أَكْثَرَ مُذَاكَرَةَ الْعُلَمَاءِ لَمْ يَنْسَ مَا عَلِمَ وَاسْتَفَادَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (٦٢٣)

---

(٦٢١) «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» (ص٧٢).

(٦٢٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٣).

(٦٢٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٦).

وقال عَلِيّ بْن الْحَسَن بْن شَقِيقٍ:

«كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ فِي الْمَسْجِدِ فِي لَيْلَةٍ شَتْوِيَّةٍ بَارِدَةٍ فَقُمْنَا لِنَخْرُجَ فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ ذَاكَرَنِي بِحَدِيثٍ أَوْ ذَاكَرْتُهُ بِحَدِيثٍ، فَمَا زَالَ يُذَاكِرُنِي وَأُذَاكِرُهُ حَتَّى جَاءَ الْمُؤَذِّنُ فَأَذَّنَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ» (٦٢٤)

(٦٢٤) السابق.

ومن أفضل أوقات الحفظ:

١-البكور:

روى أصحاب السنن من حديث صَخْرِ الْغَامِدِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا». وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ

«وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلًا تَاجِرًا، وَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ» (٦٢٥)

(٦٢٥) صحيح بمجموع طرقه: أخرجه أبو داود برقم (٢٦٠٦)، والترمذي برقم (١٢١٢)، والنسائي في "الكبرى" برقم (٨٨٣٣)، وابن ماجه برقم (٢٢٧٥)، وأحمد برقم (١٥٤٤٣) وابن حبان برقم (٤٧٥٤) قلت: حديث صحيح بشواهده وعمارة ذَكَره ابن حِبان في «الثقات» وصَحَّح له هذا الخبر، وحَسَّن له الترمذي هذا الحديث وللحديث طرق أخرى من حديث: علي، وابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وأبي هريرة، وأنس بن مالك، وعبد الله بن سلام، والنواس بن سمعان، وعمران بن حصين، وجابر بن عبد الله، ونبيط بن شريط، وبريدة، وأوس بن عبد الله، وعائشة، وغيرهم.

٢-والسَّحور:

قال إِسْمَاعِيل بْن أَبِي أُوَيْسٍ: إِذَا هَمَمْتَ أَنْ تَحْفَظَ شَيْئًا فَنَمْ وَقُمْ عِنْدَ السَّحَرِ فَأَسْرِجْ وَانْظُرْ فِيهِ فَإِنَّكَ لَا تَنْسَاهُ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ "» (٦٢٦)

يقول الخطيبُ البغداديُّ -رحمه الله- مبينًا تجربته في هذا:

أجود أوقات الحفظ الأسحار ثم الغداة، وفي وقت السحر يكون يدرس في موضع مبيته» (٦٢٧)

٣-والليل:

قال الخطيب:

«أجودُ أوقاتِ الحفظِ الأسحارُ، ثمَّ نصفُ النهارِ، ثمَّ الغداةُ، وحفظُ الليلِ أنفعُ منْ حفظِ النهارِ،

ووقتُ الجوعِ أنفعُ منْ وقتِ الشبعِ"،

قالَ: "وأجودُ أماكنِ الحفظِ الغرفُ، وكلُّ موضعٍ بَعُدَ عن الملهياتِ"، قالَ: "وليسَ يجودُ الحفظُ بحضرةِ النباتِ، والخضرةِ، والأنهارِ، لأنها تمنعُ غالباً خلو القلبِ» (٦٢٨)

---

(٦٢٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٦٥).

(٦٢٧) «شرح سنن أبي داود لابن رسلان» (٧/ ١٤٨).

(٦٢٨) النكت الوفية بما في شرح الألفية» للبقاعي (٢/ ٣٥٥).

وقال أَحْمَد بْن الْفُرَات:

" لَمْ نَزَلْ نَسْمَعُ شُيُوخَنَا يَذْكُرُونَ أَشْيَاءَ فِي الْحِفْظِ فَأَجْمَعُوا أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَبْلَغَ فِيهِ إِلَّا كَثْرَةُ النَّظَرِ، وَحِفْظُ اللَّيْلِ غَالِبٌ عَلَى حِفْظِ النَّهَارِ.

قَالَ: وَسَمِعْتُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ أَبِي أُوَيْسٍ يَقُولُ: إِذَا هَمَمْتَ أَنْ تَحْفَظَ شَيْئًا فَنَمْ وَقُمْ عِنْدَ

السَّحَرِ فَأَسْرِجْ وَانْظُرْ فِيهِ فَإِنَّكَ لَا تَنْسَاهُ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ "

وَيَنْبَغِي لِمَنْ طَالِعَ فِي كِتَابِهِ أَنْ يَجْهَرَ بِقِرَاءَتِهِ قَدْرَ مَا يُسْمِعُهُ» (٦٢٩)

وقَالَ الْمُنْذِرُ لِلنُّعْمَانِ ابْنِهِ:

«يَا بُنَيَّ أُحِبُّ لَكَ النَّظَرَ فِي الْأَدَبِ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ الْقَلْبَ بِالنَّهَارِ طَائِرٌ وَبِاللَّيْلِ سَاكِنٌ فَكُلَّمَا أَوْعَيْتَ فِيهِ شَيْئًا عَلِقَهُ»

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا اخْتَارُوا الْمُطَالَعَةَ بِاللَّيْلِ لِخُلُوِّ الْقَلْبِ فَإِنَّ خُلُوَّهُ يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْحِفْظَ وَلِهَذَا قِيلَ لِحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ: مَا أَعْوَنُ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْحِفْظِ؟

قَالَ: قِلَّةُ الْغَمِّ " وَلَيْسَ يَكُونُ قِلَّةُ الْغَمِّ إِلَّا مَعَ خُلُوِّ السِّرِّ وَفَرَاغِ الْقَلْبِ.

وَاللَّيْلُ أَقْرَبُ الْأَوْقَاتِ مِنْ ذَلِكَ (٦٣٠)

---

(٦٢٩) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٦٥).

(٦٣٠) السابق.

والعلم ما حواه الصدر

قال يَمُوت بْن الْمُزَرِّع الْعَبْدِيّ:

«لَيْسَ الْعِلْمُ مَا حَوَاهُ الْقِمَطْرُ إِنَّمَا الْعِلْمُ مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ» أَنْشَدَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ الصَّيْرَفِيُّ:

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَى الْقِمَطْرُ ... مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

فَذَاكَ فِيهِ شَرَفٌ وَفَخْرُ ... وَزِينَةٌ جَلِيلَةٌ وَقَدْرُ (٦٣١)

وقال الذهبي في ترجمة الشَّاطِبِيّ القَاسِم بن فِيْرُّه بنِ خَلَفِ بنِ أَحْمَدَ الرُّعَيْنِيّ الضَّرِيْر، نَاظِم (الشَّاطبيَّة)، وَ (الرَّائِيَّة):

وَكَانَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ (المُوَطَّأُ)، وَ (الصَّحِيْحَانِ)، يُصَحِّحُ النّسخَ مِنْ حِفْظِهِ، حَتَّى كَانَ يُقَالُ: إِنَّهُ يَحفَظُ وَقْرَ بعيرٍ مِنَ العلُوْمِ» (٦٣٢)

وقال الإمام ابن رشد الحفيد رحمه الله:

العلم في الرأس وفي العينين ... لكن تبقى صنعة اليدين» (٦٣٣)

---

(٦٣١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٥١).

(٦٣٢) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٢١/ ٢٦٤).

(٦٣٣) «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» (٢/ ٥٤٢).

وقال ابن رجب في ترجمة الْحُسَيْن بْن يُوسُف بْن مُحَمَّد بْن أَبِي السري الدجيلي:

الفقيه، المقرئ الفرضي، النحوي الأديب، سراج الدين أَبُو عَبْد اللَّهِ: ولد سنة أربع

وستين وستمائة. وحفظ الْقُرْآن فِي صباه. ويقال: إنه تلقن سورة البقرة فِي مجلسين، والحواميم فِي سبعة أَيَّام.. وحفظ كتبًا فِي العلوم، منها " المقنع " فِي الفقه و " الشاطبية "، و " الألفيتان " في النحو، و " مقامات الحريري " و " عروض ابن الحاجب " و " الدريدية " ومقدمة فِي الحساب. وقرأ الأصلين، وعني بالعربية واللغة، وعلوم الأدب» (٦٣٤)

وقال التلمساني في ترجمة الهيثم بن أحمد بن أبي غالب:

كان أعجوبة دهره في الرواية للأشعار والأخبار، قال ابن سعيد: أخبرني من أثق به أنه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء إشبيلية فجرى ذكر حفظه، وكان ذلك في أول الليل، فقال لهم: إن شئتم تختبروني أجبتكم، فقالوا: بسم الله، إنّا نريد أن نتحدث عن تحقيق، فقال: اختاروا أي قافية شئتم لا أخرج عنها، حتى تعجبوا، فاختاروا القاف، فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر، وهو ينشد وزن:

أرق على أرقٍ ومثلي يأرق ... وسماره قد نام بعض وضل بعض،

وهو ما فارق قافية القاف.

وقال أبو عمران ابن سعيد: دخلت عليه يوماً بدار الأشراف بإشبيلية، وحوله أدباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرمة،

---

(٦٣٤) «ذيل طبقات الحنابلة» (٥/ ٣٠ ت العثيمين).

فمد الهيثم يده إلى الديوان المذكور، فمنعه منه أحد الأدباء، فقال: يا أبا عمران، أواجب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتاً، وأنا أحفظه فأكذبته الجماعة، فقال:

اسمعوني وأمسكوه،

فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه، فأقسمنا عليه أن يكف، وشهدنا له بالحفظ.

وكان آية في سرعة البديهة، مشهوراً بذلك،

قال أبو الحسن ابن سعيد: عهدي به في إشبيلية يملي على أحد الطلبة شعراً، وعلى ثانٍ موشحه، وعلى ثالثٍ زجلاً، كل ذلك ارتجالاً. ولما أخذ الحصار بمخنق إشبيلية في مدة الباجي خرج خروج القارظين، ولا يدري حيث ولا أين، ومن شعره وقد نزل بداره عبيد السلطان، وكتب به إلى صاحب الأنزال:

كم من يدٍ لك لا أقوم بشكرها ... وبها أشير إليك إن خرست فمي

وقد استشرتك في الحديث فهل ترى ... أن يدخل الغربان وكر الهيثم» (٦٣٥)

وقال ابن كثير في ترجمة بدر الدين محمد بن الشريشي:

«لَمَّا كَانَ يَوْمُ الثُّلَاثَاءِ الْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ دُعِيتُ إِلَى بُسْتَانِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ الشَّرِيشِيِّ شَيْخِ الشَّافِعِيَّةِ، وَحَضَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَعْيَانِ مِنْهُمُ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ بْنُ الْمَوْصِلِيِّ الشَّافِعِيُّ، وَالشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ صَلَاحُ الدِّينِ الصَّفَدِيُّ وَكِيلُ بَيْتِ الْمَالِ، وَالشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ الْمَوْصِلِيُّ الشَّافِعِيُّ، وَالشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ مَجْدُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الشِّيرَازِيُّ مِنْ ذُرِّيَّةِ الشَّيْخِ أَبِي إِسْحَاقَ الْفَيْرُوزَابَادِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَوِيِّينَ، وَالْخَطِيبُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ صَدْرُ الدِّينِ بْنُ الْعِزِّ

(٦٣٥) «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس» (٣/ ٣٧٧).

الْحَنَفِيُّ أَحَدُ الْبُلَغَاءِ الْفُضَلَاءِ، وَالشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ نُورُ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ الصَّارِمِ أَحَدُ الْقُرَّاءِ الْمُحَدِّثِينَ الْبُلَغَاءِ، وَأَحْضَرُوا نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ مُجَلَّدًا مِنْ كِتَابِ " الْمُنْتَهَى " فِي اللُّغَةِ لِلتَّمِيمِيِّ الْبَرْمَكِيِّ، وَقْفَ النَّاصِرِيَّةِ، وَحَضَرَ وَلَدُ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ الشِّرِيشِيِّ، وَهُوَ الْعَلَّامَةُ بَدْرُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ، وَاجْتَمَعْنَا كُلُّنَا عَلَيْهِ، وَأَخَذَ كُلٌّ مِنَّا مُجَلَّدًا بِيَدِهِ مِنْ تِلْكَ الْمُجَلَّدَاتِ، ثُمَّ أَخَذْنَا نَسْأَلُهُ عَنْ بُيُوتِ الشِّعْرِ الْمُسْتَشْهَدِ عَلَيْهَا بِهَا، فَيَنْشُرُ كُلًّا مِنْهَا، وَيَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ بِكَلَامٍ مُبِينٍ مُفِيدٍ، فَجَزَمَ الْحَاضِرُونَ وَالسَّامِعُونَ أَنَّهُ يَحْفَظُ جَمِيعَ شَوَاهِدِ اللُّغَةِ، وَلَا يَشُذُّ عَنْهُ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ الشَّاذُّ، وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَائِبِ، وَأَبْلَغِ الْإِغْرَابِ» (٦٣٦)

وَقَالَ أحيد بن أبي جَعْفَر وإلي بُخَارى:

قَالَ لي مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل يَوْمًا رب حَدِيث سمعته بِالْبَصْرَةِ كتبته بِالشَّام وَرب حَدِيث سمعته بِالشَّام كتبته بِمصْر فَقلت لَهُ يَا أَبَا عبد الله بِتَمَامِهِ فَسكت وَقَالَ سليم بن مُجَاهِد قَالَ لي مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل لَا أجيء بِحَدِيث عَن الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ إِلَّا عرفت مولد أَكْثَرهم ووفاتهم ومساكنهم وَلست أروي حَدِيثا من حَدِيث الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ يَعْنِي من الْمَوْقُوفَات إِلَّا وَله أصل أحفظ ذَلِك عَن كتاب الله وَسنة رَسُوله وَقَالَ عَليّ بن الْحُسَيْن بن عَاصِم البيكندي قدم علينا مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل فَقَالَ لَهُ رجل من أَصْحَابنَا سَمِعت إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه يَقُول:

---

(٦٣٦) «البداية والنهاية ت التركي» (١٨/ ٦٦١).

كَأَنِّي أنظر إِلَى سبعين ألف حَدِيث من كتابي فَقَالَ لَهُ مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل أَو تعجب من هَذَا القَوْل لَعَلَّ فِي هَذَا الزَّمَان من ينظر إِلَى مِائَتي ألف ألف من كِتَابه وَإِنَّمَا عني نَفسه.

وَقَالَ مُحَمَّد بن حَمْدَوَيْه سَمِعت البُخَارِيّ يَقُول أحفظ مائَة ألف حَدِيث صَحِيح وأحفظ مِائَتي ألف حَدِيث غير صَحِيح.

قَالَ وراقه سمعته يَقُول مَا نمت البارحة حَتَّى عددت كم أدخلت فِي تصانيفي من الحَدِيث فَإِذا نَحْو مِائَتي ألف حَدِيث.

وَقَالَ أَيْضا لَو قيل لي تمن لما قُمْت حَتَّى أروي عشرَة آلاف حَدِيث فِي الصَّلَاة خَاصَّة.

وَقَالَ أَيْضا قلت لَهُ تحفظ جَمِيع مَا أدخلت فِي مصنفاتك فَقَالَ لَا يخفي عَليّ جَمِيع مَا فِيهَا وصنفت جَمِيع كتبي ثَلَاث مَرَّات.

قَالَ وَبَلغنِي أَنه شرب البلاذر فَقلت لَهُ مرّة فِي خلْوَة هَل من دَوَاء للْحِفْظ فَقَالَ لَا أعلم ثمَّ أقبل عَليّ فَقَالَ لَا أعلم شَيْئا أَنْفَع للْحِفْظ من نهمة الرجل ومداومة النّظر.

وَقَالَ أَقمت بِالْمَدِينَةِ بعد أَن حججْت سنة حردا أكتب الحَدِيث.

قَالَ وأقمت بِالْبَصْرَةِ خمس سِنِين معي كتبي أصنف وأجح وأرجع من مَكَّة إِلَى الْبَصْرَة.

قَالَ وَأَنا أَرْجُو أَن يُبَارك الله تَعَالَى للْمُسلمين فِي هَذِه المصنفات.

وَقَالَ البُخَارِيّ تذكرت يَوْمًا أَصْحَاب أنس فحضرني فِي سَاعَة ثَلَاثمِائَة نفس وَمَا قدمت على شيخ إِلَّا كَانَ انتفاعه بِي أَكثر من انتفاعي بِهِ.

وَقَالَ وراقه عمل كتابا فِي الْهِبَة فِيهِ نَحْو خَمْسمِائَة حَدِيث وَقَالَ لَيْسَ فِي كتاب وَكِيع فِي الْهِبَة إِلَّا حديثان مسندان أَو ثَلَاثَة وَفِي كتاب بن الْمُبَارك خَمْسَة أَو نَحْوهَا.

وَقَالَ أَيْضا مَا جَلَست للتحديث حَتَّى عرفت الصَّحِيح من السقيم وَحَتَّى نظرت فِي كتب أهل الرَّأْي وَمَا تركت بِالْبَصْرَةِ حَدِيثا الا كتبته.

قَالَ وسمعته يَقُول لَا أعلم شَيْئا يحْتَاج إِلَيْهِ إِلَّا وَهُوَ فِي الْكتاب وَالسّنة قَالَ فَقلت لَهُ يُمكن معرفَة ذَلِك قَالَ نعم.

وَقَالَ أَحْمد بن حمدون الْحَافِظ رَأَيْت البُخَارِيّ فِي جَنَازَة وَمُحَمّد بن يحيى الذهلي يسْأَله عَن الْأَسْمَاء والعلل وَالْبُخَارِيّ يمر فِيهِ مثل السهْم كَأَنَّهُ يقْرَأ قل هُوَ الله أحد» (٦٣٧)

وقال أبو عمر الطلمنكي:

دخلت مرسية، فتشبث بي أهلها يسمعوا علي الغريب المصنف، فقلت: انظروا من يقرأ لكم، وأمسكت أنا كتابي، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيده، فقرأه على من أوله إلى آخره، فعجبت من حفظه، وكان أعمى ابن أعمى، وابن سيده المذكور هو أبو الحسن علي بن أحمد بن سيده، وهو صاحب كتاب " المحكم "» (٦٣٨)

---

(٦٣٧) «فتح الباري» (١/ ٤٨٧).

(٦٣٨) «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس» (٣/ ٣٧٩).

وقال الذهبي في ترجمة أَحْمَد بن عَبْد اللهِ بنِ مُسْلِمِ بنِ قُتَيْبَةَ البَغْدَادِيّ الكَاتِب:
حَدَّثَ عَنْ: أَبِيْهِ بِكُتُبِه كُلِّهَا حِفْظاً قَالَ المُسَبِّحِيُّ: كَانَ يَحْفَظُ كُتُبَ أَبِيْهِ كُلَّهَا بِالنَّقْطِ وَالشَّكلِ كَمَا يَحْفَظُ القُرْآنَ، وَهِيَ أَحَدٌ وَعِشْرُوْنَ مُصَنَّفاً، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ الأَدَبِ وَالعِلْمِ، جَاؤُوهُ، وَجَاءهُ أَوْلَادُ المُلُوكِ، فَأَخَذُوا عَنْهُ.
وَقَالَ ابْنُ زُوْلَاقَ: كَانَ مَالِكِيًّا، شَيْخاً حَادّاً، أَذْكُرُ أَنَّ أَبَاهُ حَفَّظَه كُتُبَهُ فِي اللَّوْحِ" (٦٣٩)

وقال ابن فرحون:
«كان مالكي المذهب من أهل العلم والحفظ لكتب أبيه والإتقان. وسمعت منه كتب أبيه من حفظه وكان يحفظها كما يحفظ القرآن ويرد فيها من حفظه النقطة والشكلة وما معه نسخة. كان أبوه أبو محمد حفظه إياها في اللوح وعدتها أحد وعشرون مصنفاً.
كتاب المشكل وكتاب معاني القرآن وكتاب غريب الحديث وكتاب عيون الأخبار وكتاب مختلف الحديث وكتاب الفقه وكتاب المعارف وكتاب أعلام النبوة وكتاب العرب والعجم وكتاب الأنواء وكتاب الميسر وكتاب طبقات الشعراء وكتاب معاني الشعر وكتاب إصلاح الغلط وكتاب أدب الكاتب وكتاب الأبنية وكتاب النحو وكتاب المسائل وكتاب القراءات» (٦٤٠)

(٦٣٩) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٤/ ٥٦٥).
(٦٤٠) «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» (١/ ١٦١).

وعَنْ أَبِي زُرْعَةَ، قَالَ:
حُزِرَتْ كُتُبُ أَحْمَدَ يَوْمَ مَاتَ، فَبَلَغَتْ اثْنَيْ عَشَرَ حِملاً وَعِدلاً، مَا كَانَ عَلَى ظَهرِ كِتَابٍ مِنْهَا: حَدِيْثُ فُلَانٍ، وَلَا فِي بَطنِهِ: حَدَّثَنَا فُلَانٌ، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَحْفَظُهُ» (٦٤١)

وقال ياقوت في ترجمة إِبْرَاهِيم بن عُثْمَان أَبي الْقَاسِم بن الْوزان القيرواني اللّغَوِيّ النَّحْوِيّ الْحَنَفِيّ:
«كَانَ إِمَامًا فِي النَّحْو واللغة والعربية وَالْعرُوض غير مدافع، مَعَ قلَّة ادِّعَاء، وخفض جنَاح، وكان عبد الله بن محمد المكفوف يقرّ له بالفضل وانْتهى من الْعلم إِلَى مَا لَعَلَّه لم يبلغهُ أُحْدُ قبله، وَأما من فِي زَمَانه فَلَا يشك فِيهِ، مات سنة ست وأربعين وثلاثمائ، وَكَانَ يحفظ الْعين وغريب أبي عبيد المُصَنّف وَإِصْلَاح ابْن السّكيت وَكتاب سِيبَوَيْهِ وَغير ذَلِك، ويميل إِلَى مَذْهَب الْبَصرِيين، مَعَ إتقانه مَذْهَب الْكُوفِيّين.
قَالَ -عبد الله المكفوف النَّحْوِيّ-: لَو قَالَ قَائِل إِنَّه أعلم من الْمبرد وثعلب لصدّقه من وقف على علمه ونفاذه (٦٤٢)

(٦٤١) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١١/ ١٨٨).
(٦٤٢) «معجم الأدباء» (١/ ٩٠).

وقال القاضي عياض في ترجمة إسحاق بن الفرات:

قال أحمد بن سعيد الهمداني: قرأ علينا اسحاق بن الفرات موطأ مالك من حفظه، فما أسقط حرفاً فيما أعلم» (٦٤٣)

وقال أبو الحسن الفارسي الماوردي في مجموع له:

سمعت الأمير أبا العباس الميكالي، يقول: تذاكرنا المتنزهات يوما وابن دريد حاضر، فقال بعضهم: أنزه الأماكن غوطة دمشق، وقال بعضهم: بل نهر الأبلة، وقال بعضهم: سغد سمرقند وقال بعضهم: نهروان ببغداد.

وقال بعضهم: شعب بوان، وقال بعضهم: نوبهار بلخ.

فقال ابن دريد: هذه متنزهات العيون، فأين أنتم عن متنزهات القلوب؟! قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: عيون الأخبار للقتبي، والزهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر ثم أنشأ يقول:

ومن تك نزهته قينة ... وكأس يحث وكأس يصب

فنزهتنا واستراحتنا ... تلاقي العيون ودرس الكتب» (٦٤٤)

وقال العلامة محمد البشير الإبراهيمي عن نفسه:

فلما بلغت سبع سنين استلمني عمي من معلّي القرآن وتولّى تربيتي وتعليمي بنفسه،

---

(٦٤٣) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٣/ ٢٨١).

(٦٤٤) «معجم الأدباء» (٦/ ٢٤٩٨).

فكنت لا أفارقه لحظة حتى في ساعات النوم، فكان هو الذي يأمرني بالنوم، وهو الذي يوقظني منه، على نظام مضطرد في النوم والأكل والدراسة، وكان لا يخليني من تلقين حتى حين أخرج معه وأماشيه للفسحة، فحفظت فنون العلم المهمة في ذلك السن مع استمراري في حفظ القرآن، فما بلغت تسع سنين من عمري حتى كنت أحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه، وكنت أحفظ معه ألفية ابن مالك ومعظم الكافية له، وألفية ابن معطي الجزائري وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، وأحفظ جمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني، ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب، وأحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني، شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة، وأحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس مثل ابن شهيد، وابن برد، وابن أبي الخصال، وأبي المطرف ابن أبي عميرة، وابن الخطيب، ثم لفتني عمي إلى دواوين فحول المشارقة، ورسائل بلغائهم، فحفظت صدرًا من شعر المتنبي، ثم استوعبته بعد رحلتي إلى الشرق، وصدرًا من شعر الطائيين وحفظت ديوان الحماسة، وحفظت كثيرًا من رسائل سهل بن هارون وبديع الزمان، وفي عنفوان هذه الفترة كنت حفظت بإرشاد عمي كتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني، وكتاب الفصيح لثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السكيت، وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكتي اللغوية.

ولم يزل عمي- رحمه الله- يتدرّج بي من كتاب إلى كتاب تلقينًا وحفظًا ومدارسة للمتون والكتب التي حفظتها حتى بلغت الحادية عشرة، فبدأ لي في درس ألفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق، وكان قبلها أقرأني كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهّم

وبحث، وكان يقرئني مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في وطننا إذ ذاك، ويقرئني وحدي، ويقرئني وأنا أماشيه في المزارع، ويقرئني على ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت وفي الظلمة، حتى يغلبني النوم، ولم يكن شيء من ذلك يرهقني، لأن الله تعالى وهبني حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيّرة، وذهنًا صيودًا للمعاني ولو كانت بعيدة، ولما بلغت أربع عشرة سنة، مرض عمي مرض الموت، فكان لا يخليني من تلقين وإفادة وهو على فراش الموت، بحيث أني ختمت الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك عليه وهو على تلك الحالة» (٦٤٥)

وقال الصفدي في ترجمة ابْن عبد الدايم الْحَنْبَلِيّ:

أَحْمد بن عبد الدايم بن نعْمَة بن أَحْمد بن نعْمَة بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن أَحْمد بن بكير المعمر الْعَالم مُسْند الْوَقْت زين الدّين أَبُو الْعَبَّاس الْمَقْدِسِي الفندقي الْحَنْبَلِيّ النَّاسِخ ولد بفندق الشُّيُوخ من جبل نابلس سنة خمس وَسبعين وَأَدْرك الْإِجَازَة الَّتِي من السلَفِي لمن أدْرك حَيَاته وَأَدْرك الْإِجَازَة الْخَاصَّة من خطيب الْموصل أبي الْفضل الطوسي وَأبي الْفَتْح ابْن شاتيل وَنصر الله الْقَزاز وَخلق سواهُم وَسمع من يحيى الثَّقَفِيّ وَأبي الْحُسَيْن الموازيني وَمُحَمّد بن عَليّ بن صَدَقَة وَإِسْمَاعِيل الجنزوي والمكرم بن هبة الله الصُّوفِي وبركات الخشوعي وَابْن طبرزذ والحافظ عبد الْغَنِيّ ورحل إِلَى بغداذ وَسمع من ابْن كُلَيْب بقرَاءَته من عبد الْخَالِق ابْن البندار وَابْن سكينَة وَعلي بن يعِيش الْأَنْبَارِي وَغَيرهم وتفقه على الشَّيْخ الْمُوفق وَكتب بِخَطِّهِ الْمليح السَّرِيع مَا لَا يُوصف

(٦٤٥) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٥/ ٢٧٣).

لنَفسِهِ وبالأجرة حَتَّى كَانَ يكْتب إِذا تفرغ فِي الْيَوْم تسع كراريس أَو أَكثر وَيكْتب الكراسين وَالثَّلَاثَة مَعَ اشْتِغَاله فِي يَوْم وَلَيْلَة قيل إِنَّه كَانَ يكْتب الْقَدُورِيّ فِي لَيْلَة وَاحِدَة وَعِنْدِي أَن هَذَا مُسْتَحِيل وَقيل إِنَّه كَانَ ينظر فِي الصفحة نظرة وَاحِدَة ويكتبها وَلذَلِك يُوجد لَهُ الْغَلَط فِيمَا كتبه كثيرا ولازم النّسخ خمسين سنة وخطه لَا نقط وَلَا ضبط وَكتب على مَا قَالَه فِي شعره ألفي مجلدة وَكَانَ تَامّ الْقَامَة حسن الْأَخْلَاق والشكل ذكر ابْن الخباز أَنه سمع ابْن عبد الدايم يَقُول كتبت بخطي ألفي جُزْء وَذكر أَنه كتب بِخَطِّهِ تَارِيخ دمشق مرَّتَيْنِ » (٦٤٦)

وقال أبو داود الأندلسي في ترجمة إشراقُ السُّويداءُ مولاةُ أبي المُطرِّف عبد الرّحمن بن غَلْبون القُرطُبيّ الكاتب، سَكَنت بَلَنْسِيَةَ.

أخَذت عن مولاها أَبي المُطرِّف العربيّةَ واللّغةَ والآدابَ أيامَ إقامته بقُرطُبة، ثم انتَقلَتْ بانتقالِه عنها، وكانت قد فاقَتْه في كثيرٍ ممّا أخَذتْه عنه، وأحسَنتْ في كلِّ ما تناولَتْه، وكان لها تقَدُّمٌ في العلم بالعَروض، وبالعَروضيّة كانت تُشهَر.

أخَذ عنها العَروضَ أبو داودَ المقرئُ، وقرأَ عليها "كاملَ" أبي العبّاس المبرّد و"أماليَ" أبي عليّ القالي، قال: وكانت تحفَظُ الكتابَيْنِ ظهراً تنُصُّهما حفظًا وتتكلَّمُ عليهما» (٦٤٧)

(٦٤٦) «الوافي بالوفيات» (٧/ ٢٢).

(٦٤٧) «مختصر التبيين لهجاء التنزيل» (١/ ٧٤).

وقال عبد الواحد المراكشي ترجمة ذي الوَزَارتَيْنِ، أَبي مُحَمَّد عَبْد المجَيد بن عَيْذُوْنَ، وَهُوَ مَنْسُوْبٌ إِلَى: جدّه لأُمِّهِ عَبْد المجَيد بن عَبْدِ اللهِ بن عَيْذُوْنَ الفِهْرِيّ الأَنْدَلُسِيّ:

«ومن غزارة حفظه -رحمه الله- ما حدث الوزير الأجل أبو بكر محمد ابن الوزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زُهْر بن عبد الملك بن زهر -وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية، نيف على الثمانين:

بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها، فقلت له: أين الأصل الذي كتبت منه لأقابل معك به قال: ما أتيت به معي، فبينا أنا معه في ذلك إذ دَخَلَ الدهليز عَلَيْنَا رَجُل بَذُّ الهيئة، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية، فسلم وقعد وقال لي: يَا بُنَيَّ، اسْتَأْذِن لِي عَلَى الوَزِيْرِ أَبِي مَرْوَانَ.

فَقُلْتُ له: هُوَ نَائِم، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف، حملني على ذلك نزوة الصِّبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل. ثم سكت عني ساعة، وقال: ما هذا الكتاب الذي بأيديكما؟ قُلْتُ له: وَمَا سُؤَالك عَنْهُ؟! فقال: أحب أن أعرف اسمه، فإني كنت أعرف أسماء الكتب! فقلت: هو كتاب (الأَغَانِي)، فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه؟ قلت: بلغ موضع كذا، وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه، فقال: وما لكاتبك لا يكتب؟ قلت: طلبت منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق، فقال: لم أجئ به معي، فقال: يا بني، خذ كراريسك وعارض، قلت: بماذا؟ وأين الأصل؟ قال: كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي، قال: فَتبسَّمتُ من قوله، فلما رأى تبسمي قال: يا بني، أمسك علي،

قال: فأمسكت عليه وجعل يقرأ، فَوَاللهِ مَا أَخْطَأَ واوًا ولا فاء، قرأ هكذا نَحْواً مِنْ كُرَّاسَينِ، ثم أخذت له في وسط السِّفْر وآخره، فرأيت حفظه في ذلك كله سواء.

فاشتد عجبي، وقمت مُسْرِعاً حتى دخلت على أَبِي، فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل؛ فقام كما هو من فوره، وكان ملتفًّا برداء ليس عليه قميص، وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفُق على نفسه، وأنا بين يديه، وهو يوسعني لومًا، حتى ترامى على الرجل وعانقه، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول: يا مولاي اعذرني، فوالله ما أعملني هذا الجِلْفُ إلا الساعة؛ وجعل يسبني، والرجل يُخَفِّض عليه ويقول: ما عرفني؛ وأبي يقول: هَبْهُ ما عرفك، فما عذره في حسن الأدب.

ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلًا؛ ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافيًا حتى بلغ الباب، وأمر بدابته التي يركبها فأسرجت، وحلف عليه ليركبنَّها ثم لا ترجع إليه أبدًا.

فلما انفصل قلت لأبي: من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم؟ قال لي: اسكت وَيْحَك! هَذَا أَديبُ الأَنْدَلُس وإمامها وسيدها في علم الآداب، هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، أَيْسَرُ مَحْفُوْظَاته كِتَاب (الأَغَانِي)؛ وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته» (٦٤٨)

(٦٤٨) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (ص٦٩).

وقال ابن كثير:

أَبُو بَكْرٍ الْأَثْرَمُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّد بْنِ هَانِئ أَبُو بَكْرٍ الطَّائِيُّ الْأَثْرَمُ، تِلْمِيذُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، سَمِعَ عَفَّانَ وَأَبَا الْوَلِيدِ وَالْقَعْنَبِيَّ وَأَبَا نُعَيْمٍ وَخَلْقًا كَثِيرًا وَكَانَ حَاذِقًا صَادِقًا قَوِيَّ الذَّاكِرَةِ، كَانَ ابْنُ مَعِينٍ يَقُولُ عَنْهُ: كَانَ أَحَدُ أَبَوَيْهِ جِنِّيًّا. لِسُرْعَةِ فَهْمِهِ وَحِفْظِهِ وَحِذْقِهِ، وَلَهُ كُتُبٌ مُصَنَّفَةٌ فِي الْعِلَلِ وَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَكَانَ مِنْ بُحُورِ الْعِلْمِ» (٦٤٩)

وقال ابن قاضي شهبة في ترجمة مُحَمَّد بن يَعْقُوب بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم الفيروزأبادي:

"وَكَانَ كثير الْكتب جدا وَلَا يُسَافر إِلَّا وَهِي مَعَه فِي عدَّة أعدال على عدَّة جمال ويفتحها فِي غَالب الْمنَازل.... وَأما مَعْرفَته باللغة واطلاعه على نوادرها فَأمر مستفيض وَكَانَ يَقُول مَا كنت أَنَام حَتَّى أحفظ كَذَا وَكَذَا سطرا ذكرهَا... وَذكر لَهُ الْحَافِظ برهَان الدَّين فِي مشيخته تَرْجَمَة طَوِيلَة وَقَالَ كَانَ فِي اللُّغَة بَحر علم لَا يكدره الدلاء وَألف فِيهَا تواليف حَسَنَة قَالَ وَكَانَ مُعظما عِنْد الْمُلُوك أعطَاهُ تيمور لنك خَمْسَة آلَاف دِينَار وَمَعَ ذَلِك فَإِنَّهُ كَانَ قَلِيل المَال لسعة نفقاته وَكَانَ سريع الْحِفْظ يحْكى عَنهُ أَنه كَانَ يَقُول مَا كنت أَنَام حَتَّى أحفظ مِائَتي سطر" (٦٥٠)

(٦٤٩) «البداية والنهاية ت التركي» (١٤/ ٧٥١).

(٦٥٠) «طبقات الشافعية» (٤/ ٦٣).

وقال عبد الحي الحسنى في ترجمة الأمير الكبير البطل الأعظم صاحب السيف والقلم عبد الرحيم بن بيرم خان الدهلوي:

وكان له من النقاوة التامة والشهامة الكاملة وعلو الهمة والكرم ما لا يمكن وصفه مع المعرفة للأدب ومطالعة كتبه، والإشراف على كتب التاريخ، ومحبة أهل الفضائل، وكراهة أرباب الرذائل، والنزاهة والصيانة والميل إلى معالي الأمور، حتى لم أجد ممن كان قبله أو بعده من يساويه في مجموع كمالاته، وكان مع ذلك لا يعفو نفسه عن مطالعة الكتب، فإذا كان على ظهر الفرس وقت طعنة أو نهضة رأيت الأجزاء في يده، وإذا كان يغتسل رأيت الأجزاء في يد خدامه يحاذونه وهو يطالعها ويغتسل» (٦٥١)

وقال الشافعي:

لو كُلِّفتُ شراء بصلة لما فهمت مسألة» (٦٥٢)

وقال نَصْر بْن أَحْمَد الْعِيَاضِيّ الْفَقِيه السَّمَرْقَنْدِيّ:

«لَا يَنَالُ هَذَا الْعِلْمَ إِلَّا مَنْ عُطِّلَ دُكَّانُهُ وَخُرِّبَ بُسْتَانُهُ وَهَجَرَ إِخْوَانَهُ وَمَاتَ أَقْرَبُ أَهْلِهِ إِلَيْهِ فَلَمْ يَشْهَدْ جَنَازَتَهُ» (٦٥٣)

---

(٦٥١) «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» (٥/ ٥٦٠).

(٦٥٢) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» لابن جماعة (ص٧١).

(٦٥٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ١٧٤).

وقال ياقوت في ترجمة إبراهيم بن عثمان أبو القاسم ابن الوزان القيرواني النحوي:

كان فقيها على مذهب العراقيين وإماما في النحو واللغة والعربية والعروض غير مدافع، مع قلّة ادّعاء وخفض جناح. وكان عبد الله بن محمد المكفوف يقرّ له بالفضل، وانتهى من العلم إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله، وأما في زمانه فلا يشك فيه. مات سنة ست وأربعين وثلاثمائة، وكان يحفظ «كتاب العين» للخليل بن أحمد و «غريب المصنف» لأبي عبيد و «إصلاح المنطق» لابن السكيت، وغيرها من كتب اللغة؛ وحفظ قبل ذلك «كتاب سيبويه» ثم كتب الفراء، وكان يميل إلى مذهب البصريين مع إتقانه معرفة مذاهب الكوفيين؛ قال: ولو قال قائل إنه كان أعلم من المبرد وثعلب لصدّقه من وقف على علمه ونفاذه، وكان مع ذلك مقصرا في صناعة الشعر، وله تصانيف كثيرة في النحو واللغة". (٦٥٤)

وقال الذهبي في ترجمة أَحْمَد بْن إسرائيل بْن حسين أَبي جعْفَر الكاتب:

«وكان أَحْمَد بْن إسرائيل من أذكياء العالم لَا يسمع شيئًا إلَا حفِظَه. وكان إِلَيْهِ المنتهى فِي حساب الديوان...

قَالَ الصُّولِيّ: حدثني الْحُسَيْن بْن عَلِيّ الباقطائيّ قال: لنا أَحْمَد بْن إسرائيل: كنت فِي الدّيوان "أيام محمد الأمين" فما كَانَ أحدٌ من أهل الدّيوان أصغر منيّ. ولقد كنت أنسخ الكتاب، فئلا أَفْرَغُهُ حتى أحفَظ ما فِيهِ حرفًا حرفًا. فعلْتُ هذا مرّاتٍ كثيرة. وسمعت أَحْمَد بْن إسرائيل ينشد:

لَا يكون السّــرِيّ مثل الدَّنيّ لَا ولا ذُو الذَّكاء مثل الغبيّ

(٦٥٤) «معجم الأدباء» (١/ ٩٠).

قيمةُ المرءِ مثل ما يحُسن المرء قضـاء مِنَ الْإِمَـام عَلِـيّ (٦٥٥)

وَقَال الحاكم أَبُو أَحْمَد الحافظ:

سمعت أَحْمَد بْن خَالِد الحروري يَقُول: دَخَلَ أَبُو زرعة بغداد متوجها إِلَى الحج واجتمع إِلَيْهِ الحفاظ يذاكرونه وهُوَ يجيب ويغلبهم فِي المذاكرة حَتَّى عجزوا عَنْ مذاكرته، فقام واحد مِنْهُم، قال فِي أذنه: يا دا نانا، وشتمه بأقبح شتيمة، فتبسم أَبُو زُرْعَة، وَقَال لَهُ: يا هَذَا اشتغل بالعلم فَإِن هَذَا بعيد مِمَّا نحن فِيهِ» (٦٥٦)

وقال التنوخي:

كان المتنبي، وهو صبي، ينزل في جواري بالكوفة، وكان أبوه يعرف بعبدان السقاء، يستقي لنا ولأهل المحلّة.

ونشأ هو محبّا للعلم والأدب، وصحب الأعراب، فجاءنا بعد سنين بدويّا فجّا، وكان تعلّم الكتابة والقراءة، وأكثر من ملازمة الورّاقين.

فأخبرني ورّاق كان يجلس إليه، قال لي: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان.

قلت له: كيف؟ قال: كان اليوم عندي، وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعي، نحو ثلاثين ورقة، ليبيعه، فأخذ ينظر إليه طويلا.

---

(٦٥٥) «تاريخ الإسلام - ط التوفيقية» (١٩/ ٢٠).

(٦٥٦) «تاريخ دمشق لابن عساكر» (٣٨/ ٢٧).

فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، وإن كنت تريد حفظه، فهذا إن شاء الله يكون بعد شهر. فقال له: فإن كنت قد حفظته في هذه المدة، ما لي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب.

قال: فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه عليّ إلى آخره، ثم استلمه، فجعله في كمّه. فقام صاحبه وتعلّق به، وطالبه بالثمنفقال: ما إلى ذلك سبيل قد وهبته لي.

فمنعناه منه، وقلنا له: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام.

فتركه عليه» (٦٥٧)

وقال ياقوت في ترجمة أحمد بن الحسين، المعروف ببديع الزّمان الهمذانيّ:

استقصى الثعالبيّ أخباره، وقال عنه: كان بديع الزمان معجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدّهر، وغرّة العصر، من لم ير له نظير في الذّكاء، وكان صاحب عجائب ونوادر وبدائع، منها: أنه كان ينشد الشّعر لم يسمعه قطّ، وهو أكثر من خمسين بيتا، فيحفظه في مرّة واحدة لا يخرم منه حرفا، وينظر في الأربع والخمس أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يهذّها عن ظهر قلبه هذّا، وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى، فيكتبها في الحال من غير مسوّدة، إلى غير ذلك مما يطول ذكره. (٦٥٨)

(٦٥٧) «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» (٤/ ٢٤٦).

(٦٥٨) «معجم الأدباء» (١/ ٢٣٥).

وقَالَ صَالِحُ بنُ مُحَمَّدٍ الحَافِظُ جَزَرَةُ:

أَعلَمُ مَنْ أَدْرَكْتُ بِالحَدِيْثِ وَعِلَلِهِ: عَلِيُّ بنُ المَدِيْنِيِّ، وَأَعْلَمُهُمْ بِتَصْحِيْفِ المَشَايِخِ: يَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ، وَأَحْفَظُهُمْ عِنْدَ المُذَاكَرَةِ: أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي شَيْبَةَ" (٦٥٩)

وقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ:

قَالَ لِي أَبُو زُرْعَةَ: أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلفَ أَلفِ حَدِيْثٍ.

فَقِيْلَ لَهُ: وَمَا يُدرِيكَ؟

قَالَ: ذَاكَرْتُهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الأَبْوَابَ.

فَهَذِهِ حِكَايَةٌ صَحِيْحَةٌ فِي سَعَةِ عِلمِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، وَكَانُوا يَعُدُّوْنَ فِي ذَلِكَ المُكَرَّرَ، وَالأَثَرَ، وَفَتْوَى التَّابِعِيِّ، وَمَا فُسِّرَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَإِلاَّ فَالمُتُوْنَ المَرفُوعَةَ القَوِيَّةُ لَا تَبلُغُ عُشْرَ مِعشَارِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: قَالَ سَعِيْدُ بنُ عَمْرٍو: يَا أَبَا زُرْعَةَ، أَأَنتَ أَحْفَظُ، أَمْ أَحْمَدُ؟

قَالَ: بَلْ أَحْمَدُ.

قُلْتُ: كَيْفَ عَلِمتَ؟

قَالَ: وَجَدتُ كُتُبَه، لَيْسَ فِي أَوَائِلِ الأَجزَاءِ أَسْمَاءُ الَّذِيْنَ حَدَّثُوهُ، فَكَانَ يَحْفَظُ كُلَّ جُزءٍ مِمَّنْ سَمِعَهُ، وَأَنَا لَا أَقدِرُ عَلَى هَذَا» (٦٦٠)

---

(٦٥٩) «تاريخ بغداد ت بشار» (١١/ ٢٥٩).

(٦٦٠) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١١/ ١٨٧).

وسئل أبو علي الحافظ عن عبد الله بن محمد بن وهب الدينوري فقال:

كان صاحب حديث حافظا ثم قال أبو علي: بلغني أن أبا زرعة كان يعجز عن مذاكرته في زمانه» (٦٦١)

وقال ابن عبد الملك الأنصاري في ترجمة أبي عُمر بن عات:

قال أبو عامر بنُ نَذير: لازمْتُه مئة من ستة أشهُر، لم أرَ أحفظ منه، وحضَرتُ لسَماع "الموطَّإ" و"صحيح البخاريّ" سنة، فكان يقرأ من كلِّ واحد من الكتابَيْن نحوَ عشَرةِ أوراق عَرْضًا بلفظِه كلَّ يوم عَقِبَ صلاة الصُّبح لا يتوقَّفُ في شيءٍ من ذلك. وقال أبو بكر بنُ جابر السَّقَطيّ: أخبَرَنا بعضُ الشَّرْقيّة أنّ أبا عُمر بنَ عات حَضَرَ في جماعة من طَلَبَة العلم لسَماع السِّيَر على بعض شيوخِهم فغابَ الكتابُ أو القاري بكتابِه فقال أبو عُمر بنُ عات: أنا أقرأُ لكم، فقَرَأَ لهم من حِفظِه» (٦٦٢)

وقال جَعْفَر بْن دُرُسْتَوَيْهِ:

" أَقْعَدَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ بِسَامُرَّا عَلَى مِنْبَرٍ فَقَالَ: يَقْبُحُ بِمَنْ جَلَسَ هَذَا الْمَجْلِسَ أَنْ يُحَدِّثَ مِنْ كِتَابٍ فَأَوَّلُ حَدِيثٍ حَدَّثَ مِنْ حِفْظِهِ غَلَطَ فِيهِ، ثُمَّ حَدَّثَ سَبْعَ سِنِينَ مِنْ حِفْظِهِ لَمْ يُخْطِئْ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ "» (٦٦٣)

---

(٦٦١) «تاريخ دمشق لابن عساكر» (٣٢/ ٣٧٤).

(٦٦٢) «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» (١/ ٧٣٧).

(٦٦٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ١٣).

وقال أَبو دَاوُد الْخَفَّافَ:

أَمْلَى عَلَيْنَا إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ حَدِيثٍ مِنْ حِفْظِهِ، ثُمَّ قَرَأَهَا عَلَيْنَا فَمَا زَادَ حَرْفًا، ولَا نَقَّصَ حَرْفًا. (٦٦٤)

وقَالَ الأَزْهَرِيُّ:

كُنْتُ أَحْضُرُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُكَيْرٍ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَجْزَاءٌ كِبَارٌ، فَأَنْظُرُ فِي بَعْضِهَا، فَيَقُولُ لِي: أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، تَذْكُرُ لِي مَتْنَ مَا تُرِيدُ مِنْ هَذِهِ الأَحَادِيثِ، حَتَّى أُخْبِرَكَ بِإِسْنَادِهِ، أَوْ تَذْكُرُ لِي إِسْنَادَهُ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِمَتْنِهِ؟ فَكُنْتُ أَذْكُرُ لَهُ الْمُتُونَ فَيُخْبِرُنِي بِالأَسَانِيدِ مِنْ حِفْظِهِ، وَفَعَلْتُ هَذَا مِرَارًا كَثِيرَةً» (٦٦٥)

وقَالَ ابْنُ طَاهِرٍ: سَمِعْتُ أَبَا إِسْمَاعِيلَ الهَرَوِيّ يَقُوْلُ:

أَحْفَظُ اثْنَيْ عَشَرَ ألف حديث أسردها سردًا» (٦٦٦)

وقال الحافظ أبو علي النَّيْسابوري:

رأيتُ من أئمَّة الحديث أربعةً: إبراهيمَ بنَ أبي طالب، وابنَ خُزيمة، وعَبْدان الأهوازي، وأبا عبد الرحمن النَّسائي. فَأَمَّا عَبْدَان فَكَانَ يَحْفَظُ مائَةَ أَلْفِ حَدِيْثٍ،

---

(٦٦٤) «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ٢٢٢).

(٦٦٥) «تاريخ بغداد ت بشار» (٨/ ٥٢٣).

(٦٦٦) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (١٤/ ٣٩).

مَا رَأَيْتُ فِي المَشَايِخِ أَحْفَظَ مِنْهُ» (٦٦٧)

وقال أحمد بن حنبل لِدَاوُدَ بنِ عَمْرٍو، وَأَنَا أَسْمَعُ:

يَا أَبَا سُلَيْمَانَ! كَانَ إِسْمَاعِيْلُ بنُ عَيَّاشٍ يُحَدِّثُكُم هَذِهِ الأَحَادِيْثَ حِفظاً؟ قَالَ: نَعَمْ، مَا رَأَيْتُ مَعَهُ كِتَاباً قَطُّ. فَقَالَ: لَقَدْ كَانَ حَافِظاً، كَمْ كَانَ يَحفَظُ؟ قَالَ: شَيْئاً كَثِيْراً. قَالَ لَهُ: كَانَ يَحْفَظُ عَشْرَةَ آلَافٍ؟ قَالَ: عَشْرَةُ آلَافٍ، وَعَشْرَةُ آلَافٍ، وَعَشْرَةُ آلَافٍ. قَالَ أَبِي: هَذَا كَانَ مِثْلَ وَكِيْعٍ» (٦٦٨)

وقَال ابْن أَبِي دَاوُدَ:

«حَدَّثْتُ من حِفْظِي بِأَصْبَهَانَ بِستَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفاً، أَلْزَمُونِي الْوَهْمَ فِيهَا فِي سَبْعَةِ أَحَادِيث، فَلَمَّا انْصَرَفْتُ وَجَدْتُ فِي كِتَابِي خَمْسَةً مِنهَا عَلَى مَا كُنْتُ حَدَّثْتُهُمْ بِهِ» (٦٦٩)

وقال ابن مردويه:

سمعت أبا أحمد العسال يقول: أحفظ في القراءات خمسين ألف حديث. ويقال: إن أبا أحمد أملى تفسيرًا كبيرًا من حفظه، وقيل: إنه أملى أربعين ألف حديث

(٦٦٧) «طبقات علماء الحديث» (٢/ ٤٠٧).
(٦٦٨) «تاريخ بغداد ت بشار» (٧/ ١٨٦).
(٦٦٩) «تاريخ بغداد ت بشار» (١١/ ١٣٦).

بأردستان، فلما رجع إلى بلده قابل ذلك فإذا به كما أملى» (٦٧٠)

وقال عبيد الله بن عمر القواريرى:

أَمْلَى عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ عِشْرِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ حِفْظًا» (٦٧١)

وقال عمرو بن علي الفلاس:

ما رأيت في المحدثين أحفظ من أبي داود الطيالسي، سمعته يقول: أَسرُدُ ثَلَاثِيْنَ أَلْفَ حَدِيْثٍ، وَلَا فَخْرَ وَفِي صَدْرِي اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً لِعُثْمَانَ البُرِّيِّ، مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ، فَخَرَجتُ إِلَى أَصْبَهَانَ فَبَثَثْتُهَا فِيْهِم» (٦٧٢)

وقال يزيد بْن هارون:

أَحْفَظُ أَرْبَعَةً وَعِشْرِيْنَ أَلْفَ حَدِيْثٍ بِالإِسْنَادِ ولا فخر وأحفظ للشاميين عشرين ألف حَدِيْثٍ لَا أُسْأَلُ عَنْهَا» (٦٧٣)

---

(٦٧٠) «تذكرة الحفاظ للذهبي» (٣/ ٦٩).

(٦٧١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٩/ ٣).

(٦٧٢) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٠/ ٣٢).

(٦٧٣) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٦/ ٤٩٣).

وقَالَ أَبُو دَاوُدَ:

كَانَ مُحَمَّدٌ بن عيسى ابن الطباع يَتَفَقَّهُ وَكَانَ يَحْفَظُ نَحْواً مِنْ أَرْبَعِيْنَ أَلْفَ حَدِيْثٍ» (٦٧٤)

وقال مُحَمد بن إسماعيل:

أَحفَظُ مائَةَ أَلْفِ حَدِيْثٍ صَحِيْحٍ، واحفظ مِئَتَي أَلْفَ حَدِيثٍ غَيْرَ صَحِيحٍ» (٦٧٥)

وَقَالَ بَعْضُ الْكُتَّابِ:

كُنَّا إِذَا دَخَلْنَا عَلَى أَبِي الْفَضْلِ بْنِ الْعَمِيدِ، رَأَيْنَا إِلَى جَانِبِهِ فِي مَجْلِسِ الْعَمَلِ زُهَاءَ مائَةِ مُجَلَّدَةٍ، فَنُنْكِرُ ذَلِكَ، فَفَطِنَ يَوْمًا لِإِنْكَارِنَا فَقَالَ: إِنِّي أَحْفَظُ جَمِيعَ مَا فِي هَذِهِ الْكُتُبِ، فَإِذَا اشْتَغَلْتُ بِالْعَمَلِ عَنْ دَرْسِهَا، أَحْضَرْتُهَا عِنْدِي، فَكُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا ذَكَرْتُ مَحْفُوظِي مِنْهَا، فَقَامَ ذَلِكَ لِي مَقَامَ الدَّرْسِ.

ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ مِنَّا: خُذْ أَيَّهَا شِئْتَ.

فَأَخَذَ الرَّجُلُ مِنْهَا كِتَابًا، وَقَالَ: هُوَ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ كَذَا.

فَابْتَدَأَ أَبُو الْفَضْلِ فَقَرَأَ مِنْ أَوَّلِهِ صَدْرًا، ثُمَّ مِنْ وَسَطِهِ، ثُمَّ مِنْ آخِرِهِ، فَتَحَقَّقَ عِنْدَنَا أَنَّهُ صَدَقَ مَا قَالَ، وَعَجِبْنَا مِنْ حِفْظِهِ وَعِنَايَتِهِ وَحِرْصِهِ.

وَكَانَ يَأْخُذُ ابْنُهُ أَبَا الْفَتْحِ كُلَّ يَوْمٍ بِدَرْسِ أَلْفَيْ بَيْتٍ قَبْلَ الْغَدَاءِ.

وَكَانَ يَحْفَظُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ أَلْفِ بَيْتٍ» (٦٧٦)

---

(٦٧٤) «تاريخ بغداد ت بشار» (٣/ ٦٨٩).

(٦٧٥) «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ٢٢٦).

(٦٧٦) «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» (ص٧٩).

وقال أبو زرعة:

إِنَّ فِي بَيْتِي مَا كَتَبْتُهُ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً، وَلَمْ أُطَالِعْهُ مُنْذُ كَتَبْتُهُ، وَإِنِّي أَعْلَمُ فِي أَيِّ كِتَابٍ هُوَ، فِي أَيَّةِ وَرَقَةٍ هُوَ، فِي أَيِّ صَفْحٍ هُوَ، فِي أَيِّ سَطْرٍ هُوَ، وَمَا سَمِعَ أُذُنِي شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ إِلا وَعَاهُ قَلْبِي، فَإِنِّي كُنْتُ أَمْشِي فِي سُوقِ بَغْدَادَ فَأَسْمَعُ مِنَ الْغُرَفِ صَوْتَ الْمُغَنِّيَاتِ فَأَضَعُ أُصْبُعِي فِي أُذُنِي مَخَافَةَ أَنْ يَعِيَهُ قَلْبِي» (٦٧٧)

وقال عَبْد اللَّهِ بْن أَحْمَد بْن حَنْبَلٍ: قَالَ لِي أَبِي:

خُذْ أَيَّ كِتَابٍ شِئْتَ مِنْ كُتُبٍ وَكِيعٍ، مِنَ الْمُصَنَّفِ، فَإِنْ شِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْكَلامِ، حَتَّى أُخْبِرَكَ بِالإِسْنَادِ، وَإِنْ شِئْتَ بِالإِسْنَادِ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِالْكَلامِ» (٦٧٨)

وقال أحمد بن سعيد الهمداني:

قرأ علينا إِسْحَاق بْن الفُرات " مُوَطّأ مالك " من حفظه فما أسقط حرفًا فيما أعلم» (٦٧٩)

وقَال الشَّعْبِيّ:

مَا كَتَبْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ إِلَى يَوْمِي هَذَا، ولَا حَدَّثني رَجُلٌ بِحَدِيثٍ قَطُّ إِلَاّ

---

(٦٧٧) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٢/ ٣٣).

(٦٧٨) «الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ» (ص٥٣).

(٦٧٩) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٣/ ٢٨١).

حَفِظْتُهُ، ولَا أَحْبَبْتُ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيَّ، فَحَدَّثْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ فَقَالَ: تَعْجَبُ مِنْ هَذَا؟ قلتُ: نَعَم، قَال: كنتُ لا أَسْمَعُ شَيْئًا إِلَاّ حَفِظْتُهُ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى سَبْعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ أَوْ قَالَ أكثر من سبعين ألف فِي كُتُبِي» (٦٨٠)

وقال ابن عمار: وسمعت وكيعا، يقول:

ما نظرت في كتاب منذ خمس عشرة سنة، إلا في صحيفة يوما فنظرت في طرف منه ثم أعدته مكانه» (٦٨١)

وقال أَحْمَد بْن الْخَضِرِ الشَّافِعِيّ غَيْرَ مَرَّةٍ:

قَدِمَ عَلَيْنَا أَبُو عَلِيٍّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْحَافِظُ الْبَلْخِيُّ، حَاجًّا، فَعَجَزَ أَهْلُ بَلَدِنَا عَنْ مُذَاكَرَتِهِ لِحِفْظِهِ» (٦٨٢)

وقال مِهْرَان الرَّازِيّ:

كَتَبتُ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَصْنَافَهُ، فَضَاعَ مِنِّي كِتَابُ الدِّيَاتِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِذَا وَجَدْتَنِي خَالِياً، فَاذْكُرْ لِي حَتَّى أُمِلَّهُ عَلَيْكَ. فَحَجَّ، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ، طَافَ بِالبَيْتِ، وَسَعَى، ثُمَّ اضْطَجَعَ، فَذَكَّرْتُهُ، فَجَعَلَ يُمْلِي عَلَيَّ الكِتَابَ بَاباً فِي إِثْرِ بَابٍ،

---

(٦٨٠) «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ٢٢٢).

(٦٨١) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٥/ ٦٤٧).

(٦٨٢) «معرفة علوم الحديث للحاكم» (ص١٤٢).

حَتَّى أَمْلَاهُ جَمِيْعَهُ مِنْ حِفْظِه» (٦٨٣)

وقال ابن بشكوال في ترجمة عَلِيّ بن أَحْمد بن سَيّده اللّغَوِيّ صاحب "الْمُحكم وَالْمُحِيط الْأَعْظَم فِي اللُّغَة": قال أبو علي الطلمنكي:

دخلت مرسية فتشبث بي أهلها يسمعوا علي غريب المصنف. فقلت لهم: انظروا لي من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابي، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيدة فقرأه علي من أوله إلى آخره فعجبت من حفظه. وكان أعمى بن أعمى» (٦٨٤)

وقال أَبُو العباس بْن عقدة:

أَحفظُ بِالأَسَانيد وَالمتُوْنَ خَمْسِيْنَ وَمَائَتَيْ أَلف حَدِيْث، وَأُذَاكر بِالأَسَانيد وَبَعْضِ المتُوْنَ وَالمرَاسيل وَالمقَاطِيع بِسِت مائَة أَلْفِ حَدِيْث» (٦٨٥)

وقال سلمة:

أملى الفراء كتبه كلها حفظاً، لم يأخذ بيده نسخة إلاّ في كتابين. ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة، وكان مقدار الكتابين خمسين ورقة» (٦٨٦)

---

(٦٨٣) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٧/ ٢٤٧).

(٦٨٤) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال» (ص٣٩٧).

(٦٨٥) «تاريخ بغداد ت بشار» (٦/ ١٤٧).

(٦٨٦) «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» (ص٨٤).

وسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ الأَنْبَارِيُّ

الْكَثِير، وصَنَّفَ، وهُوَ مِمَّنْ يُضْرَبُ بِحِفْظِهِ الْمَثَلُ. كَانَ يُمْلِي مِنْ حِفْظِهِ لا مِنْ كِتَابٍ. وذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ ثَلاثَ مِائَةِ أَلْفِ بَيْتٍ مِنَ الشَّوَاهِدِ فِي الْقُرْآنِ، ومَرِضَ فِي زَمَنِ أَبِيهِ فَقَلِقَ أَبُوهُ، وقَالَ: كَيْفَ لا أَقْلَقُ لِعِلَّةِ مَنْ يَحْفَظُ جَمِيعَ مَا فِي هَذِهِ الصَّنَادِيقِ مِنَ الْكُتُبِ، وذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ عِشْرِينَ ومِائَةً مِنْ تَفَاسِيرِ الْقُرْآنِ بِأَسَانِيدِهَا. وقَدْ أَمْلَى مِنْ حِفْظِهِ غَرِيبَ الْحَدِيثِ، وهُوَ خَمْسٌ وأَرْبَعُونَ أَلْفَ وَرَقَةٍ، وكِتَابَ شَرْحِ الْكَافِي، وهُوَ أَلْفُ وَرَقَةٍ، وكِتَابَ الأَضْدَادِ، أَلْفُ وَرَقَةٍ، والْجَاهِلِيَّاتِ، سَبْعُ مِائَةِ وَرَقَةٍ، وغَيْرَ ذَلِكَ» (٦٨٧)

وقال أبو علي:

وَمن الرُّوَاة الَّذِيْنَ لَمْ يُرَ قَطُّ أَحْفَظ مِنْهُم أَبُو عُمَرَ غُلَامُ ثَعْلَب، أَمْلَى مِنْ حِفْظِهِ ثَلَاثِيْنَ أَلفَ وَرقَة لغَةً فِيمَا بَلَغَنِي، وَجَمِيعُ كُتُبه إِنَّمَا أَملَاهَا بِغَيْر تَصْنِيف» (٦٨٨)

وقال الصفدي في ترجمة عَلِيّ بن عباد أَبي الْحسن المستوفي:

«من إصبهان كَانَ أديباً فَاضلا شَاعِرًا قَالَ القَاضِي يحيى بن الْقَاسِم التكريتي كَانَ يحفظ كثيرا من الأراجيز والأشعار حكى لنا أَنه يحفظ جَمِيع أراجيز العجاج وَولده رؤبة وَجَمِيع أراجيز أبي النَّجْم الْعجلِيّ وَكُنَّا نمتحنه ونطلب مِنْهُ أَن ينشدنا أراجيز على

(٦٨٧) «الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ» (ص٩٥).
(٦٨٨) «تاريخ بغداد ت بشار» (٣/ ٦١٨).

حُرُوف المعجم وَكَانَ ينشدنا على أَي حرف طلبنا مِنْهُ» (٦٨٩)

وقال الخطيب في ترجمة قِرْطِمَة أَبي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّد بن عَلِيّ البَغْدَادِيّ

قال داود بن يحيى بن يمان: الناس يقولون أبو زرعة وأبو حاتم في الحفظ، والله ما رأيت أحفظ من قرطمة؛ دخلت عليه غرفته وبين يديه كتب وكيع سماعه من عمرو الأودي مصبوبة، فقال: ترى هذه الكتب المصبوبة؟ أيما أحب إليك أن أذكر من أول الباب إلى آخره، أو من آخر الباب إلى أوله؟ فقال: خذ أي كتاب شئت.

فقلبت كتاب الأشربة، وكان من أشق كتبه، فجعل يذكر من آخر الباب إلى أوله حتى أتى على الكتاب كله» (٦٩٠)

وقال عَبْد الرَّزَّاقِ:

كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عِنْدَنَا لَيْلَةً قَالَ: وَسَمِعْتُ قَرَأَ الْقُرْآنَ مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ نَائِمٌ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَقَضَى جُزْأَهُ مِنَ الصَّلَاةِ ثُمَّ قَعَدَ فَجَعَلَ يَقُولُ: الْأَعْمَشُ وَالْأَعْمَشُ وَالْأَعْمَشُ وَمَنْصُورٌ وَمَنْصُورٌ وَمَنْصُورٌ وَمُغِيرَةُ وَمُغِيرَةُ وَمُغِيرَةُ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جُزْئِي مِنَ الصَّلَاةِ وَهَذَا جُزْئِي مِنَ الْحَدِيثِ "» (٦٩١)

---

(٦٨٩) «الوافي بالوفيات» (٢١/ ١١٢).

(٦٩٠) «تاريخ بغداد ت بشار» (٤/ ١١٠).

(٦٩١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٦٥).

وقال عبد الرحمن بن مهدي:
لَمَّا قَدِمَ سفيان الثَّوْرِيُّ البَصْرَةَ، قَالَ لي: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ! جِئْنِي بِإِنْسَانٍ أُذَاكِرُهُ. فَأَتَيْتُهُ بِيَحْيَى بنِ سَعِيْدٍ القطان فَذَاكَرَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ لي: يا عبد الرحمن قُلْتُ لَكَ: جِئْنِي بِإِنْسَانٍ، جِئْتَنِي بِشَيْطَانٍ" قال الذهبي في "السير" -يَعْنِي: بَهَرَهُ حِفْظُهُ» (٦٩٢)

وقال محمد بن بشار:
مَا بَكَيْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ المُحَدِّثِيْنَ، مَا بَكَيْتُ عَلَى أَبِي دَاوُدَ الطيالسي.
قال: قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ؟ قَالَ: لِمَا كَانَ مِنْ حِفْظِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ مُذَاكَرَتِهِ (٦٩٣)

وقَالَ حَمَّاد بن زيد:
سَمِعت أَيُّوب وَيحيى بن عَتِيق وهشاما يتذاكرون حَدِيث مُحَمَّد فَذكرُوا حَدِيثا فَقَالَ أَيُّوب هُوَ كَذَا وَخَالفهُ هِشَام وَيحيى ثمَّ لم يقوما حَتَّى رجعا إِلَى حفظ أَيُّوب قَالَ فَأَرَادَ أَيُّوب أَن يضع من نَفسه فَقَالَ وَمَا الْحِفْظ وإيش الْحِفْظ هَذَا فلَان يحفظ قَالَ حَمَّاد رجل رَأَيْته يضْحك بِهِ» (٦٩٤)

ولَمَّا قَدِمَ الثَّوْرِيُّ البَصْرَةَ، قَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ! جِئْنِي بِإِنْسَانٍ أُذَاكِرُهُ. فَأَتَيْتُهُ بِيَحْيَى بنِ سَعِيْدٍ، فَذَاكَرَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ:

(٦٩٢) «المجروحين ت حمدي» (١/ ٥٠).
(٦٩٣) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٠/ ٣٢).
(٦٩٤) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله» (٢/ ٤٦٥).

قُلْتُ لَكَ: جِئني بِإِنْسَانٍ، جِئْتَنِي بِشَيْطَانٍ -يَعْنِي: بَهَرَهُ حِفْظُهُ-» (٦٩٥)

وقَالَ مَعْمَر:

خرجت مَعَ الصبيان وأنا غلام إلى جنازة الْحَسَن فطلبت العلم سنة مات الْحَسَن، وعَنْ مُحَمَّد بْن كثير عَنْ مَعْمَر قَالَ سَمِعت من قتادة وانا ابن أربع عشرة سنة فما شئ سمعته فِي تلك السنين إلا وكأَنَّهُ مكتوب في صدري» (٦٩٦)

وقال مُعَاذ بْن مُعَاذ:

" كُنَّا بِبَابِ ابْنِ عَوْنٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا شُعْبَةُ وَقَدْ عَقَدَ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا فَكَلَّمَهُ بَعْضُنَا، فَقَالَ: «لَا تُكَلِّمْنِي فَإِنِّي قَدْ حَفِظْتُ عَنِ ابْنِ عَوْنٍ عَشَرَةَ أَحَادِيثَ أَخَافُ أَنْ أَنْسَاهَا» (٦٩٧)

وقال أَبُو زُرْعَةَ:

إِذَا انْفَرَدَ ابْنُ إِسْحَاقَ بِالحَدِيْثِ، لَا يَكُونُ حُجَّةً. ثُمَّ رَوَى لَهُ حَدِيْثَ القِرَاءَةِ خَلْفَ الإِمَامِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُوْلُ: كَانَ الحَوضِيُّ، وَعَلِيُّ بنُ الجَعْدِ، وَقَبِيْصَةُ، يَقْدِرُوْنَ عَلَى الحِفْظِ، يَجِيْؤُونَ بِالحَدِيْثِ بِتَمَامٍ. وَذَكَرَ عَنْ قَبِيْصَةَ كَأَنَّهُ يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ» (٦٩٨)

---

(٦٩٥) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٩/ ١٧٧).

(٦٩٦) «التاريخ الكبير» للبخاري (٧/ ٣٧٨ ت المعلمي اليماني).

(٦٩٧) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣٩).

(٦٩٨) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٣/ ٨٠).

وقال الشعبي:

ما سمعت منذ عشرين سنة من رجل يحدث بحديث الا وانا اعلم به منه» (٦٩٩)

وقَالَ هِشَامُ بْنُ يُوْسُفَ:

أَقَامَ مَعْمَرٌ عِنْدَنَا عِشْرِيْنَ سَنَةً، مَا رَأَيْنَا لَهُ كِتَاباً. يَعْنِي: كَانَ يُحَدِّثُهُم مِنْ حِفْظِهِ» (٧٠٠)

وقَالَ التَّوَّزِيُّ:

سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ يَقُولُ: اخْتَلَفْتُ إِلَى يُونُسَ أَرْبَعِينَ سَنَةً كُلَّ يَوْم، أملأ ألواحي من حفظه» (٧٠١)

«وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ يُحَرِّجُ عَلَى أَصْحَابِهِ أَنْ يَكْتُبُوا عَنْهُ فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا» (٧٠٢)

وقال أَحْمَد بْن مَنْصُورٍ:

خَرَجْتُ مَعَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى، فَقَالَ يَحْيَى لأَحْمَدَ: أُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِرَ أَبَا نُعَيْمٍ

(٦٩٩) «تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي» (١/ ٦٨).

(٧٠٠) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٦/ ٤٧٣).

(٧٠١) «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» (ص٧٠).

(٧٠٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٣٧).

فَقَالَ: لا تُرِدْ فَالرَّجُلُ ثِقَةٌ،
فَقَالَ: لا بُدَّ لِي، فَأَخَذَ وَرَقَةً، فَكَتَبَ فِيهَا ثَلاثِينَ حَدِيثًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي نُعَيْمٍ، وَجَعَلَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ عَشَرَةٍ مِنْهَا حَدِيثًا لَيْسَ مِنْ حَدِيثِهِ، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى أَبِي نُعَيْمٍ فَقَرَأَ يَحْيَى عَشَرَةً وَأَبُو نُعَيْمٍ سَاكِتٌ ثُمَّ قَرَأَ الْحَادِي عَشَرَ، فَقَالَ أَبُو نُعَيْمٍ: لَيْسَ مِنْ حَدِيثِي، اضْرِبْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الثَّانِي، وَأَبُو نُعَيْمٍ سَاكِتٌ، فَقَرَأَ الْحَدِيثَ الثَّانِي، فَقَالَ: لَيْسَ مِنْ حَدِيثِي فَاضْرِبْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الثَّالِثَ، وَأَبُو نُعَيْمٍ سَاكِتٌ، ثُمَّ قَرَأَ الْحَدِيثَ الثَّالِثَ، فَتَغَيَّرَ أَبُو نُعَيْمٍ، وَانْقَلَبَتْ عَيْنَاهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى يَحْيَى،
فَقَالَ: أَمَّا هَذَا ـ وَذِرَاعُ أَحْمَدَ بِيَدِهِ ـ فَأَوْرَعُ مِنْ أَنْ يَعْمَلَ هَذَا،
وَأَمَّا هَذَا ـ يُرِيدُنِي ـ فَأَقَلُّ مِنْ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا،
وَلَكِنَّ هَذَا مِنْ فِعْلِكَ يَافَاعِلُ،
ثُمَّ أَخْرَجَ رِجْلَهُ، فَرَفَسَ يَحْيَى، فَرَمَى بِهِ، فَقَالَ: يَحْيَى: وَاللَّهِ، لَرَفْسَتُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ سَفَرِي» (٧٠٣)

وقال قتادة لسعيد:

خذ المصحف فأمسك علي. قال: فقرأ سورة البقرة فما أسقط منها واوا ولا ألفا ولا حرفا. فقال: يا أبا النضر أحكمت؟ قال: نعم! قال: لأنا لصحيفة جابر أحفظ مني لسورة البقرة، وإنما قدمت عليه مرة واحدة» (٧٠٤)

---

(٧٠٣) «المجروحين لابن حبان ت حمدي» (١/ ٣٥) و «الحث على حفظ العلم لابن الجوزى» (ص٨٧).

(٧٠٤) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٢/ ٣٣٤).

وقال معمر:

اجتمعت أَنَا،
وشُعبة
وَالثَّوْرِيُّ،
وَابْنُ جُرَيج

فقدم علينا شيخ فأملى علينا أربعة آلاف حديث عَنْ ظَهْرِ قلب فما أخطأ إِلَاّ في الموضعين لم يكن الخطأ منا، ولَا منه إنما الخطأ من فوق

فإذا جن علينا الليل خَتَمْنَا الْكِتَابَ فَجَعَلْنَاهُ تَحْتَ رُؤُوسِنَا وَكَانَ الْكَاتِبُ شُعْبَةَ وَنَحْنُ نَنْظُرُ فِي الْكِتَابِ وَكَانَ الرَّجُلُ طَلْحَةَ بن عَمْرو» (٧٠٥)

(٧٠٥) «الكامل في ضعفاء الرجال» (٥/ ١٧٢).

المبحث العاشر:

تقييد العلم.

١٠-تقييد العلم بالكتابة.

قد تكفل الله بحفظ وحيه قرآناً وسنة بأشياء منها الكتابة.

وقد روى البيهقي عن يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ قال:

كَانَ لِلْمَأْمُونِ وَهُوَ أَمِيرٌ إِذْ ذَاكَ مَجْلِسُ نَظَرٍ، فَدَخَلَ فِي مجلسة النَّاسِ رَجُلٌ يَهُودِيٌّ، حَسَنُ الثَّوْبِ. حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، قَالَ فَتَكَلَّمَ.

فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ الْعِبَارَةَ قَالَ: فَلَمَّا أَنْ تَقَوَّضَ الْمَجْلِسُ، دَعَاهُ الْمَأْمُونُ فَقَالَ لَهُ إِسْرَائِيلِيٌّ؟: قَالَ نَعَمْ! قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ حَتَّى أَفْعَلَ بِكَ، وَأَصْنَعَ، وَوَعَدَهُ، فَقَالَ: دِينِي، وَدِينُ آبَائِي، فَانْصَرَفَ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ جَاءَنَا مُسْلِمًا، قَالَ:

فَتَكَلَّمَ عَلَى الْفِقْهِ، فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ.

فَلَمَّا أَنْ تَقَوَّضَ الْمَجْلِسُ دَعَاهُ الْمَأْمُونُ.

فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ صَاحِبَنَا بِالْأَمْسِ؟ قَالَ لَهُ بَلَى! قَالَ: فَمَا كَانَ سبب إسلامك؟

قَالَ: انْصَرَفْتُ مِنْ حَضْرَتِكَ. فأجبت أَنْ أَمْتَحِنَ هَذِهِ الْأَدْيَانَ، وَأَنَا مَعَ مَا تَرَانِي حَسَنُ الْخَطِّ فَعَمَدْتُ إِلَى التَّوْرَاةِ. فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ فَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْكَنِيسَةَ فَاشْتُرِيَتْ مِنِّي، وَعَمَدْتُ إِلَى الْإِنْجِيلِ. فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ فَزِدْتُ فِيهَا، ونقصت وَأَدْخَلْتُهَا الْبِيعَةَ فَاشْتُرِيَتْ مِنِّي، وَعَمَدْتُ إِلَى الْقُرْآنِ فَعَمِلْتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ، وَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ وَأَدْخَلْتُهَا إِلَى الْوَرَّاقِينَ، فَتَصَفَّحُوهَا، فَلَمَّا أَنْ وَجَدُوا فِيهَا الزِّيَادَةَ، وَالنُّقْصَانَ، رَمَوْا بِهَا فَلَمْ يَشْتَرُوهَا.

فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا كِتَابٌ مَحْفُوظٌ، فَكَانَ هَذَا سَبَبُ إِسْلَامِي.

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ: فَحَجَجْتُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، فَلَقِيتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ فَذَكَرْتُ لَهُ الْحَدِيثَ فَقَالَ لِي مِصْدَاقُ هَذَا فِي كِتَابِ اللهِ- عَزَّ وَجَلَّ- قَالَ: قُلْتُ: فِي أَيِّ مَوْضِعٍ؟ قَالَ: فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجل فِي التَّوْرَاةِ، وَالْإِنْجِيلِ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] فَجَعَلَ حِفْظَهُ إِلَيْهِمْ فَضَاعَ.

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فَحَفِظَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا فَلَمْ يَضِعْ» (٧٠٦)

ومن الأبيات السائرة على الألسن ولا يُعرف من قالهما ابتداءً ما ذكره أبو الفتح عيسى بن البحتري الحلبي (ت بعد ٦٢٥هـ)

العلمُ صيـــدٌ والكِتَابةُ قيدُهُ ... قيِّد صيودَكَ بالحبالِ الواثقَهْ
فمِنْ الحَمَاقَةِ أنْ تصيدَ غزالةً ... وتَرْكَتَها مثلَ الخَليلَـةِ طالِقَهْ (٧٠٧)

وقد نظم بعضهم ما تضمنه هذان البيتان فقال:

قيد بخطك ما أبداه فكرك من ... نتائج تعجب الحـــذاق الفضلا
فما نتائج فـــــكر المرء بارزة ... في كل وقت إذا ما شاءها فعلا (٧٠٨)

---

(٧٠٦) «دلائل النبوة» (٧/ ١٥٩).
(٧٠٧) «أنس المسجون وراحة المحزون» (ص٣٤).
(٧٠٨) «إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين» (٤/ ٦).

وقالَ ابنُ المبارَك:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمًا ائْتِ حَمَّادَ بْنَ زَيْدٍ
فَالْتَمِسْ عِلْمًا وَحِلْمًا ثُمَّ قَيِّدْهُ بِقَيْـــدِ (٧٠٩)

وقال أبو الحسن علي بن الحسين:

لولا تقييد العلماء خواطرهم بالأخبار وكتبهم للآثار لبطل أول العلم وضاع آخره» (٧١٠)

وروى البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ي قَالَ: «مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أَكْتُبُ» (٧١١)

وقال النووي:

«وَلَا يَحْتَقِرَنَّ فَائِدَةً يَرَاهَا أَوْ يَسْمَعُهَا فِي أَيِّ فَنٍّ كَانَتْ بَلْ يُبَادِرُ إِلَى كِتَابَتِهَا ثُمَّ يُوَاظِبُ عَلَى مُطَالَعَةِ مَا كَتَبَهُ» (٧١٢)

---

(٧٠٩) «التاريخ الكبير» للبخاري (٣/ ٢٥ ت المعلمي اليماني).

(٧١٠) «معجم الأدباء» (١/ ٣٠).

(٧١١) صحيح: أخرجه البخاري برقم (١١٣).

(٧١٢) «المجموع شرح المهذب» (١/ ٣٩).

وقال مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْبُخَارِيُّ:

كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ بِمَنْزِلِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَأَحْصَيْتُ عَلَيْهِ أَنَّهُ «قَامَ وَأَسْرَجَ يَسْتَذْكِرُ أَشْيَاءَ يُعَلِّقُهَا فِي لَيْلَةٍ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ مَرَّةً» (٧١٣)

وقَالَ الْحُمَيْدِيُّ:

وَخَرَجْتُ مَعَ الشَّافِعِيِّ إِلَى مِصْرَ، وَكَانَ هُوَ سَاكِنًا فِي الْعُلْوِّ، وَنَحْنُ فِي الأَوْسَاطِ، فربَّما خَرَجْتُ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ، فَأَرَى الْمِصْبَاحَ، فَأُصِيحُ بِالْغُلامِ، فَيَسْمَعُ صَوْتِي، فَيَقُولُ: بِحَقِّي عَلَيْهِ، ارْقَ، فَأَرْقَى، فَإِذَا قِرْطَاسٌ وَدَوَاةٌ، فَأَقُولُ: مَهْ، يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَيَقُولُ: تَفَكَّرْتُ فِي مَعْنَى حَدِيثٍ أَوْ فِي مَسْأَلَةٍ، نَخِفْتُ أَنْ يَذْهَبَ عَلَيَّ، فَأَمَرْتُ بِالْمِصْبَاحِ وَكَتَبْتُهُ» (٧١٤)

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة الزَّرْكَشِيّ:

«وَكَانَ مُنْقَطِعًا فِي منزله لَا يتَرَدَّد إِلَى أحد إِلَّا إِلَى سوق الْكتب وَإِذا حَضَره لَا يَشْتَرِي شَيْئا وَإِنَّمَا يطالع فِي حَانُوت الكتبي طول نَهَاره وَمَعَهُ ظُهُور أوراق يعلق فِيهَا مَا يُعجبهُ ثمَّ يرجع فينقله إِلَى تصانيفه» (٧١٥)

(٧١٣) «معجم الشيوخ» (ص١٧٩).

(٧١٤) «آداب الشافعي ومناقبه» (ص٣٤).

(٧١٥) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٥/ ١٣٤).

وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج:

انظر لي رجلا عالما بالحلال والحرام، عارفا بأشعار العرب... أستأنس به وأصيب عنده معرفة فوجّهه إليّ من قبلك، فوجّه إليه الشعبي، وكان أجمع أهل زمانه، قال الشعبي: فلم ألق والياً ولا سوقة إلّا وهو يحتاج إليّ ولا أحتاج إليه ما خلا عبد الملك، ما أنشدته شعراً ولا حدثته حديثاً إلا وهو يزيدني فيه، وكنت ربما حدثته وفي يده اللقمة فيمسكها فأقول يا أمير المؤمنين أسغ طعامك، فإن الحديث من ورائه، فيقول: ما تحدثني به أوقع بقلبي من كلّ لذة وأحلى من كل فائدة» (٧١٦)

وقال محمد بن الحسين الأزدي:

كان ابن خراش شيخا عسرا في الحديث، كتبت عنه في المذاكرة نحو عشرين حديثا» (٧١٧)

وقال عبد الله بن أحمد:

سَمِعت أبي ذكر حَدِيثا عَن عبد الرَّحْمَن بن مَالك بن مغول عَن أبي حُصَيْن فِي المذاكرة على غير وَجه الحَدِيث فكتبته عَنهُ» (٧١٨)

---

(٧١٦) «معجم الأدباء» (١/ ٣٣).

(٧١٧) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (١/ ٣٠٣).

(٧١٨) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله» (٣/ ٤٥٤).

وقال أبو عَبْد اللَّه بْن مُحَمَّد بْن عَبْد اللَّه بن أحمد الصفار الأصبهانيّ:

نا محمّد بن إسماعيل الترمذي قال: نا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ عَنْ هِشَامِ بْنَ حَسَّانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ». قال الصفار: قَالَ أبو إسماعيل الترمذي، ذاكرت به بندارا ولم يكن عنده فكتبه عني" (٧١٩)

وقَالَ ابْنُ وَهْبٍ:

قَالَ مَالِكٌ سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ، يَقُولُ: لَأَنْ أَكُونَ كَتَبْتُ مَا أَسْمَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مِثْلُ مَالِي ، وَقَالَ يَعْقُوبُ سَمِعْتُ سُلَيْمَانَ بْنَ حَرْبٍ قَالَ: «قَدِمَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عِنْدَنَا وَكَانَ يُحَدِّثُهُمْ وَكَانَ أَصْحَابُنَا لَا يَكْتُبُونَ ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدُ كَتَبُوا» قَالَ: قَالَ حَمَّادٌ: قَالَ لِي جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ وَغَيْرُهُ: إِنَّا هَمَمْنَا أَنْ نَكْتُبَ حَدِيثَ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ فَلَوْ حَضَرْتَنَا ، قَالَ حَمَّادٌ فَحَضَرْتُهُمْ وَتَذَاكَرْنَا حَدِيثَهُ بَعْدُ فَكَتَبُوا (٧٢٠)

وقَالَ أَبو عَلِيّ النَّيْسَابُورِيّ:

كَتَبَ عَنِّي أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ صَاعِدٍ غَيْرَ حَدِيثٍ فِي المذَاكَرَةِ، وَكَتَبَ عَنِّي ابْنُ جَوْصَا بِدِمَشْقَ جُمْلَةً» (٧٢١)

---

(٧١٩) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (٢/ ٤٢).

(٧٢٠) «تقييد العلم للخطيب البغدادي» (ص١١١).

(٧٢١) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (٨/ ٧١).

وقد دوّن كثير من العلماء هذه الفوائد في كتب مفردة، مثل:

"الفنون" لابن عقيل في (٨٠٠ مجلد)،

و"الفوائد العونية" للوزير ابن هبيرة،

و"صيد الخاطر" لابن الجوزي،

و"قيد الأوابد" في (٤٠٠ مجلد) للدعولي،

و"عيون الفوائد" لابن النجار في (٦ أسفار)،

و"بدائع الفوائد" و"الفوائد" لابن القيم،

و"التذكرة" للكندي في (٥٠ مجلداً)،

و"مجمع الفوائد ومنبع الفرائد" للمقريزي في (١٠٠ مجلد)

و"تذكرة السيوطي في أنواع الفنون" في (٥٠ مجلداً)

و"تذكرة الصفدي" في أكثر من (٣٠ مجلداً).

والقاعدة عند المحدثين:

قول يحيي بْن معين:

إذا كتبت فقمش، وإذا حدثت ففتش» (٧٢٢)

(٧٢٢) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (١/ ٦٧).

المبحث الحادي عشر:

مشق الدفاتر.

١١-عشق الدفاتر والنهم بها.

قال ابن النديم:

«قيل لسقراط أما تخاف على عينيك من إدامة النظر في الكتب؟

فقال: إذا سلمت البصيرة لم أحفل بسقام البصر

وَقَالَ مَهْبُودٌ: لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ الْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ الْأَوَّلِينَ، لَانْحَلَّ مَعَ النِّسْيَانِ عُقُودُ الْآخِرِينَ

وقال بزرجمهر الكتب أصدق الحكم تنشق عن جواهر الشيم.

وقال آخر هذه العلوم فوارد فاجعلوا الكتب لها نظاما وهذه الأبيات شوارد فاجعلوا الكتب لها زماما» (٧٢٣)

وقال الجاحظ:

كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون، مثل بناء ازدشير وبناء اصطخر، وبناء المدائن والسدير، والمدن والحصون، ثم أن العرب شاركت العجم في البنيان، وتفردت بالكتب والأخبار، والشعر والآثار؛ فلها من البنيان غمدان، وكعبة نجران، وقصر مأرب، وقصر مارد، وقصر شعوب، والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان، وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان، لأن البناء لا محالة يدرس، وتعفى رسومه، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن، ومن أمة إلى أمة، فهو أبداً جديد، والناظر فيه مستفيد، وهو أبلغ في تحصيل المآثر

(٧٢٣) «الفهرست» (ص٢٢).

من البنيان والتصاوير. وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخلقة مركبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتيء، وربما كان هو المحفور، إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم، أو عهداً لأمر عظيم، أو عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو أحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المقشعر، وعلى الأبلق الفرد، وعلى باب الرها؛ يعمدون إلى المواضع المشهورة والأماكن المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدروس. وأجدر أن يراه من مر به، ولا ينسى على وجه الدهور، ولولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار، ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع، ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، فتحنا بها كل مستغلق، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد بخس حظنا منه، وأهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر، والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل، وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء، وكتب الملاهي، وكتب أعوان الصلحاء وكتب أصحاب المراء والخصومات، وكتب السخفاء وحمية الجاهلية، ومنهم من يفرط في العلم أيام حموله وترك ذكره وحداثة سنه، ولولا جياد الكتب وحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم، ونازعت إلى حب الكتب، وألفت من حال الجهل وإن يكونوا في غمار الوحش، ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ما عسى أن يكون لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير وسمعت محمد بن الجهم يقول: «إذا غشيني

النعاس في غير وقت النوم تناولت كتاباً فأجد اهتزازي للفوائد الأريحية التي تعتريني من سرور الإستنباه وعز التبين، أشد إيقاظاً من نهيق الحمار، وهدة الهدم، فإني إذا استحسنت كتاباً واستجدته ورجوت فائدته، لم أوثر عليه عوضاً، ولم أبغ به بدلاً، فلا أزال أنظر فيه ساعة بعد ساعة، كم بقي من ورقة مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من قبله»

وقال ابن داحة: «كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس فنزل مقبرة من المقابر وكان لا يزال في يده كتاب يقرؤه، فسئل عن ذلك فقال: «لم أر أوعظ من قبر ولا آنس من كتاب، ولا أسلم من الوحدة»

وأهدى بعض الكتاب إلى صديق له دفتراً وكتب معه: «هديتي هذه، أعزك الله، تزكو على الإنفاق، وتربو على الكد، لا تفسدها العواري، ولا تخلقها كثرة التقليب، وهي إنس في الليل والنهار والسفر والحضر تصلح للدنيا والآخرة تؤنس في الخلوة وتمنع من الوحدة، مسامر مساعد، ومحدث مطواع، ونديم صدق.

وقال بعض الحكماء: «الكتب بساتين العلماء» وقال آخر: «ذهبت المكارم إلا من الكتب».

قال الجاحظ: وأنا أحفظ وأقول: «الكتاب نعم الذخر والعقدة، والجليس والعمدة، ونعم النشرة ونعم النزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل والزميل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً، إن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت سرتك نوادره، وشجتك مواعظه، ومن لك بواعظ مله، وبناسك فاتك، وناطق أخرس،

ومن لك بطبيب أعرابي، ورومي هندي، وفارسي يوناني، ونديم مولد، ونجيب ممتع؛ ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغص والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده؛ وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في ردن، وروضة تنقل في حجر، ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة؛ ولا أعلم جاراً آمن، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية، ولا أقل املالا ولا إبراما، ولا أبعد من مراء، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف في قتال من كتاب، ولا أعم بيانا، ولا أحسن مؤاتاة، ولا اعجل مكافأةً، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أطيب ثمراً، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كل إبان من كتاب. ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه وإمكان وجوده، يجمع من السير العجيبة، والعلوم

الغريبة، وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة، والمذاهب القديمة، والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية، والبلاد النازحة، والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب.

ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غباً وورده خمساً، وإن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك كبعضك. والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يقليك، والرفيق الذي لا يملّك، والمستمع الذي لا يستزيدك، والجار الذي لا يستبطئك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق.

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجود بيانك، ونفخم ألفاظك وبجح نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك، يطيعك بالليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر، وهو المعلم إن افتقرت إليه لا يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتتك، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم، نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازياد في تجربة، وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين، وتثمير مال، ورب صنيعة، وابتداء إنعام. ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الردية، وجهالتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة والغنيمة، واحراز الأصل مع استفادة الفرع؛ ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى، واعتياد الراحة، وعن اللعب، وكل ما تشتهيه، لقد كان له في ذلك على صاحبه اسبغ النعم، وأعظم المنة وجملة الكتاب وإن كثر ورقه، فليس مما يمل لأنه وإن كان كتاباً واحداً، فإنه كتب كثيرة في خطابه، والعلم بالشريعة والأحكام، والمعرفة بالسياسة والتدبير، وقال مصعب بن الزبير: إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون، فإذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال، فإنك لا ترى ولا تسمع إلا مختاراً ولؤلؤاً منظوماً» .

وقال لقمان لابنه: «يا بني نافس في طلب العلم، فإنه ميراث غير مسلوب، وقرين غير مرغوب، ونفيس حظ من الناس وفي الناس مطلوب».

وقال الزهري: «الأدب ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال ولا يبغضه إلا مؤنثهم». وقال: «إذا سمعت أدباً فاكتبه ولو في حائط»،

وقال منصور بن المهدي للمأمون: «أيحسن بنا طلب العلم والأدب»؟ قال: «والله لأن أموت طالباً للأدب خير لي أن أعيش قانعاً بالجهل». قال: «فإلى متى يحسن بي ذلك»؟ قال: «ما حسنت الحياة بك» (٧٢٤)

وذكر كمال الدين أبو الفضل ابن الفوطي في حوادث سنة (٦٤١هـ):

أن الخليفة المعتصم أمر بعمل خزانة للكتب في داره، وكتب على جهاتها أشعار، منها ما نظمه صفي الدين عبد الله بن جميل، متقدم شعراء الديوان:

أنشأ الخليفة للعلوم خزانـــــة ... سارت بسيرة فضله أخبارها

تجلو عروساً من غرائب حسنها ... در الفضائل والعلوم نثارهـا

أهدى مناقبه لها مســـــتعصم ... بالله مـــن لألائه أنـــوارهـا (٧٢٥)

وقال الشوكاني في ترجمة قطب الدَّين بن عَلَاء الدَّين النهرواني ثمَّ المكي الحنفي:

---

(٧٢٤) «المحاسن والأضداد» (ص١٩-٢٣).

(٧٢٥) "الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة"(ص-٩٣).

الْعَالم الْكَبِير أحد المدرسين بِالْحرم الشريف فِي الْفِقْه وَالتَّفْسِير والأصلين وَسَائِر الْعُلُوم وَكَانَ يكْتب الْإِنْشَاء لأشراف مَكَّة وَله فصاحة عَظِيمَة يعرف ذَلِك من اطلع على مُؤَلفه الَّذِي سَمَّاهُ الْبَرْق اليماني فى الْفَتْح العثمانى

وَهُوَ مؤلف الْإِعْلَام فِي أَخْبَار بَيت الله الْحَرَام وَكَانَ عَظِيم الجاه عِنْد الأتراك لَا يحج أحد من كبرائهم إلا وَهُوَ الذي يطوف بِهِ وَلَا يرتضون بِغَيْرِهِ وَكَانُوا يعطونه الْعَطاء الْوَاسع وَكَانَ يشترى بِمَا يحصله مِنْهُم نفائس الْكتب ويبذلها لمن يحتاجها وَاجْتمعَ عِنْده مِنْهَا مالم يجْتَمع عِنْد غَيره وَكَانَ كثير التنزهات فِي الْبَسَاتِين وَكَثِيرًا مَا يخرج إِلَى الطَّائِف ويستصحب مَعَه جمَاعَة من الْعلمَاء والأدباء وَيقوم بكفاية الْجَمِيع» (٧٢٦)

وذكر ابن النديم:

أن ابن طباطبا قال في الدفاتر:

لله إخـــــوان أفادوا مفخرا ... فبوصـــــلهم ووفـائهم أتكثر

هم ناطقون بغـــير ألسنة ترى ... هم فاحصون عن السرائر تضمر

إن أبغ من عرب ومن عجم معا ... علما مضـى فيه الدفـاتر تخـــبر

حـــتى كأني شـاهد لزمـانهـا ... ولقد مضت من دون ذلك أعصر

خطبـاء إن أبـغ الخطابة يرتقوا ... كفى كفى للدفاتر منـــــــــبر

كم قد بلوت بها الرجـال وإنمـا ... عقل الفتى بكتاب علم يســـــبر

(٧٢٦) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (٢/ ٥٧).

كم قد هزمت به جليسا مـبرمـا لا يستطيع له الهزيمة عســـــكر (٧٢٧)

وقال عبد الله فكري باشا أحد أعلام النهضة الأدبية الحديثة في إحدى رسائله:

«"كتبت والذهن فاتر من وهن الدفاتر، والتبييض والتسويد، والتقييد، والتسديد، والترجمة وكثرتها، والهمة وفترتها، والماهية وقلتها، النفس وذلتها، وراتبي لا يكفي أجرة البيت، ولا يفي ثمن الماء والزيت، وبالأمس وعد الوكيل بالزيادة، واعتذر اليوم بالأصيل على العادة، على أنه لو حصلت زيادة، فلزيد ولعمرو، إلى آخر الزمر، ولله الأمر، أحوال متبددة، ونفوس متبلدة، وأشغال متعددة، وإخوان خُوَّان، وخلان غيلان، ورفاق، وما أجمل الفراق.

وقلت:

إلام أعاني الصبر والدهر غادر وحتى متى أشكو وما لي عاذر
ولو أنني أشكو عظائم شـــدتي لميت لرقت لي العظام النـواخر (٧٢٨)

وقال ذو الرّمّة لعيسى بن عمر:

اكتب شعري؛ فالكتاب أحبّ إليّ من الحفظ. لأنّ الأعرابيّ ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته، فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم ينشدها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدّل كلاما بكلام» (٧٢٩)

(٧٢٧) «الفهرست» (ص٢٣).
(٧٢٨) «الأدب الحديث» لعمر دسوقي (١/ ١٥٤).
(٧٢٩) «حياة الحيوان» للجاحظ (١/ ٣٣).

وقال القلقشندى:

«قد كان للخلفاء والملوك في القديم بها مزيد اهتمام، وكمال اعتناء، حتّى حصلوا منها على العدد الجمّ، وحصلوا على الخزائن الجليلة. ويقال إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن:

إحداها- خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد

فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب، وذهبت معالمها، وأعفيت آثارها.

الثانية- خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر

وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم على ما سيأتي ذكره في الكلام على ترتيب مملكة الديار المصرية في المقالة الثانية. ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، واستيلاء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم، فاشترى القاضي الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب ملوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلى أن استولت عليها الأيدي فلم يبق منها إلا القليل.

الثالثة- خزانة خلفاء بني أميّة بالأندلس

وكانت من أجلّ خزائن الكتب أيضا. ولم تزل إلى انقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس، فذهبت كتبها كلّ مذهب» (٧٣٠)

وقال ياقوت في ترجمة الجاحظ حكاية تدل على عناء ابن الاخشاد في البحث عن كتاب للجاحظ:

قال أبو حيان: ومن عجيب الحديث في كتبه ما حدثنا به علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح قال: سمعت ابن الاخشاد شيخنا أبا بكر يقول: ذكر أبو عثمان في أول «كتاب الحيوان» أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست، ومرّ بي في جملتها:

«الفرق بين النبي والمتنبىء» و «كتاب دلائل النبوة»

وقد ذكرهما هكذا على التفرقة وأعاد ذكر الفرق في الجزء الرابع لشيء دعاه إليه، فأحببت أن أرى الكتابين، ولم أقدر إلا على واحد منهما، وهو «كتاب دلائل النبوة» وربما لقب بالفرق خطأ، فهمّني ذلك وساءني في سوء ظفري به، فلما شخصت من مصر ودخلت مكة حرسها الله تعالى حاجّا أقمت مناديا بعرفات ينادي، والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازح أوطانهم وتباين قبائلهم وأجناسهم من المشرق إلى المغرب ومن مهبّ الشمال إلى مهب الجنوب وهو المنظر الذي لا يشابهه منظر: «رحم الله من دلّنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبىء لأبي عثمان الجاحظ على أي وجه كان» . قال فطاف المنادي في ترابيع عرفات وعاد بالخيبة

(٧٣٠) «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» (١/ ٥٣٧).

وقال: عجب الناس مني ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به، قال ابن اخشاد: وإنما أردت بهذا أن أبلغ نفسي عذرها" (٧٣١)

وقال أسامة بن منقذ:

في قصة ذكرها والده له أن أبا يوسف القزويني لما رأى الشيخ أبا الحسن علي بن البوين وقد أخذ كتاباً من تلك الكتب التي حول فراش القزويني فقال: يدخل الإنسان وينبسط ويقرأ ما عنده من الكتب، أي إني من أهل العلم، ما أحوجك أن يكون ما في يدك فوقها! فألقاه من يده، وكان الكتاب كتاب العصا.

يقول أسامة بن منقذ: ولي منذ سمعت هذا نحو من ستين سنة أتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر فلا أجد من يعرفه، وكلما تعذر وجوده ازددت حرصاً على طلبه، إلى أن حداني اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا. ولا أدري أكان ذاك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره. على أني قد بلغت النفس مناها، وكانت حاجة في نفس يعقوب قضاها. ولا أرتاب في أن مؤلف ذلك الكتاب وقع له معنى فأجاد في تأليفه وتنميقه، وأنا فاتني مطلوب ففرغت إلى تجويزه وتلفيقه. وكتابي هذا وإن كان خالياً من العلوم التي يتجمل أصحاب التصانيف بها، ويرغب أولو الفضل في طلبها، فما يخلو من أخبار وأشعار تميل النفوس إليها، ويحسن موقعها ممن وقف عليها. وقد افتتحه بذكر عصا موسى عليه السلام، ثم ذكر عصا سليمان بن داود عليه السلام، ثم أفضت في ذكر الأخبار والأشعار التي يأتي فيها ذكر العصا. ولا أدعي أني أتيت على ذكر العصا فيما

(٧٣١) «معجم الأدباء» (٥/ ٢١١٥).

جمعته، وإنما أدرت منه ما حفظته وسمعته. وبالله عز وجل أعوذ وأعتصم، من أن تكتب يدي ما يؤثم ويصم. ومن رحمته تعالى أطلب الصفح والغفران، عن اشتغالي بالترهات عن تلاوة القرآن، وهو سبحانه أقرب مدعو، وأكرم مرجو» (٧٣٢)

وقال الشخ أبو غدة:

"كنت فى أيام الطلب والتحصيل مملقا كاكثر طلبة العلم، وكنت اشترى من الكتب ما أستطيع شراءه بالاقتطاع من نفقتى الضيقة، بالنقد الحاضر او بالدين الآجل إذا أمكن.

وعرضت لى يوما بعض كتب نادرة تهمنى جدا، ورغبت فى اقتنائها ولكنى كنت فى املاق شديد فلا سبيل الى شرائها! وقلق قلبى وخاطرى من جراء ذلك، فبعت (شالتى)- الشالة والشال: قطعة نسيج رهيف من الصوف الناعم الرفيع النفيس الملون - التى ورثتها من ابى رحمه الله تعالى فى (سوق الحراج)، واشتريت تلك الكتب، وارحت قلبى وخاطرى، وفرحت باقتنائها ووصولى اليها فرحا عظيما أنسانى فقد (الشالة) والحمد لله.

وكنت فى بعض الأحيان أنذر لله تعالى صلاة كذا وكذا ركعة، إذا حصلت على الكتاب الفلانى. ووقعت لى واقعة فى شأن الحصول على كتاب، أسجلها هنا لطرافتها:

لما كنت فى القاهرة أيام دراستى فى كلية الشريعة بالجامع الازهر، أوصانى شيخنا العلامة الامام محمد زاهد الكوثرى رحمه الله تعالى، خلال ملازمتى له باقتناء

(٧٣٢) «نوادر المخطوطات» (١/ ١٨٢).

كتاب " فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية " للعلامة الشيخ على القارى، وحضنى على الحصول عليه حضاً أكيداً وكثيراً، مع علمه أنى من هواة الكتب النادرة النافعة. وكنت أظن أنه مطبوع فى الهند، وقد مكثت فى القاهرة ست سنوات حتى إنهاء دراستى اسأل عنه، وانشده فى كل مكتبة أقدر وجوده فيها، فلم أظفر منه بخبر ولا أثر.

ولما عدت إلى بلدى حلب، ما فتئت أبحث عنه أيضاً فى كل بلد أزوره او مكتبة ارتادها، ولما كنت أظنه مطبوعا فى الهند، وكان من كتب فقه السادة الحنفية، كنت اسأل الكتبيين عن مطبوعات الهند فى الفقه الحنفى عامة، لعلى أصل اليه بهذه الطريقة، اذ قد يجهلون اسمه، وكان فى دمشق كتبيون قدماء خبراء فى الكتب القديمة والنفيسة، وعندهم من قديمها ونفيسها الكثير، ولكنهم يغالون به ويتشددون فى بيعه، منهم السيد عزت القصيباتى ووالده، والشيخ حمدى السفرجلانى، والسيد احمد عبيد.

فسألت السيد عزت القصيباتى عن " فتح باب العناية " على أنه من مطبوعات الهند، فقال: هو عندى، وأخرج لى كتاب " البناية بشرح الهداية " للامام العينى، المطبوع فى الهند من مئة عام سنة ١٢٩٣، وفى ست مجلدات ضخام كبار جداً، وكان هذا الكتاب أحد الكتب النادرة النفيسة التى أبحث عنها، فاشتريته بثمن غير مغالى فيه، إذ كان غير الكتاب المطلوب الذي سميته له.

ثم سألت الشيخ حمدى السفرجلانى رحمه الله تعالى عن الكتاب، فعلمت منه أنه مطبوع فى قزان من بلاد روسيا، وأنه أندر من الكبريت الأحمر كما يقال، وأنه طول حياته واشتغاله بالكتب ما مر به منه سوى نسخة واحدة، كان قد باعها

للعلامة الكوثرى بأغلى الأثمان التى لا تعقل، فعند ذلك تعين عندى البلد الذي طبع فيه الكتاب، وضعف أملي بالحصول عليه!

ولما اتاح الله لى حج بيته الكريم عام ١٣٧٦، ودخلت مكة المكرمة: طفقت اسأل عنه فى مكتباتها، لعلى أجده قادماً مع أحد المهاجرين من تلك البلاد الى بلد الله الحرام؟ فلم أوفق لذلك.

ثم ساقتنى عناية الله تعالى إلى كتبى قديم منزو فى بعض الأسواق المتواضعة فى مكة المكرمة، وهو الشيخ المصطفى بن محمد الشنقيطى سلمه الله تعالى، فاشتريت منه بعض الكتب، وسألته - على يأس - عنه، فقال لى: كان عندى من نحو اسبوع، اشتريته من تركة بعض العلماء البخاريين، وبعته لرجل من بخارى من علماء طشقند بثمن كريم، فما كدت أصدقه حتى جعل يصفه لى وصفا مثبتا لمعرفته به، وأنه الكتاب الذي ألوب عليه وأسعى منذ دهر إليه! فقلت: من هذا العالم الطشقندى الذي اشتراه؟ فجعل يتذكره تذكراً ويسميه لى: (الشيخ عناية الله الطشقندى). فقلت: أين مسكنه أو محل عمله أو ملتقاه؟ قال: لا أدري عن ذلك شيئاً، فقلت: كيف اسأل عنه؟ قال: لا أدري، فازددت عند ذلك يأسا من الحصول عليه أو لقاء مشتريه!

فذهبت بعد هذا اسأل عن (الشيخ عناية الله) كل بخارى أراه فى الممسجد الحرام أو فى اسواق مكة، وصرت أذهب إلى المدارس والربط التى يقال لى: فيها بخاريون، لأسأل عن هذا الشيخ البخارى، حتى ذهبت إلى الأحياء الواقعة خارج مكة، إذ قيل لى: فيها بعض البخاريين، ولكن هيهات اللقاء بالمنشود عنه؟! وكم فى مكة المكرمة من البخاريين الذين يسمون: عناية الله؟

ثم أوصلنى السؤال المتتابع إلى الشيخ عبد القادر الطشقندى البخارى الساعاتى رحمه الله، فى جهة حى جرول من أطراف مكة، فسألته عن الشيخ الطشقندى، فعرفه وعين لى اسمه: (الشيخ مير عناية الطشقندى)، ولكن لا علم له بمستقره وملتقاه، فعند ذلك غلبنى اليأس من لقاء هذا الشيخ الذي عنده " فتح باب العناية "! فصرت فى أثناء طوافى حول الكعبة المعظمة زادها الله تشريفاً وتعظيماً أطلب من الله تعالى أن يرشدنى إلى ذلك الأنسان، وييسر لى اقتناء هذا الكتاب، وصرت أكرر هذا الدعاء والطلب مرات تلو مرات، ومضى أسبوع وأنا - علم الله - فى تشتت بال من حال البحث عن الكتاب وصاحبه.

حتى كنت يوماً أمشي فى سوق باب زيادة من أبواب المسجد الحرام، فرآنى تاجر دمشقى قديم فى مكة المكرمة، يقال له: أبو عرب، كان له متجر هناك قبل توسعة الحرم، فدعانى إلى متجره لما رآنى شامى السحنة والمظهر، يساءلنى عن الشام وأهلها، فسألته من شدة هوسى بالكتاب - وهو تاجر دمشقى شامى - عن الشيخ البخارى؟! فقال لى: هذا ختنه زوج ابنته فى الدكان الذي أمامى، وهو أعرف الناس به، فو الله ما كدت أصدق ذلك فرحاً وسروراً.

فذهبت إلى ختنه وسألته عنه، فاستغرب قائلاً: ما الذي يدعوك للسؤال عنه ولقائه؟ قلت: صار لى أكثر من اسبوع وأنا دائب البحث عنه، فدلنى عليه جزاك الله خيراً، فأرشدنى إلى منزله بالتعيين فى حى المسلفة، جوار قهوة السقيفة، فذهبت إليه مرة بعد مرة ليلاً ونهاراً حتى لقيته، فتنازل لى عن الكتاب بالثمن الذي اختار وأحب، فكانت عندى فرحة من فرحات العمر.

وقد من الله على بنشر باقي الكتاب بفضله وكرمه" (٧٣٣)

والفتح بن خاقان بن أحمد كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب من أولاد الملوك اتخذه المتوكل أخا وكان يقدمه على سائر ولده وأهله وكان له خزانة جمعها على بن يحيى المنجم له لم ير أعظم منها كثرة وحسنا وكان يحضر داره فصحاء الاعراب وعلماء الكوفيين والبصريين» (٧٣٤)

وقال لسان الدين ابن الخطيب

في حق ذي الوزارتين محمد بن عبد الرحمن ابن الحكيم اللخمي:

كان، رحمه الله، فريد دهره سماحة، وبشاشة، ولوذعيّة، وانطباعا، رقيق الحاشية، نافذ العزمة، مهتزّا للمديح، طلقا للأمل، كهفا للغريب، برمكي المائدة، مهلّبي الحلوى، ريّان من الأدب، مضطلعا بالرواية، مستكثرا من الفائدة. يقوم على المسائل الفقهية، ويتقدم الناس في باب التّحسين والتّقبيح، ورفع راية الحديث والتّحديث، نفّق بضاعة الطلب، وأحيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تشغله السياسة عن النظر، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع والإفراط في اقتناء الكتب، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها، وأثرت أنديته من ذخائرها" (٧٣٥)

---

(٧٣٣) "صفحات من صبر العلماء" (ص-٢٧٨).

(٧٣٤) «الفهرست» (ص١٤٨).

(٧٣٥) «الإحاطة في أخبار غرناطة» (٢/ ٣١١).

وَكَانَ بَعْضُ الْقُضَاةِ يَشْتَرِي الْكُتُبَ بِالدَّيْنِ وَالْقَرْضِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَفَلَا أَشْتَرِي شَيْئًا بَلَغَ بِي هَذَا الْمَبْلَغَ؟ قِيلَ: فَإِنَّكَ تُكْثِرُ، فَقَالَ: عَلَى قَدْرِ الصِّنَاعَةِ تَكُونُ الْآلَةُ، وَاحْتَاجَ بَعْضُ النَّجَّارِينَ إِلَى بَيْعِ فَأْسِهِ وَمِنْشَارِهِ، فَبَاعَهُمَا وَحَزِنَ عَلَيْهِمَا، وَنَدِمَ عَلَى بَيْعِهِمَا، إِلَى أَنْ رَأَى جَارًا لَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي سُوقِ الْوَرَّاقِينَ وَهُوَ يَبِيعُ كُتُبَهُ، فَقَالَ: إِذَا بَاعَ الْعَالِمُ آلَتَهُ فَالصَّانِعُ أَعْذَرُ مِنْهُ، وَسَلَا بِذَلِكَ» (٧٣٦)

وقال نطاحة واسمه أحمد بن إسماعيل ويكنى أبا علي وسيمر ذكره مستقصى في صفة الكتاب الكتاب هو المسامر الذي لا يبتدئك في حال شغلك ولا يدعوك في وقت نشاطك ولا يحوجك إلى التجمل له والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يغريك والرفيق الذي لا يملك والناصح الذي لا يستزلك وأنشدني السري بن أحمد الكندي لنفسه قال كتبت على ظهر جزء أهديته إلى صديق لي وجلدته بجلد أسود.

وأدهم يسفر عن ضده ... كما سفر الليل إذ ودعا
بعثت إليك به أخرسا ... يناجي العيون بما استودعا
صموت إذا زر جلبابه ... لبيب فن حله أمتعا
تخبر أنواعه جامعا ... يروح ويغدوا لها مجمعا
تلاقى النفوس سرورا به ... وتلقى الهموم به مصرعا

(٧٣٦) «تقييد العلم» (ص١٣٧).

فلا تعدلن به نزهة فقد حاز ما تبتغي أجمعا (٧٣٧)

وقال ابن بشكوال في ترجمة عبد الرحمن ابن محمد بن فطيس (ت ٤٠٢ هـ):

«جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحدٌ من أهل عصره بالأندلس مع سعة الرواية والحفظ والدراية. وكان يملي الحديث من حفظه في مسجده، ومستمل بين يديه على ما يفعله كبار المحدثين بالمشرق والناس يكتبون عنه الحديث ومستملٍ بين يديه، وكان له ستة وراقين ينسخون له دائما، وكان قد رتب لهم على ذلك راتبا معلوما، وكان متى علم بكتابٍ حسنٍ عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه. فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه ورده عليه.

أخبرني حفيده أبو سليمان أنه سمع عمه وغير واحد من سلفه يحكون أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جده هذا مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية.

وأخبرنا أيضا: أن القاضي جده كان لا يعير كتابا من أصوله البتة، وكان إذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير فإن صرفه وإلا تركه عنده» (٧٣٨)

(٧٣٧) «الفهرست» (ص٢٢).

(٧٣٨) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس» (ص-٢٩٨-٢٩٩).

وقال السباعي:

«لعل الأدب العربي هو أغنى الآداب العالمية القديمة بالتغني بالكتاب والولع به والرغبة فيه والتحدث عنه، حتى لكأنه حبيب نأى مزاره وشطّت داره، فالقلوب إليه منصرفة وبه مولعة» (٧٣٩)

وقال ول ديورنت:

«وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعة"» (٧٤٠)

وجمعَ الصَّاحِبُ مِنَ الكُتُبِ مَا يحتَاجُ فِي نَقْلِهَا إِلَى أَرْبَعِ مائَةِ جَمَلٍ، وَلَمَّا عَزَمَ عَلَى التَّحْدِيْثِ تَابَ، وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ بَيْتاً سَمَّاهُ بَيْتَ التَّوبَةِ، وَاعتكَفَّ عَلَى الخيْرِ أُسبوعاً، وَأَخذَ خُطُوطَ جَمَاعَةٍ بصحَّةِ توبَتِهِ، ثُمَّ جَلَسَ للإِمْلَاءِ، وَحضرَهُ الخلْقُ، وَكَانَ يتفقَّدُ عُلَمَاءَ بَغْدَادَ فِي السَّنَةِ بخمسَةِ آلَافِ دِيْنَارٍ، وَأُدَبَاءَهَا، وَكَانَ يُبْغِضُ مَنْ يَدخلُ فِي الفَلْسَفَةِ. وَمَرِضَ بِالإِسهَالِ، فَكَانَ إِذَا قَامَ عَنِ الطِّسْتِ تَرَكَ إِلَى جَنْبِهِ عَشْرَةَ دَنَانِيْرَ للغُلَامِ.

وَلَمَّا عُوفِيَ تَصَدَّقَ بِخَمْسِيْنَ أَلفِ دِيْنَارٍ.

(٧٣٩) «من روائع حضارتنا» (ص٢٤٤).

(٧٤٠) «قصة الحضارة» (١٣/ ١٧١).

وَقِيْلَ: إِنَّ صَاحِبَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ نُوْحَ بنَ مَنْصُوْرٍ كتبَ إِلَيْهِ يَسْتَدعِيهِ لِيُوَلِّيَهُ وَزَارتَهُ، فَاعتلَّ بِأَنَّهُ يحتَاجُ لِنَقْلِ كُتُبِهِ خَاصَّةً أَرْبَعَ مائَةِ جَمَلٍ، فَمَا الظَّنُّ بِمَا يليقُ بِهِ مِنَ التَّجَمُّلِ. وَكَانَ قَدْ لُقِّبَ كَافِيَ الكُفَاةِ» (٧٤١)

وحُكِي عن الصاحب ابن عباد:

أن بعضَ الملوك أرسل إليه القدومَ عليه فقال له في الجواب: أحتاجُ إلى ستين جمَلاً أنقل عليها كتبَ اللغة التي عندي» (٧٤٢)

والمستنصر بالله، أبو مروان الحكم، صاحب الأندلس، وابن صاحبها الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد الأموي المرواني:

ولي ستّ عشر ة سنة، وعاش ثلاثاً وستين سنة، وكان حسن السيرة، محبّاً للعلم، مشغوفاً بجمع الكتب والنظر فيها، بحيث إنه جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله ولا جمعه أحد بعده، حتى ضاقت خزائنه عنها» (٧٤٣)

وقال ابن المقرى:

(٧٤١) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٦/ ٥١٣).

(٧٤٢) «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» (١/ ٧٤).

(٧٤٣) «العبر في خبر من غبر - وذيوله ت زغلول» (٢/ ١٢٤).

«جمع من الكتب ما لا يحدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وإنّهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها، وكان عالماً نبيهاً صافي السريرة» (٧٤٤)

والمستنصر بالله صاحب الأندلس بقي في المملكة بعد أبيه ستّة عشر عامًا، وعاش ثلاثًا وستّين سنة.

وكان حَسَنَ السّيرة، مُكْرِمًا للقادمين عليه، جَمَع من الكتب ما لا يُحَدّ، ولا يوصف كثرة ونَفَاسةُ، مع العلم والنَّبَاهة، وحُسْن السّيرة وصفاء السّريرة» (٧٤٥)

وقال الخطيب البغدادي:

«وَمِمَّا يُعْزَى إِلَى السَّرِيِّ بْنِ أَحْمَدَ الْكِنْدِيِّ:

لَا تُخْدَعَنَّ عَنِ الْعُلُومِ فَإِنَّهَا ... سَرْجٌ يَزِيدُ عَلَى الزَّمَانِ ضِيَاؤُهَا

تُنْسَى الْقُرُونَ فَلَا يُشِيدُ بِذِكْرِهَا ... أَحَدٌ وَيُذْكَرُ دَائِبًا عُلَمَاؤُهَا

فَاحْرِصْ عَلَى جَمْعِ الْعُلُومِ فَإِنَّهَا ... رِيُّ الْقُلُوبِ مِنَ الصَّدَى وَشِفَاؤُهَا» (٧٤٦)

وقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ:

---

(٧٤٤) «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس» (١/ ٣٩٥).

(٧٤٥) «تاريخ الإسلام - ط التوفيقية» (٢٦/ ٢٥٩).

(٧٤٦) «تقييد العلم» (ص١٣٧).

" قَالَتِ ابْنَةُ أُخْتِي لِأَهْلِنَا: خَالِي خَيْرُ رَجُلٍ لِأَهْلِهِ، لَا يَتَّخِذُ ضَرَّةً وَلَا يَشْتَرِي جَارِيَةً، قَالَ: تَقُولُ الْمَرْأَةُ: وَاللَّهِ لِهَذِهِ الْكُتُبُ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ ثَلَاثِ ضَرَائِرَ " (٧٤٧)

وقال ابن بشكوال في ترجمة عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم:

ذكرها ابن حيان وقال: لم يكن في جزائر الأندلس في زمانها من يعدلها فهما وعلما، وأدبا، وشعرا، وفصاحة، وعفة وجزالة وحصافة. وكانت تمدح ملوك زمانها وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها، فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها، ولا ترد شفاعتها. وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب، وتعنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة حسنة، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة. وماتت عذراء لم تنكح قط» (٧٤٨)

وكان الزهري:

إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوما: والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر» (٧٤٩)

وقال كلثوم بن عمرو العتابي:

---

(٧٤٧) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٠١).
(٧٤٨) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس» (ص٦٥٤).
(٧٤٩) «وفيات الأعيان» (٤/ ١٧٨).

لنا ندماء ما نمل حديثهـــــــم أمينـــون مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضـى ورأيـا وتأديبـا وأمرا مســددا
بلا علة تخشى ولا خـوف ريبــة ولا نتقى منهم بنانا ولا يـــــدا
فإن قلت هم أحياء لست بكاذب وإن قلت هم موتى فلست مفندا (٧٥٠)

وقال الحسن اللؤلؤي:

غبرت أربعين عاما ما قلت ولا بتّ ولا اتكأت إلّا والكتاب موضوع على صدري. (٧٥١)

وذكر ابن عبد الهادى في ترجمة سَلْمان بن عَبد الحميد البَغْدادِيُّ قال:

ذكره ابن ناصر الدين، وقال: كان عابداً خيراً فقيهاً حنبلياً، وله شِعْرٌ قالَ: من ذلك ما أنشدناه من لَفْظه لنفسه:

وقائلةٍ أنفقتَ في الكُتْبِ ما حَوت يَمِينُكَ من مالٍ فَقُلْتُ وعَيْنى
لعلْ أرى فيـــــــها كِتاباً يَدُلُّنى لأخـــــذِ كِتابِى آمِناً بيَمِيْنِي (٧٥٢)

وقال أبو عمرو:

---

(٧٥٠) «الفهرست» (ص٢٢).
(٧٥١) «الحيوان» للجاحظ (١/ ٤٠).
(٧٥٢) «الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد» (١/ ٤٥).

وما رأيت أحدا في يده دفتر، وصاحبه فارغ اليد، إلا اعتقدت أنه أعقل وأفضل من صاحبه. ونظر المأمون إلى بعض أولاده وفي يده كتاب فقال: ما هذا؟ قال بعض ما يشحذ الفطنة ويؤنس الوحشة، فقال: الحمد لله الذي جعل في أولادي من ينظر إليه بأدبه أكثر مما ينظر إليه بحسبه» (٧٥٣)

وكان القاضي عبد الرحمن بن فرفور

عالي الهمّة، تضيق يده عمّا يريد، فلذلك كان كثيراً ما يبث شكواه في الطروس والدفاتر، ويعتب على الزمان الذي أخنى على أهل الأدب وقطع آمالهم بحسامه الباتر، ويرحم الله القائل:

هذا زمان دريهمي لا غيره فدع الدفاتر للزمان الفاتر» (٧٥٤)

وكان الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الصقلبي

حسن الكتابة، جميل الخط، مليح الخطاب، عزيز الأدب، قوي المعرفة، مشاركاً في الفقه، حاضر الجواب، جماعاً للدفاتر، حتى بلغت أربعمائة ألف مجلد، وأما الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها» (٧٥٥)

وقال ابن حجر في ترجمة ابْن الملقن:

---

(٧٥٣) «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» (١/ ١٥١).

(٧٥٤) «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب» (١/ ٥٢٢).

(٧٥٥) السابق (٣/ ٥٣٥).

وَنَشَأ فِي كَفَالَة زوج أمه ووصيه فحفظ الْقُرْآن والعمدة وشغله مالكيا ثمَّ أَشَارَ عَلَيْهِ ابْن جمَاعَة أحد أَصْحَاب أَبِيه أَن يقرئه الْمِنْهَاج الفرعي فحفظه وَذكر أَنه حصل لَهُ مِنْهُ خير كَبِير وَأَنْشَأَ لَهُ ربعا فَكَانَ يَكْتَفِي بأجرته وتوفر لَهُ بَقِيَّة مَاله للكتب وَغَيرهَا بِحَيْثُ قَالَ شَيخنَا أَنه بلغه أَنه حضر فِي الطَّاعُون الْعَام بيع كتب بعض الْمُحدثين فَكَانَ الْوَصِيّ لَا يَبِيع إِلَّا بِالنَّقْدِ الْحَاضِر قَالَ: فتوجهت إِلَى منزلي فَأخذت كيسا من الدَّرَاهِم وَدخلت الْحلقَة فصببته فصرت لَا أَزِيد فِي كتاب شَيْئا إِلَّا قَالَ: بِعْ لَهُ فَكَانَ فِيمَا اشْتَرَيْته مُسْند الإِمَام أَحْمد بِثَلَاثِينَ درهما، وَقَالَ المقريزي فِي عقوده أَنه كَانَ يتَحَصَّل لَهُ من ريع الرّبع كل يَوْم مِثْقَال ذهب مَعَ رخاء الأسعار وَعدم الْعِيَال، وتفقه بالتقي) (٧٥٦)

وقال المقريزي في ترجمة عبد الرحيم بن عليّ اللخميّ العسقلانيّ البيسانيّ المصريّ:

«وكان يقتني الكتب من كل فنّ ويجتلبها من كل جهة، وله نسّاخ لا يفترون، ومجلدون لا يبطلون. قال لي بعض من يخدمه في الكتب: أنّ عددها قد بلغ مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا، وهذا قبل موته بعشرين سنة. وحكى لي ابن صورة الكتبيّ: أن ابنه القاضي الأشرف التمس مني أن أطلب له نسخة الحماسة ليقرأها، فأعلمت القاضي الفاضل، فاستحضر من الخادم الحماسات، فأحضر له خمسا وثلاثين نسخة، وصار ينفض نسخة نسخة ويقول: هذه بخط فلان، وهذه عليها خط فلان،

(٧٥٦) «إنباء الغمر بأبناء العمر» (٢/ ٢١٧).

حتى أتى على الجميع وقال: ليس فيها ما يصلح للصبيان، وأمرني أن أشتري له نسخة بدينار» (٧٥٧)

وقال القيرواني:

في رسالة بديع الزمان إلى القاضي على بن أحمد يشكو أبا بكر الحيرى القاضي:

أبو بكر القاضي، أضاعه الله كما أضاع أمانته، وخان خزانته، ولاحاطه من قاض فى صولة جندى، وسبلة كردى ... إلى أن قال: أيكفى أن يصبح المرء بين الزقّ والعود، ويمسى بين موجبات الحدود، حتى يكمل شبابه، وتشيب أترأبه. ثم يلبس دنيّته، ليخلع دينيّته، ويسوى طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سباله، ليطيل حباله، ويظهر شقاشقه، لبستر مخارقه، وببيّض لحيته، ليسوّد صحيفته، ويبدى ورعه، ليخفى طمعه، ويغشى محرابه، ليملأ جرابه، ويكثر دعاءه، ليحشو وعاءه، ثم يخدم بالنهار أمعاءه، ويعالج بالليل وجعاءه، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالما، ويقعد حاكما؟ هذا إذا المجد كالوه بقفزان وباعوه فى سوق الخسران هيهات حتى ينسى الشهوات، ويجوب الفلوات، ويعتضد المحابر، ويحتضن الدفاتر، وينتج الخواطر، ويحالف الأسفار، ويعتاد القفار، ويصل الليلة باليوم، ويعتاض السهر من النوم، ويحمل على الروح، ويجنى على العين، وينفق من العيش، ويخزن فى القلب، ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق، ولا من التحقيق إلا إلى التعليق» (٧٥٨)

---

(٧٥٧) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (٤/ ٢٠٦).

(٧٥٨) «زهر الآداب وثمر الألباب» (٣/ ٧٧٠).

كما تحسر المنفلوطي:

«وإن أكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم، فلو أنك أردت أحدهم على أن يخرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية، وفي النحو عن ضرب زيد عمرا وقتل خالد بكرا، وفي البيان عن تشبيه زيد بالبدر واستعارة الأظافر للمنية، وفي الصرف عن فعلل وافعوعل، لوجدت في نفسه من الجهد والمشقة وفي لسانه من العي والحصر ما يحزنك على أعوام طوال قضاها بين المحابر والدفاتر، ثم لم يحصل من بعدها على طائل» (٧٥٩)

وقال صالح بن أحمد بن حنبل:

رأى رجل مع أَبي مِحْبَرَة، فقال له: يا أَبا عبد الله، أَنت قد بلغت هذا المبلغ، وأَنت إِمامُ المسلمين. فقال: مع المِحبرة إلى المَقْبرة» (٧٦٠)

وقال أبو محمد الطيب في ترجمة يحيى بن عمران بن ثواب:

كان عارفا بفنون شتى، وكان كريما جوادا، وله شعر حسن، ومنه قوله:

شيئان أحسن من عناق الخرّد وألذ من شرب القراح الأسود
وأجل من رتب الملوك عليهم وشي الحرير مطرّز بالعسجد

(٧٥٩) «النظرات» (١/ ٣٠٩).

(٧٦٠) «مناقب الإمام أحمد» (ص٣٦).

سود الدفاتر أن أكون نديمها طول النهار وبرد ظل المسجد
فإذا هما اجتمعا لشخص فارغ عن كلّ همّ نال أبعد مقصد
وعلا المفاخر والمحامد كلّها وحوى المحامد في الحياة وفي الغد
ثم الصلاة على النبي وآله ما أرقلت عيس بقاع جدجد (٧٦١)

وقال أبو هفان:

ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب إليهم من الكتب والعلوم:

الجاحظ

والفتح بن خاقان

وإسماعيل بن إسحاق القاضي

فاما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قرائته كائنا ما كان حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر.

والفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتابا من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل إلى عوده اليه حتى في الخلاء.

وأما إسماعيل بن إسحاق فاني ما دخلت اليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتبا أو ينفضها» (٧٦٢)

وقال محمد بن سلام الجمحي:

---

(٧٦١) «قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» (٥/ ٥٠٩).

(٧٦٢) «الفهرست» (ص١٤٨).

قيل للمنصور يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ بَقِيَ شَيْءٌ مِنَ اللَّذَّاتِ لَمْ تَنَلْهُ؟ قَالَ: لَا، سِوَى شَيْءٍ وَاحِدٍ. قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ أقعد على مصطبة وحولي أصحاب الحديث: فيَقُولُ الْمُحَدَّثُ لِلشَّيْخِ: مَنْ ذَكَرْتَ، رَحِمَكَ اللَّهُ؟ فَاجْتَمَعَ وُزَرَاؤُهُ وَكُتَّابُهُ، وَجَلَسُوا حَوْلَهُ، وَقَالُوا: لِيُمْلِ عَلَيْنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا مِنَ الْحَدِيثِ. فَقَالَ: لَسْتُمْ بِهِمْ، إِنَّمَا هُمُ الدَّنِسَةُ ثِيَابُهُمْ، الْمُشَقَّقَةُ أَرْجُلُهُمْ، الطَّوِيلَةُ شُعُورُهُمْ، بُرُدُ الْآفَاقِ، وَنَقَلَةُ الْحَدِيثِ» (٧٦٣)

وقال أَبو الْحُسَيْنِ بْنُ فَارِسٍ اللُّغَوِيّ:

سَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ ابْنَ الْعَمِيدِ يَقُولُ: " مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ فِي الدُّنْيَا حَلَاوَةً أَلَذَّ مِنَ الرِّئَاسَةِ وَالْوَزَارَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا حَتَّى شَاهَدْتُ مُذَاكَرَةَ سُلَيْمَانَ بْنِ أَحْمَدَ الطَّبَرَانِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الْجَعَابِيِّ بِحَضْرَتِي فَكَانَ الطَّبَرَانِيُّ يَغْلِبُ الْجَعَابِيَّ بِكَثْرَةِ حِفْظِهِ وَكَانَ الْجَعَابِيُّ يَغْلِبُ الطَّبَرَانِيَّ بِفِطْنَتِهِ وَذَكَاءِ أَهْلِ بَغْدَادَ حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهَا وَلَا يَكَادُ أَحَدُهُمَا يَغْلِبُ صَاحِبَهُ فَقَالَ الْجَعَابِيُّ: عِنْدِي حَدِيثٌ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا عِنْدِي فَقَالَ: هَاتِهِ فَقَالَ: نَا أَبُو خَلِيفَةَ نَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَيُّوبَ وَحَدَّثَ بِالْحَدِيثِ فَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ: أَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَيُّوبَ وَمِنِّي سَمِعَ أَبُو خَلِيفَةَ فَاسْمَعْ مِنِّي حَتَّى يَعْلُوَ إِسْنَادُكَ فَإِنَّكَ تَرْوِي عَنْ أَبِي خَلِيفَةَ عَنِّي فَخَجِلَ الْجَعَابِيُّ وَغَلَبَهُ الطَّبَرَانِيُّ، قَالَ ابْنُ الْعَمِيدِ: فَوَدِدْتُ فِي مَكَانِي أَنَّ الْوَزَارَةَ وَالرِّئَاسَةَ لَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ لِي وَكُنْتُ الطَّبَرَانِيَّ، وَفَرِحْتُ مِثْلَ الْفَرَحِ الَّذِي فَرِحَ بِهِ الطَّبَرَانِيُّ لِأَجْلِ الْحَدِيثِ أَوْ كَمَا قَالَ "» (٧٦٤)

---

(٧٦٣) «المشيخة الكبرى» (٢/ ٤٧٥).

(٧٦٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٧٤).

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي عِمْرَانَ:

" كُنْتُ عِنْدَ أَبِي أَيُّوبَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ شُجَاعٍ وَقَدْ تَخَلَّفَ فِي مَنْزِلِهِ فَبَعَثَ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِهِ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَعْرَابِيِّ صَاحِبِ الْغَرِيبِ يَسْأَلُهُ الْمَجِيءَ إِلَيْهِ، فَعَادَ إِلَيْهِ الْغُلَامُ فَقَالَ: قَدْ سَأَلْتُهُ ذَلِكَ فَقَالَ لِي: عِنْدِي قَوْمٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَإِذَا قَضَيْتُ أَرَبِي مِنْهُمْ أَتَيْتُ، قَالَ الْغُلَامُ: وَمَا رَأَيْتُ عِنْدَهُ أَحَدًا إِلَّا أَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ كُتُبًا يَنْظُرُ فِيهَا فَيَنْظُرُ فِي هَذَا مَرَّةً وَفِي هَذَا مَرَّةً، ثُمَّ مَا شَعَرْنَا حَتَّى جَاءَ فَقَالَ لَهُ أَبُو أَيُّوبَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، تَخَلَّفْتَ عَنَّا وَحَرَمْتَنَا الْأُنْسَ بِكَ، وَلَقَدْ قَالَ لِي الْغُلَامُ إِنَّهُ مَا رَأَى عِنْدَكَ أَحَدًا، وَقُلْتَ: أَنَا مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَإِذَا قَضَيْتُ أَرَبِي مَعَهُمْ أَتَيْتُ" فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ:

لَنَا جُلَسَاءُ مَا نَمَـــلُّ حَدِيثَهُـــمْ ... أَلِبَّاءُ مَأْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهَـدَا
يُفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْـمَ مَا مَضَى ... وَعَقْلًا وَتَأْدِيبًا وَرَأْيًا مُسَدَّدَا
بِلَا فِتْنَةٍ تُخْشَى وَلَا سُوءِ عِشْـــرَةٍ ... وَلَا يُتَّقَى مِنْهُمْ لِسَانًا وَلَا يَـدَا
فَإِنْ قُلْتَ أَمْوَاتٌ فَلَا أَنْتَ كَاذِبٌ ... وَإِنْ قُلْتَ أَحْيَاءٌ فَلَسْتَ مُفَنَّدَا» (٧٦٥)

وقال بعضهم:

لم يبق شيء من الدنيا يَسُر به ... إلاّ الدفاترُ فيها الشعرُ والسمرُ
مات الذين لهم فضلٌ ومكرمةٌ ... وفي الدفاتر من أخبارهمْ أثرُ» (٧٦٦)

(٧٦٥) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٢٢٧).
(٧٦٦) «المنصف للسارق والمسروق منه» (ص٧٩٦).

وقال العتبي:

ذات يوم لابن الجهم: ألا تتعجّب من فلان!! نظر في كتاب الإقليدس مع جارية سلمويه في يوم واحد، وساعة واحدة، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة، على أنّه حرّ مخيّر، وتلك أمة مقصورة، وهو أحرص على قراءة الكتاب من سلمويه على تعليم جارية. قال ابن الجهم: قد كنت أظنّ أنّه لم يفهم منه شكلا واحدا، وأراك تزعم أنّه قد فرغ من مقالة!! قال العتبي: وكيف ظننت به هذا الظنّ، وهو رجل ذو لسان وأدب؟ قال: لأنّي سمعته يقول لابنه: كم أنفقت على كتاب كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا، قال: إنّما رغّبني في العلم أنّي ظننت أنّي أنفق عليه قليلا وأكتسب كثيرا، فأمّا إذا صرت أنفق الكثير، وليس في يدي إلّا المواعيد، فإنّي لا أريد العلم بشيء!!» (٧٦٧)

وقال ابن فرحون في ترجمة خلف أبو القاسم مولى يوسف بن بهلول البلنسي المعروف بالبريلي:

«مفتي بلنسية في وقته وعظيمها ومن أهل العلم والجلالة وله كتاب في شرح المدونة واختصارها سماه "التقريب" -اختصر به البرالي البلنسي كتاب "المدونة" وجمع فيه أقوال أصحاب مالك حتى قال فيه بعضهم: من أراد أن يكون فقيها من ليلته فعليه بكتاب البريلي-استعمله الطلبة في المناظرة وانتفعوا به عول فيه على نقل بن أبي زمنين في لفظ المدونة وأخذ عليه فيه أوهام في النقل.

(٧٦٧) «الحيوان» للجاحظ (١/ ٤١).

ذكر أنه لما أكمل خلف كتابه دخلت منه نسخة صقلية وعبد الحق (شيخ فقهاء صقلية في عصره) بها فلما قرأه ونظر فيه إلى أقواله وما أدخله فيه من كتابه استحسنه وأراد شراءه فلم يتيسر له ثمنه فباع حوائج من داره واشتراه فغلا الكتاب وتنافس فيه الناس عند ذلك» (٧٦٨)

وقال ابن القيم:

«وأما عشَّاق العلم فأعظمُ شَغَفًا به وعشقًا له من كل عاشقٍ بمعشوقِه، وكثيرٌ منهم لايشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر.

وقيل لامرأةِ الزُّبَيْر بن بكَّار ـ أو غيره ـ: هنيئًا لكِ؛ إذ ليست لك ضَرَّة، فقالت: والله لهذه الكتبُ أضرُّ عليَّ من عِدَّة ضرائرَ! وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه، أنه قال: كان الجدُّ إذا دخل الخلاءَ يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب، وارفعْ صوتَك حتى أسمع.

وأعرف مَنْ أصابه مرَضٌ من صُداع، وحُمَّى، وكان الكتابُ عند رأسه، فإذا وجد إفاقةً، قرأ فيه، فإذا غُلب، وضعَه، فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك، فقال: إنَّ هذا لا يَحِلُّ لك، فإنَّك تُعِينُ على نفسك، وتكونُ سببًا لفوات مطلوبك.

وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأ بي مرضٌ، فقال لي الطبيب: إنَّ مطالعتَك، وكلامَك في العلم يزيدُ المرضَ. فقلت له: لا أصبرُ عن ذلك، وأنا أُحاكمك إلى علمك: أليستِ النفسُ إذا فرحتْ وسُرّت قويت الطبيعةُ، فدفعتِ المرض؟ فقال: بلى! فقلت له:

(٧٦٨) «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» (١/ ٣٥٢).

فإنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجدُ راحةً. فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.

فعشقُ صفاتِ الكمال من أنفع العشق وأعلاه» (٧٦٩)

وقال الزيات:

قال الأدفويّ في "الطالع السعيد" عن (ابن دقيق العيد): كان له قدرة على المطالعة رأيت خزانة المدرسة النجيبية بقوص فيها جملة كتب، من جملتها عيون الأدلة لابن القصَّار في نحو من ثلاثين مجلدة، وعليها علامات له. وكذلك رأيت كتب المدرسة السابقية، رأيت على السنن الكبير للبيهقي، فيها من كل مجلدة علامة، وفيها تاريخ الخطيب كذلك، ومعجم الطبراني الكبير، والبسيط للواحدي، وغير ذلك)؛ وأخبرني شيخنا الفقيه سراج الدين الترندري أنه لما ظهر الشرح الكبير للرافعي اشتراه بألف درهم وصار يصلي الفرائض فقط، واشتغل بالمطالعة إلى أن أنهاه مطالعة. ويقال إنه طالع كتب مكتبة المدرسة الفاضلية عن آخرها، وكانت ذات مكتبة ضخمة حافلة» (٧٧٠)

وقال ابن حجر في ترجمة شَافِع بن عَلِيّ بن عَبَّاس:

«واشتغل وَسمع الحَدِيث واخذ عَن الشَّيْخ جمال الدّين ابْن مَالك وتعاني الأدب واتقن الْخط وَالنّظم والانشاء وَكتب فِي الدِّيوَان زَمَانا ثمَّ أَصَابَهُ سهم فِي وقْعَة

(٧٦٩) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» (ص١٠٨).

(٧٧٠) «مجلة الرسالة» (٨٣٠/ ٧).

حمص فِي صُدْغه سنة ٦٨٠ فَكَانَ سَبَب عماه فَلَزِمَ بَيته وَكَانَ يحب جمع الْكتب حَتَّى انه لما مَاتَ ترك نَحْو الْعشْرين خزانَة ملأى من الْكتب النفيسة وَمَات فِي شعْبَان سنة ٧٣٠ وَكَانَ من شدَّة حبه للكتب إِذا لمس الْكتاب يَقُول هَذَا الْكتاب الْفُلَانِيّ ملكته فِي الْوَقْت الْفُلَانِيّ وإذا طلب مِنْهُ اى مُجَلد كَانَ قَامَ إِلَى الخزانة فتناوله كأنه كَمَا وَضعه فِيهَا» (٧٧١)

وقال ابنُ الأخضر:

دخلتُ يومًا عليه وهو مريضٌ وعلى صَدْره كتابٌ ينظر فيه، فقلتُ: ما هذا؟ قال: ذَكَرَ ابنُ جني مسألةً في النحو، واجتهد أن يستشهد عليها ببيتٍ من الشعر فلم يحضره، وإني لأعرفُ على هذه المسألة سبعين بيتًا من الشِّعْر، كلُّ بيت من قصيدة يصلح أن يستشهد به عليها.... وحَضَرَ يومًا سوق الكُتُبيين، فَنُودي على كُتُب بخمسِ مئة دينار، ولم يكن عنده شيء، فاشتراها، وقال: أخروني ثلاثة أيام. ومضى فنادى على ساج داره، فبلغت خمس مئة دينار، فنقَضَ ساجَها، وباعه بخمس مئة دينار، فوفى بها ثمن الكتب، وبقيت الدَّار له بغير شيء" (٧٧٢)

وقال ابن حجر في ترجمة عَلِيّ بن أَحْمد بن يُوسُف بن الْخضر الآمدى الحنبلى:

وَكَانَ يتجر فِي الْكتب واضر فَلم يكن يخفى عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْء بل كَانَ إِذا طلب مِنْهُ المجلد الأول مثلا من الْكتاب الْفُلَانِيّ قَامَ وَأخرجه وَكَانَ يمس الْكتاب فَيَقُول هَذَا

(٧٧١) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٢/ ٣٣٥).
(٧٧٢) «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٢١/ ١٧٨).

يشْتَمل على كَذَا وَكَذَا فَلَا يخطىء فَإِن كَانَ الْكتاب مثلا بخطين قَالَ هُوَ بخطين أَو بقلم أخف من الآخر قَالَ كَذَلك فَلَا يخطىء قطّ وَكَانَ لَا يُفَارق الاشْتِغَال الإشتغال وَلِلنَّاسِ عَلَيْهِ قبُول وَأهْدى إِلَيْهِ بعض أَصْحَابه نصفية فسرقت فَرَأَى فِي مَنَامه الشَّيْخ مجد الدّين عبد الصَّمد فدله على الَّذِي أَخذهَا وَالَّذِي أودعت عِنْده فَتوجه إِلَى الرجل فَقَالَ لَهُ أعْطى النصفية الَّتِي أودعها عنْدك فلَان فأخرجها لَهُ فَأَخذهَا وَرَاح فَجَاء السَّارِق فَقَالَ لَهُ الشَّيْخ فلَان جَاءَ وطلبها على لسَانك وَأَخذهَا فبهت السَّارِق وَقَالَ أَيْضا رَأَيْت شخصا أَطْعمنِي دجَاجَة فَأكلت مِنْهَا فانتبهت وَفِي يَدي مِنْهَا وَلما دخل غازان بَغْدَاد قبل السبعمائة سمع بِهِ فَحَضَرَ المستنصرية وَاجْتمع النَّاس لتلقيه وَحضر الشَّيْخ زين الدّين فَأمر غازان من مَعَه أَن يدخلُوا الْمدرسَة وَاحِدًا وَاحِدًا كل مِنْهُم يُوهم الشَّيْخ زين الدّين أَنه غازان امتحانا لَهُ فَجعل النَّاس كلما وصل أَمِير يزهزهون لَهُ ويعظمونه ويأتون بِهِ إِلَى زين الدّين ليسلم عَلَيْهِ فَيرد السَّلَام عَلَيْهِ وَلَا يَتَحَرَّك حَتَّى جَاءَ غازان فَلَمَّا سلم عَلَيْهِ وَصَافحهُ نَهَضَ لَهُ قَائِمًا وَقبل يَده واعظم ملتقاه وَبَالغ فِي الدُّعَاء لَهُ بالمغلي ثمَّ بالتركي ثمَّ بالفارسي ثمَّ بالرومي ثمَّ بالعربي وَرفع صَوته فأعجب غازان بِهِ وخلع عَلَيْهِ فِي الْحَال وَأمر لَهُ بِمَال ورتب لَهُ فِي كل شهر" (٧٧٣)

وقال الزركلي في ترجمة ابن ناصِر الدَّرْعي محمد بن محمد بن أحمد، ابن ناصر، أبو عبد الله الدرعي:

(٧٧٣) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٤/ ٢٥).

من صلحاء المالكية وعلمائهم في المغرب. كانت له زاوية وأتباع كثيرون. وهو الممدوح بالقصيدة (الدالية - ط) لليوسي.

كان من أهل درعة (قرب سجلماسة) وهو أستاذ العياشي صاحب الرحلة. عني في أول أمره بجمع الكتب، نسخا بخطه وشراء، وتصحيحا ومقابلة، مع كتابة الفوائد على حواشيها وطررها، على ضيق معيشته. وكان ينام مع أهله على التراب لضعف ماله عن شراء حصير أو فراش.

وأهدى إليه أحد تلاميذه حصيرا فآثر وضع كتبه عليه. وحفظ كثيرا من المتون، وكتبا منها التسهيل والقاموس. وأثرى بعد ذلك» (٧٧٤)

ومن نوادر الحافظ أبي العلاءالهمداني رحمه الله تعالى:

أنه كان يمشي في اليوم الواحد ثلاثين فرسخا. حدثني الإمام طلحة بن مظفر العلثي قَالَ: بيعت كتب ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظ أَبُو العلاء الهمداني، فنادوا على قطعة منها: ستين دينارا، فاشتراها الحافظ أَبُو العلاء بستين دينارا، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس. فخرج الحافظ، واستقبل طريق همدان، فوصل فنادى على دار له، فبلغت ستين دينارا. فقال: بيعوا. قالوا: تبلغ أكثر من ذلك. قَالَ: بيعوا. فباعوا الدار بستين دينارا فقبضها، ثم رجع إلى بغداد. فدخلها يوم الخميس، فوفى ثمن الكتب. ولم يشعر أحد بحاله إلا بعد مدة» (٧٧٥)

(٧٧٤) «الأعلام» (٧/ ٦٣).

(٧٧٥) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٢/ ٢٧٧ ت العثيمين).

وحكى الخطيب أبو زكرياء يحيى بن علي التبريزي اللغوي:

أن أبا الحسن علي ابن أحمد بن علي بن سلك الفالي الأديب كانت له نسخة من كتاب " الجمهرة " لابن دريد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها واشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم المذكور بستين ديناراً، وتصفحها فوجد بها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن الفالي وهي:

أَنِسْتُ بِهَا عِشْرِينَ حَوْلاً وَبِعْتُهَا ... لَقَدْ طَالَ وَجدِي بَعْدهَا وَحَنِينِي
وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنَّنِي سَأَبِيعُهَا ... وَلَوْ خَلَّدَتْنِي فِي السُّجُونِ دُيُونِي
وَلَكِنْ لِضَعْفٍ وَافتِقَارٍ وَصِبْيَةٍ ... صِغَارٍ عَلَيْهِم تَسْتَهِلُّ شُؤُونِي
وَقَدْ تُخْرِجُ الحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... كَرَائِمَ مِنْ رَبٍّ بِهِنَّ ضَنِينِ

قال: فأرسلها الذي اشتراها وأرسل معها أربعين ديناراً أخرى. (٧٧٦)

ودخل الشَّيْخ عَلَاء الدّين ابن النفيس:

مرّة إِلَى الْحمام الَّتِي فِي بَاب الزهومة فَلَمَّا كَانَ فِي بعض تغسيله خرج إِلَى مسلخ الْحمام واستدعى بِدَوَاةٍ وقلم وورق وَأخذ فِي تصنيف مقَالَة فِي النبض إِلَى أَن أنهاها ثمَّ عَاد وَدخل الْحمام وكمل تغسيله» (٧٧٧)

(٧٧٦) «وفيات الأعيان» (٣/ ٣١٦).

(٧٧٧) «الوافي بالوفيات» (٢٠/ ١٨٤).

وقال المراكشي في ترجمة أحمدُ بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصَّقْرِ الأنصاريّ الخَزْرَجيّ، أبو العبّاس:

«ولم تكنْ همّتُه مصروفة إلا إلى العِلم وأسبابِه، فاقتنَى من الكتُبِ جُملةً وافرةً سوى ما نَسَخَ بخطّه الرائق كما تقَدَّم، وامتُحِنَ فيها مرّاتٍ بضُروبٍ من الجَوائح كالغَرَق والنَّهْب بغَرْناطة، فقد كان استَصحَبَ إليها من مَرّاكُش خمسةَ أحمال، ولمّا فَصَلَ عنها تركَها معَ ما صار له منها مدّةَ مقامه بها، فأتَى عليه النَّهْبُ في الكائنة على أهل غَرناطةَ عند قيامِهم على لَمْتُونةَ وتحصُّنِ لَمْتُونةَ بقَصَبتِها وما دارَ بينَهم من القتال إلى أن تغَلَّب أهلُ القَصَبة على أهلِ البلد وتمكَّنوا من البلد تمكُّنَ عَنْوة، واستَباحوهُ استباحةَ قَهْر، وفرّ معظمُ الناس عن منازلِهم، فكان ممّن فَرَّ عن منزلِه عِيالُ أبي العبّاس هذا وبعض ولَدِه الذين تركَهم بها حين توجَّه إلى مَرّاكُش، فنُهِبَ ما كان بدارِه من كتُب وغيرِها، وكذلك طرأَ له بمَرّاكُشَ حين دخَلَها عبدُ المؤمن وطائفتُه، فقد كان جَمَعَ منها بمَرّاكُشَ عظيماً، وأُخبرَ أنه كان في حينِ حصارِ مَرّاكُش - والحالُ بها ضيّقُ والسعرُ شديد- أنه كان يَخرُجُ بالدّرهم ليشتريَ به قُوتًا لنفسه ولعيالِه، فربّما صادَفَ في طريقِه كتابًا بيدِ إنسان فيشتريه منه بذلك الدّرهم ويرجعُ دونَ قُوت، ويبقى هو وعِيالُه طاويًا إلى أن ييسّرَ اللهُ في غيرِه وكان معَ تقدُّمِه وتبريزِه في المعارِف بَكِيءَ اللّسان قصيرَ باع الكلام لا يكادُ يؤلّفُ بين كلمتَيْن لفَرْط حياءٍ كان قد غَلَبَ عليه حتى مَلَكَه، فإذا خَلا بنفسه لإنشاءٍ أو تصنيف، أو فاوَضَ مَن عادتُه التبسُّطُ معَه والتأنُّسُ به، تفَجَّرت منه بُحورُ علم لا يُكدِّرُها الدِّلاء» (٧٧٨)

(٧٧٨) «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» (١/ ٤١٠).

وقَالَ الحَافِظُ زَكِيّ الدِّيْنِ عَبْد العَظِيْمِ:

كَانَ السِّلَفِيّ مُغْرَى بِجمع الكُتُب والاستكثَار مِنْهَا، وَمَا كَانَ يَصل إِلَيْهِ مِنَ المَال كَانَ يُخْرِجه فِي شرَائِهَا» (٧٧٩)

وقال الدَّغُوْلي:

أربع مُجَلَّدات لا تفارِقُني سَفرًا وحَضرًا: كتاب المُزَني، وكتاب "العين"، و "التَّاريخ" للبُخَاري، و "كليلة ودِمْنَة"» (٧٨٠)

وقال السيوطي في ترجمة عبد الْملك بن سراج بن عبد الله بن مُحَمَّد بن سراج أَبي مَرْوَان النَّحْوِيّ:

إِمَام أهل قرطبة. قَالَ فِي الريحانة: برع فِي علم اللِّسَان، وارتقى ذروته، واعتلى دَرَجَته، عكف على كتاب سِيبَوَيْهٍ ثَمَانِيَة عشر عَاما لَا يعرف سواهُ، ثمَّ درس الجمهرة فاستظهرها» (٧٨١)

وقال ابن الجوزى:

«ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة، ويتفرجون على الجسر، وأنا في زمن الصغر

---

(٧٧٩) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٢١/ ٢٨).

(٧٨٠) «طبقات علماء الحديث» (٣/ ١١).

(٧٨١) «بغية الوعاة» (٢/ ١١٠).

آخذ جزءًا وأقعد حجرة من الناس إلى جانب الرقة، فأتشاغل بالعلم» (٧٨٢)

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة ابن القيم:

«وَكَانَ مغرى بِجمع الْكتب فَحصل مِنْهَا مَا لَا يحصر حَتَّى كَانَ أَوْلَاده يبيعون مِنْهَا بعد مَوته دهرا طَويلا سوى مَا اصطفوه مِنْهَا لأَنْفُسِهِمْ» (٧٨٣)

وذكر ابن كثير عن صاحبه ابن القيم:

«وَاقْتَنَى مِنَ الْكُتُبِ مَا لَا يَتَهَيَّأُ لِغَيْرِهِ تَحْصِيلُ عُشْرِهِ مِنْ كُتُبِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَبِالْجُمْلَةِ كَانَ قَلِيلَ النَّظِيرِ، بَلْ عَدِيمَ النَّظِيرِ فِي مَجْمُوعِهِ، وَأُمُورِهِ، وَأَحْوَالِهِ، وَالْغَالِبُ عَلَيْهِ الْخَيْرُ وَالْأَخْلَاقُ الصَّالِحَةُ» (٧٨٤)

وقال أبو زرعة:

حَجَجْتُ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى مِصْرَ، فَأَقَمْتُ بِهَا خَمْسَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكُنْتُ عَزَمْتُ فِي بَدْءِ قُدُومِي مِصْرَ، أَنْ أَقِلَّ الْمَقَامَ بِهَا، وَلَمَّا رَأَيْتَ كَثْرَةَ الْعِلْمِ رُمْتُ عَلَى الْمَقَامِ، وَلَمْ أَكُنْ عَزَمْتُ عَلَى سَمَاعِ كُتُبِ الشَّافِعِيِّ، فَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَى الْمَقَامِ، وَجَّهْتُ إِلَى أَعْرَفِ رَجُلٍ بِمِصْرَ يَكْتُبُ لِلشَّافِعِيِّ، وَسَلَّمْتُ إِلَيْهِ ثَمَانِينَ دِرْهَمًا عَلَى أَنْ يَكْتُبَهَا لِي، وَأَعْطَيْتُهُ الْكَاغِدَ وَكُنْتُ حَمَلْتُ مَعِي ثَوْبَيْنِ دَقِيقَيْنِ لِأَقْطَعْهُمَا لِنَفْسِي، فَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَى كِتَابَتِهَا

(٧٨٢) «صيد الخاطر» (ص٥٠٣).
(٧٨٣) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٥/ ١٣٨).
(٧٨٤) «البداية والنهاية ت التركي» (١٨/ ٥٢٤).

أَمَرْتُ بِبَيْعِهَا، فَبِيعَا بِسِتِّينَ دِرْهَمًا وَاشْتَرَيْتُ مِائَةَ وَرَقَةٍ كَاغِدٍ بِعَشَرَةِ دَرَاهِمٍ، فَكَتَبْتُ فِيهَا كُتُبَ الشَّافِعِيِّ" (٧٨٥)

وقَالَ أَبُو مَسْعُوْدٍ عَبْدُ الرَّحِيْمِ الحَاجِي: سَمِعْتُ ابْنَ طَاهِرٍ يَقُوْلُ:
بُلْتُ الدَّم فِي طَلَبِ الحَدِيْثِ مرَّتين، مرَّة بِبَغْدَادَ، وَأُخْرَى بِمَكَّةَ، كُنْتُ أَمْشِي حَافِياً فِي الحرِّ، فَلحقنِي ذَلِكَ، وَمَا رَكِبتُ دَابَّة قَطُّ فِي طَلَبِ الحَدِيْثِ، وَكُنْت أَحْمِلُ كُتُبِي عَلَى ظَهرِي، وَمَا سَأَلتُ فِي حَال الطَّلَب أَحَداً، كُنْت أَعيشُ عَلَى مَا يَأْتِي. وَقِيْلَ: كَانَ يَمْشِي دَائِماً فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِيْنَ فَرْسَخاً، وَكَانَ قَادِراً عَلَى ذَلِكَ» (٧٨٦)

وقال ابن الجوزي:
وبلغني أنه رئي في المنام في مدينة جميع جدرانها من الكتب، وحوله كتب لا تحد، وهو مشتغل بمطالعتها. فقيل له: ما هذه الكتب. قَالَ: سألت الله تعالى أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا، فأعطاني" (٧٨٧)

وقال ابن رجب في ترجمة عبد الله بن المبارك العكبري ت (٥٢٨ هـ):
وَكَانَ يصحب شافعا الْحَنْبَلِيّ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بشرَاء كتب ابْن عقيل فَبَاعَ ملكا لَهُ

(٧٨٥) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٤٠).
(٧٨٦) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٩/ ٣٦٣).
(٧٨٧) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٨/ ٢٠٨).

وَاشْترى بِثمنِهِ كتاب الْفُنُون والفصول ووقفهما على الْمُسلمين وَكَانَ خيرا من أهل السّنة " (٧٨٨)

وذكر ابن بشكوال:

أن الإمامَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ مُحَمَّدِ بنِ فُطَيْسٍ (ت ٤٠٢) كَانَتْ لَهُ مَكْتَبَةً كُبْرَى، وكانَ مَتَى عَلِمَ بِكِتَابٍ حَسَنٍ عندَ أحَدٍ مِنَ النَّاسِ طَلَبَهُ للإبْتِيَاعِ منهُ وبالَغَ فِي ثَمَنِهِ، فإنْ قَدَرَ على ابْتِيَاعِهِ وإلَّا انْتَسَخَهُ منهُ وَرَدَّهُ عَلَيْهِ، ولَمَّا تُوفِّي قَرَّرَ قَرَّرَ أَحْفَادُهُ بيع كتب جدهم مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية» (٧٨٩)

وقال أبو الحسن المغربي في ترجمة مُوسَى بن مُحَمَّد بن عبد الْملك بن سعيد:

«لَوْلَا أَنه وَالِدي لأطنبت فِي ذكره ووفيته حق قدره وَله فِي هَذَا الْكتاب الْحَظ الأوفر وَكَانَ أشغفهم بالتاريخ وأعلمهم بِهِ وجال كثيرا إِلَى أَن انْتهى بِهِ الْعُمر بالإسكندرية وَقد عَاشَ سبعا وَستّينَ سنة لم أره يَوْمًا يخلي مطالعة كتاب أَو كتب مَا يحلو حَتَّى أَيَّام الأعياد وَفِي ذَلِك يَقُول:

يَا مُفْنِياً عُمُرَهُ فِي الكأس وَالْوتر ... وَالْوتر وراعيا فِي الدَّجَى للأَنْجُمِ الزُّهُرِ
يبْكِي حَبِيباً جَفَاهُ أَو ينادم من ... يهفو لَدَيْهِ كَغُصْنٍ بَاسِمِ الزَّهَـرِ
مُنَعَّماً بَيْنَ لَذَّاتٍ يُحَـــقِّقُهَا ... وَلا يُـــخَلِّدُ مِنْ فَخْرٍ وَلا سِـــيَرِ

(٧٨٨) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٤١٤ ت العثيمين).
(٧٨٩) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس» (ص٢٩٩).

وَعاذَلاً لِيَ فِيمَا ظِلْتُ أَلْزَمُـــهُ ... يُبْدِي التَعَجُّبَ مِنْ صَبْرِي وَمِنْ فِكَرِي
يَقُولُ مَالَكَ قَدْ أفنيت عـمرك فِي ... حـــبر وَطِرْسٍ عَنِ الأَعْصَارِ وَالخبَرِ
وَظِلْتَ تَسْهَرُ طُولَ اللَّيْلِ فِي تَعَبٍ ... وَلا تَرَى أَبَدَ الأَيَّـامِ فِي ضَـــجَرِ
أَقْصِرْ فَإِنِّي أَدْرَى بِالذِي طَمَحَتْ ... لأُفْقِه هِمَّتِي وَاسْـــأَلْ عَنِ الأثَـــرِ
وَاسْمَعْ لِقَوْلِ الَّذِي تتلى محاسنـــة ... من بَعْدِ مَا صَارَ مِثْلَ التُرْبِ كَالسُّـــوَرِ
جَمَالُ ذِي الأَرْضِ كَانُوا فِي الْحَيَاة ... وهم بعد المَمَاتِ جَمَالُ الكُتْبِ وَالسِّيَرِ
(٧٩٠)

وقال ابنه:

«ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب، فقلت له: يا سيدي، أفي هذا اليوم لا تستريح فنظر إلى كالمغضب وقال: أظنك لا تفلح أبداً، أترى الراحة في غير هذا والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها، ولوددت أن الله تعالى يضاعف عمري حتى أتم كتاب المغرب على غرضي؛ قال: فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله لا ألتذّ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن، ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه. وكان أولع الناس بالتجول في البلدان، ومشاهدة الفضلاء، واستفادة ما يرى وما يسمع» (٧٩١)

---

(٧٩٠) «المغرب في حلى المغرب» (٢/ ١٧٠).
(٧٩١) «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب» (٢/ ٣٣٤).

وفي نصيحته لولده:

قال ابنه علي: لمّا أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة أول وصولي إلى الإسكندرية، رأى أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربة فبقي فيها أيّاماً إلى أن كتبتها عنه، وهي هذه، وكفى بها دليلاً على ما اختبر وعلم:

أودعك الرحمن في غربتك ... مرتقباً رحماه في أوبتك
وما اختياري كان طوع النوى ... لكنّني أجري على بغيتك
فلا تطل حبل النوى إنّني ... والله أشتاق إلى طلعتك
من كان مفتوناً بأبنائه ... فإنّني أمعنت في خبرتك
فاختصر التوديع أخذاً، فما ... لي ناظرٌ يقوى على فرقتك
واجعل وصاتي نصب عينٍ ولا ... تبرح مدى الأيام من فكرتك
خلاصة العمر التي حنّكت ... في ساعة زفّت إلى فطنتك
فللتّجاريب أمورٌ إذا ... طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وعيها ساعةً ... فإنّها عونٌ إلى يقظتك
وكلّ ما كابدته في النّوى ... إيّاك أن يكسر من همّتك
فليس يدري أصل ذي غربةٍ ... وإنّما تعرف من شيمتك
وكلّ ما يفضي لعذرٍ فلا ... تجعله في الغربة من إربتك
ولا تجالس من فشا جهله ... واقصد لمن يرغب في صنعتك
ولا تجادل أبداً حاسداً ... فإنّه أدعى إلى هيبتك
وامش الهوينا مظهراً عفّةً ... وابغ رضى الأعين عن هيئتك
أفش التحيّات إلى أهلها ... ونبّه الناس على رتبتك

وانطق بحيث العيّ مستقبحٌ ... واصمت بحيث الخير في سكتتك
ولا تزل مجتمعاً طالباً ... من دهرك الفرصة في وثبتك
وكلّما أبصرتها أمكنت ... ثب واثقاً بالله في مكنتك
ولج على رزقك من بابه ... واقصد له ما عشت في بكرتك
وايأس من الودّ لدى حاسدٍ ... ضدٍّ ونافسه على خطّتك
ووفّر الجهد فمن قصده ... قصدك لا تعتبه في بغضتك
ووفّ كلاً حقّه ولتكن ... تكسر عند الفخر من حدّتك
ولا تكن تحقر ذا رتبةٍ ... فإنّه أنفع في غربتك
وحيثما خيّمت فاقصد إلى ... صحبة من ترجوه في نصرتك
وللرّزايا وثبةٌ ما لها ... إلاّ الذي تذخر من عدّتك
ولا تقل أسلم لي وحدتي ... فقد تقاسي الذلّ في وحدتك
ولتزن الأحوال وزناً ولا ... ترجع إلى ما قام في شهوتك
ولتجعل العقل محكّاً وخذ ... كلاً بما يظهر في نقدتك
واعتبر الناس بألفاظهم ... واصحب أخاً يرغبني صحبتك
بعد اختبارٍ منك يقضي بما ... يحسن في الأخدان من خلطتك
كم من صديقٍ مظهرٍ نصحه ... وفكره وقفٌ على عشرتك
إيّاك أن تقربه، إنّه ... عونٌ مع الدّهر على كربتك
واقنع إذا ما لم تجد مطمعاً ... واطمع إذا نفّست من عسرتك
وأنم نموّ النّبت قد زاره ... غبّ الندى واسم إلى قدرتك
وإن نبا دهرٌ فوطّن له ... جأشك وانظره إلى مدّتك

فكلّ ذي أمرٍ له دولةٌ فوفّ ما وافاك في دولتك
ولا تضيّع زمناً ممكناً تذكاره يذكي لظى حسرتك
والشّرّ مهما اسطعت لا تأته فإنّه حوبٌ على مهجتك

يا بنيّ الذي لا ناصح له مثلي، ولا منصوح لي مثله: قدمت لك في هذا النظم ما إن أخطرته بخاطرك في كل أوان رجوت لك حسن العاقبة، إن شاء الله تعالى، وإنّ أخفّ منه للحفظ وأعلق بالفرك وأحق بالتقدم قول الأول:

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاثٌ فمنهنّ حسن الأدب
وثانيةٌ حسن أخـــــلاقه وثالثةٌ إجتناب الرّيـــــب

إذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها في الغربة رأيتها جامعة نافعة، لا يلحقك إن شاء الله تعالى مع استعمالها ندم، ولا يفارقك بر ولا كرم، ولله درّ القائل:

يعدّ رفيع القوم من كان عاقلاً وإن لم يكن في قومه بحسيب
إذا حلّ أرضاً عاش فيها بعقله وما عاقلٌ في بلدةٍ بغريـــب

وما قصّر القائل حيث قال:

واصبر على خلق من تعاشره وداره فاللبيب من دارى
واتخذ الناس كلّهم سـكّاً ومثّل الأرض كلّها دارا

وأصغ يا بني إلى البيت الذي هو يتيمة الدهر، وسلّم الكرم والصبر:

ولو أنّ أوطان الديار نبت بكم لسكنتم الأخلاق والآدابا

إذ حسن الخلق أكرم نزيل، والأدب أرحب منزل، ولتكن كما قال أحدهم في أديب متغرّب: وكان كلّما طرأ على ملك فكأنّه معه ولد، وإليه قصد، غير مستريب

بدهره، ولا منكر شيئاً من أمره، وإذا دعاك قلبك إلى صحبة من أخذ بمجامع هواه فاجعل التكلف له سلّماً، وهبّ في روض أخلاقه هبوب النسيم، وحلّ بطرفه محلّ الوسن، وانزل بقلبه نزول المسرة، حتى يتمكن لك وداده، ويخلص فيك اعتقاه، وطهر من الوقوع فيه لسانك، وأغلق سمعك، ولا ترخّص في جانبه لحسود لك منه، يريد إبعادك عنه، لمنفعته أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك، ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته، ولا تمهد بدوام رقدته، فقد ينبهه الزمان، ويغير منه القلب واللسان، ولذا قيل: إذا أحببت فأحبب هوناً مّا، ففي الممكن أن ينقلب الصديق عدوّاً والعدوّ صديقاً، وإنّما العاقل من جعل عقله معياراً، وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله، وجعل نصب ناظره قول أبي الطّيب:

ولمّا صار ودّ النّاس خبّاً جزيت على ابتسامٍ بابتسام

وفي أمثال العامة: من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل، فاحتذى مثله من جرّب، واستمع إلى ما خلّد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنّها خلاصة عمرهم، وزبدة تجاربهم، ولا تتكل على عقلك، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غالياً بتجاربهم يربحك، ويقع عليك رخيصاً، وإن رأيت من له مروءةٌ وعقل وتجربة فاستفد منه، ولا تضيّع فعله ولا قوله، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك، وحثّاً لك واهتداء، وإيّاك أن تعمل بهذا البيت في كل موضع:

فالحرّ يخدع بالكلام الطّيّب ...

فقد قال أحدهم: ما قيل أضرّ من هذا البيت على أهل التجمّل.. الخ» (٧٩٢)

وقال الخطيب في ترجمة ابْن هبيرة:

---

(٧٩٢) «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب» (٢/ ٣٥٢).

«قلده الإمام المقتفي لأمر الله الوزارة وخلع عليه. وكانت أيام وزارته منيرة بالعدل، مزهرة بالجود والفضل، وكان محبا لأهل العلم، يحضر مجلسه الفقهاء والأدباء والقرّاء وأصحاب الحديث، ويبحث مع كل منهم في فنه، فيسفر فكره عن فائدة لطيفة ونكتة ظريفة، ويشهد له الجماعة بوفور فضله وجلالة قدره. وكانت له مصنفات حسنة في عدة فنون من العلم والقراءات والحديث والأدب، وأجلّها كتاب الإفصاح عن معاني الأحاديث الصحاح، شرح فيه أحاديث صحيحي البخاري ومسلم، وبيّن فقهها ولغتها ومعانيها بألفاظ تعرب عن نبله وجلاله، وتفصح عن بعد مرماه في الفضل وكماله، وتبين عن غزارة علمه وحسن تصوره وفهمه.

وقرئ عليه في مجلس عام جامع لأئمة أهل الإسلام ثم إنه رتب لحفظ هذا الكتاب من المتعلمين ألفا وثمانمائة طالب، وجعل لهم مائة وأربعين معيدا لتحفيظهم وتفقيههم بحيث لم يبق مسجد ولا مدرسة إلا ويلقي فيهما درس منه. وبعد حفظ الطلبة لدروسهم يحضرون مع مفيدهم في حضرة الوزير فيقرءونه من حفظهم، فيوصل إليهم من المبارّ والأنعام ما يدهش سائر الأنام. ويقال: إنه أنفق على هذا الكتاب حتى جمعه مائة ألف دينار وثلاثة عشر ألف دينار» (٧٩٣)

وقال الذهبي في ترجمة المُسْتَنْصِرُ بِاللهِ الحَكَمُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأُمَوِيُّ المُلَقَّبُ: بِأَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ، المُسْتَنْصِرُ بِاللهِ، أَبُو العَاصِ الحَكَمُ ابْنُ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ مُحَمَّدٍ الأُمَوِيُّ المَرْوَانِيُّ، صَاحِبُ الأَنْدَلُسِ وَابنُ مُلُوكِهَا.

وكَانَتْ دُولَتُهُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً، وَعَاشَ ثَلاَثاً وَسِتِّيْنَ سَنَةً.

(٧٩٣) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (٢١/ ١٩٧).

وَكَانَ جَيِّدَ السِّيرَةِ، وَافرَ الفَضِيلَةِ، مُكرِماً لِلْوَافِدِينَ عَلَيْهِ، ذَا غَرَامٍ بِالمُطَالَعَةِ وَتَحصِيلِ الكُتُبِ النَّفِيسَةِ الكثيرَةِ حقَّهَا وَبَاطِلَهَا بِحيثُ إِنَّهَا قَارَبَتْ نَحْواً مِنْ مائتَيْ أَلفِ سِفْرٍ، وَكَانَ يَنْطَوِي عَلَى دِيْنٍ وَخَيْرٍ» (٧٩٤)

وقال ابن رجبٍ في ترجمة العلامة النحوي عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشَّاب ت (٥٦٧) عن ابنِ النجار:

«لم يمت أحد من أهل العلم وأصحاب الحديث إلا وكان يشتري كتبه كلها، فحصلت أصول المشايخ عنده.

وذكر عنه: أنه اشترى يومًا كتبًا بخمسمائة دينار ولم يكن عنده شيء، فاستمهلهم ثلاثة أيام، ثم مضى ونادى على داره، فبلغت خمسمائة دينار، فنقد صاحبها وباعه بخمسمائة دينار ووفي ثمن الكتب وبقيت له الدار.

ولما مرض أشهد عليه بوقف كتبه فتفرقت وبيع أكثرها ولم يبقَ إلا عشرها، فتركت في رباط المأمونية وقفا» (٧٩٥)

وقال سبط ابن الجوزى في ترجمة العلامة ابن الخشَّاب

«قال ابنُ الأخضر: دخلتُ يومًا عليه وهو مريضٌ وعلى صَدْره كتابٌ ينظر فيه،

---

(٧٩٤) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٦/ ٢٣٠).

(٧٩٥) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٥١ ت العثيمين).

فقلتُ: ما هذا؟ قال: ذَكَرَ ابنُ جني مسألةً في النحو، واجتهد أن يستشهد عليها ببيتٍ من الشعر فلم يحضره، وإني لأعرفُ على هذه المسألة سبعين بيتًا من الشِّعْر، كلُّ بيت من قصيدة يصلح أن يستشهد به عليها» (٧٩٦)

وقال السخاوي في ترجمة مُحَمَّد بن يَعْقُوب بن إِسْمَعِيل الفيروزآبادي:

أنه قال اشْتريت بِخَمْسِينَ ألف مِثْقَال ذَهَبا كتبا، وَكَانَ لَا يُسَافر إِلَّا وصحبته مِنْهَا عدَّة أحمال وَيخرج أَكْثَرهَا فِي كل منزلَة فَينْظر فِيهَا ثمَّ يُعِيدهَا إِذا ارتحل وَكَذَا كَانَت لَهُ دنيا طائلة وَلَكنه كَانَ يَدْفَعهَا إِلَى من يحقها بالإسراف فِي صرفهَا بِحَيْثُ بملق أَحْيَانًا وَيحْتَاج لبيع بعض كتبه فَلذَلِك لم يُوجد لَهُ بعد وَفَاته مَا كَانَ يظنّ بِهِ» (٧٩٧)

وقال الذهبي عن الأَبَّار:

«لم ينشأ بالأندلس مثله كمالًا وعلمًا وفضلًا. قال: وكان متواضعًا، منخفض الجناح، عُني بالعِلم حتّى حُكيّ عَنْهُ أنّه لم يترك النّظر والقراءة مُذْ عقل إلّا ليلةَ وفاةِ أَبِيهِ وليلة عُرْسِه، وأنّه سوَّد فيما صنَّف وقيد واختصر نحوًا من عشرة آلاف ورقة، ومال إِلَى علوم الأوائل، فكانت له فيها الإمامة دون أَهْل عصِره. وكان يفزعُ إِلَى فتْياه فِي الطّبّ كما يُفْزَع إِلَى فتياه فِي الفِقه، مع الحظّ الوافر من العربيَّة.

(٧٩٦) «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٢١/ ١٧٨).
(٧٩٧) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١٠/ ٨١).

قيل: كان يحفظ ديوان حبيب والمتنبّي. وله من المصنَّفات: كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد في الفقه، علل فيه ووجَّه، ولا نعلم فِي فنّه أنفع منه، ولا أحسن مساقًا. وله كتاب الكليَّات فِي الطب، ومختصر المستصفى فِي الأصول، وكتاب فِي العربيَّة، وغير ذلك» (٧٩٨)

وقال وِل ديورَانت:

ولما مات الواقدي ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه. "وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعة"»

ذكر المؤرخ " إدوارد جيبون كما في "حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي" لجلال مظهر" أنَّ أحد الأطباء رفض دعوة سلطان بخارى للإقامة في بلاطه، لأنه يحتاج إلى أربعمائة بعير لنقل مكتبته» (٧٩٩)

وقال عياض في ترجمة أبو عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي:

«ذكر أن صديقاً له قصده في عيد زائراً له فأصابه داخل داره ودربه مفتوح، فجلس منتظره وأبطأ عليه فأوصى إليه فخرج وهو ينظر في كتاب فلم يشعر بصديقه حتى عثر فيه لاشتغال باله بالكتاب، فتنبّه حينئذ له، وسلم عليه، واعتذر إليه من

(٧٩٨) «تاريخ الإسلام - ت بشار» (١٢/ ١٠٤٠).
(٧٩٩) «قصة الحضارة» (١٣/ ١٧١).

احتباسه بشغله بمسألة عويصة لم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه، فقال له الرجل: في أيام عيد ووقت راحة مسنونة؟ فقال: إذا علمت بهذه النفس انصبت الى هذه المعرفة، والله ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة. قال ابن عفيف: إليه انتهت رئاسة العلم بالأندلس حتى صار بمثابة يحيى بن يحيى في زمانه، واعتلى على جميع الفقهاء»

ولله در زيد بن الحسن الكندي وهو يصف الدفاتر فقال:

خرس تـــحدث آخرً عن أول بعجائب سلفت ولسن أوائلا
سقيت بأطـــراف اليراع بطونها وظهورها طلا أحـــم ووابلا
تلقاك في حمـــر الثياب وسودهـا فتخـالهن عرائسـاً وثواكلا
وتريك ما قد فات من دهر مضى حتى تراه بعين فكرك مـائلا

وقال آخر:

نعم المحدث والنديم كتاب تلهو به إن ملّك الأصحاب
لا مفشياً سراً إذا استودعته ولديه ما تحيا به الألبـاب

وقال الهلبي يصف كتاباً:

وفضضتـــــه فوجدته ليلاً على صفحات نـــور
مثل السوالف والجباه ال بيض زينت بالشـــعور
وكنظم در كالثـــغور وكالعقود على النـــحور
أنزلته منـــــي بمـن زلة القلوب من الصدور

وقال أبو تمام يصف كتابا:

فضضت ختامه فتبلجت لي غرائبه عن الزهر الجني

وضمن صدره ما لم تضـــمن صدور الغانيات من الحليّ

وقال آخر في وصف كتاب:

مداد مثل خافية الغـــراب وأقلام كمرهفة الحرب

وقرطاس كرقراق السراب وألفاظ كأيام الشباب» (٨٠٠)

وقال ابن النديم:

ولكلثوم بن عمرو العتابي:

لنا ندماء ما نمل حديثهـــــــــم أمينون مأمونون غيبا ومشـــهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضـــى ورأيا وتأديبا وأمرا مســـــددا

بلا علة تخشى ولا خوف ريبـــة ولا نتقى منهم بنانا ولا يـــــدا

فإن قلت هم أحياء لست بكاذب وإن قلت هم موتى فلست مفندا»

وكتب السري بن أحمد الكندي على ظهر جزء أهداه إلى صديق لي وجلده بجلد أسود.

وأدهم يسفر عن ضده كما سفر الليل إذ ودعـا

بعثت إليك به أخرسـا يناجي العيون بما استودعا

صموت إذا زر جلـبابه لبيـــــب فن حله أمتعا

تخبر أنواعه جامـــعـا يروح ويغـــدوا لها مجمعا

تلاقى النفوس سرورا به وتلقى الهموم به مصرعا

فلا تعـــــدلن به نزهة فقد حاز ما تبتغي أجمعا

(٨٠٠) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٧/ ١٢٤).

وأنشد أبو بكر الزهري لابن طباطبا في الدفاتر:

لله إخوان أفادوا مفـــــخرا فبوصـــلهم ووفـــائهم أتكثر
هم ناطقون بغير ألســـنة ترى هم فاحصون عن السرائر تضـمر
إن أبغ من عرب ومن عجم معا علما مضى فيه الدفاتر تخـــبر
حـــتى كأني شـاهد لزمـانها ولقد مضت من دون ذلك أعصر
خطـــباء إن أبغ الخطابة يرتقوا كفى كفى للدفاتر منـــــبر
كم قد بلـوت بها الرجال وإنما عقل الفتى بكتـاب عـــلم يسبر
كم قد هزمت به جليسـا مبرما لا يستطيع له الهزيمة عســـكر

وقال بعضهم:

سأجعل فضل مالي في كتابي وأرضـــى بالرثاثة في ثيابي
وأعرف أن درسًا في كتاب ألذُّ من المطـاعم والشـــراب
ومِن لُبْس الحريرِ ووَشْيِ خَزٍّ وأحسنُ من ملامسة الكِعاب (٨٠١)

وقال ابن الوزير:

«فإني ما زِلْتُ مشغوفاً بِدرْك الحقائق مشغولاً بطلب المعارف، مُؤثِراً الطلب لملازمة الأكابر، ومطالعةِ الدَّفاتر» (٨٠٢)

(٨٠١) «الفهرست» (ص٢٢).
(٨٠٢) «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» (١/ ٢٠١).

وقال الجاحظ:

دخلت على محمد بن إسحاق أمير بغداد في أيام ولايته وهو جالسٌ في الديوان والناس مثلٌ بين يديه كأن على رؤوسهم الطير. ثم دخلت إليه بعد مدةٍ وهو معزولٌ وهو جالسٌ في خزانة كتبه وحواليه الكتب والدفاتر والمحابر والمساطر فما رأيته أهيب منه في تلك الحال» (٨٠٣)

وقال أبو الفضل الرازي:

هذه الأوراق تحل منا محل الأولاد» (٨٠٤)

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة شافع بن علي الكناني ت (٧٣٠):

"وَكَانَ يحب جمع الْكتب حَتَّى انه لما مَاتَ ترك نَحْو الْعشْرين خزانَة ملأى من الْكتب النفيسة.. وَكَانَ من شدَّة حبه للكتب إِذا لمس الْكتاب يَقُول هَذَا الْكتاب الْفُلَانِيّ ملكته فِي الْوَقْت الْفُلَانِيّ وإذا طلب مِنْهُ اى مُجَلد كَانَ قَامَ إِلَى الخزانة فتناوله كأنه كَمَا وَضعه فِيهَا» (٨٠٥)

وقال ابن الجوزي في ترجمة أبي طاهر بن أبي الصقر:

وكان من الجوالين في الآفاق، والمكثرين من شيوخ الأمصار، وكان يقول: هذه

(٨٠٣) «مجاني الأدب في حدائق العرب» (٢/ ١٣٠).

(٨٠٤) «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١١٨).

(٨٠٥) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٢/ ٣٣٥).

كتبي أحب إلى من وزنها ذهبا» (٨٠٦)

وقال ياقوت في ترجمة عثمان بن جني:

حدثنا أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي: أنه وقع حريق بمدينة السلام فذهب به جميع علم البصريين قال: وكنت قد كتبت ذلك كلّه بخطي وقرأته على أصحابنا فلم أجد من الصندوق الذي احترق شيئا البتة إلا نصف كتاب الطلاق عن محمد بن الحسن، وسألته عن سلوته وعزائه فنظر إليّ معجبا ثم قال: بقيت شهرين لا أكلّم أحدا حزنا وهمّا، وانحدرت إلى البصرة لغلبة الفكر عليّ وأقمت مدة ذاهلا متحيرا» (٨٠٧)

وقال ابن حجر في ترجمة ابن الملقن:

«وكان مديد القامة، حسن الصورة، يحب المزاح والمداعبة مع ملازمة الاشتغال والكتابة، وكان حسن المحاضرة جميل الأخلاق كثير الإنصاف شديد القيام مع أصحابه، واشتهر بكثرة التصانيف حتى كان يقال إنها بلغت ثلاثمائة مجلدة ما بين كبير وصغير. وعنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر منها ما هو ملكه ومنها ما هو من أوقاف المدارس لا سيما الفاضلية، ثم إنها احترقت مع أكثر مسوداته في

(٨٠٦) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٦/ ٢٣٢).
(٨٠٧) «معجم الأدباء» (٢/ ٨١٩).

أواخر عمره ففقد أكثرها» (٨٠٨)

وأمر الملك المعظم:

عيسى سلطان الشام بن الملك العادل الأيوبي، الفقيه، الحنفي، الأديب المتوفى: سنة أربع وعشرين وستمائة الفقهاء أن يجرِّدوا له مذهب أبي حنيفة دون صاحبيه، فجرَّدوا له المذهب في عشر مجلَّدات، وسماه "التذكرة"، فكان لا يفارقه سَفَرًا ولا حضرًا، يطالعه دائمًا، فكتب على ظهر كل مجلدة: أنهاه حِفْظًا عيسى بن أبي بكر بن أَيُّوب، فقلتُ له: ربما يؤخذ هذا عليك، لأن أكبر مدرِّس في الشَّام يحفظ القدوري مع تفرُّغه وأنتَ مشغولٌ بتدبير الممالك تكتب خطك على عشر مجلَّدات أنك قد حفظتها! فقال: ليس الاعتبار بالألفاظ، وإنما الاعتبار بالمعاني، سلوني عن جميع مسائلها، فإن قصرت كان الصحيح معكم، وإلا فسلموا لي ما قلت» (٨٠٩)

وقال ياقوت في ترجمة الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون أبي سعد بن أبي المعالي بن أبي سعد الكاتب صاحب الديوان:

وكان رحمه الله من الأدباء العلماء الذين شاهدناهم، زكيّ النفس، طاهر الأخلاق، عالي الهمة، حسن الصورة، مليح الشبية، ضخم الجثة، كث اللحية طويلها، طويل القامة، نظيف اللبسة، ظريف الشكل. وهو ممن صحبته فحمدت

(٨٠٨) «إنباء الغمر بأبناء العمر» (٢/ ٢١٨).
(٨٠٩) «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٢٢/ ٢٨٧).

صحبته وشكرت أخلاقه، وكان قد ولي عدة ولايات عاينت منها النظر في البيمارستان العضدي، وكانت هيبته فيه ومكانته منه أعظم من مكانة أرباب الولايات الكبار، لأن الناس يرونه بعين العلم والبيت القديم في الرئاسة. ثم ولي عند الضرورة كتابة السكة بالديوان العزيز ببغداد، يرزق برزق مقداره عشرة دنانير في الشهر، وسألته فقلت: من هو حمدون الذي تنسبون إليه؟ أهو حمدون نديم المتوكل ومن بعده من الخلفاء؟ فقال: لا نحن من آل سيف الدولة بن حمدان بن حمدون من بني تغلب، هذا صورة لفظه.

وكان من المحبين للكتب واقتنائها، والمبالغين في تحصيلها وشرائها، وحصل له من أصولها المتقنة وأمهاتها المعينة ما لم يحصل لكثير أحد، ثم تقاعد به الزمان وبطل عن العمل، فرأيته يخرجها ويبيعها وعيناه تذرفان الدموع عليها كالمفارق لأهله الاعزّاء، والمفجوع بأحبابه الأودّاء، فقلت له: هوّن عليك- أدام الله أيامك- فإن الدهر ذو دول، وقد يصحب الزمان ويساعد، وترجع دولة العز وتعاود، فتستخلف ما هو أحسن منها وأجود، فقال: حسبك يا بني هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقتها في تحصيلها، وهب أن المال يتيسر والعمر يتأخر، وهيهات، فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا على الفراق الذي ليس بعده تلاق، وأنشد بلسان الحال:

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه ... وأعقب بالحسنى وفكّ من الأسر

فمن لي بأيام الشباب التي مضت ... ومن لي بما قد مرّ في البؤس من عمري

ثم أدركته منيته ولم ينل أمنيته» (٨١٠)

(٨١٠) «معجم الأدباء» (٣/ ١٠١٢).

وحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، قَالَ: بِعْتُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ كِتَابًا ظَنَنْتُ أَنِّي لَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ هَجَسَ فِي صَدْرِي شَيْءٌ كَانَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ فَطَلَبْتُهُ فِي جَمِيعِ كُتُبِي فَلَمْ أَجِدْهُ فَاعْتَمَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ عَالِمًا عِنْدَ الصَّبَاحِ، فَمَا زِلْتُ قَائِمًا عَلَى رِجْلَيَّ إِلَى الصَّبَاحِ، قِيلَ: فَهَلَّا قَعَدْتَ؟ قَالَ: لِطُولِ أَرَقِي وَشِدَّةِ قَلَقِي. وَبَاعَ آخَرُ كِتَابًا ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ثُمَّ إِنَّهُ احْتَاجَ إِلَيْهِ فَالْتَمَسَ نُسْخَةً بِهِ فَلَمْ يَجِدْهَا بِعَارِيَةٍ وَلَا ثَمَنٍ وَكَانَ الَّذِي ابْتَاعَهُ قَدْ خَرَجَ بِهِ إِلَى بَلَدِهِ ، فَشَخَصَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ الْإِقَالَةَ وَارْتِجَاعَ الثَّمَنِ مِنْهُ ، فَأَبَى عَلَيْهِ فَسَأَلَهُ إِعَارَتَهُ لِنَسْخِ الْكَلِمَةِ مِنْهُ ، فَلَمْ يُجِبْهُ فَانْكَفَأَ قَافِلًا ، وَآلَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَبِيعَ كِتَابًا أَبَدًا ، وَبَاعَ آخَرُ كِتَابًا ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ثُمَّ إِنَّهُ احْتَاجَ إِلَى كَلِمَةٍ مِنْهُ فَقَصَدَ صَاحِبَهُ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُكْتِبَهُ تِلْكَ الْكَلِمَةَ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا تَكْتُبُهَا إِلَّا بِثَمَنِ الْكِتَابِ كُلِّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ ثَمَنَ الْكِتَابِ وَكَتَبَ تِلْكَ الْكَلِمَةَ ، وَقِيلَ لِآخَرَ: أَلَا تَبِيعُ مِنْ كُتُبِكَ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهَا؟ فَقَالَ: إِنْ لَمْ أَحْتَجْ إِلَيْهَا الْيَوْمَ احْتَجْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ الْيَوْمِ، وَاشْتَرَى رَجُلٌ كِتَابًا فَقِيلَ لَهُ: اشْتَرَيْتَ مَا لَيْسَ مِنْ عِلْمِكَ، فَقَالَ: اشْتَرَيْتُ مَا لَيْسَ مِنْ عِلْمِي لِيَصِيرَ مِنْ عِلْمِي، وَقِيلَ لِآخَرَ: أَلَا تَشْتَرِي كُتُبًا تَكُونُ عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: مَا يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّنِي لَا أَعْلَمُ، فَقِيلَ: إِنَّمَا يَشْتَرِيهَا مَنْ لَا يَعْلَمُ حَتَّى يَعْلَمَ، وَكَانَ آخَرُ يَشْتَرِي كُلَّ كِتَابٍ يَرَاهُ فَقِيلَ: لَهُ إِنَّكَ لَتَشْتَرِي مَا لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: رُبَّمَا احْتَجْتُ إِلَى مَا لَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ» (٨١١)

(٨١١) «تقييد العلم» (ص١٣٦).

وقَالَ أَحْمَد بْن سلمان القطيعي:

أضقت إضاقة فمضيت إِلَى إِبْرَاهِيم الحربي لأبثه ما أَنَا فِيهِ، فَقَالَ لي: لا يضيق صدرك، فإن اللَّه من وراء المعونة، وإني أضقت مرة حتى انتهى أمري فِي الإضاقة إِلَى أن عدم عيالي قوتهم، فقالت لي الزوجة: هب أني وإياك نصبر، فكيف نصنع بِهَاتين الصبيتين؟ فهات شيئا من كتبك حتى نبيعه أو نرهنه، فضننت بذاك، وقلت: اقترضي لهما شيئا، وأنظريني بقية اليوم وَالليلة، وكَانَ لي بيت فِي دهليز داري فِيهِ كتبي، فكنت أجلس فِيهِ للنسخ وَالنظر، فلما كَانَ فِي تلك الليلة إذا داق يدق الباب، فقلت: من هذا، فَقَالَ: رَجُل من الجيران، فقلت: ادخل، فَقَالَ: اطفئ السراج حتى أدخل فكببت عَلَى السراج شيئا، وقلت: ادخل فدخل وترك إِلَى جانبي شيئا، وانصرف، فكشفت عَنِ السراج ونظرت فإذا منديل له قيمة، وفِيهِ أنواع من الطعام، وكاغد فِيهِ خمس مائة درهم، فدعوت الزوجة، وقلت: أنبهي الصبيان حتى يأكلوا، ولما كَانَ من الغد قضينا دينا كَانَ عَلَيْنَا من تلك الدراهم، وكَانَ وقت مجيء الحاج من خراسان، فجلست عَلَى بابي من غد تلك الليلة، وإذا جمال يقود جملين عليهما حملان ورقا وَهُوَ يسأل عَن منزل إِبْرَاهِيم الحربي، فانتهى إلي، فقلت أَنَا إِبْرَاهِيم الحربي، فحط الحملين، وَقَالَ: هذان الحملان أنفذهما لَكَ رَجُل من أهل خراسان، فقلت: من هو؟ فَقَالَ: قد استحلفني ألا أقول من هو» (٨١٢)

(٨١٢) «تاريخ بغداد ت بشار» (٦/ ٥٢٢).

وقال العلامة الأديب علي الطنطاوي:

«قررت حين دُعيت إلى تلك الرحلة وعزمت عليها أن أدوّنها وألاّ أكتفي -على عادتي- بما تحمل ذاكرتي، فاتخذت دفتراً كنت أتأبطه دائماً، فلا نسلك طريقاً ولا نقطع وادياً ولا نُبصِر جبلاً إلاّ كتبت اسمه وصِفَته وطبيعة أرضه، ولا نلقى قوماً أو نحلّ أرضهم إلاّ سألت عن أنسابهم وأحوالهم، ووصفت مساكنهم وما عرفت من عاداتهم وحكيت ما سمعت من لغاتهم ولهجاتهم، ولا بتنا ليلة إلاّ ذكرت كيف حططنا الأحمال وكيف نهضنا الغداةَ للارتحال، ولا أرى منظراً أو أشهد مشهداً إلاّ سجّلت في دفتري أثره في نفسي وما بعث فيها من ذكرى وما هاج فيها من عاطفة وملأته بما يناسب المقام من الشعر (وكنت أحفظ الكثير منه، ولا أزال)، وإن سمعت من شعر البادية شيئاً كتبته مَشكولاً مَشروحاً لأن الكثير منه ممّا لم أفهمه، وإن كان هذا الشعر قد قيل في حادثة معروفة كتبتها وعرّفت بها، على ضبط في الأرقام وتحرٍّ في جمع الأخبار وتوثّقٍ من صدق الراوي، على قدر ما أستطيع من التحرّي والتوثّق.

حتى إذا دنونا من المدينة وأوفى الكتاب على التمام وقاربَت الرحلة الغاية، امتدّت يدٌ لم أعرف صاحبها (الله وحده يعرفه) فذهبَت بالدفتر. ولا تزال لوعة فقده في قلبي إلى اليوم، ولو فقدت مالي لكان أهون عليّ، لأن المال يُعوَّض، والريالات والليرات والدولارات تختلف مقاديرها عدداً ولكن تتفق أفرادها شكلاً، كالكتاب المطبوع يضيع منك فتشتري غيره. أما ذلك الدفتر فمن أين آتي بمثله؟

وأعزّي نفسي أحياناً فأقول: لعلّه لم يكن كما وصفتُه ولعلّ فَقده زيّنه في عيني، كالوالدَين يحصران في ابنهما الذي مات المزايا كلّها وربما لم تكن كلها فيه. ومهما

يكن فإن الدفتر قد فُقد، وأسأل الله عِوَضه ثواباً» (٨١٣)

وقال ابن الداية:

وحدثني شجاع بن أسلم الحاسب، قال: قلت لسند بن علي:

من كان سببك إلى المأمون، حتى اتصلت به، وكنت في جلسائه من العلماء؟ فقال: أحدثك به: كان والدي يتكسب بصناعة أحكام النجوم مع قومٍ من أسباب السلطان يودونه ويحبونه. وتعلق قلبي بعد فراغي من قراءة كتاب أقليدس بكتاب المجسطي. وكان -في أيام المأمون بسوق الوراقين- رجلٌ يعرف بمعروفٍ، يورق هذا الكتاب ويبيعه -بعد تكامل خطه وأشكاله وتجليده- بعشرين ديناراً فسألت والدي ابتياعه لي، فقال: أنظرني يا بني إلى أن يتهيأ لي شيء آخذه، إما من رزقٍ وإما من فضل، وأبتاعه لك.

وكان لي أخٌ لا يشتهي مما تقدمت أنا فيه من العلم شيئاً، إلا أنه كان يخدم أبي في حوائجه والإشفاق عليه. فلما سوفني أبي بالكتاب وطالت المدة فيه، ركبت معه لأمسك دابته في دخوله إلى من يدخل إليه، ولي إذ ذاك سبع عشرة سنة.

فخرج إلي غلمان من كان عنده فقالوا: انصرف، فقد أقام أبوك عند مولانا. فمضيت بالدابة فبعتها بسرجها ولجامها بأقل من ثلاثين ديناراً، ومضيت إلى معروفٍ فاشتريت الكتاب بعشرين ديناراً.

(٨١٣) «ذكرياته» (٣/ ٢٩).

وكان لي بيتٌ أخلو فيه، وجئت إلى أمي فقلت لها: قد جنيت عليكم جنايةً، واقتصصت عليها القصة، وحلفت لها: إن شحذت أبي علي حتى يمنعني من النظر في الكتاب لأخرجن عنهم إلى أبعد غاية، ورددت عليها فضل ثمن الدابة،

وقلت لها: أنا أغلق باب هذا المنزل الذي لي، وأرضى منكم برغيفٍ يلقى إلى كما يلقى إلى المحبوس، إلى أن أقرأه جميعه.

فتضمنت لي بتسكين فورته، ودخلت البيت وأغلقته من عندي. فمضى أخي إلى والدي في الموضع الذي كان فيه، فأسر إلى الخبر، فتغير وجهه، وتلجلج في حديثه، فقال له من كان عنده: قد شغلت قلبي وقلب من حضر بما ظهر منك، فبحقي عليك إلا أخبرتنا لم ذا؟،

قال فحدثته، فقال: هذا والله يسرنا في ولدك؛ فاتعد فيه بكل جميل، ثم استحضر من إسطبله بغلاً أفره من بغل أبي، وسرجاً خيراً من سرجه، وقال لأبي:

"اركب هذا البغل، ولا تكلم ابنك بحرفٍ".

قال سند: وأقمت ثلاث سنين كيومٍ واحدٍ، لا يرى لي أبي صورة وجهٍ، وأنا مجدٌّ حتى استكملت كتاب المجسطي.

ثم خرجت وقد عملت أشكالاً مستصعباتٍ ووضعتها في كمي.

وسألت: هل للمهندسين والحساب موضعٌ يجتمعون فيه؛ فقيل لي:

لهم مجلس في دار العباس بن سعيد الجوهري ترب المأمون، يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة.

فحضرته، فرأيت جميع من حضر مشايخ، ولم يكن فيهم حدثٌ غيري، لأني كنت في العشرين سنة.

فقال العباس: من تكون؟ وفيم نظرت؟

فقلت: غلام يحب صناعة الهندسة والهيئة،

قال: فقال: هذا شيءٌ توليت تبيينه من كتاب المجسطي، فلما أحضرتنيه توهمت أنه سرق مني، حتى تبينت اختلاف اللفظين مع اتفاق المعنى.

ثم أمر أن تقطع لي أقبية، وترتاد لي منطقةٌ مذهبة، ففرغ من جميع ذلك في تلك الليلة، ودخل بي إلى المأمون، وأمرني بملازمته، وأجرى لي أنزالاً ورزقاً. (٨١٤)

وقال المزني:

قرأت الرسالة خمس مائة مرة مامن مَرَّةٍ إِلَّا وَاسْتَفَدْتُ مِنْهَا فَائِدَةً جَدِيدَةً» (٨١٥)

وقال ابن حجر في ترجمة سليمان بن إبراهيم بن عمر الفقيه نفيس الدين التعزي:

ذكر لي أنه مر على صحيح البخاري مائة وخمسين مرة ما بين قراءة وسماع وإسماع ومقابلة» (٨١٦)

---

(٨١٤) " المكافأة وحسن العقبى"(ص-١٦-١٧).

(٨١٥) «المجموع شرح المهذب» (١/ ٩).

(٨١٦) «إنباء الغمر بأبناء العمر» (٣/ ٢٨٦).

وقال الشوكاني في ترجمة سُلَيْمَان بن إبراهيم بن عمر بن علي بن عمر بن نَفِيس الدِّين العكي العدنانى الزبيدى التعزي الحنفي:

أَجَازَ لَهُ البلقيني وَابْن الملقن والعراقي والهيتمي والمناوي وبرع فِي الحَدِيث وَصَارَ شيخ الْمُحدثين بِبِلَاد الْيمن وحافظهم وَأخذ عَنهُ النَّاس طبقَة بعد طبقَة وَارْتَحَلُوا إِلَيْهِ من الافاق وتتلمذ لَهُ مَالا يُحِيط بِهِ الْحصْر حدث عَن نَفسه أَنه قَرَأَ البخاري أَكثر من خمسين مرة» (٨١٧)

وقال السخاوى في ترجمة أَبي بكر بن مُحَمَّد بن عبد الله بن مقبل الزين القاهري الْحَنَفِيّ:

وَيعرف بالتاجر كَانَ فِي أَوله سمسارا بقيسارية الشّرْب فانكسر عَلَيْهِ مَال كثير فَترك صناعته واشتغل بِالْعلمِ فَتنبه وَفضل فاستنابه الْجمال التركماني بعناية الْمُحب نَاظر الْجَيْش ثمَّ لم يزل ينُوب حَتَّى مَاتَ فِي ثَالِث ذِي الْحَجَّة سنة خمس عَن نَحْو الثَّمَانِينَ وَكَانَ مَشْهُورا بالديانة غير متقيد بزينة الدُّنْيَا مطرحا للتكلف فِي ملبسه وهيئته مَعَ المهابة وَقلة الْكَلَام ذكره شَيخنَا فِي إنبائه وَقَالَ الْبُرْهَان الْحلَبِي أَنه أخبرهُ أَنه قَرَأَ صَحِيح البُخَارِيّ إِلَى سنة ثَمَانِينَ خمْسا وَتِسْعين مرّة وقرأه بعد ذَلِك مرَارًا كَثِيرَة وَقَالَ المقريزي فِي عقوده أَبُو بكر بن عبد الله الشَّيْخ زين الدّين التَّاجِر كَانَ سمسارا فِي الْبَز وَله معرفَة بالفقه والعربية ثمَّ ترك السمسرة وَأَقْبل بكليته على الْعلم حَتَّى صَار من شُيُوخ الْبِلَاد وَأفْتى ودرس وناب فِي الحكم بِالْقَاهِرَةِ عدَّة سِنِين حَتَّى مَاتَ وَكَانَ

(٨١٧) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (١/ ٢٦٥).

طارحا للتكلف فِي ملسه وهيئته يمشي على قَدَمَيْهِ فِي الْأَسْوَاق مهابا قَلِيل الْكَلَام مَوْصُوفا بِالْخَيرِ لَزِمته سِنِين وَكنت فِي صغري وبداية طلبي إِذا أردْت أَن أَتَكَلَّم فِي درسه يأخذني الْحيَاء فأسكت وَكَانَ درسه بالظاهرية الْقَدِيمَة يحضرهُ جمع كثير فَقَالَ لي تكلم من لَا يخبط مَا يعرف يعوم يُرِيد أَن أجسر على الْكَلَام مَعَ الطّلبَة فِي حلقته رَحمَه الله وإيانا» (٨١٨)

وقال ابن كثير في ترجمة أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْن أَبِي طَالِبِ بْنِ نِعْمَةَ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَيَانٍ الدير مقرني ثُمَّ الصَّالِحِيِّ الْحَجَّار الْمَعْرُوف بِابْنِ الشِّحْنَةِ:

سَمَّعَ الْبُخَارِيَّ عَلَى الزُّبَيْدِيِّ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَسِتّمِائَةٍ بِقَاسِيُونَ، وَإِنَّمَا ظَهَرَ سَمَاعُهُ سَنَةَ ستّ وَسَبْعمائَة فَفَرِحَ بِذَلِكَ الْمُحَدِّثُونَ وَأَكْثَرُوا السَّمَاعَ عَلَيْهِ، فَقُرِئَ الْبُخَارِيُّ عَلَيْهِ نَحْوًا مِنْ سِتِّينَ مَرَّةً وَغَيْرَهُ"(٨١٩)

وقال الصفدى في ترجمة أَبِي مُحَمَّد الْأَسْلَمِيّ عبد الله بن مُحَمَّد بن عِيسَى بن وليد الأندلسي النَّحْوِيّ يعرف بِابْن الْأَسْلَمِيّ:

كَانَ يختم كتاب سِيبَوَيْهِ كل خَمْسَة عشر يَوْمًا مرّة» (٨٢٠)

---

(٨١٨) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١١/ ٧٩).

(٨١٩) «البداية والنهاية ت شيري» (١٤/ ١٧٢).

(٨٢٠) «الوافي بالوفيات» (١٧/ ٢٨٩).

وقال ابْنُ بَشْكُوَال في ترجمة ابْن عَطِيَّةَ أَبي بَكْرٍ غَالِب بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ غَالِبٍ:

كَانَ حَافظاً لِلْحَدِيْثِ وَطُرُقِه وَعِلَلِه، عَارِفاً بِالرِّجَال، ذَاكِراً لِمُتُونِه وَمَعَانِيه، قَرَأْتُ بِخَطِّ بَعْضِ أَصْحَابِنَا أَنَّهُ سَمِعَهُ يذكر أَنَّهُ كَرَّرَ عَلَى (صَحِيْحِ البُخَارِيِّ) سَبْعَ مائَة مرَّة. قَالَ: وَكَانَ أَديباً شَاعِراً دَيِّناً فَاضِلاً، أَكْثَرَ النَّاسُ عَنْهُ، وَكُفَّ بَصَرُه آخِرَ عُمُرِه» (٨٢١)

وقال محمد محفوظ في ترجمة أحمد بن محمد بن عبد الرحمن التميمي القصري:

قال ابن ناجي في تعليقه على «معالم الإيمان»: «وكان ربما باع بعض ثيابه واشترى بها كتبا. قال أبو بكر المالكي ووصل إلى سوسة برسم زيارة يحيى بن عمر، فوجده ألّف كتابا فلم يجد ما يشتري به رقا يكتب فيه، فباع قميصه الذي كان عليه، واشترى بثمنه رقوقا، وكتب الكتاب وقابله وأتى به القيروان» (٨٢٢)

وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ

"خَرَجْتُ مِنَ الرَّيِّ، الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَرَجَعْتُ سَنَةَ اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ، وَإِنِّي حَجَجْتُ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى مِصْرَ، فَأَقَمْتُ بِهَا خَمْسَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكُنْتُ عَزَمْتُ فِي بَدْءِ قُدُومِي مِصْرَ، أَنْ أَقِلَّ الْمَقَامَ بِهَا، وَلَمَّا رَأَيْتَ كَثْرَةَ الْعِلْمِ رُمْتُ عَلَى الْمَقَامِ، وَلَمْ أَكُنْ عَزَمْتُ عَلَى سَمَاعِ كُتُبِ الشَّافِعِيِّ، فَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَى الْمَقَامِ، وَجَّهْتُ إِلَى أَعْرَفِ رَجُلٍ بِمِصْرَ يَكْتُبُ لِلشَّافِعِيِّ، وَسَلَّمْتُ إِلَيْهِ ثَمَانِينَ دِرْهَمًا عَلَى أَنْ يَكْتُبَهَا لِي، وَأَعْطَيْتُهُ

(٨٢١) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس» (ص٤٣٣).

(٨٢٢) «تراجم المؤلفين التونسيين» (٤/ ٩٠).

الْكَاغِدَ وَكُنْتُ حَمَلْتُ مَعِي ثَوْبَيْنِ دَقِيقَيْنِ لِأَقْطَعْهُمَا لِنَفْسِي، فَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَى كِتَابَتِهَا أَمَرْتُ بِبَيْعِهَا، فَبِيعَا بِستّينَ دِرْهَمًا وَاشْتَرَيْتُ مِائَةَ وَرَقَةَ كَاغِدٍ بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ، فَكَتَبْتُ فِيهَا كُتُبَ الشَّافِعِيِّ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى الشَّامِ، فَأَقَمْتُ بِهَا مَا أَقَمْتُ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى الْجَزِيرَةِ، فَأَقَمْتُ مَا أَقَمْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ " (٨٢٣)

وقال ابن رجب في ترجمة العلامة النحوي عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشَّاب (ت٥٦٧):

عن ابنِ النجار أنه اشترى يومًا كتبًا بخمسمائة دينار ولم يكن عنده شيء، فاستمهلهم ثلاثة أيام، ثم مضى ونادى على داره، فبلغت خمسمائة دينار، فنقد صاحبها وباعه بخمسمائة دينار ووفي ثمن الكتب وبقيت له الدار» (٨٢٤)

وقال ابن الجوزي:

"وبلغني: أنه رئي في المنام في مدينة جميع جدرانها من الكتب، وحوله كتب لا تحد، وهو مشتغل بمطالعتها. فقيل له: ما هذه الكتب. قَالَ: سألت الله تعالى أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا، فأعطاني" (٨٢٥)

(٨٢٣) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٤٠).
(٨٢٤) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٥١).
(٨٢٥) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٨/ ٢٠٨).

وقال ابن رجب:

«حدثني الإمام طلحة بن مظفر العلثي قَالَ: بيعت كتب ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظ أَبُو العلاء الهمداني، فنادوا على قطعة منها: ستين دينارا، فاشتراها الحافظ أَبُو العلاء بستين دينارا، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس. فخرج الحافظ، واستقبل طريق همدان، فوصل فنادى على دار له، فبلغت ستين دينارا. فقال: بيعوا. قالوا: تبلغ أكثر من ذلك. قَالَ: بيعوا. فباعوا الدار بستين دينارا فقبضها، ثم رجع إلى بغداد. فدخلها يوم الخميس، فوفى ثمن الكتب. ولم يشعر أحد بحاله إلا بعد مدة» (٨٢٦)

وقال ابن الداية:

وحدثني أحمد بن وليدٍ، قال: "ودعت إسحاق بن نصير العبادي في بعض خرجاتي إلى بغداد، فأخرج إلى ثلاثة آلاف دينارٍ وقال: إذا دخلت بغداد، فادفع ألف دينار إلى ثعلب، وألف دينار إلى المبرد، وصر إلى قصر وضاح فانظر إلى أول دكان للوراقين، فإنك تجد صاحبها -إن كان حيًّا لم يمت- قد شاخ، فاجلس إليه وقل له: إسحاق بن نصير يقرأ عليك السلام: وهو الغلام الذي كان يقصدك كل عشيةٍ - راجلاً من دار الروميين- بدراعة وعمامةٍ ونعلٍ رقيقةٍ. فيستعير منك الكتاب بعد الكتاب، فإذا اقتضيته كراء ما نسخ منه قال: اصبر علي إلى الصنع. فإذا استقرت معرفتي في نفسه دفعت إليه هذه الألف الدينار وقلت له: هذه ثمرة صبرك علي.

(٨٢٦) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٧٧ ت العثيمين).

قال لي أحمد بن وليد: فلما دخلت بغداد -ودفعت الألفي دينار إلى ثعلب والمبرد- ، مضيت إلى قصر وضاح، فألفيت الدكان التي وصف لي قفراً ليس فيه كتابٌ، ورأيت فيها الشيخ الذي وصفه لي في حالٍ رثةٍ وثيابٍ خلقة، وقد أفضى به الأمر إلى التوريق للناس. فجلست إليه وسألته عن حاله، فقال: يا أخي! ما ظنك بحالٍ: ما تتأمله فيّ أحسن ما فيها؟ ثم خرجنا إلى المسألة إلى أشياء كان فيها خبر إسحاق بن نصير، فقال: قد كان يجيئني من دار الروميين غلام -ووصفه- فأسمح له بالنسخة بعد النسخة -يقال له: إسحاق، وكان يعدني في كل شيء يأخذه إلى الصنع، وأخبرت أنه وقع بنواحي مصر وما حصل لي منه شيء!؟ فأخرجت الألف الدينار وقلت له: يقول لك: هذه ثمرة صبرك، فكاد والله يموت فرحاً. فقلت له: ليست دراهم وهي دنانير! وانصرفت عنه وهو أحسن من في سوقه حالاً.

قال لي أحمد بن وليد: واجتزت بعد ذلك فرأيت دكانه معمورةً، وهو متصدرٌ فيها على أحسن حالٍ وأوفاها. (٨٢٧)

وقال ابن رجب في ترجمة عبد الله بن الْمُبَارك العكبري الْفَقِيه (ت ٥٢٨ هـ):

"وتفقه على أبي الوفا ابْن عقيل وَأبي سعد البردانى وَكَانَ يصحب شافعا الْحَنْبَلِيّ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بشرَاء كتب ابْن عقيل فَبَاعَ ملكا لَهُ وَاشْترى بِثمنِهِ كتاب الْفُنُون والفصول ووقفهما على الْمُسلمين وَكَانَ خيرا من أهل السّنة" (٨٢٨)

(٨٢٧) " المكافأة وحسن العقبى"(ص-١٦-١٧).

(٨٢٨) «ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٤١٤ ت العثيمين).

ولشدة تعلقهم بالدفاتر كانوا ينسبون إليها

قال ابن الأثير:

«المحبري بِضَم الْمِيم وَفتح الْحَاء وَالْبَاء الْمُشَدَّدَة الْمُوَحدَة وَفِي آخرهَا رَاء هَذِه النِّسْبَة إِلَى كتاب المحبر الَّذِي جمعه مُحَمَّد بن حبيب فَيُقَال لمصنفه المحبري» (٨٢٩)

وقال السخاوى في ترجمة مُحَمَّد بن سُلَيْمَان بن سعيد بن مَسْعُود المحيوي أَبي عبد الله الرُّومِي الْحَنَفِيّ وَيعرف بالكافياجي:

«وَأَكْثر من قِرَاءَة الكافية لِابْنِ الْحَاجِب وأقرأ بهَا حَتَّى نسب إِلَيْهَا بِزِيَادَة جِيم كَمَا هِيَ عَادَة التّرْك فِي النّسَب» (٨٣٠)

وقال ياقوت في ترجمة علي بن محمد بن علي الفصيحي أبي الحسن:

وسمي بالفصيحي لكثرة دراسته «كتاب الفصيح» لثعلب وصار له به أنس حتى انه دخل يوما على مريض يعوده فقال «شفاه» وسبق على لسانه: «وأرخيت الستر» لاعتياده كثرة إعادته" (٨٣١)

---

(٨٢٩) «اللباب في تهذيب الأنساب» (٣/ ١٧٢).

(٨٣٠) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٧/ ٢٦٠).

(٨٣١) «معجم الأدباء» (٥/ ١٩٦٤).

وقال ابن كثير في ترجمة أَبي بَكْرِ بْن الْجَعَّابِيّ:

وَكَانَ حَافِظًا مُكْثِرًا، يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ أَرْبَعمائَةَ أَلْفِ حَدِيثٍ بِأَسَانِيدِهَا وَمُتُونِهَا، وَيُذَاكِرُ بِستّمائَةَ أَلْفِ حَدِيثٍ وَيَحْفَظُ مِنَ الْمَرَاسِيلِ وَالْمَقَاطِيعِ وَالْحِكَايَاتِ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، وَيَحْفَظُ أَسْمَاءَ الرِّجَالِ وَجَرْحَهُمْ وَتَعْدِيلَهُمْ، وَأَوْقَاتَ وَفَيَاتِهِمْ وَمَذَاهِبَهُمْ، حَتَّى تَقَدَّمَ عَلَى أَهْلِ زَمَانِه، وَفَاقَ سَائِرَ أَقْرَانِه.

وَكَانَ يَجْلِسُ لِلْإِمْلَاءِ فَيَزْدَحِمُ النَّاسُ عِنْدَ مَنْزِلِه، وَإِنَّمَا كَانَ يُمْلِي مِنْ حِفْظِهِ إسناد الحديث ومتنه جيداً محرراً صحيحاً، وَقَدْ نُسِبَ إِلَى التَّشَيُّعِ كَأُسْتَاذِهِ ابْنِ عقدة، وكان يسكن بباب البصرة عندهم، وقد سئل عنه الدارقطني فقال: خلط.

وقال أبو بكر البرقاني: صَاحِبَ غَرَائِبَ، وَمَذْهَبُهُ مَعْرُوفٌ فِي التَّشَيُّعِ، وَقَدْ حُكِيَ عَنْهُ قِلَّةُ دِينٍ وَشُرْبُ خَمْرٍ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَمَّا احْتُضِرَ أَوْصَى أَنْ تُحْرَقَ كُتُبُهُ فحرقت، وقد أحرق معها كتب كثيرة كانت عنده للناس، فبئس ما عمل» (٨٣٢)

وقال أبو عبيدة:

كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب والعربية، وبالقرآن والشعر، وبأيام العرب وأيام الناس.

وكانت داره خلف دار جعفر بن سليمان.

قال: وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء، قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف، فأحرقها كلها، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده

(٨٣٢) «البداية والنهاية ت شيري» (١١/ ٢٩٦).

إلا ما حفظه بقلبه. وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية» (٨٣٣)

وكان الخليل بن أحمد

منقطعاً إلى الليث بن نصر بن سيار، وكان الليث من أكتب الناس في زمانه، وكان بارع الأدب، بصيراً بالنحو والشعر والغريب، وكان يكتب للبرامكة، ويطير معهم في دولتهم بجناحين، وكانوا معجبين، فارتحل إليه الخليل بن أحمد، فلما عاشره وجده بحراً، فأجزل له وأغناه. وأحب الخليل أن يهدي إليه هدية تليق به، فأقبل وأدبر، وعلم أن المال والأثاث لا يقع منه موقعاً حسناً، لوجود ذلك عنده، وكثرته لديه، وأنه لا يسر بشيء سروره بمعنى لطيف من الأدب، فجهد نفسه في تصنيف كتاب العين، فصنفه لليث بن نصر دون سائر الناس، ونمقه وحبره، وأخرجه في أسرى ظرف وأحسن خط، فوقع منه موقعاً: عظيماً، وسر به سروراً شديداً، فوصله بمائة ألف درهم، واعتذر إليه من التقصير، وأقبل ينظر فيه ليلاً ونهاراً، ولا يمل منه ولا يفتر، وكان يغدو ويروح على البرامكة، فكأنه على الرضف حتى يرجع إلى الكتاب وينظر فيه، إلى أن حفظ نصف الكتاب. وكانت تحته بنت عم له، وكانت سرية نبيلة موسرة جميلة، وكانت تهوى ابن عمها وتحبه، فاشترى الليث جارية نفيسة فائقة الجمال، بثمن جزيل، فأقعدها في منزل صديق له يتسرى بها، فبلغ ذلك ابنة عمه، فوجدت من ذلك أشد وجد، وحزنت وقالت: والله لأغيظنه ولا أتقي الغاية. وقالت: إن غظته في المال فهو لا يبالي به ولا يكترث له، ولكني أراه مشغوفاً بهذا

(٨٣٣) «البيان والتبيين» (١/ ٢٦١).

الكتاب، وقد هجر كل لهو ولذة، وأقبل على النظر فيه، والله لأفجعنه به. ثم عمدت إلى الكتاب بأسره فأحرقته، فلما كان بالعشي، وراح الليث من دار البرامكة، ودخل المنزل، لم يكن له هم إلا الكتاب، فصاح بالغلام أن يحمله إليه، فلم يوجد الكتاب، وكاد يطير طيشاً، وظن أنه سرق، فجمع غلمانه وتهددهم. فقال بعضهم: يا سيدنا أخذته الحرة، فبادر إليها ليترضاها ويسترجع الكتاب، وقال لها: ردي الكتاب والجارية لك، وقد حرمتها على نفسي، فأخذت بيده، وأدخلته البيت الذي أحرقته فيه، فلما نظر إلى رماده وصح عنده أنه احترق، سقط في يديه. وظن أنه أصيب بمال عظيم أو يولد أو أعظم منه، وكان قد حفظ نصف الكتاب، ويبقى عليه نصفه - وقد مات الخليل - فطلبه في الدنيا كلها فأعجزه ذلك، ولم تكن النسخة وقعت إلى أحد، فاستدرك النصف من حفظه وجمع على النصف الباقي علماء أهل زمانه. فقالوا: ما تروم؟ قال: مثلوا عليه، فمثلوا، فلم يلحقوه، ولا شقوا غباره. فأنت ترى ما في أيدي الناس من ذلك، فإذا ما تأملته تراه نصفين، النصف الأول أتقن وأحكم، والنصف الآخر مقصر عن ذلك» (٨٣٤)

وقال ابن خلدون في ترجمة أبي عبد الله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية:

وكان علّامة في الحديث ولسان العرب، وبليغا في الترسيل والشعر. وكتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ببلنسية. ثم عن ابنه السيد أبي زيد. ثم دخل معه دار الحرب حين نزع إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخذ به. ثم كتب عن ابن مردنيش. ولمّا دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث

(٨٣٤) «طبقات الشعراء لابن المعتز» (ص٩٦-٩٧).

زيّان بوفد بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبي زكريا، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ، فحضر مجلس السلطان وأنشد قصيدته على رويّ السين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكسى فوجدهم في هوّة الحصار، إلى أن تغلّب الطاغية على بلنسية. ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشّحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدّة. ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العبّاس الغسّاني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان آثر عنده من الخطّ المغربي فسخط ابن الأبار أنفة من إيثار غيره عليه، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها فجاهر بالردّ ووضعها استبدادا وأنفة، وعوتب على ذلك فاستشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد متمثّلا.

واطلب العزّ في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

فنمى ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه عدّ فيه من عوتب من الكتاب، واعتب. وسمّاه أعتاب الكتاب. واستشفع فيه بابنه المستنصر فغفر السلطان له وأقال عثرته، وأعاده إلى الكتابة. ولما هلك الأمير أبو زكريا رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس وأهل تونس، وكان في ابن الأبار أنفة وبأو وضيق خلق، فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولايتها عليه.

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية نزل ببنزرت، وخاطب ابن أبي الحسن بغرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوبة بالمرحوم.

ونبّه على ذلك فاستضحك وقال: إن أباً لا تعرف حياته من موته لأب خامل.

ونميت إلى ابن أبي الحسين فأسرّها في نفسه، ونصب له إلى أن حمل السلطان على إشخاصه من بجاية.

ثم رضي عنه واستقدمه ورجّعه إلى مكانه من المجلس.

وعاد هو إلى مساءة السلطان بنزعاته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق وساءل عنه السلطان فاستبهم، فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها، فاتّهم بتوقّع المكروه للدولة والتربّص بها كما كان أعداؤه يشنّعون عليه، لما كان ينظر في النجوم فتقبّض عليه.

وبعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع، وألقى أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أوّلها:

طغى بتونس حلف سموه ظلما خليفة

فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه، ثم بقتله قعصا بالرماح، وسط محرم من سنة ثمان وخمسين وستمائة، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه» (٨٣٥)

(٨٣٥) «تاريخ ابن خلدون» (٦/ ٤١٨).

وقال ابن الفقيه:

"ويقال إن بعض ملوك الفرس أخذ قوما فلاسفة فحبسهم وقال: لا يدخل إليكم إلّا الخبز وحده وخيّروهم في إدام واحد. فاختاروا الأترجّ فقيل لهم: كيف اخترتم الأترج دون غيره؟ قالوا: لأن قشره الظاهر طيب فنشمه. وأمّا داخله ففاكهة.

وأمّا حمّاضة فأدم، وأما حبّة فدهن. فأمر بهم فاسكنوا كرمان.

وكان ماؤها لا يخرج إلّا على خمسين ذراعا. فهندسوه حتى أظهروه على وجه الأرض. ثم غرسوا بها الأشجار فالتفّت كرمان كلها بالشجر. فعرف الملك ذلك فقال: اسكنوهم الجبال فاسكنوها، فعملوا الفوّارات وأظهروا الماء على رؤوس الجبال فقال الملك: اسجنوهم. فعملوا في السجن الكيمياء.

وقالوا: هذا علم لا نخرجه إلى أحد.

وعملوا منه ما علموا أنه يكفيهم مدة أعمارهم ثم أحرقوا كتبهم وانقطع علم الكيمياء" (٨٣٦)

وقال أنيس منصور:

كان لى صديق من علماء المدينة المنورة اسمه الشيخ إبراهيم العياشي قد ألف كتاباً عن "الحجرات" أي الغرف التي كان يسكنها الرسول ﷺ مع زوجاته وقد أمضى في تحقيق أماكنها عشرين عاماً وكانت امرأته تشبه زوجة سقراط ترى رجلاً غارقاً بين

(٨٣٦) «البلدان» لابن الفقيه (ص٤١٣).

الورق وفي المناقشات ولكن لا وجود له في البيت زوجاً وأباً لخمسة من الأولاد فضاقت بكل ذلك وأحرقت الكتاب ليصاب الرجل بالشلل" (٨٣٧)

وقال ياقوت في ترجمة الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون:

" وكان رحمه الله من الأدباء العلماء الذين شاهدناهم، زكيّ النفس، طاهر الأخلاق، عالي الهمة، حسن الصورة، مليح الشبية، ضخم الجثة، كث اللحية طويلها، طويل القامة، نظيف اللبسة، ظريف الشكل. وهو ممن صحبته فحمدت صحبته وشكرت أخلاقه، وكان قد ولي عدة ولايات عاينت منها النظر في البيمارستان العضدي، وكانت هيبته فيه ومكانته منه أعظم من مكانة أرباب الولايات الكبار، لأن الناس يرونه بعين العلم والبيت القديم في الرئاسة. ثم ولي عند الضرورة كتابة السكة بالديوان العزيز ببغداد، يرزق برزق مقداره عشرة دنانير في الشهر، وسألته فقلت: من هو حمدون الذي تنسبون إليه؟ أهو حمدون نديم المتوكل ومن بعده من الخلفاء؟ فقال: لا نحن من آل سيف الدولة بن حمدان بن حمدون من بني تغلب، هذا صورة لفظه.

وكان من المحبين للكتب واقتنائها، والمبالغين في تحصيلها وشرائها، وحصل له من أصولها المتقنة وأمهاتها المعينة ما لم يحصل لكثير أحد، ثم تقاعد به الزمان وبطل عن العمل، فرأيته يخرجها ويبيعها وعيناه تذرفان الدموع عليها كالمفارق لأهله الاعزّاء، والمفجوع بأحبابه الأودّاء، فقلت له: هوّن عليك- أدام الله أيامك- فإن الدهر ذو دول، وقد يصحب الزمان ويساعد، وترجع دولة العز وتعاود، فتستخلف ما هو

(٨٣٧) «كل معاني الحب» (ص-١٣).

أحسن منها وأجود، فقال: حسبك يا بني هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقتها في تحصيلها، وهب أن المال يتيسر والعمر يتأخر، وهيهات، فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا على الفراق الذي ليس بعده تلاق، وأنشد بلسان الحال:

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه وأعقب بالحســـــنى وفكّ من الأسر
فمن لي بأيام الشباب التي مضت ومن لي بما قد مرّ في البؤس من عمري

ثم أدركته منيته ولم ينل أمنيته.

وكان حريصا على العلم، فجمع من أخبار العلماء، وصنّف من أخبار الشعراء، وألف كتبا كان لا يجسر على إظهارها خوفا مما طرق أباه مع شدة احتراز.

وبالجملة فعاش في زمن سوء وخليفة غشوم جائر، كان إذا تنفس خاف أن يكون على نفسه رقيب يؤدي به إلى العطب، وهو كان آخر من بقي من هذا البيت القديم والركن الدعيم، ولم يخلّف إلا ابنة مزوجة من ابن الدوامي، وما أظنها معقبة أيضا. وكان مع اغتباطه بالكتب ومنافسته ومناقشته فيها جوادا باعارتها، ولقد قال لي يوما، وقد عجبت من مسارعته إلى إعارتها للطلبة: ما بخلت باعارة كتاب قط ولا أخذت عليه رهنا. ولا أعلم أني مع ذلك فقدت كتابا في عارية قط، فقلت: الأعمال بالنيات، وخلوص نيتك في إعارتها لله حفظها عليك" (٨٣٨)

وقَالَ أَحْمَد بْن سليمان القطيعي:

أضقت إضاقة فمضيت إلى إِبْرَاهِيم الحربي لأبثه ما أنا فيه فقال: لي لا يضيق صدرك فإن اللَّه من وراء المعونة وإني أضقت مرة حتى انتهي أمري فِي الإضاقة

(٨٣٨) «معجم الأدباء» (٣/ ١٠١٢).

إلى أن عدم عيالي قوتهم فقالت لي الزوجة هب أني أنا وإياك نصبر فكيف نصنع بهاتين الصبيتين فهات شيئا من كتبك حتى نبيعه أو نرهنه فضننت بذلك وقلت: اقترضي لهما شيئا وأنظريني بقية اليوم والليلة وكان لي بيت فِي دهليز داري فيه كتبي فكنت أجلس فيه للنسخ وللنظر فلما كان فِي تلك الليلة إذا داق يدق الباب فقلت: من هذا فقال: رجل من الجيران فقلت: ادخل فقال: أطفىء السراج حتى أدخل فكبت عَلَى السراج شيئًا وقلت: ادخل فدخل وترك إلى جانبي شيئًا وانصرف فكشفت عَنِ السراج ونظرت فإذا منديل له قيمة وفيه أنواع من الطعام كاغد فيه خمسمائة درهم فدعوت الزوجة وقلت: أنبهي الصبيان حتى يأكلوا ولما كان من الغد قضينا دينا كان علينا من تلك الدراهم وكان وقت مجيء الحاج من خراسان فجلست على بابي من غد تلك الليلة فإذا جمال يقود جملين عليهما حملان ورقا وهو يسأل عَنْ منزل الحربي فانتهى إلي فقلت: أنا إبراهيم فحط الحملين وقال هذان الحملان أنفذهما لك رجل من خراسان فقلت: من هو فقال: قد استحلفني أن لا أقول من هو » (٨٣٩)

وذَكَرَ أَبُوالْحُسَيْنِ بْنُ التَّوَّزِيِّ أَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ عَبْدِ الرَّحِيمِ أَنْشَدَهُ:

أَجَلُّ مَصَائِبِ الرَّجُلِ الْعَلِيمِ ... مَصَائِبُهُ بِأَسْفَارِ الْعُلُومِ
إِذَا فَقَدَ الْكِتَابَ فَذَاكَ خَطْبٌ ... عَظِيمٌ قَدْ يَجِلُّ عَنِ الْعَظِيمِ
وَكَمْ قَدْ مَاتَ مِنْ أَسَفٍ عَلَيْهَا ... أُنَاسٌ فِي الْحَدِيثِ وَفِي الْقَدِيمِ» (٨٤٠)

(٨٣٩) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٨٧ ت الفقي).
(٨٤٠) «تقييد العلم للخطيب البغدادي» (ص١٥٠).

وقال مالك:

وكنا نزدحم على درج ابن شهاب حتى يسقط بعضنا على بعض، قال وكانت عندي صناديق من كتب ذهبت، لو بقيت لكان أحل إلى من أهلي ومالي» (٨٤١)

وذكر جمال الدين القفطى في ترجمة عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن الخشاب أبو محمد النحوىّ البغداذىّ فقال:

كان أديبا فاضلا عالما وكانت له دار عتيقة ولأخ له ومن شاركهما فى ورثة أبيه، وله منها صفّة كبيرة منفردة، وبها بوارىّ قصب مفروشة، وفى صدرها ألواح من الخشب، مرصوص عليها كتب له، أقامت عدّة سنين ما أزيل عنها الغبار، وكانت تلك البوارىّ قد استترت بما عليها من التراب، يقعد فى جانب منها، والباقى على تلك الحالة.

وقيل إن الطيور عششت فوق الكتب وفى أثنائها (٨٤٢)

وقال السخاوى في ترجمة ابن الملقن:

وَقَالَ شَيخنَا فِي«إنبائه" أَنه كَانَ مديد الْقَامَة حسن الصُّورَة يحب المزاح والمداعبة مَعَ مُلَازمَة الاشْتِغَال وَالْكِتَابَة حسن المحاضرة جميل الْأَخْلَاق كثير الأنصاف شَدِيد الْقيام مَعَ أَصْحَابه موسعا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مَشْهُورا بِكَثْرَة التصانيف حَتَّى كَانَ يُقَال أَنَّهَا

(٨٤١) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (١/ ١٣٧).

(٨٤٢) «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (٢/ ٩٩).

بلغت ثلثمائة مجلدة مَا بَين كَبِير وصغير وَعِنْده من الْكتب مَالا يدْخل تَحت الْحصْر مِنْهَا مَا هُوَ ملكه وَمِنْهَا مَا هُوَ من أوقاف الْمدَارِس سِيمَا الْفَاضِلِيَّة ثمَّ أَنَّهَا احترقت مَعَ أَكثر مسوداته فِي أَوَاخِر عمره ففقد أَكْثَرهَا وَتغير حَاله بعْدهَا فحجبه وَلَده إِلَى أَن مَاتَ،

وَقَالَ فِي مُعْجمَة أَنه قبل احتراق كتبه كَانَ مُسْتَقِيم الذِّهْن.

قلت: وأنشده من نظمه مُخَاطبا لَهُ:

لا يُزعِجَنَّكَ يا سراج الدِّين أنْ لعبَت بكُتبِكَ ألسنُ النِّيرانِ
للهِ قد قَرَّبتَها فتُقُبِّـــــلتْ والنارُ مسرعةٌ إلى القُربانِ" (٨٤٣)

(٨٤٣) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٦/ ١٠٥).

المبحث الثاني عشر:

إعارة الكتب.

١٢-إعارة الكتب.

ذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى وُجُوبِ إِعَارَةِ الْمُصْحَفِ وجَوَازِ إِعَارَةِ الْكُتُبِ وَاسْتِعَارَتِهَا

قال الهيتمي:
«وَأَفْتَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الزُّبَيْرِيُّ بِوُجُوبِ إِعَارَةِ كُتُبِ الْحَدِيثِ» (٨٤٤)

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ:
يَنْبَغِي لِمَنْ مَلَكَ كِتَابًا أَنْ لَا يَبْخَلَ بِإِعَارَتِهِ لِمَنْ هُوَ أَهْلُهُ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي إِفَادَةُ الطَّالِبِينَ بِالدَّلَالَةِ عَلَى الْأَشْيَاخِ وَتَفْهِيمِ الْمُشْكِلِ، فَإِنَّ الطَّلَبَةَ قَلِيلٌ وَقَدْ عَمَّهُمْ الْفَقْرُ فَإِذَا بُخِلَ عَلَيْهِمْ بِالْكِتَابِ وَالْإِفَادَةِ كَانَ سَبَبًا لِمَنْعِ الْعِلْمِ.

قَالَ سُفْيَانُ:
تَعَجَّلُوا بَرَكَةَ الْعِلْمِ، لِيُفِدْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَإِنَّكُمْ لَعَلَّكُمْ لَا تَبْلُغُونَ مَا تُؤَمِّلُونَ وَقَالَ وَكِيعٌ: أَوَّلُ بَرَكَةِ الْحَدِيثِ إِعَارَةُ الْكُتُبِ، وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ مَنْ بَخِلَ بِالْعِلْمِ ابْتُلِيَ بِثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يَمُوتَ فَيَذْهَبَ عِلْمُهُ أَوْ يَنْسَاهُ أَوْ يَتَّبِعَ السُّلْطَانَ» (٨٤٥)

---

(٨٤٤) «تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي» (٥/ ٤١٠).
(٨٤٥) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢/ ١٦٨).

وقال ابن النجار:

وَخَرَّجَ ابن عَقِيلٍ مِنَ الْحَنَابِلَةِ وُجُوبَ الإِعَارَةِ أيضاً في كُتُبٍ لِلْمُحْتَاجِ إِلَيْهَا مِنَ الْقُضَاةِ وَالْحُكَّامِ وَأَهْلِ الْفَتْوَى» (٨٤٦)

وَقَالَ يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ:

قَالَ لِي الزُّهْرِيُّ: إِيَّاكَ وَغُلُولَ الْكُتُبِ قَالَ حَبْسُهَا عَنْ أَهْلِهَا.

وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ كَانَ الشَّافِعِيُّ قَدْ طَلَبَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ كِتَابَ السِّيَرِ فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى الْإِعَارَةِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

قُلْ لِلَّذِي لَمْ تَرَ عَيْنٌ مَنْ رَآهُ مِثْلَهُ
حَتَّى كَأَنَّ مَنْ رَآهُ قَدْ رَأَى مَنْ قَبْلَهُ
الْعِلْمُ يَنْهَى أَهْلَهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ أَهْلَهُ
لَعَلَّهُ يَبْذُلُهُ لِأَهْلِهِ لَعَلَّهُ. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِهِ فِي الْحَالِ هَدِيَّةً لَا عَارِيَّةً» (٨٤٧)

وقال ابن عبد الهادى في ترجمة محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن منصور:

وقال ابنُ سُكَّرة: كان محبوبًا إلى النَّاس كلِّهم، فاضلًا، حَسن الذِّكْر، ما رأيت مِثْلَه على طريقته، وكان لا يأتيه مستعيرٌ كتابًا إلّا أعطاه أو دَلَّه عليه» (٨٤٨)

---

(٨٤٦) «شرح منتهى الإرادات» (٦/ ٢٤٨).

(٨٤٧) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢/ ١٦٨).

(٨٤٨) «طبقات علماء الحديث» (٣/ ٤١٦).

وقال السخاوى:

«وأما عاريته للكتب، فأمرٌ انفرد به عَنْ سائر أهل مصره، حتى لا أعلم نظيره في ذلك، بل كان يعيرها لمن يُسافر بها، وربما افتدى كتب المحمودية التي تحت نظره بها. حتى كان رحمه اللَّه يقول لي: لا تأخُذ مِنْ كتب الخزانة إلا ما ليس في كُتبي، بل أُقسِمُ باللَّه أَنَّه نهاني [في وقت] عن الاستعارة مِنْ غيره.

ورأيت معه في رمضان مِنْ السَّنة التي توفي فيها مجلدًا كنتُ أحبُّ الوقوف عليه، فالتمستُ منه عاريته بعد فراغ أربه مِنْ مطالعته، فقال: نعم. ومضى بقيَّة الشَّهر وشوال وذو القعدة، واتفق دخولي مع الجماعة لعيادته في ذي الحجة، فأشار إليَّ فأخذته مِنْ بين كتبه. هذا وهو ضعيف، وقد مضى مِنْ سؤالي له نحو ثلاثة أشهر ولم ينسَ ذلك. وباللَّه قد رأيت بعض أصحابنا تأثر مِنْ ذلك، فإنا للَّه.

وأرسلت إليه مرة أطلبُ منه نسخةً مِنْ بعض الأجزاء الحديثية مُفْرَدَة، فكأنه ما تيسَّرت له إذ ذاك، فقطع نسخةً بخطه مِنْ مجموع مِنْ مجاميعه، وأرسل بها إليَّ في الحال. وكأنه -واللَّه أعلم- فهم توجُّهي بها لبعض الأماكن البعيدة، وقصدت خِفَّة الحمل.

ولم يكن غالبًا يمضي يوم مِنَ الأيام إلا وأستعيرُ منه شيئًا مِنَ الكتب، وهو يُسْعِفُ بكلِّ ما ألتمِسَهُ منه مِنْ ذلك، ولا يُظْهِرُ مُلالًا، بل واللَّه لو لم أفهم منه محبَّة ذلك. ما أكثرتُ منه واستعرت منه مرة "معجم شيوخه"، وذلك بعد أن حصل عليه بسببه مِنْ بعض الأعداد ما أسلفتُ الإشارة إليه، وصار هو لا يسمح به لكلِّ أحدٍ، حتى إنَّ شيخنا العلَّامة ابن خضر كان كتب منه قديمًا قطعةً، فما تيسر له إكمالها، فأقام عندي مدَّة، ثم طلبه منِّي قبلَ أن أكتبَه أو شيئًا منه، ودعت ضرورةٌ إليه ثانيةً عن

قُرْبٍ، لكنني استحييتُ منه، فكتبت له في قائمة الأسماءِ التي اضطررت للكشف عنها منه أطلب الوقوف عليها، وفي ظنِّي أنَّه يكتبها لي بخطه جريًا على عادته معي في كثيرٍ مِنَ الأحاديث والتَّراجم والأسانيد التي كنتُ ألتمسُها منه، فيكتبها لي بخطه. فبمجرَّد أن دخل القاصدُ إليه، عاد و"المعجم" معه، فسُررت به كثيرًا، ورجعت مِنْ فوري، ففككته مِنَ الجلد، وتجردت فكتبت منه التراجم دون الأسانيد، اكتفاءً بالفهرست، مع تنبيهي في كلِّ ترجمة على أسماء ما ذكر فيها مِنَ المرويات.

وتمَّ في أيام يسيرةٍ أظنُّها أربعة، وجئته به، فقضى العجب مِنْ ذلك، وسألته في فهرست الكتاب بخطه ففعل.

ولو شرحتُ ما اتفق لي معه مِنْ ذلك، لقضي العجب، فكيف بغيري مِنْ جماعته، بل كان شديدَ الانكار على مِنْ يبخل بعارية الكتب، بحيث سمعته مرة يقول: أرسل إليَّ القاضي بدر الدين بن التِّنسي المالكي يطلب "السُّنن" لأبي داود ليحدث به، فأعلمته بأنَّ النُّسخة التي عندي بخطي، وتعسُرُ القراءة منه غالبًا على مِنْ لم يكن مِنْ أهل الحديث، لكنه كان عند الأمير تغري برُمش الفقيه نسخةٌ موقوفةٌ بخط المحدث أبي العباس أحمد، الملقب بالملك المحسن ابن السُّلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو وإن كان الآن في بيت المقدس فهي عند فلان، وسمَّى له بعض أصحابنا المحدثين،

وقال له: إنه يطلبها منه، فأرسل إليه فأنكر وجودها، وقال: إنَّها عند الأمير مع كون سِبْطي استكتب منها في هذه الأيام نسخة، وفرغت أمس، وأعادها إليه، وصار يقضي العجب مِنْ ذلك، ويقول: هذا وهي وقفٌ، فلو كانت ملكًا، ماذا كان يفعل؟

قلت: يحلفُ بالطلاق، إنَّه ما اشتراها لنفسه، وإنَّما وكَّلَهُ بعضُ مَنْ حلَّفه ألا يسمِّيه.

قال شيخنا: وحينئذٍ أرسلتُ إليه بنسختي، مع شدة احتياجي إليها حتى لا يتوهم فيَّ أمرًا.

قلت: وكذا اتفق أن القاضي بهاء الدِّين ابن العلامة شمس الدين ابن القطان رام أن يحدِّث بكتاب "السنن" لابن ماجه، فبلغه أن عند هذا المبهم نسخة الوقف بالخانقاه البيبرسية، وهي أصلٌ معتمد، فتوجَّه إليه مرة بعد أخرى، فما سمح له بها، فجاء صاحب التَّرجمة، وحكى ذلك له، فدفع له نسخته مع احتياجه للمراجعة منها. رحمهما اللَّه وإيانا.

وقد ضاع له بسبب ذلك شيءٌ كثير جدًّا، بحيث أخبرني في سنة إحدى وخمسين أنَّه فقد مِنْ كتبه ما ينيفُ على مائة وخمسين مجلدة، وربما بيعت في السُّوق ويشتريها، ورأينا بعد نحو عشرين سنة مِنْ وفاته شيئًا مِنْ نفائس كتبه التي كنتُ أتلهَّفُ على الوقوف عليها عند بعض مَنِ استعارها، فاستمرت عنده حتى بيعت في تركته، ومشى أمرها.

واتفق أنَّه سُرِقَ لبعض طلبته مِنْ خزانته بالمدرسة المنكوتمرية أوراقٌ مع مجلد لصاحب التَّرجمة مِنْ "شرح البخاري"، ووُجِدَ ذلك مع شخص، فأحضروه بين يديه، وأخذ بعضُ الحاضرين يلتمس منه الاعتراف بالسَّرقة، وصار شيخُنا يشيرُ لنقيبه يأمرُه بعدم الاعتراف. رحمه اللَّه وإيانا.

ومن شدَّة رغبته في العاريَّة: أن القاضي ناظرَ الجيش الزين عبد الباسط رهن عنده كتبًا في بعض نكباته، فاستأذنه شيخنا -لوفور ديانته- في إعارتها لمن لعلَّه

يلتمس شيئًا منها، فأذن له، وكنت أعرفُ منها نسخةً جيِّدةً، مِنَ "الاستيعاب" لابن عبد البرِّ في ستة أسفار أو أكثر، وكذا نسخة متقنة "بصحيح مسلم" في مجلد، إلى غير ذلك ممَّا يطول شرحه.

وأعلى مِنْ هذا كلِّه: أنَّ البدر العيني لمَّا شرع في "شرح البخاري"، رام استعارة "شرح" صاحب التَّرجمة مِنْ شيخنا البرهان ابن خضر، فتوقَّف حتى استأذنه، فأذِنَ له رغبةً في عموم النفع.

هذا مع ما كان سلَفَ مِنَ البدر ممَّا ألجأ لتصنيف "الاستنصار" (٨٤٩)

وقال لسان الدين ابن الخطيب في ترجمة أحمد بن محمد بن أبي الخليل، الأموي:

كان نسيج وحده، وفريد دهره، وغرّة جنسه، إماما في الحديث، حافظا، ناقدا، ذاكرا تواريخ المحدّثين وأنسابهم وموالدهم ووفاتهم، وتعديلهم، وتجريحهم؛ عجيبة نوع الإنسان في عصره، وما قبله، وما بعده، في معرفة علم النبات، وتمييز العشب، وتحليتها، وإثبات أعيانها، على اختلاف أطوار منابتها، بمشرق أو مغرب حسّا، ومشاهدة، وتحقيقا، لا مدافع له في ذلك، ولا منازع، حجة لا تردّ ولا تدفع، إليه يسلّم في ذلك ويرجع. قام على الصّنعتين؛ لوجود القدر المشترك بينهما، وهما الحديث والنبات، إذ موادهما الرّحلة والتّقييد، وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان والأبدان، وغير ذلك. وكان زاهدا في الدنيا، مؤثرا بما في يديه منها، موسّعا عليه في معيشته، كثير الكتب، جمّاعا لها، في كل فنّ من فنون العلم، سمحا لطلبه العلم، ربما وهب منها لملتمسه الأصل النفيس، الذي يعزّ وجوده،

(٨٤٩) «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» (٣/ ١٠١٨).

احتسابا وإعانة على التعليم؛ له في ذلك أخبار منبئة عن فضله، وكرم صنعه، وكان كثير الشّغف بالعلم، والدّؤوب على تقييده ومداومته، سهر الليل من أجله، مع استغراق أوقاته، وحاجات الناس إليه، إذ كان حسن العلاج في طبّه المورود، الموضوع، لثقته ودينه» (٨٥٠)

وقال ابن حجر في ترجمة الْحُسَيْن بن مُحَمَّد بن عبد الله الطَّيِّبِيّ الإِمَام الْمَشْهُور صَاحب شرح الْمشكاة وَغَيره:

قَرَأت بِخَط بعض الْفُضَلَاء كَانَ ذَا ثروة من الْإِرْث وَالتِّجَارَة فَلم يزل ينْفق ذَلِك فِي وُجُوه الْخَيرَات إِلَى أَن كَانَ فِي آخر عمره فَقِيرا قَالَ وَكَانَ كَرِيمًا متواضعاً حسن المعتقد شَدِيد الرَّد على الفلاسفة والمبتدعة مظْهرا فضائحهم مَعَ استيلائهم فِي بِلَاد الْمُسلمين حِينَئِذٍ شَدِيد الْحبّ لله وَرَسُوله كثير الْحيَاء ملازماً للْجَمَاعَة لَيْلًا وَنَهَارًا شتاء وصيفاً مَعَ ضعف بَصَره بآخرة ملازماً لأشغال الطّلبَة فِي الْعُلُوم الإسلامية بِغَيْر طمع بل يحذيهم ويعينهم ويعير الْكتب النفيسة لأهل بَلَده وَغَيرهم من أهل الْبلدَان من يعرف وَمن لَا يعرف محباً لمن عرف مِنْهُ تَعْظِيم الشَّرِيعَة مُقبلا على نشر الْعلم آيَة فِي اسْتِخْرَاج الدقائق من الْقُرْآن وَالسّنَن شرح الْكَشَّاف شرحاً كَبِيرا وَأجَاب عَمَّا خَالف مَذْهَب السّنة أحسن جَوَاب يعرف فَضله من طالعه وصنف فِي الْمعَانِي وَالْبَيَان التِّبْيَان وَشَرحه وَأمر بعض تلامذته باختصاره على طَرِيقَة نهجها لَهُ وَسَمَّاهُ الْمشكاة وَشَرحهَا هُوَ شرحاً حافلاً ثمَّ شرع فِي جمع كتاب فِي التَّفْسِير وَعقد مَجْلِسا عَظِيما لقِرَاءَة كتاب البُخَارِيّ فَكَانَ يشْتَغل فِي التَّفْسِير من بكرَة إِلَى الظّهْر وَمن ثمَّ إِلَى

(٨٥٠) «الإحاطة في أخبار غرناطة» (١/ ٨٣).

الْعَصْر لإسماع البُخَارِيّ إِلَى أَن كَانَ يَوْم مَاتَ فَإِنَّهُ فرغ من وَظِيفَة التَّفْسِير وَتوجه إِلَى مجْلِس الحَدِيث فَدخل مَسْجِدا عِنْد بَيته فصلى النَّافِلَة قَاعِدا وَجلسَ ينْتَظر الْإِقَامَة للفريضة فَقضى نحبه مُتَوَجها إِلَى الْقبْلَة وَذَلِكَ يَوْم الثُّلَاثَاء ثَالِث عشري شعْبَان سنة ٧٤٣ » (٨٥١)

وقال محمد أمين فضل الله في ترجمة مُحَمَّد بن مَحْمُود بن ابى بكر الوطرى المالكى:

قَالَ تِلْمِيذه الْعَلامَة أَحْمد بَابا فى كتاب "كِفَايَة الْمُحْتَاج لمعْرِفَة مَا لَيْسَ فى الديباج" مُخْتَصر كتاب الذيل ذيل بِهِ كتاب الديباج الْمَذْهَب فى معرفَة اعيان عُلَمَاء الْمَذْهَب للامام برهَان الدّين بن فَرِحُونَ الْمُسَمّى نيل الابتهاج بتطريز الديباج لشَيْخنَا وبركتنا الْفَقِيه الْعَالم المتقن الصَّالح العابد الناسك كَانَ من صالحى خِيَار عباد الله الصَّالحين وَالْعُلَمَاء العاملين مطبوعا على الْخَيْر وَحسن النِّيَّة وسلامة الطويه والانطباع على الْخَيْر واعتقاده فى النَّاس حَتَّى كَانَ النَّاس يتساوون عِنْده فى حسن ظَنّه بهم وَعدم مَعْرفَته الشَّرّ يسْعَى فى حوائجهم ويضر نَفسه فى نفعهم وينفجع فى مكروههم وَيصْلح بَينهم وينصحهم الى محبَّة الْعلم وملازمة تعلميه وَصرف اوقاته فِيهِ ومحبة اهله والتواضع التَّام وبذل نفائس الْكتب العزيزة الغريبة لَهُم وَلَا يفتش بعد ذَلِك عَنْهَا كَائِنا مَا كَانَ من جَمِيع الْفُنُون فَضَاعَ لَهُ بذلك جملَة من كتبه نَفعه الله تَعَالَى بذلك وَرُبمَا يأتى لبابه طَالب يطْلب كتابا فيعطيه لَهُ من غير معرفَة فَكَانَ الْعجب العجاب فى ذَلِك ايثارا لوجهه تَعَالَى مَعَ محبته للكتب وتحصيلها شِرَاء ونسخا وَقد جِئْته يَوْمًا اطلب مِنْهُ شَيْئا من كتب النَّحْو ففتش فى خزانته فاعطانى كل مَا ظفر بِهِ مِنْهَا مَعَ

(٨٥١) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٢/ ١٨٥).

صَبر عَظِيم على التَّعْلِيم وايصال الْفَائِدَة للبليد بِلَا ملل وَلَا ضجر حَتَّى يمل حاضروه وَهُوَ لَا يبالى حَتَّى سَمِعت بعض أَصْحَابنَا يَقُول أَظن هَذَا الْفَقِيه شرب مَاء زَمْزَم لِئَلَّا يمل من الاقراء تَعَجبا من صبره من مُلَازمَة الْعِبَادَة والتجافى عَن ردئ الاخلاق واضمار الْخَيْر لكل الْبَرِيَّة حَتَّى الظلمَة مُقبلا على مَا يعنيه متجنبا الْخَوْض فى الفضول» (٨٥٢)

وقال عياض في ترجمة الْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ الْكَنَانِيّ:

سَمِعْتُ شَيْخَنَا سُفْيَانَ بْنَ الْعَاصِي الْأَسَدِيَّ يَحْكِي عَنْ شَيْخِه الْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ الْكَنَانِيّ فِيمَا يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّي أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَعَارَ كِتَابًا لِأَحَدٍ إِنَّمَا يَتْرُكُهُ عِنْدَهُ بِعَدَدِ وَرَقَاتِه أَيَّامًا ثُمَّ لَا يُسَامِحُهُ بَعْدُ وَيَقُولُ هَذِهِ الْغَايَةُ إِنْ كُنْتُ أَخَذْتُهُ لِلدَّرْسِ وَالْقِرَاءَةِ فَلَنْ يَغْلِبْ أَحَدًا حِفْظُ وَرَقَةٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَإِنْ أَرَدْتَهُ لِلنَّسْخِ فَكَذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا هَذَا فَأَنَا أَحْوَطُ بِكِتَابِي وَأَوْلَى بِرَفْعِهِ مِنْكَ » (٨٥٣)

وقال ابن حجر في ترجمة عبد الوهاب بن جعفر الميداني الدمشقي:

«وذكر أبو الحسن بن قبيس، عَن أبيه، وَغيره قال: كان عبد الوهاب بن الميداني لا يبخل بإعارة شيء من كتبه إلا بكتاب واحد كان لا يسمح به فاحترقت كتبه كلها فاستحدث نسخا من الكتب التي نسخت من كتبه سوى ذلك المضمون به

(٨٥٢) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٤/ ٢١١).
(٨٥٣) «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» (ص٢٢٤).

فلم يجد له نسخة» (٨٥٤)

وأما من جرب عليه استعارة الكتب وعدم إرجاعها فإن جاءك ثانية فاكتب له في رقعة ما ذكره السيوطي:

«ألا أيها المستـــعير الكتاب ألا ارجع بغير الذي تطلب
فلمس السماء وأخذ النجوم بكفّك من أخــذه أقرب
فدم ما بقيت على اليأس منه فليس يعار ولا يوهـــب
ومن كان يغضب إن لم يعر فقل من قريب له يغضب
إذا أنا كتبي أعرت الصديق ثلاثة أرباعها يذهـــب
فما كلّ يوم أنا واجـــد كتابا ولا كاتبا يكتــب» (٨٥٥)

وقال الراغب الأصفهاني:

وقال بعضهم معتذرا عن امتناع إعارته:

لصيق فؤادي منذ عشرين حجّة وصقيل ذهني والمفرّج من همّي» (٨٥٦)

(٨٥٤) «لسان الميزان ت أبي غدة» (٥/ ٣٠٢).
(٨٥٥) «المحاضرات والمحاورات» (ص٢١٥).
(٨٥٦) «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» (١/ ١٥٢).

وقال بعض الشعراء:

إنّي حلفت بربّ البيت والحرم هل فوقها حلفة ترجى لذي قسم
ألا أعير كتابا فيه لي أرب إلا أخا ثقة عندي وذا كرم» (٨٥٧)

وقال ابن سعيد:

ومن أظرف ما يُحكى في الإعارة أن أبا بكر عتيق بن أحمد بن ميسرة الفرغليطي استعار من أبي العباس بن بقي مشرف أشبيلية كتابًا، وجال في خاطره ليلة أن يذمَّ الرجل، فسوَّر ذلك في ورقة، فكان من ذلك: والعجب من هذا المشرف المسرف الخائن الحائن، أنه يدعي الانتهاض في شغل السلطان والأمانة، ومرتبه في الشهر عشرون دينارًا، ولقد أعطاني مرة ثلاثين دينارًا، فمن أين تلك العشرة؟ وما أنفق في ذلك الشهر؟ ثم أخذ في ذمِّه، وذكر وخيمَ منشئه، وكيف تدرج إلى أن ولي الأعمال، وداس رقاب الرجال، ثم نسي وجعل تلك الورقة بين ورق الكتاب المستعار، وردَّه إلى أبي العباس فوجدها وقرأ ما فيها، وكاد يخرج من عقله من شدة الحنق، ثم استدعاه، وأوقفه عليها وأنبه، فقال له غير مكترث: هذه عادة أهل الأدب، فأَمَرَ غِلمانه فصفعوه، وقال: يا فقيه، وهذه عادة خُدَّام السلطان، والأيمان تلزمني لا خرجت من الثقاف الحبس حتى لا يبقى عليك مما أعطيتُك درهم واحد، فما خرج من حبسه حتى قبض منه ثلاثين دينارًا. (٨٥٨)

---

(٨٥٧) «محاضرات الأدباء» (١/ ١٥١).

(٨٥٨) "اختصار القدح المعلى" (ص-١٧٣) برقم (٤٦).

وقال الزركلي في ترجمة القاضي تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢ هـ):

مؤرخ، عالم بالأصول، حافظ للحديث واشترط في وقف كتبه ألا تعار لمكي، فسرق أكثرها وضاع" (٨٥٩)

واسْتَعَارَ رَجُلٌ مِنْ أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي طَاهِرٍ الْأَسْفَرَائِينِيُّ الْفَقِيهُ كِتَابًا، فَرَآهُ أَبُو حَامِدٍ يَوْمًا وَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ عِنَبًا، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ سَأَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُعِيرَهُ كِتَابًا، فَقَالَ تَأْتِينِي إِلَى الْمَنْزِلِ، فَأَتَاهُ فَأَخْرَجَ الْكِتَابَ إِلَيْهِ فِي طَبَقٍ وَنَاوَلَهُ إِيَّاهُ، فَاسْتَنْكَرَ الرَّجُلُ ذَلِكَ، وَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو حَامِدٍ: هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي طَلَبْتَهُ، وَهَذَا طَبَقٌ تَضَعُ عَلَيْهِ مَا تَأْكُلُهُ فَعَلِمَ بِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ذَنْبِهِ» (٨٦٠)

وقال الخطيب البغدادي:

«قَرَأْتُ فِي كِتَابِ أَبِي الْحُسَيْنِ بْنِ التَّوَّزِيِّ، سَمَاعَهُ مِنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ، قَالَ: " اسْتَعَارَ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ كِتَابًا ، ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيْهِ بَعْدَ حِينٍ مُتَكَسِّرًا مُتَغَيِّرًا ، عَلَيْهِ آثَارُ الْبُزُورِ وَغَيْرِهِ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعِيرَهُ غَيْرَهُ ، فَقَالَ لَهُ: مَا أَحْسَنْتَ ضِيَافَةَ الْأَوَّلِ فَنُضِيفَكَ الثَّانِي قَالَ: وَاسْتَعَارَ رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ كِتَابًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ رَدَّهُ مَعَ غُلَامٍ لَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: لَيْسَ مِنْ حَقِّ الْعِلْمِ أَنْ يُمَكَّنَ مِنْهُ غَيْرُ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْكَرَامَةُ فِي رَدِّهِ كَالْكَرَامَةِ فِي أَخْذِهِ ، وَإِنَّكَ لَمَّا أَخَذْتَهُ بِنَفْسِكَ وَجَبَ أَنْ تَرُدَّهُ

(٨٥٩) «الأعلام للزركلي» (٥/ ٣٣١).

(٨٦٠) «تقييد العلم للخطيب البغدادي» (ص١٤٩).

بِنَفْسكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي أَنْفَذْتُهُ مَعَهُ مُؤْتَمَنٌ عَلَى الْمَالِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: الْعِلْمُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَالِ وَلَيْسَ كُلُّ مُؤْتَمَنٍ عَلَى الْمَالِ يُؤْتَمَنُ عَلَى الْعِلْمِ ، وَالْمَالُ يَعْرِفُ قَدْرَهُ كُلُّ أَحَدٍ، فَهُوَ يَصُونُهُ وَيُعَظِّمُهُ، وَلَيْسَ الْعِلْمُ كَذَلِكَ ، وَلَمْ يُعْرِهُ شَيْئًا بَعْدَ ذَلِكَ لِمُسَافِرِ بْنِ الْحَسَنِ أَحَدِ أُدَبَاءِ خُرَاسَانَ:

أَجُودُ بِجُلِّ مَالِيَ لَا أُبَالِي وَأَبْخَلُ عِنْدَ مَسْأَلَةِ الْكِتَابِ
وَذَاكَ لِأَنَّنِي أَنْفَقْتُ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِهِ شَرْخَ الشَّبَابِ» (٨٦١)

وقال ابن بشكوال في ترجمة غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام ابن عَطيَّة أبي بكر المحاربيّ الغرْناطيّ ت (٥١٨):

كان حافظاً للحديث وطرقه وعلله عارفاً بأسماء رجاله ونقلته، ذاكراً لمتونه ومعانيه. قرأت بخطّ بعض أصحابي أنه كرر " صحيح البخاري " سبع مئة مرّة. وكان أديبًا شاعرًا لغويًّا دينًا فاضلًا. أخذ الناس عنه كثيراً" (٨٦٢)

وقال ابن حجر في ترجمة سليمان بن إبراهيم بن عمر نفيس الدين اليمني (ت ٨٢٥):

«ذكر لي أنه مر على " صحيح البخاري ما بين قراءة وإسماع وغيرها مائة وخمسين مرة» (٨٦٣)

---

(٨٦١) «تقييد العلم للخطيب البغدادي» (ص١٤٩).
(٨٦٢) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال» (ص٤٣٣).
(٨٦٣) «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس» (٣/ ١١٦).

وقال ابن حجر في ترجمة سليمان بن إبراهيم ابن عمر بن علي العلوي:

لقيته سنة ثمانمائة فأعجبني حرصه على محبة الحديث وأهله..

ولقيته في الرحلة الثانية، وهو مستمر على ملازمته للحديث قراءة ومطالعة ونسخا، واستنساخا، ومقابلة، حتى ذكر لي أنه مر على " صحيح البخاري " ما بين قراءة وإسماع وغيرها مائة وخمسين مرة" (٨٦٤)

وقال ابن كثير في ترجمة أَحْمَد بْن أَبِي طَالِبِ بْنِ نِعْمَةَ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَيَانٍ الدَّيْرَمقْرَنِيُّ ثُمَّ الصَّالِحِيُّ الْحَجَّار، الْمَعْرُوف بِابْنِ الشِّحْنَة:

سَمَّعَ " الْبُخَارِيَّ " عَلَى الزُّبَيْدِيِّ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَسِتّمِائَةٍ بِقَاسِيُونَ، وَإِنَّمَا ظَهَرَ سَمَاعُهُ سَنَةَ ستّ وَسَبْعمِائَةٍ، فَفَرِحَ بِذَلِكَ الْمُحَدِّثُونَ وَأَكْثَرُوا السَّمَاعَ عَلَيْهِ، فَقُرِئَ " الْبُخَارِيُّ " عَلَيْهِ نَحْوًا مِنْ سِتّينَ مَرَّةً وغيره،

وَسَمَّعْنَا عَلَيْهِ بِدَارِ الْحَدِيثِ الْأَشْرَفِيَّةِ فِي أَيَّامِ الشّتْوِيَّاتِ نَحْوًا مِنْ خَمْسمِائَةِ جُزْءٍ بِالْإِجَازَاتِ وَالسَّمَاعِ، وَسَمَاعُهُ مِنَ الزُّبَيْدِيِّ وَابْنِ اللَّتِّيِّ، وَلَهُ إِجَازَةٌ مِنْ بَغْدَادَ فِيهَا مِائَةٌ وَثَمَانِيَةٌ وَثَلَاثُونَ شَيْخًا مِنَ الْعَوَالِي الْمُسْنِدِينَ، وَقَدْ مَكَثَ مُدَّةً مُقَدَّمَ الْحَجَّارِينَ نَحْوًا مِنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، ثُمَّ كَانَ يَخْبُطُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ جَامَكِيَّتُهُ لَمَّا اشْتَغَلَ بِإِسْمَاعِ الْحَدِيثِ، وَقَدْ سَمَّعَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَأَلْبَسَهُ الْخِلْعَةَ بِيَدِهِ، وَسَمَّعَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالشَّامِيَّةِ أُمَمٌ لَا يُحْصَوْنَ كَثْرَةً، وَانْتَفَعَ النَّاسُ بِذَلِكَ، وَكَانَ شَيْخًا حَسَنًا، بَهِيَّ الْمَنْظَرِ، سَلِيمَ الصَّدْرِ، مُمَتَّعًا بِحَوَاسِّهِ

(٨٦٤) «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس» (٣/ ١١٦).

وَقُوَاهُ، فَإِنَّهُ عَاشَ مِائَةَ سَنَةٍ مُحَقِّقًا وَزَادَ عَلَيْهَا; لِأَنَّهُ سَمِعَ " الْبُخَارِيَّ " مِنَ الزُّبَيْدِيِّ فِي سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ» (٨٦٥)

وقال ابن حجر في ترجمة عُثْمَان بن مُحَمَّد بن عُثْمَان بن أبي بكر التوزري الْمَالِكِي:
«وَكَانَ يَقُول أَنه قَرَأَ البُخَارِيّ ثَلَاثِينَ مرّة» (٨٦٦)

وقال شُعْبَة:
«اخْتَلَفْتُ إِلَى عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ خَمْسَمِائَةِ مَرَّةٍ، وَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ إِلَّا مِائَةَ حَدِيثٍ، فِي كُلِّ خَمْسَةِ مَجَالِسَ حَدِيثٌ» (٨٦٧)

وقال عياض في ترجمة أبي بكر الأبهري محمد بن عبد الله بن صالح:
«قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة. والأسدية خمساً وسبعين مرة. والموطأ خمساً وأربعين مرة. ومختصر البرني سبعين مرة» (٨٦٨)

وقال ابن حجر في ترجمة أحمد بن الفرات بن خالد الضبي أبي مسعود الرازي:

---

(٨٦٥) «البداية والنهاية ت التركي» (١٨/ ٣٢٧).
(٨٦٦) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٣/ ٢٦٢).
(٨٦٧) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٢٠٨).
(٨٦٨) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ١٨٦).

«وكان أبو مسعود يقول: "أنه كان يكرر على كل حديث خمسمائة مرة"» (٨٦٩)

وعَنْ أَبِي بَكْرٍ الْأَعْيَنِ قَالَ:
وَقَعَ إِلَيْنَا الْخَبَرُ أَنَّ أَبَا مَسْعُودٍ قَادِمٌ فَعُنِينَا لَهُ، وَنَظَرْنَا فِي الْكُتُبِ، وَسَهِرْنَا، فَلَمَّا جَاءَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ، وَبَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِأَبِي مَسْعُودٍ: إِنَّا نَنْسَى الْحَدِيثَ، فَقَالَ: " أَيُّكُمْ يَرْجِعُ فِي حِفْظِ حَدِيثٍ وَاحِدٍ خَمْسَمِائَةِ مَرَّةٍ؟ قَالُوا: وَمَنْ يَقْوَى عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: لِذَاكَ لَا تَحْفَظُونَ» (٨٧٠)

وقال السخاوى في ترجمة إِبْرَاهِيم بن حجاج بن مُحرز بن مَالك أَبُو اسحق الأبناسي:
«وَحكى أَنه قَرَأَ التَّوْضِيح أَكثر من سبعين مرّة» (٨٧١)

وقال أبو محمد التبّان:
«درست هذا الكتاب ألف مرة» (٨٧٢)

وقال السبكي في ترجمة مُحَمَّد بن الْحُسَيْن بن عبد الرَّحْمَن الْأَنْصَارِيّ:

(٨٦٩) «تهذيب التهذيب» (١/ ٦٧).
(٨٧٠) «طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها» (٢/ ٢٥٦).
(٨٧١) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١/ ٣٨).
(٨٧٢) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٦/ ٢٥٠).

الشَّيْخ الْفَقِيه الصَّالح الْوَرع الزَّاهِد أَبُو الطَّاهِر الْمحلي خطيب جَامع مصر الْعَتِيق وَهُوَ جَامع عَمْرو بن الْعَاصِ رَضِي الله عَنهُ قدم من الْمحلة إِلَى مصر وتفقه بهَا على الشَّيْخ تَاج الدّين مُحَمَّد بن هبة الله الْحَمَوِيّ واختص بِصُحْبَتِهِ وعَلى أبي إِسْحَاق الْعِرَاقِيّ شَارِح الْمُهَذّب وعَلى ابْن زين التُّجَّار هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَة أشياخه فِي الْفِقْه وَسمع الحَدِيث من إِبْرَاهِيم بن عمر الإسعردي وَغَيره. «وَحكى أَن كتبه كَانَت كَثِيرَة وَأَنه كَانَ يعيرها لمن يعرف وَلمن لَا يعرف سَافر بهَا الْمُسْتَعِير أم لم يُسَافر بهَا وَكَانَ يَقُول مَا أعرت كتابا إِلَّا ظَنَنْت أَنه لَا يرجع إِلَيّ فَإِذا عَاد عددت ذَلِك نعْمَة جَدِيدَة» (٨٧٣)

وقال ابن حجر في ترجمة الْقَاسِم بن مُحَمَّد بن يُوسُف بن مُحَمَّد بن يُوسُف البرزالى:
وَكَانَ باذلا لكتبه وأجزائه مؤثرا متصدقا وَكَانَ وافر الْعقل جدا بِحَيْثُ إِنَّه كَانَ يصحب المتعاديين فَلَا يكتم وَاحِد مِنْهُمَا مِنْهُ سره لوثوقه بِهِ وَبلغ ثبته بضعا وَعشْرين مجلدا أثبت فِيهِ كل من سمع مَعَه وانتفع بِهِ المحدثون من زَمَانه إِلَى آخر الْقرن" (٨٧٤)

وقال السخاوى في ترجمة أَحْمد بن عُثْمَان بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن عبد الله الشهَاب أَبُو الْفَتْح الْكرْمَانِي الأَصْل القاهري الْحَنَفِيّ الْمُحدث وَيعرف بالكلوتاتي:
«قَرَأَ البُخَارِيّ أَكثر من سِتّينَ مرّة» (٨٧٥)

---

(٨٧٣) «طبقات الشافعية الكبرى للسبكي» (٨/ ٥٥).
(٨٧٤) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٤/ ٢٧٧).
(٨٧٥) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١/ ٣٧٨).

المبحث الثالث عشر:

التواضع.

١٢-التواضع وخفض الجناح.

قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ (٨٧٦)

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ (٨٧٧)

وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ (٨٧٨)

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ (٨٧٩)

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ (٨٨٠)

وروى مسلم من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي».

---

(٨٧٦) [الحجر: ٨٨].

(٨٧٧) [لقمان: ١٨].

(٨٧٨) [الأعراف: ١٩٩].

(٨٧٩) [القلم: ٤].

(٨٨٠) [آل عمران: ١٣٤].

وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِمِثْلِ حَدِيثِ هِشَامٍ، عَنْ قَتَادَةَ، وَزَادَ فِيهِ: وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ" (٨٨١)

ويقول بدرُ الدين ابن جَمَاعَة:

«لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سناً، بل يكون حريصًا على الفائدة حيث كانت والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

قال سعيد بن جبير: لا يزال الرجل عالمًا ما تعلم فإذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون، وأنشد بعض العرب:

وليس العمى طول السؤال وإنما ... تمام العمى طول السكوت على الجهل وكان جماعة من السلف يستفيدون من طلبتهم ما ليس عندهم، قال الحميدي وهو تلميذ الشافعي: صحبت الشافعي من مكة إلى مصر فكنت أستفيد منه المسائل وكان يستفيد مني الحديث.

وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صح عندكم الحديث فقولوا لنا حتى آخذ به.

وصح رواية جماعة من الصحابة عن التابعين وأبلغ من ذلك كله قراءة رسول الله ﷺ على أبيّ، وقال: أمرني الله أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة: ١] قالوا: من فوائده ألا يمتنع الفاضل من الأخذ عن المفضول» (٨٨٢)

---

(٨٨١) صحيح: أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٨٨٢) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» (ص٢٨).

وقال سَعيد بْن عمرو البرذعي:

شهدت أَبَا زرعة، يَعْنِي الرَّازِيّ ذكر كتاب الصحيح الَّذِي ألفه مُسْلِم بْن الحجاج، ثم الْفَضْل الصائغ على مثاله، فَقَالَ لي أَبُو زرعة:

هؤلاء قوم أرادوا التقدم قَبْلَ أوانه، فعملوا شيئا يتسوَّقون بِهِ، ألفوا كتابا لم يسبقوا إليه ليقيموا لأنفسهم رياسة قَبْلَ وقتها» (٨٨٣)

وقال عياض في ترجمة القاضي ابن الباقلاني أبي بكر بن محمد بن الطيب بن محمد:

قال أبو عمران الفاسي فقيه القيروان (ت ٤٣٠ هـ):

"رحلت إلى بغداد وكنت قد تفقهت بالمغرب، والأندلس عند أبي الحسن القابسي، وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول.

فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر ورأيت كلامه في الأصول والفقه، والمؤالف والمخالف، حقرت نفسي وقلت: لا أعلم من العلم شيئاً.

ورجعت عنده كالمبتدئ» (٨٨٤)

وقال ابن رجب في ترجمة ابن نجية علي بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الدمشقي، الفقيه الواعظ المفسر:

---

(٨٨٣) «تاريخ بغداد ت بشار» (٥/ ٤٥٠).

(٨٨٤) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٧/ ٤٦).

قال ناصح الدين: سمعته يقول: أول مجْلس جلسته فِي بَغْدَاد فِي جَامع الْمَنْصُور فَنزلت سحرًا إِلَى الْجَامع متنكرا حَتَّى أرى هَيْئَة الْمجْلس وأسمع مَا يُقَال وَإِذا رجل أعمى قد جلس على درج الْمِنْبَر فَذكر من الْفُصُول من كَلَام التَّمِيمِي وَابْن عقيل وغيرهما جَمِيع مَا قد حررته للمجلس وتعبت عَلَيْهِ

قَالَ فَأَصَابَنِي هم وَمَا بَقِي لي زمن أحفظ غير ذَلِك فاستخرت الله تَعَالَى ثمَّ جَلَست وتكلمت وَذكرت حِكَايَة طَابَ بهَا الْمجْلس " (٨٨٥)

وقال ابن الجوزي:

كان الوعاظ فِي قديم الزمان علماء فقهاء وَقَدْ حضر مجلس عُبَيْد بْن عمير عَبْد اللَّهِ بْن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عنه وكان عُمَر بْن عَبْدِ الْعَزِيز يحضر مجلس القاص» (٨٨٦)

وقال ابن خلكان في ترجمة أبي القاسم القشيري:

«وحضر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي مجلسه وأطبق علماء بغداد على أنهم لم يروا مثله» (٨٨٧)

---

(٨٨٥) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٢/ ٥٢٨ ت العثيمين).

(٨٨٦) «تلبيس إبليس» (ص١١١).

(٨٨٧) «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٠٨).

وقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عن عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ:

انْصَرَفَ الْإِمَامُ مِنَ الْعَصْرِ فَقُلْتُ أُبَادِرُ مَجْلِسَ عُبَيْدِ بن عمير فمررت بين يدي بن عُمَرَ وَأَنَا لَا أَشْعُرُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ سبحان الله مرتين وحثى عَلَى رُكْبَتِهِ وَمَدَّ يَدَهُ حَتَّى رَدَّنِي» (٨٨٨)

وعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ:

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَجْلِسُ إِلَى قَاصِّ الْعَامَّةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ» (٨٨٩)

قال السبكي في ترجمة إِسْمَاعِيل بن عبد الرَّحْمَن بن أَحْمد أَبي عُثْمَان الصَّابُونِي:

وَأخذ الإِمَام أَبُو الطّيب سهل بن مُحَمَّد بن سُلَيْمَان الصعلوكي فِي تَرْبِيَته وتهيئة أَسبَابه وترتيب حشمته ونوبه وَكَانَ يحضر مجالسه ويثني عَلَيْهِ مَعَ تكبره فِي نَفسه وَكَذَلِكَ سَائِر الْأَئِمَّة كالأستاذ الإِمَام أبي إِسْحَاق الإسفرايني والأستاذ أبي بكر بن فورك وَسَائِر الْأَئِمَّة كَانُوا يحْضرُون مجْلِس تذكيره ويتعجبون من كَمَال ذكائه وعقله وَحسن إِيرَاده الْكَلَام عربيه وفارسيه وَحفظه الْأَحَادِيث حَتَّى كبر وَبلغ مبلغ الرِّجَال وَقَامَ مقَام أسلافه فِي جَمِيع مَا كَانَ إِلَيْهِم من النوب» (٨٩٠)

---

(٨٨٨) «الاستذكار» (٢/ ٢٨٤).

(٨٨٩) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٥/ ٢٧٠).

(٨٩٠) «طبقات الشافعية الكبرى للسبكي» (٤/ ٢٧١).

وقال السبكي في ترجمة أبي حامد الإسفرايني الفقيه الشافعي:

انتهت إليه رياسة الدنيا والدين ببغداد، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه» (٨٩١)

وقال السخاوى في ترجمة محمد بن يحيى بن مُحَمَّد بن عبد الْقوي السراج:

«وَقَرَأَ الْكثير وَسمع بل أجَاز لَهُ شَيخنَا وَخلق باستدعاء النَّجْم بن فَهد وَكثر انتفاه فِي ابْتِدَائه بِزَوْج أُخْته النُّور الفاكهي، وتميز فِي ذَلِك كُله بِحَيْثُ أَقرَأ فِي الْمِنْهَاج الْأَصْلِيّ بِحَضْرَة ثَالِث شُيُوخه وَأمره وَأَصْلح إِمَام الكاملية فِي شَرحه لَهُ بإشارته وَكَانَ عَالم الْحجاز البرهاني يصغي إِلَى مباحثه ويميل إِلَى كَلَامه» (٨٩٢)

وقال ابن رجب في ترجمة جمال الدين أَبي الفرج، المعروف بابن الجوري:

«وقرأ الأدب على أبي منصور الجواليقي.

ولما توفي ابن الزاغوني في سنة سبع وعشرين طلب حلقته، فلم يعطها لصغره فإنه كان في ذلك العام قد احتلم كما تقدم فحضر بين يدي الوزير، وأورد فصلا في المواعظ، فأذن له في الجلوس في جامع المنصور.

قال: فتكلمت فيه، فحضر مجلسي أول يوم جماعة من أصحابنا الكبار من الفقهاء، منهم:

عبد الواحد بن سيف،

---

(٨٩١) «طبقات الشافعية الكبرى للسبكي» (٤/ ٢٧٤).

(٨٩٢) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١٠/ ١٦٣).

وأَبُو علي بن القاضي،
وأَبُو بَكْرِ بن عيسى،
وابن قثامي وغيرهم» (٨٩٣)

وَقَالَ ابْنُ النَّجَّارِ:
كَانَ الشَّيْخُ مُوَفَّقُ الدِّيْنِ إِمَامَ الحَنَابِلَةِ بِالجَامِعِ، وَكَانَ ثِقَةً، حُجَّةً، نَبِيْلًا، غَزِيْرَ الفَضْلِ، كَامِلَ العَقْلِ، شَدِيْدَ التَّثَبُّتِ، دَائِمَ السُّكُوْتِ، حَسَنَ السَّمْتِ، نَزِهًا، وَرِعًا، عَابِدًا عَلَى قَانُوْنِ السَّلَفِ، عَلَى وَجْهِهِ النُّوْرُ، وَعَلَيْهِ الوَقَارُ وَالهَيْبَةُ،
يَنْتَفِعُ الرَّجُلُ بِرُؤْيَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَهُ، صَنَّفَ التَّصَانِيْفَ المَلِيْحَةَ فِي المَذْهَبِ وَالخِلَافِ، وَقَصَدَهُ التَّلَامِذَةُ وَالأَصْحَابُ، وَسَارَ اسْمُهُ فِي البِلَادِ، وَاشْتُهِرَ ذِكْرُهُ، وَكَانَ حَسَنَ المَعْرِفَةِ بِالحَدِيْثِ، وَلَهُ يَدٌ فِي عِلْمِ العَرَبِيَّةِ.
وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الحَاجِبِ الحَافِظُ فِي "مُعْجَمِه":
هُوَ إِمَامُ الأَئِمَّةِ، وَمُفْتِي الأُمَّةِ، خَصَّهُ اللهُ بِالفَضْلِ الوَافِرِ، وَالخَاطِرِ المَاطِرِ، وَالعِلْمِ الكَامِلِ، طَنَّتْ فِي ذِكْرِهِ الأَمْصَارُ، وَظَنَّتْ بِمِثْلِهِ الأَعْصَارُ، قَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ الحَقَائِقِ النَّقْلِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ،
فَأَمَّا الحَدِيْثُ، فَهُوَ سَابِقُ فُرْسَانِه،
وَأَمَّا الفِقْهُ فَهُوَ فَارِسُ مَيْدَانِه، أَعْرَفُ النَّاسِ بِالفُتْيَاءِ، وَلَهُ المُؤَلَّفَاتُ الغَزِيْرَةُ، وَمَا أَظُنُّ الزَّمَانَ يَسْمَحُ بِمِثْلِهِ، مُتَوَاضِعٌ عِنْدَ الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ، حَسَنَ الاعْتِقَادِ، ذُو أَنَاةٍ

(٨٩٣) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٣/ ٢٨٥ ت العثيمين).

وَحِلْمٍ وَوَقَارٍ، وَكَانَ مَجْلِسُهُ عَامِرًا بِالفُقَهَاءِ وَالمُحَدِّثِيْنَ وَأَهْلِ الخَيْرِ، وَصَارَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ يَقْصِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ،

وَكَانَ كَثِيْرَ العِبَادَةِ، دَائِمَ التَّهَجُّدِ، لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، وَلَمْ يَرَ مِثْلَ نَفْسِهِ» (٨٩٤)

وقال الخطيب في ترجمة أبي المعالي الجويني، إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف:

وحضر درسه الأكابر، وكان يقعد كل يوم بين يديه ثلاثمائة فقيه، ودرس أكثر تلامذته في حياته» (٨٩٥)

(٨٩٤) «ذيل طبقات الحنابلة - لابن رجب» (٣/ ٢٨٥ ت العثيمين).

(٨٩٥) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (١٦/ ٤٣).

المبحث الرابع عشر:

التلقي عن الأشياخ.

١٤-التلقي عن الأشياخ.

قَالَ أَبُو زُرْعَةَ:
لَا يُفْتِي النَّاسَ صَحَفِيٌّ، وَلَا يُقْرِئُهُمْ مُصْحَفِيٌّ» (٨٩٦)

وقال ابن جماعة:

«وليجتهد على أن يكون الشيخ ممن له على العلوم الشرعية تمام الإطلاع، وله مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول اجتماع، لا ممن أخذ عن بطون الأوراق ولم يعرف بصحبة المشايخ الحذاق. قال الشافعي رضي الله عنه: من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام. وكان بعضهم يقول: من أعظم البلية تشيخ الصحيفة. أي الذين تعلموا من الصحف» (٨٩٧)

وقال فقيه الأندلس يحيي بن يحيي الليثي (ت ٢٣٤ هـ):

«خرج معنا فتى من طرابلس، فكنا لا ننزل منزلا إلا وعظنا فيه، حتى بلغنا المدينة، فكنا نعجب بذلك منه، فلما أتينا المدينة إذا هو قد أراد أن يفعل بهم ما كان يفعل بنا، فرأيته في سماط أصحاب السقط، وهو قائم يحدثهم، وقد لهوا عنه، والصبيان يحصبونه ويقولون له: اسكت يا جاهل، فوقفت معجبا لما رأيت، فدخلنا

(٨٩٦) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ١٩٤)
(٨٩٧) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» (ص٨٧).

على مالك فكان أول شيء سألناه عنه بعد ما سلمنا عليه ما رأينا من الفتى، فقال مالك: أصاب الرجال إذ لهوا عنه، وأصاب الصبيان إذ ذكروا عليه باطله» (٨٩٨)

ورحم الله من قال:

وَمن يَأْخُذ الْعلم عَن شيخ مشافهة ... يكن من الزيف والتصحيف فِي حرم
وَمن يكن آخِذا للْعلم من صحف ... فَعلمه عِنْد أهل الْعلم كَالْعدمِ» (٨٩٩)

وقِيلَ لِأَبِي حَنِيفَةَ رحمه الله:

فِي الْمَسْجِدِ حَلْقَةٌ يَنْظُرُونَ فِي الْفِقْهِ فَقَالَ لَهُمْ رَأْسٌ قَالُوا لَا قَالَ لَا يَفْقَهُ هَؤُلَاءِ أَبَدًا» (٩٠٠)

وقال العلامة بكر بن عبداللَّه أبو زيد:

«الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقي عن الأساتيذ، والمثافنة

(٨٩٨) «البيان والتحصيل» (١٧/ ٢٩٧).
(٨٩٩) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (٩/ ٧٥).
(٩٠٠) «نصيحة أهل الحديث» (ص٤٣).

للأشياخ، والأخذ من أفواه الرجال لا من الصحف وبطون الكتب، والأول من باب أخذ النسيب عن النسيب الناطق، وهو المعلم أما الثاني عن الكتاب، فهو جماد، فأنى له اتصال النسب» (٩٠١)

وقد خرج رجل إلى قرية فأضافه خطيبها فأقام عنده أياماً، فقال له الخطي: أنا منذ مدة أصلي بهؤلاء القوم وقد أشكل علي في القرآن بعض مواضع، قال: سلني عنها، قال: منها في " الحمد لله "، " إياك نعبد وإياك " أي شيء تسعين أو سبعين؟ أشكلت على هذه فأنا أقولها تسعين، آخذ بالإحتياط» (٩٠٢)

وقال الشاطبي: «مِنْ أَنْفَعِ طُرُقِ الْعِلْمِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى غَايَةِ التَّحَقُّقِ بِهِ أَخْذُهُ عَنْ أَهْلِهِ الْمُتَحَقِّقِينَ بِهِ عَلَى الْكَمَالِ وَالتَّمَامِ» (٩٠٣)

وقال الأستاذ ولي الله سيدي أبو العباس ابن العريف:
من لم يشافه عالماً بأصوله فيقينه في المشكلات ظنون» (٩٠٤)

---

(٩٠١) «حلية طالب العلم» (ص١٥٨).
(٩٠٢) «أخبار الحمقى والمغفلين» (ص٨١).
(٩٠٣) «الموافقات» (١/ ١٣٩).
(٩٠٤) «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس» (٤/ ٣١٩).

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ النَّحْوِيُّ الْمُتَأَخِّرُ الْمَشْهُورُ فِي أَثْنَاءِ كَلَامٍ لَهُ:

وَأَمَّا إِنَّ صَاحِبَ تَنَاتِيف وَيَنْظُرُ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ، فَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَ الْإِمَامَةَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَقَدْ قَالَ الْعُقَلَاءُ: ازْدِحَامُ الْعُلُومِ مُضِلَّةٌ لِلْمَفْهُومِ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ مَنْ بَلَغَ الْإِمَامَةَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ لَا يَكَادُ يَشْتَغِلُ بِغَيْرِهِ، وَلَا يُنْسَبُ إِلَى غَيْرِهِ وَقَدْ نَظَمْتُ أَبْيَاتًا فِي شَأْنِ مَنْ يَنْهَزُ بِنَفْسِهِ. وَيَأْخُذُ الْعِلْمَ مِنَ الصُّحُفِ بِفَهْمِهِ:

يَظُنُّ الْغَمْرُ أَنَّ الْكُتْبَ تَهْدِي ... أَخَا فَهْمٍ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ
وَمَا يَدْرِي الْجَهُولُ بِأَنَّ فِيهَا ... غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الْفَهِيمِ
إِذَا رُمْتَ الْعُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ... ضَلَلْتَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
وَتَلْتَبِسُ الْعُلُومُ عَلَيْكَ حَتَّى ... تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ تُومَا الْحَكِيمِ

أَشَرْتُ إِلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ:

قَالَ حِمَارُ الْحَكِيمِ تُومَا ... لَوْ أَنْصَفُونِي لَكُنْتُ أَرْكَبُ
لِأَنَّنِي جَاهِلٌ بَسِيطٌ ... وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبُ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا ... فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لَا يَنْفَعُ
وَتَحْضُرُ بِالْجَهْلِ فِي مَوْضِعٍ ... وَعِلْمُكَ فِي الْكُتْبِ مُسْتَوْدَعُ
وَمَنْ كَانَ فِي عُمُرِهِ هَكَذَا ... يَكُنْ دَهْرُهُ الْقَهْقَرَى يَرْجِعُ

وَمِنْ الْمَشْهُورِ:

فَدَعْ عَنْك الْكِتَابَةَ لَسْتَ مِنْهَا ... وَلَوْ سَوَّدْت وَجْهَك بِالْمِدَادِ
وَلِلْعُلُومِ رِجَالٌ يُعْرَفُونَ بِهَا ... وَلِلدَّوَاوِينِ كُتَّابٌ وَحُسَّابُ» (٩٠٥)

(٩٠٥) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢/ ١٢٥).

البحث الخامس عشر:

توقير الشيخ.

١٥- توقير الشيخ.

أن يعظم شيخه ويوقره، فذلك من إجلال العلم، ومن أسباب الانتفاع بالشيخ، فيتحرى رضاه ويحذر من سخطه، ولا يطيل عليه بحيث يضجره، بل يقنع بما آتاه، ويصبر على جفوة شيخه إن بدر منه شيء من ذلك.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (٩٠٦)

وقال أحمد بن حنبل لخلف الأحمر:

لا أقعد إلا بين يديك، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه» (٩٠٧)

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

كُنْتُ أُصْفِحُ الْوَرَقَةَ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ صَفْحًا رَفِيقًا هَيْبَةً لَهُ لِئَلَّا يَسْمَعَ وَقْعَهَا" (٩٠٨)

---

(٩٠٦) [النور: ٦٣].

(٩٠٦) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» (ص٨٧).

(٩٠٨) «المجموع شرح المهذب» (١/ ٣٦).

وقَالَ الرَّبِيعُ:
وَاللَّهِ مَا اجْتَرَأْتُ أَنْ أَشْرَبَ الْمَاءَ وَالشَّافِعِيُّ يَنْظُرُ إِلَيَّ هَيْبَةً له" (٩٠٩)

وقال حمدان بن الاصفهانى:
كنت عِنْدَ شَرِيك رَحِمَهُ اللَّهُ فَأَتَاهُ بَعْضُ أَوْلَادِ الْمَهْدِيِّ فَاسْتَنَدَ إِلَى الْحَائِطِ وَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيث فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْنَا ثُمَّ عَادَ فَعَادَ لِمِثْلِ ذَلِكَ فَقَالَ أَتَسْتَخِفُّ بِأَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ.
فَقَالَ شَرِيكٌ لَا وَلَكِنَّ الْعِلْمَ أَجَلُّ عِنْدَ الله تعالى من أن أضعه فجثا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ شَرِيكٌ هَكَذَا يُطْلَبُ الْعِلْمُ» (٩١٠)

وَكَانَ النَّوَوِيّ يتأدب مَع عمر بن أسعد:
رُبمَا قَامَ وملأ الإبريق وَمَشى بِهِ قدامه إِلَى الطَّهَارَة» (٩١١)

وقال أَحْمَد بْن حَنْبَل:
مَا صَلَّيْتُ صَلاةً مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلا وَأَنَا أَدْعُو فِيهَا لِلشَّافِعِيِّ.. وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ هَذَا الذي تَرَوْنَهُ أَوْ عامته مِنِّي هُوَ عَنِ الشَّافِعِيِّ وَمَاتَ مُنْذُ كَذَا كَذَا سَنَةً

(٩٠٩) «المدخل إلى السنن الكبرى - البيهقي - ت الأعظمي» (ص٣٩٠).
(٩١٠) «إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص٧٦٩).
(٩١١) «طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة» (٢/ ١٤٣).

وَأَنَا أَدْعُو اللَّهَ لِلشَّافِعِيِّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُ» (٩١٢)

وقَالَ عبد الرَّحْمَن بن مهْدي:
مَا أُصَلِّي صَلَاة إِلَّا وَأَنَا أَدْعُو للشَّافِعِيِّ فِيهَا» (٩١٣)

وقَالَ يَحْيَى بن سَعِيْد:
أَنَا أَدْعُو اللهَ لِلشَّافِعِيِّ فِي صَلَاتِي مُنْذُ أَرْبَعِ سِنِيْنَ» (٩١٤)

وما أحسن قول القائل:
إِنَّ الْمُعَلِّمَ وَالطَّبِيبَ كِلَاهُمَا لَا يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا
فَاصْبِرْ لِدَائِكَ إِنْ أَهَنْتَ طَبِيبَهُ وَاصْبِرْ لِجَهْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمَا (٩١٥)

وعَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ:
" ثَلَاثَةٌ نَجِدُ فِي الْكِتَابِ يَحِقُّ عَلَيْنَا أَنْ نُكْرِمَهُمْ وَأَنْ نُشَرِّفَهُمْ، وَأَنْ نُوسِعَ عَلَيْهِمْ فِي

(٩١٢) «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» (ص٧٦).
(٩١٣) «الاحتجاج بالشافعي» (ص٥٤).
(٩١٤) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٠/ ٨٦).
(٩١٥) «أدب الدنيا والدين» (ص٦٨).

الْمَجَالِسِ:
ذُو السِّنِّ، وَذُو السُّلْطَانِ لِسُلْطَانِهِ، وَحَامِلُ الْكِتَابِ "» (٩١٦)

وقال أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَوْصِلِيُّ:
«رَأَيْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَكَانَ بِأَصْحَابِهِ مِنَ الْإِعْظَامِ لَهُ وَالتَّوْقِيرِ لَهُ، وَإِذَا رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ صَاحُوا بِهِ، وَكَانَ إِلَى الْأُدْمَةِ مَا هُوَ» (٩١٧)

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ فَارِسٍ:
سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ، يَقُولُ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَوْقَرَ لِلْمُحَدِّثِينَ مِنْ يَحْيَى بْنِ مَعِينٍ» وَإِذَا خَاطَبَ الطَّالِبُ الْمُحَدِّثَ عَظَّمَهُ فِي خِطَابِهِ بِنِسْبَتِهِ إِيَّاهُ إِلَى الْعِلْمِ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَالِمُ، أَوْ أَيُّهَا الْحَافِظُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ" (٩١٨)

وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ:
" مَا كُنَّا نَدْعُو الرَّاوِيَةَ إِلَّا رَاوِيَةَ الشِّعْرِ، وَكُنَّا نَقُولُ لِلَّذِي يَرْوِي الْحَدِيثَ وَالْحِكْمَةَ: عَالِمٌ " وَإِذَا قَالَ الطَّالِبُ لِلْمُحَدِّثِ فِي خِطَابِهِ لَهُ: يَا سَيِّدِي، كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا» (٩١٩)

---

(٩١٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ١٨٢).
(٩١٧) السابق.
(٩١٨) السابق.
(٩١٩) السابق (١/ ١٨٣).

«أن ينظره بعين الإجلال ويعتقد فيه درجة الكمال فإن ذلك أقرب إلى نفعه به، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء وقال: اللهم استر عيب شيخي عني ولا تذهب بركة علمه مني» (٩٢٠)

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ:
" مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ عَلَيْكَ إِذَا أَتَيْتَهُ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيْهِ خَاصَّةً وَعَلَى الْقَوْمِ عَامَّةً وَتَجْلِسَ قُدَّامَهُ، وَلَا تُشِرْ بِيَدَيْكَ، وَلَا تَغْمِزْ بِعَيْنَيْكَ، وَلَا تَقُلْ: قَالَ فُلَانٌ خِلَافَ قَوْلِكَ، وَلَا تَأْخُذْ بِثَوْبِهِ، وَلَا تُلِحَّ عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ النَّخْلَةِ الْمُرْطِبَةِ لَا يَزَالُ يَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ"» (٩٢١)

وقال الرَّبِيع بْن سُلَيْمَان:
وَاللَّهِ مَا اجْتَرَأْتُ أَنْ أَشْرَبَ الْمَاءَ وَالشَّافِعِيُّ يَنْظُرُ إِلَيَّ هَيْبَةً لَهُ» (٩٢٢)

وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ:
«إِنَّ مِنَ السُّنَّةِ، أَنْ تُوَقِّرَ الْعَالِمَ» (٩٢٣)

---

(٩٢٠) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» (ص٨٨).
(٩٢١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٨٠).
(٩٢٢) «المدخل إلى السنن الكبرى - البيهقي - ت الأعظمي» (٦٨٤).
(٩٢٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٥٩).

وعَنْ ثَابِتٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسٍ:
أَعْطِنِي عَيْنَيْكَ الَّتِي رَأَيْتَ بِهِمَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أُقَبِّلَهُمَا "» (٩٢٤)

وقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُمَرَ:
" ضَحِكَ رَجُلٌ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ فَقَالَ: مَنْ ضَحِكَ؟ فَأَشَارُوا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ: «تَطْلُبُ الْعِلْمَ وَأَنْتَ تَضْحَكُ، لَا حَدَّثْتُكُمْ شَهْرًا» (٩٢٥)

وقَالَ حَمْدَانُ بْنُ الْأَصْبَهَانِيِّ:
كُنْتُ عِنْدَ شَرِيكٍ، وَأَتَاهُ بَعْضُ وَلَدِ الْمَهْدِيِّ، فَاسْتَنَدَ إِلَى الْحَائِطِ فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْنَا، ثُمَّ أَعَادَ فَعَادَ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَعْنِي لِشَرِيكٍ، كَأَنَّكَ تَسْتَخِفُّ بِأَوْلَادِ الْخُلَافَةِ، فَقَالَ: " لَا، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ أَزْيَنُ عِنْدَ أَهْلِهِ مِنْ أَنْ يُضَيِّعُوهُ قَالَ: فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَقَالَ شَرِيكٌ: هَكَذَا يُطْلَبُ الْعِلْمُ "» (٩٢٦)

وعَنِ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَجَاءَ بْنَ حَيْوَةَ، يَقُولُ: «حَدِّثْنَا يَا أَبَا قِلَابَةَ وَلَا تُحَدِّثْنَا عَنْ مُتَمَاوِتٍ وَلَا طَعَّانٍ» (٩٢٧)

---

(٩٢٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ١٩٠).
(٩٢٥) السابق (١/ ١٩٣).
(٩٢٦) أخرجه ابن الجعد في «مسنده» برقم (٢٤٤٥).
(٩٢٧) «الضعفاء الكبير للعقيلي» (١/ ١٢).

وعن ابن عباس كان يجلس في طلب العلم على باب زيد بن ثابت حتى يستيقظ فيقال له: ألا نوقظه لك؟ فيقول: لا، وربما طال مقامه وقرعته الشمس، وكذلك كان السلف يفعلون» (٩٢٨)

ولا يقدح في توقير الشيخ سؤاله عن الدليل أو التعليل بالأدب والرفق.

قال ابن جماعة في آداب الطالب:

«أن يحسن خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان ولا يقول له لم، ولا لا نسلم، ولا من نقل هذا، ولا أين موضعه وشبه ذلك فإن أراد استفادته تلطف في الوصول إلى ذلك ثم هو في مجلس آخر أولى على سبيل الإفادة» فقد كان نبي الله موسى في غاية التلطف عند سؤال الخضر في اتباعه والتعلم منه، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ (٩٢٩) (٩٣٠)

قال الرازي:

«اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاعَى أَنْوَاعًا كثيرة من الأدب واللطف عند ما أَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ الْخَضِرِ.

---

(٩٢٨) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» (ص٩٦).

(٩٢٩) [الكهف: ٦٦].

(٩٣٠) «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» (ص١٠١).

فَأَحَدُهَا: أَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ تَبَعًا لَهُ لِأَنَّهُ قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ.

وثانيها: أن استأذن في إثبات هذا التَّبَعِيَّةِ فَإِنَّهُ قَالَ هَلْ تَأْذَنُ لِي أَنْ أجعل نفسي تبعا لك وهذا مُبَالَغَةٌ عَظِيمَةٌ فِي التَّوَاضُعِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ قَالَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ وَهَذَا إِقْرَارٌ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْجَهْلِ وَعَلَى أستاذه بالعلم.

ورابعها: أنه قال: مِمَّا عُلِّمْتَ وَصِيغَةُ مِنْ لِلتَّبْعِيضِ فَطَلَبَ مِنْهُ تَعْلِيمَ بَعْضِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، وَهَذَا أَيْضًا مُشْعِرٌ بِالتَّوَاضُعِ كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ لَا أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَجْعَلَنِي مُسَاوِيًا فِي الْعِلْمِ لَكَ، بَلْ أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تُعْطِيَنِي جُزْأً مِنْ أَجْزَاءِ عِلْمِكَ، كَمَا يَطْلُبُ الْفَقِيرُ مِنَ الْغَنِيِّ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ جُزْأً مِنْ أَجْزَاءِ مَالِهِ.

وَخَامِسُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: مِمَّا عُلِّمْتَ اعْتِرَافٌ بِأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ.

وَسَادِسُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: رُشْداً طَلَبٌ مِنْهُ لِلْإِرْشَادِ وَالْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادُ هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَوْ لَمْ يَحْصُلْ لَحَصَلَتِ الْغَوَايَةُ والضلال.

وسابعها: أن قوله: تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُعَامِلَهُ بِمِثْلِ مَا عَامَلَهُ اللَّهُ بِهِ وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ يَكُونُ إِنْعَامُكَ عَلَيَّ عِنْدَ هَذَا التَّعْلِيمِ شَبِيهًا بِإِنْعَامِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ فِي هذا التعليم ولهذا الْمَعْنَى قِيلَ أَنَا عَبْدُ مَنْ تَعَلَّمْتُ مِنْهُ حَرْفًا.

وَثَامِنُهَا: أَنَّ الْمُتَابَعَةَ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ فِعْلِ الْغَيْرِ لِأَجْلِ كَوْنِهِ فِعْلًا لِذَلِكَ الْغَيْرِ، فَإِنَّا إِذَا قُلْنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَالْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَنَا كَانُوا يَذْكُرُونَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ فَلَا يَجِبُ كَوْنُنَا مُتَّبِعِينَ لَهُمْ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لِأَنَّا لَا نَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ قَالُوهَا بَلْ إِنَّمَا نَقُولُهَا لِقِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ ذِكْرُهَا، أَمَّا إِذَا أَتَيْنَا بِهَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى مُوَافَقَةِ فِعْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّمَا أَتَيْنَا بِهَا لِأَجْلِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى بِهَا لَا جَرَمَ كُنَّا مُتَابِعِينَ فِي فِعْلِ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ

قَوْلُهُ: هَلْ أَتَّبِعُكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَأْتِي بِمِثْلِ أَفْعَالِ ذَلِكَ الْأُسْتَاذِ لِمُجَرَّدِ كَوْنِ ذَلِكَ الْأُسْتَاذِ آتِيًا بِهَا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ يَجِبُ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ التَّسْلِيمُ وَتَرْكُ الْمُنَازَعَةِ وَالِاعْتِرَاضِ.

وَتَاسِعُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: أَتَّبِعُكَ يَدُلُّ عَلَى طَلَبِ مُتَابَعَتِهِ مُطْلَقًا فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِشَيْءٍ دُونَ شَيْءٍ.

وَعَاشِرُهَا: أَنَّهُ ثَبَتَ بِالْأَخْبَارِ أَنَّ الْخَضِرَ عَرَفَ أَوَّلًا أَنَّهُ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ هُوَ مُوسَى صَاحِبُ التَّوْرَاةِ وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَخَصَّهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الْقَاهِرَةِ الْبَاهِرَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ ﷺ مَعَ هَذِهِ الْمَنَاصِبِ الرَّفِيعَةِ وَالدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ الشَّرِيفَةِ أَتَى بِهَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْكَثِيرَةِ مِنَ التَّوَاضُعِ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ آتِيًا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بِأَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْمُبَالَغَةِ وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِهِ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَتْ إِحَاطَتُهُ بِالْعُلُومِ أَكْثَرَ كَانَ عِلْمُهُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْبَهْجَةِ وَالسَّعَادَةِ أَكْثَرَ فَكَانَ طَلَبُهُ لَهَا أَشَدَّ وَكَانَ تَعْظِيمُهُ لِأَرْبَابِ الْعِلْمِ أَكْمَلَ وَأَشَدَّ.

وَالْحَادِي عَشَرَ: أَنَّهُ قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ فَأَثْبَتَ كَوْنَهُ تَبَعًا لَهُ أَوَّلًا ثُمَّ طَلَبَ ثَانِيًا أَنْ يُعَلِّمَهُ وَهَذَا مِنْهُ ابْتِدَاءٌ بِالْخِدْمَةِ ثُمَّ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ طَلَبَ مِنْهُ التَّعْلِيمَ.

وَالثَّانِي عَشَرَ: أَنَّهُ قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ فَلَمْ يَطْلُبْ عَلَى تِلْكَ الْمُتَابَعَةِ عَلَى التَّعْلِيمِ شَيْئًا كَانَ قَالَ لَا أَطْلُبُ مِنْكَ عَلَى هَذِهِ الْمُتَابَعَةِ الْمَالَ وَالْجَاهَ وَلَا غَرَضَ لِي إِلَّا طَلَبُ الْعِلْمِ» (٩٣١)

(٩٣١) «مفاتيح الغيب» (٢١/ ٤٨٣).

وقال سُفْيَانُ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ:
«لَمْ أَسْتَخْرِجِ الَّذِي اسْتَخْرَجْتُ مِنْ عَطَاءٍ إِلَّا بِرِفْقِي بِهِ» (٩٣٢)

وقال ابن المقفع:
«وليعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول» (٩٣٣)

وقَالَ أَحْمَد بْن ثابت:
سمعت عَبْد الرزاق أنا مَعْمَر عَنِ الزُّهْرِيّ قَالَ: أدركت بحورا أربعة سَعِيد بْن المسيب وعروة ابن الزبير وعبد اللَّه بْن أَبِي عَبْد اللَّه وأبا سلمة بْن عَبْد الرَّحْمَن، قَالَ الزُّهْرِيّ: وكَانَ أَبُو سلمة يمارى ابْن عَبَّاس رضي الله عَنْهُمَا فخرم بذلك علما كثيرا» (٩٣٤)

وقال عبد الله بن أحمد في كتاب «العلل» له:
«كان عروةُ بن الزبير يحبُّ مُمَاراةَ ابنَ عباس فكان يَخْزُنُ علمَه عنه، وكان عبيدُ

(٩٣٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٢٣).
(٩٣٣) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص٩٩).
(٩٣٤) «التاريخ الكبير» للبخاري (٥/ ١٣٠ ت المعلمي اليماني).

الله بن عبد الله بن عتبة يَلْطُفُ له في السؤال فيَغُرُّه بالعلم غَرًّا" (٩٣٥)

وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ:
قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا ابْنَ عُتْبَةَ، «تَعَلَّمْ آخِرَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ أُنْزِلَتْ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ قَالَ: «صَدَقْتَ» وَإِذَا بَلَغَ الْغُلَامُ حَدَّ الْمُنَاظَرَةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَكُفَّ نَفْسَهُ عَنِ اسْتِيفَاءِ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ نَاظَرَهُ، وَإِنْ كَانَ شَيْخًا" (٩٣٦)

وعن مُحَمَّدُ بْنُ سَلَّامٍ الْجُمَحِيُّ، قَالَ:
كُنَّا فِي مَجْلِسِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَرَأَى شَابًّا يَنْبَسِطُ عَلَى الْمَشَايِخِ، فَقَالَ: «إِذَا قَلَّ حَيَاءُ الْغُلَامِ كَثُرَ عِلْمُهُ، وَفِي غَيْرِ الْعِلْمِ لَمْ يُرْجَ خَيْرُهُ» (٩٣٧)

وقال الخطيب:
«وَإِذَا أَجَابَ الْمَسْئُولُ بِالصَّوَابِ فَعَلَى الْفَقِيهِ أَنْ يُعَرِّفَهُ إِصَابَتَهُ، وَيُهَنِّيهِ بِذَلِكَ لِيَزْدَادَ فِي الْعِلْمِ رَغْبَةً وَبِهِ مَسَرَّةً» (٩٣٨)

---

(٩٣٥) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٤٨٣ ط عطاءات العلم).
(٩٣٦) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٨).
(٩٣٧) السابق (٢/ ٢٧٩).
(٩٣٨) السابق.

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ صَنَعْتَ فِي اسْتِلَامِكَ الْحَجَرَ؟» قُلْتُ: اسْتَلَمْتُ وَتَرَكْتُ، قَالَ: «أَصَبْتَ» (٩٣٩)

وعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، حَتَّى أَعَادَهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ قَالَ فَضَرَبَ صَدْرِي ثُمَّ قَالَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ» (٩٤٠)

وعَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ: كُنَّا بِحِمْصَ، فَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ سُورَةَ يُوسُفَ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا هَكَذَا أُنْزِلَتْ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَحْسَنْتَ" (٩٤١)

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ لَهُ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، إِنِّي أُمِرْتُ بِعَرْضِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِاللَّهِ آمَنْتَ، وَعَلَى يَدَيْكَ أَسْلَمْتُ، وَمِنْكَ تَعَلَّمْتُ" (٩٤٢)

---

(٩٣٩) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٩).

(٩٤٠) السابق (٢/ ٢٨٠).

(٩٤١) السابق.

(٩٤٢) السابق.

وقال الخطيب:

وَإِذَا أَخْطَأَ الْمَسْئُولُ فِي الْجَوَابِ، فَعَلَى الْفَقِيهِ أَنْ يُعَلِّمَهُ ذَلِكَ، لِيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِإِنْعَامِ النَّظَرِ، وَيَتَحَفَّظَ مِنَ التَّقْصِيرِ، خَوْفَ الزَّلَلِ أنا الْبُرْقَانِيُّ،

قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ حَمْدَانَ، حَدَّثَكُمْ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّرَّاجُ، نا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ أَبِي عُمَرَ، نا سُفْيَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُنْصَرِفَهُ مِنْ أُحُدٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَأَيْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ ظُلَّةً، تَنْطِفُ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ، وَرَأَيْتُ النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ، فَمِنْهُمُ الْمُسْتَقِلُّ، وَمِنْهُمُ الْمُسْتَكْثِرُ، وَرَأَيْتُ سَبَبًا وَاصِلًا إِلَى السَّمَاءِ فَأَخَذْتُ بِهِ فَأَعْلَاكَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ بَعْدَكَ فَعَلَا بِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ بَعْدَهُ فَعَلَا بِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ فَعَلَا بِهِ فَانْقَطَعَ ثُمَّ وَصَلَ لَهُ رَجُلٌ فَعَلَا بِهِ

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْبُرُهَا، فَقَالَ: أَمَا الظُّلَّةُ: فَالْإِسْلَامُ، وَأَمَّا السَّمْنُ وَالْعَسَلُ الَّذِي يَنْطِفُ مِنْهَا: فَالْقُرْآنُ حَلَاوَتُهُ وَلِينُهُ، وَأَمَّا مَا يَتَكَفَّفُ النَّاسُ فِي أَيْدِيهِمْ: فَالنَّاسُ مِنْهُمُ الْمُسْتَقِلُّ، وَمِنْهُمُ الْمُسْتَكْثِرُ، وَأَمَّا السَّبَبُ: فَالْحَقُّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، أَخَذْتَ بِهِ فَأَعْلَاكَ اللَّهُ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ بَعْدَكَ فَيَعْلُو، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ بَعْدَهُ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ بَعْدَهُ، فَانْقَطَعَ، ثُمَّ وَصَلَ بِهِ فَعَلَا بِهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَصَبْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

فَقَالَ: «أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا»،

قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «لَا تُقْسِمْ يَا أَبَا بَكْرٍ»

ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْخَطَأَ الَّذِي أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ بِكَوْنِهِ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ، هُوَ أَنَّهُ جَعَلَ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ شَيْئًا وَاحِدًا، وَوَصَفَهُ بِالْحَلَاوَةِ وَاللِّينِ،

وَأَهْلُ الْعِلْمِ بِعِبَارَةِ الرُّؤْيَا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّهُمَا شَيْئَانِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَيْرُ صَاحِبِهِ، مِنْ أَصْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَدَّهُمَا إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْقُرْآنُ" (٩٤٣)

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّ فِي إِحْدَى إِصْبَعِي سَمْنًا، وَفِي الْأُخْرَى عَسَلًا، فَأَنَا أَلْعَقُهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ، ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَقَالَ: " تَقْرَأُ الْكِتَابَيْنِ: التَّوْرَاةَ وَالْفُرْقَانَ " فَكَانَ يَقْرَأُهُمَا فَكَانَتْ عِبَارَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُؤْيَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو الْمَذْكُورَةَ فِي السَّمْنِ وَالْعَسَلِ، أَنَّهُمَا لِشَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، مِنْ أَصْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَكَانَتْ عِبَارَةُ أَبِي بَكْرٍ فِي حَدِيثِ الظُّلَّةِ أَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، فَكَانَ الْخَطَأُ الَّذِي فِي ذِكْرِ الْعِبَارَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ هَذَا

وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَهُ بِمَا أَخْطَأَ فِيهِ، وَكَرَاهَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْقَسَمَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُخْبِرَهُ إِنَّمَا كَانَتْ لِأَجْلِ أَنَّ التَّعْبِيرَ الَّذِي صَوَّبَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَعْضِهِ وَخَطَّأَهُ فِي بَعْضٍ لَمْ يَكُنْ عَنْ وَحْيٍ، لَكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا تُعَبَّرُ الرُّؤْيَا بِالظَّنِّ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ظَنِّهِ كَسَائِرِ الْبَشَرِ فِي ظُنُونِهِمْ، يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ الْخَطَأُ، وَإِنَّمَا الْوَحْيُ الَّذِي كَانَ يُخْبِرُ بِهِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا يَجُوزُ خِلَافُهُ، وَلَا يَقَعُ الْخَطَأُ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ» (٩٤٤)

---

(٩٤٣) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (٢/ ٢٨١).

(٩٤٤) السابق (٢/ ٢٨٣).

وقَالَ ابْن السَّمْعَانِيّ:

سَمِعت أَبَا نعيم عبد الرَّحْمَن بن عمر الْأَصْفَر البامنجي يَقُول: لما فرغت من التفقه على الإِمَام الْحُسَيْن بن مَسْعُود الْفراء وَرجعت إِلَى بامئين.

كَانَ أحد الْفُقَهَاء دخل عَليّ وَجرى بَيْننَا مذاكرة علمية فوقعنا فِي هَذِه الْمَسْأَلَة: رجل لَهُ امْرَأَتَانِ طلق إِحْدَاهمَا فَسئلَ أَيهمَا طلقت فَقَالَ هَذِه بل هَذِه.

فَقلت: وَهَذِه مَسْأَلَة مشكلة وَكَانَ الإِمَام يَقُول لنا فِي هَذِه الْمَسْأَلَة إِشْكَال فَحمل بعض الْفُقَهَاء هَذِه اللَّفْظَة إِلَى الإِمَام وَزَاد فِيهِ - حسداً -أَنه قَالَ مَا علم الْأُسْتَاذ هَذِه الْمَسْأَلَة وَمَا فهمها كَمَا يجب فَدَعَا الشَّيْخ عَليّ وَأظْهر الْكَرَاهَة فَقُمْت ومضيت إِلَى مرو الروذ رَاجِلا ووصلت إِلَيْهَا بالباكر فَلَمَّا قصدت الشَّيْخ كَانَ فِي الدَّرْس وَالْفُقَهَاء حُضُور فَأَلْقى عَلَيْهِم الدُّرُوس وَالْإِمَام عبد الْكَرِيم الرَّازِيّ بجنبه قَاعد وَكَانَ يحضر درسه للتبريك لِأَنَّهُ كَانَ من الْأَئِمَّة الْكِبَار فَصَبرت حَتَّى فرغ الإِمَام من الدَّرْس وَخرج الْفُقَهَاء وَلم يبْق إِلَّا الإمامان الْحُسَيْن وَعبد الْكَرِيم فَدخلت وسلمت فَرد الإِمَام الْحُسَيْن السَّلَام وَمَا رفع رَأسه إِلَيّ فَقَعَدت وشرحت الْحَال بَين يديهما فَقَالَ الإِمَام الْحُسَيْن لَيْسَ الْفِقْه إِلَّا حل الْإِشْكَال وَلم يطب قلب الإِمَام.

فَقَالَ الإِمَام عبد الْكَرِيم الرَّازِيّ لَهُ إِن للفقهاء شرطا وللصوفية شرطا وَمن شَرط الْفَقِيه أَن يعْتَرض على أستاذه وَيصير إِلَى حَاله يُمكنهُ أَن يَقُول لأستاذه لم وَيحسن الِاعْتِرَاض عَلَيْهِ

وَمن شَرط الصُّوفِيَّة أَن لَا يعْتَرض على شَيْخه أصلا وَيكون كالميت بَين يَدي الْغَاسِل.

ثمَّ قَالَ وهب أَن تلميذك اعْترض عَلَيْك فَهَذَا من شَرط الْفُقَهَاء فتعفو عَنهُ فَرضِي الشَّيْخ وأدناني من نَفسه وَقبلت رجلَيْهِ وعانقني وَقمت وَرجعت فِي الْحَال إِلَى بلدي وَلم أقِم بمرو والروذ» (٩٤٥)

وعَنْ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيِّ، قَالَ:
سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: «اجْتَمَعَ رَأْيِي وَرَأْيُ عُمَرَ فِي أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ أَنْ لَا يُبِعْنَ»
قَالَ: «ثُمَّ رَأَيْتُ بَعْدَ أَنْ يُبِعْنَ»،
قَالَ عُبَيْدَةُ: فَقُلْتُ لَهُ: فَرَأْيُكَ وَرَأْيُ عُمَرَ فِي الْجَمَاعَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ رَأْيِكَ وَحْدَكَ فِي الْفِرْقَةِ - أَوْ قَالَ: فِي الْفِتْنَةِ - قَالَ: فَضَحِكَ عَلِيٌّ" (٩٤٦)

وقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:
" مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ عَلَيْكَ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَى الْقَوْمِ عَامَّةً وَتَخُصَّهُ دُونَهُمْ بِالتَّحِيَّةِ،
وَأَنْ تَجْلِسَ أَمَامَهُ،
وَلَا تُشِيرَنَّ عِنْدَهُ بِيَدِكَ،
وَلَا تَغْمِزَنَّ بِعَيْنَيْكَ،
وَلَا تَقُولَنَّ: قَالَ فُلَانٌ خِلَافًا لِقَوْلِهِ،
وَلَا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا،
وَلَا تُسَارَّ فِي مَجْلِسِهِ،

(٩٤٥) «طبقات الشافعية الكبرى للسبكي» (٧/ ١٧٩).
(٩٤٦) «مصنف عبد الرزاق» (٧/ ٢٩١ ت الأعظمي).

وَلَا تَأْخُذَ بِثَوْبِهِ، وَلَا تُلِحَّ عَلَيْهِ إِذَا كَسِلَ،
وَلَا تُعْرِضَ مِنْ طُولِ صُحْبَتِهِ؛ فَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّخْلَةِ تَنْتَظِرُ مَتَى يَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْعَالِمَ لَأَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِذَا مَاتَ الْعَالِمُ انْثَلَمَتْ فِي الْإِسْلَامِ ثُلْمَةٌ لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "» (٩٤٧)

وعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُوَقَّرَ الْعَالِمُ» (٩٤٨)

وعَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ بَعْدَ طَاعُونٍ كَانَ بِبِلَادِهِ، أَسْأَلُهُ عَنْ أَهْلِهِ، فَأَتَانِي كِتَابُهُ: «كَتَبْتَ إِلَيَّ تَسْأَلُنِي عَنْ أَهْلِي، وَإِنَّهُ مَاتَ مِنْ حَامَّتِي سَبْعَةَ عَشَرَ، وَإِنِّي أَكْرَهُ الْبَلَاءَ إِذَا أَقْبَلَ، فَإِذَا أَدْبَرَ لَمْ يَسُرَّنِي أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ. وَعَلَيْكَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ بَهُوا بِهِ وَاخْتَارُوا عَلَيْهِ الْأَحَادِيثَ؛ أَحَادِيثَ الرِّجَالِ. وَلَا تُمَارِيَنَّ بِهِ عَالِمًا وَلَا جَاهِلًا؛ فَإِنَّكَ إِذَا مَارَيْتَ الْجَاهِلَ خَشَّنَ بِصَدْرِكَ، وَلَمْ يُطِعْكَ، وَإِذَا مَارَيْتَ الْعَالِمَ خَزَنَ عَنْكَ عِلْمَهُ، وَلَمْ يُبَالِ مَا صَنَعْتَ» (٩٤٩)

وفي ترجمة نظام الملك الوزير الحسن بن علي بن إسحاق
«وَكَانَ مَجْلِسُهُ عَامِرًا بِالْفُقَهَاءِ والعلماء، بحيث يقضي معهم غالب نهاره، فَقِيلَ لَهُ:

---

(٩٤٧) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ١٩٩).
(٩٤٨) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥١٩).
(٩٤٩) «فضائل القرآن» لأبي عبيد (ص٧٩).

إِنَّ هَؤُلَاءِ شَغَلُوكَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَالِحِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ جَمَالُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ولو أجلستهم على رأسي لما اسْتَكْثَرْتُ ذَلِكَ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ وَأَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيُّ قَامَ لَهُمَا وأجلسهما معه في المقعد، فإذا دخل أبو علي الفارمدي قَامَ وَأَجْلَسَهُ مَكَانَهُ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُمَا إِذَا دَخَلَا عَلَيَّ قال: أنت وأنت، يطروني ويعظموني، ويقولوا فيَّ ما ليس في، فأزداد بهما ما هو مركوز في نفس البشر، وإذا دخل علي أبو علي الفارندي ذكرني عيوبي وظلمي، فأنكسر فأرجع عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الَّذِي أَنَا فِيهِ.

وَكَانَ مُحَافِظًا عَلَى الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا، لَا يَشْغَلُهُ بَعْدَ الْأَذَانِ شُغْلٌ عَنْهَا وَكَانَ يُوَاظِبُ عَلَى صِيَامِ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، وَلَهُ الْأَوْقَافُ الدَّارَّةُ، وَالصَّدَقَاتُ الْبَارَّةُ.

وَكَانَ يُعَظِّمُ الصُّوفِيَّةَ تَعْظِيمًا زَائِدًا، فَعُوتِبَ فِي ذلك، فقال: بينما أنا أخدم بعض الملوك جاءني يوماً إنسان فقال لي: إلى متى أنت تخدم من تأكله الكلاب غداً؟ اخْدُمْ مَنْ تَنْفَعُكَ خِدْمَتُهُ، وَلَا تَخْدُمْ مَنْ تَأْكُلُهُ الْكِلَابُ غَدًا.

فَلَمْ أَفْهَمْ مَا يَقُولُ، فَاتَّفَقَ أَنَّ ذَلِكَ الْأَمِيرَ سَكِرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَخَرَجَ فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ وَهُوَ ثَمِلٌ، وَكَانَتْ لَهُ كِلَابٌ تَفْتَرِسُ الْغُرَبَاءَ بِاللَّيْلِ، فَلَمْ تَعْرِفْهُ فمزقته، فَأَصْبَحَ وَقَدْ أَكَلَتْهُ الْكِلَابُ، قَالَ: فَأَنَا أَطْلُبُ مثل ذلك الشيخ.

وقد سمع الْحَدِيثَ فِي أَمَاكِنَ شَتَّى بِبَغْدَادَ وَغَيْرِهَا، وَكَانَ يَقُولُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ بِأَنِّي لَسْتُ أَهْلًا لِلرِّوَايَةِ وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أُرْبَطَ فِي قِطَارِ نَقَلَةِ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (٩٥٠)

(٩٥٠) «البداية والنهاية ت شيري» (١٢/ ١٧٣).

وقال أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم:

سمعت أحمد بن حنبل، وذكر عنده إبراهيم بن طهمان، وكان متكئا من علة فاستوى جالسا، وَقَالَ: لا ينبغي أن يذكر الصالحون فيتكأ، ثم قَالَ أحمد: حَدَّثَنِي رجل من أصحاب ابن المبارك، قَالَ: رأيت ابن المبارك في المنام، ومعه شيخ مهيب، فقلت: من هذا معك؟ قَالَ: أما تعرف؟ هذا سفيان الثوري، قلت: من أين أقبلتم؟ قَالَ: نحن نزور كل يوم إبراهيم بن طهمان، قلت: وأين ترونه؟ قَالَ: في دار الصديقين دار يحيى بن زكريا» (٩٥١)

وقد ذكر أبو الحسن الندوي في كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" حشمة بعض العلماء وتقدير العامة والخاصة لهم فقال:

"كان السيد آدم البنوري الهندي (ت ١٠٥٣ هـ) دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل، ويمشي في ركابه ألوف الرجال ومئات من العلماء، ولما دخل السيد في لاهور عام(١٠٥٣هـ) كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم،

حتى توجس شاهجان ملك الهند منه خيفة، فأرسل إليه بمبلغ من المال، ثم قال له: قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز، فعرف إيعاز الملك، وسافر إلى الحرمين حيث مات.

(٩٥١) «تاريخ بغداد ت بشار» (٧/ ١٣).

وهذا الشيخ محمد معصوم (ت ١٠٧٩هـ) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي قد تاب على يده تسعمائة ألف من الرجال، واستخلف في دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال.

وهذه ابنه الشيخ سيف الدين السرهندي (ت ١٠٩٦هـ) كان يأكل على مائدته ألف وأربعمائة، ويقترحون الأطعمة ويتخيرونها.

وهذا الشيخ محمد زبير السرهندي (ت ١١٥١هـ) كان إذا خرج من بيته ألقى له الأغنياء الشيلان والمناديل حتى لا يطأ الأرض، وإذا خرج لعيادة مريض أو لبعض شأنه خرج في ركابه الأغنياء والأمراء فكان موكباً مثل مواكب الملوك. (٩٥٢)

(٩٥٢) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص٢٠٧).

المبحث السادس عشر:

التدرج في الطلب.

١٦-التدرج في الطلب.

فيبدأ الطالب بالأهم قبل المهم، وأن يتدرج في ذلك، فإن من طلب العلم جملة فاته جمله، وألا يضيع وقته في الاستكثار من الشيوخ لمجرد اسم الكثرة وصيتها.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ، يَا يُونُسُ:
«لَا تُكَابِرِ الْعِلْمَ، فَإِنَّ الْعِلْمَ أَوْدِيَةٌ، فَأَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً، فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً وَلَكِنِ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ» (٩٥٣)

وقال الزُّهْرِيّ:
«مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ جُمْلَةً فَاتَهُ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا يُدْرَكُ الْعِلْمُ حَدِيثٌ وَحَدِيثَانِ» (٩٥٤)

قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ (٩٥٥)
وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ

(٩٥٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٣١).
(٩٥٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣٢).
(٩٥٥) [الإسراء: ١٠٦].

بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (٩٥٦)

وقال يَحْيَى بْن سَعِيدٍ:

«يَنْبَغِي فِي الْحَدِيثِ غَيْرَ خَصْلَةٍ، يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْحَدِيثِ تَثَبُّتٌ فِي الْأَخْذِ، وَيَكُونُ يَفْهَمُ مَا يُقَالُ لَهُ، وَيُبْصِرُ الرِّجَالَ، وَيَتَعَاهَدُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ»

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَلَا يَأْخُذُ الطَّالِبُ نَفْسَهُ بِمَا لَا يُطِيقُهُ، بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَى الْيَسِيرِ الَّذِي يَضْبِطُهُ وَيُحْكِمُ حِفْظَهُ وَيُتْقِنُهُ (٩٥٧)

وقَالَ ابْنُ عُلَيَّةَ:

«كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ أَيُّوبَ خَمْسَةً، وَلَوْ حَدَّثَنِي بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَرَدْتُ» (٩٥٨)

وقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ:

" اجْعَلْ تَعْلِيمَكَ دِرَاسَةً لَكَ وَاجْعَلْ مُنَاظَرَةَ الْعَالِمِ تَنْبِيهًا لِمَا لَيْسَ عِنْدَكَ وَأَكْثِرْ مِنَ الْعِلْمِ لِتَعْلَمَ وَأَقْلِلْ مِنْهُ لِتَحْفَظَ» (٩٥٩)

---

(٩٥٦) [الفرقان: ٣٢].

(٩٥٧) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣١).

(٩٥٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣١).

(٩٥٩) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٢٢).

وقَالَ صَفْوَانُ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ - صَاحِبِ الْأَوْزَاعِيِّ:
عَرَضْنَا عَلَى مَالِكٍ الْمُوَطَّأَ إِلَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَقَالَ كِتَابٌ أَلَّفَتْهُ فِي أَرْبَعِينَ سَنَةً أَخَذْتُمُوهُ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا قَلَّمَا تَتَفَقَّهُونَ فِيهِ» (٩٦٠)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:
«كُنْتُ أُقْرِئُ رِجَالًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، فَبَيْنَمَا أَنَا فِي مَنْزِلِهِ بِمِنًى، وَهُوَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّهَا، إِذْ رَجَعَ إِلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتَ رَجُلًا أَتَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ لَكَ فِي فُلَانٍ؟ يَقُولُ: لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ لَقَدْ بَايَعْتُ فُلَانًا، فَوَاللهِ مَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا فَلْتَةً فَتَمَّتْ، فَغَضِبَ عُمَرُ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي إِنْ شَاءَ اللهُ لَقَائِمٌ الْعَشِيَّةَ فِي النَّاسِ، فَمُحَذِّرُهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ أُمُورَهُمْ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رَعَاعَ النَّاسِ وَغَوْغَاءَهُمْ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَغْلِبُونَ عَلَى قُرْبِكَ حِينَ تَقُومُ فِي النَّاسِ، وَأَنَا أَخْشَى أَنْ تَقُومَ فَتَقُولَ مَقَالَةً يُطَيِّرُهَا عَنْكَ كُلُّ مُطَيِّرٍ، وَأَنْ لَا يَعُوهَا، وَأَنْ لَا يَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا، فَأَمْهِلْ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ، فَإِنَّهَا دَارُ الْهِجْرَةِ وَالسُّنَّةِ، فَتَخْلُصَ بِأَهْلِ الْفِقْهِ وَأَشْرَافِ النَّاسِ، فَتَقُولَ مَا قُلْتَ مُتَمَكِّنًا، فَيَعِي أَهْلُ الْعِلْمِ مَقَالَتَكَ، وَيَضَعُونَهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَأَقُومَنَّ بِذَلِكَ أَوَّلَ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالْمَدِينَةِ (٩٦١)

---

(٩٦٠) «الاستذكار» (١/ ١٣).
(٩٦١) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٦٨٣٠).

وقال ابن هبيرة:

«وفيه أيضا أن علم الفقه والدقيق من الأحكام ينبغي أن يتوخى بنشره خواص الناس ووجوههم وأشرافهم، ممن تقدمت منه الدرجة، فيضع كل شيء منه على موضعه» (٩٦٢)

وقد أفتى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام بأنه لا يجوز إيراد الإشكالات القوية بحضرة العوام، لأنه سبب إلى إضلالهم وتشكيكهم. قال: وكذلك لا يتفوه بهذه العلوم الدقيقية عند من يقصر فهمه عنها فيؤدي ذلك إلى ضلالته» (٩٦٣)

وقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ:

لَا يَصْلُحُ لِإِيدَاعِ الْأَسْرَارِ كُلُّ أَحَدٍ وَلَا يَنْبَغِي لِمَنْ وَقَعَ بِكَنْزِ أَنْ يَكْتُمَهُ مُطْلَقًا فَرُبَّمَا ذَهَبَ هُوَ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِالْكَنْزِ، وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يُخَاطِبَ الْعَوَامَّ بِكُلِّ عِلْمٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يَخُصَّ الْخَوَاصَّ بِأَسْرَارِ الْعِلْمِ لِاحْتِمَالِ هَؤُلَاءِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ أُولَئِكَ، وَقَدْ عُلِمَ تَفَاوُتُ الْأَفْهَامِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ (٩٦٤)

(٩٦٢) «الإفصاح عن معاني الصحاح» (١/ ١١٦).

(٩٦٣) «الأشباه والنظائر - السبكي» (٢/ ٣٢٥).

(٩٦٤) [النساء: ٨٣].

وَقَالَ تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (٩٦٥)

وَقَالَ تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (٩٦٦)

الْآيَةَ وَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - «لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى» وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ بَثَثْتُ أَحَدَهُمَا وَلَوْ بَثَثْتُ الْآخَرَ لَقُطِعَ هَذَا الْحُلْقُومُ.

وَهَذَا يُشْكِلُ فَيُقَالُ كَيْفَ كَتَمَ الْعِلْمَ؟ وَلَا أَحْسِبُ هَذَا الْمَكْتُومَ إِلَّا مِثْلَ قَوْلِهِ «إِذَا بَلَغَ بَنُو أَبِي الْعَاصِ ثَلَاثِينَ رَجُلًا جَعَلُوا مَالَ اللَّهِ دُوَلًا»

وَمِثْلَ ذِكْرِ قَتْلِ عُثْمَانَ وَمَا سَيَظْهَرُ مِنْ الْفِتَنِ.

وَمِنْ التَّغْفِيلِ تَكَلُّمُ الْقُصَّاصِ عِنْدَ الْعَوَامِّ الْجَهَلَةِ بِمَا لَا يَنْفَعُهُمْ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ الْإِنْسَانُ عَلَى قَدْرِ فَهْمِهِ وَمُخَاطَبَةُ الْعَوَامِّ صَعْبَةٌ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَرَى رَأْيًا يُخَالِفُ فِيهِ الْعُلَمَاءَ وَلَا يَنْتَهِي.

وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِوَلَدِهَا مِنْ غَيْرِ زَوْجِهَا: هَذَا زَوْجِي كَافِرٌ

قَالَ: وَكَيْفَ؟

قَالَتْ: طَلَّقَنِي بُكْرَةً وَضَاجَعَنِي فِي اللَّيْلِ، فَقَالَ: أَنَا أَقْتُلُهُ وَمَا عَلِمَ أَنَّ الرَّجْعِيَّةَ زَوْجَةٌ وَأَنَّهُ قَدْ أَشْهَدَ عَلَى ارْتِجَاعِهَا مِنْ غَيْرِ عِلْمِهَا، أَوْ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْوَطْءَ رَجْعَةٌ وَرَأَى رَجُلٌ رَجُلًا يَأْكُلُ فِي رَمَضَانَ فَهَمَّ بِقَتْلِهِ وَمَا عَلِمَ أَنَّهُ مُسَافِرٌ فَالْوَيْلُ لِلْعُلَمَاءِ مِنْ مُقَاسَاةِ الْجَهَلَةِ" (٩٦٧)

---

(٩٦٥) [العنكبوت: ٤٣].

(٩٦٦) [النحل: ١٢٥].

(٩٦٧) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢/ ٨٦).

وقال الجاحظ:

لا تكلّم العامة بكلام الخاصة، ولا الخاصة بكلام العامة» (٩٦٨)

وقال المغيرة:

كنت أسأل مالكاً، عن القول يقوله من أين قاله، فصلى يوماً إلى جانبي فقال لي: يا أبا هاشم، إنك تكرم علي وتسألني عما لا أجيب فيه الناس، فإن أجبتك اجترأوا عليّ، وأحب أن تفعل، ولكن اكتب ما تريد من المسائل وابعث بها تحت خاتمك أجيبك فيما أمكنني إن شاء الله. فانصرفت مسروراً وقلت لأصحابنا اكتبوا مسائل فكتبناها في نصف طومار وختمت عليه ووجهتها إليه، فقامت عنده أربعة أشهر فجاءتني بخاتمه.. وقد أجاب في ثلث ذلك المسائل، قال في باقيها لا أدري» (٩٦٩)

وقال أبو المليح عن ميمون:

أن ابن عمر تعلم سورة البقرة في أربع سنين» (٩٧٠)

وَقَالَ أَبُو خَلْدَةَ:

سَمِعْتُ أَبَا العَالِيَةِ يَقُوْلُ: تَعَلَّمُوا القُرْآنَ خَمْسَ آيَاتٍ، خَمْسَ آيَاتٍ، فَإِنَّهُ أَحْفَظُ

(٩٦٨) «أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد» (١/ ١٩٦).

(٩٦٩) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٣/ ٧).

(٩٧٠) «الطبقات الكبرى - ط العلمية» (٤/ ١٢٣).

عَلَيْكُم، وَجِبْرِيْلُ كَانَ يَنْزِلُ بِهِ خَمْسَ آيَاتٍ، خَمْسَ آيَاتٍ» (٩٧١)

وقَالَ الثَّوْرِيُّ:

كُنْتُ آتِي الْأَعْمَشَ وَمَنْصُورًا فَأَسْمَعُ أَرْبَعَةَ أَحَادِيثَ خَمْسَةً، ثُمَّ أَنْصَرِفُ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَكْثُرَ وَتُفْلِتَ» (٩٧٢)

وقال أبو بكر بن عياش:

قرأت القرآن على عاصم بن أبى النّجود، فكان يأمرنى أن أقرأ عليه كل يوم آية لا أزيد عليها. ويقول: إن هذا أثبت لك، فلم آمن أن يموت الشيخ قبل أن أفرغ من القرآن، فما زلت أطلب إليه حتى أذن لى فى خمس آيات كل يوم» (٩٧٣)

وقال شُعْبَةَ:

" كُنْتُ آتِي قَتَادَةَ فَأَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثَيْنِ، فَيُحَدِّثُنِي ثُمَّ يَقُولُ: أَزِيدُكَ؟ فَأَقُولُ: لَا حَتَّى أَحْفَظَهُمَا وَأُتْقِنَهُمَا "» (٩٧٤)

---

(٩٧١) «سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (٥/ ١١٩).

(٩٧٢) «الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح» (١/ ٤١٥).

(٩٧٣) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٤٢ ت الفقي).

(٩٧٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣٢).

المبحث السابع عشر:

نشر العلم.

١٧-نشر العلم بالدعوة والتصنيف والمناظرة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ (٩٧٥)

وقال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ (٩٧٦)

وعليه فنشر العلم بالكتابة والتأليف والبلاغ فيما أتقنه من العلوم هو من بيان العلم فإن كتمان العلم لؤم يحرم المرء بسببه من الخير.

وروى البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ (٩٧٧)

---

(٩٤٥) [البقرة: ١٥٩].

(٩٧٦) [المائدة: ٦٧].

(٩٧٧) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٢٣٥٠).

وعلق البخاري بالجزم في "صحيحة"وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ عَلَى هَذِهِ وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لَأَنْفَذْتُهَا" (٩٧٨)

وروى الطبراني من حديث عَبْد اللَّهِ بْن وَهْبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ دَرَّاجٍ أَبِي السَّمْحِ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ، ثُمَّ لَا يُحَدِّثُ بِهِ، كَمَثَلِ الَّذِي يَكْنِزُ الْكَنْزَ، فَلَا يُنْفِقُ مِنْهُ» (٩٧٩)

لَا يُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهِيعَةَ

---

(٩٧٨) أخرجه الدارمي - ت حسين أسد» (١/ ٤٥٦).
ووصله الدارمي برقم (٥٦٢) من طريق الْأَوْزَاعِيّ قال: حَدَّثَنِي أَبُو كَثِيرٍ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى، وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ يَسْتَفْتُونَهُ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَوَقَفَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ تُنْهَ عَنِ الْفُتْيَا؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ فَقَالَ: «أَرَقِيبٌ أَنْتَ عَلَيَّ؟ لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ عَلَى هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ - ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ، كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ، لَأَنْفَذْتُهَا» قلت: وأبو كثير هو مالك بن مرثد ثقة، وأبوه هو مرثد بن عبد الله الزماني ذكره ابن حبان فى " الثقات " وقال العجلى: تابعى ثقة.
والصمصامة: السيف القاطع الذي لا يثني.
(٩٧٩) حسن: أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط» برقم (٦٨٩) بسند حسن لأجل ابن لهيعة ورواية دراج عن ابن حجيرة صحيحة.

وبوب ابن حبان في "صحيحه"

ذِكْرُ إِيجَابِ الْعُقُوبَةِ فِي الْقِيَامَةِ عَلَى الْكَاتِمِ الْعِلْمَ الَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ"

وروى ابن حبان من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: "من كَتَمَ عِلْمًا تَلَجَّمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القيامة" (٩٨٠)

وقال شيخ الإسلام:

«فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِسُؤَالِ الْعِلْمِ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} وَقَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} وَهَذَا لِأَنَّ الْعِلْمَ يَجِبُ بَذْلُهُ فَمَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَهُوَ يَزْكُو عَلَى التَّعْلِيمِ لَا يَنْقُصُ بِالتَّعْلِيمِ كَمَا تَنْقُصُ الْأَمْوَالُ بِالْبَذْلِ وَلِهَذَا يُشَبَّهُ بِالْمِصْبَاحِ وَكَذَلِكَ مَنْ لَهُ عِنْدَ غَيْرِهِ حَقٌّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ دَيْنٍ كَالْأَمَانَاتِ مِثْلِ الْوَدِيعَةِ وَالْمُضَارَبَةِ لِصَاحِبِهَا أَنْ يَسْأَلَهَا مِمَّنْ هِيَ عِنْدَهُ وَكَذَلِكَ مَالُ الْفَيْءِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَمْوَالِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي يَتَوَلَّى قِسْمَتَهَا وَلِيُّ الْأَمْرِ لِلرَّجُلِ أَنْ يَطْلُبَ حَقَّهُ مِنْهُ كَمَا يَطْلُبُ حَقَّهُ مِنْ الْوَقْفِ وَالْمِيرَاثِ وَالْوَصِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَوْلِيَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَدَاءُ الْحَقِّ إلَى مُسْتَحِقِّهِ» (٩٨١)

---

(٩٨٠) صحيح: أخرجه ابن حبان برقم (٩٥) بسند صحيح من طريق عَلِيِّ بْنِ الْحَكَمِ الْبُنَانِيِّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ به.

(٩٨١) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٨٥).

وقال أَبُو صَالِحٍ الْفَرَّاءُ:

سَمِعْتُ ابْنَ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُولُ: " مَنْ بَخِلَ بِالْعِلْمِ ابْتُلِيَ بِثَلاثَةٍ: إِمَّا يَمُوتُ فَيَذْهَبُ عِلْمُهُ، أَوْ يَنْسَاهُ، أَوْ يَتَّبِعُ السُّلْطَانَ "» (٩٨٢)

وقال الْعَبَّاس بْن غالب الهمداني الوراق:

قلت: لأحمد بن حنبل يا أبا عَبْد اللَّه أكون فِي المجلس ليس فيه من يعرف السنة غيري فيتكلم مبتدع فيه أرد عليه فقال: لا تنصب نفسك لهذا أخبره بالسنة ولا تخاصم فأعدت عليه القول فقال: ما أراك إلا مخاصما.

قلت: أنا وجه قول إمامنا قول النَّبِيّ ﷺ "إذا أراد اللَّه بقوم شرًا ألقى بينهم الجدل وخزن عنهم العمل "، وقيل للحسن البصري نجادلك فقال: لست فِي شك من ديني وقال مالك بن أنس كلما جار رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل عَلَى محمد ﷺ لجدله وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجد وإياكم والمحدثات فإن كل محدثة بدعة "

وقال الأَوْزَاعِيّ عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك القول فليحذر كل مسئول ومناظر من الدخول فيما ينكره عَلَى غيره وليجتهد فِي اتباع السنة واجتناب المحدثات كما أمر» (٩٨٣)

---

(٩٨٢) «جزء من أحاديث أبي عمر السلمي عن شيوخه» (ص٣٤٤).

(٩٨٢) السابق.

(٩٨٣) «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٣٦ ت الفقي).

وقال الجاحظ:

«فأما الخط، فمما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب، قوله لنبيه عليه السلام: اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ

وأقسم به في كتابه المنزل، على نبيه المرسل، حيث قال: ن. وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ ، ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين. كما قالوا: قلة العيال أحد اليسارين.

وقالوا: القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هذرا.

وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام.

وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن.

والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره» (٩٨٤)

وقال ابن الجوزى:

«وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأن أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كلال الحواس. وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره؛ وإنما يكون التقدير على

(٩٨٤) «البيان والتبيين» (١/ ٨٥).

العادات الغالبة؛ لأنه لا يعلم الغيب. فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين.

ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم، هذا إذا كان قد بلغ مع ما يريد من الجمع والحفظ، وأعين على تحصيل المطالب.

فأما إذا قلت الآلات عنده من الكتب، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب، فلم ينل ما يريده في هذا الأوان، أخر التصانيف إلى تمام خمسين سنة، ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين.

ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم، ويسمع الحديث والعلم، ويقلل التصانيف إلا أن يقع مهم إلى رأس السبعين.

فإذا جاوز السبعين، جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل، فيوفر نفسه على نفسه، إلا من تعليم يحتسبه، أو تصنيف يفتقر إليه؛ فذلك أشرف العدد للآخرة» (٩٨٥)

وقال ابنُ عقيل:

لَوْ سَكَتَ الْمُحِقُّونَ وَنَطَقَ الْمُبْطِلُونَ لَتَعَوَّدَ النَّشْءُ مَا شَاهَدُوا، وَأَنْكَرُوا مَا لَمْ يُشَاهِدُوا.

فَمَتَى رَامَ الْمُتَدَيِّنُ إحْيَاءَ سُنَّةٍ أَنْكَرَهَا النَّاسُ فَظَنُّوهَا بِدْعَةً، وَقَدْ رَأَيْنَا ذَلِكَ» (٩٨٦)

---

(٩٨٥) «صيد الخاطر» (ص٢٤٢).

(٩٨٦) «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» (١/ ٢١٣).

وقال القلقشندى:

«واعلم أن الكتب المصنّفة أكثر من أن تحصى، وأجل من أن تحصر، لا سيّما الكتب المصنفة في الملّة الإسلامية فإنها لم يصنّف مثلها في ملّة من الملل، ولا قام بنظيرها أمّة من الأمم؛ إلّا أن منها كتبا مشهورة قد توفرت الدواعي على نقلها، والإكثار من نسخها، وطارت سمعتها في الآفاق ورغب في اقتنائها» (٩٨٧)

وقال الصفدي:

«فَإِن التصنيف فن لَا يمله من اعتاده وَلَا يلتذه إِلَّا من اشْترى لَهُ سهره وَبَاعَ فِيهِ رقاده وَلَا يأنس بِهِ فِي طول أَسْفَاره إِلَّا من وثق بِمَا مَعَه من الزوادة

تغر حلاوات النُّفُوس قلوبها ... فتستعذب اللَّذَّات وَهِي حمام» (٩٨٨)

وقال ابن بشكوال في ترجمة ابن حزم:

قال القاضي أبو القاسم صاعد ابن أحمد:

كان أبو محمد بن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان،

ووفور حظه من البلاغة، والشعر،

والمعرفة بالسير والأخبار. وأخبرني ابنه أبو رافع الفضل بن علي أنه اجتمع عنده

---

(٩٨٧) «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» (١/ ٥٣٨).

(٩٨٨) «الشعور بالعور» (ص٣٩).

بخط أبيه من تأليفه نحو أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة» (٩٨٩)

وقال ابن خلكان في ترجمة البيهقي:

«وشرع في التصنيف فصنف فيه كثيراً حتى قيل: تبلغ تصانيفه ألف جزء، وهو أول من جمع نصوص الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، في عشر مجلدات، ومن مشهور مصنفاته السنن الكبير السنن الصغير ودلائل النبوة، والسنن، والآثار وشعب الايمان، ومناقب الشافعي المطلبي ومناقب أحمد بن حنبل وغير ذلك. وكان قانعاً من الدنيا بالقليل، وقال إمام الحرمين في حقه: مامن شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منة، إلا أحمد البيهقي فإن له على الشافعي منة» (٩٩٠)

وقال السبكي في ترجمة خَلِيل بن أيبك الشَّيْخ صَلَاح الدّين الصَّفَدِي الإِمَام الأديب النَّاظِم الناثر أديب الْعَصْر:

«وصنف الْكثير فِي التَّارِيخ وَالْأَدب قَالَ لي إِنَّه كتب أَزِيد من سِتّمِائَة مُجَلد تصنيفا وَكَانَت بيني وَبَينه صداقة مُنْذُ كنت صَغِيرا فَإِنَّهُ كَانَ يتَرَدَّد إِلَى وَالِدي فصحبته وَلم يزل مصاحبا لي إِلَى أَن قضى نحبه» (٩٩١)

(٩٨٩) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس» (ص٣٩٥).
(٩٩٠) «وفيات الأعيان» (١/ ٧٦).
(٩٩١) «طبقات الشافعية الكبرى» (١٠/ ٥).

وقال ابن جماعة في ترجمة ابن الجوزي:

وتعلم الوعظ من أَبِي الْحَسَن بْن الزاغوني، وصنف الكتب، وبلغت مصنفاته نحوا من ثلاث مائة مصنف، وعقد مجلس الوعظ فِي حال الشبيبة، واستمر عَلَى ذلك، وَكَانَ يحضر مجلسه الخلفاء والوزراء والعلماء، وأقل مَا كَانَ يحضر عنده عشرة آلاف، وربما حضر مائة ألف، وَكَانَ لَهُ فِي القلوب القبول والهيبة، وَكَانَ زاهدا فِي الدنيا متقللا منها، وذكر وَهُوَ عَلَى منبر الوعظ أنه كتب بخطه ألفي مجلد، وتاب عَلَى يَدَيْهِ مائة ألف، وأسلم عَلَى يَدَيْهِ عشرون ألفا، وَكَانَ لا يخرج من بيته إِلا الجمعة ومجلس الوعظ» (٩٩٢)

وقال ابن عبد الهادى:

حَدَّثنا القَاضي أبو الحسين محمد بن علي بن محمد الهاشمي قال: قال لنا أبو حفص بن شاهين: صَنَّفت ثلاث مئة مصنف، وثلاثين مصنَّفًا، إحداها "التفسير الكبير" ألف جُزْء، و "المُسْنَد" ألف وخمس مئة جُزْء، و"التَّاريخ" مئة وخمسون جزءًا و"الزُّهْد" مئة جُزْء، وأوَّل ما حدثتُ بالبَصْرة سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة» (٩٩٣)

وقال ابن رجب في ترجمة شيخ الإسلام:

«وَأَمَّا تصانيفه رحمه اللَّه: فَهِيَ أشهر من أَن تذكر، وأعرف من أَن تنكر. سارت

---

(٩٩٢) «مشيخة ابن جماعة» (ص٢).

(٩٩٣) «طبقات علماء الحديث» (٣/ ١٨٠).

مسير الشَّمْس فِي الأقطار، وامتلأت بِهَا البلاد والأمصار. قَدْ جاوزت حد الكثرة، فلا يمكن أحد حصرها، ولا يتسع هَذَا المكان لعد المعروف منها، ولا ذكرها» (٩٩٤)

وقال تلميذه البزار:

«وَأما مؤلفاته ومصنفاته فَإِنَّهَا أكثر من أَن أقدر على إحصائها أَو يحضرني جملَة أسمائها بل هَذَا لَا يقدر عَلَيْهِ غَالِبا أحد لِأَنَّهَا كَثِيرَة جدا كبارًا وصغارا وَهِي منشورة فِي الْبلدَان فَقل بلد نزلته إِلَّا وَرَأَيْت فِيهِ من تصانيفه

فَمِنْهَا مَا يبلغ إثني عشر مجلدا ك تَلْخِيص التلبيس على أساس التَّقْدِيس وَغَيره

وَمِنْهَا مَا يبلغ سبع مجلدات

كالْجمع بَين الْعقل وَالنَّقْل

وَمِنْهَا مَا يبلغ خمس مجلدات وَمِنْهَا منهاج الاسْتِقَامَة والاعتدال وَنَحْوه

وَمِنْهَا مَا يبلغ ثَلَاث مجلدات كالرَّد على النَّصَارَى وَشبهه

وَمِنْهَا مجلدان ك نِكَاح الْمُحَلّل وَإِبْطَال الْحِيَل وَشرح العقيدة الأصبهانية

وَمِنْهَا مُجَلد وَدون ذَلِك وَهَذَانِ القسمان من مؤلفاته فَهِيَ كَثِيرَة جدا لَا يمكنني استقصاؤها لَكِن اذكر بَعْضهَا إستئناسا

كتاب تَفْسِير سُورَة الاخلاص مُجَلد

كتاب الْكَلَام على قَوْله عز وَجل الرَّحْمَن على الْعَرْش اسْتَوَى

كتاب الصارم المسلول على شاتم الرَّسُول مُجَلد

(٩٩٤) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥٢٠ ت العثيمين).

كتاب الْفرْقَان الْمُبين بَين الطَّلَاق وَالْيَمِين
كتاب الْفرق بَين أَوْلِيَاء الرَّحْمَن وأولياء الشَّيْطَان» (٩٩٥)

وترجم الزركلي لأمير البيان شَكِيب أَرْسلان (ت ١٣٦٦ هـ) فقال:

شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة: عالم بالأدب، والسياسة، مؤرخ، من أكابر الكتّاب، ينعت بأمير البيان. من أعضاء المجمع العلمي العربيّ...

أصدر مجلة باللغة الفرنسية (La Nation Arabe) في جنيف، للغرض نفسه.

وقام بسياحات كثيرة في اوربة وبلاد العرب. وزار أميركا سنة ١٩٢٨ وبلاد الأندلس سنة ١٩٣٠ وهو في حله وترحاله لا يدع فرصة إلا كتب بها مقالا أو بحثا.

جاء في رسالة بعث بها إلى صديقه السيد هاشم الا تاسي عام ١٩٣٥ م، أنه أحصى ما كتبه في ذلك العام، فكان ١٧٨١ رسالة خاصة و١٧٦ مقالة في الجرائد، و١١٠٠ صفحة كُتُب طبعت. ثم قال: وهذا (محصول قلمي في كل سنة).

وعرّفه (خليل مطران) بإمام المترسلين،

وقال: (حضريّ المعنى، بدويّ اللّفظ، يحب الجزالة حتى يستسهل الوعورة، فإذا عرضت له رقة، وألان لها لفظه، فتلك زهرات ندية ملية شديدة الريا ساطعة البهاء كزهرات الجبل» (٩٩٦)

---

(٩٩٥) «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» (ص٢٣ ط المكتب الإسلامي).

(٩٩٦) «الأعلام» (٣/ ١٧٣).

وقال الصفدى في ترجمة شيخ الربوة مُحَمَّد ابْن أبي طَالب الْأَنْصَارِيّ:

رَأَيْته بصفد مَرَّات وَاجْتمعت بِهِ مُدَّة مديدة وَكَانَ من أذكياء الْعَالم لَهُ قدرَة على الدُّخُول فِي كل علم وجرأة على التصنيف فِي كل فن رَأَيْت لَهُ عدَّة تصانيف حَتَّى فِي الْأَطْعِمَة وَفِي أُصُول الدّين» (٩٩٧)

ومما يحسن ترجمته إلى تأليف إشارات العلماء في مجالسهم ومن ذلك:

سبب تأليف البخارى للصحيح:

قال إِبْرَاهِيم بن مَعْقِل، سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ يَقُوْلُ: كُنْتُ عندَ إِسْحَاقَ بنِ رَاهْوَيْه، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا: لَوْ جمعتُم كِتَاباً مختصِراً لسُنَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قَلبِي، فَأَخذتُ فِي جمع هَذَا الكِتَابِ" (٩٩٨)

يعني كتاب «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» وقد سماه البخاري بهذا الاسم كما نص على ذلك جماهير العلماء كالكلاباذي والإشبيلي وابن الصلاح والنووي وابن رشيد وابن الملقن وبدر الدين العيني والسيوطي وغيرهم.

(٩٩٧) «الوافي بالوفيات» (٣/ ١٣٦).

(٩٩٨) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (٢/ ٨).

وسبب تأليف مالك للموطأ:

قال ابن خلدون:

«حجّ أبو جعفر المنصور، ولقيه مالك بالمدينة، فأكرمه وفاوضه. وكان فيما فاوضه: يا أبا عبد الله لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك، وقد شغلتني الخلافة، فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به، تجنّب فيه رخص ابن عبّاس وشدائد ابن عمر ووطّئه للناس توطئة. قال مالك: فلقد علّمني التأليف، فكانت هذه وأمثالها من البواعث لمالك على تصنيف هذا الكتاب، فصنّفه وسمّاه «الموطأ» أي المسهّل» (٩٩٩)

وسبب تأليف الذهبي لتاريخ الإسلام:

«قَالَ مُحَمَّدُ بنُ طَرْخَان: سَمِعْتُ الحُمَيْدِيَّ يَقُوْلُ:

ثَلاَثُ كُتُبٍ مِنْ عُلُوْمِ الحَدِيْثِ يَجِبُ الاهتمَامُ بِهَا: كِتَابُ (الْعِلَلِ)، وَأَحْسَنُ مَا وَضَعَ فِيْهِ كِتَابُ الدَّارَقُطْنِيّ.

قُلْتُ: وَجَمَعَ كِتَابَ (الْعِلَلِ) فِي عِدَّةِ كتب عَلِيُّ بن المَدِيْنِيّ إِمَامُ الصَّنعَةِ، وَجَمَعَ أَبُو بَكْرٍ الخَلاَّل مَا وَقَعَ لَهُ مِنْ عِلَلِ الأَحَادِيْثِ الَّتِي تَكَلَّمَ عَلَيْهَا الإِمَامُ أَحْمَد، فَجَاءَ فِي ثَلاَثَةِ مُجَلَّدَات، وَفِيْهِ فَوَائِدُ جَمَّة،

وَأَلَّف ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ كِتَاباً فِي الْعِلَلِ، مُجَلد كَبِيْر.

قَالَ: وَالثَّانِي كِتَابُ (المُؤْتَلِفِ وَالمُخْتَلِفِ)،

وَأَحْسَنُ مَا وَضَعَ فِيْهِ (الإِكْمَال لِلأَمِيْرِ ابْنِ مَاكُوْلا،

---

(٩٩٩) «تاريخ ابن خلدون» (٧/ ٦٨٣).

وَكِتَاب وَفيَات المَشَايِخ، وَلَيْسَ فِيْهِ كِتَاب - يُرِيْدُ: لَمْ يُعملْ فِيْهِ كِتَاب عَامٌّ

قَالَ الحُمَيْدِيُّ: وَقَدْ كُنْتُ أَردتُ أَنْ أَجْمَع فِيْهِ كِتَاباً، فَقَالَ لِي الأَمِيْرُ: رتّبه عَلَى حُرُوف المُعْجَم بَعْدَ أَنْ تُرَتّبَه عَلَى السِّنِيْنَ.

قُلْتُ: قَدْ جَمع الحَافِظُ أَبُو يَعْقُوْبَ القَرَّاب فِي ذَلِكَ كِتَاباً ضَخْماً، وَلَمْ يَسْتَوعِبْ، وَلَا قَارب، وَجَمَعَ فِي ذَلِكَ أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَنْده الأَصْبَهَانِيّ كِتَاباً كَبِيْراً منثوراً، وَعَلَى مَا أَشَارَ بِهِ الأَمِيْرُ أَبُو نَصْرٍ عملتُ أَنَا (تَارِيخ الإِسْلَام) ، وَهُوَ كَاف فِي مَعْنَاهُ - فِيمَا أَحسبُ - وَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي تَوَارِيخُ كَثِيْرَة مِمَّا قَدْ سَمِعْتُ بِهَا بِالعِرَاقِ، وَبِالمَغْرِب وبرَصَد مَرَاغَة، فَفَاتَنِي جُمْلَةً وَافرَةً. (١٠٠٠)

أو المواقف التي يثمر عنها نبأكما هو شأن جماعة من العلماء منهم:

ياقوت الحموي:

قال: «وكان من أَول البواعث لجمع هذا الكتاب، أَنني سُئلتُ بَمرْو الشاهجان، في سنة خمس عشرة وستمائة، في مجلس شيخنا الإِمام السعيد الشهيد فخر الدين أَبي المظفّر عبد الرحيم ابن الإِمام الحافظ تاج الإِسلام أَبي سعد عبد الكريم السَّمْعاني، تَغَمَّدَهما الله برحمته ورضوانه، وقد فُعِل الدعاء إِن شاءَ الله، عن حُباشَةَ اسم موضع جاءَ في الحديث النبويّ، وهو سوقٌ من أَسواق العرب في الجاهلية. فقلت: أَرى أَنه حُباشَةُ بضم الحاء، قياساً على أَصل هذه اللفظة في اللغة، لأَنّ الحُباشَةَ: الجماعة من الناس من قبائل شتى، وحبَشْتُ له حُباشَةً أَي جَمعت له شيئاً. فانبرى لي رجلُ من

(١٠٠٠) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٩/ ١٢٤).

المحدّثين، وقال: انما هو حَباشةُ بالفتح. وصَمَّمَ على ذلك وكابَرَ، وجاهَرَ بالعِنادِ من غير حُجّة وناظَرَ، فأَردْتُ قطعَ الاحتجاج بالنّقْل، إذ لا مُعَوَّل في مثل هذا على اشتقاق ولا عَقْل، فاستعصى كَشْفُه في كتب غرائب الأَحاديث، ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بِمَرْوَ يومئذ، وكثرة وجودها في الوقوف، وسهولة تناولها، فلم أَظْفَر به إلا بعد انقضاء ذلك الشَّغَب والمِراء، ويأْسٍ من وجوده بَحْث واقتراء، فكان موافقاً والحمد لله لما قُلْتُه، ومَكيلًا بالصاع الذي كِلتُه، فأُلقِي حينئذ في رُوعي افتقارُ العالم إلى كتاب في هذا الشأْن مضبوطاً، وبالإتقان وتصحيح الأَلفاظ بالتَّقييد مخطوطاً، ليكون في مثل هذه الظُّلْمة هادياً، وإلى ضَوءِ الصواب داعياً، ونُبِّهتُ على هذه الفضيلة النبيلة، وشُرِحَ صدري لنيل هذه المنقَبَة التي غفل عنها الأَولون، ولم يَهْتَدِ لها الغابرون. يقول من تَقْرَعُ اسماعَهُ: كم تَركَ الأَول للآخر. وما أَحسن ما قال أَبو عثمان: ليس على العلم أَضرُّ من قولهم: لم يَتْرُك الأَول للآخر شيئاً، فإنه يُفْتِرُ الهمة، ويُضْعِفُ المُنَّةَ، أَو نحو هذا القول» (١٠٠١)

أو السير على سنن العلماء كما فعل جماعة منهم:

لسان الدين ابن الخطيب:

فقد ذكر السبب الذي دعاه إلى كتابته فقال: "فتذكرت جملة من موضوعات من أفرد لوطنه تاريخاً هزّ إليها- علم الله- وفاء وكرم،

ودار عليها بقول الله من رحمته الواسعة حرم

(١٠٠١) «معجم البلدان» (١/ ١٠).

تاريخ مدينة بخارى لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الفخار.

وتاريخ أصبهان لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ صاحب الحلية.

وتاريخ أصبهان أيضا لأبي زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن قندة الحافظ.

وتاريخ نيسابور للحاكم أبي عبد الله بن البيع، وذيله لعبد الغافر بن إسماعيل.

وتاريخ همذان لأبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه محمد بن فنا خسرو الديلمي.

وتاريخ طبقات أهل شيراز لأبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن القصار.

وتاريخ هراة، أظنه لأبي عبد الله الحسن بن محمد الكتبي.

وأخبار هراة أيضا ومن نزلها من التابعين وغيرهم من المحدّثين لأبي إسحاق أحمد بن ياسين الحداد. وتاريخ سمرقند لعبد الرحمن بن محمد الأردسي.

وتاريخ نسف لجعفر بن المعبر المستغفري.

وتاريخ جرجان لأبي القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي.

وتاريخ الرّقّة لأبي علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري.

وتاريخ بغداد للخطيب أبي بكر بن ثابت،

وذيله لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني.

وأخبار بغداد لأحمد بن أبي طاهر.

وتاريخ واسط لأبي الحسين علي بن الطيب الخلافي.

وتاريخ من نزل حمص من الصحابة ومن دخلها، ومن ارتحل عنها، ومن أعقب، ولم يعقّب، وحدّث ولم يحدّث، لأبي القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضي.

وتاريخ دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر.

وتاريخ مكة للأزرقي.

وتاريخ المدينة لابن النجّار.

وتاريخ مصر لعبد الرحمن بن أحمد بن نواس.

وتاريخ الإسكندرية لوجيه الدين أبي المظفر منصور بن سليمان بن منصور بن سليم الشافعي.

وتاريخ طبقات فقهاء تونس لأبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبي العبّاس بن خلف التميمي.

وعنوان الدّراية في ذكر من كان في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس بن الغبريني.

وتاريخ تلمسان لابن الأصفر، وتاريخها أيضا لابن هديّة.

وتاريخ فاس لابن عبد الكريم، وتاريخها أيضا لابن أبي زرع.

وتاريخ فاس أيضا للقونجي،

وتاريخ سبتة، المسمّى بالفنون السّتّة، لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض، تركه في مسوّدته. وتاريخ بلنسية لابن علقمة.

وتاريخ إلبيرة لأبي القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي الملّاحي.

وتاريخ شقورة لابن إدريس.

وتاريخ مالقة لأبي عبد الله بن عسكر، تركه غير متمّم، فتمّمه بعد وفاته ابن أخيه أبو بكر خمسين. والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة، لأبي العباس أصبغ بن العباس.

والاحتفال في أعلام الرجال، لأبي بكر الحسن بن محمد بن مفرّج القيسي.

وتاريخ قرطبة،

ومنتخب كتاب الاحتفال،

وتاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطليطلة، لأبي جعفر بن مظاهر،

ومنتخبه لأبي القاسم بن بشكوال.

وتاريخ فقهاء قرطبة لابن حيّان.

وتاريخ الجزيرة الخضراء لابن خمسين.

وتاريخ قلعة يحصب، المسمّى بالطالع السّعيد، لأبي الحسن بن سعيد. وتاريخ بقيرة، لأبي عبد الله بن المؤذن.

والدّرّة المكنونة في أخبار أشبونة، لأبي بكر بن محمد بن إدريس الفرابي العالوسي.

ومزيّة ألمريّة لأبي جعفر أحمد بن خاتمة، من أصحابنا.

وتاريخ ألمرية وباجة، لشيخنا نسيج وحده أبي البركات بن الحاج، متّع الله بإفادته، وهو في مبيّضته، لم يرمها بعد.

فداخلتني عصبيّة لا تقدح في دين ولا منصب، وحميّة لا يذمّ في مثلها متعصّب، رغبة أن يقع سؤالهم وذكرهم من فضل الله جناب مخصب، ورأيت أن هذه الحضرة التي لا خفاء بما وفّر الله من أسباب إيثارها، وأراده من جلال مقدارها، جعلها ثغر الإسلام ومتبوّأ العرب الأعلام، قبيل رسوله، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وما خصّها به من اعتدال الأقطار، وجريان الأنهار، وانفساح الاعتمار، والتفاف الأشجار. نزلها العرب الكرام عند دخولهم مختطّين ومقتطعين، وهبّوا بدعوة فضلها مهطعين، فعمروا وأولدوا، وأثبتوا المفاخر وخلّدوا، إلى أن صارت دار ملك، ولبّة سلك، فنبه المقدار وإن كان نبيها، وازدادت الخطّة ترفيعا، وجلب إلى سوق الملإ بما نفق فيها. فكم ضمّت جدرانها من رئيس يتّقي الصباح هجومه، ويتخوّف اللّيل

طروقه ووجومه، ويفتقر الغيث لنوافله الممنوحة وسجومه، وعالم يبرز للفنون فيطيعه عاصيها، ويدعو بالمشكلات فيأخذ بنواصيها، وعالم بالله قد وسم السجود جبينه، وأشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّ يمينه، وبليغ قد أذعنت لبراعة خطّه وشيجة الخط، يغوص على درر البدائع، فيلقيها من طرسه الرائع على الشّط، لم يقم بحقها ممتعض حقّ الامتعاض، ولا فرّق بين جواهرها وبين الأغراض. هذا وسمر الأقلام مشرعة، ومكان القول والحمد لله ذو سعة، فهي الحسناء التي عدمت الذّام، وزيّنت الليالي والأيام. والهوى إن قيل كلفت بمغانيها، وقصرت الأيام على معانيها، فعاشق الجمال عذره مقبول، ولله درّ أبي الطيب حيث يقول:

ضروب الناس عشّاق ضروبا فأعذرهم أشفّهم حبيبا

فلست ببدع ممّن فتن بحب وطن، ولا بأول ما شاقه منزل فألقى بالعطن، فحبّ الوطن معجون بطينة ساكنه، وطرفه مغرى بإتمام محاسنه، وقد نبّه علي بن العباس على السّبب، وجاء في التماس التّعليل بالعجب، حيث يقول:

وحبّب أوطان الرجال إليهم مآرب قضّاها الشّباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم عهود الصّبا فيها فحنّوا لذلكا

ورميت في هذا المعنى بسهم سديد، وألمحت بغرض إن لم يكنه فليس ببعيد:

أحبّك يا مغنى الجلال بواجب وأقطع في أوصافك الغرّ أوقات
تقسّم منك التّرب قومي وجيرتي ففي الظّهر أحياء وفي البطن أموات

وقد كان أبو القاسم الغافقي من أهل غرناطة، قام من هذا الغرض بفرض، وأتى من كله ببعض، فلم يشف من غلّة، ولا سدّ خلّة، ولا كثّر قلّة، فقمت بهذا الوظيف، وانتدبت فيه للتأليف، ورجوت على نزارة حظّ الصّحة، وازدحام

الشواغل الملحّة، أن أضطلع من هذا القصد بالعبء الذي طالما طأطأت له الأكتاد، وأقف منه الموقف الذي تهيّبته الأبطال الأنجاد، فاتخذت الليل جملا لهذه الطّيّة، وانتضيت غارب العزم ونعمت المطيّة، بحيث لا مؤانس إلّا ذبال يكافح جيش الدّجى، ودفاتر تلفح الحجا، وخواطر تبتغي إلى سماء الإجادة معرجا؛ وإذا صحب العمل صدق النّيّة، أشرقت من التّوفيق كلّ ثنيّة، وطلعت من السّداد كلّ غرّة سنيّة، وقد علم الله أني لم أعتمد منها دنيا أستمنحها، ولا نسمة جاه يستنشق ريحها؛ وإنما هو صبح تبيّن، وحقّ رأيته عليّ قد تعيّن، بذلت فيه جهدي، وأقطعته جانب سهدي، لينظم هذا البلد بمثله، مما أثير كامنه، وسطّرت محاسنه، وأنشر بعد الممات جانبه

وما شرّ الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا

فلم أدع واحدة إلّا استنجدتها، ولا حاشية إلّا احتشدتها، ولا ضالّة إلّا نشدتها؛ والمجتهد في هذا الغرض مقصّر، والمطيل مختصر، إذ ما ذكر لا نسبة بينه وبين ما أغفل، وما جهل أكثر مما نقل، وبحار المدارك مسجورة، وغايات الإحسان على الإنسان محجورة؛ ومن أراد أن يوازن هذا الكتاب بغيره من الأوضاع فليتأمّل قصده، ويثير كامنه، ويبدي خبائئه، تتّضح له المكرمة، ولا تخفى عليه النّصفة، ويشاهد مجزي السّيّئة بالحسنة، والإغراب عن الوصمة والظّنّة، إذ الفاضل في عالم الإنسان، من عددت سقطاته، فما ظنّك بمفضوله. وللمعاصر مزية المباشرة، ومزيد الخبرة، وداعي التشفّي والمقارضة؛ وسع الجميع السّتر، وشملهم البرّ، ونشرت جنائزهم لسقي الرحمة، ومثني الشفاعة، إلّا ما شذّ من فاسق أباح الشرع حماه، أو غادر وسمه الشؤم الذي جناه، فتختلّ عرضه عن تخليد مجد، وتدوين فخر، وإبقاء ذكر، لمن لم

يهمّه قطّ تحقيق اسم أبيه، ولم يعمل لما بعد يومه، فكم خلف مما ذكر فيه يجده بين يديه، شفيعا في زلّة، أو آخذا بضبع إلى رتبة، أو قائما عند ضيم بحجّة، أو عانس يقوم لها مقام متاع ونحلة، أو غريب يحلّ بغير قطره فيفيده نحلة، صاعد خدم قاعدا ونائما. وقد رضينا بالسلامة عن الشكر، والإصغاء عن المثوبة، والنّصفة عوض الحسرة، إذ الناس على حسب ما سطّر ورسم، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم" (١٠٠٢)

أو من باب الشكر

قال أبو العبّاس أحمد بن محمّد المكناسى الشّهير بابن القاضى في سبب تأليف كتاب «درة الحجال فى أسماء الرجال»:

فقد قصدت بهذا التأليف خدمة الإمامة الهاشمية، والخزانة العلمية المنصورية: خزانة الملك الأعظم: والهمام الأفخم بحبوحة المجد الباذخ، وتاج ملوك العالم ذى الشرف الشامخ، الملك الأسعد الأصعد: أمير المؤمنين مولانا أبى العباس المنصور أحمد الشريف الحسنى خلّد الله ملكه، وجمع شمله؛ ليكون شكرا لما أسدى من نعمته، واقرارا بعشر عشر أياديه إذ من لم يشكر الناس لم يشكر الله؛

لأنه أخرجنى من أسرى، وخفف عنى إصرى، عامله الله تعالى بالحسنى. وأنزله بالمقام الأسنى» (١٠٠٣)

(١٠٠٢) «الإحاطة في أخبار غرناطة» (١/ ٥).

(١٠٠٣) «درة الحجال فى أسماء الرجال» (١/ ٤).

وقال ابن القاضي (ت١٠٢٥هـ) عن سبب تأليف كتاب «جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس»

وهو تأريخ لمدينة فاس فقال:

" فلما خفف الله تعالى إصرى، وفك من ربقة العدو الكافر-دمره الله تعالى- أسرى، على يد الإمام المعظم، والملك الأفخم إمام المسلمين، وناصر الملة المحمدية والدين. من لا زال فى مفرق الدهر تاجا، وبتحية الملك على مر الليالى مناجا.. وهو الأسد الهصور. والهمام المشهور، الشريف الحسنى مولانا: أبو العباس المنصور-خلد الله بملكه ذكره، وأعز يمنه ونصره وكنت جمعت لإيالته الكريمة تآليف تنوب عن شكرى لأياديه ونعمته، ولتكون كالإقرار بمنته، كالمنتقى المقصور، على مآثر الخليفة أبى العباس المنصور، و «درة الحجال، فى أسماء الرجال»

و «درة السلوك، فيمن حوى الملك من الملوك»

و «لقط الفرائد، من حقائق الفوائد»

فأردت إنشاء هذا أيضا، تجديدا لشكره اللازم، ولأستدرك به ما فات من بعض الواجب اللازم، فوضعته وسميته

«جذوة الاقتباس، فيمن حل من الأعلام مدينة فاس» (١٠٠٤)

(١٠٠٤) «جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس» (ص٩-١٠).

أو استشارً لرؤيا صالحة رآها أو رئيت له:

رؤيا الألوسي:

قال الألوسي:

«رأيت في بعض ليالي الجمعة من رجب الأصم سنة الألف والمائتين والاثنتين والخمسين بعد هجرة النبي ﷺ رؤية لا أعدها أضغاث أحلام ولا أحسبها خيالات أوهام أن الله جل شأنه وعظم سلطانه أمرني بطي السماوات والأرض، ورتق فتقهما على الطول والعرض فرفعت يدا إلى السماء وخفضت الأخرى إلى مستقر الماء ثم انتبهت من نومتي، وأنا مستعظم رؤيتي، فجعلت أفتش لها عن تعبير فرأيت في بعض الكتب أنها إشارة إلى تأليف تفسير.

فرددت حينئذ على النفس تعللها القديم وشرعت مستعينا بالله تعالى العظيم، وكأني إن شاء الله تعالى عن قريب عند إتمامه بعون عالم سري ونجواي أنادي وأقول غير مبال بتشنيع جهول: هذا تأويل رؤياي» (١٠٠٥)

(١٠٠٥) «روح المعاني» (١/ ٥).

أو حرصاً منه لآخر كولده:

ذكر حاجي خليفة:

أن أبا الحجاج: يوسف بن محمد البلوي، الأندلسي، المعروف: بابن الشيخ.

ألف كتابه "ألف با " لولده. فقال: وهو مجلد ضخم.

ذكر فيه: أنه جمع فوائد (بدائع العلوم)، لابنه: عبد الرحيم، ليقرأه بعد موته، إذ لم يلحق بعد لصغره إلى درجة النبلاء.

وسمى ما جمعه لهذا الطفل المربا بكتاب: (ألف با).

ومن نظمه في أوله:

هذا كتاب ألـــف با صنفتـــــه يا ألبا
من أجل نجلي المرجى إذا شـــدا أن يلبى
أدعو لعلم ومن حقـ ـق من دعـا أن يلبى
وأنت عبد الرحيم ابـ ـني الطفل الصغير المربى
إذا عقلت فقـــل قد رضيـــــت بالله ربًّا
ودين الإسلام دينا وبالنبي المنـــــــبا
محمد قل رســـولا وقل: نبـــــيا محبا
ثم استقم واتبـــعه تزدد من الله قـــــربا
وذا الكتاب اتخذه لداء جهـــــــلك طبا
فإنه صنـــع امرئ طب لمن حـــــب طبا
هذي وصاة أب لم يزل لشخصـــــك صبًّا

ثم ذكر: تسعة وعشرين بيتا، على عدد الحروف المعجمة.

وشرحه: كلمة، كلمة، مع مقلوبه، ومعكوسه.

وأورد: في أول الشعر، ثمانية أبواب، وفي آخرها: أربعا من الكلمات المزدوجات، المتشابهات الحروف. وهو: تأليف غريب، لكن فيه فوائد كثيرة» (١٠٠٦)

وقال ابن الجوزي:

«أما بعد، فإني لما عرفت شرف النكاح، وفضل الأولاد، ختمت ختمة، وسألت الله تعالى أن يرزقني عشرة أولاد، فرزقنيهم، فكانوا: خمسة ذكور، وخمس إناث، فمات من الإناث اثنتان، ومن الذكور أربعة، فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم، فسألت الله تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح، وأن يبلغ به المنى والمناجثم رأيت منه نوع توان عن الجهد في طلب العلم، فكتبت له هذه الرسالة، أحثه بها، وأحركه على سلوك طريقي في كسب العلم، وأدله على الالتجاء إلى الموفق سبحانه وتعالى، مع علمي بأنه لا خاذل لمن وفق، ولا مرشد لمن أضل؛ لكن قد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ (١٠٠٧) وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ (١٠٠٨) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (١٠٠٩)

(١٠٠٦) «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (١/ ١٥٠).

(١٠٠٧) [العصر: ٣].

(١٠٠٧) [الأعلى: ٩].

(١٠٠٩) «صيد الخاطر» (ص٤٩٩).

وذكر حاجي خليفة:

أن السراج بن الملقن ألف «التذكرة، في الفروع، على مذهب الشافعي لولده.

ورتبها على: فصول.

أولها: (الحمد لله على توالي الإنعام ... الخ)» (١٠١٠)

ذكر حاجي خليفة:

أن تقي الدين بن عبد القادر التميمي، المصري.

المتوفى: سنة ١٠٠٥، خمس وألف.

ألف: «السيف البراق، في عنق الولد العاق"

لما كان ولده الحسن عاقا له.

ومنها: البيت: حسن نونه مقدمة لعن الله من يؤخرها» (١٠١١)

وقال الخطيب في ترجمة مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُخَلَّدٍ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْجَوْهَرِيُّ كَانَ أَحَدَ أَصْحَابِ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ، وَقَدْ رَوَى عَنِ الْكُدَيْمِيِّ وَغَيْرِهِ، وَقَدِ اتَّفَقَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ جَلَسَ يَكْتُبُ الْحَدِيثَ، فَجَاءَتْ أُمُّهَا، فَأَخَذَتِ الدَّوَاةَ، فَرَمَتْ بِهَا وَقَالَتْ: هَذِهِ أَضَرُّ عَلَى ابْنَتِي مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ ضَرَّةٍ" (١٠١٢)

(١٠١٠) «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (١/ ٣٩٢).

(١٠١١) «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (٢/ ١٠١٧).

(١٠١٢) «تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية» (١/ ٣٣٧).

وقال ابن رجب في ترجمة العلامة أبي البقاء عبد الله بن الحسين العُكْبَري ت (٦١٦) عن ابن النجار قولَه:

"قرأت عَلَيْهِ كثيرا من مصنفاته، وصحبته مدة طويلة، وَكَانَ ثقة متدينا، حسن الأخلاق متواضعا، كثير المحفوظ. وَكَانَ محبا للاشتغال والإشغال، ليلًا ونهارا، مَا يمضي عَلَيْهِ ساعة إلا وواحد يقرأ عَلَيْهِ، أَوْ يطالع لَهُ، حَتَّى ذكر لي: إنه بالليل تقرأ لَهُ زوجته فِي كتب الأدب وغيرها" (١٠١٣)

وقال الذهبي في ترجمة ابن رشد الحَفِيْد:

«قَالَ الأَبَّار: لَمْ يَنشَأْ بِالأَنْدَلُسِ مِثْله كَمَالاً وَعلماً وَفضلاً، وَكَانَ مُتَوَاضِعاً، مُنْخَفض الجنَاح، يُقَالُ عَنْهُ: إِنَّهُ مَا ترك الاشتغَال مُذْ عَقَلَ سِوَى لَيْلَتَيْنِ: لَيْلَة مَوْت أَبِيْهِ، وَلَيلَة عرْسه، وَإِنَّهُ سوّد فِي مَا ألّف وَقيّد نَحْواً مِنْ عَشْرَة آلاف وَرقَة، وَمَال إِلَى علُوْم الحكَماء، فَكَانَتْ لَهُ فِيهَا الإِمَامَة، وَكَانَ يُفزَع إِلَى فُتْيَاهُ فِي الطِّبّ، كَمَا يُفزَع إِلَى فُتيَاهُ فِي الفِقْه، مَعَ وَفور العَرَبِيَّة، وَقِيْلَ: كَانَ يَحفظ دِيْوَان أَبِي تَمَّام، وَالمتنبِي".

وَلَهُ مِنَ التَّصَانِيْف: (بدَايَة المُجْتَهِد) فِي الفِقْه،

وَ (الكُلِّيَّات) فِي الطِّبّ،

وَ (مُخْتَصَر المُسْتصفَى) فِي الأُصُوْل، وَمُؤلَّف فِي العَرَبِيَّة. وَوَلِيَ قَضَاءَ قُرْطُبَة، فَحُمِدَت سيرَته» (١٠١٤)

(١٠١٣) «ذيل طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٣١ ت العثيمين).

(١٠١٤) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٢١/ ٣٠٨).

وقال القفطي في ترجمة حمزة بن الحسن الأصبهانيّ:

المؤدّب الفاضل الكامل، المصنف المطلع، الكثير الروايات. كان عالماً فى كل فنّ، وصنّف فى ذلك، وتصانيفه فى الأدب جميلة، وفوائده الغامضة جمة، وله كتاب الموازنة بين العربى والعجمىّ؛ وهو كتاب جليل، دلّ على اطلاعه على اللغة وأصولها، لم يأت أحد بمثله، صنّفه للملك عضد الدولة فنّاخسرو بن بوية، وكان ينسب إلى الشّعوبية، وأنه يتعصّب على الأمة العربية وله كتاب تاريخ أصبهان، وهو من الكتب المفيدة العجيبة الوضع، الكثيرة الغرائب. ولكثرة تصانيفه وخوضه فى كل نوع من أنواع العلم سماه جهلة أصبهان «بائع الهذيان». وما الأمر والله كما قالوا، ومن جهل شيئا عاداه" (١٠١٥)

وكان كثير من العلماء إذا انتهى من كتاب أولم له شكراً لله تعالى ومن هؤلاء:

وقال السخاوى عن الحافظ ابن حجر العسقلاني:

«وَلما تمَّ شرح البخاري تصنيفاً و ومقابلةً ومباحثةً عمل شيخنا مؤلفه رحمه الله وَلِيمَة عَظِيمَة بِالْمَكَانِ الَّذِي بناه الْمُؤَيد خَارج الْقَاهِرَة بين كوم الريش ومنية الشَّيرج، ويُسمَّى بالتبن والسبع وجوه- في يوم السبت ثامن شعبان سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة وقرىء الْمجْلس الْأَخير منه هُنَاك وَجلسَ شيخُنا المصنف مع القارىء على الكرسي وَكَانَ يَوْمًا مشهوداً لم يعْهَد أهل الْعَصْر مثله بِحضر من الْعلمَاء والقضاة والرؤساء والفضلاء وغيرهم ممَّن لا يحصيهم إِلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ ...وَقَالَ الشُّعَرَاء في

(١٠١٥) «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٣٧٠).

ذَلِك فَأَكْثرُوا ...وَفرق عَلَيْهِم -بل على مَنْ كان ملازم الكتابة فيه عنه- الذَّهَب وغير ذلك، ودفع رحمه الله لأصحاب البرسيم المزدَرَع هناك عِوَضًا عمَّا أتلفه دوابُّهم مالًا حتى لا يتضرَّر أحد بذلك وَكَانَ المصروف فِي الْوَلِيمَة الْمَذْكُورَة نَحْو خَمْسمِائَة دِينَار ولم يترك مِنْ أنواع المآكل والمشارب والفواكه والحلوى وما أشبه ذلك شيئًا، فكان شيئًا عجبًا" (١٠١٦)

وقال صديق حسن خان:

«قلت: ولما وقفتُ على هذه الحكاية، عملتُ وليمةً عظيمة على تفسيري "فتح البيان في مقاصد القرآن" عند ما ختم - طبعه بمصر - بهو بال المحمية، وجمعتُ علماء البلد وطلبته، وحضرتِ الرئيسةُ المعظمة تاج الهند صاحبةُ القران الثاني "نواب شاهجهان بيكم" - أنعم الله عليها، وأكرم فيها - بنفسِها الكريمة الفياضة، وفرقت على الجماعة الحاضرة مبالغ من الفضة كثيرة، وكان جملة المصروف في أمر هذا التفسير خمسًا وعشرين ألف ربية، ولله الحمد، فكانت تلك الوليمة على شرح الحديث، وهذه على تفسير الكتاب العزيز، وإنما عملتُ هذا كلَّه تشبُّهًا بالأئمة الكبار، وقدوةً بأهل الحديث الأبرار.

وتَشَبَّهوا إنْ لم تكونوا مثلَهم إن التشبُّهَ بالكرامِ فَلاحُ» (١٠١٧)

(١٠١٦) «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» (٢/ ٧٠٤).

(١٠١٧) «التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول» (ص٣٥٦).

وقال الجبرتي في ترجمة مرتضى الزبيدي:

«وشرع في شرح القاموس حتى أتمه في عدة سنين في نحو أربعة عشر مجلداً وسماه تاج العروس ولما أكمله أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم وأشياخ الوقت بغيط المعدية وذلك في سنة احدى وثمانين ومائة وألف وأطلعهم عليه وأغتبطوا به وشهدوا بفضله وسعة اطلاعه ورسوخه في علم اللغة وكتبوا عليه تقاريظهم نثراً ونظماً» (١٠١٨)

وقد استغرقوا أكثر أعمارهم في هذه التصانيف

وقال ابن خلكان في ترجمة أبي الفرج الأصبهاني:

«وله المصنفات المستملحة منها: كتاب " الأغاني " الذي وقع الاتفاق على أنه لم يعمل في بابه مثله، يقال إنه جمعه في خمسين سنة، وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه.

وحكي عن الصاحب بن عباد:

أنه كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلما وصل إليه كتاب " الأغاني " لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه، استغناءً به عنها» (١٠١٩)

(١٠١٨) «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» (٢/ ١٠٥).

(١٠١٩) «وفيات الأعيان» (٣/ ٣٠٧).

وقال ابن عاشور:

«وَكَانَ تَمَامُ هَذَا التَّفْسِيرِ عَصْرَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ عَامَ ثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَأَلْفٍ. فَكَانَتْ مُدَّةُ تَأْلِيفِهِ تِسْعًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ» (١٠٢٠)

وربما نفذ قطار العمر قبل إتمامه

وقال ابن الملقن:

لإسماعيل بن محمد بن عبد الهادي بن عبد الغني، العجلوني شرح على "الصحيح" قال عنه تلميذه الشهاب أحمد العطاء: شرحه شرحًا يرحل إليه، جعله خلاصة الشروح السابقة، وأطال فيه من الفوائد والنكات والأحكام، سماه "الفيض الجاري"، وصل فيه إلى كتاب التفسير، واخترمته المنية قبل كماله» (١٠٢١)

وقال ابن فرحون في ترجمة محمد بن إبراهيم بن عبدوس:

وقال ابن حارث: كان حافظاً لمذهب مالك والرواة من أصحابه إماماً مبرزاً فقيهاً في ذلك خاصة عزيز الاستنباط جيد القريحة ناسكاً عابداً متواضعاً مستجاب الدعوة وكان نظيراً لمحمد بن المواز وألف كتاباً شريفاً سماه: المجموعة على مذهب مالك وأصحابه أعجلته المنية قبل تمامه" (١٠٢٢)

(١٠٢٠) «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣٦).

(١٠٢١) «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (١/ ١٨١).

(١٠٢٢) «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» (٢/ ١٧٤).

وقال محققوا المسند:

«العلامةُ الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله -، فقام بنشر الكتاب محققاً، إلا أنَّه لم يُتِمَّهُ، إذ اخترَمَتْه المنيةُ قبل إتمامه، ونشرتُه لا تمثل إلا رُبْعَ الكتاب» (١٠٢٣)

وشرح العلامةُ الشيخ محمَّد بن موسى بن عيسى بن علي أبو البقاء الدَّمِيريُّ الأصلِ القاهريُّ الشافعي المتوفى سنة (٨٠٨ هـ)

"سنن ابن ماجه" في خمس مجلدات، ومات قبل إتمامه، وسماه "الديباجة في شرح سنن ابن ماجه"، قال الشيخ محمَّد عبد الرشيد النعماني: رأيت منه نسخة مخطوطة في خزانة محمَّد آباد طونك من أعمال راجبوتانه بالهند تحت رقم (٣٣٢)»

وقال الطرهوني:

عن الشيخ الشنقيطي صاحب "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن":

" قد توفي قبل إتمامه وصل فيه إلى نهاية سورة المجادلة فأتمه من بعده تلميذه الشيخ عطية محمد سالم» (١٠٢٤)

(١٠٢٣) «مسند أحمد» (١/ ٣٦ ط الرسالة).

(١٠٢٤) «التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا» (١/ ٣٤٠).

ومن مناظرات أهل الحديث

«اجتمع أبو عثمان: سعيد بن الحداد بأبي عبد الله الشيعي في مجلس المناظرة -قال له «أبو عبد اللهِ الرافضيُّ: "أنتم تفضِّلُونَ على الخمسةِ أصحابِ الكِسَاءِ غَيْرَهم؟

-يعني بأصحابِ الكساءِ: محمَّدًا ﷺ وعليًّا وفاطمةَ، والحسَنَ والحُسَيْنَ رضي الله عنهم، ويعني بغيرِهم: أبا بكرٍ رضي الله عنه

فقال ابنُ الحدَّادِ: أيُّما أفضَلُ؟ خمسةٌ سادِسُهُمْ جبريلُ عليه السلام، أو اثنانِ اللهُ ثالِثُهما؟! فبُهِتَ الرافضيُّ"» (١٠٢٥)

(١٠٢٥) «المغربية في شرح العقيدة القيروانية» (ص٢٥٤).

المبحث الثامن عشر:

الفهم في العلم.

١٨-الورع والفهم في العلم.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: " أَدْرَكْتُ عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ أُرَاهُ قَالَ: فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ مُحَدِّثٌ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْحَدِيثَ، وَلَا مُفْتٍ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفُتْيَا "» (١٠٢٦)

عرف بدر الدين العيني الفهم:

«جودة الذِّهْن، والذهن قُوَّة تقتنص الصُّور والمعاني، وتشمل الإدراكات الْعَقْلِيَّة والحسية» (١٠٢٧)

وقالت الحكماء:

رأس الأدب كلّه حسن الفهم والتفهّم، والإصغاء للمتكلّم» (١٠٢٨)

وبَوّبَ البخاري

«بَابٌ: كَيْفَ يُقْبَضُ الْعِلْمُ»

(١٠٢٦) «الزهد والرقائق - ابن المبارك - ت الأعظمي» (ص١٩).

(١٠٢٧) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (٢/ ٥٢).

(١٠٢٨) «العقد الفريد» (٢/ ٢٦٤).

وقال سفيان بن عيينة:

أول العلم الإستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر» (١٠٢٩)

«وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ انْظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاكْتُبْهُ، فَإِنِّي خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا تَقْبَلْ إِلَّا حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ وَلْتُفْشُوا الْعِلْمَ، وَلْتَجْلِسُوا، حَتَّى يُعَلَّمَ مَنْ لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا» (١٠٣٠)

وعَنْ مَطَرٍ الْوَرَّاقِ:

أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ قَالَ: «هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانُ عَلَيْهِ» قَالَ أَبُو عُمَرَ: «أَمَّا طَلَبُ الْحَدِيثِ عَلَى مَا يَطْلُبُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا الْيَوْمَ دُونَ تَفَقُّهٍ فِيهِ وَلَا تَدَبُّرٍ لِمَعَانِيهِ فَمَكْرُوهٌ عِنْدَ جَمَاعَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ» (١٠٣١)

وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: «صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَمْ أَسْمَعْهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأُتِيَ

(١٠٢٩) «شعب الإيمان» (٢/ ٢٨٩ ت زغلول).
(١٠٣٠) «صحيح البخاري» (١/ ٣١ ط السلطانية).
(١٠٣١) «جامع بيان العلم وفضله» برقم (١٩٤٥).

بِجُمَّارٍ فَقَالَ: إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مَثَلُهَا كَمَثَلِ الْمُسْلِمِ. فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ الْقَوْمِ، فَسَكَتُّ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: هِيَ النَّخْلَةُ» (١٠٣٢)

والفهم صفة محمودة

قال السمعاني:

أبو نصر الكلاباذي الكاتب «من حفاظ الحديث، حسن الفهم والمعرفة» (١٠٣٣)

«عَن يحيى بن حسان مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا حَسَنَ الْفَهْمِ عَنْ رَبِيعَةِ بْنِ عَامِرٍ» (١٠٣٤)

وقَالَ أَبُو سعد السَّمْعَانِيّ:

"السلَفِي ثِقَة، ورع، مُتَّفق، متثبت، فهم، حَافظ، لَهُ حَظّ من الْعَرَبيَّة، كثير الحَدِيث، حسن الْفَهم والبصيرة "» (١٠٣٥)

(١٠٣٢) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٧٢) ومسلم برقم (٢٨١١).

(١٠٣٣) «الأنساب للسمعاني» (١١/ ١٨٠).

(١٠٣٤) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله» (٣/ ٤٢٧).

(١٠٣٥) «حديث سفيان بن عيينة رواية المروزي» (ص١٥).

ومحمد بن عَبْد الله الفِهْري: من أَهْلِ تُطِيلة. عنى بالعلم وطلبه.
وكان: حافِظاً للمسائل، حسن الفهم، جيد اللقن» (١٠٣٦)

وقال أبو عمر أحمد بن محمد بن مهدي المقرئ في ترجمة مكي بن أبي طالب
«حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل» (١٠٣٧)

وقال أبو يعقوب الخريمي الأعور:
تلقاني سعيد بن وهب مع طلوع الشمس سعيد بن وهب، فقلت: أين تريد؟ قال: أدور على المجالس فلعلي أسمع حديثا حسنا. ثم لم أجاوز بعيدا حتى تلقاني أنس بن أبي شيخ، فقلت له: أين تريد؟ قال: عندي حديث حسن فأنا أطلب له إنسانا حسن الفهم، حسن الإستماع. قال: قلت: حدثني فأنا كذاك. قال: أنت حسن الفهم رديء الإستماع، وما أرى لهذا الحديث إلا اسماعيل بن غزوان» (١٠٣٨)

وقال البزار:
«وَكَانَ حَاتِمُ بْنُ بَكْرٍ حَسَنَ الْعَقْلِ حَسَنَ الْفَهْمِ، فَاحْتُمِلَ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْهُ، وَإِنْ

(١٠٣٦) «تاريخ علماء الأندلس» (٢/ ٦٥).
(١٠٣٧) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس» لابن بشكوال (ص٥٩٧).
(١٠٣٨) «البيان والتبيين» (٣/ ١١١).

كَانَ لَمْ يُتَابِعْهُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا يُحْفَظُ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ شُعْبَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ» (١٠٣٩)

وقال أبو حاتم في سعيد بن سابق الرازي:

«كان حسن الفهم بالفقه وكان محدثا» (١٠٤٠)

وقال المنفلوطي:

«العلم علمان، علم محفوظ وعلم مفهوم، أما العلم المحفوظ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ كلمة، أو تقرأ في الكتاب صفحة، فإن أشكل عليك شيء مما تسمع فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته، نطق الحافظ بتفسير كلماته.

الحافظ يحفظ ما يسمع؛ لأنه قوي الذاكرة، وقوة الذاكرة قدر مشترك بين الذكي والغبي والنابه والأبله؛ لأن الحافظة ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات، وإنك لترى الشيخ الفاني الذي لا يميز بين الطفولة والهرم، والذي يبكي على الحلوى بكاء الطفل عليها، ويرتعد فرقا إذا سمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الشياطين، يسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دونته لكان تاريخا صحيحا ضخما مملوءا بالغرائب والنوادر، وقيل لأحد العلماء إن فلانا حفظ متن البخاري فقال: لقد زادت نسخة في البلد.

(١٠٣٩) «مسند البزار = البحر الزخار» (٤/ ٣٠٨).

(١٠٤٠) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (٤/ ٣٠).

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين؛ لأن من فهم معلوما من المعلومات حق الفهم أشربته روحه، وخالط لحمه ودمه، ووصل من قلبه إلى سويدائه، وكان إحدى غرائزه لا يرى له بدا من العمل به رضي أم أبى.

لولا أن العلم الديني اليوم علم محفوظ لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية والتردد على أبواب الأحياء والأموات في مزاراتهم أو في مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} من يسند النفع والضرر إلى كل من سال لعابه، وتمزق إهابه، ولا وجدت في الناس كثيرا من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة النبوة والحكمة من مدح الفضائل وذم الرذائل، ثم لا تجد فرقا بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات، والنفور من الصالحات. لو كان العلم المحفوظ علما وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة ولا قدسه كاتب أو ترنم بمدحه شاعر، فإذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ، وإذا أردت أن تلقب بالعالم فلا تلقب به من يحفظ بل من يفهم ما يحفظ، وآية فهم المعلوم تأثر العالم به، وظهوره في حركاته وسكناته وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل إليك فربما مر بالمعلوم محرقا فأخذه على علاته، وأقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه، والغث والثمين، والجيد والزائف، فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الأدوية الشافية بالعقاقير السامة.

وجملة الأمر أن الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسأل عن مذهب، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدى به، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله.

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التي إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار إلى المجد بجناحين، وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين، والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور١، ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من نوابغ العلماء منها حلقة، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة، أو كشف حقيقة، أو أصلح هفوة، أو اخترع طريقة، ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهوما لا محفوظا، ولا يكون مفهوما إلا إذا أخلص المتعلم إليه، وتعبد له، وأنس به أنس العاشق بمعشوقه، ولم ينظر إليه نظر التاجر لسلعته، والمحترف إلى حرفته، فالتاجر يجمع من السلع ما ينفق سوقه، لا ما يغلو جوهره، والمحترف لا يهمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء، أحسن أم أساء. لا يزور العلم قلبا مشغولا بترقب المناصب، وحساب الرواتب، وسوق الآمال وراء الأموال، كما لا يزور قلبا مقسما بين تصفيف الطرة، وصقل الغرة، وحسن القوام، وجمال الهندام، وطول الهيام، بالكأسين: كأس المدام، وكأس الغرام» (١٠٤١)

قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ (١٠٤٢)

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (١٠٤٣)

(١٠٤١) «النظرات» (١/ ٢٨٦-٢٨٩).

(١٠٤٢) [الأنبياء: ٧٩].

(١٠٤٣) [النساء: ٨٣].

وروى البخاري من حديث أَبِي بَكْرَةَ أن النَّبِيَّ ﷺ قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ أَوْ بِزِمَامِهِ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟!

فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ. قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى.

قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ.

فَقَالَ: أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى.

قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ» (١٠٤٤)

(١٠٤٤) صحيح: أخرجه البخاري برقم (٦٧).

المبحث التاسع عشر:

المباحثة والمذاكرة.

١٩- المباحثة والمذاكرة.

المباحثة: مفاعلة من البحث وهو الكشف والطلب والتفتيش والسؤال والاستخبار عن الشيء، ويقال: باحثه في الشيء إذا بحث معه فيه، وتباحثا؛ أي: تبادلا البحث.

والمذاكرة: مفاعلةٌ من الذِّكْر، وهو الحفظ للشيء، والذاكرة هي القُدرة على تذكُّر شيءٍ سبَق تعلُّمه، أو سبَق اكتسابُ خبرة فيه

وقد أفرَدَ عددٌ من الأئمَّة بابًا أو أبواباً في مؤلَّفاتهم، منهم: أَبُو بَكْرُ بْنُ أَبِي شَيْبَة في "المصنَّف"، والدارمي في "مسنده"، والرَّامَهُرْمزي في "المحدِّث الفاصل"، وعدَّها أبو عبدِالله الحاكمُ نوعًا من أنواع علومِ الحديث، وأطالَ فيها الخطيبُ البغداديُّ في "الجامع، لأخلاق الراوي وآداب السامع"، فعقَدَ لها بابًا بعنوان: «مذاكرة الحديث مع عامَّة الناس» ، ثم أتبَعَهُ بابًا بعنوان: «المذاكرة مَعَ الأتباعِ والأَصْحَاب» ، ثم بابًا بعنوان: «المذاكرة مَعَ الأقرانِ والأتراب» ، ثم ختمها بباب: «المذاكرة مَعَ الشُّيُوخ وذوي الأسنان» ، وكان قد عقَدَ بابًا قبل ذلك بعنوان: «الكتابة عن المحدِّث في المذاكرة»

وهي من المناهج السَديدة، والطرائقَ الرَشيدة في ضبط الحديث، وحفظ الآثار، فقد كانوا يكتبون الحديث بالنهار، ثم يتذاكرونه بينهم ويقابلونه بالليل، أو بعد الدرس

والأصل في هذا معارضةُ جبريل عليه السلام القرآن مع النبي ﷺ مرة في كل رمضان، ومرتين قبل انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «تَذَاكَرُوا هَذَا الْحَدِيثَ، لَا يَنْفَلِتْ مِنْكُمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِثْلَ الْقُرْآنِ مَجْمُوعٌ مَحْفُوظٌ، وَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَذَاكَرُوا هَذَا الْحَدِيثَ يَنْفَلِتْ مِنْكُمْ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ حَدَّثْتُ أَمْسِ فَلَا أُحَدِّثُ الْيَوْمَ، بَلْ حَدِّثْ أَمْسِ، وَلْتُحَدِّثِ الْيَوْمَ، وَلْتُحَدِّثْ غَدًا» (١٠٤٥)

وقَالَ عَلِيٌّ:

«تَذَاكَرُوا هَذَا الْحَدِيثَ، وَتَزَاوَرُوا، فَإِنَّكُمْ إِنْ لَا تَفْعَلُوا، يَدْرُسْ» (١٠٤٦)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

" تَذَاكَرُوا، فَإِنَّ الْحَدِيثَ يُهَيِّجُ الْحَدِيثَ "» (١٠٤٧)

وقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْأَصْبَهَانِيُّ:

«كُلُّ مَنْ حَفِظَ حَدِيثًا فَلَمْ يُذَاكِرْ بِهِ تَفَلَّتَ مِنْهُ»

وقَالَ: «أَطِيلُوا ذِكْرَ الْحَدِيثِ لَا يَدْرُسُ» (١٠٤٨)

(١٠٤٥) صحيح: أخرجه الدارمي برقم (٦٢٤).

(١٠٤٦) صحيح: أخرجه الدارمي برقم (٦٥٠).

(١٠٤٧) صحيح: أخرجه الدارمي برقم (٦٠٥).

(١٠٤٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣٨).

وقال عَلْقَمَة بْن قَيْسٍ:
تَذَاكَرُوا هَذَا الْحَدِيثَ فَإِنَّ إِحْيَاءَهُ ذِكْرُهُ» (١٠٤٩)

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ:
«تَزَاوَرُوا وَتَدَارَسُوا الْحَدِيثَ وَلَا تَتْرُكُوهُ يَدْرُسُ» (١٠٥٠)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ:
«تَحَدَّثُوا وَتَذَاكَرُوا، فَإِنَّ الْحَدِيثَ يُذَكِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا» (١٠٥١)

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، أَنَّهُ قَالَ:
«إِحْيَاءُ الْحَدِيثِ مُذَاكَرَتُهُ، فَتَذَاكَرُوا»، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ:
«رَحِمَكَ اللَّهُ، كَمْ مِنْ حَدِيثٍ أَحْيَيْتَهُ فِي صَدْرِي قَدْ كَانَ مَاتَ» (١٠٥٢)

(١٠٤٩) «ذم الكلام وأهله» (٧٧٧).
(١٠٥٠) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣٦).
(١٠٥١) السابق (١/ ٢٣٧).
(١٠٥٢) السابق (١/ ٢٣٨).

وقال الخطيب:

«وَإِذَا لَمْ يَجِدِ الطَّالِبُ مَنْ يُذَاكِرُهُ أَدَامَ ذِكْرَ الْحَدِيثِ مَعَ نَفْسِهِ وَكَرَّرَهُ عَلَى قَلْبِهِ» (١٠٥٣)

وقال مُعَاذ بْن مُعَاذ:

" كُنَّا بِبَابِ ابْنِ عَوْنٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا شُعْبَةُ وَقَدْ عَقَدَ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا فَكَلَّمَهُ بَعْضُنَا، فَقَالَ: «لَا تُكَلِّمْنِي فَإِنِّي قَدْ حَفِظْتُ عَنِ ابْنِ عَوْنٍ عَشَرَةَ أَحَادِيثَ أَخَافُ أَنْ أَنْسَاهَا» وَإِذَا رَوَى الْمُحَدِّثُ حَدِيثًا طَوِيلًا فَلَمْ يَقُمِ الطَّالِبُ بِحِفْظِهِ، وَسَأَلَ الْمُحَدِّثَ أَنْ يُمْلِيَهُ عَلَيْهِ أَوْ يُعِيرَهُ كِتَابَهُ لِيَنْقُلَهُ مِنْهُ وَيَحْفَظَهُ بَعْدُ مِنْ نُسْخَتِهِ، فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ (١٠٥٤)

وقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ:

" قُلْتُ لِيَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ: كَانَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ يُمْلِي؟ قَالَ: لَا، كُنَّا نَحْفَظُ عَنْهُ، قَالَ: وَلَكِنَّهُ تَرَكَنِي أَكْتُبُ عِنْدَهُ حَدِيثَيْنِ، قُلْتُ: مَا هُمَا قَالَ: حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ، وَحَدِيثُ عَائِشَةَ الطَّوِيلَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَجِّ "» (١٠٥٥)

(١٠٥٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣٨).

(١٠٥٤) السابق (١/ ٢٣٩).

(١٠٥٥) السابق.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، قَالَ:
«كُنَّا نَكُونُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَسْمَعُ مِنْهُ الْحَدِيثَ، فَإِذَا قُمْنَا تَذَاكَرْنَاهُ فِيمَا بَيْنَنَا حَتَّى نَحْفَظَهُ» (١٠٥٦)

وعَنْ عَطَاءٍ قَالَ:
كُنَّا نَكُونُ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَيُحَدِّثُنَا فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ تَذَاكَرْنَا حَدِيثَهُ فَكَانَ أَبُو الزُّبَيْرِ مِنْ أَحْفَظِنَا لِلْحَدِيثِ (١٠٥٧)

وقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:
«جَزَّأْتُ اللَّيْلَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، ثُلُثًا أُصَلِّي وَثُلُثًا أَنَامُ وَثُلُثًا أَذْكُرُ فِيهِ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (١٠٥٨)

وعَنْ صَدَقَةَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ:
«كَانَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ يُجَزِّئُ اللَّيْلَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ ثُلُثًا يَنَامُ

(١٠٥٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٤٦٤) قلت: وسنده ضعيف لحال يزيد الرقاشي.
(١٠٥٧) «العلم لزهير بن حرب» (٧٩).
(١٠٥٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٦٤).

وَثُلُثًا يُصَلِّي وَثُلُثًا يَذْكُرُ فِيهِ الْحَدِيثَ» (١٠٥٩)

وَقَالَ الرِّيَاشِيُّ: سَمِعْتُ الْأَصْمَعِيَّ، وَقَدْ قِيلَ لَهُ:
" حَفِظْتَ وَنَسِيَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: دَرَسْتُ وَتَرَكُوا "» (١٠٦٠)

وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ:
«كُنْ عَلَى مُدَارَسَةِ مَا فِي صَدْرِكَ أَحْرَصَ مِنْكَ عَلَى مُدَارَسَةِ مَا فِي كُتُبِكَ» (١٠٦١)

وقَالَ الحَاكِمُ:
سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ الدَّارَكِيَّ الفَقِيْهَ يَقُوْلُ: جمعَ الصَّاحبُ إِسْمَاعِيْلُ بنُ عَبَّادٍ حُفَّاظَ بلدِنَا بِأَصْبَهَانَ: العَسَّالَ أَبا أَحْمَد، وَأَبا القَاسِمِ الطَّبَرَانِيَّ، وَأَبا إِسْحَاقَ بنَ حَمْزَةَ، وَغَيْرَهُم، وَحضرتُ، وَكَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَيْهِ ابنَ الجِعَابِيِّ، فَأَخذُوا فِي مذَاكَرَةِ الأَبْوَابِ، ثُمَّ ثنَّوا بذكرِ تراجمِ الشُّيُوْخِ، فَظَهَرَ العجزُ فِي كُلٍّ مِنْهُم عَنْ حفظِ أَبِي إِسْحَاقَ بنِ حَمْزَةَ وَمذَاكرتِهِ" (١٠٦٢)

(١٠٥٩) السابق.
(١٠٦٠) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٢٩).
(١٠٦١) السابق.
(١٠٦٢) «طبقات علماء الحديث» (٣/ ١٠٥).

وقال عبدالله بن وَهْبٍ الدِّينَوَرِيّ:

قَدِمَ علينا محمَّدُ بنُ عبدِاللهِ بنِ المباركِ المُخَرِّميُّ دِينَوَرَ قاضيًا عليها، فمرَّ بي يومًا على حُمَيِّر، ومعي رجلٌ من أصحابِ الحديثِ، ونحن جلوسٌ على دِكَّةٍ نَتذاكرُ في شيءٍ من الحديثِ، فلما رأى المَحْبَرةَ والكتابَ كأنه استأنسَ، فسلَّم، وقال: ما الذي أنتم فيه؟ فقلنا: نتذاكرُ شيئًا من حديثِ إسماعيلَ بنِ أبي خالدٍ، فقال للغلامِ: أمسكْ عليَّ. فنزل وجلسَ إلينا، وذكر نحوَ ثَماني مِئةِ حديثٍ؛ من مقطوعٍ ومسندٍ، من حديثِ إسماعيلَ بنِ أبي خالدٍ، أكثرُها مقاطيعُ» (١٠٦٣)

وقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ:

«قَالَ أَبِي وَقت الْتَقَيْنَا على بَاب بن عُلَيَّةَ إِنَّمَا كُنَّا نَتَذَاكَرُ الْفِقْهَ وَالْأَبْوَابَ لَمْ نَكُنْ تِلْكَ الْأَيَّامَ نَتَذَاكَرُ الْمُسْنَدَ كُنَّا نَتَذَاكَرُ الصِّغَارَ وَأَحَادِيث الْفِقْه والأبواب وَقَالَ أَبِي كَانَ وَقَعَ إِلَيْنَا كِتَابُ الْأَزْرَق عَنْ شَرِيكٍ فَانْتَخَبْتُ مِنْهُ فَوَقَعَ هَذَا الْحَدِيثُ فِيهَا» (١٠٦٤)

وقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ:

قَالَ لِي أَبُو زُرْعَةَ: أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلفَ أَلفِ حَدِيْثٍ.

فَقِيْلَ لَهُ: وَمَا يُدرِيكَ؟

(١٠٦٣) «سؤالات السلمي للدارقطني» (ص٣٠٢).

(١٠٦٤) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله» (٣/ ٤٠).

قَالَ: ذَاكَرْتُهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الأَبْوَابَ" (١٠٦٥)

وقَالَ عَلِيٌّ:

«تَزَاوَرُوا وَتَذَاكَرُوا هَذَا الْحَدِيثَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا يَدْرُسْ عِلْمُكُمْ» (١٠٦٦)

وقَالَ المَرُّوْذِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ يَقُوْلُ:

جَاءنَا نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ وَنَحْنُ عَلَى بَابِ هُشَيْمٍ نَتَذَاكَرُ المُقَطَّعَاتِ، قَالَ: جَمَعتُم حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ قَالَ: فَعُنِينَا بِهَا مَنْ يَوْمَئِذٍ» (١٠٦٧)

وقال حماد ابن زيد:

كنا نخرج من عند أيوب وهشام الدستوائي فيقول لنا هشام: هاتوها قبل أن تبرد، فنقعد فنتذاكرها بيننا» (١٠٦٨)

(١٠٦٥) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله» (٣/ ٤٠).

(١٠٦٦) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٢٣).

(١٠٦٧) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٠/ ٥٩٦).

(١٠٦٨) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (١/ ١٨٢).

وقال يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ أَبُو مُعَاوِيَةَ الْعَائِشِيُّ:

كان يحي بْنُ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ لَا يُمْلِي، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْنَا الْبَصْرَةَ أَتَيْنَاهُ، فَكَانَ لَا يُمْلِي عَلَيْنَا، وَكَانَ يُحَدِّثُ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ قَعَدْنَا على باب الدار فتذاكرنا بيننا ذا عَنْ ذَا وَذَا عَنْ ذَا» (١٠٦٩)

وقال الفسوى حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ أَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رسول الله ﷺ قال:

إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبُغُونَ فَخَالِفُوهُمْ.

قَالَ سُفْيَانُ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ الزُّهْرِيِّ جَلَسَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةَ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ مسلم وَأَشْعَثُ بْنُ سِوَارٍ الْهُذَلِيُّ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ، فَقَالُوا: تَعَالَوْا نَتَذَاكَرْ مَا سَمِعْنَا مِنَ الزُّهْرِيِّ، فَجَلَسُوا وَجَلَسْتُ مَعَهُمْ. فَقَالَ أَيُّوبُ:

بِأَهْلِي أَنْتُمْ مَا سَمِعْتُمُوهُ يَقُولُ أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَدُورُ عَلَى وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ كَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ. ثُمَّ تَذَاكَرُوا مَا سَمِعُوهُ فَذَكَرُوا هَذَا الْحَدِيثَ «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبُغُونَ» فَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ عَنْ سُلَيْمَانَ ابن يَسَارٍ.

فَلَمَّا أَكْثَرُوا قُلْتُ- وَأَنَا صَغِيرٌ-: هُوَ عَنْ كِلَاهُمَا. فَضَجُّوا مِنْ لَحْنِي، ثُمَّ قَالَ إِسْمَاعِيلُ: هُوَ كَمَا قَالَ الصَّغِيرُ أَحْفَظُكُمْ هُوَ عَنْ كِلَاهُمَا.

وَقَالَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَشْعَثُ بْنُ سِوَارٍ: مَا جَاءَ الزُّهْرِيَّ شَيْءٌ إِلَّا قَدْ سَمِعْنَاهُ مِنْ أَصْحَابِنَا بِالْكُوفَةِ. فَمَقَتَهُ الْقَوْمُ حَتَّى اسْتَبَانَ لِي ذَلِكَ، فَمِنْ يَوْمِئِذٍ مَقَتُّهُ فَلَمْ أَرْوِ عَنْهُ

(١٠٦٩) «المعرفة والتاريخ - ت العمري - ط العراق» (٢/ ٨٣٠).

شَيْئًا، وَنَظَرْتُ فِي الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ" (١٠٧٠)

وقال الخطيب:

«أَخْبَرَنِي محمد بن أحمد بن يعقوب، قَالَ: أَخْبَرَنَا محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، قَالَ: سمعت أبا علي الحافظ، يقول: ما رأيت في المشايخ أحفظ من عبدان، ولا رأيت احفظ لحديث أهل الكوفة من أبي العباس بن عقدة، ولا رأيت في أصحابنا أحفظ من أبي بكر ابن الجعابي، وذاك أني حسبت أبا بكر من البغداديين الذين يحفظون شيخا واحدا، أو ترجمة واحدة أو بابا واحدا، فقال لي أبو إسحاق بن حمزة يوما: يا أبا علي لا تغلط في أبي بكر ابن الجعابي، فإنه يحفظ حديثا كثيرا. فخرجنا يوما من عند أبي محمد بن صاعد وهو يسايرني وقد توجهنا إلى طريق بعيد فقلنا له: يا أبا بكر أيش أسند الثوري عن منصور؟ فمر في الترجمة، فقلت له: أيش عند أيوب السختياني عن الحسن؟ فمر فيه، فما زلت أجره من حديث مصر، إلى الشام، إلى العراق، إلى أفراد الخراسانيين، وهو يجيب.

فقلت له: أيش روى الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة وأبي سعيد بالشركة؟ فأخذ يسرد هذه الترجمة حتى ذكر بضعة عشر حديثا، فحيرني حفظه» (١٠٧١)

(١٠٧٠) «المعرفة والتاريخ - ت العمري - ط العراق» (٢/ ٧١٨).

(١٠٧١) «تاريخ بغداد ت بشار» (٤/ ٤٢).

وقَالَ أَبو بَكْرِ بْنَ زَنْجَوَيْهِ:

قَدِمْتُ مِصْرَ فَأَتَيْتُ أَحْمَدَ بْنَ صَالِحٍ، فَسَأَلَنِي: مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ بَغْدَادَ، قَالَ: تَكْتُبُ لِي مَوْضِعَ مَنْزِلِكَ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُوَافِيَ الْعِرَاقَ، حَتَّى تَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، قَالَ: فَقَدِمَ، فَذَهَبْتُ بِهِ إِلَى أَحْمَدَ، فَقَامَ إِلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ وَقَرَّبَهُ، وَقَالَ: بَلَغَنِي أَنَّكَ جَمَعْتَ حَدِيثَ الزُّهْرِيِّ، فَتَعَالَ حَتَّى نَذْكُرَ مَا رَوَى عَنِ الصَّحَابَةِ، فَتَذَاكَرَا، وَلَمْ يُغْرِبْ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخر. ثم تذاكرا ما روي عن أبناء الصَّحَابَةِ، إِلَى أَنْ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: عِنْدَكَ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ محمد بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي حُمُرَ النَّعَمِ وَأَنِّي لَمْ أَشْهَدْ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ.» فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ: أَنْتَ الأُسْتَاذُ وَتَذَكَّرْ مِثْلَ هَذَا؟ فَجَعَلَ أَحْمَدُ يَتَبَسَّمُ وَيَقُولُ: رَوَاهُ عَنْهُ رَجُلٌ مَقْبُولٌ، أَوْ صَالِحٌ، عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ. فَقَالَ: من رواه عنه، قال: حدثناه رَجُلَانِ ثِقَتَانِ: ابْنُ عُلَيَّةَ، وَبِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ. فقال: سألتك بالله إِلَّا مَا أَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ. فَقَالَ: مِنَ الْكِتَابِ، ثُمَّ قَامَ وَأَخْرَجَ الْكِتَابَ وَأَمْلَاهُ. فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ: لَوْ لَمْ أَسْتَفِدْ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَّا هَذَا الْحَدِيثَ كَانَ كَثِيرًا، ثُمَّ وَدَّعَهُ وخرج" (١٠٧٢)

وَسُئِلَ أحمد عَن عمر بن هَارُون الْبَلْخِي.

فَقَالَ: مَا أقدر أَن أتعلق عَلَيْهِ بِشَيْء، كتبت عَنهُ حَدِيثا كثيرا، فَقيل لَهُ: قد كَانَت لَهُ قصَّة مَعَ ابْن مهْدي، قَالَ: بَلغنِي أَن عبد الرَّحْمَن، كَانَ يحمل عَلَيْهِ وَلَا أَدْرِي مَا كَانَت قصَّته؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَر: إِنِّي سَمِعت من يَحْكِي عَن ابْن مهْدي، أَنه قدم

(١٠٧٢) «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ٢٩٧).

عَلَيْهِم عمر بن هَارُون الْبَصْرَة، وَهُوَ شَاب، فذاكره عبد الرَّحْمَن، فَكتب عَنهُ ثَلَاثَة أَحَادِيث مِنْهَا حَدِيث عَن يحيى بن أبي عَمْرو السيباني، عَن عَمْرو بن عبد الله الْحَضْرَمِيّ، عَن عبد الله بن عَمْرو فِي شرب الْعصير.

وَمِنْهَا: عَن عبد الْملك، عَن عَطاء فِي الحفار ينسى الفأس فِي الْقَبْر بعد مَا يفرغ مِنْهُ.

وَحَدِيث آخر، فَلَمَّا كَانَ بعد زمَان قدم عَلَيْهِم الْبَصْرَة، فَأتى رجل عبد الرَّحْمَن، فَقَالَ: إِنَّك كتبت عَن هَذَا شَيْئا؟، فَأعْطَاهُ الرقعة، فَذهب بهَا إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَن حَدِيث يحيى بن أبي عَمْرو، فَقَالَ: لم أسمع من يحيى بن أبي عَمْرو شَيْئا، إِنَّمَا كَانَ هَذَا مني فِي الحداثة.

وَسَأَلَهُ عَن حَدِيث عبد الْملك، فَقَالَ: لم أسمع من عبد الْملك، إِنَّمَا حَدَّثَنِيه فلَان، عَن عبد الْملك، فَأتى ابْن مهْدي، فَأخْبرهُ، فنال مِنْهُ وَتكلم، فَقَالَ أَبُو عبد الله: كَانَ أَكثر مَا يحدثنا عَن ابْن جريج، ويروى عَن الْأَوْزَاعِيّ، قيل لَهُ: فتروي عَنهُ؟ قَالَ: قد كنت رويت عَنهُ شَيْئا» (١٠٧٣)

وقَالَ يُونُسُ:

«كُنَّا نَأْتِي الْحَسَنَ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ، تَذَاكَرْنَا بَيْنَنَا» (١٠٧٤)

(١٠٧٣) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية المروذي وغيره ت وصي الله عباس» (ص٥٤).

(١٠٧٤) صحيح: أخرجه الدارمي برقم (٦٣٢).

وعَنْ عَطَاءٍ، قَالَ:
كُنَّا نَكُونُ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَيُحَدِّثُنَا فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ تَذَاكَرْنَا حَدِيثَهُ. قَالَ: فَكَانَ أَبُو الزُّبَيْرِ أَحْفَظَنَا لِلْحَدِيثِ» (١٠٧٥)

وعَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ، قَالَ:
«رَأَيْتُ أَبَا يَحْيَى الْأَعْرَجَ وَكَانَ عَالِمًا بِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ اجْتَمَعَ هُوَ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ فَتَذَاكَرَا حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ» (١٠٧٦)

وعَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ:
«تَذَاكَرُوا الْحَدِيثَ، فَإِنَّ ذِكْرَهُ حَيَاتُهُ» (١٠٧٧)

وقال أبو مُسْهِر:
سمعتُ سعيد بن عبد العزيز يُعاتب أصحابَ الأوزاعي يقول: ما لكم لا تجتمعون؟! ما لكم لا تُذَاكِرون» (١٠٧٨)

(١٠٧٥) «الطبقات الكبرى ط دار صادر» (٥/ ٤٨١).
(١٠٧٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٣).
(١٠٧٧) صحيح: أخرجه الدارمي برقم (٦٢٧).
(١٠٧٨) «المحدث الفاصل ت أبو زيد» (ص٥٦٩).

وعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ:
" إِحْيَاءُ الْحَدِيثِ مُذَاكَرَتُهُ فَذَاكِرُوهُ، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ كَمْ مِنْ حَدِيثٍ أَحْيَيْتُهُ فِي صَدْرِي قَدْ كَانَ ماتَ» (١٠٧٩)

وهِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ:
«الْقُلُوبُ تُرْبٌ، وَالْعِلْمُ غَرْسُهَا، وَالْمُذَاكَرَةُ مَاؤُهَا، فَإِذَا انْقَطَعَ عَنِ التُّرْبِ مَاؤُهَا جَفَّ غَرْسُهَا» (١٠٨٠)

وعن إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، قَالَ:
«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَحْفَظَ الْحَدِيثَ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ وَلَوْ أَنْ يُحَدِّثَ بِهِ مَنْ لَا يَشْتَهِيهِ، فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ كَالْكِتَابِ فِي صَدْرِهِ» (١٠٨١)

وقَالَ عَلِيّ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ:
«كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ فِي الْمَسْجِدِ فِي لَيْلَةٍ شَتْوِيَّةٍ بَارِدَةٍ فَقُمْنَا لِنَخْرُجَ فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ ذَاكَرَنِي بِحَدِيثٍ أَوْ ذَاكَرْتُهُ بِحَدِيثٍ، فَمَا زَالَ يُذَاكِرُنِي

(١٠٧٩) «العلم لزهير بن حرب» (ص١٩).
(١٠٨٠) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٨).
(١٠٨١) السابق.

وَأُذَاكِرُهُ حَتَّى جَاءَ الْمُؤَذِّنُ فَأَذَّنَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ» (١٠٨٢)

وكان أبو قريش القهستاني ضابطا متقنا حافظا، كثير السماع والرحلة، جمع المسندين على الرجال والأبواب، وصنف حديث الأئمة، مالك، والثوري، وشعبة، ويحيى بن سعيد، وغيرهم وكان يذاكر بحديثهم حفاظ عصره فغلبهم» (١٠٨٣)

وقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ:
«تَذَاكَرَ وَكِيعٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ لَيْلَةً فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ أَذَانَ الصُّبْحِ» (١٠٨٤)

وقال ابن أبي حاتم:
أنا محمود بن آدم المروزي فيما كتب إلي قال رأيت وكيعا وبشر بن السري يتذاكران ليلة من العشاء إلى أن نودي بالفجر فلما أصبحنا قلنا لبشر كيف رأيت وكيعا؟ قال: ما رأيت أحفظ منه» (١٠٨٥)

(١٠٨٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٦).
(١٠٨٣) «تاريخ بغداد ت بشار» (٢/ ٥٥٦).
(١٠٨٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٧٤).
(١٠٨٥) «الجرح والتعديل» (١/ ٢٢١).

وقال ابن أبي حاتم:

أخبرنا محمد بن إبراهيم نا عمرو بن علي قال سمعت أبا معاوية يقول: كان سفيان يأتيني ههنا فيذاكرني حديث الأعمش فما رأيت أحدا أعلم بحديث الأعمش منه» (١٠٨٦)

وقال الجَوْزَجَانِيّ:

كُنَّا عِنْدَ سُلَيْمَانَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدِّمَشْقِيِّ، فَلَمْ يَأْذَنْ لِلنَّاسِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَاسْتَزَدْنَاهُ، قَالَ: بَلَغَنِي وُرُودُ هَذَا الْغُلَامِ الرَّازِيِّ -يَعْنِي: أَبَا زُرْعَةَ- فَدَرَسْتُ لِلِالتِقَاءِ بِهِ ثَلَاثَ مائَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ» (١٠٨٧)

وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُسَامَةَ الْكَلْبِيُّ: وَقَالَ لِي ابْنُ نُمَيْرٍ:

«كَانَ وَكِيعٌ إِذَا كَانَ فِي كِتَابِهِ حَدِيثٌ يُنْكِرُهُ أَمْسَكَ عَنْهُ لَمْ يُحَدِّثْ بِهِ فَإِذَا جَاءَ إِلَيْهِ بَنُو أَبِي شَيْبَةَ وَالْحُفَّاظُ ذَاكَرَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْهُ فَإِنْ ذَكَرُوهُ وَقَالُوا نَا بِهِ عَنْ فُلَانٍ، ذَكَرَهُ وَإِنْ شَكُّوا فِيهِ أَمْسَكَ عَنْهُ» (١٠٨٨)

(١٠٨٦) «الجرح والتعديل» (١/ ٦٤).

(١٠٨٧) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١١/ ١٣٨).

(١٠٨٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٤٥).

وقال أَبُو بشر بكر بْن خلف:

قدمت مكة، وبها شاب حافظ، فكان يذاكرني المسند بطرقها، فقلت له: من أين لك هذا؟ قَالَ: أخبرك، طلبت إِلَى على أيام سُفْيَان أن يحَدِّثَنِي بالمسند، فقال: قد عرفت إنما تريد بما تطلب المذاكرة، فإن ضمنت لي أنك تذاكر، ولا تسميني فعلت، قَالَ: فضمنت له، واختلفت إليه فجعل يحَدِّثَنِي بذا الذي أذاكرك به حفظا» (١٠٨٩)

عن أبي عامر قال: قلت لأبي زرعة:

إن أحمد بن جعفر الزنجاني حدثنا عن يحيى بن معين، عن رفدة بن قضاعة بحديث الأوزاعي في الرفع؟ فقال: "إن هذا يحتاج إلى أن يحبس في السجن. قلت: إنه يقول: حدثنا يحيى عن رفدة". فقال: لم يسمع يحيى من رفدة شيئاً، ولم يسمع من هشام بن عمار شيئاً، فكتبت إلى جعفر بذلك فقال لي: إنما رأيت يحيى يذاكر به ويقول: رواه رفدة ولا أدري ممن سمع» (١٠٩٠)

وقال عبد الله بن المُبَارك:

ما لَذَّتِي إلَّا رِوايَةُ مُسْـــنَدٍ ... قد قُيِّدَتْ بفَصَاحَةِ الألفاظ
ومجالسٌ فيها عليَّ سَكِيـــنَةٌ ... ومُذَاكَرَاتُ مَعاشِرِ الحُفَّاظ
نالُوا الفَضِيلَةَ والكَرَامةَ والنُّهَى ... مِن رَبِّهِم بِرِعايةٍ وحِفَـاظ

(١٠٨٩) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٣/ ٤٢١).
(١٠٩٠) «الضعفاء لأبي زرعة الرازي في أجوبته على أسئلة» (٢/ ٥٧٨).

لاظُوا برَبِّ العَرْشِ لَمَّا أَيْقَنُوا أنَّ الجِنَانَ لِعُصْبَـــةٍ لُوَّاظِ»

لظَّ به، إذا لزمه ولم يفارقه. (١٠٩١)

وقال الحافظ ابن رجب:

«ولا بد في هذا العلم من طول الممارسة، وكثرة المذاكرة، فإذا عدم المذاكر به، فليكثر طالبه المطالعة في كلام الأئمة العارفين كيحيى القطان، ومن تلقى عنه كأحمد وابن المديني، فمن رزق مطالعة ذلك وفهمه وفقهت نفسه فيه وصارت له فيه قوة نفس وملكة، صلح له أن يتكلم فيه"» (١٠٩٢)

وقال الخطيب البغدادي:

«لِأَنَّ الْفَقِيهَ يَحْتَاجُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِطَرَفٍ مِنْ مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْجِدِّ وَالْهَزْلِ ، وَالْخِلَافِ وَالضِّدِّ ، وَالنَّفْعِ وَالضَّرِّ ، وَأُمُورِ النَّاسِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهُمْ ، وَالْعَادَاتِ الْمَعْرُوفَةِ مِنْهُمْ فَمِنْ شَرْطِ الْمُفْتِي النَّظَرُ فِي جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَلَنْ يُدْرِكَ ذَلِكَ إِلَّا بِمُلَاقَاةِ الرِّجَالِ، وَالِاجْتِمَاعِ مِنْ أَهْلِ النِّحَلِ وَالْمَقَالَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمُسَاءَلَتِهِمْ، وَكَثْرَةِ الْمُذَاكَرَةِ لَهُمْ، وَجَمْعِ الْكُتُبِ، وَدَرْسِهَا، وَدَوَامِ مُطَالَعَتِهَا» (١٠٩٣)

وقال الماوردى:

(١٠٩١) «المحدث الفاصل ت أبو زيد» (ص٥٦٨).

(١٠٩٢) «شرح علل الترمذي» (١/ ١٢٦).

(١٠٩٣) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٣٤).

«الْمُذَاكَرَةَ بِالْعِلْمِ قُرْبَةٌ» (١٠٩٤)

وقال موفق الدين المقدسي:

«وإنما يتباحث الفقهاء، ليعرف الصواب» (١٠٩٥)

وعن الزُّهْرِيِّ قَالَ:

«إِنَّمَا يُذْهِبُ الْعِلْمَ النِّسْيَانُ وَتَرْكُ الْمُذَاكَرَةِ» (١٠٩٦)

وقال علي بن المديني:

"ستة كادت تذهب عقولهم عند المذاكرة: يحيى وعبد الرحمن ووكيع وابن عيينة وأبو داود وعبد الرزاق" (١٠٩٧)

وعَنِ الْأَعْمَشِ، قَالَ:

كَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ رَجَاءٍ، «يَجْمَعُ صِبْيَانَ الْكُتَّابِ، يُحَدِّثُهُمْ، يَتَحَفَّظُ بِذَلِكَ» (١٠٩٨)

(١٠٩٤) «الحاوي الكبير» (٣/ ٤٩٣).

(١٠٩٥) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٣/ ٢٦٢ ت العثيمين).

(١٠٩٦) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة» (٣/ ٣٦٤).

(١٠٩٧) «مصنف عبد الرزاق» (١/ ٤٨ ط التأصيل الثانية).

(١٠٩٨) «مسند الدارمي - ت حسين أسد» (١/ ٤٨١).

وقَالَ الْحَسَنُ:
«غَائِلَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ وَتَرْكُ الْمُذَاكَرَةِ» (١٠٩٩)

وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ:
" أَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ الْعِلْمَ مِنْ عُرْوَةَ وَغَيْرِهِ فَيَأْتِي إِلَى جَارِيَةٍ لَهُ وَهِيَ نَائِمَةٌ فَيُوقِظُهَا فَيَقُولُ: اسْمَعِي حَدِّثَنِي فُلَانٌ كَذَا وَفُلَانٌ كَذَا فَتَقُولُ: مَالِي وَمَا لِهَذَا الْحَدِيثِ؟ فَيَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ لَا تَنْتَفِعِينَ بِهِ وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ الْآنَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَسْتَذْكِرَهُ " (١١٠٠)

وأحياناً تكون المذاكرة من الكتب

وقال سَعِيْدُ بنُ عَمْرٍو البَرْذَعِيُّ:
رَأَيْتُ أَبَا زُرْعَةَ يُسِيْءُ القَوْلَ فِي سُوَيْدِ بنِ سَعِيْدٍ، وَقَالَ: رَأَيْتُ مِنْهُ شَيْئاً لَمْ يُعْجِبْنِي.
قُلْتُ: مَا هُوَ؟
قَالَ: لَمَّا قَدِمْتُ مِنْ مِصْرَ، مَرَرْتُ بِهِ، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ عِنْدِي أَحَادِيْثَ لِابْنِ وَهْبٍ، عَنْ ضِمَامٍ، وَلَيْسَتْ عِنْدَكَ.
فَقَالَ: ذَاكِرْنِي بِهَا.

(١٠٩٩) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٤٤).
(١١٠٠) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٦٨).

فَأَخْرَجتُ الكُتُبَ، وَأَقبلتُ أُذَاكِرُهُ، فَكُلَّمَا كُنْتُ أُذَاكِرُهُ، كَانَ يَقُوْلُ: حَدَّثَنَا بِهِ ضِمَامٌ، وَكَانَ يُدَلِّسُ حَدِيْثَ حَرِيْزِ بنِ عُثْمَانَ، وَحَدِيْثَ نِيَارِ بنِ مُكْرَمٍ، وَحَدِيْثَ اللهِ بنِ عَمْرٍو: (زُرْ غِبّاً).

فَقُلْتُ: أَبُو مُحَمَّدٍ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ أَحَادِيْثَ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَغَضِبَ.

قَالَ البَرْذَعِيُّ: فَقُلْتُ لأَبِي زُرْعَةَ، فَأَيْشٍ حَالُهُ؟

قَالَ: أَمَّا كُتُبُهُ فَصِحَاحٌ، وَكُنْتُ أَتَتَبَّعُ أُصُوْلَهُ، فَأَكْتُبُ مِنْهَا، فَأَمَّا إِذَا حَدَّثَ مِنْ حِفْظِهِ، فَلَا" (١١٠١)

وكانوا يغربون

قال الخطيب البغدادي:

حَدَّثَنِي أَبُو النَّجِيبِ عَبْدُ الْغَفَّارِ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْأُرْمَوِيُّ، مُذَاكَرَةً قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ الْمُقْرِئَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْحُسَيْنِ بْنَ فَارِسٍ اللُّغَوِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ ابْنَ الْعَمِيدِ يَقُولُ: " مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ فِي الدُّنْيَا حَلَاوَةً أَلَذَّ مِنَ الرِّئَاسَةِ وَالْوَزَارَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا حَتَّى شَاهَدْتُ مُذَاكَرَةَ سُلَيْمَانَ بْنِ أَحْمَدَ الطَّبَرَانِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الْجَعَابِيِّ بِحَضْرَتِي فَكَانَ الطَّبَرَانِيُّ يَغْلِبُ الْجَعَابِيَّ بِكَثْرَةِ حِفْظِهِ وَكَانَ الْجَعَابِيُّ يَغْلِبُ الطَّبَرَانِيَّ بِفِطْنَتِهِ وَذَكَاءِ أَهْلِ بَغْدَادَ حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهَا وَلَا يَكَادُ أَحَدُهُمَا يَغْلِبُ صَاحِبَهُ فَقَالَ الْجَعَابِيُّ: عِنْدِي حَدِيثٌ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا عِنْدِي فَقَالَ: هَاتِهِ فَقَالَ: نَا

(١١٠١) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٠/ ٣١٦).

أَبُو خَلِيفَةَ نَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَيُّوبَ وَحَدَّثَ بِالْحَدِيثِ فَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ: أَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَيُّوبَ وَمِنِّي سَمِعَ أَبُو خَلِيفَةَ فَاسْمَعْ مِنِّي حَتَّى يَعْلُوَ إِسْنَادُكَ فَإِنَّكَ تَرْوِي عَنْ أَبِي خَلِيفَةَ عَنِّي فَخَجَلَ الْجَعَابِيُّ وَغَلَبَهُ الطَّبَرَانِيُّ، قَالَ ابْنُ الْعَمِيدِ: فَوَدِدْتُ فِي مَكَانِي أَنَّ الْوَزَارَةَ وَالرِّئَاسَةَ لَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ لِي وَكُنْتُ الطَّبَرَانِيَّ، وَفَرِحْتُ مِثْلَ الْفَرَحِ الَّذِي فَرِحَ بِهِ الطَّبَرَانِيُّ لِأَجْلِ الْحَدِيثِ أَوْ كَمَا قَالَ "» (١١٠٢)

وقال ابن أبي حاتم سمعت أبي يقول:

وكان عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة يختلف إلي عبد العزيز الأويسي وهو شاب يكتب عنه فرءاه أبو زرعة هناك فذاكر أبا زرعة بأحاديث غرائب لم تكن عنده فسأله أن يحدثه فصار إليه ونظر في كتبه وسمع منه» (١١٠٣)

وقال ابن أبي حاتم:

وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: قُلْتُ عَلَى بَابِ أَبِي الوَلِيْدِ الطَّيَالِسِيّ:

مَنْ أَغْرَبَ عَلَيَّ حَدِيْثاً غَرِيباً مُسْنَداً صَحِيحاً لَمْ أَسْمَعْ بِهِ فَلَهُ عَلَيَّ دِرْهَمٌ يَتَصَدَّقُ بِهِ، وَكَانَ ثَمَّ خَلْقٌ: أَبُو زُرْعَةَ، فَمَنْ دُوْنَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ مُرَادِي أَن يُلْقَى عَلَيَّ مَا لَمْ أَسْمَعْ بِهِ، فَيَقُوْلُوْنَ: هُوَ عِنْدَ فُلَانٍ، فَأَذْهَبُ فَأَسْمَعُ، وكان مرادي أن أستخرج منهم ما ليس عندي، فما تَهَيَّأَ لأَحَدٍ منهم أَن يُغْرِبَ عَلَيَّ حَدِيْثاً"(١١٠٤)

(١١٠٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٧٤).
(١١٠٣) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (٥/ ٢٥٩).
(١١٠٤) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٥٥).

وقال شُعْبَة:
إِنِّيْ لأُذَاكِرُ بِالحَدِيْثِ يَفُوتُنِي فَأَمرَضُ.

وَقَالَ مُظَفَّرُ بنُ مُدْرِكٍ:
ذَكَرُوا لِشُعْبَةَ حَدِيْثاً لَمْ يَسْمَعْهُ، فَجَعَلَ يَقُوْلُ: وَاحُزْنَاهُ» (١١٠٥)

وقال أحمد بن سلمة:
عقد لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلس للمذاكرة، فذكر له حديث لم يعرفه، فانصرف إلى منزله، وأوقد السراج، وَقَالَ لمن في الدار لا يدخلن أحد منكم هذا البيت، فقيل له: أهديت لنا سلة فيها تمر، فقال: قدموها إلي، فقدموها إليه، فكان يطلب الحديث ويأخذ تمرة تمرة يمضغها، فأصبح وقد فني التمر ووجد الحديث، قَالَ محمد بن عبد الله: زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مات» (١١٠٦)

وقال ابن أبي حاتم وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ:
كَانَ مُحَمَّدُ بنُ يَزِيْدَ الأَسْفَاطِيُّ يحفظ التفسير فَقَالَ لنا يَوْماً: مَا تَحْفَظُوْنَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [ق: ٣٦]. فَبَقِيَ أَصْحَابُ الحَدِيْثِ يَنْظُرُ بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ، فَقُلْتُ حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ صَالِحٍ، عَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ

(١١٠٥) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٧/ ٢٢٨).
(١١٠٦) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٥/ ١٢١).

عَبَّاسٍ، قَالَ: ضَرَبُوا فِي البِلَادِ، فَاسْتحسنَ" (١١٠٧)

وقَالَ حَمْزَةُ الكِنَانِيّ: سَمِعْتُ ابْنَ جَوْصَا، يَقُوْلُ:
كُنَّا بِبَغْدَادَ، فتذَاكَرُوا حَدِيْثَ أَيُّوبَ وَأَشْبَاهَه، فَقُلْتُ: أَيش أَسند جُنَادَة عَنْ عُبَادَة؟ فسكَتُوا.
ثُمَّ قُلْتُ: مَا أَسند عَمْرو بن عَمْرٍو الأُحموسِيّ؟ فَلَمْ يُجِيْبُوا» (١١٠٨)

وقال ابن أبي حاتم في ترجمة سليمان بن داود الطيالسي
أخبرنا يونس بن حبيب قال قال أبو داود الطيالسي: قَالَ أَبُو دَاوُدَ: كُنَّا بِبَغْدَادَ، وَكَانَ شُعْبَةُ، وَابْنُ إِدْرِيْسَ يَجْتَمِعُوْنَ بعد العصر يَتَذَاكَرُوْنَ فَذَكَرُوا بَابَ المَجْذُوْمِ فذكر شعبة ما عنده فَقُلْتُ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيْهِ، عَنْ خَارِجَةَ بنِ زَيْدٍ، قَالَ: كَانَ مُعَيْقِيْبٌ يَحضُرُ طَعَامَ عُمَرَ
فَقَالَ لَهُ عمر يَا مُعَيْقِيْبُ، كُلْ مِمَّا يَلِيْكَ
فَقَالَ لِي شُعْبَةُ: يَا أَبَا دَاوُدَ! لَمْ تَجِئْ بِشَيْءٍ أَحْسَنَ مِمَّا جِئْتَ بِهِ"(١١٠٩)

وقال أبو مسعود الأصبهاني:
كُنَّا نَتَذَاكَرُ الأَبْوَابَ، قَالَ: فَخَاضُوا فِي بَابٍ، فجَاؤُوا فِيْهِ بِخَمْسَةِ أَحَادِيْثَ، قَالَ:

(١١٠٧) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (١/ ٣٥٧).
(١١٠٨) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٥/ ١٩).
(١١٠٩) «الجرح والتعديل» (٤/ ١١١).

فجئتهم أنا بآخر فصار سادسا، قَالَ: فنخَسَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ فِي صَدْرِي يَعْنِي لإِعجَابِهِ بِي" (١١١٠)

وقال أَبو بَكْرٍ بن زَنْجَوَيْهْ:

قَدِمْتُ مِصْرَ، فَأَتَيتُ أَحْمَدَ بنَ صَالِحٍ، فَسَأَلَنِي: مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟

قُلْتُ: مِنْ بَغْدَادَ.

قَالَ: أَيْنَ مَنْزِلُكَ مِنْ مَنْزِلِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ؟

فَقُلْتُ: أَنَا مِنْ أَصْحَابِهِ.

قَالَ: تَكْتُبُ لِي مَوْضِعَ مَنْزِلِكَ، فَإِنِّي أُرِيدُ أُوافِيَ العِرَاقَ حَتَّى تَجْمَعَ بَيْنَنَا.

فَكَتَبْتُ لَهُ، فَوَافَى أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ سنَةَ اثْنَتَي عَشْرَةَ ومائَتَيْنِ إِلَى عَفَّانَ، فَسَأَلَ عَنِّي، فَلَقِيَنِي، فَقَالَ: المَوْعِدُ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ؟

فَذَهَبتُ بِهِ إِلَى أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، وَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ، فَقُلْتُ: أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ بِالبَابِ.

فَأَذِنَ لَهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَقَرَّبَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: بَلَغَنِي أَنَّكَ جَمَعْتَ حَدِيْثَ الزُّهْرِيِّ، فَتَعَالَ حَتَّى نَذْكُرَ مَا رَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فَجَعَلَا يَتَذَاكَرَانِ، وَلا يُغْرِبُ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ، حَتَّى فَرَغَا، فَمَا رَأَيْتُ أَحسَنَ مِنْ مُذَاكَرَتِهِمَا.

ثُمَّ قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: تَعَالَ حَتَّى نَذْكُرَ مَا رَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ أَوْلَادِ الصَّحَابَةِ، فَجَعَلَا يَتَذَاكَرَانِ، وَلا يُغْرِبُ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ ...، إِلَى أَنْ قَالَ لأَحْمَدَ بنِ صَالِحٍ:

(١١١٠) «تاريخ بغداد ت بشار» (٥/ ٥٦٣).

عِنْدَ الزُّهْرِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيْهِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ:
قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ، وَأَنِّي لِي حِلْفَ المُطَيَّبِين.
فَقَالَ أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ لأَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ: أَنْتَ الأُسْتَاذُ، وَتَذْكُرُ مِثْلَ هَذَا.
فَجَعَلَ أَحْمَدُ يَتَبَسَّمُ، وَيَقُوْلُ: رَوَاهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ رَجُلٌ مَقْبُوْلٌ أَوْ صَالِحٌ؛ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ إِسْحَاقَ.
فَقَالَ: مَنْ رَوَاهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟
فَقَالَ: حَدَّثَنَاهُ ثِقَتَانِ: إِسْمَاعِيْلُ ابْنُ عُلَيَّةَ، وَبِشْرُ بنُ المُفَضَّلِ.
فَقَالَ أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ: سَأَلْتُكَ بِاللهِ إِلاَّ أَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ.
فَقَالَ أَحْمَدُ: مِنَ الكِتَابِ.
فَقَامَ، وَدَخَلَ، فَأَخْرَجَ الكِتَابَ، وَأَمْلَى عَلَيْهِ.
فَقَالَ أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ: لَوْ لَمْ أَستَفِدْ بِالعِرَاقِ إِلاَّ هَذَا الحَدِيْثَ، لَكَانَ كَثِيْراً، ثُمَّ وَدَّعَهُ وَخَرَجَ» (١١١١)

وقال يحيى بن معين لأبى خيثمة:

تحفظ هذا الحديث عن سفيان عن بيان عن الشعبى عن شريح قال:

" إذا استدانت المرأة على زوجها فلا شيء عليها إذا كان بإذنه"

فقال له أبو خيثمة من هذا فقال بشر بن السري» (١١١٢)

(١١١١) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٢/ ١٦٩).

(١١١٢) «تاريخ ابن معين - رواية ابن محرز» (٢/ ٢٧).

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ الوراق: سمعت محمد بن إسماعيل، يَقُوْلُ:
ذَاكَرَنِي أَصْحَابُ عَمْرِو بنِ عَلِيٍّ الفَلاَّسِ بِحَدِيْثٍ، فَقُلْتُ: لَا أَعْرِفُهُ، فَسُرُّوا بِذَلِكَ، وَصَارُوا إِلَى عَمْرٍو بن علي، فقالوا له: ذاكرنا محمد بن إسماعيل البخاري بحديث فلم يعرفه. فَقَالَ عمرو بن علي: حَدِيْثٌ لَا يَعْرِفُهُ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ لَيْسَ بِحَدِيْثٍ» (١١١٣)

وقال ابن معين لأبى خيثمة:
تحفظ هذا من حديث سفيان عن ابن ابى نجيح عن مجاهد قال ليس آزر أبا ابراهيم انما هو ضم فقال رجل لأبى زكريا من ذكره عن سفيان فقال قد ذكروه" (١١١٤)

وقال ابن معين لأبى خيثمة:
كتبت هذا عن ابن علية عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال ابن مسعود البطشة الكبرى يوم بدر.
قال ابن عباس: وأنا أقول البطشة الكبرى يوم القيامة فقال له أبو خيثمة لا أخفظه فقيل ليحيى بن معين من حدثكم به قال الذي حدثناه ثم سأله محمد بن سعد العوفى وانا أسمع فقال له يا أبا زكريا من حدثكن به فكلمه يحيى بن معين بشيء لم أفهمه فقلت لمحمد بن سعد العوفى فى ذلك الوقت ويحيى معنا ماذا رد عليك فقال:

(١١١٣) «تاريخ بغداد ت بشار» (٢/ ٣٣٨).
(١١١٤) «تاريخه رواية ابن محرز» (٢/ ٢٥).

قال لى حدثنا ابن علية» (١١١٥)

وكانوا يكرهون الإكثار من الغرائب

قال شُعْبَةَ:

ذاكرت قيس بن الربيع حديث أَبِي حصين فلوددت أن البيت وقع علي وعليه حتى يموت من كثرة ما كَانَ يغرب علي» (١١١٦)

وكانوا يتساهلون في باب المذاكرة

وَقَال مُحَمَّد بن إسحاق اللؤلؤي: سمعت وكيعا يقول: قال سفيان:

إذا جاءت المذاكرة جئنا بكل، وإذا جاء التحصيل جئنا بمنصور بْن المعتمر.

وَقَال مُحَمَّد بْن سهل بن عكسر: سمعت عَبْد الرزاق يقول:

حدث سفيان يوما بحديث عَن منصور، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبد اللَّهِ فقال: هَذَا الشرف على الكراسي» (١١١٧)

وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى:

" سَأَلْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ يَعْنِي ابْنَ مَهْدِيٍّ عَنْ حَدِيثٍ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ فَسَاقَهُ فَذَهَبْتُ أَكْتُبُهُ

(١١١٥) «تاريخ ابن معين - رواية ابن محرز» (٢/ ٢٨).

(١١١٦) «الكامل في ضعفاء الرجال» (٧/ ١٦٠).

(١١١٧) «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» (٢٨/ ٥٥٣).

فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ تَصْنَعُ؟ فَقُلْتُ: أَكْتُبُهُ. فَقَالَ: دَعْهُ فَإِنَّ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْئًا. فَقُلْتُ: قَدْ جِئْتَ بِهِ فَقَالَ: لَوْ كُنْتَ وَحْدَكَ لَحَدَّثْتُكَ بِهِ فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِهَؤُلَاءِ " قَالَ: أَبُو بَكْرٍ: كَانَ أَبُو مُوسَى مِنَ الْمُلَازِمِينَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقَوْلُهُ لَوْ كُنْتَ وَحْدَكَ لَحَدَّثْتُكَ بِهِ أَرَادَ أَنَّهُ مَتَى بَانَ لَهُ أَنَّ الْحَدِيثَ عَلَى غَيْرِ مَا حَدَّثَهُ بِهِ أَمْكَنَهُ اسْتِدْرَاكُهُ لِإِصْلَاحِ غَلَطِهِ وَلَا يُمْكِنُهُ ذَلِكَ مَعَ الْغُرَبَاءِ الَّذِينَ حَضَرُوا عِنْدَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ يُحَرِّجُ عَلَى أَصْحَابِهِ أَنْ يَكْتُبُوا عَنْهُ فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا» (١١١٨)

وقال بَكْر بْن خَلَف: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مَهْدِيٍّ، يَقُولُ:

«حَرَامٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا، عَنِّي فِي الْمُذَاكَرَةِ حَدِيثًا لِأَنِّي إِذَا ذَاكَرْتُ تَسَاهَلْتُ فِي الْحَدِيثِ» (١١١٩)

وعَنْ نَوْفَلِ بْنِ الْمُطَهَّرِ، قَالَ: قَالَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:

«لَا تَحْمِلُوا عَنِّي فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا» قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: " لَا تَحْمِلُوا عَنِّي فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا قَالَ أَحْمَدُ: وَقَالَ لِي أَبُو زُرْعَةَ: لَا تَحْمِلُوا عَنِّي فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا " (١١٢٠)

(١١١٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٣٦).

(١١١٩) السابق (٢/ ٣٧).

(١١٢٠) السابق.

وقال عَبْد اللَّهِ بْن إِسْحَاق بْن سَيَامَرْد: سَمِعْتُ أَبَا زُرْعَةَ، فِي مَنْزِلِ أَبِي حَاتِمٍ يَقُولُ: «أُحَرِّجُ عَلَى مَنْ كَتَبَ عَلَيَّ فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا» وَاسْتَحَبَّ لِمَنْ حفظ عَنْ بَعْضِ شُيُوخِهِ فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا وَأَرَادَ رِوَايَتَهُ عَنْهُ أَنْ يَقُولَ حَدَّثَنَاهُ فِي الْمُذَاكَرَةِ فَقَدْ كَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ مُتَقَدِّمِي الْعُلَمَاءِ يَفْعَلُ ذَلِكَ (١١٢١)

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ حَمْدَانَ:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، قَالَ: وَجَدْتُ هَذَا الْحَدِيثَ فِي كِتَابِ أَبِي بِخَطِّ يَدِهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ يَزِيدَ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَأَظُنُّنِي قَدْ سَمِعْتُهُ مِنْهُ فِي الْمُذَاكَرَةِ فَلَمْ أَكْتُبْهُ» (١١٢٢)

وقال أبو بكر المَرُّوذي- للإمام أحمد:

يحيى القَطَّانُ أَيْشٍ كان يقولُ في شَرِيك؟ قال: كان لا يَرْضَاه، وما ذكر عنه إلا شيئًا على المذاكرة؛ حديثين» (١١٢٣)

وقال ابن حزم:

«وأما المدلِّسُ فينقسمُ إلى قِسْمَيْنِ، أحدُهُمَا: حافظٌ عدلٌ ربَّما أرسَلَ حديثَهُ، وربَّما

(١١٢١) السابق.

(١١٢٢) «تاريخ بغداد ت بشار» (٧/ ٥٧٧).

(١١٢٣) «العلل» لابن أبي حاتم (١/ ٨٥ ت الحميد).

أسنَدَهُ، وربَّما حدَّث به على سَبِيلِ المذاكرة، أو الفُتْيَا، أو المناظرة، فلم يَذْكُرْ له سَنَدًا، وربَّما اقتصَرَ على ذِكْرِ بعض رواتِهِ دون بعض فهذا لا يضر» (١١٢٤)

ويَستحبُّون لمن سمع في المذاكرة أن يبيِّن ذلك

وقال الخطيب البغدادي:

«وَاسْتَحَبُّ لِمَنْ حَفِظَ عَنْ بَعْضِ شُيُوخِهِ فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا وَأَرَادَ رِوَايَتَهُ عَنْهُ أَنْ يَقُولَ حَدَّثَنَاهُ فِي الْمُذَاكَرَةِ فَقَدْ كَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ مُتَقَدِّمِي الْعُلَمَاءِ يَفْعَلُ ذَلِكَ» (١١٢٥)

وروى الترمذي عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: «أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ» وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ"

قال الترمذي حَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بِهَذَا أَوْ شِبْهِهِ فِي الْمُذَاكَرَةِ" (١١٢٦)

وقال أبو عوانة:

حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ سَهْلِ بْنِ مَالِك، عَلَى الْمُذَاكَرَةِ، قثنا مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ، قثنا مَسْلَمَةُ بْنُ الصَّلْتِ الشَّيْبَانِيُّ، قثنا عَلِيُّ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَوْبَانَ، قَالَا: أَخْبَرَتْنَا الرُّبَيِّعُ بِنْتُ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ، أَنَّ ثَابِتَ بْنَ

(١١٢٤) «الإحكام في أصول الأحكام - ابن حزم» (١/ ١٤١).

(١١٢٥) السابق.

(١١٢٦) صحيح: أخرجه مسلم برقم (٢٣١٣) والترمذي برقم (٦٦٦).

قَيْسٍ، ضَرَبَ امْرَأَتَهُ، فَكَسَرَ يَدَهَا وَهِيَ جَمِيلَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَتَى أَخُوهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَشْتَكِيهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى ثَابِتٍ، فَقَالَ: «خُذِ الَّذِي لَهَا وَخَلِّ سَبِيلَهَا» ، قَالَ: نَعَمْ فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَرَبَّصَ حَيْضَةً (١١٢٧)

وقال عبد الرحمن بن مهدي:

ذاكرني أبو عوانة بحديث، فقلت: ليس هذا من حديثك، فقال: لا تفعل يا أبا سعيد، هو عندي مكتوب، قلت: فهاته، قال: يا سلامة هاتي الدرج، ففتش فلم يجد شيئًا، فقال: من أين أتيت يا أبا سعيد؟ قال: هذا ذوكرت به وأنت شاب، فعلق بقلبك فظننت أنك قد سمعته» (١١٢٨)

وقال يحيى بن معين:

لقيت علي بن عاصم على الجسر. فقلت: كيف حديث مطرف عن الشعبي "من زوّج كريمته فقال: حدثنا مطرف، عن الشعبي، فقلت: لم نسمع هذامن مطرف قط وليس هذا من حديثك. قال: فأكذب؟ فاستحييت منه، وقلت: ذوكرت به فوقع في قلبك فظننت أنك سمعته ولم تسمعه وليس من حديثك» (١١٢٩)

(١١٢٧) «مستخرج أبي عوانة " برقم (٤٧٢٩).
(١١٢٨) «المجروحين لابن حبان ت حمدي» (١/ ٥١).
(١١٢٩) «الضعفاء لأبي زرعة الرازي في أجوبته على أسئلة البرذعي» (٢/ ٣٩٥).

وسُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ مَهْدِيٍّ:
عَنْ قِلَّةِ رِوَايَتِهِ عَنِ الشَّاذَكُونِيِّ، فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ أَبِي شَيْبَةَ يَقُولُ: كُنَّا نَجْتَمِعُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَفِينَا الشَّاذَكُونِيِّ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ حَدِيثٌ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي عَلَّقْتُهُ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ الَّذِي سَمِعَ مِنْهُ حَيٌّ سَمِعْتُ مِنْهُ، وَإِلَّا ضَرَبْتُ عَلَيْهِ» (١١٣٠)

وقَالَ عبد الله بن أحمد بن حنبل:
أَبِي مَاتَ هُشَيْم وَأَنا بن عشْرين سنة فَكنت أحفظ من حَدِيثه مَا سمعته مِنْهُ وَمَا لم أسمع فَقلت لَهُ كَيفَ حفظت مَا لم تسمع فَقَالَ كنت أسمع أَصْحَابنَا يتذاكرون» (١١٣١)

وقال البرذعي لي أبو زرعة:
"ذكرت لأبي جعفر النفيلي، أن أحمد حدثنا، عن أبي قتادة فاغتم، وقال: قد كتبت إليه ألا يحدث عنه قال أبو زرعة: "وإنما كان أحمد حدثنا عنه في المذاكرة، ذكرنا ما روى عكرمة، عن الهرماس، وكان عبد الله بن عمران الأصبهاني حاضرا فذكر حديث يحيى بنضريس فكتب أحمد عنه. قال أحمد: وحدثنا عبد الله بن واقد، عن عكرمة فذكر حديث الهرّماس فعلقته حفظا» (١١٣٢)

(١١٣٠) «طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها» (٢/ ١٢٣).
(١١٣١) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله» (٢/ ٢٥٠).
(١١٣٢) «الضعفاء لأبي زرعة الرازي في أجوبته على أسئلة البرذعي» (٢/ ٣٤٨).

وينهون عن الحمل عنهم في المذاكرة

قال ابن الصلاح:

وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنْ حُفَّاظِهِمْ يَمْنَعُونَ مِنْ أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْءٌ، مِنْهُمْ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، وَأَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ، وَرُوِّينَاهُ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، وَغَيْرِهِ. وَذَلِكَ لِمَا قَدْ يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْمُسَاهَلَةِ، مَعَ أَنَّ الْحِفْظَ خَوَّانٌ، وَلِذَلِكَ امْتَنَعَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْحُفَّاظِ مِنْ رِوَايَةِ مَا يَحْفَظُونَهُ إِلَّا مِنْ كُتُبِهِمْ، مِنْهُمْ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ» (١١٣٣)

وعَنْ نَوْفَلِ بْنِ الْمُطَهَّرِ، قَالَ: قَالَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ:

«لَا تَحْمِلُوا عَنِّي فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا» قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ -بْنُ مُوسَى-: " لَا تَحْمِلُوا عَنِّي فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا قَالَ أَحْمَدُ: وَقَالَ لِي أَبُو زُرْعَةَ: لَا تَحْمِلُوا عَنِّي فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا " (١١٣٤)

وَسُئِلَ عَن عمر بن هَارُون الْبَلْخِي

فَقَالَ مَا أقدر أتعلق بِشَيْء كتبت عَنهُ حَدِيثا كثيرا فَقيل لَهُ قد كَانَت لَهُ قصَّة مَعَ ابْن مهْدي فَقَالَ بلغني أَن عبد الرَّحْمَن كَانَ يحملعَلَيْهِ وَمَا أَدْرِي مَا كَانَت قصَّته فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَر إِنِّي سَمِعت من يَحْكِي عَن ابْن مهْدي أَنه قدم عَلَيْهِم عمر بن هَارُون الْبَصْرَة وَهُوَ شَاب فذاكره عبد الرَّحْمَن فَكتب عَنهُ ثَلَاثَة أَحَادِيث فِيهَا حَدِيث عَن

(١١٣٣) «معرفة أنواع علوم الحديث - ت عتر» (ص٢٣٤).

(١١٣٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٣٧).

يحيى بن أبي عَمْرو السينَانِي عَن عَمْرو بن عبد الله الْحَضْرَمِيّ عَن عبد الله بن عَمْرو فِي شرب الْعصير وَمِنْهَا عَن عبد الْملك عَن عَطاء فِي الحفار يضع الفاس فِي الْقَبْر بَعْدَمَا يفرغ مِنْهُ وَحَدِيث آخر فَلَمَّا كَانَ بعد زمَان قدم عَلَيْهِم الْبَصْرَة فَأتى رجل عبد الرَّحْمَن فَقَالَ إِنَّك كتبت عَن هَذَا أَشْيَاء فَأعْطَاهُ الرقعة فَذهب بهَا إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَن حَدِيث يحيى بن أبي عَمْرو فَقَالَ لم أسمع من يحيى بن أبي عَمْرو شَيْئا إِنَّمَا كَانَ هَذَا مني فِي الحداثة وَسَأَلَهُ عَن حَدِيث عبد الْملك فَقَالَ لم أسمع من عبد الْملك حَدَّثَنِيه فلَان عَن عبد الْملك فَأتى ابْن مهْدي فَأخْبرهُ فنال مِنْهُ وَتكلم فَقَالَ أَبُو عبد الله كَانَ أَكثر مَا يحدثنا عَن ابْن جريج ويروى عَن الْأَوْزَاعِيّ قيل لَهُ فتروي عَنهُ قَالَ قد كنت رويت عَنهُ شَيْئا» (١١٣٥)

ومن ثمرات المذاكرة التمييز بين الصدوق وغيره

وقال الحاكم:

«ذِكْرُ النَّوْعِ الثَّالِثِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُلُومِ الْحَدِيثِ هَذَا النَّوْعُ مِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ مُذَاكَرَةُ الْحَدِيثِ وَالتَّمْيِيزِ بِهَا، وَالْمَعْرِفَةُ عِنْدَ الْمُذَاكَرَةِ بَيْنَ الصَّدُوقِ وَغَيْرِهِ فَإِنَّ الْمُجَازَفَ فِي الْمُذَاكَرَةِ يُجَازِفُ فِي التَّحْدِيثِ، وَلَقَدْ كَتَبْتُ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِنَا فِي الْمُذَاكَرَةِ أَحَادِيثَ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ عُهْدَتِهَا قَطُّ وَهِيَ مُثْبَتَةٌ عِنْدِي، وَكَذَلِكَ أَخْبَرَنِي أَبُو عَلِيٍّ الْحَافِظُ وَغَيْرُهُ مِنْ مَشَايِخِنَا أَنَّهُمْ حَفِظُوا عَلَى قَوْمٍ فِي الْمُذَاكَرَةِ مَا احْتَجُّوا بِذَلِكَ عَلَى جَرْحِهِمْ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ حُسْنَ الْعَوَاقِبِ، وَالسَّلَامَةَ، مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِمَنِّهِ وَطَوْلِهِ» (١١٣٦)

(١١٣٥) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية المروذي وغيره ت صبحي السامرائي» (ص٤٤).

(١١٣٦) «معرفة علوم الحديث» (ص١٤٠).

وقال الخطيب:

«أَخْبَرَنِي محمد بن أحمد بن يعقوب، قال: أخبرنا محمد بن نعيم، قال: سمعت أبا عبد الله بن العباس الضبي، يقول: سمعت أبا الفضل يعقوب بن إسحاق، يقول: سمعت صالحا جزرة، يقول: قال لي أبو زرعة الرازي، ببغداد: أريد أن أجتمع مع سليمان الشاذكوني فأناظره، قال صالح: فذهبت به إليه، فلما دخل عليه قلت له: هذا أبو زرعة الرازي أراد مذاكرتك.

فتذاكرا حديث أستار الكعبة وما قطع منها، فكان الشاذكوني يضع الأسانيد في الوقت ويذاكره بها، فتحير أبو زرعة وسكت، فلما قمنا من عنده، قال لي أبو زرعة: اغتممت والله مما فعل هذا الشيخ، فقلت له: هذه الأحاديث وضعها الساعة، ولو ذاكرته بشيء آخر لوضع مثلها»

قَالَ أَبُو عَلِيّ جَزَرَةُ: قَالَ لِي أَبُو زُرْعَةَ: مُرَّ بِنَا إِلَى سُلَيْمَانَ الشَّاذَكُوْنِيّ حتى نُذَاكِرُهُ.

قَالَ: فَذَهَبْنَا إليه، فَمَا زَالَ يُذَاكِرُهُ حَتَّى عَجَزَ الشَّاذَكُوْنِيُّ عَنْ حِفْظِهِ، فَلَمَّا أَعيَاهُ، أَلقَى عَلَيْهِ حَدِيْثاً مِنْ حَدِيْثِ الرَّازِيِّيْنَ، فَلَم يَعْرِفْهُ أَبُو زُرْعَةَ.

فَقَالَ الشاذكوني: يَا سُبْحَانَ اللهِ! حَدِيْثُ بَلَدِكَ، هَذَا مَخْرَجُهُ مِنْ عِنْدِكُم!؟ وَأَبُو زُرْعَةَ سَاكِتٌ، وَالشَّاذَكُوْنِيُّ يُخْجِلُهُ، وَيُرِي مَنْ حَضَرَ أَنَّهُ قَدْ عَجَزَ عن الجواب.

فَلَمَّا خَرَجا، رَأَيْتُ أَبَا زُرْعَةَ قَدِ اغْتَمَّ، وَيَقُوْلُ: لَا أَدْرِي مِنْ أَيْنَ جَاءَ بِهَذَا؟

فَقُلْتُ لَهُ: وَضَعَهُ فِي الوَقْتِ كَي لا يمكنك أن تجيب عنه فتخجل فقال أبو زرعة: هَكَذَا؟ قُلْتُ: نَعَم، فَسُرِّيَ عَنْهُ" (١١٣٧)

(١١٣٧) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٠/ ٥٥).

وقال أبو الشيخ:

سَمِعْتُ أَبَا عَلِيِّ بْنَ إِبْرَاهِيمَ يَقُولُ: سُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ مَهْدِيٍّ، وَأَنَا حَاضِرٌ، عَنْ قِلَّةِ رِوَايَتِهِ عَنِ الشَّاذَكُونِيِّ، فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ أَبِي شَيْبَةَ يَقُولُ: كُنَّا نَجْتَمِعُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَفِينَا الشَّاذَكُونِيُّ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ حَدِيثٌ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي عَلَّقْتُهُ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ الَّذِي سَمِعَ مِنْهُ حَيٌّ سَمِعْتُ مِنْهُ، وَإِلَّا ضَرَبْتُ عَلَيْهِ، فَتَذَاكَرْنَا يَوْمًا، فَقَالَ الشَّاذَكُونِيُّ: ثنا مُعَاذُ بْنُ مُعَاذٍ، فَعَلَّقْتُهُ، فَذَهَبْتُ إِلَى مُعَاذٍ لِأَسْأَلَهُ، فَقَالَ: مَا لِهَذَا أَصْلٌ» (١١٣٨)

وبيان الخطاء

قال الفسوى:

حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ قَالَ ثنا سُفْيَانُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْأَقْمَرِ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. قَالَ: رَضَخَ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ فُضَيْلٍ قَالَ: وَافَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَبُو نُعَيْمٍ، وَالْتَقَيَا فِي الْمَسْجِدِ- الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ- فَذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ هَذَا الْحَدِيثَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَلَيْسَ يَعْرِفُ واحد منها صَاحِبَهُ. قَالَ: فَقَامَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْهُ شَبَهُ الْغَضْبَانِ، وَلَقِيَهُ بَعْضُ الْكُوفِيِّينَ مِنْ عِلْيَةِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا نُعَيْمٍ مَا أَرَى فِي وَجْهِكَ؟ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى رَجُلٍ عَلَيْهِ ثِيَابُ النِّسَاءِ، فَذَكَرْتُ لَهُ حَدِيثَ عَلِيِّ بن الأقمرعن أبي الأحوص فأنكر.

قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا نُعَيْمٍ ذَلِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْمَهْدِيِّ» (١١٣٩)

(١١٣٨) «طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها» (٢/ ١٢٣).

(١١٣٩) «المعرفة والتاريخ - ت العمري - ط العراق» (٢/ ٦٥١).

وقال أبو زرعة:

"ذاكرني القاسم ابن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، عن أبي مالك الأشجعي، عن أبيه، عن النبي ﷺ: "من رآني في النوم فقد رآني في اليقظة"، فقلت له: ليس هذا من حديث يزيد بن هارون، إنما هذا حديث خلف بن خليفة وكنا نجلس إلى ابن منير فأبقاني أن أذكر ذاك لابن منير، فسبقني إلى ابن منير فلما جئت ابن منير فجلست إليه وجدته عنده، فقال لي: يا أبا زرعة أبو عبد الرحمن قد أنكر الحديث كما أنكرته. فقلت له: نعم ليس هذا من حديث يزيد بن هارون. فقال لي: كيف وقع في كتابي؟ فقلت: لم يقع في كتابك أنت أوقعته» (١١٤٠)

وقال ابن أبي حاتم:

«حضر عند أبي زرعة محمد بن مسلم والفضل بن العباس المعروف بالصائغ فجرى بينهم مذاكرة، فذكر محمد ابن مسلم حديثا فأنكر فضل الصائغ فقال يا أبا عبد الله ليس هكذا هو، فقال كيف هو؟

فذكر رواية أخرى، فقال محمد بن مسلم بل الصحيح ما قلت والخطأ ما قلت، قال فضل فأبو زرعة الحاكم بيننا، فقال محمد بن مسلم لأبي زرعة أيش تقول أينا المخطئ؟ فسكت أبو زرعة ولم يجب فقال محمد بن مسلم: مالك سكت، تكلم، فجعل أبو زرعة يتغافل، فألح عليه محمد بن مسلم وقال: لا أعرف لسكوتك معنى، إن كنت أنا المخطئ فأخبر وإن كان هو المخطئ، فقال هاتوا أبا القاسم ابن أخي فدعى به فقال اذهب وادخل بيت الكتب دفع القمطر الاول والقمطر الثاني والقمطر الثالث وعد

(١١٤٠) «الضعفاء لأبي زرعة الرازي في أجوبته على أسئلة البرذعي» (٢/ ٣٧١).

ستة عشر جزءا وائتني بالجزء السابع عشر، فذهب فجاء بالدفتر فدفعه إليه فأخذ أبو زرعة فتصفح الأوراق وأخرج الحديث ودفعه إلى محمد بن مسلم فقرأه محمد بن مسلم: فقال نعم غلطنا فكان ماذا؟» (١١٤١)

وقال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْنِ خُزَيْمَة:

لَمَّا دَخَلْتُ بُخَارَى فَفِي أَوَّلِ مَجْلِسٍ حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَمِيرِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَحْمَدَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَذَكَرْتُ فِي حَضْرَتِهِ أَحَادِيثَ، فَقَالَ الْأَمِيرُ: حَدَّثَنَا أَبِي، نا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ» الْحَدِيثَ، فَقُلْتُ: أَيَّدَ اللَّهُ الْأَمِيرَ، مَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَنَسٌ وَلَا حُمَيْدٌ وَلَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، فَسَكَتَ وَقَالَ: فَكَيْفَ؟ قُلْتُ: هَذَا حَدِيثُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَمَدَارُهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قُمْنَا مِنَ الْمَجْلِسِ. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَغْدَادِيُّ: يَا أَبَا بَكْرٍ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ لَنَا هَذَا الْإِسْنَادَ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَلَمْ يَجْسُرْ وَاحِدٌ مِنَّا أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّمَا أَرَادَ الْأَمِيرُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَحْمَدَ حَدِيثَ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ عَنِ الْمَسْعُودِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ" (١١٤٢)

وقال ابن أبي حاتم:

سمعت أبي يقول كنت عند والينا إبراهيم ابن معروف وحضر محمد بن مسلم فقال:

(١١٤١) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٣٧).

(١١٤٢) «مسند الشهاب القضاعي» (٢/ ١٠١).

يا أبا حاتم ويا أبا عبد الله لو تذاكرتما فكنت أسمع مذاكرتكما، فقلت لا تتهيأ المذاكرة ما لم يجر شئ فقال أنا أجريه، قد حبب إلى الصدقة فما تحفظون فيه؟ فقال محمد بن مسلم حدثنا محمد بن سعيد بن سابق عن عمرو بن أبي قيس عن سماك عن عباد بن حبيس عن عدي بن حاتم قال أتيت النبي ﷺ فجعل يقص، فقلت: لم يسألك الأمير عن إسلام عدي بن حاتم، فقال: صدق إنما سألتك عن فضل الصدقة، فقال: حدثنا أبو نعيم نا سفيان عن عبد الله بن عيسى عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان عن النبي ﷺ قَالَ: إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وإن الرجل وذكر الحديث. فقلت: ليس إسناده كما ذكرت، قال لم؟ قلت: ليس هو سالم بن أبي الجعد، فقال هو عبيد بن أبي الجعد، قلت: ولا عبيد، فقال من هو؟ وجعل يكرر سالم بن ابي الجعد عبيد بن أبي الجعد فكرر من من فقال الأمير لا تخبره فسكت ساعة فجعل يجهد أن يقع عليه فلم يقع عليه فقال الأمير أخبره الآن قلت عبد الله ابن أبي الجعد عن ثوبان، قال صدقت هو عبد الله بن أبي الجعد» (١١٤٣)

حفظ الصدور

قال ياقوت:

إبراهيم بن عثمان أبو القاسم ابن الوزان القيرواني النحوي كان فقيها على مذهب العراقيين وإماما في النحو واللغة والعربية والعروض غير مدافع، مع قلّة ادّعاء وخفض جناح.

(١١٤٣) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٥٩).

وكان عبد الله بن محمد المكفوف يقرّ له بالفضل، وانتهى من العلم إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله، وأما في زمانه فلا يشك فيه. مات سنة ست وأربعين وثلاثمائة، وكان يحفظ «كتاب العين» للخليل بن أحمد

و «غريب المصنف» لأبي عبيد

و «إصلاح المنطق» لابن السكيت، وغيرها من كتب اللغة؛ وحفظ قبل ذلك «كتاب سيبويه» ثم كتب الفراء، وكان يميل إلى مذهب البصريين مع إتقانه معرفة مذاهب الكوفيين؛ قال: ولو قال قائل إنه كان أعلم من المبرد وثعلب لصدّقه من وقف على علمه ونفاذه، وكان مع ذلك مقصرا في صناعة الشعر، وله تصانيف كثيرة في النحو واللغة". (١١٤٤)

وقال الذهبي في ترجمة أَحْمَد بْن إسرائيل بْن حسين أَبي جعْفَر الكاتب:

«وكان أَحْمَد بْن إسرائيل من أذكياء العالم لَا يسمع شيئًا إلَا حفِظَه. وكان إِلَيْهِ المنتهى فِي حساب الديوان...

قَالَ الصُّوليّ: حدثني الْحُسَيْن بْن عَلِيّ الباقطائيّ قال: لنا أَحْمَد بْن إسرائيل: كنت فِي الدّيوان "أيام محمد الأمين" فما كَانَ أحدٌ من أهل الدّيوان أصغر منيّ. ولقد كنت أنسخ الكتاب، فئلا أَفْرَغُهُ حتى أحفَظ ما فِيهِ حرفًا حرفًا. فعْلتُ هذا مرّاتٍ كثيرة. وسمعت أَحْمَد بْن إسرائيل ينشد:

لَا يكون السّرِيّ مثل الدَّنيّ لَا ولا ذُو الذَّكاء مثل الغبيّ

(١١٤٤) «معجم الأدباء» (١/ ٩٠).

قيمةُ المرءِ مثل ما يحُسن المرء قضاء مِنَ الْإِمَام عَلِيّ» (١١٤٥)

وَقَال الحاكم أَبُو أَحْمَد الحافظ:

سمعت أَحْمَد بْن خَالِد الحروري يَقُول: دَخَلَ أَبُو زرعة بغداد متوجها إِلَى الحج واجتمع إِلَيْهِ الحفاظ يذاكرونه وهُوَ يجيب ويغلبهم فِي المذاكرة حَتَّى عجزوا عَنْ مذاكرته، فقام واحد مِنْهُم، قال فِي أذنه: يا دا نانا، وشتمه بأقبح شتيمة، فتبسم أَبُو زُرْعَة، وَقَال لَهُ: يا هَذَا اشتغل بالعلم فَإِن هَذَا بعيد مِمَّا نحن فِيهِ» (١١٤٦)

وقال التنوخي:

كان المتنبي، وهو صبي، ينزل في جواري بالكوفة، وكان أبوه يعرف بعبدان السقاء، يستقي لنا ولأهل المحلّة.

ونشأ هو محبّا للعلم والأدب، وصحب الأعراب، فجاءنا بعد سنين بدويّا فجّا، وكان تعلّم الكتابة والقراءة، وأكثر من ملازمة الورّاقين.

فأخبرني ورّاق كان يجلس إليه، قال لي: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان.

قلت له: كيف؟

(١١٤٥) «تاريخ الإسلام - ط التوفيقية» (١٩/ ٢٠).

(١١٤٦) «تاريخ دمشق لابن عساكر» (٣٨/ ٢٧).

قال: كان اليوم عندي، وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعي، نحو ثلاثين ورقة، ليبيعه، فأخذ ينظر إليه طويلا.

فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، وإن كنت تريد حفظه، فهذا إن شاء الله يكون بعد شهر.

فقال له: فإن كنت قد حفظته في هذه المدة، ما لي عليك؟

قال: أهب لك الكتاب.

قال: فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه عليّ إلى آخره، ثم استلمه، فجعله في كمّه. فقام صاحبه وتعلّق به، وطالبه بالثمنفقال: ما إلى ذلك سبيل قد وهبته لي.

فمنعناه منه، وقلنا له: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام. فتركه عليه» (١١٤٧)

وقال ياقوت في ترجمة أحمد بن الحسين بن يحيى المعروف ببديع الزّمان الهمذانيّ:

استقصى الثعالبيّ أخباره، وقال عنه: كان بديع الزمان معجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدّهر، وغرّة العصر، من لم ير له نظير في الذّكاء، وكان صاحب عجائب ونوادر وبدائع، منها: أنه كان ينشد الشّعر لم يسمعه قطّ، وهو أكثر من خمسين بيتا، فيحفظه في مرّة واحدة لا يخرم منه حرفا، وينظر في الأربع والخمس أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يهذّها عن ظهر قلبه هذّا، وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى، فيكتبها في الحال من غير مسوّدة، إلى غير ذلك مما يطول ذكره. (١١٤٨)

(١١٤٧) «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» (٤/ ٢٤٦).

(١١٤٨) «معجم الأدباء» (١/ ٢٣٥).

وقَالَ صَالِحُ بنُ مُحَمَّدٍ الحَافِظُ جَزَرَةُ:

أَعلَمُ مَنْ أَدْرَكْتُ بِالحَدِيْثِ وَعِلَلِه: عَلِيُّ بنُ المَدِيْنِيِّ، وَأَعْلَمُهُمْ بِتَصْحِيْفِ المَشَايِخِ: يَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ، وَأَحْفَظُهُمْ عِنْدَ المُذَاكَرَةِ: أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي شَيْبَةَ" (١١٤٩)

وقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ: قَالَ لِي أَبُو زُرْعَةَ:

أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلفَ أَلفِ حَدِيْثٍ.

فَقِيْلَ لَهُ: وَمَا يُدرِيكَ؟

قَالَ: ذَاكَرْتُه، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الأَبْوَابَ.

فَهَذِه حِكَايَةٌ صَحِيْحَةٌ فِي سَعَةِ عِلمِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، وَكَانُوا يَعُدُّوْنَ فِي ذَلِكَ المُكَرَّرَ، وَالأَثَرَ، وَفَتْوَى التَّابِعِيِّ، وَمَا فُسِّرَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَإِلاَّ فَالمُتُوْنَ المَرفُوعَةُ القَوِيَّةُ لَا تَبلُغُ عُشْرَ مِعشَارِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: قَالَ سَعِيْدُ بنُ عَمْرٍو: يَا أَبَا زُرْعَةَ، أَأَنتَ أَحْفَظُ، أَمْ أَحْمَدُ؟

قَالَ: بَلْ أَحْمَدُ.

قُلْتُ: كَيْفَ عَلِمتَ؟

قَالَ: وَجَدتُ كُتُبَه، لَيْسَ فِي أَوَائِلِ الأَجزَاءِ أَسْمَاءُ الَّذِيْنَ حَدَّثُوه، فَكَانَ يَحْفَظُ كُلَّ جُزءٍ مِمَّنْ سَمِعَه، وَأَنَا لَا أَقدِرُ عَلَى هَذَا» (١١٥٠)

(١١٤٩) «تاريخ بغداد ت بشار» (١١/ ٢٥٩).

(١١٥٠) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١١/ ١٨٧).

وسئل أبو علي الحافظ عن عبد الله بن محمد بن وهب الدينوري فقال:
كان صاحب حديث حافظا ثم قال أبو علي:
بلغني أن أبا زرعة كان يعجز عن مذاكرته في زمانه» (١١٥١)

وقال ابن عبد الملك الأنصاري في ترجمة أبي عُمر بن عات:
قال أبو عامر بنُ نَذير: لازمْتُه مئة من ستة أشهُر، لم أَرَ أحفظ منه، وحضَرتُ لسَماع "الموطَّإ" و"صحيح البخاريّ" سنة،
فكان يقرأ من كلِّ واحد من الكتابَيْن نحوَ عشَرةِ أوراق عَرْضًا بلفظِه كلَّ يوم عَقِبَ صلاة الصُّبح لا يتوقَّفُ في شيءٍ من ذلك (١١٥٢)

وقال أبو بكر بنُ جابر السَّقَطيّ:
أخبَرَنا بعضُ الشَّرْقيّة أنّ أبا عُمر بنَ عاتٍ حَضَرَ في جماعة من طَلَبَة العلم لسَماع السِّيَر على بعض شيوخِهم فغابَ الكتابُ أو القاري بكتابِه
فقال أبو عُمر بنُ عات: أنا أقرأُ لكم، فقَرَأَ لهم من حِفظِه» (١١٥٣)

(١١٥١) «تاريخ دمشق لابن عساكر» (٣٢/ ٣٧٤).
(١١٥٢) «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» (١/ ٧٣٧).
(١١٥٣) «تاريخ دمشق لابن عساكر» (٣٢/ ٣٧٤).

وقال أحمد بن سعيد الهمداني:

قرأ علينا إِسْحَاق بْن الفُرات " مُوَطّأ مالك " من حفظه فما أسقط حرفًا فيما أعلم» (١١٥٤)

وقال أَحْمَد بْن الْخَضِر الشَّافِعِيّ غَيْر مَرَّة:

قَدِمَ عَلَيْنَا أَبُو عَلِيّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيّ الْحَافِظُ الْبَلْخِيُّ، حَاجًّا، فَعَجَزَ أَهْلُ بَلَدِنَا عَنْ مُذَاكَرَتِهِ لِحِفْظِهِ» (١١٥٥)

وقال مِهْرَان الرَّازِيّ:

كَتَبتُ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيّ أَصْنَافَهُ، فَضَاعَ مِنِّي كِتَابُ الدِّيَاتِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِذَا وَجَدْتَنِي خَالِياً، فَاذْكُرْ لِي حَتَّى أُمِلَّهُ عَلَيْكَ.

فَحَجَّ، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ، طَافَ بِالبَيْتِ، وَسَعَى، ثُمَّ اضْطَجَعَ، فَذَكَّرْتُهُ، فَجَعَلَ يُمْلِي عَلَيَّ الكِتَابَ بَاباً فِي إِثْرِ بَابٍ، حَتَّى أَمْلَاهُ جَمِيْعَهُ مِنْ حِفْظِه» (١١٥٦)

(١١٥٤) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٣/ ٢٨١).

(١١٥٥) «معرفة علوم الحديث للحاكم» (ص١٤٢).

(١١٥٦) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٧/ ٢٤٧).

وذكر ابن بشكوال في ترجمة عَلِيّ بن أَحْمد بن سَيّده اللّغَوِيّ صاحب "الْمُحكم وَالْمُحِيط الْأَعْظَم فِي اللُّغَة"

قال أبو علي الطلنكي: دخلت مرسية فتشبث بي أهلها يسمعوا علي غريب المصنف. فقلت لهم: انظروا لي من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابي، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيدة فقرأه على من أوله إلى آخره فعجبت من حفظه. وكان أعمى بن أعمى» (١١٥٧)

وقال الصفدي في ترجمة عَلِيّ بن عباد أَبي الْحسن المستوفي:

«من إصبهان كَانَ أديباً فَاضلا شَاعِرًا قَالَ القَاضِي يحيى بن الْقَاسِم التكريتي كَانَ يحفظ كثيرا من الأراجيز والأشعار حكى لنا أَنه يحفظ جَمِيع أراجيز العجاج وَولده رؤبة وَجَمِيع أراجيز أبي النَّجْم الْعجلِيّ وَكُنَّا نمتحنه ونطلب مِنْهُ أَن ينشدنا أراجيز على حُرُوف المعجم وَكَانَ ينشدنا على أَي حرف طلبنا مِنْهُ» (١١٥٨)

وقال الخطيب في ترجمة قِرْطِمَة أَبي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّد بن عَلِيٍّ البَغْدَادِيّ:

قال داود بن يحيى بن يمان: الناس يقولون أبو زرعة وأبو حاتم في الحفظ، والله ما رأيت أحفظ من قرطمة؛ دخلت عليه غرفته وبين يديه كتب وكيع سماعه من عمرو الأودي مصبوبة، فقال: ترى هذه الكتب المصبوبة؟ أيما أحب إليك أن أذكر من أول الباب إلى آخره، أو من آخر الباب إلى أوله؟ فقال: خذ أي كتاب شئت.

(١١٥٧) «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال» (ص٣٩٧).

(١١٥٨) «الوافي بالوفيات» (٢١/ ١١٢).

فقلبت كتاب الأشربة، وكان من أشق كتبه، فجعل يذكر من آخر الباب إلى أوله حتى أتى على الكتاب كله» (١١٥٩)

وقال عَبْد الرَّزَّاقِ:

كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عِنْدَنَا لَيْلَةً قَالَ: وَسَمِعْتُ قَرَأَ الْقُرْآنَ مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ نَائِمٌ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَقَضَى جُزْأَهُ مِنَ الصَّلَاةِ ثُمَّ قَعَدَ فَجَعَلَ يَقُولُ: الْأَعْمَشُ وَالْأَعْمَشُ وَالْأَعْمَشُ وَمَنْصُورٌ وَمَنْصُورٌ وَمَنْصُورٌ وَمُغِيرَةُ وَمُغِيرَةُ وَمُغِيرَةُ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جُزْئِي مِنَ الصَّلَاةِ وَهَذَا جُزْئِي مِنَ الْحَدِيثِ "» (١١٦٠)

وقال عبد الرحمن بن مهدي:

لَمَّا قَدِمَ سفيان الثَّوْرِيُّ البَصْرَةَ، قَالَ لِي: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ! جِئْنِي بِإِنْسَانٍ أُذَاكِرُهُ.

فَأَتَيْتُهُ بِيَحْيَى بنِ سَعِيْدٍ القطان فَذَاكَرَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ لِي: يا عبد الرحمن قُلْتُ لَكَ: جِئْنِي بِإِنْسَانٍ، جِئْتَنِي بِشَيْطَانٍ" قال الذهبي في "السير" -يَعْنِي: بَهَرَهُ حِفْظُهُ» (١١٦١)

وقال محمد بن بشار:

مَا بَكَيْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ المُحَدِّثِيْنَ، مَا بَكَيْتُ عَلَى أَبِي دَاوُدَ الطيالسي.

(١١٥٩) «تاريخ بغداد ت بشار» (٤/ ١١٠).

(١١٦٠) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٢٦٥).

(١١٦١) «المجروحين ت حمدي» (١/ ٥٠).

قال: قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ؟ قَالَ: لِمَا كَانَ مِنْ حِفْظِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ مُذَاكَرَتِهِ (١١٦٢)

وقَالَ حَمَّاد بن زيد:

سَمِعت أَيُّوب وَيحيى بن عَتيق وهشاما يتذاكرون حَدِيث مُحَمَّد فَذكرُوا حَدِيثا فَقَالَ أَيُّوب هُوَ كَذَا وَخَالفهُ هِشَام وَيحيى ثمَّ لم يقوما حَتَّى رجعا إِلَى حفظ أَيُّوب قَالَ فَأَرَادَ أَيُّوب أَن يضع من نَفسه فَقَالَ وَمَا الْحِفْظ وإيش الْحِفْظ هَذَا فلَان يحفظ قَالَ حَمَّاد رجل رَأَيْته يضْحك بِهِ» (١١٦٣)

ولَمَّا قَدِمَ الثَّوْرِيُّ البَصْرَةَ، قَالَ:

يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ! جِئني بِإِنْسَانٍ أُذَاكِرُهُ.

فَأَتَيْتُهُ بِيَحْيَى بنِ سَعِيدٍ، فَذَاكَرَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ:

قُلْتُ لَكَ: جِئني بِإِنْسَانٍ، جِئْتَنِي بِشَيْطَانٍ -يَعْنِي: بَهَرَهُ حِفْظُهُ-» (١١٦٤)

وقَالَ مَعْمَر:

خرجت مَعَ الصبيان وأنا غلام إلى جنازة الْحَسَن فطلبت العلم سنة مات الْحَسَن، وعَنْ مُحَمَّد بْن كثير عَنْ مَعْمَر قَالَ سَمِعت من قتادة وانا ابن أربع عشرة سنة فما

(١١٦٢) «تاريخ بغداد ت بشار» (١٠/ ٣٢).

(١١٦٣) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله» (٢/ ٤٦٥).

(١١٦٤) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٩/ ١٧٧).

شئ سمعته فِي تلك السنين إلا وكأَنَّهُ مكتوب في صدري» (١١٦٥)

وقال مُعَاذ بْن مُعَاذ:

" كُنَّا بِبَابِ ابْنِ عَوْنٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا شُعْبَةُ وَقَدْ عَقَدَ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا فَكَلَّمَهُ بَعْضُنَا، فَقَالَ: «لَا تُكَلِّمْنِي فَإِنِّي قَدْ حَفِظْتُ عَنِ ابْنِ عَوْنٍ عَشَرَةَ أَحَادِيثَ أَخَافُ أَنْ أَنْسَاهَا» (١١٦٦)

وقال أَبُو زُرْعَةَ:

إِذَا انْفَرَدَ ابْنُ إِسْحَاقَ بِالحَدِيْثِ، لَا يَكُونُ حُجَّةً. ثُمَّ رَوَى لَهُ حَدِيْثَ القِرَاءَةِ خَلْفَ الإِمَامِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُوْلُ: كَانَ الحَوضِيُّ، وَعَلِيُّ بنُ الجَعْدِ، وَقَبِيْصَةُ، يَقْدِرُوْنَ عَلَى الحِفْظِ، يَجِيْؤُونَ بِالحَدِيْثِ بِتَمَامٍ. وَذَكَرَ عَنْ قَبِيْصَةَ كَأَنَّهُ يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ» (١١٦٧)

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ يُحَرِّجُ عَلَى أَصْحَابِهِ أَنْ يَكْتُبُوا عَنْهُ فِي الْمُذَاكَرَةِ شَيْئًا» (١١٦٨)

(١١٦٥) «التاريخ الكبير» للبخاري (٧/ ٣٧٨ ت المعلمي اليماني).

(١١٦٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣٩).

(١١٦٧) «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (١٣/ ٨٠).

(١١٦٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ٣٧).

حفظ الكتاب

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَابِرٍ الْمَرْوَزِيُّ:

" كُنَّا نُجَالِسُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ: فَيَذْكُرُ الْحَدِيثَ وَنَحْفَظُهُ وَنَتْقِنُهُ فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَكْتُبَهُ قَالَ: " الْكِتَابُ أَحْفَظُ قَالَ: فَنَكْتُبُ صَفْحَةً وَيَجِيءُ بِالْكِتَابِ "» (١١٦٩)

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: عَنْ يَحْيَى بْنِ آدَمَ قَالَ:

نَظَرْتُ فِي كِتَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِدْرِيسَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ لَيْسَ فِيهِ: ثُمَّ لَمْ يَعُدْ.

قال البخارى: فَهَذَا أَصَحُّ لِأَنَّ الْكِتَابَ أَحْفَظُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ لِأَنَّ الرَّجُلَ رُبَّمَا حَدَّثَ بِشَيْءٍ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْكِتَابِ فَيَكُونُ كَمَا فِي الْكِتَابِ» (١١٧٠)

وقال الحسن بن سفيان

جاء أبو بكر الأعين إلى الخان الذي نزلت فيه فكتب عني هذا الحديث (١١٧١)

(١١٦٩) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (٢/ ١٢).

(١١٧٠) «رفع اليدين في الصلاة» (ص٨٠).

(١١٧١) «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣/ ٤٠٦).

وقال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ:

سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ، قَالَ عَفَّانُ: " نَا يَوْمًا، هَمَّامٌ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ يَزِيدَ بْنَ زُرَيْعٍ نَا عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ ذَكَرَ خِلَافَ ذَلِكَ الْحَدِيثِ قَالَ: فَذَهَبَ فَنَظَرَ فِي الْكِتَابِ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا عَفَّانُ أَلَا تَرَانِي أُخْطِئُ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ قَالَ عَفَّانُ: فَكَانَ هَمَّامٌ إِذَا حَدَّثَنَا بِقُرْبِ عَهْدٍ بِالْكِتَابِ فَقَلَّمَا كَانَ يُخْطِئُ قَالَ: إِنِّي وَمَنْ سَمِعَ مِنْ هَمَّامٍ بِأَخَرَةٍ فَهُوَ أَجْوَدُ لِأَنَّ هَمَّامًا كَانَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ أَصَابَتْهُ زَمَانَةٌ فَكَانَ يَقْرُبُ عَهْدُهُ بِالْكِتَابِ فَقَلَّمَا كَانَ يُخْطِئُ» (١١٧٢)

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ:

ذَاكَرْتُ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ يَوْمًا وَهُوَ بِمِصْرَ عَنْ أَبِي مَوْدُودٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: مَرِضْتُ فَعَادَنِي ابْنُ عُمَرَ فِي يَوْمٍ مَهِينٍ، قَالَ أَحْمَدُ: فَأَعْجَبَ يَحْيَى هَذَا الْحَدِيثُ وَقَالَ لِي: أَفِدْنِيهِ عَمَّنْ كَتَبْتَهُ؟ قَالَ: فَصِرْتُ مَعَهُ إِلَى عَبْدِ الْمُنْعِمِ فَسَأَلَهُ يَحْيَى أَنْ يُخْرِجَ لَهُ أَصْلَ كِتَابِهِ، فَاعْتَلَّ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوَعَدَهُ مَخْرَجَهُ بِالْعَشِيِّ، قَالَ أَحْمَدُ: فَلَمَّا اجْتَمَعْنَا لِلْمَصِيرِ إِلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ذَكَرْتُ لِيَحْيَى بْنِ مَعِينٍ حَدِيثَ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بِالْيَمِينِ مَعَ الشَّاهِدِ، فَقَالَ لِي يَحْيَى: مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، قُلْتُ: إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْعُمَرِيُّ قَالَ: لَيْسَ يَحْتَمِلُ هَذَا كُلَّهُ، مَنْ حَدَّثَكَ بِهِ؟ قُلْتُ: هَذَا الشَّيْخُ الَّذِي تُرِيدُهُ، أَعْنِي عَبْدَ الْمُنْعِمِ قَالَ: كَفَيْتَنَا الْمُؤْنَةَ، ارْجِعُوا بِنَا، فَرَجَعَ وَلَمْ يَكْتُبْ عَنْهُ. قَالَ أَبُو يَحْيَى: قِيلَ لِأَبِي جَعْفَرٍ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ: سَمِعْتَ هَذَا مِنْ هَذَا الشَّيْخِ عَنِ

(١١٧٢) «العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله» (١/ ٣٥٧).

الْعُمَرِيّ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَبَى أَحْمَدُ أَنْ يُحَدِّثَنَا عَنْ هَذَا الشَّيْخ وَقَالَ: لَا أُحَدِّثُ عَنْهُ، فَقُلْنَا لَهُ: إِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ ضَعِيفٌ، فَحَدَّثَنَا عِنْدَ ذَلِكَ» (١١٧٣)

وقال الحاكم:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ هَانِئٍ ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ نُعَيْمٍ ، ثنا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ ، ثنا أَزْهَرُ ، ثنا ابْنُ عَوْنٍ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، عَنْ عَبِيدَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي» قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهِ يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ، فَقَالَ: لَيْسَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَوْنٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى فِيهِ، قَالَ: لَا، فَقُلْتُ: إِنَّ أَزْهَرَ ، ثَنَا عَنِ ابْنِ عَوْنٍ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، عَنْ عُبَيْدَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: رَأَيْتُ أَزْهَرَ جَاءَ بِكِتَابِهِ لَيْسَ فِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ: فَاخْتَلَفْتُ إِلَى أَزْهَرَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرَيْنِ لِلنَّظَرِ فِيهِ فَنَظَرَ فِي كِتَابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: لَمْ أَجِدْهُ إِلَّا عَنْ عُبَيْدَةَ (١١٧٤)

وقَالَ أَبُو حَاتِم:

كَانَ دَاوُد بْن الزبْرِقَان شَيخا صَالحا يحفظ الْحَدِيث ويذاكر بِهِ وَلكنه كَانَ يهم فِي المذاكرة ويغلط فِي الرِّوَايَة إِذَا حدث من حفظَة وَيَأْتِي عَن الثِّقَات بِمَا لَيْسَ من أَحَادِيثهم فَلَمَّا نظر يَحْيَى إِلَى تِلْكَ الْأَحَادِيث أنكرها وَأطلق عَلَيْهِ الْجرْح بِهَا» (١١٧٥)

(١١٧٣) «الضعفاء الكبير للعقيلي» (٣/ ١١٢).

(١١٧٤) «معرفة علوم الحديث للحاكم» (ص٤٢).

(١١٧٥) «المجروحين لابن حبان ت زايد» (١/ ٢٩٢).

وقال عبد الرحمن بن مهدي:

ذاكرني أبو عوانة بحديث، فقلت: ليس هذا من حديثك، فقال: لا تفعل يا أبا سعيد، هو عندي مكتوب، قلت: فهاته، قال: يا سلامة هاتي الدرج، ففتش فلم يجد شيئًا، فقال: من أين أتيت يا أبا سعيد؟ قال: هذا ذوكرت به وأنت شاب، فعلق بقلبك فظننت أنك قد سمعته» (١١٧٦)

وقال ابن أبي حاتم:

وسألتُ أَبِي عَنْ حديثٍ رَوَاهُ سَعْدان، عَنْ يُونُسَ، عَنِ الزُّهْرِي، عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيب وَأَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ: يُوشِكُ أَقْصَى مَسَالِحِ الْمُسْلِمِينَ بِسلاح قَالَ أَبِي: وَرَوَاهُ الزُّهْرِي، عَنْ سَالِمٍ، سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، مَوْقُوفٌ.

قَالَ أَبِي: الموقوفُ أشبهُ.

قلتُ: وَمَا تُنكِرُ أَنْ يكونَ سَمِعَ منهُما؟

قَالَ: أُنكِرُ! فإنَّه لا يَحْتملُ أَنْ يكونَ هَذَا مِنْ حديث قَبِيصَة

وسَعْدانُ أَرَى أَنَّهُ سمعَ مِنْ يونس بمكة، أو بالمدينة، ويُونُسُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ كُتُبُهُ.

قال وكيعٌ: رأيتُ يونسَ ابن يَزِيدَ بِمَكَّةَ، فجَهَدتُّ أَنْ يُقِيمَ لِي إسنادَ حديثٍ، لَمْ يُقِمْه، فَنَرَى أَنَّ سَعْدان سَمِعَ مِنْهُ بِمَكَّةَ؛ لأنَّ حديثَهُ وحديثَ أَبِي ضَمْرة وسُلَيمانَ بْنِ بِلالٍ وطَلحَةَ بْنِ يَحْيَى متقاربٌ» (١١٧٧)

(١١٧٦) «المجروحين لابن حبان ت حمدي» (١/ ٥١).

(١١٧٧) «العلل» لابن أبي حاتم (٣/ ٣٨٣ ت الحميد).

وقال أبو طالب:

سئل أحمد بن حنبل أبو عوانة أثبت أم شريك قال إذا حدث أبو عوانة من كتابه فهو أثبت وإذا حدث من غير كتابه فربما وهم قال عفان كان أبو عوانة صحيح الكتاب كثير العجم والنقط كان ثبت» (١١٧٨)

وقال الفسوى:

سَمِعْتُ الْحُمَيْدِيَّ يَقُولُ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَبَدَأْتُ بِعَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ الدراوَرْدِيِّ فَجَاءَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ «يَلُومُونَنِي يَقُولُونَ تَرَكْتَ شَيْخَنَا أَنْ تَبْدَأَ بِهِ وَتَأْتِيَهُ. قَالَ: يَلُومُونَنِي فِيمَا فَعَلْتُ إِنَّمَا أَتَيْتُ الدراوَرْدِيَّ» لِأُسَلِّمَ عَلَيْهِ وَأَكْتُبَ عَنْهُ شَيْئًا، وَيَكُونُ اعْتِمَادِي عَلَى ابْنِ أَبِي حَازِمٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَبَلَغَ الدراوَرْدِيَّ اجْتِمَاعُ مَنِ اجْتَمَعَ إِلَيَّ فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَيْهِ قَالَ: يَا قُرَشِيُّ قَدْ بَلَغَنِي الَّذِي كَانَ وَقَدْ عَزَمْتُ أَنْ أُخْرِجَ إِلَيْكَ كُتُبِي وَأُصُولِي لِتَكْتُبَهَا وَأَقْرَأُهَا عَلَيْكَ. قَالَ: فَأَخْرَجَ إِلَيَّ أُصُولَهُ وَإِذَا هو كُتُبٌ صِحَاحٌ وَأَحَادِيثُ مُسْتَقِيمَةٌ. قَالَ: وَقَدْ كَانَ يُؤْتَى بِالْأَحَادِيثِ فَيَقْرَأُ عَلَيْهِ فَإِنْ كَانَ مِنْ حديثه الَّذِي حملوا عنه خلا فَإِنَّمَا جَاءَ مِمَّا أَعْلَمْتُكُمْ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ مِنْ كُتُبِهِ النَّاسُ، وَقَدْ كَانَ يُذَاكِرُ بِالْحَدِيثِ مما ليس عنده فيتهانون بِهِ وَيَقُولُ: هَذَا مِمَّا لَمْ يَكُنْ فِي كُتُبِهِ، وَيُذَاكِرُ بِالشَّيْءِ الْمَرْفُوعِ فَيَقُولُ هَذَا فِي أصل كتابه منقطع" (١١٧٩)

(١١٧٨) «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (٩/ ٤٠).

(١١٧٩) «المعرفة والتاريخ - ت العمري - ط العراق» (١/ ٤٢٨).

وقال يَحْيَى بْن سَعِيدٍ:
مَا رَأَيْتُ عَبْدَ الْوَاحِدِ بْنَ زِيَادٍ يَطْلُبُ حَدِيثًا قَطُّ بِالْبَصْرَةِ وَلَا بِالْكُوفَةِ. قَالَ يَحْيَى: وَكُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ أُذَاكِرُهُ حَدِيثَ الْأَعْمَشِ لَا يُعْرَفُ مِنْهُ حَرْفًا» (١١٨٠)

وقال ابن حجر:
«قلت: وَهَذَا غير قَادِح لِأَنَّهُ كَانَ صَاحب كتاب وَقد احْتج بِهِ الْجَمَاعَة» (١١٨١)

(١١٨٠) «الضعفاء الكبير للعقيلي» (٣/ ٥٥).
(١١٨١) «فتح الباري» (١/ ٤٢٢).

المبحث العشرون:

عزة النفس.

٢٠-عزة النفس.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ:

" بَعَثَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ إِلَى سُفْيَانَ يَجِيءُ يُحَدِّثُهُ، فَقِيلَ لِإِبْرَاهِيمَ: " تَبْعَثُ إِلَيْهِ حَتَّى يُحَدِّثَكَ؟ قَالَ: " أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ تَوَاضُعَهُ، قَالَ: فَجَاءَ فَحَدَّثَهُ "» (١١٨٢)

وقال الْحُسَيْنُ بْنُ عُرْوَةَ:

قَالَ لما حج هارون وقدم الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَى مَالك بِكِيسٍ فيه خمسمائة دِينَارٍ فَلَمَّا قَضَى نُسُكَهُ وَانْصَرَفَ وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَيْهِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّ أَنْ يُزَامِلَ مالكا إلى المدينة السَّلَامِ، فَقَالَ لِلرَّسُولِ: قُلْ لَهُ إِنَّ الْكِيسَ بِخَاتَمِهِ،

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يعلمون. قال فتركه» (١١٨٣)

وقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا، يُحَدِّثُ:

" أَنَّ عَامِلًا مِنَ الْعُمَّالِ بَعَثَ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ بِخَمْسَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ: بُعِثَ بِهَذَا إِلَيْكَ - أَصْلَحَكَ اللَّهُ - لِتُنْفِقَهَا وَتَجْعَلَهَا فِي حَاجَتِكَ، قَالَ: وَسَعِيدٌ جَادٌّ مُجِدٌّ يُحَاسِبُ غُلَامَهُ فِي نِصْفِ دِرْهَمٍ يَدَّعِيهِ قِبَلَهُ، وَالْغُلَامُ يَقُولُ: لَيْسَ لَكَ عِنْدِي شَيْءٌ، قَالَ سَعِيدٌ لِلرَّسُولِ: اذْهَبْ إِلَى عَمَلِكَ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ أَيْضًا، فَقَالَ: اغْرُبْ عَنِّي، وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْهُ، وَكَلَّمَهُ إِنْسَانٌ فِي تَرْكِهِ أَنْ يَأْخُذَهَا، فَقَالَ

(١١٨٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٣٧٠).

(١١٨٣) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٠).

لَهُ ابْنُ الْمُسَيِّبِ: هَذَا النِّصْفُ دِرْهَمٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهَا "» (١١٨٤)

وقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ صَالِحٍ الْخُرَاسَانِيُّ - صَاحِبُ الْحُمَيْدِيِّ - بِمَكَّةَ:

دَخَلْتُ عَلَى حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ فَإِذَا لَيْسَ فِي الْبَيْتِ إِلَّا حَصِيرٌ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَيْهِ وَمُصْحَفٌ يَقْرَأُ فِيهِ وَجِرَابٌ فِيهِ عِلْمُهُ، وَمِطْهَرَةٌ يَتَوَضَّأُ فِيهَا، فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ جَالِسٌ إِذْ دَقَّ عَلَيْهِ دَاقُّ الْبَابِ، فَقَالَ: يَا صَبِيَّةُ اخْرُجِي فَانْظُرِي مَنْ هَذَا، قَالَتْ: هَذَا رَسُولُ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: قُولِي لَهُ يَدْخُلُ وَحْدَهُ، فَدَخَلَ، فَسَلَّمَ، وَنَاوَلَهُ كِتَابَهُ، فَقَالَ: اقْرَأْهُ، فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ إِلَى حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، أَمَا بَعْدُ : فَصَبَّحَكَ اللَّهُ بِمَا صَبَّحَ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ، وَقَعَتْ مَسْأَلَةٌ، فَأْتِنَا نَسْأَلُكَ عَنْهَا، قَالَ: يَا صَبِيَّةُ هَلُمِّي الدَّوَاةَ، ثُمَّ قَالَ لِي: اقْلِبِ الْكِتَابَ وَاكْتُبْ: أَمَا بَعْدُ: وَأَنْتَ فَصَبَّحَكَ اللَّهُ بِمَا صَبَّحَ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ، وَأَهْلَ طَاعَتِهِ، إِنَّا أَدْرَكْنَا الْعُلَمَاءَ وَهُمْ لَا يَأْتُونَ أَحَدًا، فَإِنْ وَقَعَتْ مَسْأَلَةٌ فَأْتِنَا فَسَلْنَا عَمَّا بَدَا لَكَ، وَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَأْتِنِي إِلَّا وَحْدَكَ، وَلَا تَأْتِنِي بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ، فَلَا أَنْصَحُكَ وَلَا أَنْصَحُ نَفْسِي وَالسَّلَامُ، فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ جَالِسٌ إِذْ دَقَّ دَاقُّ الْبَابِ، فَقَالَ: يَا صَبِيَّةُ اخْرُجِي فَانْظُرِي مَنْ هَذَا، قَالَتْ: هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: قُولِي لَهُ يَدْخُلُ وَحْدَهُ، فَدَخَلَ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: «مَا لِي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ امْتَلَأْتُ رُعْبًا» ، فَقَالَ حَمَّادٌ: سَمِعْتُ ثَابِتًا الْبُنَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا أَرَادَ بِعِلْمِهِ وَجْهَ اللَّهِ هَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَكْنِزَ بِهِ الْكُنُوزَ هَابَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» فَقَالَ: مَا تَقُولُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فِي رَجُلٍ لَهُ ابْنَانِ وَهُوَ عَنْ أَحَدِهِمَا أَرْضَى، فَأَرَادَ أَنْ

(١١٨٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٣٦١).

يَجْعَلَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ ثُلُثَيْ مَالِهِ، قَالَ: لَا تَفْعَلْ رَحِمَكَ اللَّهُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ ثَابِتًا الْبُنَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُعَذِّبَ عَبْدَهُ بِمَالِهِ وَفَّقَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ لِوَصِيَّةٍ جَائِرَةٍ» قَالَ: فَحَاجَةٌ إِلَيْكَ، قَالَ: هَاتِ، مَا لَمْ تَكُنْ رَزِيَّةً فِي دِينٍ، قَالَ: أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ تَأْخُذُهَا تَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، قَالَ: ارْدُدْهَا عَلَى مَنْ ظَلَمْتَهُ بِهَا، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أُعْطِيكَ إِلَّا مَا وَرِثْتُهُ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا، ازْوِهَا عَنِّي زَوَى اللَّهُ عَنْكَ أَوْزَارَكَ، قَالَ: فَغَيْرَ هَذَا، قَالَ: هَاتِ، مَا لَمْ يَكُنْ رَزِيَّةً فِي دِينٍ، قَالَ تَأْخُذُهَا فَتَقْسِمَهَا، قَالَ: فَلَعَلِّي إِنْ عَدَلْتُ فِي قَسْمِهَا أَنْ يَقُولَ بَعْضُ مَنْ لَمْ يُرْزَقْ مِنْهَا: إِنَّهُ لَمْ يَعْدِلْ فِي قَسْمِهَا فَيَأْثَمَ ازْوِهَا عَنِّي زَوَى اللَّهُ عَنْكَ أَوْزَارَكَ " (١١٨٥)

وقَالَ الخطَّابِيُّ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ المِسْكِيّ، حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بنُ جَابِرٍ خَادِمُ أَبِي دَاوُدَ -رَحِمَهُ اللهُ- قَالَ:

كُنْتُ مَعَ أَبِي دَاوُدَ بِبَغْدَادَ، فَصَلَّينَا المَغْرِبَ، فَجَاءهُ الأَمِيْرُ أَبُو أَحْمَدَ المُوَفَّق -يَعْنِي: وَلِيَّ العَهْدِ- فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو دَاوُدَ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِالأَمِيْرِ فِي مِثْلِ هَذَا الوَقْتِ؟

قَالَ: خِلَالٌ ثَلَاثٌ.

قَالَ: وَمَا هِيَ؟

قَالَ: تَنْتَقِلُ إِلَى البَصْرَةِ فَتَتَّخِذَهَا وَطَناً، لِيَرْحَلَ إِلَيْكَ طَلَبَةُ العِلْمِ، فَتَعْمُرَ بِكَ، فَإِنَّهَا قَدْ خَرِبَتْ، وَانْقَطَعَ عَنْهَا النَّاسُ، لِمَا جَرَى عَلَيْهَا مِنْ مِحْنَةِ الزِّنْجِ.

(١١٨٥) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٣٦٢).

فَقَالَ: هَذِهِ وَاحِدَةٌ. قَالَ: وَتَرْوِي لِأَوْلَادِي (السُّنَنَ).
قَالَ: نَعَمْ، هَاتِ الثَّالِثَةَ. قَالَ: وَتُفْرِدُ لَهُم مَجْلِساً، فَإِنَّ أَوْلَادَ الخُلَفَاءِ لَا يَقْعُدُوْنَ مَعَ العَامَّةِ. قَالَ: أَمَّا هَذِهِ فَلَا سَبِيْلَ إِلَيْهَا، لِأَنَّ النَّاسَ فِي العِلْمِ سَوَاءٌ.
قَالَ ابْنُ جَابِرٍ: فَكَانُوا يَحْضُرُوْنَ وَيَقْعُدُوْنَ فِي كِمٍّ حِيْرِيٍّ، عَلَيْهِ سِتْرٌ، وَيَسْمَعُوْنَ مَعَ العَامَّةِ" (١١٨٦)

وقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْحَرْبِيُّ:
كَانَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَبْدًا أَسْوَدَ لامْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَكَانَ أَنْفُهُ كَأَنَّهُ بَاقِلاَةٌ قَالَ: وَجَاءَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَطَاءٍ هُوَ وَابْنَاهُ فَجَلَسُوا إِلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَلَمَّا صَلَّى انْفَتَلَ إِلَيْهِمْ فَمَا زَالُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَقَدْ حَوَّلَ قَفَاهُ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ لابْنَيْهِ: «قُومَا» ، فَقَامَا ، فَقَالَ: «يَا بَنِيَّ لَا تَنِيَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، فَإِنِّي لَا أَنْسَى ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيْ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ» (١١٨٧)

وقال أَبُو نَصْرٍ مَنْصُورُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الْمُفَسِّرُ إِمْلَاءً بِنَيْسَابُورَ:
سَمِعْتُ أَبَا الطَّيِّبِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ حَمْدُونَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُسَدَّدًا، يَعْنِي ابْنَ قَطَنٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:

(١١٨٦) «معالم السنن» (١/ ٧).
(١١٨٧) «الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي» (١/ ١٤٠).

" كُنْتُ عِنْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ إِذْ أَقْبَلَ طَاهِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ وَالْمِطْرَقَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا جَلَسَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ فَقَبَضَ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ يُسْتَخَفُّ بِشَيْخٍ مِثْلِي قَالَ: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ؟ قَالَ:

" بَعَثَتْ إِلَيَّ أَنْ تَعَالَ فَخَدِّثْنِي، الْعَالِمُ يَأْتِي أَوْ يُؤْتَى؟ قَالَ: " لَا أَعُودُ يَا أَبَا أَيُّوبَ، قَالَ: لَا تَعُودَنَّ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا، إِنْ أَرَدْتَ الْحَدِيثَ فَهَذَا مَجْلِسِي "» (١١٨٨)

وقَالَ مُحَمَّد بْن حسان:

قَالَ لي عمي: قَدِمَ مُحَمَّد بْن قُطْبَةَ الْكُوفَة فَقَالَ: أحتاج إِلَى مُؤَدّب يؤدبُ أَوْلَادِي، حافظٌ لكتاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، عَالِمٌ بِسنة رَسُول اللّٰه ﷺ وبالآثار وَالْفِقْه والنحو وَالشعر وَأَيَّام النّاس فَقيل لَهُ: مَا يجمع هَذِه الْأَشْيَاء إِلَّا دَاوُد الطَّائِي وَكَانَ مُحَمَّد بْن قُطْبَةَ ابْن عَم دَاوُد، فَأرْسل إِلَيْهِ يعرض ذَلِكَ عَلَيْهِ ويُسَنِّي لَهُ الأرزاق والفائدة، فَأبى داودُ ذَلِكَ، فَأرْسل بدرة فِيهَا عشرَة آلَاف دِرْهَم، وَقَالَ لَهُ:

اسْتَعِنْ بِهَا عَلَى دهرك، فَردهَا، فَوجه إِلَيْهِ ببدرتين مَعَ غلامين لَهُ مملوكين، وَقَالَ: إِن قَبِل البدرتين فأنتما حُرَّان. فمضيا بهما إِلَيْهِ فَأبى أن يقبلهما فَقَالَا لَهُ: فِي قبولهما عتق رقابنا، فَقَالَ لَهما: إِنِّي أَخَاف أَن يكونَ فِي قَبُولهما وَهَقُ رقبتي فِي النَّار، رُدَّاها إِلَيْهِ وقولا لَهُ أَن يَرُدَّهما عَلَى من أَخَذْتُهما مِنْهُ أولى من أَن تُعْطِينِي إِيَّاهُمَا» (١١٨٩)

(١١٨٨) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٣٧٠).

(١١٨٩) «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» (ص١٤٦).

وقال الخطيب:

«وَإِذَا لَمْ يَجِدِ الطَّالِبُ مَنْ يُذَاكِرُهُ أَدَامَ ذِكْرَ الْحَدِيثِ مَعَ نَفْسِهِ وَكَرَّرَهُ عَلَى قَلْبِهِ» (١١٩٠)

وقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ:

«الْقُلُوبُ تُرْبٌ، وَالْعِلْمُ غَرْسُهَا، وَالْمُذَاكَرَةُ مَاؤُهَا، فَإِذَا انْقَطَعَ عَنِ التُّرْبِ مَاؤُهَا جَفَّ غَرْسُهَا» (١١٩١)

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَيَّارٍ: سَمِعْتُ ابْنَ عَرْعَرَةَ، يَقُولُ:

«كَانَ طَاهِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بِبَغْدَادَ، فَطَمِعَ فِي أَنْ يَسْمَعَ مِنْ أَبِي عُبَيْدٍ، وَطَمِعَ أَنْ يَأْتِيَهُ فِي مَنْزِلِهِ فَلَمْ يَفْعَلْ أَبُو عُبَيْدٍ حَتَّى كَانَ هَذَا يَأْتِيهِ، فَقَدِمَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ وَعَبَّاسٌ الْعَنْبَرِيُّ، فَأَرَادَا أَنْ يَسْمَعَا غَرِيبَ الْحَدِيثِ، فَكَانَ يَحْمِلُ كُلَّ يَوْمٍ كِتَابَهُ وَيَأْتِيهِمَا فِي مَنْزِلِهِمَا فَيُحَدِّثُهُمَا فِيهِ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا امْتَنَعَ أَبُو عُبَيْدٍ مِنَ الْمُضِيِّ إِلَى مَنْزِلِ طَاهِرٍ تَوْقِيرًا لِلْعِلْمِ، وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِ ابْنِ الْمَدِينِيِّ، وَعَبَّاسٍ تَوَاضُعًا وَتَدَيُّنًا، وَلَا وَكَفَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، إِذْ كَانَا مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْمَنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْعِلْمِ، وَقَدْ فَعَلَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ مِثْلَ هَذَا (١١٩٢)

(١١٩٠) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٢٣٨).

(١١٩١) السابق (٢/ ٢٧٨).

(١١٩٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي» (١/ ٣٧٠).

وقال عَبْد الرَّزَّاقِ:

كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عِنْدَنَا لَيْلَةً قَالَ: وَسَمِعْتُ قَرَأَ الْقُرْآنَ مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ نَائِمٌ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَقَضَى جُزْأَهُ مِنَ الصَّلَاةِ ثُمَّ قَعَدَ فَجَعَلَ يَقُولُ: الْأَعْمَشُ وَالْأَعْمَشُ وَالْأَعْمَشُ وَمَنْصُورٌ وَمَنْصُورٌ وَمَنْصُورٌ وَمُغِيرَةُ وَمُغِيرَةُ وَمُغِيرَةُ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جُزْئِي مِنَ الصَّلَاةِ وَهَذَا جُزْئِي مِنَ الْحَدِيثِ "» (١١٩٣)

وقَالَ الْمُنْذِرُ لِلنُّعْمَانِ ابْنِهِ:

«يَا بُنَيَّ أُحِبُّ لَكَ النَّظَرَ فِي الْأَدَبِ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ الْقَلْبَ بِالنَّهَارِ طَائِرٌ وَبِاللَّيْلِ سَاكِنٌ فَكُلَّمَا أَوْعَيْتَ فِيهِ شَيْئًا عَلِقَهُ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا اخْتَارُوا الْمُطَالَعَةَ بِاللَّيْلِ لِخُلُوِّ الْقَلْبِ فَإِنَّ خُلُوَّهُ يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْحِفْظَ (١١٩٤)

وقال أَحْمَد بْن الْفُرَاتِ:

" لَمْ نَزَلْ نَسْمَعُ شُيُوخَنَا يَذْكُرُونَ أَشْيَاءَ فِي الْحِفْظِ فَأَجْمَعُوا أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَبْلَغَ فِيهِ إِلَّا كَثْرَةُ النَّظَرِ، وَحِفْظُ اللَّيْلِ غَالِبٌ عَلَى حِفْظِ النَّهَارِ.

قَالَ: وَسَمِعْتُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ أَبِي أُوَيْسٍ يَقُولُ: إِذَا هَمَمْتَ أَنْ تَحْفَظَ شَيْئًا فَنَمْ وَقُمْ عِنْدَ السَّحَرِ فَأَسْرِجْ وَانْظُرْ فِيهِ فَإِنَّكَ لَا تَنْسَاهُ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ "» (١١٩٥)

(١١٩٣) السابق (٢/ ٢٦٥).

(١١٩٤) السابق.

(١١٩٥) السابق (٢/ ٢٦٥).

وقَالَ سُفْيَانُ:
«اجْعَلُوا الْحَدِيثَ حَدِيثَ أَنْفُسِكُمْ وَفِكْرَ قُلُوبِكُمْ تَحْفَظُوهُ» (١١٩٦)

وقِيلَ لِلْأَصْمَعِيِّ:
" كَيْفَ حَفِظْتَ وَنَسِيَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: دُرِسْتُ وَتَرَكُوا "» (١١٩٧)

وقال مُحَمَّدُ بْنُ نُعَيْمٍ الضَّبِّيُّ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا الْمَرَاغِيَّ، يَقُولُ:
" دَخَلْتُ مَقْبَرَةً بِتُسْتَرَ فَسَمِعْتُ صَائِحًا يَصِيحُ: وَالْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَالْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، سَاعَةً طَوِيلَةً فَكُنْتُ أَطْلُبُ الصَّوْتَ إِلَى أَنْ رَأَيْتُ ابْنَ زُهَيْرٍ وَهُوَ يَدْرُسُ مَعَ نَفْسِهِ مِنْ حِفْظِهِ حَدِيثَ الْأَعْمَشِ "» (١١٩٨)

وقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ: قَالَ أَبِي:
كَانَ النَّاسُ فِيمَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ الْأَوَّلِ إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ قَالَ: الْيَوْمُ يَوْمُ غَنَمِي فَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ وَإِذَا لَقِيَ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ قَالَ: الْيَوْمُ يَوْمُ مُذَاكَرَتِي فَيُذَاكِرُهُ وَإِذَا لَقِيَ مَنْ هُوَ دُونَهُ عَلَّمَهُ وَلَمْ يَزْهَ عَلَيْهِ، قَالَ: حَتَّى صَارَ هَذَا الزَّمَانُ فَصَارَ الرَّجُلُ

(١١٩٦) السابق (٢/ ٢٦٦).
(١١٩٧) السابق (٢/ ٢٦٧).
(١١٩٨) السابق (٢/ ٢٦٧).

يَعِيبُ مَنْ فَوْقَهُ ابْتِغَاءَ أَنْ يَنْقَطِعَ مِنْهُ حَتَّى لَا يَرَى النَّاسُ أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ حَاجَةً وَإِذَا لَقِيَ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ لَمْ يُذَاكِرْهُ فَهَلَكَ النَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ "» (١١٩٩)

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْجَرَّاحِ قَالَ:

دَخَلْتُ عَلَى أَبِي يُوسُفَ رحمه الله فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: الرَّمْيُ رَاكِبًا أَفْضَلُ أَمْ مَاشِيًا؟ فَقُلْتُ: مَاشِيًا، فَقَالَ: أَخْطَأْتَ،

فَقُلْتُ: رَاكِبًا، فَقَالَ: أَخْطَأْتَ،

ثُمَّ قَالَ: كُلُّ رَمْيٍ بَعْدَهُ وُقُوفٌ، فَالرَّمْيُ مَاشِيًا أَفْضَلُ، وَمَا لَيْسَ بَعْدَهُ وُقُوفٌ فَالرَّمْيُ رَاكِبًا أَفْضَلُ، فَقُمْتُ مِنْ عِنْدِهِ فَمَا انْتَهَيْتُ إِلَى بَابِ الدَّارِ حَتَّى سَمِعْتُ الصُّرَاخَ بِمَوْتِهِ، فَتَعَجَّبْتُ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى الْعِلْمِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالَةِ.

وَفِي فَتَاوَى قَاضِي خَانْ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ رَحِمَهُمَا اللَّهُ: الرَّمْيُ كُلُّهُ رَاكِبًا أَفْضَلُ، لِأَنَّهُ رُوِيَ رُكُوبُهُ عليه الصلاة والسلام فِيهِ كُلِّهِ» (١٢٠٠)

وقال الشنقيطي:

«وأظهر الأقوال في المسألة: هو الاقتداء بالنبي - صلى الله عليه وسلم، وهو قد رمى جمرة العقبة راكبًا، ورمى أيام التشريق ماشيًا ذهابًا وإيابًا» (١٢٠١)

(١١٩٩) السابق.

(١٢٠٠) «فتح القدير للكمال ابن الهمام وتكملته ط الحلبي» (٢/ ٥٠١).

(١٢٠١) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٥/ ٣٣٢ ط عطاءات العلم).

المبحث الحادي والعشرون:

اغتنام الزمن.

٢١-اغتنام المحن.

قال السيوطى: في ترجمة القاضي أبي العباس أحمد بن علي بن هبة الله بن الحسن بن علي بن محمد بن يعقوب بن الحسين بن عبد الله المأمون بن الرشيد، المعروف بابن المأمون، (ت٥٨٦هـ) عن سبع وسبعين سنة:

قَالَ ياقوت: قَرَأَ اللُّغَة والنحو على أبي مَنْصُور الجواليقي، وَكتب الْخط الْمليح، وَولي الْقَضَاء، فَلَمَّا تولى المستنجد حبس الْقُضَاة وَهُوَ مِنْهُم؛ فَأَقَامَ فِي الْحَبْس إحدى عشرَة سنة، فَكتب فِيهِ ثَمَانِينَ مجلدا.

وَشرح الفصيح، وَجمع كتابا سَمَّاهُ أسرار الْحُرُوف. ثمَّ لما ولي المستضيء أفرج عَن المحبوسين، وَأعَاد عَلَيْهِم مرتباتهم» (١٢٠٢)

وقال اللكنوى في ترجمة السرخسي محمد بن أحمد بن أبي سهل:

«أملى المبسوط نحو خمس عشرة مجلداً وهو في السجن بأوزجند كان محبوساً في الجب بسبب كلمة نصح بها الخاقان وكان يملى من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجب وأصحابه في أعلى الجب وقال عند فراغه من شرح العبادات هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعانى وأوجز العبارات إملاء المحبوس عن الجمع والجماعات

وقال في آخر شرح الإقرار انتهى. شرح الإقرار المشتمل من المعانى على ما هو من الأسرار إملاء المحبوس فى محبس الأشرار وله كتاب في أصول الفقه وشرح السير الكبير أملاه وهو في الجب ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج

(١٢٠٢) «بغية الوعاة» (١/ ٣٤٨).

فأطلق فخرج في آخر عمره إلى فرغانة فأنزله الأمير حسن بمنزله ووصل إليه الطلبة فأكمل الإملاء» (١٢٠٣)

وقال الزركلي في ترجمة ابن قاضي سِماوْنَة محمود بن إسرائيل بن عبد العزيز، بدر الدين:

فقيه حنفي متصوف، من القضاة. كان أبوه قاضيا بقلعة سماونة (في سنجق كوتاهية، بتركيا) فولد وتعلم بها، ورحل إلى قونية ثم إلى مصر. وحج وتصوف. ورحل إلى تبريز مرشدا، فأكرمه فيها الأمير تيمورخان.

وعاد إلى مصر، فبلاد الروم. واستقر في أدرنة، وكان بها والداه، فنصب قاضيا للعسكر.

وحبس في وشاية، ففر، وصار إلى (زغرة) من ولاية (روم ايلي) فاتهم بأنه يريد السلطنة، فأخذ وقتل بسيروز. له كتب، منها (لطائف الإشارات) في فقه الحنفية، ألفه ثم شرحه بكتاب سماه (التسهيل) وهو سجين في أزنيق مخطوط، موجود» (١٢٠٤)

وقال ابن عبد الملك في ترجمة عبد الملِك بن غُصْن الخُشَنِيّ، أبي مَرْوان:

رَوى عن القاضي أبي وليد يونُسَ بن عبد الله بن مُغِيث. وكان فقيهًا حافظًا، أديبًا

(١٢٠٣) «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص١٥٨).

(١٢٠٤) «الأعلام للزركلي» (٧/ ١٦٥).

شاعرًا كاتبًا، وامتُحِن من قِبَل المأمون بن ذي النُّون فاعتَقَلَه بسِجن وَبَّذَة وجماعةً معَه مُدّة، وبه ألَّف كتابَه المسَمَّى كتابَ: "السِّجن والمسجون والحُزْنِ والمحزون"، وسمّاه أيضًا: "رسالةَ السِّرِّ المكنون في عيونِ الأخبار وتسلية المَحْزون"، وضمَّنه ألفَ بيت من شعرِه، ثُم سُرِّح من سِجنِه فلحِقَ ببَلَنْسِيَةَ وأقام بها أشهُرًا، ثم انتقَلَ إلى قُرطُبة فاستقَرَّ بها وقتًا، ثم انصَرفَ إلى غَرْناطةَ، وتوفِّي بها سنةَ أربع وخمسينَ وأربع مئة» (١٢٠٥)

وقال ابن سعيد المغربي في ترجمة الطَّبِيب الفيلسوف أَبي الصَّلْت أُميَّة بن أبي الصَّلْت الإشبيلي:

يُقَال إِن عمره كَانَ ستّينَ سنة عشرُون فِي إشبيلية وَعِشْرُونَ فِي المهدية وَعِشْرُونَ فِي مصر مَحْبُوسًا فِي خزانَة الْكتب

وَمن الحريدة كَانَ وَاحد زَمَانه وَأفضل أَوَانه متبحراً فِي الْعلم منشئاً للمنثور والمنظوم وَله الباع الطَّوِيل فِي الْأُصُول والتصانيف الْحَسَنَة مِنْهَا كتاب الحديقة على أسلوب كتاب الْيَتِيمَة وَتُوفِّي سنة سِتّ وَأَرْبَعين وَخَمْسمِائَة فِي الْمحرم وَأحسن مَا وقفت عَلَيْهِ فِي ديوانه قَوْله:

لَا غرو أَن سبقت يداك مدائحي وتدفقت جدواك ملْء إنائها
يكسي الْقَضِيب وَلم يحن إثمـاره وتطوق الورقاء قبـل غنائها

وَقَوله:

تخذوا القنا أشطانهم واستنبطوا فِي كل قلب للطعان قليبا

(١٢٠٥) «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» (٣/ ٢٤).

تُعْطى الَّذِي اعطكته سمر القنا أبدا فتغدو سالباً مسلوبا

وَكَانَ قد خرج من إشبيلية فصحب بالمهدية مُلُوكهَا الصنهاجيين وَتوجه فِي رِسَالَة إِلَى مصر فسجن فِي الْقَاهِرَة فِي خزانَة البنود وَكَانَ فِيهَا خَزَائِن من أَصْنَاف الْكتب فَأَقَامَ بهَا نَحْو عشْرين سنة فَخرج مِنْهَا وَقد برع فِي عُلُوم كَثِيرَة من حَدِيثَة وقديمة وصنف كتاب الحديقة على منزع كتاب الْيَتِيمَة فِي فضلاء عصره وصنف الرسَالَة المصرية وصنف فِي الطِّبّ والتنجيم والألحان» (١٢٠٦)

وقال الحميدي في ترجمة يوسف بن هارون الكندي أبي عمر يعرف بالرمادي:

"أظن أحد آبائه كان من رمادة موضع بالمغرب شاعر قرطبي، كثير الشعر، سريع القول، مشهور عند العامة والخاصة هنالك، لسلوكه في فنون من المنظوم، ونفق عند الكل حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون: فتح الشعر بكندة، وختم بكندة، يعنون امرأ القيس، والمتنبي، ويوسف بن هارون، وكانا متعاصرين واستدللت على ذلك بمدحه أبا علي إسماعيل بن القاسم عند دخوله الأندلس بالقصيدة التي أنشدناها عنه الحاكم أبو بكر مصعب بن عبد الله الأزدي وأولها:

من حاكم بيني وبين عذولي الشجو شجو والعويل عويلي

وقال أبو عمر يوسف بن هارون: خرجت يوماً إثر صلاة الجمعة، فتجاوزت نهر قرطبة متفرجاً إلى رياض بني مروان، فإذا جارية لم أر أجمل منها، فسلمت عليها، فردت، ثم حادثتها، فرأيت أدباً بارعاً، فأخذت بمجامع قلبي، فقلت لها: سألتك بالله أحرة أم أمة؟ فقالت: بل أمة. فقلت: ما اسمك بالله؟ قالت: خلوة. فلما قرب وقت

(١٢٠٦) «المغرب في حلى المغرب» (١/ ٢٦١).

صلاة العصر انصرفت، فجعلت أقفو أثرها، فلما بلغت القنطرة قالت: إما أن تتأخر، وإما أن تتقدم، فلست والله أخطو خطوة وأنت معي، فقلت لها: أهذا آخر العهد بك؟ قالت: لا. فقلت لها فمتى اللقاء؟ قالت: كل يوم جمعة في هذا الوقت في هذا المكان، قلت لها: فما تمنك إن باعك من أنت له؟ قالت: ثلاث مائة دينار. قال: فخرجت جمعة أخرى فوجدتها على العادة الأولى، فزاد كلفي بها، ورحلت إلى عبد الرحمن بن محمد التجيبي صاحب سرقسطة ومدحته بالقصيدة الميمية المشهورة فيه، وذكرت في تشبيها خلوة، وحدثته مع ذلك بحديثي، فوصلني بثلاث مائة دينار ذهباً ثمنها، سوى مازودني عن نفقة الطريق مقبلاً وراجعا، وعدت إلى قرطبة فلزمت الرياض جمعا لا ارى لها أثراً، وقد انطبقت سمائي على أرضي، وضاق صدري إلى أن دعاني يوماً رجل من إخواني فدخلت إلى داره، وأجلسني في صدر مجلسه ثم قام لبعض شأنه، فلم أشعر إلا بالستارة المقابلة لي قد رفعت وإذا بها، فقلت خلوة؟ فقالت: نعم. قلت لأبي فلان أنت مملوكة؟ قالت: لا والله، ولكني أخته، قال: فكأن الله تعالى محا حبها من قلبي، وقمت من فوري اعتذرت إلى صاحب المنزل يعارض طرقني وانصرفت، وهذه القصدية طويلة أنشدناها أبو بكر بن الفرضي. قال: أنشدناها يوسف بن هارون لنفسه في جملة سبع قصائد له أنشدنا إياها وأولها:

قفوا تشهدوا بثي وانكار لآئمي ... على بكائي في الرسوم الطواسم
أيأمن أن يعدو حريق تنفسي ... وإلا غريقاً في الدموع السواجم
خذوا رأيه إن كان يتبع كل من ... ينوح على ألافه بالملاوم
فهذا حمام الأيك يبكي هديله ... بكائي فليفرع للوم الحمائم
وما هي إلا فرقة تبعث الأسى ... إذا نزلت بالناس أو بالبهائم

خلا ناظري من نومه بعد خلوة متى كان مني النوم ضربة لازم

وعمل في السجن كتاباً سماه:

كتاب الطير في أجزاء، وكله من شعره، وصف فيه كل طائر معروف، وذكر خواصه وذيل كل قطعة يمدح ولي العهد هشام بن الحكم، مستشفعاً به إلى أبيه في إطلاقه،

وهو كتاب مليح سبق إليه، وقد رأيت النسخة المرفوعة بخطة ونسخت منها " (١٢٠٧)

وقال ابن عبد الهادي عن ابن تيمية:

«وللشيخ رَحمَه الله من المصنفات والفتاوى وَالْقَوَاعِد والأجوبة والرسائل وَغير ذَلِك من الْفَوَائِد مَالا يَنْضَبِط وَلَا أعلم أحدا من مُتَقَدّمي الْأمة وَلَا متأخريها جمع مثل مَا جمع وَلَا صنف نَحْو مَا صنف وَلَا قَرِيبا من ذَلِك مَعَ أَن أَكثر تصانيفه إِنَّمَا أملاها من حفظه وَكثير مِنْهَا صنفه فِي الْحَبْس وَلَيْسَ عِنْده مَا يحْتَاج إِلَيْهِ من الْكتب» (١٢٠٨)

وأصابت الحمى مالك ابن الريب فقال قصيدته الرائعة التي يرثي فيها نفسه فقال:

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلةً بجنب الغضَى أزجي القِلاصَ النواجيا

(١٢٠٧) «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس» (ص٣٦٩).

(١٢٠٨) «العقود الدرية في مناقب ابن تيمية» (ص٤٢ ت الفقي).

فَليتَ الغضى لم يقطع الركبُ عرْضَه ... وليت الغضى ماشى الرِّكاب لياليا
لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى ... مزارٌ ولكنَّ الغضى ليس دانيا
ألم ترَني بِعتُ الضلالةَ بالهدى ... وأصبحتُ في جيش ابن عفّانَ غازيا
دعاني الهوى من أهل أُودَ وصُحبتي ... بذي الطِّبَّسَيْنِ فالتفتُّ ورائيا
أجبتُ الهوى لمّا دعاني بزفرةٍ ... تقنَّعتُ منها أن أُلامَ ردائيا
أقول وقد حالتْ قُرى الكُردِ بيننا ... جزى اللهُ عمراً خيرَ ما كان جازيا
إنِ اللهُ يُرجعني من الغزو لا أُرى ... وإن قلَّ مالي طالباً ما ورائيا
تقول ابنتيْ لمّا رأت طولَ رحلتي ... سِفارُكَ هذا تاركي لا أبا ليا
لعمريْ لئن غالتْ خراسانُ هامتي ... لقد كنتُ عن بابَي خراسان نائيا
فإن أنجُ من بابَي خراسان لا أعدْ ... إليها وإن منَّيتُموني الأمانيا
فللهِ دَرّي يوم أتركُ طائعاً ... بَنيّ بأعلى الرَّقمتَينِ ومالياً
ودرُّ الظِّباء السانحات عشيةً ... يُخَبِّرنَ أنّي هالك مَنْ ورائيا
ودرُّ كبيريَّ اللذين كلاهما ... عَليَّ شفيقٌ ناصح لو نَهانيا
ودرّ الرجال الشاهدين تَفتُّكي ... بأمريَ ألاّ يَقْصُروا من وَثاقِيا
ودرّ الهوى من حيث يدعو صحابتي ... ودرُّ لجاجاتي ودرّ انتهائيا
تذكّرتُ مَنْ يبكي عليَّ فلم أجدْ ... سوى السيفِ والرمح الرُّدينيّ باكيا
وأشقرَ محبوكاً يجرُّ عِنانه ... إلى الماء لم يترك له الموتُ ساقيا
ولكنْ بأطرف (السُّمَيْنَةِ) نسوةٌ ... عزيزٌ عليهنَّ العشيةَ ما بيا
صريعٌ على أيدي الرجال بقفزة ... يُسوّونَ لحدي حيث حُمَّ قضائيا
ولمّا تراءتْ عند مَروٍ منيتي ... وخلَّ بها جسمي، وحانتْ وفاتيا

أقول لأصحابي ارفعوني فإنّه ... يَقَرَّ بعينيْ أنْ سُهَيْلٌ بَدا لِيا
فيا صاحبَيْ رحلي دنا الموتُ فانزِلا ... برابيةٍ إنّي مقيمٌ لياليا
أقيما عليَّ اليوم أو بعضَ ليلةٍ ... ولا تُعجلاني قد تَبيَّن شانِيا
وقوما إذا ما استلَّ روحي فهيِّئا ... لِيَ السِّدْرَ والأكفانَ ثم أبكيا لِيا
وخُطَّا بأطراف الأسنّة مضجَعي ... وردّا على عينيَّ فَضْلَ رِدائيا
ولا تحسداني بارَكَ اللهُ فيكما ... من الأرض ذات العرض أن تُوسِعا ليا
خذاني فجرّاني ببردي إليكما ... فقد كنتُ قبل اليوم صَعْباً قِياديا
وقد كنتُ عطّافاً إذا الخيل أدبَرتْ ... سريعاً لدى الهيجا إلى مَنْ دعانيا
وقد كنتُ صبّاراً على القِرْنِ في الوغى ... وعن شَتْمَيَ ابنَ العَمِّ وَالجارِ وانيا
فَطَوْراً تَراني في ظِلالٍ ونَعْمَةٍ ... وطوْراً تراني والعِتاقُ رِكابيا
وطورا تراني في رحىً مُستديرةٍ ... تُخرِّقُ أطرافُ الرِّماحِ ثيابيا
وقوماً على بئر الشبيكي فأسمِعا ... بها الغُرَّ والبيضَ الحِسانَ الرَّوانيا
بأنّكما خلفتُماني بقَفْرةٍ ... تَهِيلُ عليّ الريحُ فيها السّوافيا
ولا تَنْسَيا عهدي خليليَّ بعد ما ... تَقَطَّعُ أوصالي وتَبلى عِظاميا
ولن يَعدَمَ الوالُونَ بَثّاً يُصيبهم ... ولن يَعدم الميراثُ مِنّي الموالِيا
يقولون: لا تَبْعَدْ وهم يَدْفِنونني ... وأينَ مكانُ البُعدِ إلا مَكانيا
غداةَ غدٍ يا لَهْفَ نفسي على غدٍ ... إذا أدْلجُوا عنّي وأصبحتُ ثاويا
وأصبح مالي من طَريفٍ وتالدٍ ... لغيري، وكان المالُ بالأمس ماليا
فيا ليتَ شِعري هل تغيَّرتِ الرَّحا ... رحا المِثْلِ أو أمستْ بَفَلْوجٍ كما هيا
إذا الحيُّ حَلوها جميعاً وأنزلوا ... بها بَقَراً حُمّ العيونَ سواجيا

رَعَينَ وقد كادَ الظلام يُجِنُّها ... يَسُفْنَ الخُزامى مَرةً والأقاحيا
وهل أترُكُ العِيسَ العَواليَ بالضُّحى ... بِرُكبانِها تعلو المتانَ الفيافيا
إذا عُصَبُ الرُّكبانِ بينَ (عُنَيْزَةٍ) ... و(بَوَلانَ) عاجوا المُبقياتِ النَّواجِيا
فيا ليتَ شعري هل بكتْ أمُّ مالكٍ ... كما كنتُ لو عالَوا نَعِيَّكِ باكِيا
إذا مُتُّ فاعتادي القبورَ وسلِّمي ... على الرمسِ أُسقيتِ السحابَ الغَواديا
تري جَدَثٍ قد جرّتِ الريحُ فوقه ... تُراباً كسَحْقِ المَرْنَبانيِّ هابيا
رَهينة أحجارٍ وتُرْبٍ تَضَمَّنتْ ... قرارتُها منّي العِظامَ البَواليا
فيا صاحبا إما عرضتَ فبلِغاً ... بني مازن والرَّيب أن لا تلاقيا
وعرِّ قَلوصي في الرِّكاب فإنها ... سَتَفلِقُ أكباداً وتُبكي بواكيا
اقلبُ طرفي حول رحلي فلا أرى ... به من عيون المُؤنساتِ مُراعيا
وبالرمل منّا نسوة لو شَهِدْنَني ... بَكينَ وفَدَّين الطبيبَ المُداويا
فمنهنّ أمي وابنتايَ وخالتي ... وباكيةٌ أخرى تَهيجُ البواكيا
وما كان عهد الرمل مني وأهله ... ذميماً ولا بالرمل ودعت قالي

ومات أبناء أبي ذؤيب الهذلي فرثاهم بالعائية التي أنصت لها الدهر وصفق لها التاريخ.

فقال في مطلعها بعد مهلك بنيه السبعة يرثيهم:

أَمِنَ المَنونِ وَريبِها تَتَوَجَّعُ ... وَالدَهرُ لَيسَ بِمُعتِبٍ مَن يَجزَعُ
قالَت أُمَيمَةُ ما لِجِسمِكَ شاحِباً ... مُنذُ اِبتَذَلتَ وَمِثلُ مالِكَ يَنفَعُ
أَم ما لِجَنبِكَ لا يُلائِمُ مَضجَعاً ... إِلّا أَقَضَّ عَلَيكَ ذاكَ المَضجَعُ

فَأَجَبتُها أَن ما لِجِسمِيَ أَنَّهُ ... أَودى بَنِيَّ مِنَ البِلادِ فَوَدَّعوا
أَودى بَنِيَّ وَأَعقَبوني غُصَّةً ... بَعدَ الرُقادِ وَعَبرَةً لا تُقلِعُ
فَغَبَرتُ بَعدَهُمُ بِعَيشٍ ناصِبٍ ... وَأَخالُ أَنّي لاحِقٌ مُستَتبَعُ
وَلَقَد حَرِصتُ بِأَن أُدافِعَ عَنهُمُ ... عَنهُم فَإِذا المَنِيَّةُ أَقبَلَت لا تُدفَعُ
وَإِذا المَنِيَّةُ أَنشَبَت أَظفارَها ... أَلفَيتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ
فَالعَينُ بَعدَهُمُ كَأَنَّ حِداقَها ... سُمِلَت بِشَوكٍ فَهِيَ عورٌ تَدمَعُ
حَتّى كَأَنّي لِلحَوادِثِ مَروَةٌ ... بِصَفا المُشَرَّقِ كُلَّ يَومٍ تُقرَعُ
لا بُدَّ مِن تَلَفٍ مُقيمٍ فَانتَظِر ... أَبِأَرضِ قَومِكَ أَم بِأُخرى المَصرَعُ
وَلَقَد أَرى أَنَّ البُكاءَ سَفاهَةٌ ... وَلَسَوفَ يولَعُ بِالبُكا مَن يَفجَعُ
وَلَيَأتِيَنَّ عَلَيكَ يَومٌ مَرَّةً ... يُبكى عَلَيكَ مُقَنَّعاً لا تَسمَعُ
وَتَجَلَّدي لِلشامِتينَ أُريهِمُ ... أَنّي لَرَيبِ الدَهرِ لا أَتَضَعضَعُ
وَالنَفسُ راغِبَةٌ إِذا رَغَّبتَها ... فَإِذا تُرَدُّ إِلى قَليلٍ تَقنَعُ
كَم مِن جَميعِ الشَملِ مُلتَئِمٍ باتوا ... بِعَيشٍ ناعِمٍ فَتَصَدَّعوا
فَلَئِن بِهِم فَجَعَ الزَمانُ وَرَيبُهُ ... إِنّي بِأَهلِ مَوَدَّتي لَمُفَجَّعُ
وَالدَّهرُ لا يبقى على حَدَثانِهِ ... شَبَبٌ أَفزَتهُ الكِلابُ مُرَوَّعُ (١٢٠٩)

وقال الرافعي عن الحماسة لأبي تمام:

«ولكن الذي رزق حظ الشهرة في اختياره وجاء بما غطى على من سبقه، أبو

(١٢٠٩) «الاختيارين المفضليات والأصمعيات» (ص٦٢٠).

تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣١هـ فيما جمعه من كتاب "الحماسة" الشهير الذي قالوا إنه في اختياره أشعر منه في شعره، وتأويل ذلك ما قدمناه من معنى إصابة الاختيار، قالوا: وسبب جمعه أنه قصد عبد الله بن طاهر وهو بخراسان فمدحه فأجازه، وعاد يريد العراق، فلما دخل همذان اغتم أبو الوفاء بن سلم فأنزله وأكرمه، وأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق، فغم ذلك أبا تمام وسر أبا الوفاء، فأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها، وصنف خمسة كتب في الشعر، منها كتاب "الحماسة"، و"الوحشيات"، و"فحول الشعراء"، و"مختار شعراء القبائل" "الخزانة" فبقي "الحماسة" في خزائن آل سلم يضنون به، حتى تغيرت أحوالهم وورد أبو العواذل همذان من دينور فظفر به وحمله إلى أصبهان، فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه مما هو في معناه من الكتب، ثم شاع حتى ملأ الدنيا» (١٢١٠)

وقال الشيخ الإمام ناصر الدين الألباني:

«قدّر على أن أسجن في عام ١٣٨٩هـ الموافق لسنة ١٩٦٩م مع عدد من العلماء من غير جريرة اقترفناها سوى الدعوة إلى الإسلام وتعليمه للناس، فأُساقُ إلى سجن القلعة وغيره في دمشق، ثم يُفرج عني بعد مدة لأساق مرة ثانية وأنفى إلى الجزيرة، لأقضي في سجنها بضعة أشهر، أحتسبها في سبيل الله عز وجل.

وقد قدر الله ألا يكون معي فيه إلا كتابي المحبب: "صحيح الإمام مسلم"، وقلم رصاص وممحاة، وهناك عكفت على تحقيق أمنيتي، في اختصاره وتهذيبه وفرغت من ذلك في نحو ثلاثة أشهر، كنت أعمل فيه ليل نهار، ودون كلل ولا ملل،

(١٢١٠) «تاريخ آداب العرب» (٣/ ٢٢٨).

وبذلك انقلب ما أراده أعداء الأمة انتقاماً منا إلى نعمة لنا، يتفيأ ظلالها طلاب العلم من المسلمين في كل مكان، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» (١٢١١)

وقَالَ الْحَافِظ زكي الدّين عبد الْعَظِيم:

«وَقد تمّ مَا أرادنا الله بِهِ من هَذَا الْإِمْلَاء الْمُبَارك ونستغفر الله سُبْحَانَهُ مِمَّا زل بِهِ اللِّسَان أَو دَاخله ذُهُول أَو غلب عَلَيْهِ نِسْيَان فَإِن كل مُصَنف مَعَ التؤدة والتأني وإمعان النّظر وَطول الْفِكر قل أَن يَنْفَكّ عَن شَيْء من ذَلِك فَكيف بالمملى مَعَ ضيق وقته وترادف همومه واشتغال باله وغربة وَطنه وغيبة كتبه» (١٢١٢)

وقال ابن حزم:

" وما ألفنا كتابنا هذا وكثيرا مما ألفنا إلا ونحن مغربون مبعدون عن الموطن والأهل والولد مخافون مع ذلك في أنفسنا ظلما وعدوانا "» (١٢١٣)

وقال السيوطي في ترجمة أَحْمد بن عَليّ بن هبة الله بن الْحسن بن عَليّ الزَّوَال - وَأَصله الزول فغيروه، وَمَعْنَاهُ الرجل الشجاع - ابْن مُحَمَّد بن يَعْقُوب بن الْحُسَيْن بن عبد الله الْمَأْمُون بن الرشيد القَاضِي الْمَعْرُوف بِابْن الْمَأْمُون.

(١٢١١) «مختصر صحيح الإمام البخاري» (١/ ٨).
(١٢١٢) «الترغيب والترهيب - ط العلمية» (٤/ ٣١٨).
(١٢١٣) «التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية» (ص٣).

قَالَ ياقوت: قَرَأَ اللُّغَة والنحو على أبي مَنْصُور الجواليقي، وَكتب الْخط الْمليح، وَولي الْقَضَاء، فَلَمَّا تولى المستنجد حبس الْقُضَاة وَهُوَ مِنْهُم؛ فَأَقَامَ فِي الْحَبْس إحدى عشرَة سنة، فَكتب فِيهِ ثَمَانِينَ مجلداً. وَشرح الفصيح، وَجمع كتابا سَمَّاهُ أسرار الْحُرُوف. ثمَّ لما ولي المستضيء أفرج عَن المحبوسين، وَأعَاد عَلَيْهِم مرتباتهم. (١٢١٤)

وقال محمد ابن الشيخ السعدي:

"ومن الأشياء التي تذكر في هذا الموضوع أن الأطباء طلبوا إلى الوالد وهو في فترة العلاج عدم القراءة أو الكتابة؛ لأن ذلك يتطلب إشغال الفكر وبذل الجهد، وهذا يؤثر على صحته ويؤخر شفاءه من المرض ولما كان الوالد في المستشفى اطلعت في إحدى المكتبات على كتاب بعنوان "دع القلق وابدأ الحياة" للمؤلف الأمريكي "دايل كارنيجي"، وهو مدير معهد تدريب بأمريكا، فأعجبت به فقررت شراءه وإهداءه للوالد، فقرأ الكتاب كاملاً وأعجب به أيضًا وبمؤلفه وقال: إنه رجل منصف.

وكان للوالد صديق عزيز عليه من أهل عنيزة وهو يعاني من مرض نفسي، وله سنتين في بيروت يعالج من هذا المرض ولم تتحسن صحته، فقام الوالد وأهدى له هذا الكتاب "دع القلق وابدأ الحياة"، وقال له: اقرأ الكتاب فهو مفيد جدًّا.

ومن العجيب أن هذا الصديق بعدما قرأ الكتاب تأثر بما فيه وتحسنت صحته وذهب ما به من عوارض صحية، وطاب من مرضه الذي يعاني منه. وقد أمرني الوالد بشراء نسخة ثانية من هذا الكتاب لكي يودعه في مكتبة عنيزة التي أنشأها

(١٢١٤) «بغية الوعاة» (١/ ٣٤٨).

رحمه الله، فقمت بشراء الكتاب وأعطيته للوالد، ولما رجع الوالد وضع الكتاب في المكتبة، وتمت إعارته إلى كثير من طلبة الوالد المشهورين.

أرسل الوالد أبو عبود إلى سوق عالية وقال له: اشتر أوراقًا وأقلامًا. وكان في نية الوالد تأليف رسالة على ضوء كتاب "دع القلق وابدأ الحياة"، وهي صغيرة الحجم كبيرة المعنى عظيمة النفع، وقد سماها "الوسائل المفيدة للحياة السعيدة"، وهي تهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان بالطرق الشرعية، وعلاج الاكتئاب والأمراض النفسية المختلفة، ولله الحمد والمنة، فقد طبع من هذه الرسالة في حياته وبعد مماته عشرات الطبعات لم نتمكن من حصر مجموعها، وقد وصل عدد المطبوع منها في واحدة من الطبعات أكثر من خمسين ألف نسخة وزعت بالمجان عن طريق جمعيات سعودية تعنى بالطب النفسي، ولا زال الطلب عليها متكررا من داخل المملكة وخارجها، وقد اشتهرت هذه الرسالة وذاع صيتها، وهذا والله أعلم من حسن قصد مؤلفها رحمه الله. (١٢١٥)

وأملى الإمام السّرخسىّ «المبسوط» نحو خمسة عشر مجلّدا، وهو فى السجن بأوزجند محبوس، وعن أسباب الخلاص فى الدنيا مأيوس

وقال فى «المبسوط». عند فراغه من شرح العبادات: هذا آخر شرح العبادات، بأوضح المعانى وأوجز العبارات، أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات.

وقال فى آخر كتاب الطلاق:

(١٢١٥) "مواقف من حياة الشيخ الوالد عبد الرحمن بن ناصر السعدي"(ص-١٢٩).

هذا آخر كتاب الطّلاق، المؤثر من المعانى الدّقاق، أملاه المحبوس عن الانطلاق، المبتلى بوحشة الفراق، مصلّيا على صاحب البراق، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أهل الخير والسّباق، صلاة تتضاعف وتدوم إلى يوم التّلاق، كتبه العبد البريء عن النّفاق.

وقال فى آخر كتاب العتاق:

انتهى شرح العتاق، من مسائل الخلاف والوفاق، أملاه المستقبل للمحن بالاعتناق، المحصور فى طرف من الآفاق، حامدا للمهيمن الرزّاق، ومصلّيا على حبيب الخلّاق، ومن يحنّ إلى لقائه بالأشواق، وعلى آله وصحبه خير الصّحب والرّفاق.

وقال فى آخر شرح الإقرار:

انتهى شرح كتاب الإقرار، المشتمل من المعانى على ما هو سرّ الأسرار، أملاه المحبوس فى موضع الأشرار، مصلّيا على النّبيّ المختار» (١٢١٦)

(١٢١٦) «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (٣/ ٧٩ ت الحلو).

الخاتمة أسأل الله حسنها

أقول فيها لإخواني بركة العلم العمل به وقديماً قال أَحْمَدُ بْنُ عَطَاءٍ الرُّوذَبَارِيّ:

" مَنْ خَرَجَ إِلَى الْعِلْمِ يُرِيدُ الْعِلْمَ، لَمْ يَنْفَعْهُ الْعِلْمُ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى الْعِلْمِ يُرِيدُ الْعَمَلَ بِالْعِلْمِ، نَفَعَهُ قَلِيلُ الْعِلْمِ " قَالَ: وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: " الْعِلْمُ مَوْقُوفٌ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ، وَالْعَمَلُ مَوْقُوفٌ عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ يُورِثُ الْفَهْمَ عَنِ اللَّهِ عز وجل "» (١٢١٧)

وقَالَ أَبُو حَازِمٍ:

إِذَا كُنْتَ فِي زَمَانٍ يُرْضَى فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْقَوْلِ، وَمِنَ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ؛ فَأَنْتَ فِي شَرِّ زَمَانٍ وَشَرِّ أُنَاسٍ» (١٢١٨)

وقال ابن أبي الحواريّ:

ذكرت لأبي سليمان امرأتي والشغل بها، فقال: إن علم الله من قلبك أنك تريد الفراغ له فرّغك، وإن كنت إنما تريد الراحة منها لتستبدل بها، فهذه حماقة. قال: ورأيته حين أراد الإحرام فلم يلبّ حتى سرنا مليّا وأخذه كالغشي وجعل رأسه عند

(١٢١٧) «الزهد والرقائق للخطيب البغدادي» (ص٧١).

(١٢١٨) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٣٣٨).

ركبته فجعل محمله يخفّ ومحملي يثقل حتى سرنا هويّا، ثم أفاق فقال: يا أحمد، بلغني أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام «يا موسى مر ظلمة بني إسرائيل أن يقلّوا من ذكري، فإني أذكر من ذكرني منهم بلعنة حتى يسكت».

ويحك يا أحمد بلغني أنه من حجّ من غير حلّه ثم لبّى، قال له تبارك وتعالى: لا لبّيك ولا سعديك حتى تردّ ما في يديك، فما يؤمّننا أن يقال لنا ذلك" (١٢١٩)

وقال يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ:

قُلْتُ لِذِي النُّونِ فِي وَقْتِ مُفَارَقَتِي لَهُ: مَنْ أُجَالِسُ؟ فَقَالَ: " عَلَيْكَ بِمُجَالَسَةِ مَنْ يُذَكِّرُكَ اللَّهَ رُؤْيَتُهُ، وَتَقَعُ هَيْبَتُهُ عَلَى بَاطِنِكَ، وَيَزِيدُ فِي عِلْمِكَ مَنْطِقُهُ، وَيُزَهِّدُكَ فِي الدُّنْيَا عَمَلُهُ، وَلَا تَعْصِي اللَّهَ تَعَالَى مَا دُمْتَ فِي قُرْبِهِ، يَعِظُكَ بِلِسَانِ فِعْلِهِ، وَلَا يَعِظُكَ بِلِسَانِ قَوْلِهِ "» (١٢٢٠)

وقال ابن الجوزى:

«وإياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به؛ فإن الداخلين على الأمراء، المقبلين على أهل الدنيا قد أعرضوا عن العمل بالعلم، فمنعوا البركة، والنفع به» (١٢٢١)

(١٢١٩) «عيون الأخبار» (٢/ ٣٩١).

(١٢٢٠) «الزهد والرقائق للخطيب البغدادي» (ص٧١).

(١٢٢١) «صيد الخاطر» (ص٥١٢).

وابتهل إلى الله قائلاً ما قاله ابن الجوزى:

إلهِي لا تعذب لسانا يخبر عنك، ولا عينا تنظر إلى علوم تدل عليك ولا قدما تمشي إلى خدمتك ولا يدا تكتب حديث رسولك. فبعزتك لا تدخلني النار فقد علم أهلها أني كنت أذبّ عن دينك» (١٢٢٢)

«ولقد جلست يومًا، فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف، ما فيهم إلا من قد رق قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسي: كيف بك إن نجوا وهلكت؟! فصحت بلسان وجدي: إلهي وسيدي! إن قضيت على بالعذاب غدًا، فلا تعلمهم بعذابي، صيانة لكرمك، لا لأجلي، لئلا يقولوا: عذب من دل عليه.

إلهي! قد قيل لنبيك ﷺ: اقتل ابن أُبَيٍّ المنافق! فقال: "لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه"

إلهي! فاحفظ حسن عقائدهم في بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك. حاشاك والله يا رب من تكدير الصافي.

لا تبر عودًا أنت ريشته حاشا لباني الجود أن ينقضا

لا تعطش الزرع الذي نبته بصوب إنعامك قد روضا (١٢٢٣)

(١٢٢٢) "ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٢/ ٤٩٩ ت العثيمين).

(١٢٢٣) «صيد الخاطر» (ص٢٤٩).

وأختم بحثي هذا بما قاله أبو العتاهية وهو آخر شعر قاله وهو على فراش الموت:

إلَهِي لا تُعَذِّبْنـــــي فَإنّي ... مُقِـــــرٌّ بالذّي قَدْ كانَ مِنّي
وَمَا لِي حِـيْلَةٌ إلا رَجَـائِي ... وَعَفْوكَ إنْ عَفَوْتَ، وَحُسْنُ ظَنِي
فَكَمْ مِنْ زَلّةٍ لِي في البَرايَـا ... وأَنْتَ عَلَيّ ذُو فَضْـــــلٍ وَمَنِّ
يَظُنُّ النّاسُ بِي خَيْرًا، وإنّيْ ... لَشَـــــرُّ النّاسِ إنْ لم تَعْفُ عَنِي
أُجَنُّ بِزهْرَةِ الدّنْيَـا جُنُـونًا ... وَأُفنِي العُمْـــــــرَ فيها بالتَّمَنِي
وَبَيْنَ يَدَيَّ مُحْتَبَـــسٌ ثَقِيلٌ ... كأَنّي قد دُعِيْـــــــتُ لَهُ كَأَنّي
وَلَوْ أَنّي صَدَقْتُ الزُّهْدَ فيها ... قَلَبْتُ لأَهْلِـــــــهَا ظَهْرَ المِجَنِّ

يظنُّ الناسُ بِي خيرا وَإِنّي ... لَشَرُّ النَّـــــاس إن لم تعـف عني

والحمد لله أولا وآخرا ظاهراً وباطناً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، ورضي الله عن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكان الفراغ من مراجعته ظهر السبت الثالث من شهر جمادى الآخرة لعام خمس وأربعين وأربعمائة وألف من هجرة سيد ولد آدم ﷺ

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

أبو حفص المصري الأثري

(عفا الله عنه)

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
الترحيب بطالب العلم	١٥
شرف الطلب.	٢٣
شرف الأدب	٣١
الإخلاص.	٥١
العمل بالعلم.	٨٥
الجد والاجتهاد في تحصيل العلم.	٩٥
الصبر على مشقة طلب العلم، والحرص عليه.	١٤١
الرحلة في طلب العلم.	١٨٣
التحلي بالأدب.	٢٢٩
اغتنام الصغر والصبا والشباب.	٢٦١
اغتنام الأوقات.	٢٧٥
إتقان الحفظ.	٢٩٩
تقييد العلم بالكتابة.	٣٦٩
عشق الدفاتر والنهم بها.	٣٧٧
إعارة الكتب.	٤٦١
التواضع وخفض الجناح.	٤٧٩
التلقي عن الأشياخ.	٤٨٩

توقير الشيخ.	٤٩٥
التدرج في الطلب.	٥١٧
نشر العلم بالدعوة والتصنيف والمناظرة.	٥٢٥
الورع والفهم في العلم.	٥٥٩
المباحثة والمذاكرة.	٥٦٩
عزة النفس.	٦٢٧
اغتنام المحن.	٦٣٧
الخاتمة	٦٥٢
الفهرس	٦٥٦

مؤلفاتي المطبوعة

١	إتحاف الأنام بتحقيق تفسير ابن عبد السلام	٢ مجلد
٢	إتحاف الفضلاء بآداب عشرة النساء	جزء
٣	إتحاف المؤمنين بمختصر منهاج القاصدين	١ مجلد
٤	تحقيق الإرشاد الى صحيح الاعتقاد	١ مجلد
٥	الروح الذكية بتحقيق التدمرية	جزء
٦	المعلم لصفات الألباني على المعجم	جزء
٧	تحقيق الناسخ والمنسوخ لابن العربي	١ مجلد
٨	الهداية بتخريج الإبانة في أصول الديانة	جزء
٩	الهدي النبوي الصحيح في الصيام والتراويح	جزء
١٠	صحيح القصص النبوي ج١	جزء
١١	صحيح القصص النبوي ج٢	جزء
١٢	هداية الناسك إلى أصول المناسك	جزء

١٣	إحسان الباري إلى ثلاثيات البخاري	جزء
١٤	إذكاء النفس بمعرفة الضروريات الخمس	جزء
١٥	إزالة الباس عن هموم الناس بأخذ العبر في قصص من غبر١	جزء
١٦	إزالة الباس عن هموم الناس بأخذ العبر في قصص من غبر٢	جزء
١٧	إزالة الباس عن هموم الناس بأخذ العبر في قصص من غبر٣	جزء
١٨	تحقيق عدة الصابرين	المجلد
١٩	الباعث الحثيث بآداب طالب الحديث	جزء
٢٠	التيسير لأصول علم التفسير	جزء
٢١	الثمر الداني إلى ثلاثيات الترمذي وابن حميد والطبراني	جزء
٢٢	الدرر البهية بتيسير القواعد الفقهية	جزء
٢٣	الدرر في علم الأثر	جزء
٢٤	السواك بالأراك سنة نبوية	جزء
٢٥	القول الرجيح في شرح غرامي صحيح	جزء
٢٦	المقترح بتيسير علم المصطلح	جزء

٢٧	إماطة اللثام بسيرة شيخنا الإمام الألباني	المجلد
٢٨	بهجة المحافل بمالأعارم النساء من الشمائل	المجلد
٢٩	تبيض الصحيفة المنشورة بالسنن المهجورة	جزء
٣٠	تسلية القوم بآداب الليل والنوم	جزء
٣١	تعمير الجنان بأصول الإيمان	جزء
٣٢	تنوير العقول بتيسير علم الأصول	جزء
٣٣	حسن الصناعة في تسهيل البلاغة	جزء
٣٤	حكم مصافحة الأجنبية؟	جزء
٣٥	عقود الماس والزبرجد بثلاثيات الإمام أحمد	جزء
٣٦	فتح رب البرية بتحقيق شرح العقيدة الطحاوية	المجلد
٣٧	فك المعجم بتيسير علم المعجم	جزء
٣٨	مفتاح الجنة لفقه الكتاب والسنة	جزء
٣٩	تحقيق رياض الصالحين	المجلد
٤٠	كنز العمال في فضائل الاعمال	المجلد

٤١	إتحاف النبراء بتصحيح أذكار الصباح والمساء	جزء
٤٢	الروح والريحان بتيسير أصول الإيمان	٢مجلد
٤٣	تحقيق شرح الأربعين النووية لابن عثيمين	١مجلد
٤٤	إسعاف الرئيث بتسهيل علم المواريث	جزء
٤٥	قيد الأوابد في آداب الطالب من الغرر الفوائد	١مجلد

تحت الطبع إن شاء الله تعالى

١	إزالة الباس عن هموم الناس بأخذ العبر في قصص من غبر	جزء
٢	البدر التمام فيما بين الرجل والمرأة من فروق في الأحكام	٢مجلد
٣	الوصايا قبل المنايا	٢مجلد
٤	مواقف من حياة الرعيل الأول	١مجلد
٥	ري الظمآن في روائع القرآن (الفاتحة)	٢مجلد
٦	الهداية بتسهيل علم الحديث من البداية	٢مجلد
٧	أريج الجنان في تيسير تدبر القرآن	٢مجلد
٨	جمع الأسنة لشرح مفتاح الجنة لفقه الكتاب والسنة	٢مجلد
٩	إسعاف الرئيث بشرح الباعث الحثيث	٢مجلد
١٠	بذل الجهود الرضية في إيضاح المنهج الحديثي لشيخنا الألباني	١مجلد
١١	الخمائل بإتحاف الأماجد بتصحيح السيرة والشمائل	٢مجلد
١٢	المسند المعلل الجامع الباسم لسنة أحمد أبي القاسم	١٠٠مجلد